الأعمال الكاملة

للإمام

الشيخ محمد عبده

تحقيق وتقديم

الدكتور محمد عمارة

الجزء الثالث

الإصلاح الفكري ، والتربوي ، والإلهيات

دار الشروق

الأعمال الكاملة

للإمام

الشيخ محمد عبده

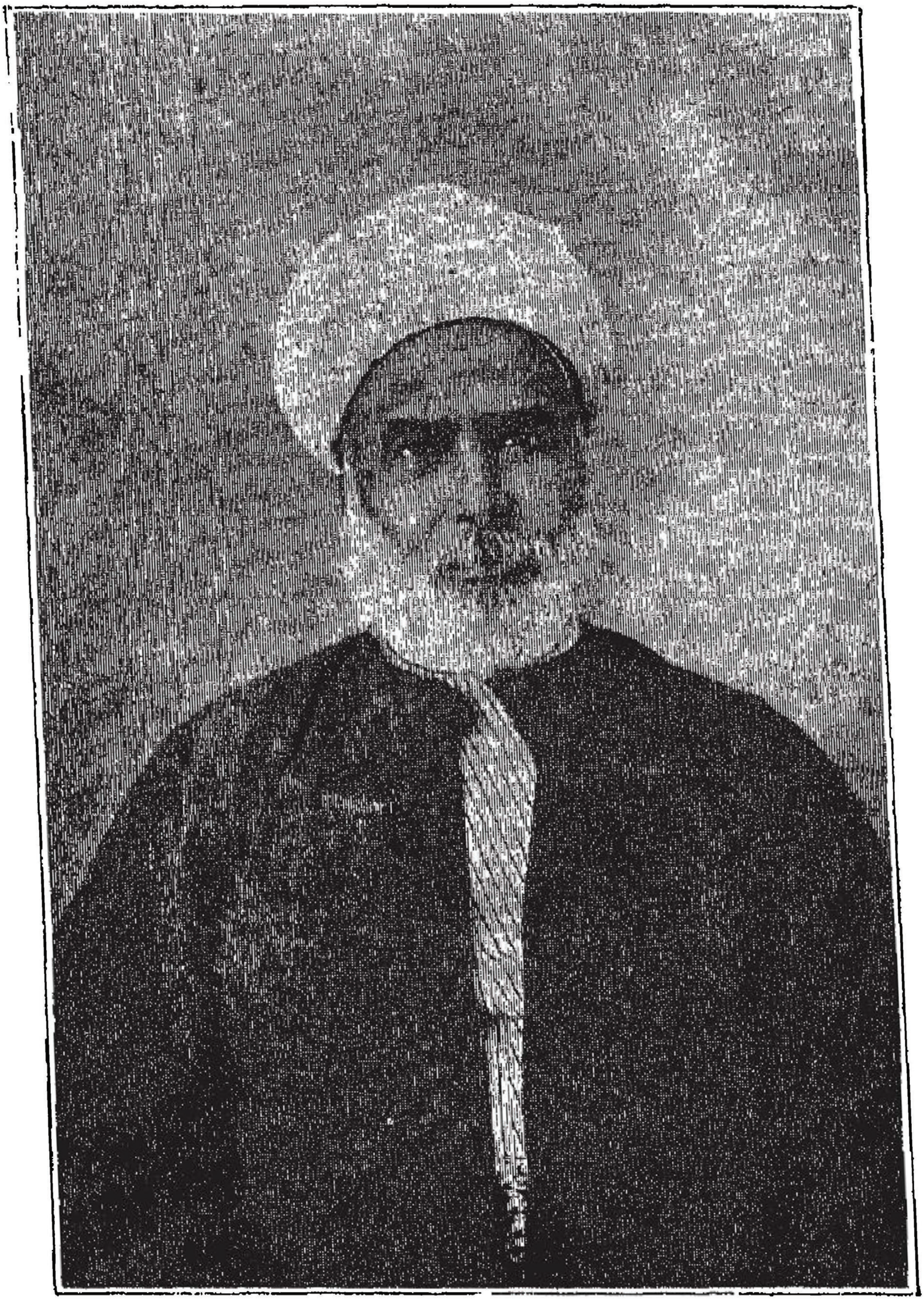
الطبعة الأولى

١٤١٤هـ — ١٩٩٣م

دار الشروق

بيروت: مارالياس - شارع سيدة صيدنايا - بناية صفا
ص.ب: ٨٠٦٤ - برقيا: داشروق - تلكس ٢٠١٧٥ LE
SHOROK - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٨١٧٧٦٥
٨٦٧٥٥٥ - ٣٠٧٩٨٤

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ت: ٣٩٢٩٣٣٣ / ٣٩٣٤٥٧٨
فاكس ٣٩٣٤٨١٤ - تلكس ٩٣٠٩١ SHROK UN
٨ شارع سيبويه المصري - مدينة نصر. ت: ٢٦٢٣٣٩٨
٢٦٢٣٥٤٨ - فاكس ٦١٧٥٦٧



المرحوم الأستاذ الإمام
الشيخ محمد عبده
ولد سنة ١٢٦٦ وتوفي ١٣٢٣ هجرية
(١٨٤٩ ـ ١٩٠٥)

تقريظ الأهرام(١)

إنه لما نظر لدى كل قاص ودان ، واشتهر بين بني نوع الإنسان ، أن مملكة مصر كانت في سالف الزمان مملكة من أشهر الممالك ، وكعبة يؤمها كل سالك وناسك ، إذ كانت قد اختصت بتربية العلوم ، وبث المعارف المتعلقة بالخصوص والعموم ، وانفردت بالبراعة في الصنائع ، والابتكار في أنواع البدائع ، فكان أبناء العالم إذ ذاك ينتدون نداها ، ويستجدون جداها ، يستمطرون من الغيث قطراً ، ويستمدون من المحيط نهراً ، فكان التمدن فيها كهلاً ، حين كان عند غيرها طفلاً ، ولا زالت كذلك حتى زها فيها التمدن وأعجب ، إذ رأى الطالبين تنسل إليه من كل حدب ، وان ملوك الأرض خدام عتبته ، وتيجان الكيانين تحت قبضته ، فاستكبر واعتلا ، ولكؤوس الراحة اجتلا ، فأقصته إلى ممالك الغرب ، ليذوق مرارة الشغب واللغب ، ويتربى بذلك ويتأدب ، فبدا بتلك الممالك غريباً ، ونادى معلماً وجد مجيباً ، وتناوشته أيدي الجاحدين ، ولفحته أقوال المنكرين ، ولا زال يحتمل أنواع المتاعب ، ويقاسي مستعصيات المصاعب ، إلى أن بلغ بها أشده ، وملك رشده ، وسار فيها شرقاً وغرباً ، وخامر ألباب القوم حباً ، فعم انتشاره ، وبدت آثاره وتلألأت أنواره ، وإذ تحلى بحلل

---

(١) الأهرام . العدد الخامس ، السنة الأولى في ٢ سبتمبر سنة ١٨٧٦ (١٤ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ) .
وكان الأستاذ الإمام يومئذ لا يزال طالباً بالأزهر ولقد وجه مقاله هذا «إلى حضرة الهمام الكامل سليم أفندي محرر جريدة الأهرام» .

الجمال ؛ وتتوج بتاج الكمال ، وقضى مدة السياحة ، وباء بغاية الراحة ، استدار الزمان كهيئته ، ورجع الأمر إلى بدايته ، وقفل التمدن إلى مسقط رأسه ومقر تربيته ، فورد ديار مصر ورود الأهلي ، وتمكن بها تمكن الأصلي ، فاستقبلته الديار بغاية المسرة ، وأكرمت مثواه وأعظمت أمره واستردت ما كانت فقدت ، وأدنت ما كانت انأت ، وأحلته محل القرب ، وأنزلته سوداء[1] اللب ، فقام يؤدي حق خدمتها ، ويوفي شكر كرامتها ، فنظر إلى ما كان أبداه في تلك الأزمان ، من شواهق البنيان ، التي كم بلغت الأسباب وحيرت الألباب ، وانبأت بما فيها ، عن براعة بانيها ، ونطقت بفيها ، أن آيات الكمال فيها ، فلما أعجب بالمثال ، حداه حادي الكمال ، لأن ينسج على هذا المنوال ، فأنشأ لنا جريدة الأهرام ، المؤسسة على أحكم قواعد الأحكام ، الكافلة بإرشاد المسترشدين ، وتنبيه الغافلين ، بما فيها من المباني الرقيقة ، والمعاني الدقيقة ، والأفكار العالية ، المؤيدة بالبراهين الشافية ، القائمة بنشر العلوم ، بين العموم ، فيا لها من جريدة أسست قواعدها في القلوب ، وامتدت مبانيها لكشف الغيوب ، تنادي بمقالها وحالها حيّ على الفَلَاح ، وهلموا إلى موارد النجاح ، لا تقفوا عند صورة المبنى ، ولكن تجاوزوا عنه إلى المعنى ، تلك أهرام أشباح ، وهذه غذاء أرواح ، تلك ظواهر صور ، وهذه دقائق عبر ، تلك مساكن أموات ، وهذه لسان سر السماوات ، نعم أين ذلك الزمان من هذا الآن ، الذي قد سطعت فيه شموس العرفان ، ونشأ فيه بنو الإنسان نشأة أخرى ، وتقلب في فنون الحقائق بطناً وظهراً ، فحقيق أن تكون أيامنا غير أيامهم ، وأهرامنا غير أهرامهم ، وأين الذي تفنيه الرياح والأمطار ، من الذي لا توهنه توالي المدد والأعصار ، فإن مقره العقول العاليات ، والنفوس الزكيات التي لا يتناولها الفنا ، ولا يبتدلها العنا ، فَبَخٍ بَخٍ[2] بمُنْشِيها ، وطوبى لقاريها ، فمن الواجب على ذوي الألباب أن يجتنوا جناها ، وان يستطلعوا سر معناها ، فيبوءوا بأنوار الحكمة ، وينقلبوا بفضل من اللّه ونعمة ، فإن ليس شيء لدى العاقل أبهى من حقيقة يكشفها ، ولا ألذ من حكمة يصادفها ، هذا إيجاز في مزاياها ، بسم اللّه مرساها ومجراها .

* * *

---

(١) سوداء اللب وسويداؤه بمعنى حبته .

(٢) اسم فعل يذكر للمدح والتعبير عن الرضى ، وتكراره يدل على المبالغة في هذا المعنى .

الكتابة والقلم(١)

إن مما انبسطت به أيدي الضرورات ، وأنتجته مقدمات الحاجات ، إنشاء لسان القلم نائباً عن المتكلم فيما يتكلم ، وذلك أنه لما اقتضى النظام الإلهي أن يخلق الإنسان محتاجاً في أن يقوم بدنه مدة ما مع حد ما من الراحة إلى أن يتخذ مما خلق اللّه له في الأرض ما لم يكن حاصلاً ، وأن يكون منه ما لم يكن كائناً بحسب الخلقة الأصلية ، ركب فيهم القوة النطقية ، واللطيفة الفكرية ، التي بها يكون ترتيب ما يحتاجون إلى اتخاذه من المطعم والمشرب ، والملبس والمسكن ، فقادتهم الفكرة إلى اتخاذ الصنائع وآلاتها ، على حسب استدعاء الحاجات ومقتضياتها ، واضطرهم ذلك إلى الاجتماع ، بتفصيل لسنا الآن بصدده ، وإنه وإن صح أن يقوم كل شخص بعمل من الأعمال ، والبراعة فيه بالآلات البدنية ، فليس في قوة كل أحد أن يكون مخترعاً مبتكراً لما يحتاج إليه أرباب الأعمال في أعمالهم ، من اللوازم الضرورية ، أو الأدوات التسهيلية ، أو لما به يكون صلاح ذات بينهم في المعاملات ، وفصل الأمر بينهم عند الخصومات ، على ما يقتضيه انتظامه الاجتماعي الإنساني ، بتفصيل لسنا الآن بصدده أيضاً ، بل ذلك إنما يقوم به أرباب الفكرة الوقادة ، والفطنة النقادة .

ومن البين أن مجرد صفاء الجوهر لا يكفي في ترتب الأثر عليه ، بل لا بد في ذلك

---

(١) الأهرام ـ السنة الأولى . العدد الثامن . وكان الأستاذ الإمام لا يزال طالباً بالأزهر ، وعلى حد تعبير «الأهرام» في تقديمه للمقال : «أحد المجاورين بالأزهر» .

من إعماله وترتيبته وإعداده لذلك الأمر العظيم ، وتخليته عن جميع الأشغال سواه ، فإن القوة الواحدة لا تكفي على البراعة لأمور متعددة ، فاحتيج إذن إلى اتخاذ أرباب التعاليم ، ليقوموا لهم بالعلم والإرشاد إلى طريق العمل ، ويقوم أرباب الأعمال بإخراج ذلك من القوة[1] إلى الفعل[2] ، فقام كل بواجبه ، واعتاض كل من صاحبه ، وكان نسبة أرباب التعاليم إلى أولياء الأعمال نسبة الأب الشفيق ، والحفي الرفيق ، ليس لهم فكر إلا في ترقيتهم ، ولا نظر إلا فيما يكون سبباً لإسعادهم ، وأساساً لراحتهم ، وإذ رأوا ذلك منهم تحققوا ما لهم من الفضيلة ، وانتضلوا للقيام بشكرهم بكل حيلة ، فاشتعلت إذ ذاك أفكارهم ، وارتفعت انظارهم ، واتسعت دائرة المعرفة ، وغدت آيات الحقائق منكشفة ، فعسر عليهم حفظ ما أسسوه ، وعظم عليهم أن يؤدوه كما ابدوه ، لكثرة المقدمات ، وتشتت الجزئيات ، وصعوبة ما تحتاج إليه القواعد ، مما لا يقوم بحفظه الكثير فضلاً عن الواحد ، فاحتاجوا أيضاً إلى اتخاذ ما به تحفظ افكارهم ، بحيث يرجعون إليه عند النسيان ، ويذكرهم لدى البيان ، فطفقوا يتخذون صوراً من الاحجار ، وأخشاب الأشجار ، تحكي بالمناسبة عما يريدون ، وتنطبق على ما يقولون ، لتكون إشارة للعارفين ، وحجاباً على أعين الجاهلين ، وكان ذلك كافياً لنقطة من الزمان .

ثم لما شيدت مباني العرفان ، وانتشرت المعارف بين بني الإنسان ، وغصت الأرض بالعلوم ، وسيّرت فيها سير النجوم ، صعب عليهم الحفظ بالتصوير ، والتبس الأمر على السميع البصير ، فألجئوا بالاضطرار إلى حفظ ذلك بالأرقام العلمية ، الحاكية عن الحروف اللفظية . القابلة في الرسم للتأليفات الغير المتناهية ، بدون أدنى التباس بين أشكالها ، كما لا يحصل إلا الالتباس بين الألفاظ عند تأديتها ، فكان القلم لساناً آخر للمتلكم ، إلا أن ما نطق به اللسان الحقيقي عرض سيال ، وما نطق به القلم جوهر لا يزال ، فلصاحبه عند الذهول أن يرجع إليه ، ولغيره من أهل لسانه أن يعول عليه ، فسهل عليهم بذلك حفظ آثارهم ، وبث أفكارهم ، وفرغوا من شغل عظيم ،

---

(١) مصطلح يختلف معناه ، باختلاف المقام الذي يرد فيه ، والمراد هنا الشيء في حالة الاستعداد للوجود ، وعندما يكون مجرد إمكان للوجود بالعقل .

(٢) درجة الوجود بالفعل أرقى من درجة الوجود بالقوة في مراتب الوجود ، والخلق عند الفلاسفة يعني تحويل الوجود بالقوة إلى وجود بالفعل . وهذا المعنى يتردد كثيراً في (تهافت التهافت) لابن رشد .

ووضع عنهم وزر جسيم ، كان يعوقهم عن كثير من التعاليم ، وكان من ذلك أن حفظ قول القائلين من جيل إلى جيل ، على نحو ما نال من اجمال وتفصيل ، فكانت بذلك أفكار الأزمنة المتتالية ، مجتمعة في نقطة واحدة ، وكذلك أفكار أهل زمان واحد ، على ما فيها من الشوارد ، بدون اشتباه في ذلك ، فحصل لذلك التعاون في الأفكار ، وإيقاد سرج الاستبصار ، فإن أفكاراً كثيرة تقدمت أو تأخرت ، بمنزلة لجنة قد انعقدت للارتقاء في حقيقة أمر خفيت ، والناظر الناقد بمنزلة رئيس الجمعية ، يرجع بين الأقوال ، ويرى بنور بصيرته ما إليه أمر كُلٍّ آل .

فكم من وهم فاسد عنه اندفع ، وكم من محال جاز ، وجائز امتنع ، وكم من نور له بين تلك الآراء لمع ، فكان له مُكْنة أن يمشي في ضوء مصباحه ، وأ يضرب بسلاحه ، لطلب صلاحه ، فوضع القواعد ، وأقام الشواهد ، ورمى بالقذى في عين الجاحد فارتقت العلوم إلى ذراها ، وارتبط أولاها بأخراها ، وركض العالم في ضوئها ، واستقوا من هاطل نوئها ، وعاد مثل الأول والآخر ، في هذا العمل الفاخر ، مثل جماعة تألبوا على إقامة بيت بالاشتراك ، وكلفوا كلاً على حسب ماله من المُكنة والادراك ، أن يأتي بما له بال في إقامته ، وأدخل في استدامته ، أو ما يكون موجباً لحسن الترتيب ، أو اتقان التركيب ، فمنهم من ميَّز زواياه ، ومنهم من فصل جواهره عن خباياه ، ومنهم من أسَّس قواعده ، ومنهم من أقام شواهده ، وهكذا كل يسعى لتشييده ، وإقامة حدوده ، واحكام قوائمه ، وإظهار علائمه ، إلى أن يتم بيت المعارف ، الذي هو أمان لكل خائف ، وهو حرم اللّه الذي من دخله كان آمناً ، وعرشه الذي من استوى عليه كان بالعزة قمنا[1] ، وكل ذلك بسر سير القلم ، الذي به علَّم الإنسان ما لم يعلم ، وجمع الكل في صعيد واحد ، ونادى فلباه كل قاصد ، فهذا إيجاز في شأنه ، ويسير من بيانه ، في تسيير العلوم وارتقائها ، وتسهيل اقتباسها وإبدائها .

ثم لما عظم أمر المعاملات التجأوا إلى التعامل بالسيئة[2] ، واحتاجوا إلى حفظ وجه التعامل خوفاً من النفوس الجريئة ، وكثرت وجوه الاعتداء من الأحزاب

---

(١) القمن الخليق والجدير .
(٢) التأخير والتأجيل .

والشعوب ، والتجأوا إلى الإصلاح كيلا تبيدهم اللغوب ، وكان ذلك لا يستقيم إلا بحفظ معاهدات ، تنعقد بينهم لمنع الاقتراحات ، ولا يتم ذلك إلا بأن يحفظ ما وقع اتفاق عليه ، على الوجه المرضي بينهم ، ليمكن الرجوع عند الاحتياج اليه ، فلم يوجد لذلك مستودع أمين ، ولا حصن مكين ، لابداع هذه المعاني ، إلا ما يشيده القلم من المباني ، فكان القلم هو الشاهد العدل ، والحكم الذي عليه المعوّل ، ولولاه لم تحفظ حدود ، ولم يوثق بعهود ، ولم ينل المحق حقه ، بل يتسع المجال للمبطل ، وتبعد الشقة .

ولما انتشر نوع الإنسان في أقطار الأرض ، وبعد ما بينهم في الطول والعرض ، مع ما بينهم من المعاملات ، ومواثيق المعاقدات ، احتاجوا إلى التخاطب في شؤونهم ، مع تنائي أمكنتهم ، وتباعد أوطانهم ، فكان لسان المرسل إذ ذاك لسان البريد ؛ وما يدريك هل حفظ ما يبدي المرسل وما يعيد ؟! وإن حَفِظَ هل يقدر على تأدية ما يريد ، بدون أن ينقص أو يزيد ، أو يُبعد القريب أو يُقرِّب البعيد ، فكم من رسول أعقبه سيف مسلول ، أو عنق مغلول ، أو حرب تخمد الأنفاس ، وتعمر الأرماس ، ومع ذلك كان خلاف المرام ورمية من غير رام ، ولم يكن في كلام المرسل ما يثقله بهذه الأوزار، ولا من نفسه ما يشعل شرور هذه النار ، فوقعت الندامة ، وضرب الويل خيامه ، فالتجأوا إلى استعمال رقْم القلم ، ووكلوا الأمر إليه فيما به يتكلم ، فكان مُبلِّغاً أوعى من سامع ، وهاجعاً أسرى من لامع ، وقنوعاً أغلب من طامع ، وصامتاً أنطق من ممانع ، فأدى القول كما سمع ، وحكى الصنيع كما صنع ، وأتى على المراد ، من فاسد أو سداد ، بل ربما كان أوعى للمقالة من القائل ، واحفظ للأمانة من المالك الحامل ، فهو حينئذ حقيقة اللسان ، وغيره مجاز عنه في البيان ، فكم من معاتب تنفر النفوس من عتابه ، ان هو اعتب في خطابه ، ولكن أن رقم أتى بالرقيق ، ونادى نداء الشقيق ، فاستبدل الشقيق بالمشاق ، ورفع العنا ووضع الوفاق ، فهو إن تكلم كَلَم(١) ، وإن رقم شفى الألم ، وكم من مؤدب فهيه(٢) ، لا يستطيع تحريك فيه بما يخفيه ، لا يفيد المستفيد ، ولا يوافي مرام المستعيد ، ولكنه إن أجرى القلم ، نطق

---

(١) جرح .

(٢) عيي عن النطق والإفصاح .

بالحكم ، وحج وافحم ، وحل وابرم ، وأسس واحكم ، فهو وإن لم ينطق بلسانه، قد نطق بيراعه وبنانه ، فلم تَعْدُه فضيلة البيان ، وأن عضلته عصبة اللسان ، وكم من خطيب نجيب ، ورقيب حسيب ، إن تكلم أقلق ، وأطبق[1] وأغلق ، وإن كتب اعجب ، ورغب وأرهب ، وقرب وأبعد ، وجمع وأفرد ، وأوقد نيران الآنفة ، وعقد روابط الألفة ، وأتى برقيق التشبيه ، ودقيق التنبيه .

ومن أجل آثار القلم ، إذ يعد من أعظم النعم ، ومن اللوازم الزم ، «الجرائد» و«الجرنالات» ، التي هي أمل عظيم لترقي الملل ، وانتظام أمور الدول ، أما الأول فلأنها توقف الملل على خصائصها ، الموجبة لنقائصها ، وتوضح لهم أسباب الترقي ، وما به يكون التوقي ، وتنشر بينهم أخبار غيرهم ، من سلفهم وجيرانهم ، وما به كانت عزة ملة وذلة أخرى ، وأي الأمور لهم بالتمسك أحرى ، وتشوه لهم وجه القبيح إن ارتكبوه ، وتعظم لهم أمر الجميل إن تركوه ، فتشرح مفاسد العادات التي هم عليها ، كالجهالة والتكاسل عن الصناعة ، والرضا بالفقر ، مع التردي برداء الكبر ، والتمسك بالخرافات ، وفاسد الاعتقادات ، وجمع كلمة النفاق ، وشق عصى الوفاق ، وغير ذلك من قبائح الأفعال ، ورذائل الأخلاق ، وتقدم لديهم مصالح الفضائل ، كاتساع دائرة الأفكار ، والتنقير على ما في العالم من دقائق الأسرار ، والحث على الاشتغال بالصنائع ، والاهتمام في ترقي البدائع ، وطلب العيشة الراضية ، مع اليد العليا والهمة العالية ، والنظر في آراء الأوائل نظر الناقد ، والتمسك بما قطع به البرهان في باب العقائد ، كيلا يفوت كثير من الكمالات ، ويفقد عظيم من اللذات ، وتبث بينهم أفكاراً تكون سبباً لتنوير البصيرة ، وتطهير السريرة ، وتحرك فيهم حمية الغيرة ، فينتبهون بذلك من غفلاتهم ، ويستيقظون من سباتهم ، ويلتفتون إلى مصالحهم ، ويقلعون عن قبائحهم ، فيطلبون الخير ، ويتجنبون الضير . ويرتفع من بينهم الجور ، ويوضع العدل ، وتطلع فيهم شمس المعارف ، وينسلخ عنهم ليل الجهل ، وينالون من الراحة والرفاهية ما لا يحصر ، ويستولون من عظائم الأمور على ما لا يصح أن يذكر ، وإن أدركه أرباب النظر .

---

(١) لم ينبسط في الحديث .

وأما الثاني فلأنها لسان سر السياسة ، فتنبىء عن نتائجها في الآن ، بل في الآت ، وتوازن بين الدول وقواها ، وتحقق النسب بين أضعفها وأقواها ، وتبين ما في نظامهم من الاختلاف ، وما في افعالهم من الاعتلال ، ونتائج ما ابدوه من أسباب النجاح ، ومواد الإصلاح ، وحفظ الأرواح ، وارتياح الاشباح ، وما انثنت عليه صدور السلاطين ، من عدل يزين ، وظلم يشين ، وترشدهم إلى ما يجب أن يسلك فيما استولوا عليه ، وما يؤول أمرهم إن سلكوا غيره إليه ، وتغري وتحذر ، وتبشر وتنذر ، فإذ ذاك ينتبه الغافلون ، ويحترس المستيقظون ، ويقوم الضعف المتلافي ، ويطلبون اللحاق بالملاصق والمتجافي ، ويهرع المختلون لسد خَلَلهم ، وإبراء عللهم ، وتخفيف اثقالهم ، ويرتدع الظالمون ، ويغتبط المقسطون ، وذلك كله مع تنائي الأقطار ، وتباعد الأسفار؛ ، فالقول الواحد يبلغ الجميع في قليل زمان ، وكأنما القائل والسامع في مكان ، فيعتضد البعض بالبعض في الخروج من الذلة ، وشفاء الغلة ، وإنما مثل صاحب «الجرنال» مثل خطيب قام على منبر العالم ، وأمسك بيده «صُور» **إسرافيل** ، ونادى بالحقير والجليل ، فَنَفْخَةٌ تحيي ونفخة تميت ، وعظة تصيب وأخرى تفيت ، فمن الواجب على كل ذي دراية ، أن يكون له بمطالعة هذه الصحائف غاية ، ليكون على بصيرة في أمره ، ومصيباً في سيره ، نائلاً لخيره ، حذراً من شره ، متحركاً نحو المعالي ، طالباً ما تهتز إليه العوالي ، ويقف على خفيات الحقائق ، ورقائق الدقائق ، ويخرج إلى فضاء المعرفة ، ويطلق من غل الجهالة والسفه ، إنْ هذا إلا بإمداد القلم وجريانه في ميدان تربية الأمم ، وإلا فأين «اللفيانت» من بلاد «**تبت**» وأين «فارس» من بلاد «**هند**» «**وفارس**» ، إذ يقوم عليهم رقيباً ، وفيهم خطيباً ، يعظهم بالموعظة الحسنة ، ويحذرهم غرَّة السِّنَة ، ولقد ينبئنا ما انجر إليه علم أمر العالم في سيره ، وليس له مكنة أن يعدل عنه إلى غيره ، بأن صار القلم محتاجاً إليه في أدنى المهمات ، وأهون الملمات ، وخصماً في جميع المنازعات ، وحكماً لدى المحاكمات ، حتى لم يبق للسان إلا محاورات قليلة ، وموارد اخطارها غير جليلة ، فاقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .

* * *

العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية (١)

كلما تناسينا عهد جاهلية العرب ، وما كان من مقتضيات الجهالة في تلك الحقب ، ومنينا أنفسنا بأناصرنا في نشأة أخرى ، وتقدمنا إلى الأمام بعد أن كنا إلى القهقرى ، واستصبحنا بمصباح الآمال ، في ليل الضلالة والاختلال ، وهمت أفكارنا بتحصيل ما سبقنا إليه غيرنا ، تذكرنا حوادث الأيام بأننا لا زلنا في أول نقطة من ذلك الزمن الأول، بل كان ذلك على تنزل منه إلى أسفل، وتنثني آمالنا عن تقدم أهالي أوطاننا ، فمن اعجب ما رأيناه في هذه الأيام ، إن بعض طلبة العلم الكرام ، الذين قد بذلوا جهدهم في التحصيل ، وخلعوا ثياب أوزار البطالة والتعطيل ، وافتدوا براحتهم لتنوير بصيرتهم ، قد تحركت إلى المعالي همته ، ودعته إلى التفنن غيرته ، فأخذ في دراسة بعض الكتب المنطقية والكلامية ، التي كان قد صنفها بعض أفاضل الملة الإسلامية ، لما انه قد علم ـ كما هو الواقع ـ أن العلوم المنطقية إنما وضعت لتقويم البراهين ، وتمييزاً لأفكار غثها من الثمين ، وتبيين إن كيف تتركب المقدمات لإنتاج المطلوب ، بعد البيان أن أي مقدمة يصح أن تؤخذ في البيان ، وأيها يجب أن يقذف ويطرح ، فهذا علم حقيق بأن يتخذ سلماً لجميع العلوم ، ولا يعدل عن طلبه إلا جهول ظلوم .

والعلوم الكلامية إنما هي أحكام لتأييد القواعد الدينية ، بالأدلة العقلية القطعية ، حتى يحق لممارس تلك العلوم أن يقتبس نور تلك المطالب من تلك

---

(١) الأهرام . العدد ٣٦ من السنة الأولى (سنة ١٨٧٧ م) .

البراهين ، ويقنع بذلك الطالبين ، ويردع المنكرين ، على وجه لا يكون فيه ثبات الشيء بنفسه ، ولا تنزيل العقل عن درجته في إدراكه وحسه ، فلما سمع بذلك بعض أحبائه ، وأصفيائه وأقربائه ، الذين يؤثرون خيره ولا يرتضون ضرره ، اهتز لذلك واضطرب ، وأعجب كل العجب ، وأخذه من الحزن على ذلك الطالب ما شاء اللّٰه أن يأخذه ، وأوسع لذلك الطالب النصيحة ، ويا لها من فضيحة أي فضيحة ، قائلاً : كيف تدرس علوم الضلالات ، حتى تقع في الشبهات ؟ ، ألا فارتدع ، وبحالتك اقتنع ، وكن كما كان الأب والجّد ، وجِد فيما كانوا عليه ، فمن جد وجد ، فأجاب الطالب المسكين سؤاله ، وطوى سجل علمه ، ونشر جهله ، ومع ذلك لم تدعه ألسنة حساده ، المتألبين على عناده ، ولم يزالوا مصرين على سفه الكلام ، ورمي سهام الملام ، يقولون إلى الآن في ضلاله القديـم ، لم يميز بين المنتج والعقيم . والمخدوش والسليم ، حتى إن بعض ذوي الجهل من أهل بلاده ، المخلصين في وداده ، الساعين في إسعاده ، وشوا بهذا الطالب إلى والده ، وأنصحوا له القول بشأن ولده ، قائلين : إن الرجل منا إذا سمع أن ولدك يشتغل بالعـلوم ، تتناوله أيدي الهموم ، يقوم ولا يهنأ له طعـام ولا شراب ، ويبيت ليله في اضطراب ، ويظل نهاره في اكتئاب ، أسفاً على هذا المسكين كيف ترك جهالتنا ، ولم يعمل على مثالنا ، ألم تعلم أن الإنسان كلما قوى في العلم اجتهاده ، وبدا له رشاده ، يتزلزل اعتقاده ، فكيف بك وهو ثمرة فؤادك ، وأرشد أولادك ؟! ، فتحرك في والده عرق الحمية ، وأسرع ذاهباً إلى مصر المحمية ، ليرى هل صح الخبر ، أو كذب الناقل وفجر ، فوصل إلى ولده في الساعة الثالثة من الليل ، ومن آن وصوله أخذ ينذر ولده بالثبور والويل ، إن كان لتلك الأقاويل صحة ، فأجابه الطالب إن ذلك من كذب الناقليـن ، وبغـي الحاسدين ، وإنني من يوم سعيت في منعي ، وقطع نفعي ، لم تقر عيني بنظرة في رياض تلك العلوم ، ولم أشف قلبي بأخذ منطوق منها ولا مفهوم ، فلم يصدقه حتى تمسك بالحبل المتين ، وأحلفه باللّٰه رب العالمين ، أن الناقل كذاب ، وأنه في أمره غير مرتاب ، فحلف وهو الصادق في حلفه ، وكيف لا وقد حفَّته المكاره من بين يديه ومن خلفه ، فلما أيقن أبوه بكذب ما نقل إليه حمد اللّٰه وأثنى عليه ، وأصبح من غده متوجهاً إلى بلده . فانظر إلى هذا الرجل مع كثرة انشغاله ، واحتياجه لساعة ينظر فيها إلى أحواله ، كيف ترك الأهم ، وصرف الدرهم ، وانقضَّ انقضاض السهم ، وأقدم إقدام الشهم ، وما ذاك إلا لحادث أقلقه ، وشناعة عظيمة خاف أن تلحقه ، وداهية دهياء قد استفزته من أرضه ، وبأس شديد طلب التخلص من حلوله بركضه ،

فإن سألت ما هذا الأمر الفظيع ، والحادث البشع الشنيع ؟ قال إن ولدي يتعلم المنطق والكلام ، ويتخلص من قيد جهل قد أخذ بالنواصي والأقدام ، وانظر إلى هذه الحماسة والغيرة ، التي قد دعتهم إلى التعاضد والتناصر ، والنخوة التي قد حركتهم على التكاثر ، للتخلص من هذا الحادث الملم ، وانقشاع هذا الليل المدلهم ، بغاية الحرارة الناشئة عن صدق طوية ، وخلوص نية ، فتباً لهذه العقول ، وبئست عواقبها وما إليه أمرها يؤول :

إن دام هـذا ولم تحـدث لـه غِـيرَ   لم يُبْـك ميت ولم يُفـرَح بمـولـود

وإنني لاتعجب من هؤلاء الإخوان في الوطن ، وأرباب البصائر والفطن ، كيف مالت بهم الحرارة إلى الهبوط ، حتى آل أمرهم إلى السقوط ، ويا عجباً إذا لم نصرف الفكر في تقويم البراهين وتسديدها ، وكيفية الوقوف على الحقائق وتحديدها ، ففي أي شيء نصرفه ؟ فإنه إن ضلّ عنا رشادنا ، وغاب سدادنا ، فهل بشيء سوى الدليل نعرفه ؟! .

ألا وإن هذا أمر غني عن البيان ، ويكل عن الإفصاح به اللسان ، مع أن هذه العلوم ليست إلا ما يُقرأ في سائر جوامع المسلمين ، مشارق الأرض ومغاربها حتى الآن ، في نفس «**الآستانة**» يقرأ في مساجدها كثير من كتبها ، وقد قال الأكابر من المحققين كالإمام «**الغزالي**» و«**فخر الدين الرازي**» وغيرهم ، إن تعلم هذه العلوم من فروض الأعيان ، وأطبق جميع العلماء على أنها من فروض الكفاية ، خصوصاً في مثل هذه الأزمان ، التي قد قع فيه اختلاط الناس من سائر الأديان ، فإنه من البين أن ما أخذ عن الاباء ، وبلغناه السنة الاقرباء ، إن لم يؤيد بالبراهين ، نالته أقوال الملحدين ، وأدحضته شبه الجاحدين ، فيصبح وقد وهى بنيانه ، وانحط شأنه . أولم يطلع هؤلاء المساكين على ما كتبه شيخ الإسلام في «**استامبول**» إلى الرجل الجرماني الشهير الذي قد أسلم في هذه الأيام ، إذ يقول له : «نحن لا نتجنب وزن عقائدنا بالميزان المسمى بالمنطق ، ولا نقبل اعتقاداً يناقض العلوم المتعارفة ـ (كالمبرهنة) ـ في فني الحساب والهندسة ، من أن الكل أعظم من الجزء ، وأن الشيء لا يكون غير نفسه ، وأن الشيء الواحد لا يكون واقعاً وغير واقع في آن واحد، وأمثالها من العلوم المتعارفة وهي من البديهية الأولية، والأولوية على ما في الباب الرابع من معيار سداد (النظر، حتى لو كان حديث أو آية كذلك، أي تُغايِرُ العلومَ المتعارفة لأولْناه) . ا هـ .

وليت شعري ! إذا كان هذا حالنا بالنسبة إلى علوم قد أرضعت ثدي الإسلام ، وغذيت بلبانه ، وتربت في حجره ، وتقلدت في إيوانه ، من زمن يزيد عن ألف سنة ، وتناولتها أيدي الخلص منا وتناقلتها عنهم الألسنة ، فما حالنا بالنسبة إلى علوم جديدة مفيدة ، هي من لوازم حياتنا في هذه الأزمان ، وكَافَّةٍ عنا أيدي العدوان والهوان ، وأساس لسعادتنا ، ومعيار لثروتنا وقوتنا ، لا بد لنا من اكتسابها ، وبذل المجهود في طلبها ، فبالأوْلى نضع أصابعنا في آذاننا إن ذكرت ، ونهاجر من كرة الأرض إذا سماؤها انشقت ، وإن مثل هذه النفرة لو كانت في عهد «المتوكل» العباسي ، عندما كانت الأمة بغرور وسواسي ، وقوة متوهمة ، تحصنها من تعدي الأمم المتقدمة ، أو في زمن المماليك والتركمان ، وغيرهم ممن تملك هذه الأوطان ، حين كانوا في ذروة التوحش ، لا يهتدون إلى ما به يدبرون أمورهم في التعيش ، وكانوا حائرين في تيه الخيالات والأوهام ، وقد أخذ بجميع احساساتهم جور الحكام ، ولم يكن بينهم وبين غيرهم من الأمم اختلاط ، إذ كانوا في حفرة الانحطاط ، لكان لا يأخذنا العجب ، بل نضيف ذلك إلى السبب ، ونلتمس لهم العذر في ذلك ، إذ قد عميت عنهم ، وكنا نؤمل أن «المبنج» يفيق بشم روح «النوشادر» ، وان هؤلاء يهتدون إذا ارتفعت الموانع واقبلت البشائر ، ويقومون من غفلتهم إذا قام من يوقظهم ، ويخرجون عَمَّا هم فيه إذا نادى بهم من يعظهم ، ولكن تعذر ذلك الأمر منهم في زمان جرى فيه سيل العلوم ، حتى عم انحاء الكرة على العموم وهم فيه غرقى من حيث لا يشعرون، ووقع فيه الارتباط بيننا وبين الأمم المتمدنة ، ورأينا ما هم عليه من الأحوال الحسنة ، وظهر لنا التوازن بينها وبين أحوالنا الهجنة ، كثروتهم وفاقتنا ، وعزتهم وذلتنا ، وقوتهم وضعفنا ، وقدرتهم وعجزنا ، وصولتهم وانهزامنا ، وغير ذلك من المزايا والرزايا التي لا تعد ، وبها يعتد ، بل في زمان خرج فيه العلم من الأذهان إلى الأعيان ، وتنزل من مرتبته الروحانية ، وتحلى في الصور الجسدانية ، وفتح لنا رياضه ، وهيأ للغرس غياضه ، وأصبح يجول بيننا في علاه ، وينادي بأرفع صوت وأعلاه ، ألاَ من محارب عدوان فنحدد نضاله ؟ ألا من حيران في غسق الضلال يَمُنُّ على نفسه بنظرة لسنانا المتعال ؟ ، ونحن بمسمع من نداه ، ومرأى من سناه ، لكن صُمَّت الأذان وعميت الأبصار ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وعلى سمعهم وعَلَى أَبْصَارِهِم غِشَاوَةٌ ولهم عذاب عَظِيمٌ﴾[1] - ﴿لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَو

---

(١) البقرة : ٧ .

﴿أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1] وهل يليق بقوم أن تكون هذه الجهالات أفكارهم ، وتلك المستهجنات آثارهم ، مع كل ما قد رأوه من صنيع مليكهم ، وحامي ذمارهم ، جناب **الخديوي الأعظم** ، لا زال قضاؤه في الكائنات يبرم ، حيث قد بذل الهمة في اجتلاب المعارف ، وتوسيع دائرة الآداب والعوارف ، إذ فتح المدارس والمكاتب ، وعني بالاساتذة من الأقارب والأجانب ، واجتذب التلامذة من كل جانب ، حتى أضحت غايات الارتقاء سهلة الاكتساب ، وخزائن الخيرات مفتحة الأبواب ، وترعرع روض المعارف وأزهر زهره ، وبدا صلاحه وينع ثمره ـ (ولكن لم يكن له مقتطف ولا مجتنى ، ولا عان ولا معتنى) ـ واطلق الحرية ـ أيده اللّٰه في اقتناء هذه الخيرات ، واجتناء هذه الثمرات ـ وافترش بساط العدل ، ودعاهم بذلك إلى دار الكرامة والفضل ، فهلا انتهزوا الفرصة قبل انقضاء آجالهم ، وانتكاس آمالهم ؟! ولعمري إن ما فعل الخديوي في هذه البلاد ، من موجبات الإسعاد ، لو كان عند أمة أخرى لكانت بلغت إلى غاية الكمال ، ووقفت على حد الاعتدال ، وأصبحت مفيدة لا مستفيدة ، وتقلدت سيوف العز بدل القرعة والجريدة ، فإننا لم نسمع أن ملكاً من ملوك أوروبا الذين قد خلدت اسماؤهم في الصحف ،الذين هم كانوا قد قاموا بنشر التمدن في أقطارهم ، قد بذل الهمة في ذلك معشار ما بذله جناب الخديوي فيه ، فيا للّٰه سعيه ، إذ قد أتى بكل ما يمكن أن يؤتى به في سعادة أمته ، ولكن ماذا تصنع في همتنا الكسالى ؟! ، يا خيبة المسعى إذا لم تسعف لكن على المرء أن يسعى إلى الخير جهده وليس عليه أن تتم المطالب فهلا ساعدوا هذا المليك في إسعاد أنفسهم ، وتخلصهم من بؤسهم «إن هذا لشيء عجاب» لا العواصف تحركهم ، ولا العواطف تجتذبهم ، ولعل ذلك المرض فيهم قد خفي دواؤه ، واعيا الطبيب شفاؤه ، نسأل اللّٰه العافية .

ولعل قائلاً يقول : إن هذه الحادثة لا تثني الأمل ، ولا تنذر بخيبة العمل ، فإنها جزئية من الجزئيات ، لا يحكم بها على الكليات ، فإنه في كل زمان وفي كل مكان يوجد الحمقى والأغبياء ، وأرباب الجهالات والأشقياء ، وذلك لا ينافي حكم الغالب ، فأجيبه : بأن هذه ليست أول قارورة كسرت ، ولا أبدع واقعة وقعت ، ولكن ذلك أكثر

---

(١) الأنفال : ٢٣ .

من الكثير ، وأمره فاش بيننا شهير ، خصوصاً من الطائفة الشريفة[1] ، التي تعد بمنزلة روح لهذه الأمة ، فإنهم إلى الآن لم ينظروا إلى أنفسهم ولا إلينا بعين الرحمة ، ولم يروا لهذه العلوم فائدة تعود عليهم أو على ابناء ملتهم بعائدة ولكن اشتغلوا بما ربما كان أليق بزمان قد افلت كواكبه ، وطويت صحفه وولت ركائبه ، غير ملتفتين إلى أننا أصبحنا في خَلْق جديد ، قد طرحتنا الأيام بديننا وشرفنا في بادية ، قد غصت بآساد ضارية ، كُل يطلب منا ثاره ، ويطلب شن الغارة ، فإن كنا من آحاد تلك الآساد فقد وقينا انفسنا وديننا ، وإلا فإما نطرح ديننا وننجو بأنفسنا ، وإما أن نبيد عن آخرنا ، بسوء الجهل وضلال الطريق ، مع أن ملاك الأمر بأيدينا ، فعلينا أن ننظر إلى أحوال جيراننا من الملل والدول ، وما الذي نقلهم عن حالهم الأول ، وأدى بهم إلى أن صاروا أغنياء أقوياء ، حتى كادوا أن يتسلطوا علينا بأموالهم ورجالهم الأول ، إن لم نقل قد تسلطوا بالفعل ، فإذا حققنا السبب وجب علينا أن نسارع إليه حتى نتدارك ما فات ، ونستعد لخيرنا فيما هو آت ، وها نحن بعد النظر لا نجد سبباً لترقيهم في الثروة والقوة إلا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم ، حتى قادتهم إلى رشادهم ، فتنوروا خيراتهم فأكتسبوها ، ومضرتهم فنكبوا عنها وتركوها ، فإذن أول واجب علينا هو السعي بكل جد واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا .

أليس من البين إنه لا دين إلا بدولة ، ولا دولة إلا بصولة ، ولا صولة إلا بقوة ، ولا قوة إلا بثروة ، وليس للدولة تجارة وصناعة ، وإنما ثروتها بثروة أهاليها ، ولا تمكن ثروة الأهالي إلا بنشر العلوم فيما بينهم حتى يتبينوا طرق الاكتساب ، فإن ذلك أمر قد خفي على ذوي الألباب فضلاً عن غيرهم ، كيف لا . . وقد ولت أزمنة كان التحارب فيها بالأخشاب والنبال ، والسهام وخزف الجبال ، وما أشبه ذلك مما كان استحصاله بزهيد القيم ، وحَضَرنا زمان نضطر فيه إلى المراكب المدرعة ، ومدافع «المتراليوز» و«الكروب» وبنادق الإبرة ، وغير ذلك من الأسلحة التي تجددت وستجدد فيما بعد ، فإن الشر الذي هو أحط عناصر الإنسان لا يزال يرشده ويقوده نحو اختراع أمثال هذه الآلات المهلكة لهذا النوع ، فإنهم حتى الآن قد جعلوا العالم بيت نار ، وهم قائمون على عبادتها وخدمتها بكل جد وإخلاص ، وكيف نتمكن من حفظ ملتنا ودولتنا وديننا

(١) الإشارة إلى الفئة المقلدة المحافظة في جمود ، وخاصة ، رجالات الأزهر يومئذ .

من شرر هذه النيران بدون أن يكون عندنا ما يماثلها ، إن لم نقل ما يزيد عنها ، وهل يمكن استحصالها بالخرز والخزف أو بداني الحرف ؟! كلا . . بـل لا بد من أن تُؤْتى البيوت من أبوابهـا ، وتطلب المسببـات من أسبابهـا ، فلا بـد من البحث عن وجوه الاكتساب من وجه الصواب ، والاستضاءة بنور المعرفة ، والتبري عن مرافقة السفه ، وليس من يرشدنا إلى ذلك إلا ابناء هذه الطائفة ، فإنهم أرواحنا ، وقائدو أشباحنا ، حيثما توجهوا توجهنا ، وفي أي وقت على أي شيء عرجوا عرجنا ، وإن من حقهم أن يقوموا لحث الجمهور على اقتناص تلك العلوم ، وبيان فوائدها ، وما يترتب عليها من المنافع ، وعلى عدمها من المضار ، ووجه احتياجنا إليها ، ولعمر اللّٰه قد كان ذلك خير الأعمال وأحبها عند اللّٰه ، لأن إعلاء كلمة الحق وحفظ بيضة الإسلام مقدم على جميع الشعائر ، فإنه بعد زوال الرأس لا يبقى لسائر البدن إلا الرَّمْس ، كما هو بيِّن عندهم ، وغير خاف عليهم ، ولا تظنن أني أقول إن توانيهم عن مثل هذا المسعى على علم منهم بلزومه لرقة في دينهم ، حاشا للّٰه ، بل إنهم لم يلتفتوا إلى لزومه ، وإنه أهم ما يهم ، وأوجب مما يجب ، ولو أنهم التفتوا إليه ، وحققوا الأمر على ما هو عليه ، لقاموا بإرشاد الناس إليه على قدم وساق ، وضاقت المسـاجد بخـطبائهم ووعـاظهم وحث الأهالي وتحريضهم ، على استحصال ما هو أساس لحفظ دينهم ، على ما هو المعهود منهم من الهمة فيما يكون مقوياً لشوكة ديننا وصولته ، ومحافظتهم على بقاء عزته وقوته ، ومن لي بأن ينتبهـوا إلى هذه النكتة ، وإنه لا بد لهم من الالتفات إلى هذه اللوازم البتة ، كي يمنوا علينا بحسن النظر ، ويعينوا لنا حد الخير والشر ، فإننا لا نسمع إلا مقالهم ، ولا نرمق إلا أحوالهم ، بل لا نسمع إلا بآذانهم ولا نبصر إلا بأبصارهم ، ولا نذوق إلا بـذائقهم ، ولا نتكلم إلا بألسنتهم ، كيف لا وهم الأرواح ونحن الأشبـاح ، وهم النسمات ونحن الأرواح[1] ، حيثما مالوا ملنا ، وما ملوا مللنا ، نعم إننا نحتاج زيادة على هذه المدارس إلى مدرسة عمومية تتكفل ببيان هذه المسألة ، وهي أن العلم نافع ، والجهل ضار ، وإفصاح الفرق بين غسق الليل ورابعة النهار ، بل هي ألزم من جميع اللوازم ، فإنه ما لم تتوفر الرغبة في شيء لا يتحقق الإقدام عليه ، بل يكون مبتذلاً عند النفوس ، مرموقاً بعين البؤس ، تشمئز منه الطباع ، وتنفر منه الأسماع ، وإن هـذه

---

(١) هنا بمعنى الرياح .

المسألة ، أي أن العلم نافع لنا ، والجهل مهلك لأرواحنا ، وأبداننا ، مسألة صارت عندنا من أدق النظريات ، يحتاج في بيانها إلى كثير من المقدمات ، والحجج والبينات ، مع ما ينضم إلى ذلك من الاعتبارات ، كالترغيب والترهيب ، والتمثيل والتقريب ، والإجمال والتفصيل ، والإيجاز والتطويل ، على حسب اختلاف مراتبنا في القبول ، وعلى اللّٰه تمام المسؤول .

* * *

التحفة الأدبية[1]

إنه حينما كانت همم أرباب الفطن النقادة ، والفكَر الوقادة من أهل العربية في أوج كمالها وأفلاك سعاداتها في منازل إقبالها ، كانت الأمة تباهي سائر الأمم برجالها العقلاء السياسيين ، وفلاسفتها المستبصرين ، وتختال بينها عجباً بما لها من الثروة والقوة ، والعزة والفتوة ، وسطوع شمس المعارف في أفق ديارهم ، وانجلاء غيوم الجهالات عن وسط سمائهم ، حيث كانوا قد استووا على منصات الكمال في التعقل والتبصر ، على حسب ما كانت عليه درجة العلم في ذلك الوقت . وبينما اللغة العربية تباهي سائر اللغات باتساعها ، واحاطتها بدقائق المعاني التي كان يبديها العرفاء من المتكلمين بها ، وكانت متحلية متزينة بحلية الاصطلاحات العلمية ، كاصطلاحات الطبيعيات والإلهيات والرياضيات والطب وغير ذلك من سائر الفنون ، وكانت قريرة العين بتلك الحلية والزينة ، وازديادها وانتظامها على حسب مرور الأزمان ، إذ فترت تلك الهمم ، وتنزلت إلى حضيض الانحطاط ، لموانع قد اعترضت سيرهم ، وصدتهم عن التقدم في مدارج السعادة والكمال وأوقفتهم عند حد لم يتجاوزوه ، بل أرجعتهم إلى مقام كانوا قد تقدموا عنه وتركوه .

تلك الأمة ، كان ما كان لها من الشأن ، وبدا أمرها بعد التمام في النقصان ، وسلبت تلك اللغة الشريفة ما كان لها من الحلى والزينة ، وأمست للصغار والابتذال

---

(١) الأهرام العدد ٤١ من السنة الأولى (١٨٧٧ م)

رهينة ، وتقدم سائر الأمم في اكتساب المزايا التي كانت لتلك الأمة ، وحسنت هيئاتهم الاجتماعية ونالوا من الثروة والرفاهية ، وتحلت ألسنتهم بالعلوم والمعارف ، وديارهم بالبدائع وبَهِيِّ الزخارف ، وتطاولت ألسنتهم بالفخار على لساننا ، وباهت رجالهم في السياسات والأفكار رجالنا ، فلما قرع آذان ابناء الأمة العربية سهام الملام ، قام فيهم قائم الغيرة والحمية ، وآلوا على أنفسهم أن لا يألوا جهداً في استرجاع ما فقدوه ، رغماً لتلك الموانع ، وقسراً لحركات هاتيك القواطع ، فنشأ فيهم من بَذَل الهمة في استحصال العلوم واللغات وبرعوا في ذلك ، وترجموا إلى لغتهم العربية الكتب من جميع الفنون ، كالطبيعة والكيمياء والطب والجيولوجيا ، وغير ذلك من الفنون المفيدة ، فتجلت لغتنا في حليتها ، وبدت ترفل في ثياب زينتها ، إلا انه لم يوجد فيهم من يعنى بعلم السياسة ، وتاريخ سير التمدن ، حتى يمن على اللغة العربية بأن يودعها دقائق معانيه ، ويقلدها لآلىء مبانيه ، حتى قام بهذا الأمر العظيم جناب الفاضل الأديب . واللوذعي الأريب ، الذي يغنيك رؤية أثره عن عطر ذكره ، الخواجا «**حنين نعمة اللّه خوري**» ، فتبرع لأبناء العرب ولغتهم بترجمة كتاب جليل في هذا الموضوع ، لم يسبق سابق بمثاله ، ولم ينسج ناسج على منواله ، وهو ما ألفه الوزير الشهير «**كيزو**» ، فإنه كتاب قد جمع فيه من نتائج السياسات ، ما تحار فيه ألباب أرباب الرياسات ، حقيق بأن يسمى سبيل النجاة ، ومادة الحياة ، وهو الكتاب المسمّى (بالتحفة الأدبية) . وإنني لا أستطيع أن أذكر من مزايا هذا الكتاب فوق ما أفاده حضرة الأستاذ الأكرم ، والفيلسوف الأعظم ، الذي تشرف بذكر اسمه مسامع القاصي والداني ، جناب السيد **جمال الدين الأفغاني** ، وهاك ما قال :[١] . . .

(١) وهنا ينتهي تقديم الأستاذ الإمام لكلام أستاذه ، ويبدأ كلام جمال الدين وبالطبع ليس مكانه هنا .

العدالة والعلم[1]

هذان الأساسان الجليلان (أعني العدالة والعلم) متلازمان في عالم الوجود ، متى سبق احدهما إلى بلاد تبعه الآخر على الأثر ، ومتى فارق واحد منهما جهة تعلق الثاني بغباره ، فلا يكاد يرفع قدمه أو يضعها إلا وصاحبه يرافقه . بهذا ينبئنا التاريخ وتحدثنا سير الدول التي ارتفع بها منار العدل أو بزغت فيها شموس العلم ، كيف تمتعت بالنورين ، وطارت إلى أوج السعادة بهذين الجناحين ، حتى إذا أتت حوادث الدهر على أحد الأساسين فهدمه سقط الآخر بأسرع وقت وانحطت الدولة المصابة بفقده إلى أسفل الدركات فأغسق جوها بكثيف من الظلمات وغشيت أبصارها حجب من الجهالة .

وسر هذا جلي ، فإن العلم إذا انتشر في قوم أضاءت لهم السبل واتضحت المسالك وميزوا الخير من الشر والضار من النافع ، فرسخ في عقولهم أن المساواة والعدالة هما العلة الأولى لدوام السعادة ، فيطلبونها بالنفس والنفيس ، وأن الظلم والجور قرينان للخراب والشقاوة ، وإذا رسخت قدم العدالة في أمة تمهدت لها طرق الراحة ، وعرف كل ما له وما عليه ، فتلهبت فيهم الأفكار ، وتلطف الإحساس ، وقويت قلوبهم على جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم ، فيدركون لأول وهلة أن لا دوام لما وصلوا إليه ، ولا ثبات لما تحصلوا عليه ، إلا إذا تأيد بينهم شأن المعارف الحقيقية ، وعمت التربية سائر

(١) الوقائع المصرية عدد ٣٩٣٢ أكتوبر ١٨٨٠ م (٢٨ شوال ١٢٩٧ هـ) .

أفرادهم ، فيقدمون بكليتهم على الأخذ بالأسباب المؤدية لانتشار العلوم وتعميمها في سائر الأنحاء .

ومن ذلك ما نراه الآن من الحركة الفكرية في **أقطارنا المصرية** ، وتوجه الهمم إلى افتتاح المدارس والمكاتب في كل جهة ، واجتماع القلوب وتألف النفوس على هذا المقصد الجليل ، فإن عدالة الحكومة الخديوية ونزاهة رجالها تعاضدهم على تأييد أمر الإصلاح وتأسيس قواعد العدل ، كل ذلك أورث في الأفكار حركة وفي النفوس همة وفي السجايا كرماً وفي القلوب إقداماً ، لما استقر في أفئدتهم من الطمأنينة والأمن على أرواحهم وأموالهم وسائر شؤونهم ، وسرى فيهم روح الحياة فانبعثوا يتعاونون على الخير ، ويبذلون أموالهم لرفع منار العلم ، فمنهم من يدعو الناس للاجتماع والائتلاف لينقد كل واحد منهم مبلغاً لا يصعب أواؤه ليتكون من المجموع ما يكفي لنفقة مدرسة أو مكتب ، ومنهم من قويت فيه الغيرة وارتفعت منه الهمة ، فكتب على نفسه القيام بمصاريف مدرسة ، وتسارعوا إلى ذلك تسوقهم الرغبة ويقودهم حسن الأمل في حكومتهم السنية ، ثم إن الحكومة لا تألو جهداً في مساعدتهم وتثبيت أقدامهم وتمهيد الطرق لنجاح أعمالهم .

فهذا حضرة متولي أفندي محمود ، وحضرة حسن أفندي عبد اللّه ، رفعا عريضة إلى الجناب الخديوي يذكران فيها ما عزما عليه من إنشاء مدرسة في كوم الشقاف بسكندرية تكون فرعاً للمدرسة الخيرية الإسلامية من مالهما الخاص ، فصادفا لدى جنابه غاية القبول ، وامتن من همتهما وغيرتهما على تقدم الوطن وأبنائه ، وبعث بالعريضة إلى نظارة الداخلية الجليلة ، فصدر رقيمها إلى محافظة الأسكندرية بلزوم مساعدتهما وملاحظتهما وتقديم كافة الوسائل التسهيلية لإقامة تلك المدرسة ، فهذا من أجلى البراهين على ما للجناب الخديوي وحضرة دولتلو رئيس النظار من العناية بشأن البلاد والسعي في رفعة مقامها والميل إلى نشر المعارف في جميع أرجائها ، وهو أكبر شاهد أيضاً على ما وصلت إليه البلاد في مدة لا تزيد عن السنة إلا قليلاً من التقدم العقلي والتنور الحقيقي بعد أن كان لا يسمع فيها باسم ساع في خير أو طالب لمنفعة أو مساعد على مصلحة ، فحق لبلادنا أن تفخر بقوة الاستعداد وحسن القابلية ، وأنها أقرب البلاد إلى الخير والتمدن إذا قامت فيها الحكومة على صراط العدل المستقيم ، فإن هذا الزمن

القليل ليس كافياً في غيرها لهذا التقدم الكثير والمأمول في سائر أبناء هذه الديار أن يلحقوا بمن سبقهم من إخوانهم ويبادروا للانتظام في سلك ذوي النباهة والمروءة ويعضدوا مقاصد حكومتهم التي لا يهمها إلا إصلاح حالهم وحسن مآبهم .

التربية في المدارس والمكاتب الميرية[1]

من المعلوم البين أن الغرض الحقيقي من تأسيس المدارس والمكاتب ، والعناية بشأن التعليم فيها ، إنما هو تربية العقول والنفوس ، وإيصالها إلى حد يُمَكِّن المتربي من نيل كمال السعاة أو معظمها ما دام حياً وبعد موته ، ومرادنا من تربية العقول إخراجها من حَيِّز البساطة الصرفة ، والخلو من المعلومات ، وابعادها من التصورات والاعتقادات الرديئة ، إلى أن تتحلى بتصورات ومعلومات صحيحة ، تحدث لها ملكة التمييز بين الخير والشر ، والضار والنافع ، ويكون النظر بذلك سجية لها ، أي يكون لنور العقل نفوذ تام يفصل بين طيبات الأشياء وخبائثها ، وهذا هو الركن الأول في المدارس والمكاتب . ومرادنا من تربية النفوس إيجاد الملكات والصفات الفاضلة في النفس ، وترويضها عليها ، وإبعادها عن الصفات الرذيلة ، حتى يكون المتحلي بها ناشئاً على ما يوافق قواعد الاجتماع البشري ولوازمه ، ومتعوداً عليه ، وهذا هو الركن الثاني ، وإذا فقد احد الركنين بطلت الفائدة المطلوبة ، وقلت جداً ، ولنترك البرهان على ذلك إلى علم كل إنسان به . فإذا اجتمع للشخص هذان الأمران كان إنساناً له أن يطلب ما ينفعه ، ويبعد عما يضره ، فيدخل في أي أبواب الكسب في الدنيا والآخرة إذا رآه موافقاً لاستعداده ، وفي قوته النهوض به ، فيختار من العلوم والصنائع ما يشاء ، ويبرع فيه بكل رغبة وغيرة ، حتى يصل إلى ما تمكنه القوة منه ، ولا يتأتى منه الإهمال فيه ، لوجود

---

(١) الوقائع المصرية العدد ٩٥٧ في ٢٩ نوفمبر ١٨٨٠ م (٣ ذي الحجة ١٢٩٧ هـ) .

الباعث من ذاته ، وهو غيرته وتصوره للغاية الذي لا يفارقه ، أما إن كان الشخص ضعيف الإدراك أو فاسد الأخلاق ـ وإن كان عالماً بجميع علوم الدنيا ـ فلا ريب أن يكون شقياً في نفسه ، وسياء[1] في الشقاء لغيره ، ولا تغني عنه المعلومات شيئاً ، بل ذهب بعض الحكماء إلى أنه لا ينال العلم من أي نوع كان حقيقة إلا بعد تحلي النفس بالصفات الجميلة ، التي منها بل أعظمها حب الكمال ، الذي هو الداعي الحقيقي إلى طلب العلم والبراعة فيه ، وإن أول مبدأ يجب أن يكون أساساً لتحلية العقول بالمعلومات اللطيفة ، والنفوس بالصفات الكريمة ، هو التعاليم الدينية الصحيحة ، أعني ترغيب القلوب بما يرضي الخالق ، وإذهابها مما يغضبه ، ثم يؤتى بالرغيبة التي يراد حث النفس عليها على حقيقتها المقصودة للشارع ، بحيث لا تخرج عن مكارم الأخلاق التي حصر الشارع علة بحثه فيها ، كما قال **عليه الصلاة والسلام** : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ، ويؤتى بالأمر المنفور منه كذلك على وجهه ، ثم يقال إن ذلك يرضي اللّٰه وهذا يغضبه ، وذلك لا يتأتى نجاحه إلا بعد أن تكون القلوب الساذجة قد ملئت خشية من اللّٰه ، وتعظيماً لجلاله ، وتبجيلاً لمقام ألوهيته السامي ، بحيث لو ذكر اسم اللّٰه عند شيء خفق قلب السامع ، واضطربت جوارحه خشية منه ورهبة ، فيكون ذلك سبباً لإقدامه على ما يرضيه من الفضائل ، ونفرته عما يغضبه من الرذائل ، فهذا هو أسهل الطرق وأقربها للتربية والتهذيب . فإن الطفل في صغره ، بل والشاب في أول بلوغه ، يعسر عليه ـ لقلة التجربة ـ أن يفهم مضار الأشياء ومنافعها من حيث هي بطريق العقل الصرف ، خصوصاً مما يتعلق بالصفات النفسانية التي يكثر فيها التضارب ، يستحسن منها عند شخص ما يستقبح عند آخر وبالعكس ، وإيداع مثل ذلك في القلوب إنما يكون بتعويد الابدان على العبادة ، وتذكر جلال اللّٰه بالركوع والسجود ، ومعرفة العقائد الدينية السليمة ، فهي الأساس لكل ذلك ، وطالما تشوفت النفوس لأن تكون التربية في المدارس على هذا النمط المفيد ، الذي عولت عليه جميع الأمم المتمدنة في مبادىء تعاليمهم ، فإن من تتبع قوانين التعليم في الممالك الأوروباوية رآها بأسرها موجبة للابتداء بالتعاليم الدينية ، والاستمرار عليها إلى ما يزيد عن ست سنوات تقريباً ، ولكن لم تسمح الحوادث السابقة بنيل هذا الغرض لاسباب نضرب عن ذكرها صفحاً .

---

(١) المراد اسوة .

والآن رأينا نظارة المعارف العمومية وجهت عنايتها إلى ذلك ، وطلبت تجويده ، والاهتمام بشأنه من المعلمين والنظار ، وأن لا يهملوا فيه كما أهملوا في سابق الأمر ، وشددت عليهم في ذلك كل التشديد ، حتى أوجبت على الأساتذة أن يقوموا برسوم العبادة حق القيام أمام التلامذة ، ويدعوهم لذلك إن كانوا مسلمين ، أما المسيحيون وغيرهم من ذوي الأديان الأخر فلا يكلفون بذلك أصلاً ، بل هم على حريتهم ، فلها الشكر على هذا المقصد الحسن ، غير أنه يلزم أن لا تكون هذه العبادات والتعليمات الدينية صوراً يابسة لا روح فيها ، كعبادة الجاهليين ، بل يجب أن تكون معنوية حقيقية ، تخرق حجاب الغفلة ، وتتمكن في باطن الإدراك ، وتبعث في الأشخاص روحاً من الحياة يشهد أثره الناس أجمعون . وعلى نظارة المعارف أن تلاحظ التعليمات الدينية التي يلقيها المعلمون ، حتى لا تكون محشوة بأنواع من التخريف المضاد لحقيقة الدين ، كما جرت عادة كثير من المعلمين الذين يظهرون بصورة العلماء ، وإن كانوا في الحقيقة من أردأ الجهلاء ، فإن ذلك يخل بالمقصود من التربية ، ويضر بتقدم التلميذ في كثير من الفنون التي يلزمه تحصيلها ـ (وسنعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى عند الاقتضاء) ـ وهذه هي صورة منشور المعارف إلى جميع نظار المدارس والمكاتب :

«قد علم من جداول الامتحان العمومي المقدمة إلى ديوان المعارف ، وما معها من النتائج ، والملحوظات المعروضة من طرف حضرات رؤساء الامتحان وأعضائه ، ان بعض المكاتب لم يحصل فيها الاعتناء بتعليم قواعد الإسلام ، المندرجة في المسامرة الخامسة والعشرين من (كتاب التمرين) ، حسب المقرر في الصحيفة الثالثة من ترتيب دروس المكاتب الأهلية والمدارس الملكية الابتدائية ، مع ان معرفة قواعد الإسلام بالنسبة لأطفال المسلمين من أهم ما يلزم الاعتناء به ، ولا يجوز اغفاله في حال من الأحوال مطلقاً ، فيلزم تدريسها للتلامذة بمعرفة خُوجات القرآن ، مع حسن تفهيمها وتعليمها لهم ، بحيث يحفظونها عن ظهر القلب ، ويفهمون معناها فهماً جيداً ، ويعرفون كيفية أدائها على اكمل وجه ، في الفرقة المقرر عليها قراءتها في الترتيب المذكور ، وهي الفرقة الثالثة من كل مكتب ، ومذاكرتها لهم كل سنة في كل فرقة يترقون إليها حتى لا ينسوها ، وإذا كانت تلامذة فرقة من الفرق المتقدمة على الفرقة الثالثة لم يسبق لها قراءتها في تلك الفرقة ، يجدد لهم تدريسها وتعليمها كما ذكر في الفرقة التي هم بها بمعرفة خوجه النحو ، إذ من بعد الآن لا يرخص بترقي التلامذة من فرقة إلى أعلى

منها من ابتداء الفرقة الثالثة إلى أعلى فرقة إلا بعد التحقق بالامتحان من معرفتهم للقواعد المذكورة حفظاً وفهماً ، وعلماً وعملاً ويكون من أخل بشيء من ذلك من الخوجات المنوطين به تحت المسؤولية الشديدة ، ويشترك معه في هذه المسؤولية ناظر المكتب أو المدرسة ، إذا يتحتم عليه رعاية القيام بما ذكر ، ويجعل لذلك خانة مخصوصة في جداول الامتحان العمومي ، والامتحانات التي تحصل في أثناء السنة ، ويعطي فيها «نمرة» كسائر الدروس ، وكل هذا بالنسبة لأطفال المسلمين خاصة ، وعلى خوجات القرآن الشريف والنحو حث التلامذة على الصلاة من السن الذي يؤمرون بها فيه شرعاً ، مع دوام وعظهم في ذلك ، وترغيبهم فيه ، وتحريضهم عليه ، ونهيهم وزجرهم عن تركها والتكاسل فيها ، وعلى ناظر المكتب رعاية ذلك ، وتريب أوقات الدروس على وجه يوجد فيه وقت لأداء الصلاة ، مع الحث منه للتلامذة عليها ، وحملهم على أدائها جماعة مأمومين بأحد خوجات القرآن الشريف أو النحو في المحل المعد للصلاة بالمكتب أو المدرسة إن كان موجوداً ، فإن لم يكن موجوداً ففي مسجد قريب ، فإن لم يكن بالمكتب أو المدرسة محل للصلاة ولم يوجد مسجد قريب فعلى الناظر المبادرة بالعرض إلى الديوان عن تحديد محل للصلاة ، مع إرسال رسمه ومقايسة تكاليفه ، ومع أداء الصلاة في موضع يستحسن لذلك ولو في حوش المكتب أو المدرسة موقتاً إلى أن يتم أنشاء المحل المطلوب ، وإذا لزم تدارك حصيرة للصلاة أو أكثر على حسب عدد التلامذة وسعة المحل ، يبادر كذلك بالعرض للديوان عن اللازم ، مع بيان القياس المطلوب ، وقد كتب بما ذكر إلى النظار عموماً ، وهذا لحضرتكم للإجراء على الوجه المشروح بغاية الاهتمام ، والحذر من التهاون فيه بعد الآن».

المعارف[1]

كثر تحدث الناس في شأنها في هذه الأوقات ، وكأنهم لما فرغوا من الأفكار المتعلقة بالأمور المالية والإدارية ، وما كان فيها من الاضطراب ، وتنوع الأحوال ، وتقلب الأشكال ، إذ كفتهم الحكومة أمر ذلك كله بثباتها وتبصر رجالها العقلاء ، أخذوا يلتفتون إلى ما به حياتهم الحقيقية ، ونمو هيئتهم الاجتماعية ، وظهور شأنهم بين الناس ، وحسبانهم في عداد أهل العالم ، وهو العلم النافع ، الذي رأينا جيراننا من الممالك نالوا به السيادة على غيرهم ، وطفقوا يتذاكرون فيما به يكون تقدمه ، والوسائل الموصلة إلى انتشاره في أقطاره ، موجهين آمالهم إلى نظارة المعارف العمومية ، لأنها ذات الشأن فيه ، فقالوا كلاماً كثيراً أذكره كما قيل . . .

قالوا : إن المدارس ينبوع هذا الخير الجليل - (العلم) - وليس له من وسيلة سواها ، ولكن تحت شروط لا بد من استيفائها - (ولسنا الآن بصدد بيانها) - وقد افتتحت المدارس في ديارنا من عهد المرحوم **محمد علي** باشا ، لكن كان اسمها غريباً على الآذان ، وحشياً عن القلوب ، يساق الناس إليها (كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى المَوْتِ)[1] إذ كانوا يظنون ان الدخول في المدارس هو الانتظام في العسكرية ، والدخول في العسكرية هو الشقاء الدائم والبلاء المحتم ، وبعض الناس بعد التنبه كانوا لا يرون خطة أرفع من

---

(١) الوقائع المصرية . العدد ٩٩٠ في ٢٠ ديسمبر ١٨٨٠ ١٨ محرم (١٢٩٨ هـ) .
(٢) الأنفال : ٦ .

خطة الكتابة في ديوان أو مصلحة ، لما يرون للكاتب من المكانة عند الحكام والتصرف في الحقوق ، فاكتفوا بإرسال أبنائهم إلى الكتبة يعلمونهم ، حتى إذا كبروا انتظموا في سلكهم ، وكانت لهم المنزلة المطلوبة بدون حاجة إلى مدرسة ولا مكتب منتظم ، وبعض الناس ربما كان يعلم فائدة المدارس ، ولكن كانت توجد له أسباب تمنعه من تربية أبنائه فيها (ولكنا لا نبديها) .

وأما في أيامنا هذه فقد تنبهت العقول، ووقفوا على فوائد العلم وثمراته حق الوقوف ، غير ان ذلك يقضي على الآباء بتربية أبنائهم من الآن فصاعداً على الطريقة المنتظمة ، أما الشبان الذين فاتهم زمن التعليم في تلك الجهالة السابقة ، واشتغلوا بتحصيل مادة المعاش إما بالتوظف في الخدمات «الميرية» ، أو طلب الكسب من وجوه أخر ، ولهم شوق تام إلى كسب فضيلة العلم ، فلا تساعدهم أحوالهم بالضرورة على الرجوع إلى التعليم في مكاتب الأطفال ، وتعطيل أسباب معاشهم ، فيود الكثير منهم أن تكون في البلاد مدارس ليلية يتداركون فيها بعض ما فاتهم في الأزمنة السابقة ، أزمنة جهل آبائهم ، لعلهم بذلك ينفعون أنفسهم وبلادهم بأكثر مما يقدرون عليه الآن ، حتى اهتم بعض من الشبان من مدة نحو سنتين بتأليف جمعية لفتح مدرسة ليلية ثم عارضتهم بعض الموانع فلم تساعدهم المقادير على النجاح ، وكانوا في انتظار توفيق إلهي يسوق إليهم ذلك الخير ، حتى سمعوا بان نظارة المعارف تروم افتتاح مدرسة ليلية ، ففرحوا واستبشروا ، وقالوا : نعمة من اللّٰه سِيقَتْ إلينا ، نؤدي له مزيد الشكر عليها ، ثم انقبضت نفوسهم عندما سمعوا من شروط تلك المدرسة ان تكون دروسها باللغة الفرنساوية خاصة ، ولا يقبل فيها إلا من كانت عنده مبادىء الرياضيات والطبيعيات ، وله تقدم في اللغة الفرنساوية ، وقالوا : يا سبحان اللّٰه ! إن المدارس الليلية في البلاد المتمدنة تُقْرأ فيها العلوم الابتدائية باللغة العامية ، مع التزام التسهيل في التعبير ، والتحاشي عن ذكر الألفاظ الاصطلاحية الغريبة أو العسرة التفهيم ، وذلك لفائدتين :

الأولى ـ إن كل من يعرف القراءة والكتابة يمكنه أن يفهم مبادىء العلوم بهذه الطريقة ، فلا تفترهمة الذين لم ينالوا حظ التعليم في صغرهم ، وينتشر العلم حقيقة ، إذ لا يكون في فهمه صعوبة ، ولا يمنع الشخص عن اشغاله النهارية .

والثانية ـ إنه إذا كان التعليم على هذا النمط تكون المسائل العلمية ، لقربها إلى الفهم ، كاحدوثات تتسلى بها النفس ، بل ألذ من ذلك ، إذ لا يدخل الرجل محفل

العلم إلا ويخرج بنور جديد ، فتنجذب نفوس الناس إلى مستملحات العلم ، فبدل صرف أوقات ليلهم الطويل في مضاجعهم يتقلبون من جانب إلى جانب ، أو في بيوتهم بحادثات لا طائل تحتها ، أو في أماكن أخرى نتحاشى عن ذكرها ، يهرعون إلى معهد العلم ليغذوا عقولهم ويروحوا قلوبهم ، ولم نسمع أن أمة متمدنة افتتحت مدرسة عالية وجعلتها ليلية ، فلم عُدِلَ عن هذه الطريقة الجليلة في بلادنا ، واخترعت طريقة جديدة ، وهو جعل التدريس في المدرسة الليلية بلسان أجنبي عن لسان البلد بالكلية ، لا يفهمه المتفنن منهم ولا العامي ، والعلوم التي تقرأ بها عالية لا ابتدائية ، حتى يحرم الناس الذين هم أحوج إلى التعليم وأولى به ، وهم الخدمة وأرباب الكسب المحبون لنيل فضيلة العلم ولا يستطيعون ، ويتلهفون على ذلك ولا يجدون ، وهو مما يوجب الأسف ، خصوصاً وقد تواتر على الألسنة إن غالب من قُبِلُوا فيها أجانب ـ (وإن كان ذلك غير صحيح ، فعندي علم اليقين بأن الأكثر وطنيون ، لكن من الذين تعلموا في مدارس «الفرير» ونحوها) ـ فهل يقال بإننا تقدمنا عن تلك الممالك ، فترقينا ، حتى صارت مدارسنا الليلية أعلى من مدارسهم ، أو أيقنا بان العامة منا والكتاب لا يستفيدون من ذلك شيئاً ، أو لاحظت نظارة المعارف انها بذلك تستحصل في زمن قريب على أساتذة تجعلهم معلمين في مدارسها ومكاتبها ، فإن كان هذا الوجه الأخير قلنا إنها ستجعل مدرسة الخوجات نهاراً فلها أن تزيد في عدد تلامذتها ما تشاء لهذا الغرض ، على أنه لو سلك في المدرسة الليلية مسلك البلاد المتمدنة لتأتى لنا الوصول إلى بعض هذا المقصد ، فكثير من أهل العلم كان يود أن ينتظم في تلك المدرسة ليتعلم العلوم التي فاته تحصيلها ، لكن منعه كون التدريس بلغة أجنبية ، وكون الدروس فوق البدايات ، وإن كان الثاني قلنا : إن الاستعداد والشوق موجودان في كثير من الناس ، ولهم رغبة تامة في التعليم ، فكيف يصح إساءة الظن بجميع شباننا إلى هذا الحد ؟! وإن كان الأول قلنا الأولى أن لا نتكلم ، واننا وحق الحق لفي حاجة كلية إلى أن يكون التعليم الليلي عندنا مستديماً ، آخذاً من البداية ، سهل الوسائل ، ميسر الأسباب ، بلغة بلادنا عامة أو خاصة ، حتى تنقطع حجة الجاهل ، ويبطل برهان الكاسل ، وتنبعث الغيرة في الكل إذا أقبل البعض على التعليم ، ويقع التنافس في الفضائل ، ويجد الشبان الذين استرسلوا مع هوى الشباب شغلاً ، وتوبخهم الذمة ، وتلعنهم ضمائرهم إذا تركوه ، إذ لا يجدون لهم علة يتعللون بها إذ ذاك ، نرى انه لا بد أن يكون هذا التعليم الليلي اجبارياً عاماً لكل مستخدم وقارىء لم يتعلم تمام ما يجب عليه في وظائفه ، إلا الضرورة

تمنعه من مرض ونحوه ، خصوصـاً بعدما أعلنت الحكومـة أن جميع المستخـدمين في الإدارات أو التحصيـلات لا بد أن يكونـوا من الدرايـة بحيث يقدرون عـلى تحقيق القضايا ، وحل المشكلات بأنفسهم في مواد الجنايات ، والحقـوق والحسابـات ونحو ذلك ، وهذا لا ريب يستدعي أن يكون جميعهم على بصيرة تامة ، وذوي عقل وافر ، وهذا لا يمكن إلا بعد تحلية العقل بالعلوم الابتدائية التي لا بد منهـا لكل من يـريد الاستقلال في سيره .

هذا حاصل أقوال الناس في شأن المدرسة الليليـة التي افتتحتها نـظارة المعارف قريباً ، وربما كانت تلك الأقوال صحيحة ، لكن إن صح ما قالوا فعليهم بتقديم آرائهم لسعادة ناظر المعارف ليتروى فيها ، ثم يجيبهم إلى مطلوبهم إن رآه موافقاً وخالياً من الموانع والمحظورات ، وإلا أقنعهم بأن تعميم النفع غير ممكن ، فحينئذ يعلمون الحق ويريحون انفسهم من الجدال ، ولهم أقوال في مواضيع شتى يمنعنا من ذكرهـا في هذا العدد ضيق المقام ، وربما نذكرها غداً إن شاء اللّه .

* * *

المعارف[1]

مقالات الناس فيها وأفكارهم العمومية متنوعة ، ذكرنا بعضها في عدد سابق ، ونذكر بعضاً منها في هذا العدد ، حفظاً لمتفرقات الأقوال ، لعل شيئاً منها يقارن صحة فيصادف قبولاً ، وليكون ذلك دليلاً على تنبيه الأفكار ، والتفات أذهان الناس إلى النافع الحقيقي ، قالوا :

نشرت نظارة المعارف إلى جميع فروعها منشوراً مبسوط العبارة ، مشحوناً بالمعاني الرفيعة ، قاضياً على نظار المدارس والمكاتب ومعلميها بوجوب التفاتهم لـوظائفهم ، وقيامهم بواجباتهم ، مبيناً لهم أن الامتحانات في العام الماضي على الطريقة الجديدة قد أظهرت أن في بعض المدارس قصوراً في التعليم ، وفي بعضها كمالاً وزيادة ، فاستوجب موظفو الأولى التوبيخ والإنذار ، وموظفو الثانية الشكر والثناء ؛ فعلى الجميع من الآن فصاعداً بذل الجهد في ارتقاء درجة التعليم ؛ وطرق التفهم ، وأنذر من لم يحذ حذوها بوقوعه تحت مسؤولية الديوان .

فانشرحت صدور العامة والخاصة بهذه التنبيهات الأكيدة ، والتعليمات المفيدة ،

---

(١) الوقائع المصرية . العدد ٩٩٣ في ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨٠ م (٢١ محرم سنة ١٢٩٨ هـ) .
(٢) من معانيها حبسة الصوت .

وقالوا لو عمل بهذا المنشور لا طمأنت نفوس الكافة إلى تربية ابنائهم في مدارسنا ، التي يصرف بها آلاف من الجنيهات على خزينة الحكومة ، ليتربى بها على توالي الأزمنة رجال يكونون فخر البلاد وحماة ذمارها ، فقد كانت النفوس في ريب من نجاح التعليم فيها قبل اليوم ، ولذلك كانت مدارس «الفرير» والإنكليز والأميركان «والبروسيان»[١] وغيرها عامرة بأبناء الأهالي ، مسلمين ومسيحيين ، ومدارسنا ليس فيها منهم العدد اللائق بشأنها ، ولم يكن ذلك إلا لما اظهرته التجربة من نجاح التعليم في تلك ، وقصوره في هذه ، مع مراعاة الآداب التي يفرح بها الوالدان والأقارب في المدارس الأجنبية ، واغفالها في مدارسنا ، لكن ـ الحمد لله ـ تلك أيام قد خلت ، فإن التفات سعادة ناظر المعارف إلى كيفية التعليم وتشديده في أن تكون على وجهها الحقيقي ، مما يفيد الآمال ويقويها .

إلا أنهم يتساءلون فيما بينهم بسؤالات كثيرة ، منها قولهم : هل حصلت المكافأة الحقيقية لمن أظهر الامتحان اجتهادهم من النظار والمدرسين ؟ ، وهي مكافأة الدينار والدرهم ، فإن مكافأة الشكر والثناء ـ وإن كانت واجبة ، وهي من أجل المكافأة وأجملها ، ولها تأثير في جلب الرغبات ، وتقوية العزائم ـ لكنها لا تلتصق بالقلب التصاق النقود والمساعدة المعاشية ، فإن من ضاق عليه العيش ، وكانت حاجاته أكثر من إيراده ، لا تنفك عنه الوساوس ، ولا يبارح ذهنه الاضطراب ، وتغلب منغصات الحاجة وآلامها على الفرح الذي أنعشه عندما سمع كلمة الثناء عليه ، ثم ذلك ينقص من اجتهاده ، ويحط من همته ، بل ربما أورث خللاً في كيفية تأديته لوظائفه ، خصوصاً إذا رأى غير المجتهد مماثلاً له في الرزق وأوفر راتباً منه ، ولقد صدق القائل : «النقص من الرواتب نقص من الأعمال» . لكن المنشور لم يذكر فيه حصول تلك المكافأة ، مع ان المسموع ان ميزانية المدارس كانت قابلة لذلك ، ونظارة المالية تسمح باستغراقها ، بل تود لو يزاد فيها .

وقولهم : هل جميع من نشر عليهم هذا المنشور الجليل يدركون الغرض منه حق الإدراك ؟ ، وإذا أدركوه فهل يوجد عندهم من القوة العملية والتدرب على الطرق

---

(١) الألمانية البروسية .

الجديدة ما يؤهلهم لإجرائه والسير بمقتضاه ، بحيث تحصل الغاية منه بمجرد نشره ؟ ، أو ان الكثير منهم محتاج لأن يتعلم تلك الطرق ويتمرن عليها ، والبعض ربما لا يمكنه ذلك حتى ولا بالتعليم ؟ ، وهل امتحن المعلمون والنظار كما امتحنت التلامذة ، وعلم المستعد منهم وغير المستعد ، بوجه الدقة والضبط ، حتى إذا وجد منهم من لا يليق لوظيفة انزل عنها ، ورزقه على اللّه ؟! ، ومن يليق لأعلى منها رفع إلى ما يستحق ، لتوجد الرغبة الحقيقية أولاً ؟؟ . . ونخشى عواقب الجهل والإهمال ، ويتوفر على المعارف زمان تجرب فيه المعلمين مرة أخرى ، ويكون كله خساراً على التلامذة المساكين !! . ولا نقصد بالامتحان إلا السؤال في الفن الذي يُعَلِّمه ، فإذا تبين أنه يمكنه الإحاطة بمسائله ، ولو بمراجعة الكتب على وجه السهولة ، عُدَّ عارفاً ، ثم طلب الإلقاء والتدريس ، وكيفية التفهيم ، فرب عالم لا يستطيع البيان .

يقول الناس إنه يوجد بين المعلمين أشخاص فضلاء نجباء ، عارفون فنونهم ، قادرون على تأديتها بالوجه اللائق ، لكن يوجد بينهم آخرون ألفوا بعض الطرق العتيقة وتعودوا عليها ، فلا يستطيعون بعد طول الزمن التحول عنها ، وإن كانوا علماء بفنونهم ، والبعض منهم يستطيع تأدية القواعد علماً ، ويعجز عن تمرين المتعلم عليها عملاً ، والبعض يوجد خالياً من الأمرين ، يهزأ به التلامذة ، ولا يوقرون أستاذيته ، كل ذلك يزعمون مشاهدته بالعيان ، ويوجد بين المعلمين صنف من النبهاء لا يحب أن يجهد نفسه في التعليم ، ويكتفي في درسه بحكاية بعض ما وقع له في يومه أو ليلته ثم ينصرف ، فهل تعينت هذه الأوصاف في أربابها ؟ واعترف للفاضل بفضله ، وعُرِّف الناقص مقدار نفسه ، وأُنزِل كل منزلته ؟ ، هل اختارت نظارة المعارف لإجراء هذا المنشور أشخاصاً من العرفاء ، كل في فن مخصوص ، ليطوفوا على المكاتب الابتدائية والمدارس الخصوصية ، ولا يكون لهم عمل سوى هذا ، ليقفوا على أحوال تلامذة جميع المدارس في كل أسبوع أو خمسة عشر يوماً مثلاً ، ويقدموا جميع ما يرونه من الملاحظات على وجه الدقة التامة ، فإن رأوا نقصاً عرفوا سببه ، ومن أي الجهات منبعه ، فإن كان إعوجاجاً في طريق التعليم أرشدوا المعلم بأنفسهم ، وبيّنوا له الطريق مرة بعد أُخرى ، فإن اعتدل وإلا اعتزل ، ويكون أولئك الأشخاص تحت مسؤولية شديدة ، إذا ظهر فيها بعد نقص ، ولم يكونوا نبّهوا عليه ، فإن ذلك يبعث الغيرة ، وينشط الاجتهاد في المعلمين وغيرهم ، وتكون حركة المدارس في خط مستقيم يوصل إلى المقصود بأقرب

الطرق المؤدية إليه ، ويسهل تدارك الخلل إذا ظهر ، وإزالة النقص إذا طرأ ؟ هل دققت نظارة المعارف في معرفة أخلاق النظار والأساتذة الذين وضع الأطفال في كفالتهم ، يدبرون أمورهم ويرشدونهم إلى كمالهم ، وفصلت بين صاحب الأخلاق الفاضلة ، والأفكار المستقيمة ، والعفة والنزاهة ، والغيرة على نفع من وكل أمرهم إليه ، وأداء ما وجب في ذمته ، حتى يكون حاله وكماله درساً آخر يعطى للتلامذة في كل يوم ، فتنطبع هذه الكمالات في نفوسهم بأشد من انطباع صور المعلومات في عقولهم ، وهو المعنى المقصود من التربية ؟ وبين من لا خلاق له ، بأن يكون أحمق ، أو دنيئاً ، أو عديم الغيرة والذمة ، أو رديء الأفكار ، ونحو ذلك من الذين تكون معاشرة التلامذة لهم موجبة لتلوثهم بالرذائل ، وتكون كلماته في الدرس ممزوجة بسم الفساد ، فتميت أذهانهم ، وتكون عاقبة أمرهم إما جهلاً ـ وقد ضاع الزمان وولى الشباب ـ وإما علماً صناعياً مصحوباً بشرور تعود على صاحبها بالشقاء ، ويا ليتها تكون قاصرة عليه ، ولكن تتعدى إلى غيره بحكم العادة المستمرة . وعند الفصل بين الفريقين ، بارشاد الرقباء النبهاء ، ذوي الفراسة والخبرة بأحوال العالم وأخلاقهم ، والأمانة في الخبر والصدق فيه ، يميز الخبيث من الطيب ، ويبحث عن المستقيمين على قدر الطاقة في أنحاء البلاد ، لتفوض إليهم تربية الأطفال والشبان ، ليكونوا رجالاً ينفعون أنفسهم وحكومتهم التي تصرف عليهم المصاريف الكثيرة ، أملاً بحصولها على رجال تقيمهم في وظائفها الكثيرة ، يؤدون واجباتها بالضبط والأمانة .

يقولون : إنه لا شك في كون الكتب الموجودة في العلوم العربية مثلاً ليست أساليبها سهلة المأخذ على التلامذة ، ولا موافقة لطريقة التعليم في المدارس ، من اشتغال التلميذ بفنون كثيرة في زمان واحد ، وإنه يلزم إيجاد طريقة جديدة في التأليف ، وإزالة كثير من الصعوبات التي عاقت كثيراً من الناس عن التعليم ، فهل حصلت العناية بتصنيف تلك الكتب ؟ وإن حصلت فبمن انيط تصنيفها ؟ وهلا شكل مجلس للنظر في مثل تلك التسهيلات ، ودعي إليه أعضاء ممن لهم سعة في الفكر والاطلاع على الطرق القديمة والجديدة ، ويكون لهذا المجلس حق في تعيين الكتب التي ينبغي تدريسها في أي الفنون ، حتى يتأتى إجراء ذلك المنشور السابق على وجه الكمال ؟؟ .

. من المحقق إن سعادة «**عبد الله باشا فكري**» وكيل عموم المدارس في سفره إلى الجهات البَحَرية قد رأى أمورا كثيرة تستحق الالتفات ، وطلب من نظارة المعارف أشياء

مهمة لا بد من تقريرها ، والإسعاف بها ، فهل أجيب طلبه ؟ وحصلت المذاكرة في تلك الآراء القويمة التي أبداهـا ؟ حتى يفرغ من تنفيذ مقتضاها إلى البحث في غيرها من الجهات القِبَليَّة ؟؟.

هذه جملة من سؤالاتهم ، سردناها للإحاطة بها ، وإنّا نجيب عن ذلك بأن نظارة المعارف هي أعلم بما يجب عليها من جميع ذلك ، وانها لا تغفل شيئاً مما تعلمه نافعاً ومفيداً ، ومن اليقين انها لا تشرع في شيء ثم تتركه يتم بنفسه بدون مراقبة البتة ، قد أعدت لمقاصدها وسائل ، إذ تعلم ان زماننا هذا لا يرى فيه إلا الأثر الظاهر ، ولا يؤثر عن رجاله إلا الأعمال الحقيقية ، أما صدور الأوامر والنطق بالألفاظ العالية بدون ترتب فائدة عليها فقد مضى وقته ، وإن الآمال متعلقة برجال تلك النظارة العرفاء الأجلاء ، كسعادة ناظرها الأكرم الحريص على تقدم العلم والغيور الرفيع الهمة سعـادة وكيلها **عبد اللّه باشا فكري** ، والبصير الحاذق وكيل المكاتب الأهلية حضرة **علي بك فهمي** ، وسنرى من أعمالهم ما يرفع جميع هذه الأوهام ، ويفتح للمعارف في عصرنا هذا تاريخاً جديداً ، فهذه هي الفرصة التي نرى فيها الحكومة العالية مساعدة على نشر المعارف وتأييدها ، فعلينا أن لا نضيعها .

* * *

المعارف[1]

من المحقق ان نظارة المعارف قد اهتمت وعزمت على فتح مدرسة ليلية ، تُقْرأ فيها العلوم الابتدائية ، لتكون عامة النفع شاملة الفوائد ، يذهب إليها الرجال الذين شغلهم الكسب والضرورات المعاشية نهاراً عن التعليم ، مع رغبتهم فيه ، وميلهم إليه ، ولهم من أوقات الليل الطويل فرصة لا يضيعونها ـ إذا افتتحت مثل هذه المدرسة ـ إلا في تعلم ما ينفعهم ، ويزيدهم نوراً وبصيرة ، وسيكون التدريس فيها باللغة العربية ، التي هي لغة بلادنا ، ويقرأ فيها درس باللغة الفرنساوية ، يكون قاصراً على تعليم اللغة لا غير ، يُبْتَدأ فيه الهجاء الفرنساوي إلى نهاية ما يلزم أن يُتَعَلَّم في تلك اللغة ، أما دروس اللغة العربية فمنها ما هو خاص بتعليم قواعد اللغة ، ومنها ما يكون في بعض علوم أخر نافعة ، من آداب ، وتاريخ أحوال الأمم ، وتاريخ طبيعي ، وبعض مبادىء الرياضة فيما سمعت بحيث لا تنقص عن تلك المدرسة التي سبق منا الكلام عليها ، المسماة بمدرسة الخوجات الليلية ، في جوهر ما يقرأ بها ، وإن كانت تختلف عنها بأن هذه تكون لغة التعليم فيها وطنية وتلك أجنبية ، وهذه آخذة من البدايات وتلك آتية من النهايات ، وهذه يكون معظم نفعها بل كله للوطنيين وتلك لا تتوسم فيها ذلك إلا ببرهان ، وهذه الاختلافات وإن كانت عظيمة لكنها لا تضر في المقصود .

---

(١) الوقائع المصرية ، العدد ٩٩٧ في ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٠ م (٢٦ محرم ١٢٩٨ هـ) .

وبما ينبغي ذكره ، انه ثبت في أذهان بعض الناس ان مجرد تعلم اللغات الأجنبية يعد فضيلة يسعى إليها ويهتم بشأنها ، مع إن اللغة في ذاتها لا فضيلة فيها ، ولا يصح أن تجعل غاية تُقْصَد ، وإنما هي وسيلة لما احتوت عليه تلك اللغة من العلوم والآداب والأفكار التي ربما لا تكون مبسوطة في اللغة الوطنية كما هي واضحة في اللغة الأجنبية ، فطالب تعلم اللغة الفرنساوية مثلاً إذا لم تكن عنده مبادىء علوم وملكة إدراك في بعض الفنون التي يطلب التفنن فيها لا يعد مصيباً في طلبه ، إلا إذا طلب معها تعلم تلك المبادىء ، حتى إنه عند بلوغه إلى حد الاقتدار على فهم اللغة يتيسر له الوصول إلى الفائدة المقصودة ، فلا يصح بناء على ذلك أن يكون التعلم والتعليم الليليان قاصرين على اللغات فقط ، بل يلزم أن يكون معها بعض مبادىء العلوم كما عزمت عليه نظارة المعارف الجليلة ، التي لا نزال نرى مساعيها في تقدم أبناء البلاد ، وبث روح العلم فيهم تأتي من النجاح بما يخلد لسعادة ناظرها ووكيلها طيب الذكر والثناء .

وبافتتاح هذه المدرسة يفحم المجادلون ، وتبطل حجة اللائمين ، الذين انصبوا إلى البحث في المدرسة الليلية وفوائدها ، وما يعود على البلاد منها ، ونشرنا وجوه انظارهم فيها في بعض أعدادنا السابقة ، فكان هذا العمل من نظارة المعارف برهاناً فعلياً لا جدلياً يقنع الناظرين ، ويفحم المخاصمين ، ويذهب بتعللات المتعللين ، ومطالباً لأصحاب تلك الأفكار بالبرهان الفعلي أيضاً ، وهو توجه الهمم إلى التعلم ، وافراغ الجهد في تحصيل ثمرات العلم ، حتى تظهر فوائد هذه الآثار ، وأنا على يقين من إن المستخدمين وغيرهم من ذوي الكسب ، الذين يعرفون قدر المعارف ويقدرونها حق قدرها ، يجيبون نظارة المعارف إلى طلبها ، كما أجابتهم إلى طلبهم ، ويكون لجريدة (الوقائع المصرية) شرف الإخبار بخير الأخبار ، وأجر التنبيه على الأمر وما فيه .

* * *

ما هو الفقر الحقيقي في البلاد[1]

إن أرضنا خصبة ، طيبة التربة ، ينبت فيها غالب النباتات التي تزرع على وجه المسكونة ، وهواؤها ونباتها في غاية الجودة ، يصلحان لتغذية كافة الحيوانات البرية ، وبنوها أصحاب كد ونصب ، وذوو صبر على العمل وجلد على التعب ، فهي من هذا الوجه عالم برأسه ، غنية مثرية ، لا تفنى كنوزها ، ولا تفرغ خزائنها ، وإنها بما تأتي من الثمرات لقادرة على حفظ ناموسها ، وتقوية شوكتها ، بل أن تكون سلطتها مبسوطة إلى اقطار أخر .

ولكن ليس كل هذا الذي ذكرته بكاف وحده في الغنى والثروة ، والعزة والشوكة ، وإن كان من كليات أسبابها ، بل لا بد أن ينضم إليه حسن استعمال هذه الأسباب الجليلة ، ورشاد الرأي في استخدامها ، ليوضع كل شيء في موضعه الطبيعي ، وتستعمل كل وسيلة لما يناسبها ، فإن ضلت الآراء ، وساء الاستعمال ، فهذا هو الفقر المدقع الذي يعسر علاجه ، وماذا تصنع الوسائل المُهَيَّئة إذا لم تجد من يستعملها فيما هي وسيلة له ؟ وأي شيء تفيد الفرص إذا لم تصادف من ينتهزها ؟ وهل يقطع السيف الصقيل بلا بطل ؟! ، كلا . . فما فقر البلاد إلا قلة الراشدين فيها ، وما غناها الحقيقي إلا كثرة المهتدين .

---

(١) الوقائع المصرية . العدد ١٠٧٣ في ٢٨ مارس سنة ١٨٨١ م (٢٨ ربيع الثاني سنة ١٢٩٨ هـ) .

فإن سألنا سائل : هل في بلادنا كثير من أولئك الذين هم غنى البلاد إذا وجدوا ، وهم فقرها إذا فقدوا ؟. قلت : مع الأسف ، لا . . انهم قليل ، نخشى إذا انقضى دورهم أو قضى أجلهم أن لا يوجد بدلهم ، والبرهان على ذلك ان الرجال تعرف بالآثار الثابتة في البلاد ، التي تدوم بدوامها ، أو على الأقل أجيالاً وأحقاباً ، وأن ذوي الآثار الحقيقية في بلادنا ، التي أثمرت ثمراً جناه أبناء الأوطان ، وتمتعوا بلذته ، مع الثقة بدوامه ، هم قليلون جداً ، بل ينحصرون في أوائل مراتب الأعداد ، وإن النفوس الطيبة تعرفهم ، وهم أيضاً يعرفون أنفسهم .

الزراعة على حالها القديم ، لم يوجد منا من يضع طريقة لزيادة الحاصلات ، أو تسهيل العمل ، وتخفيف المشقة ، بل حصل فيها النقص بفقدان كثير من الأنواع التي كانت تزرع في الأزمان البعيدة ، كالكتان والسمسم وغيرهما ، والاقتصار على بعض أصناف قليلة . والصناعة قد انحطت درجتها عما كانت عليه من نحو ستين سنة ، واظن هذا لا يحتاج إلى البيان . والتجارة لم تتغير حالتها عما كانت عليه يوم صارت مصر مصراً ، وبيوت التجارة الواسعة من أبنائنا قليلة جداً . إن لم نقل مفقودة بالنسبة لبلاد أخر . ورجال العلم ومصابيح الفضل لا نراهم إلا قليلاً ، إذا أردنا أن نعددهم لا نحتاج إلى زيادة عن عقد الأصابع ، بل ربما نقف دونها بكثير ، والمترشحون لاستلام إدارة المصالح العمومية التي هي أساس العمران ، وأدائها حق الواجب لها على وجه العدل وطريق الحق ، الذي لا يخامره الباطل ، اللهم إلا خطأ ـ نادراً هم أيضاً كسابقيهم . نعم . . يوجد عندنا من هم استعداد للتمرن والتعلم ، وشاهدنا على ذلك الآثار والعيان .

على ان أولئك الأفاضل من رجال المعارف أو المحنكين في السياسة والإدارة ، ان كانوا في هذا الوقت كثيراً ، فليس في البلاد أساس حقيقي يوجب أن يتأثرهم مَنْ بعدهم حتى لا تنقطع سلسلة الصالحين ، بل إن كانوا وجدوا فبالصدفة والاتفاق ، ثم ينثرهم الزمان ، فلا يطول إلا وقد أتى عليهم بحكمه القضاء المحتوم ، وهيهات أن يأتي هذا التراب بأمثالهم ، فمثل البلاد وهؤلاء الفضلاء ـ إن كانوا ـ كمثل عاجز نبش في أرض قفر ، فوجد فيها كنزاً يكفي لنفقته مدة معينة ، فإذا مضت تلك المدة فقد المال ، واستسلم المسكين لأحكام الصدف ، والغالب على حاله أن يموت جوعاً ، فيكون فريسة لذئب أو طعمة لكلب .

والسبب في ذلك عندنا عدم سريان روح التربية الشرعية العقلية ، التي تجعل احساس الإنسان بمنافع بلاده كاحساسه بمنافع نفسه ، وشعوره باضرار وطنه كشعوره باضرار ذاته ، إن لم نقل تجعل الإحساس الأول أقوى من الثاني ، وتزيد في إحساس الإنسان بمنافعه ومضاره ، ولا اتكلم فيها الآن ، فإن لي في مقالي هذا مقصداً سواها ، فبلادنا من هذا الوجه فقيرة وا أسفاه .

تلك آثار السابقين من الذين وسد إليهم أمر البلاد فجعلوها بأهوائهم العوبة ، وتولوا أمرها فصيروها بسيء تصرفاتهم أعجوبة ، فلا حول ولا قوة إلا باللّٰه .

إن جميع النبهاء في أوطاننا يوافقوننا على هذا الذي قلناه ، ويشاركوننا في الأسف على مثل هذه الحال ، أعني فقر البلاد من الرجال ، والدليل على ذلك إن غالبهم إذا ذاكرته في مثل هذا الموضوع رأيته ينطق بأنه قد بذل كل الجهد في الوصول إلى ما انتهى إليه من درجات الفضل ، ويتأسف على أن بقية الناس لم يلحقوه ، فهذه منهم شهادة على ان الفضل قليل ، وبنوه مثله .

فإن سألنا سائل هل من مانع يحول دون وضع ذاك الأساس ، أساس المجد والعزة ، أعني به أساس التربية الحقة ؟ ، وهل يوجد عنه صارف سوى الغفلة ، وانحطاط همم الأفراد من الناس ، الذين يجب عليهم طلبه ، والمحافظة عليه ؟؟ قلت : لا . إننا كنا في الزمن السابق نتعلل في اغفال مصالحنا ، واغماض الجفن عن رؤية نور الهداية ، بالخوف من ظلم الحكومة ، وكان لنا بعض الحق في ذلك ، فإن السلطة في تلك الأزمان كانت ضاربة على العقول والأفكار حجباً من الرعب والخشية ، فإن غاياتها من التصرف في الحقوق بما تشاء ، ونفوذ الكلمة ، واستيفاء الأغراض ، وقضاء الأوطار الذاتية ، لا تمكن إلا مع جهل المحكومين وعمائهم ، حتى لا يعرفون حقاً فيطلبونه ولا باطلاً فيدفعونه .

وهي وإن أدخلت في البلاد أسماء كثيرة ، كاسم المدارس والمكاتب والمعارف والعلوم والتمدن والحرية والقوانين والنظامات والأوامر واللوائح وما شاكل ذلك ، إلا إنها كانت بدون مسميات ، بل تطلق عليها هذه الأسماء مجازاً بعيداً ، وإنما كانت تجلب على النظر والسمع صوراً خيالية ، إذا امتحنها العقل ذهبت أوهاماً ، فلم تكن في تلك الأيام سعة لفاعل خير أن يفعله ، بل لو ظهر أحد في ذلك الوقت من غير حواشي المتسلطين بأنَّ له ثروة يريد أن ينفق منها في سبيل خيري ، اصبح لا يجد نفسه ولا ماله ،

فهذه كانت اعذارنا في الأزمان السابقة ، ولو دققنا فيها لرأيناها حجة علينا لا لنا ، فكيف الاعتذار .

لكننا في هذه الأيام ـ والحمد لله ـ قد أصبحنا في مأمن من هذا ، لو تحققت حكومتنا إن لاحدنا كنوز الأرض لم يسعها إلا المحافظة على روحه وماله ، ولكانت حريصة على إزدياد ثروته ، ولئن طلب الإنفاق جهده في الأعمال الخيرية لجدت هي في مساعدته ، وتسهيل الوسائل إلى بلوغ مقصده ، ولو أبصرت شعاع فكر بدا من أي عقل لسارعت إلى تقويته حتى يكون شمساً منيرة ، وإن تَنَشَّط أقوام من رعيتها إلى الاجتماع والتألف والاتحاد لغاية محمودة ، كبث علم أو إذاعة فضل ، رأيتها تقيم لبيت الألفة أعمدة ، وتوطد له أركاناً ، وتحيط به سوراً منيعاً ، كما شهدنا ذلك منها رأي العين في شأن الجمعيتين الخيريتين في **القاهرة والاسكندرية**(١) ، بل وفي سائر الجمعيات الخيرية الوطنية ، وبالجملة فإن الحكومة قد أطلقت عنان العمل لكل طالب حق ، وقاصد صلاح ، وراغب فلاح ، فليس من جهة الحكومة هذا المانع ، فبطل ذاك التعلل .

فإن سأل سائل : أليس في البلاد ذوو ثروة وأولو جاه ، تحوم عليهم الأفكار ، وتتوجه نحوهم القلوب ، وتنجذب إليهم النفوس ، ولهم من الاستطاعة ما يمكنهم من الأعمال الجليلة التي تكون عنواناً لمجدهم ، وسياجاً حافظاً لِنَامُوسِهِم ، ورفعة شأنهم ، فتحركهم الغيرة ، وتبعثهم الحمية على انضمام بعضهم إلى بعض ، وبذل الزائد من فضلات أموالهم في سبيل حفظ الشرف في ابنائهم وأعقابهم ، على ما هو شأن العقلاء في سائر أقطار الدنيا ؟! .

قلت إني أجيبك عن هذا السؤال غداً إن شاء الله ، وإن غداً لناظره قريب .

الجواب(٢)

نعم . . يوجد كثير من ذوي الثروة واليسار ، وهم المتمتعون بخير البلاد ، وهم

---

(١) الإشارة إلى مقال (حكومتنا والجمعيات الخيرية) انظره في جـ ٢ .

(٢) وهذا الجواب منشور بالعدد ١٠٧٦ في ٣١ مارس سنة ١٨٨١ (غرة جمادى الأول سنة ١٢٩٨ هـ) .

الذين ينبغي لهم إن يطلبوا لها رفعة الشأن ومنعة الجانب ، لأن الأعين الغادرة محملقة إليهم ، طالبة انتزاع ما بأيديهم ، وإن تسلط الدخلاء عليها ، وتلاعب الأيدي المتغلبة بأمورها ، يضر بأولئك الأغنياء أولاً وبالذات ، ولا يضر غيرهم من الفقراء إلا ثانياً وبالعرض ، بل ربما لا يصل الضرر إلى الفقراء الذين هم صنف العملة والصناع أصلاً ، فإن الأنظار لا ترمق إلا ذوي الاعتبار ، فهم منتهى الأطماع .

فإن سأل سائل : ألا يجب أولئك الأغنياء أن يطمئنوا على أنفسهم وأموالهم ؟، ألا يبتغون أن تثبت قاعدة العدل فيهم وفي أعقابهم من بعدهم ؟، ألا يعلمون ان الزمان قد انقلب وضعه ، وتغير طبعه ، فصارت السلطة الخشنية[1] لا دوام لها ، وان الطرق البسيطة التي اعتدناها لكسب المال وحفظ الناموس أصبحت غير كافية لحفظ ما حصلناه ولا لتحصيل ما فقدناه ؟ أولم ينظروا إلى الأيدي الغريبة كيف تتلاعب فيما بينهم طلباً لاختلاس أرواحهم من أبدانهم ؟ وأن جحافل المكر والدهاء قد زحفت عليهم ولن يدفعها إلا حرس الحزم والبصيرة ؟، ألا يعقلون أن التغالب في هذه الأوقات أصبح معظمه ، إن لم أقل جميعه ، تغالب الأفكار والآراء ؟ فالأمة ذات البسطة في الأفكار والمهارة في المعارف هي الأقوى سلطاناً ، والأقوم سياسة ، وهي الغالبة على سواها من الأمم ، أفلم يبصروا انه لا معنى لشدة البأس في أيامنا هذه إلا تَدَرُّع الحكمة وتبطن الدهاء ؟. ألم يقفوا على الأسباب التي أعدها غيرنا من جيراننا لنوال أعلى مراقي المجد في أوطانه ، ثم اندفع إلينا لا ندري ماذا يريد أن يصنع بنا ؟؟، فإن عقلوا جميع ذلك أفلا يفقهون أنهم إن لم يكونوا نصراء لجيش العلم أصبحوا على شفا الخطر ؟! .

قلنا بلى إن اختلاطنا بالأمم الأوروبية سنين عديدة أظنه علمنا أسباب الضعف ووسائل القوة ، وعرفنا مقدار المدنية ودرجة الخشونة ، فلا يكاد أحد من أولئك الذين نحدث عنهم إلا وقد وقف على الشيء من ذلك ، وكثيراً ما نسمعهم يتحدثون به على أطراف ألسنتهم ، ويلوكون أمثال هذه المباحث فيما بين أشداقهم ، كأنهم يعلمونها حق العلم .

لكن لا تتحرك نفوسهم مع ذلك إلى إبراز الآثار ، وطلب ما علموه صلاحاً

---

(١) غير القائمة على أسس المدنية والتمدن .

بالفعل دون القول ، كل واحد منهم يطلب الخير ، ولكن لا يحب أن يكون البادىء به ، بل يريد أن يبدأ الغير ثم هو يتبعه ، فإن كانوا كذلك فلا بادىء ولا تابع ، وكأني بهم على احدى حالتين : إما ان جميع الحوادث التي مرت على رؤوسهم لم تكسبهم معرفة ، ولم تحرك فيهم غيرة ، فذلك غاية الجهل - نعوذ باللّه - وإننا ننزههم عنه ، إما انهم علموا وتفقهوا ، ولكن استولى اليأس على نفوسهم ، فذلك ليس من شأن العقلاء ، فإن القنوط من رحمة اللّه كفر .

هذه أيامنا نسمع فيها طنين الأماني صادراً من القادرين على بلوغها ، لكنهم يطلبونها من غير وجهها ، فيعز عليهم منالها ، يروم كثير من الناس - خصوصاً من ذوي الاقتدار - أن يكون ميزان العدل منتصباً لا يميل حبة ولا مثقالاً ، ولكن على شرط أن لا يؤخذ منهم ما يجب عليهم ، وأن لا يكلفوا بعمل يطلبه العدل ويحكم به القانون ، يودون أن تنشر العلوم في أطراف البلاد حتى يعم نورها كل نقطة من بسيطها ، لكن على شرط أن لا يكون له فيها مدخل ، لا ببذل نقد ولا تجشم عمل ، ويرغب أن يكون المأمورون وعمال الحكومة من ذوي الاستقامة ، والجد والاجتهاد ، ومراعاة المصلحة العامة ، لكن بدون أن يقف واحد منهم على باب مدرسة ، ولم يخطر بباله ما هي المصلحة العمومية ، ولم يجد من نفسه احساساً بحلاوة الإستقامة ومرارة الاعوجاج ، وإن ذلك لمن المحال البين . وبالجملة فطالب الإصلاح منا لا يرضى لنفسه أن يخطو خطوة واحدة في سبيل تحصيله ، بل يحب أن يأتيه الإصلاح ساعياً إليه ، ويحدق نظره نحو الحكومة ، يطلب منها أن تخلق خلقاً جديداً ، مع ان سنة من قبلنا ومن معنا في عصرنا أن يسعى أفراد الأمة ونبلاؤها في جمع الكلمة ، وبذل الدينار والدرهم ، وتعاضد الأفكار والأعمال على تحصيل ما يطلبون بأسبابه ووسائله الحقيقية ، بدون توان في العمل ، ولا فتور في الهمم .

فعلى الأغنياء منا الذين يخافون من تغلب الغير عليهم ، وتطاول الأيدي الظالمة إليهم أكثر من الفقراء ، أن يتألفوا ويتحدوا ، ويبذلوا من أموالهم في سبيل افتتاح المدارس والمكاتب واتساع دوائر التعليم ، حتى تعم التربية ، وتثبت في البلاد جراثيم العقل والإدراك ، وتنمو روح الحق والصلاح ، وتتهذب النفوس ، ويشتد الإحساس بالمنافع والمضار ، فيوجد من أبناء البلاد من يضارع بني غيرها من الأمم ، فنكون عند ذلك معهم في رتبة المساواة ، وتلاحظ أحوال المعلمين والمتعلمين .

أفلم يعتبروا بالجمعيات الأوروبية التي لم يكن اعضاؤها إلا الزارعين والصانعين والتجار ، كيف يبلغ إيراد الواحدة منها نحو ثلاثين مليوناً من الجنيهات ، وبعضها أكثر وبعضها أقل ، وجميع ذلك يصرف في بث المعارف والعلوم ، واتساع دائرة الصنائع والفنون ، وتقوية روح التربية الحقة التي لا شأن للبلاد إلا إذا تحلى ابناؤها بحلاها ؟! .

ايظنون انه يمكن لهم نوال شرف أو حفظ ناموس إلا إذا جاهدوا في سبيل الإصلاح بأموالهم وأنفسهم ، وأنشأوا الآثار الظاهرة التي يحق لهم بعدها الافتخار بأنهم عرفوا مصلحة أنفسهم حقيقة فطلبوها من طريقها المألوف ؟! .

إن شأن الحكومة ليس إلا أن تطلق للناس عنان العمل ، فيعملون لأنفسهم ما يعلمونه خيراً لها ، فإن أية حكومة قيل إنها عادلة حرة لم يكن لها إلا انها أباحت للناس أن يدخلوا في أي باب من أبواب المنافع ، ويطلبوا الخير الحقيقي بكل وسيلة صحيحة ، فإذا لم يكن في الناس ـ خصوصاً الكبراء ـ من يهمه أمر مصلحته وبقاء شرفه وناموسه ، فسفه منه أن يطلب من الحكومة ما لا يطلبه هو لنفسه من نفسه .

إني بالاختصار أوجه كلامي هذا إلى الأغنياء الذين يتكلمون كثيراً فيقولون : لو يا ليت لوما ، كان ، وما أشبه ذلك من أدوات الشرط والتمني ، ثم ينفقون النفقات الجسيمة فيما يسمونه بأنفسهم لهواً وفخاراً كاذباً ، ولا يبذلون درهماً ـ أو ان بذلوا فشيء يسير جداً يقدر عليه أفقر الناس ـ في المطلوب الذي يعدونه عظيماً .

وإنهم يعلمون أن عدل الجاهل ظلم ، فإن صدر منه بطريق الصدفة لا عن مقصد فلا بد له من الخبط فيظلم ، وإن غناه فقر فإنه اتى من البخت الإتفاقي ، ولا بد يوماً أن يختل سيره فيفتقر ، وإن كمال الجاهل نقص ، فإنه طلاء على حائط خرب عما قليل يكشط ويتناثر منه التراب ثم ينهدم .

فقر الجهول بلا علم إلى أدب ... فقر الحمار بلا رأس إلى ذنب

لا نصدقهم فيما يقولون من انهم يحبون العدل ، ويرغبون الإصلاح ، ويعرفون خير أنفسهم وبلادهم ، بل ولا يصدقهم أحد أبداً ، إلا إذا برزوا إلى ميدان العمل ، فحينئذ نعترف لهم بكل ما يدعون ، ونؤدي لهم جزيل الشكر كما يحبون ويشتهون ، أما الكلام فقد شبعت منه الأذان ، وافعمت به القلوب ، والسلام .

* * *

الكتب العلمية وغيرها[1]

تنقسم المؤلفات المتداولة في أيدي المصريين إلى أقسام متفاوتة بتفاوت أميال المطالعين ، سواء كانت هذه الأميال غريزية أو مكتسبة من طوارىء التربية وعوارضها ، وهذه الأقسام اختلفت في الشهرة والخفاء ، وكثرة التداول بين يدي الكثير من الناس ، وفي منتديات المشتغلين بمطالعتها ومحافلهم الخصوصية والعمومية .

فمنها الكتب النقلية الدينية ، وهي ما بين فيها مسائل الدين ، سواء كانت من الأصول كعلم الكلام ، أو الفروع كالعبادات والمعاملات ، ومن هذا القبيل كتب التفسير والحديث ، وكتب الأخلاق المأخوذة من قواعد الدين ككتاب الاحياء لحجة الإسلام «الغزالي» ، وهذا القسم نرى من المشتغلين به في بلادنا عدداً كثيراً ، نبغ منهم الأفاضل والأماثل ، وكثرت فيهم المؤلفات ، وانتشرت بالنسخ والطبع في غالب الجهات .

ومنها الكتب العقلية الحِكْمية ، وهي ما يبحث فيها عن الحقائق الوجودية وأحوالها ولوازمها على قدر الطاقة البشرية ، وهذا القسم نادر الوجود في بلادنا ، والمشتغلون بكتبه أقل من القليل ، بل إنه لم يطبع منه في مطابعنا إلا نزر يسير من فروعه كبعض كتب في الطبيعة والكيمياء والطب والرياضة غير صحيحة العبارات ، والكتب

---

(١) الوقائع المصرية . العدد ١١٠٩ في ١١ مايو سنة ١٨٨١ (١٢ جمادى الثانية سنة ١٢٩٨ هـ) .

الموجودة منه عند البعض من الناس كلها إما بالنسخ وإما بالطبع الأجنبي ، ولا تشتري إلا بالثمن الجسيم .

ومنها الكتب الأدبية وهي ما يبحث فيها عن تنوير الأفكار وتهذيب الأخلاق ، ومن هذا القبيل كتب التاريخ وكتب الأخلاق العقلية وكتب الرومانيات ، وهي المخترعة لمقصد جليل كتعليم الأدب ، وبيان أحوال الأمم ، والحث على الفضائل والتنفير من الرذائل ، ككتاب «كليلة ودمنة» «وفاكهة الخلفاء» «والمرزبان» «والتليماك» والقصة التي تترجم في جريدة «الأهرام» وغيرها من بقية المؤلفات ، وهذا القسم كثير التداول في المدن والثغور ، ويكثر في أبناء وطننا وجود البارعين فيه ، والمشتغلين بدراسته ، العاكفين على مطالعته .

ومنها كتب الأكاذيب الصرفة ، وهي ما يذكر فيها تاريخ أقوام على غير الواقع ، وتارة تكون بعبارة سخيفة مخلة بقوانين اللغة ، ومن هذا القبيل كتب «**أبو زيد**» «**وعنتر عبس**» «**وإبراهيم بن حسن**» «**والظاهر بيبرس**» والمشتغلون بهذا القسم أكثر من الكثير ، وقد طبعت كتبه عندنا مئات مرات ، ونفق سوقها ، ولم يكن بين الطبعة والثانية إلا زمن قليل .

ومنها كتب الخرافات ، وهي تارة تبحث عن نسبة بعض الكائنات إلى الأرواح الشريرة المعبر عنها بالعفاريت ، وتارة تتكلم في ارتباط الحوادث الجوية والآثار الكونية ببعض الأسباب التي لا مناسبة بينها وبين ما زعموه ناشئاً عنها ، وتارة تثبت ما لا يقبله العقل ولا ينطبق على قواعد الشرع الشريف ، ومن هذا القبيل ما يعرف عند الناس بعلم «السريحاني» وعلم «الكيميا» (الكاذبة) ، وكتب « الوِفقْ » ، وكتب « الحرْف » «والزايرجات» ، وذلك ككتاب «**أبو معشر**» «والكواكب السيارة» «وشمس المعارف الكبرى» «والصغرى» وكتاب «الحرف» المنسوب للحكيم «**هرمس**» «والبرهتية» وشرحها «والخلخلوتية» وشرحها «والجلجلوتية» وشرحها «ودعوة السباب» «ودعوة القمر» بشروحها وكتب «المنادل» واستحضار «الخادم» ، والرسائل التي يذكر فيها أمر الكتابة بالمحبة والبغض ، وعقد الرجل عن الجماع ، وإرسال الهواتف ، والتسليط بالرجم على البيوت ، وغير ذلك مما لا يحصيه القلم ، وهذا القسم قد اشتغل به في ديارنا كثير من الناس ، ونبغ منهم الدجالون والمحتالون ، وطبع من كتبه عندنا ما يخرج عن حد الحصر بالقلم واللسان ، وإذا تمهدت هذه المقدمات فنقول :

قد كانت جميع هذه الكتب باصنافها تطبع في مطابع المحروسة بدون استئذان ولا تقييد ، ثم من عهد قريب ـ على عهد وزارتنا الحاضرة ـ صدرت الأوامر بأن لا يطبع كتاب في إحدى المطابع إلا بعد الحصول على رخصة تجيز الطبع ، وحُجِزَ في أثناء ذلك على طبع ما يخل بالديانة أو السياسة ليس إلا ، وكان يصرح بطبع غير ذلك من أصناف القسمين الأخيرين ـ (هما الأكاذيب الصرفة وكتب الخرافات) ـ على انهما ليسا مما يخل بالدين ولا مما يناقض السياسة ، ولذلك كثر طبع الكتب في هذين القسمين حتى انتشرت في سائر جهات القطر ، واشتغل بمطالعتها كثير من الأهلين ، فإذا شب الولد ومالت نفسه إلى المطالعة في الكتب لم يجد أمامه إلا أصناف هذه الكتب الكاذبة أو الخرافية ، فيجهد نفسه في قراءتها ، فيشيب وهي بين يديه ، ويموت وهو معتقد لما فيها من الأضاليل ، ونجم عن ذلك انغماس الغالب في ظلم الجهالات ، وانحطاطهم عن درجات الكمالات ، وهذا من أضر المؤثرات في تأخر البلاد ، وبقائها في حفر الهمجية والاخشيشان ، ولهذا فإن الحكومة السنية قد وجهت عنايتها إلى تطهير البلاد من هذه الأمراض المعدية السريعة الانتقال ، فصدرت أوامر نظارة الداخلية الجليلة بالحجز على طبع الكتب المضرة بالعقول ، المخلة بالآداب ، وهي كتب القسمين الأخيرين ، فمن الآن وصاعداً لا يرخص لأية مطبعة أن تطبع من هذه الكتب شيئاً ، ومن يتعد ذلك يجازى بأشد الجزاء ، وستؤخذ الاحتياطات اللازمة لمنع الاختلاس في هذا الشأن ، فعلى الذين يميلون إلى مطالعة مثل هذه الكتب لتسلية النفس وترويح الخاطر إن يستعيضوها بغيرها من الكتب المفيدة الصحيحة ، فمن كانت رغبته متجهة إلى كتب «أبو زيد» وما معها من الكتب «**كعنتر عبس**» وغيرها أن يستبدلها بكتب التاريخ الصحيحة ، كتاريخ «**المسعودي**» ، وتاريخ «إظهار أنوار الجليل» لحضرة **رفاعة بك** ، وتاريخ «الكامل» **لابن الأثير** ، وتاريخ «**الدولة العلية**» ، وكتب القصص الأدبية المترجمة في أعداد «**الأهرام**» ، التي طبعت في مطبعة العصر الجديد ، وهي المعنونة «بالانتقام» وغيرها من بقية الرومانيات الغريبة الأصل و«ككتاب كليلة ودمنة» وما ماثلها من الكتب التي جعلت على ألسنة الطيور والحيوانات ، وعلى من كانت فيه بقية من حب كتب الخرافات ، المعبر عنها بالريحاني أو غيرها من كتب الوفق والتنجيم ، أن يقلع عنها ، ويشغل نفسه بما يرى منه الفائدة ، وإلا فأي فائدة عادت إلى من صرف نقوده ، وأباد بصره ، وأراق ماء وجهه ، في طلب الكيميا الكاذبة ؟! وهو لم ينظر منها ما يجعله عوضاً لهذه المصاريف وتلك

المشقات . وأي عائدة رجعت على من حفظ «العزائم» ، وأجهد نفسه في حفظ أسماء الشياطين ، وأتعب عقله وبدنه في الخلوة لاستخدام العفاريت ؟! إنا لم نرَ لكل ذلك من فائدة ولا عائدة ، بل رأينا أن المشتغلين بذلك كله يحسبون من الدجالين ، ويعدون مع المحتالين ، وإن العاقل لا يرضى لنفسه أن يشار إليه بأنه من إحدى هاتين الطائفتين اللتين صب عليهما المقت ، ولحقهما غضب اللّٰه والملائكة والناس أجمعين ، وحينئذ فمن الواجب على كل عاقل أن يترك كل هذه الكتب الخرافية ، ويتباعد عنها على قدر الإمكان ، وأن يشغل أوقاته بمطالعة الكتب الحقة ، ككتب الديانة المطهرة ، وكتب الآداب والفضائل وتهذيب الأخلاق ، وكتب التواريخ الصحيحة ، كتب العلوم الحقيقية ، فإنها أنفع للنفس ، ويرى المشتغل بها فائدتها في أقرب زمن ، على أسهل وجه ، بدون أن يلحقه جزء من مائة من تلك المشقات ، ولا أن يلتجىء إلى إضاعة الأموال فيما لا يفيد .

وفي ظني ان كل هذا مما يقع عند إخواننا الوطنيين موقع القبول والاستحسان ، فإن كل واحد منهم يذهب إلى ما ذهبنا إليه ، ويرى ما رأيناه . وسنعود إلى هذا الموضوع مرة ثانية إن دعت الحال . ثم نأتي على ما جرت به عادة الكثير في اعتقاد الخرافات . ونبين تأثيرها في النفوس . ودرجتها عند أهل المدن والأرياف . ونفصل الأصناف المتعارفة منها عند العامة . وبالجملة نذكر كل ما يتعلق بهذا الموضوع في اعداد صحيفتنا على الاطراد . إن شاء اللّٰه .

* * *

تأثير التعليم في الدين والعقيدة[1]

من المعلوم الذي لا يشتبه فيه أن أرباب المذاهب والأديان على العموم ـ وإن اختلفت عقائدهم وتنوعت مشاربهم ـ يحترمون اعتقاداتهم ويجلونها ، وينزلونها من العلوم أعلى منزلة ، ويدافعون عن حرمتها ببذل الأموال وفناء الأرواح ، حتى أن صاحب العقيدة الثابتة في دينه ليموت بالسيف قطعاً ، وبالنار حرقاً ، وبالحجر رَضّاً ولا يتحول عن عقيدته ، وذلك ظاهر ، فإن كل دين يرشد متقلديه إلى أن الدنيا فانية ، وان هناك داراً باقية ، نعيمها يفوق كل نعيم ، وشقاؤها يهون دونه كل شقاء ، وكلاهما أبدي لا ينقطع ، فإرجاء والخوف يدفعانه إلى الموت على أي وجه كان دون التحول عن عقيدته التي يرى النعيم جزاءها ، والجحيم عقاب العدول عنها .

ثم إن التخالف بين العقائد يحكم على كل صاحب عقيدة برفض نقيضها ، ودحض كل حجة تخالفها ، ويقضي عليه بأن يرى جميع مخالفيه فيها من الأشقياء الهالكين ، حيث إن النجاة مربوطة بعقيدته ، والهلاك معقود بمخالفتها ، وذلك يلزمه بمقتضى الطبع أن يسعى جهده في نشر عقيدته ، وتمكينها في القلوب ، وتثبيتها في النفوس ، لأحد أمرين :

الأول : سوء الظن بمن يخالفه في العقيدة ، وخوفه من أن يسعى في ضرره ،

---

(١) الوقائع المصرية ، العدد ١١٨٦ في ٩ أغسطس سنة ١٨٨١ م (١٤ رمضان سنة ١٢٩٨ هـ) .

لانتقاض الرابطة الاعتقادية بينهما ، فهو يسعى في ضم جميع الناس إلى نفسه في الاعتقاد ، حتى يكون واسطة في الاتحاد على التعاون ، والانتفاع الذاتي ، والأمن من المضار . وإن صاحب العقيدة لهذا السبب لا يألو جهداً ، ولا يؤخر سعياً ، ولا يترك وسيلة توصله إلى الإكثار من الموافقين له في الاعتقاد ، حتى تتوفر له المنافع ، ويكونوا له عوناً على دفع الأخطار .

الثاني : الشفقة الإنسانية ، فإن الذي يعلم أن عقيدته تأتي لمعتقدها بسعادة أبدية ، وإن جاحدها لا بد أن يصيبه الشقاء السرمدي ، ويعلم أن بني الإنسان كلهم أخوة ، أبناء أب واحد وأم واحدة ، يجب على كل منهم أن يسعى طاقته في نفع الأخر ، كل هذا يحمله على أن يرق ويرحم الذين يخالفونه في الاعتقاد ، فتأخذه عليهم الشفقة والرحمة ، فيدعوهم إلى أن يكونوا على مثل اعتقاده ، لينجوا في الناجين ، ويستعمل كل حيلة لانقاذهم من الاعتقادات التي يظنها مضرة بهم ، مهلكة لأرواحهم بعد مفارقة أبدانهم .

ولهذا نرى أرباب المذاهب والأديان منتشرين في كل جهة، ضاربين في الأرض يطلبون انتشار مذاهبهم ، وبث معتقداتهم بكل ما يمكنهم من الوسائل ، فمنهم من يستعمل الخطابة والوعظ ، ومنهم من يستعمل الكتابة والتصنيف ، ومنهم من ينشىء المدارس والمكاتب للتعليم .

وهذا القسم الأخير هو الأكثر عدداً ، والأنجح سعياً ، فإن العقول في سن الصغر ساذجة ، والأذهان خالية ، وهي مستعدة لقبول ما يرد إليها من الأفكار ، قابلة للتأثر والانفعال بما يطرأ عليها من صور الأعمال والآراء والأحوال ، خصوصاً إذا كان جميع ذلك صادراً من شخص تكبره النفس وتعظم قدره ، مثل الأستاذ والمؤدب والمربي ، فمتى وجد الولد صغيراً في حجر مهذبين ومعلمين يربون عقله ، ويغذون روحه بغذاء علومهم ومعارفهم ، فلا ريب تؤثر فيه أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم ، وتنطبع في نفسه صور ما هم عليه ، فأياً كان آباؤه وأسلافه الأولون ، لا يحفظ عقائدهم ولا هيئات أحوالهم . بل يتشكل عقله ولبه بالأشكال التي يفيضها عليه مهذبوه ومعلموه أياً كانوا . فإن خالفت مذاهبهم مذاهب آبائه وأسلافه فلا شك في تحول مذهب الولد وانحرافه إلى مذهبهم ، لتأثير أحوالهم عليه .

خصوصاً وقد بينا ، فيما سبق ، إن كل ذي دين يميل بالطبيعة إلى بث دينه ،

وإعلاء كلمة اعتقاده ، فأي مكتب أو مدرسة يتولى التعليم فيها رسل ديانة أو رؤساء مذهب بل ذوو عقيدة ثابتة في أي دين كان أو مذهب فلا شك ان حالهم وقالهم يؤثر في عتقاد الولد ومذهبه . ويزداد التأثير بطول المدة . وحسن المعاملة . والبراعة في طرق التاثير على حسب حال أولئك المعلمين ومشربهم . لا فرق في جميع ذلك بين دين ودين ومذهب ومذهب . وجميع هذا لا لوم فيه على صاحب الدين أو المذهب . فالذي دعاه إليه إما حب المنفعة والأمن من الضرر وإما الشفقة والرأفة على عباد اللّه بحسب اعتقاده الذي يراه يقيناً لا ريب فيه . بل إن هذا التغيير الذي يظهر في اعتقاد التلامذة من تأثير حالة معلميهم ومهذبيهم قد تحصل بدون قصد من المعلمين . بل بحكم السّريان والعادة من طول المعاشرة وكثرة الممارسة .

وعلى هذا حال المدارس المنتشرة في **أقطارنا المصرية** التي أسسها وأنشأها رسل الطوائف الدينية . لم يكن الغرض منها التعيش والاكتساب . وإنما الغرض منها نشر العلوم وبث أنوار التمدن ـ (على ما يقولون) ـ كمدارس الفرير والأميركان والإنكليز وغيرها . فإننا وإن فرضنا إنه لا غرض لهم في إنشائها وصرف المصاريف الزائدة عليها إلا نشر العلوم وتقدم المعارف فقط ، لكن حيث أن رؤساءها ينسب كل واحد منهم إلى مذهب من المذاهب المسيحية ، فالرئيس منهم ليس بملزم أن يفرق هيئة التعليم في مدرسته بحيث يجعل لكل قسم من التلامذة كتباً خاصة ، لا يعرفها ، وإن عرفها فربما لا يفهمها ، ولا يرى من الواجب عليه استحضار معلمين عارفين باصطلاحات الكتب الدينية المؤلفة في مذاهب أخر ، فهو على حسب معرفته وميله الطبيعي يعين للتعليم كتباً توافق مشربه ، ولذلك نرى في جميع تلك المدارس كتب التمرين والإملاء والمطالعة مما يوافق مذهب رئيس المدرسة ومشربه الديني ، **فالبروتستانت** يروجون بين التلامذة كتب مذهبهم ، **والكاثوليك** يقرئونهم ما يوافق مشربهم ، وهكذا فالتلامذة على اختلاف مذاهب عائلاتهم يقرأون كتباً واحدة توافق مشرب مؤسس المدرسة خاصة ، فإذا طال بهم زمن التعليم في مدرسة منسوبة للبروتستانت مثلاً ، فلا شك ان عقائدهم تتحول بالتدريج من المذهب القبطي أو الكاثوليكي أو الدين الإسلامي إلى مثل عقائد البروتستانت ، ومثل ذلك يكون في مدارس الكاثوليك ، أو في المكاتب الدينية الإسلامية كمكاتب الفقهاء مثلاً ، أو مدرسة الأزهر ، فإن المتعلم فيها إن كان صغيراً لا شك تحول عقائده أياً كانت إلى الدين الإسلامي ، بتأثير الكتب فيه ، فضلاً عن تأثير هيئات العبادة ، وأحوال المعاشرين وأفكارهم التي تؤثر في العقول من حيث لا تشعر ،

وكل هذا لا لوم فيه على أرباب المدارس والمكاتب أصلاً ، فإنهم لم يعملوا شيئاً إلا بحسن النية ، وصدق القصد ، وليس لهم من غرض سوى إفادة العموم على حسب اعتقادهم .

غير ان عزة العقائد على النفس ، كما بيناه في صدر مقالنا هذا ، تثبت في الآباء غيرة قهرية على عقائد الأبناء ، فإذا شعر الوالد بأن ولده تحول عن عقيدة عائلته أدنى تحول ، طار عقله ، وانبعث إلى طلب الانتقام ممن تسبب في ذلك بكل حيلة ، وحدث في عائلة الولد من الاضطراب ما عساه يحدث تشويشاً في العموم وقلقاً في الأفكار ، ومن ذلك ما حدث من مدة سنوات أن أحد أولاد «**مصطفى أفندي المنشاوي**» واسمه «**أحمد فهمي**» كانت تربيته وتعليمه في مدرسة الأميركان البروتستانتية ، وبعد مضي ثماني عشرة سنة من عمره أظهر التمذهب بالمذهب البروتستنتي ، ودعا أباه وأخوته إلى موافقته على عقيدته الجديدة ، وكان لهذه المسألة قصة هائلة لم يزل يتحدث بها الناس حتى اليوم ، وتداخلت فيها الحكومة وقنصلاتو أميركا ، وانتهى الأمر بفقد الوالد ولده حيث سافر الولد إلى جهة لا يعلمها والده ، وهو باق في حسرة فراقه يتقلب على جمر القلق حتى الآن ، خصوصاً ما يراه في هذا الأمر من العار الذي يلحقه ويلحق عائلته أجيالاً .

وقد ذكرنا بهذا الموضوع وهذه الحادثة حادثة أخرى تشبهها في النوع ، وقعت في هذه الأيام ، وهي أن أحد أولاد «**حسن أفندي الحكيم**» ، من رجال الحقانية ، كان تلميذاً في مدرسة الفرير بالقاهرة مدة طويلة ، ثم انتقل منها إلى مدرسة الطب ، غير ان المَوَدَّة كانت لم تزل بينه وبين رؤساء المدرسة ، وبعد أن أقام في تعلم الطب سنتين تغيب من مدة أسابيع ، ولم يعلم أين ذهب ، ولم يهتد والده إلى السبب ، حتى أخبر أخ له صغير بأنه رأى رقيباً من رؤساء المدرسة مبعوثاً إلى أخيه المتغيب يعينون له فيه يوم السفر ، فقط بدون زيادة ، وبعد البحث والتدقيق علم انه في مدرسة الفرير بالإسكندرية ، غير ان المسألة لم تتضح حتى الآن كمال الوضوح .

فهذا الأمر أفزع والده وعائلته ، وأوقع بهم من المصائب ما لم يكن في حسابهم ، غير أن اللوم في جميع ذلك على الآباء خاصة ، حيث يرسلون ابناءهم قبل كمال الرشد إلى المدارس التي يتولى التعليم والإدارة فيها معلمون على غير مذهبهم أو غير دينهم ، ويقيمون بينهم الأزمنة الطويلة ، يتلقون عنهم الأفكار والتعاليم من كل نوع ، حتى تنطبع أفكار المعلمين وملكاتهم في طباع التلامذة ونفوسهم .

فمن الواجب على كل شخص يخاف على دينه أو مذهبه ، سواء كان مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً ، وسواء كان قبطياً أو ارثوذكسياً أو بروتستانتياً ، أو غير ذلك من المذاهب ، أن لا يبعث بأولاده وهم صغار، لا يعقلون ولا يفهمون إلا ما يلقى عليهم من المعلم والمؤدب ، إلى مدارس يتولى التعليم فيها والإدارة من ليسوا على مذهبه أو دينه ، ومن تساهل في ذلك ، ثم تغير اعتقاد ابنائه ، وانقلبت مذاهبهم إلى مذاهب أخرى ، فلا يلومن إلا نفسه .

أما من لا يلتزم اعتقاداً خاصاً ، ولا يرى لنفسه مذهباً معيناً ، فله أن يرسل أولاده في أي سن إلى أي مدرسة ، إذ لا يبالي بأي تغيير يحدث في عقولهم ، ولا تتفاوت عنده أشكال التربية وصورها فجميعها لديه سواء .

وبالجملة ، فإنا نقول إن كل صاحب اعتقاد يخاف عليه ، ويحرص على بقائه ، ويحب ذلك لأولاده ونسله ، فأول واجب عليه تمكين اعتقاده في عقول أولاده ، بحفظهم عن مخالطة من يخالفه في العقيدة وهم في سن الصغر ، فإذا بلغوا رشدهم ، وعقلوا عقائدهم ، وصاروا في أمن من تأثير أفكار الغير فيهم ، فلا بأس بإطلاق سراحهم يعاشرون من شاءوا ، ويستفيدون العلم ممن يريدون ، ومن أهمل في ذلك فهو المهمل في أمر عقيدته ، العديم الغيرة في حفظها ، وسنعود إلى هذا الموضوع عندما يرد إلينا تفصيل الحادثة الأخيرة وما انتهى إليه الأمر فيها .

* * *

بقايا مسألة تأثير التعليم في العقيدة[1]

نوهنا في أحد أعداد جريدتنا سابقاً بتغيب ابن «حسن أفندي الحكيم» ، بما أغراه بعض رؤساء المدارس الأجنبية واستهواه عن عقيدته ، وفيها يقال إنهم رغبوا السفر به إلى الجهات الخارجية عن القطر المصري ، حسب ما يوجهونه ، وإن كفر بذلك نعمة الوالد والوالدة ، وجحد إحسانهما إليه بالتربية البدنية ، وما أنفقا من كسب الأيدي عليه لتكميل تربيته النفسية ، وجرح قلوبهما بفراقه ، وهو عزيز لديهما ولهما فيه من الآمال ما يسهل نصبهما في تهذيبه وتعليمه .

وأشرنا في ذلك إلى أن حضرة والده ، الوَلِه المحزون على ما أصابه ، توجه إلى الاسكندرية مستقصياً خبره ، فبلغنا بعد ذلك انه بعد شدة الفحص ودقة البحث لم يعثر عليه ، فرجع إلى المحروسة في حالة اليأس ، فأشير عليه بتقديم تقرير إلى قنصلاتو دولة فرنسا ، يشكو فيه رؤساء تلك المدارس الذين اغووه وأغروه بفراق والده ، وارتكاب العار الشنيع الذي لا يخصه بل يعم العائلة بتمامها ، كما وقع لسابقه ، فحرر تقريراً بذلك وذهب إلى الاسكندرية لهذا الغرض ، فارتقبنا ورود خبر عن هذه الحادثة ، إلى أن ورد إلينا من أحد أصحابنا بالاسكندرية رقيم يفيد ان الوالد فاز بوجود ولده قبل اختطافه بأيد طالما طالت إلى مثل هذا العمل ـ التفريق بين الوالد والولد ـ ولنورد عبارة

(١) الوقائع المصرية . العدد ١١٩٧ في ٢٩ رمضان ١٢٩٨ هـ (٢٤ أغسطس ١٨٨١ م) .

هذا الرقيم ، ببعض تلخيص ، فمنها تتضح حقيقة المسألة ، قال صاحبنا ، بعد الديباجة :

«إن نجل حضرة «**حسن أفندي الحكيم**» ، الذي نوهتم بذكره في إحد أعداد (الوقائع) في الأسبوع الماضي ، قد أحضره خاله من الميناء الغربية **باسكندرية - محل** وجود الوابورات البحرية - وعلم من - كلام الفتى - انه كان متغيباً جهة الرمل بالاسكندرية ، يدارس مع أحد الأساتذة بعض فصول علمية ، وانه لما علم بما ذكرته عنه الجريدة الرسمية أخذته الغيرة الدينية والحمية الإسلامية ، وحضر قاصداً خاله ، ولم يكن له علم بان والده بالإسكندرية ، ولما قيل له إنه موجود بهذه المدينة يقاسي من أجله الهموم والغموم ، سعى إليه وقابله ، وقبل يديه ، وأظهر له الخضوع والطاعة ، وأبان له انه حريص على دينه المحمدي ، وأنه لا يرغب عنه ، ولم يحمله على التغيب إلا حب العلوم ، وتشوقه لإتمام علم الطب ، لشدة شغفه به ، ثم ان والده أخذ يلاطفه ويعده بما يميل إليه ، وبأنه سيهتم في توجيهه إلى أي جهة يريدها من الجهات الأوروبية ، حتى آنس منه الأمتثال ، وقد حملته الغيرة على أن يكتب إلى الجريدة الرسمية بنفي ما نسب إليه ، إلا أن والده رغب إليّ أن أكتب اليكم بذلك لتذكروه في أحد أعداد (الوقائع) . » اهـ .

غير أني كنت أحب أن يكتب إليّ هذا الفتى بنفسه ، ليكون هو الكاشف عن ضميره بتعبيره ، وأرجو أن يكتب إلينا بشيء من الفصول العلمية ، بأي عبارة كانت ، لننشرها تحت اسمه ، ويكون له الفضل ، ونؤدي له على ذلك الشكر .

ولنعد إلى أصل الموضوع فنقول : إن عبارة هذا الرقيم في الحقيقة وافية بكشف الواقع ، وإنه لم يخرج عن حد ما نوهنا به سابقاً ، إلا أنّا نضرب عن بيان وجوه ذلك صفحاً ، فقد ظهر لنا وتحقق أن هذا الفتى النجيب قد حفته العناية الإلهية بإرضاء والده الحنون الشفوق ، والابتعاد مما يلحق به وبوالديه وعائلته من ألم الحزن والأسف ، إذ يلم بوالديه ما لا يقدر من الأحزان على فراقه وبعده ، ويحيط به نفسه الغم والهم كلما لاحظ في فكره أو خطر بباله حالة أبويه وما وصل أمرهما إليه ، إذ توبخه ذمته ويلعنه ضميره كلما تذكر الاحسان السابق منهما إليه مع إساءته إليهما ، وهو قادر على مكافأة الإحسان بالإحسان ، فنحن نشكر له هذا الانتباه ، ونحمده على تلك الغيرة الدينية ، بل الحمية الإنسانية ، ونوصيه بمراعاة حرمة الوالدين التي جعلها الله تعالى في الرتبة تالية للإقرار

بربوبيته ووحدانيته إذ قال تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّه وَلاَ تُشْركُوا بِهِ شَيْئاً وبَالْوَالِدْينِ إحْسَاناً﴾[1] وقال تعالى : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أنْ لاَ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْن إحْسَاناً﴾[2] . وبأن يعظم قدر الإحسان الذي أسدياه إليه صغيراً ، وهو فاقد القدرة والإرادة ، ووالياه بالبر حتى صار رجلاً ذا قدرة على الكسب ، واختيار وإرادة في الخير والشر ، فقد قرن اللّه شكر الوالدين بشكره في أمره فقال تعالى : ﴿ووصَّيْنا الانْسان بوَالِديْه حَملتْهُ أمُّهُ وهْناً على وهْنٍ وفِصَالُهُ في عَامَيْنَ أنْ اشْكُرْ لي وَلِوَالدَيْكَ إليَّ المَصِيرُ﴾[3] .

وعلى هذه الوصايا المقدسة وردت الكتب السماوية بأسرها ، ولا ريب ان هذا هو الذي يمحو عنه كل شيء لحقه من تلك الإشاعة التي ظهر آخر الأمر على ضدها ، وفقه اللّه تعالى لحسن الطوية ، وفقه عقله بنور المعرفة ، ليسعى في إرضاء والديه ، وتسكين خواطرهما ، قياماً بأمر اللّه في جميع كتبه على لسان جميع رسله .

والأمل بعد هذا أن لا يتغيب عنهما إلا بإذنهما ، سواء كان لمدارسة العلوم أو اكتساب أي فضيلة كانت ، حرصاً على برهما ، ثم إننا نعيد إنذار الآباء ، هداهم اللّه ، بان لا يسلكوا بأولادهم في التربية مسالك توجب لهم قلق الفكر وتشويش البال ، وأن لا يبعثوا بأبنائهم إلى المدارس الأجنبية التي تغير مشاربهم ومذهبهم حتى يأذن اللّه تعالى بمنع التعليم الديني في جميع مدارس العالم ، فتكون المدارس قاصرة على العلوم غير الدينية والصنائع ، ويكون للدين مواضع مخصوصة لتعليمه والتربية بمقتضاه ، وهذا ـ خصوصاً في مثل اقطارنا ـ أبعد من مجيء الألف على رأس المائة ، على ان ما سبق منا نشره في الأعداد الماضية يقتضي بأن نفس المعاشرة تؤثر في العقيدة ، فلا يؤمن على الأطفال من تغيير المذاهب إلا إذا ارتفع استحسان الشخص لمعتقد ، واستوى جميع الاعتقادات عنده ، وهذا محال ما دام الدين ديناً ، فليتنبه من يتنبه وليتنته الآباء إن كانوا يعقلون .

* * *

(١) النساء : ٣٦ .
(٢) الإسراء : ٢٣ .
(٣) لقمان : ١٤ .

التمرن والاعتياد[1]

حصول صورة الشيء في النفس علم ، وميلها إلى طلبه أو تركه إرادة ، والتصميم على أحد الأمرين عزم ، وليس بعده إلا الطلب بالفعل أو الترك ، والترك لا يُحَمِّل النفس كبير مشقة سوى الوقوف على كون المتروك من الأمور التي تكلف بها النفس تكليفاً ضرورياً أو كمالياً ، كان من الأمور المباحة أو المحظورة ، فإذا وقفت على حقيقته انصرفت عنه انصرافاً .

أما الطلب فهو أحد الأمرين الذي يُحَمِّل النفس عناءين : **أحدهما** يتعلق بها من جهة قوتها الفكرية ، **والثاني** : من جهة القوة العملية المودعة في أعضاء البدن ، والأول مقدمة الثاني وسابق عليه ، ونسبته إليه لدى أرباب الحل والعقد ورجال النقد نسبة الأمرين المتضايفين ، لا يوجد أحدهما بدون الآخر .

أما الأول ، فهو البحث في أصل الطلب ، واستقصاء ما يعود منه على الطالب أو غيره من المنافع ، والتنقيب عن الوسائل التي توصل إلى الغاية بلا مشقة ولا فوات منفعة ، وتقدير الأعمال إزاء الفائدة ، لتكون المنفعة مساوية على حكم التبادل في الأعمال البشرية أو زائدة عنها ، على أصل التفاضل ، وذلك كله إنما يكون بعد أن تُعْرَف نسبة الطلب إلى غيره من المطالب ، ليترجح عما سواه بخاصية من الخواص ، حتى لا يلزم

---

(١) الوقائع المصرية . العدد ١٤٠٠ في ٤ مايو سنة ١٨٨٢ م (١٦ جمادى الثانية سنة ١٣٩٩ هـ) .

على الشروع فيه الترجيح بلا مرجح . هذا شرح حال العناء الأول ، وليس بعده إلا الشروع في العناء الثاني ، عناء الأعمال البدنية .

أما فوائد الأعمال فهي وإن كانت جزئياتها غير قابلة للدوام والاستمرار ، إذ هي نتيجة أعمال متجددة ، وكل متجدد فنتائجه كذلك ، ولكنها تقبل الدوام بكليات أنواعها دواماً غير مطلق ، والطالب لا يستغني عن هذه الفوائد وقتاً من الأوقات ، وكيف يستغني مع إن الحامل له على العمل حاجته إلى فوائده ، سواء كانت من الضروريات أو الكماليات ، فهو محتاج إلى دوام الفوائد ، ودوامها يتوقف على دوام الأعمال ، وهو أمر موقوف على العامل ، وليس إدمانه العمل المطلوب في موضوعنا هذا أمراً من لوازم وجود ذاته ، فيحتاج إلى صفة زائدة تقضي عليه أن يكون دائم العمل بقدر الحاجة ، وليس احتياجه كافياً لهذا الاقتضاء ، إذ ربما تحققت الحاجة بدون أن يتحقق دوام العمل ، وإلا لم نسمع بذكر التهاون والكسل والإهمال وما شاكلها ، على أن الحاجة متفاوتة ، فما كان منها في الدرجة الأولى ، درجة الاضطرار البحت ، فهو بنفسه كاف لادمان العمل ، بخلاف ما كان منها في الدرجات الثانوية فما فوق ، والصفة القاضية بالإدمان أي المتممة لعلته ، هي التمرن والاعتياد .

وبعبارة أوفق بالغرض : إن ما لا تدعو إليه الحاجة أصلاً في زمن من الأزمان ، قد تدعو إليه في زمن آخر ، لا لسد الاضطرار البحت ، بل لما زاد عنه من الحاجات الثانوية ، كالكماليات والمحسنات ، وقد تدعو إليه بعد زمن طويل أو قصير ، لسد الاضطرار البحت ، فلا يجد الإنسان عنه فراراً ، فيتكلفه مقهوراً مقسوراً ، يتصور المنفعة على بُعْد ، ولكنه غائب في دهشة آلام الأعمال التي لم يتكلفها يوماً من الأيام ، لولا حكم الصروف والحادثات ، التي تقلبه على بساط القهر تقلب العصفور في يدي الطفل ، فلا يزال يحس بالألم ، ويدمن العمل ، حتى يهون عليه شيئاً فشيئاً ، إلى أن يزول الألم بالكلية ، ولا يجد إلا عملاً بدون ألم ، فإذا مضت برهة بعد الابتداء يحس من نفسه بعض الميل إلى العمل ، فكأن الألم الأول استحال إلى ضده ـ (على حكم تلاقي الطرفين) ـ ويجد منه باعثاً طبيعياً إليه ، وهكذا يزداد الميل ، ويشتد العشق ، حتى لا يميل به الكسل يوماً ما إلى إهمال العمل ، وهذا هو المقصود من التمرن والاعتياد .

أما كون الشيء ربما يكون ضرورياً في وقت دون وقت ، فالأمر فيه وإن كان على ما أظن لا يحتاج إلى البيان ، غير اني بحكم الحاجة لتوضيحه لبعض الناظرين أقول :

إن الإنسان من حيث هو مفكر لا يقف عند محدود فيما يتعلق بلوازم حياته ، وهو في ذاته غير مكلف بكل فرض مطلوب يعده من قبيل التمدن أو الحضارة أو الترف في المعيشة أو غير ذلك ، بل يكفيه ما يسد الرمق من القوت ، ويقيه الحر أو البرد من اللباس ، ويكنه وقت الإيواء من البيوت ، غير إنه لما تأنق في هذه الضروريات بعض التأنق ، ورأى أنها تقبل التحسين شيئاً فشيئاً ، أخذ على نفسه أن لا يَقَرّ له قرار ، ولا يهدأ له جأش ، حتى يستخرج من دائرة الإمكان كل ما تتأدى إليه فكرته ، فجد واجتهد ، واستطلع بقوته النظرية خواص العناصر فحسبها ـ عندما اكتشف منها معدات تساعده على غرضه ـ أنها لم تخلق إلا له ، فتسلط عليها بصفتي التحليل والتركيب ، حتى فتح أبواباً للتجارة والزراعة والصناعة ، ووصل إلى ما وصل إليه الآن ، وهو في هذا السير الطويل يتحمل أثقالاً على أثقال ، كلما وصل منه إلى درجة ظنها آخر الدرجات ، وحسب نفسه فيها غريباً ، فيتخذ نتائج تقاليدها الغريبة زينة ، شأن كل أمر غريب نادر الوجود ، إذ كل نادر عزيز ، قال الشاعر :

سبحان من خص القليل بعزه ... والناس مستغنون عن أجناسه
وأذل أنفاس الهواء وكل ذي ... نفس لمحتاج إلى أنفاسه

فإذا توطنت نفسه إلى هذه الغرائب زمناً استزاد منها ، حتى يبلغ بها حد الكثرة ، فيستعملها في لوازمه الضرورية ، في كافة أحواله ، ولا يخص بها وقتاً دون وقت ، إلى أن تصير من قبيل الأمور المعتادة التي لا يستغنى عنها ، بحيث يعتبر كل ما كان أقدم منها ، وفي درجة قبلها ، من التقاليد ، ساقطاً من الاعتبار ، وغير جائز الاستعمال ، ويتوهم ان استعماله في الحالة التي وصل إليها يزري بمقامه المنيف ، ويحط بمقداره الشريف ، ولا يتذكر انه هو هو الإنسان أيام كان يقتات بسائط النبات ، ويستتر بأوراق الأشجار ويأوي الكهوف والأغوار ، فبان بما ذُكِر أن الشيء قد يكون ضرورياً في وقت دون آخر .

ومن وجه آخر نقول : إذا سبرنا أخبار الأمم ، نعلم يقيناً ان الهيئة الاجتماعية البشرية ما وصلت إلى درجة من درجات التمدن والحضارة في وقت من الأوقات دفعة ، بل لا بد ـ كما يشهد العيان ـ أن تسبق أمة من الأمم إلى غاية في المدنية ، فإذا نظرت إلى

جارتها وقد بقيت في مركزها متأخرة عنها ـ والإنسان ﴿قُتِلَ الإنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾[1] بحكم الحيوانية مطبوع على التعدي والشره فتفاخرها بما يدهش العقول ، ويبهر النواظر من صناعاتها الغريبة ، وأوضاعها الجميلة ، فترمقها تلك بعين الذاهل المندهش ، وتتوهم ان ضعفها واقعي ، فتنقبض نوعاً من الانقباض ، فإذا توسمت فيها هذه الأنكماشَ والذعرَ (الخوف) أخذت تهددها بما تقلب عليها من ضروب الحيل والدهاء ، وبما تتظاهر به من قوة الجند وكثرة العتاد ، فتقف تلك وقفة الحائر المتفكر ، إلى أن يرشدها التأمل إلى ان هذه ما وصلت إلى ما وصلت إلا بالعلم والعمل ، المتوقفين على الكد والاجتهاد ، فتندفع وراء الجد بحكم الاضطرار ، حتى تصل إلى ما وصلت إليه أو تكاد ، غير ان تلك أيضاً بعد أن تذوق لذة التقدم ، وتنسيها سكرة التيه طعم الذل الذي كانت تقاسيه تحت رهبة جارتها الأولى ، تعامل الأمة المجاورة لها أيضاً بمثل ما كانت تُعَامَلُ به في مبدأ الأمر ، حتى تضطرها كذلك إلى أن تركب متن الاجتهاد في السير وراء من تقدمها ، وهكذا كلما دخلت أمة من باب كُلِّفَتْ به من يجاورها من الأمم ، حتى تنتظم الأمم جميعاً في سلك واحد في هذا الباب ، ولكن حيث ان حب التسابق طبيعة في الناس ، فلا تراهم يقفون لدى نقطة ، بل متى وصلوا إلى حد ما من حدود التقدم ، فلا يمضي زمن طويل حتى يقال إن أمة كذا انتهزت فرصة عظيمة ، وفتحت باباً من أبواب التقدم ، عاد عليها بالنماء في الأموال والأنفس والثمرات ، وبأن مجاوريها يخشون بأسها ، ويرقبون حركاتها ، فتضطرب الهيئة الاجتماعية البشرية من هذا النازل الذي لم يكن في الحسبان ، ولا تسكن خواطر بقية الأمم والممالك حتى ينساقوا إلى هذه الخطوة التي خطاها غيرهم على غفلة منهم وهم كارهون ، فبان أن الامم قد يحتاجون في زمن ما لا يحتاجونه في آخر ، فصدق القول : ان الشيء قد يكون ضرورياً وقد لا يكون .

وما ذكرناه من التنقلات يحكي حال الجمعية الإنسانية من يوم أن تفرقت شعوباً وقبائل ، يتخالفون في العوائد والأخلاق ، فيتنافسون ويتحاسدون على النقير[1]

---

(١) عبس : ١٧ .

(٢) من معانيه : الفقير جداً ، والنكتة في ظهر النواة ، وهي المراد هنا .

والقطمير[1] ، ويغلب عليهم حب الذات ، والميل إلى الخصوصيات ، فيدعون أنهم أجناس شتى ، ولا يزال حالهم كذلك يتقلبون على جمر الشحناء ، ويعذبون بعوامل البغضاء ، فتارة ترمي بهم الاطماع في مخاليب التكلف ، ومشاق التنقل من حال إلى حال ، فيضطربون لهذا الأمر اضطراباً ، وينقبضون منه انقباضاً ، وآونة يلقي بهم الجَهْد الجهيد ـ بعد أن يروا من الصعوبات ألواناً ـ في بوادي الراحة ، عند ما يصلون إلى نقطة التمرن والاعتياد ، ولكنها نقطة غير ثابتة ، كما أن درجات تقدمهم غير متناهية ، فلا يزالون يترددون من التعب إلى الراحة ، حتى يرجعوا إلى المجرى الطبيعي ، فيلتئمون بعد التفرق ، ويرفعون عن أعينهم حجاب هذا التشتت .

ويا ليت شعري ! ما هو النازل الذي حل بالإنسان فغير معالمه الطبيعية ، وبدَّل أخلاقه السلمية ، وحل رابطته النوعية ؟ وإلا فعهدنا به ـ إن لم نقل إنه من أم وأب تسليماً جدلياً ـ فهو من نوع واحد ، يشف مرآه عن الوحدة التامة ، الناطقة بأن الإنسان من جرثومة واحدة ، نشأت عنها عائلة واحدة ، حواها بسيط واحد ، ربطتها عادات وأخلاق متحدة الصفة ، ولقد رمزت تعاليمه الحاضرة ـ التي منها ، وهو اكبرها ، تعميم المواصلات ، وتأكيد الروابط بين الممالك ، وحركة الاجتماع والتآلف ـ إلى هذا السر المكنون ، وبشرتنا المحافظة العامة على دعائم السلام والراحة العموميين ـ حفظاً لحقوق الإنسان وصوناً لذمة الشرف ـ بأن الحركة العمومية موجهة إلى النقطة الأولى ، وكلما قربت إلى المركز زادت سرعتها ، شأن كل حركة طبيعية ، ولقد أثرت هذه الحال تأثيراً خفياً في الجم الغفير من عقلاء الناس ، فمالوا إلى خدمة الإنسانية من غير أن يتعصبوا لجنس ولا دين ولا مذهب ، فإذا رجع الإنسان إلى مركزه الطبيعي لا ترى الجمعية البشرية بعد إلا كساكني منزل واحد ، يرتفقون بمنافعه على السواء ، ويجدون من بركات الأرض ما يكفيهم مؤونة التعب، ويكفهم عن الشقاق والعناد إذا أصاب قبيل منهم منفعة عادت على الجميع بدون اختصاص ، على حكم تبادل الأعمال ، وإذا نزل بقبيل نازل توجه الكل إلى انقاذه مما ألم به ، وساروا جميعاً على وفق القانون الطبيعي المودَع في فطرة الإنسان ، يهديه إليه من عَلَّم الطير النياحة . ومرنه على السياحة . ثم لا ترى فيهم إذ ذاك ما يحتاج معه الإنسان إلى كُلْفَة وعناء . بل لا ترى إلا اعمالاً جارية على منهج السهولة . منهج التمرن والاعتياد .

* * *

---

(١) القشرة الرقيقة بين النواة والثمرة .

لائحة اصلاح التعليم العثماني

بسم الله الرحمٰن الرحيم

لا إله إلا اللّه ، وحده لا شريك له ، وبه الحول والقوة ، **وصلى اللّه وسلم على** نبيه وآله وصحبه ، وبعد . . فقد رأينا وسررنا كما سر المسلمون كافة ، بما نشر في جريدة «الطريق»[1] من انه صدرت الإرادة السنية إلى حضرة صاحب السماحة مولانا شيخ الإسلام ، بأن تؤلف تحت رئاسته العلمية لجنة .أعضاؤها حضرات صاحبي السماحة «**نوري أفندي**» أمين الفتوى و«**حسني أفندي**» رئيس مجلس المعارف ، وصاحب العطوفة «**عبد النافع أفندي**» ، وصاحب الفضيلة خوجة «**إسحاق أفندي**» ، وأن يناط بهذه اللجنة إصلاح جداول الدروس في المكاتب[2] الإسلامية ، وتقويمها ، حتى تكون كافلة بجميع الوسائل الصحيحة لتعليم أولاد المسلمين ، وتلقينهم ضروريات الدين الإسلامي ، وتربيتهم بالآداب والأخلاق الإسلامية على وفق الحق المطلوب ، وإن حضرة مولانا شيخ الإسلام ، وحضرات اعضاء اللجنة الكرام ، وإن كانوا في غنى بآرائهم القويمة ، ومعارفهم الواسعة عن أن يتقدم إليهم أمثالنا بالمشورة ، ولكنها الحمية للدين تبعثنا على بسط ما يلوح بخواطرنا إلى أولياء أمورنا . مع الاعتراف بالعجز ، والإقرار بالقصور ، عملاً بقول سيدنا علي كرم اللّه وجهه : «من واجب

---

(١) كتبها في منفاه ببيروت ، ورفعها إلى شيخ الإسلام بالآستانة في ٢٦ جمادى الثانية (١٣٠٤ هـ) . (١٨٨٧ م) وذلك بعد أن وقع عليها معه بعض وجهاء المسلمين ومثقفيهم بالشام .

(٢) المدارس ، وكانت المدرسة تسمى عند العثمانيين مكتب .

حقوق اللّه على العباد النصيحة بمبلغ جهدهم ، وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته ، وتقدمت في الدين فضيلته . يفوق ان يعان على ما حَمَّله اللّه من حقه ، ولا امرؤ وإن صَغَّرته النفوس ، واقتحمته العيون ، بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه» .

إن من له قلب من أهل الدين الإسلامي يرى أن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان باللّه ورسوله ، فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين ، الكافلة ببقاء حوزته ، وليس للدين سلطان في سواها ، وإنا والحمد للّه على هذه العقيدة ، عليها نحيا وعليها نموت .

إن للخلافة الإسلامية حصوناً وأسواراً ، وإن أحكم أسوارها ما استحكم في قلوب المؤمنين من الثقة بها ، والحمية للدفاع عنها ، ولا معقد للثقة ، ولا موقد للحمية في قلوب المسلمين إلا ما أتاهم من قبل الدين ، ومن ظن ان اسم الوطن ، ومصلحة البلاد ، وما شاكل ذلك من الألفاظ الطنانة يقوم مقام الدين في انهاض الهمم وسوقها إلى الغايات المطلوبة منها فقد ضل سواء السبيل .

المسلمون قد تحيف الدهر نفوسهم ، وأنحت الأيام على معاقد إيمانهم ، ووهت عرى يقينهم ، بما غشيهم من ظلمات الجهل بأصول دينهم ، وقد تبع الضعف فساد في الأخلاق ، وانتكاس في الطبائع ، وانحطاط في الأنفس ، حتى أصبح الجمهور الأغلب منهم أشبه بالحيوانات الرُّتَّع ؛ غاية همهم أن يعيشوا إلى منقطع آجالهم ، يأكلون ويشربون ويتناسلون ويتنافسون في اللذات البهيمية ، وسواء عليهم بعد ذلك أكانت العزة للّه ورسوله وخليفته أو كانت العزة لسائد عليهم من غيرهم ، وهؤلاء الهنديون وسكان ما وراء النهر وقبائل التركمان واشباههم يمثلون هذه الرزية أظهر تمثيل ، ولم تكن هذه المحنة خاصة بقوم من المسلمين دون قوم ، ولكن عمت بها البلية حتى خشي على قلوب كثير من العثمانيين أن يمسها هذا المرض الخبيث ، لولا أن تداركتها قوة مولانا أمير المؤمنين خلد اللّه ظله .

هذا الضعف الديني قد نهج لشياطين الأجانب سبل الدخول إلى قلوب كثير من المسلمين ، واستمالة إهوائهم إلى الأخذ بدسائسهم ، والإصاخة إلى وساوسهم ، فخلبوا عقول عدد غير قليل ، ثم انبثت دعاتهم في أطراف البلاد الإسلامية ، حتى العثمانية ، لتضليل المسلمين ، فلا ترى بقعة من البقاع إلا فيها مدرسة للأميركانيين ، أو

اليسوعيين . أو العزارية ، أو الفرير ، أو لجمعية أخرى من الجمعيات الدينية الأوروبية ، والمسلمون لا يستنكفون من إرسال أولادهم إلى تلك المدارس ، طمعاً في تعليمهم بعض العلوم المظنون نفعها في معيشتهم ، أو تحصيلهم بعض اللغات الأوروبية التي يحسبونها ضرورية لسعادتهم في مستقبل حياتهم ، ولم يختص هذا التساهل المحزن بالعامة والجهال ، بل تعدى إلى المعروفين بالتعصب في دينهم ، بل لبعض ذوي المناصب الدينية الإسلامية ، وأولئك الضعفاء أولاد المسلمين يدخلون إلى تلك المدارس الأجنبية في سن السذاجة وغرارة الصبا والحداثة ، ولا يسمعون إلا ما يناقض عقائد الدين الإسلامي ، ولا يرون إلا ما يخالف احكام الشرع المحمدي ، بل لا يطرق اسماعهم إلا ما يزري على دينهم وعقائد آبائهم ، ويعيب عليهم التمسك بعرى الطاعة لأوليائهم ، ويقع ذلك من نفوسهم موقع القبول لأنه من أساتذتهم القوام على تربيتهم بإذن آبائهم ، ولا نطيل القول فيما يتلقونه من العقائد الفاسدة والآراء الباطلة ، فذلك أمر أعرف من أن يبين . فلا تنقضي سنو تعليمهم إلا وند خوت قلوبهم من كل عقد إسلامي ، وأصبحوا كفاراً تحت حجاب اسم الإسلام ، ولا يقف الأمر عند ذلك بل تعقد قلوبهم على محبة الأجانب ، وتُجْذَب أهواؤهم إلى مجاراتهم ، ويكونون طوعاً لهم فيما يريدونه منهم ، ثم ينفثون ما تدنست به نفوسهم بين العامة بالقول والعمل ، فيصيرون بذلك ويلاً على الأمة ، ورزية على الدولة ـ نعوذ باللّه ـ ولو فقه المسلمون لبذلوا من أموالهم ما يجيدون به تربية أبنائهم مع استبقائهم مسلمين في العقيدة ، عثمانيين في النزعة . هذا ما جلبه الجهل على الأمة الإسلامية ، وإن غائلته لمن أشد الغوائل ، وقد كنا نخاف أن تحل بوائقها لو لم تدفعها عزيمة مولانا أمير المؤمنين .

أما المكاتب والمدارس الإسلامية فقد كانت إمَّا خالية من التعليم الديني جملة ، وإما مشتملة على شيء قليل منه لا يتجاوز أحكام العبادات على وجه مختصر وطريق صوري لا يعدو حفظ العبارات مع الجهل بالمدلولات ، ولهذا رأينا كثيراً ممن قرأوا العلوم في المدارس العسكرية وغيرها خلواً من الدين ، وجهالاً بعقائده ، منكبين على الشهوات وسفساف الملذات ، لا يخشون اللّه في سر ولا جهر ، ولا يراعون له حكماً في خير ولا شر ، وانحط بهم ذلك إلى الكَلَب في الكسب والانصباب على طلب التوسعة في العيش ، لا يلاحظون فيه حلالاً أو حراماً ولا طيباً أو خبيثاً ، فإذا دعوا إلى الدفاع عن

الملة والدولة ركنوا إلى الراحة ، ومالوا إلى الخيانـة ، وطلبوا لأنفسهم الخـلاص بأيـة وسيلة .

وبالجملة فإن ضعف العقيدة ، والجهل بالدين ، قد شمل المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، إلا من عصم اللّٰه وهم قليلون ، ولهذا نراهـم يفرون من الخدمة العسكرية ، ويطلبون للتخلص منها أية حيلة ، وهي من أهم الفروض الدينية المطلوبة منهم ، ونرى غيرهم من الأمم يتسابقون إلى الانتظام في سلك جنديتهم ، مع انها غير معروفة في دينهم ، بل مضادة لصريح نصوصـه ، ونرى المسلمـين يبخلون بأمـوالهم إذا دعت الأحوال إلى مساعدة الدولة والانفاق على مصالـح الأمة ، ولا يبخلون بـذلك على شهواتهم ، بعكس ما نرى في سائر الأمم . هكذا انطفأ من المسلمين مصباح العقل ، فلا يعرفون لهم رابطة يرتبطون بها . ولا يهتدون إلى جامعة يلجأون اليها . وتَقَطَّعَ ما بينهم ﴿تَحْسَبُهُـم جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يفْقَهُونَ﴾[1] ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه .

هذه أحوال نذكر منها القليل ، واللّٰه يعلم أن الواقع منهـا أكثر من الكثير ، نذكرها مقرونة بأنفاس الأسف وصعداء الحزن لما نعلم أن الأجانب قد أرسلوا ذئابهم يتخطفون شاذنهم ،وأغلبهم شاذة[2] ، ويفترسون نادتهم وجمهورهم نادة[3] ، ومسارعة الفساد فيهم مشهورة يحس بازديادها كل سنة عما قبلها ، وان عواقب ذلك لتخشى ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه .

وإذا اسْتَقْرَيْنَا أحوال المسلمين للبحث عن أسباب هذا الخذلان لا نجد إلا سبباً واحداً ، وهو القصور في التعليم الديني ، إما بإهماله جملة كما هو في بعض البلاد وإما بالسلوك إليه من غير طريقه القويمة كما في بعض آخر ، أما الذين أهمل فيهم التعليم الديني فجمهور العامة في كل ناحية ، لم يبق عندهم من الدين إلا أسماء يذكرونها ولا

---

(١) الحشر : ١٤ .

(٢) المخالف للجمهور ، الخارج عن القياس .

(٣) نافر شارد .

يعتبرونها ، فإن كانت لهم عقائد فهي بقايا من عقائد «الجبرية[1]» و«المرجئة[2]» من نحو انه لا اختيار للعبد في ما يفعله وإنما هو مجبور في ما يصدر منه جبراً محضاً ، فلهذا لا يؤاخذ على ترك الفرائض ، ولا اجترام السيئات ، ومثل ان رحمة اللّه لا تدع ذنباً حتى تشمله بالغفران ، قطعاً لا احتمال معه للعقاب . فليفعل الإنسان ما يفعل من الموبقات . وليهمل ما يهمل من المفروضات . فلا عقاب عليه . وما شاكل ذلك مما أدى إلى هدم اركان الدين من نفوسهم . واستل الحمية من قلوبهم . ولا منشأ له إلا عدم تعليمهم عقائد دينهم . وغفلتهم عما أودع في كتاب اللّه وسنة رسوله . وأما الذين أصابوا شيئاً من العلم الديني . فمنهم من كان همهم علم أحكام الطهارة والنجاسة وفرائض الصلاة والصيام . وظنوا ان الدين منحصر في ذلك . ومتى أدوا هاتين العبادتين . على ما نص في كتب الفقه . أقاموا الدين . وإن هدموا كل ركن سواهما . ويشتركون مع الأولين في تلك العقائد الفاسدة[3] . ومنهم من زاد على ذلك علم الفروع في أبواب من المعاملات . متخذاً ذلك آلة للكسب وصنعة من الصنائع العادية وأولئك الأغلب من طلاب الإفتاء والقضاء ووظائف التدريس وما شاكل ذلك . لا ينظرون من الدين إلا من وجه ما يجلب إليهم المعيشة . فإن مال بهم طلب العيش إلى مخالفته لم يبالوا بذلك . معتقدين على مثل عقائد الجهلة مما قدمنا[4] . وهؤلاء لا تختص مفاسد أعمالهم بذواتهم ولكنها تتعدى إلى اخلاق العامة وأطوارهم . فهذا القسم اعظم الأقسام خطراً وأشدها ضرراً في العامة والخاصة ، وما أفراده بقليل .

نعم لا ينكر أن الخير في أمة محمد ﷺ . وأنه يوجد في هذه الطبقة رجال وقفوا عند ما حَدَّ الكتاب ، واستمسكوا في الدين بالعروة الوثقى ، وأضرم الدين في قلوبهم

---

(١) هم القائلون بالجبر ، وبأن أفعال الإنسان مخلوقة للّه لا للإنسان ، وهم خصوم المعتزلة القائلين بالحرية والاختيار في حق الإنسان فيما يتعلق بفعله ، وأشهر فرق الجبرية الخلص الذين قالوا بالجبر المحض هم «الجهمية» اتباع الجهم بن صفهوان (المتوفى ١٢٨ هـ) .

(٢) هم الذين لا يعتبرون المعاصي ضارة بالإيمان ، وعندهم إنه لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة . . . وهم يرجئون الحكم على العقائد ليوم القيامة ، ولقد استفاد من موقف المرجئة مثل الجبرية خصوم المعتزلة في الفكر والسلوك .

(٣) أي الجبر والإرجاء .

(٤) أي الجبر والإرجاء .

نار الحمية ، واستفز اليقينُ هَمَّهم للنصرة الملية ، إلا انهم قليل ، والموجود منهم قد يكون خامل الذكر ، أو قاصر الاقتدار عما تطالبه به الشريعة في إرشاد الأمة ، وبالجملة فوجود أمثالهم لم يكن كافياً في دفع الشرور الوافدة من غيرهم ، ولولا ما لطف اللّٰه بهذه الأمة ، بسر تَوَجُّه مولانا الخليفة الأعظم ، لعجل لها من الوبال ما استحقته ، لسوء أعمالها ، ونبذها أحكام اللّٰه وراء ظهرها ، وانحراف قلوبها عن مقاصد ولاة أمورها الصادقين .

وقد نظر مولانا اعزه اللّٰه ونصره إلى عظم هذا الأمر وهول عواقبه ، فأصدر إرادته السامية بالنظر في وجوه تداركه . فيا للنعمة العظمى ويا للمرحمة الكبرى ، هشت لها قلوب المؤمنين ، وبشت لورود بشراها وجوه الصادقين ، وارتفعت اصوات التضرع إلى اللّٰه بتأييد شوكة مولانا أمير المؤمنين ، وتأييد دولته ، واعلاء كلمته .

وإنه بعد التأمل في الأحوال المتقدمة ،.وهي ظاهرة مشهورة ، والوقوف على سببها الذي أشرنا إليه ، وهو غير خفي على مدارك مولانا شيخ الإسلام وأعضاء اللجنة الكرام ، نعلم أن أمير المؤمنين لم يرد من إصلاح الجداول أن يدرج في فنون المدارس الإسلامية بعض الكتب الفقهية ، مع بقاء التعليم على طرقه المعهودة في المساجد وفي دروس بعض العلماء ، فإن العلوم العملية إذا لم تبن على عقائد صحيحة وإيمان صادق لا تلبث أن تضمحل ، ولئن ثبتت فإنما تسوق إلى أعمال خالية عن النيات ، وخاوية من سر الاخلاص ، فتكون أشبه شيء بالباطلة في عدم ترتب الأثر المطلوب عليها كما قدمناه ، فلا بد أن يكون مولانا الخليفة ـ أعز اللّٰه نصره ـ قد أراد أن يوجه النظر إلى فَنٍّ تقوى به العقيدة ، ويستحكم سلطانها على العقول ، ثم إلى تربية تذكر بما تنال النفس من ذلك الفن ، فيكون التذكار مستحفظاً لما يصل إليه منه ، ثم إلى فن الفقه الباطني ، وهو ما تعرف به أحوال النفس وأخلاقها أو المهلك منها كالكذب والخيانة والنميمة والحسد والجبن وسائر الرذائل ، والمنجي كالصدق والأمانة والرضى والشجاعة وسائر الفضائل ، ويضم إلى ذلك باقي علم الحلال والحرام على ما هو مذكور في الكتاب والسنة ومتفق عليه بين أئمة الملة الإسلامية . ثم إلى تربية تحفظ ذلك ، وتروض النفس على العمل بما تعلم منه ، ثم يكون التعليم في هذه الفنون المذكورة ، والتربية على وفق قواعدها مستندين إلى الشرع الشريف ، بحيث تذكر مآخذها من القرآن والسنة الصحيحة وما صح أثره من أقوال الصحابة وعلماء السلف الأول ومن حذا حذوهم ،

كحجة الإسلام «الغزالي» وأمثاله ، فالمقصد بالذات علمان ، وهما أصلان ، ومجموعهما ركن من الاصلاح ، والركن الآخر التربية بما يهديان إليه ، حتى تصير العلوم ملكة راسخة تصدر عنها الأفعال بلا تَعَمُّل ، ثم يتبعهما فن آخر يُقوِّي على الغرض منهما ، وهو فن التاريخ الديني ، خصوصاً سيرة النبي ﷺ وسيرة أصحابه والخلفاء الراشدين ومن تأثرهم من الخلفاء العثمانيين .

هذا إجمال ما إليه الحاجة من العلوم الدينية ، إلا أن كل واحد منها مقول على المبدأ والتوسط والنهاية ، وكل منها غذاء لطبقة من الناس لاقوام لحياتها الدينية والسياسية إلا به .

فلهذا نقسم طبقات الناس إلى ثلاث ، ونعين لكل واحدة منها حداً من هذه الفنون .

فالطبقة الأولى : العامة من أهل الصناعة والتجارة والزراعة ومن يتبعهم ، والثانية طبقة الساسة ممن يتعاطى العمل للدولة في تدبير أمر الرعية ، وحماتها من ضباط العسكرية ، وأعضاء المحاكم ورؤسائها ومن يتعلق بهم ، ومأموري الإدارة على اختلاف مراتبهم . والطبقة الثالثة : طبقة العلماء من أهل الإرشاد والتربية ولا نريد بهذا التقسيم منع الآحاد من كل طبقة أن يطلبوا الكمال الذي خص به من فوقهم ولكن الغرض تحديد ما يلزم لكل واحدة ثم إن اللّٰه لا يضيع أجر العاملين .

التعليم الديني الابتدائي لطبقة العامة المسلمين

الطبقة الأولى : هم أولاد المسلمين الذين يوقف بهم عند مبادىء الكتابة والقراءة وشيء من الحساب ، يُعَلَّمون ذلك إلى درجة محدودة ينتفعون بها في معاملاتهم ، ثم ينصرفون إلى أعمالهم الصناعية والتجارية والزراعية وما يشبهها ، وأولئك كتلامذة المكاتب الرشدية والعسكرية والملكية والمكاتب الخيرية الأهلية ، فهؤلاء يهم الدولة منهم أن يكونوا في قيادة الطاعة ، إن جاذبتهم أرواحهم سلموها ، وإن استقرضتهم أموالهم بذلوها محتسبين ذلك في سبيل اللّٰه غير ساخطين ولا متكرهين ، ثم لا يكون لوسوسة اجنبي منفذ إلى قلوبهم ، فيجب أن يودع في أفئدتهم لبدايات تعليمهم مواقد الحمية ومعاصم الأنفة الملية كما كان ذلك في نشأة الإسلام وبداءة الخلافة العثمانية ، وكما هو معروف الآن عند الأمم الأوروباوية مما تعلموه من أسلافنا ، ولا تدرك هذه الغاية من

أبنائنا إلا بعقيدة صادقة ، واستقامة ثابتة ، ومحبة خالصة ولهذا ينبغي أن توضع لهم كتب التعليم الديني على الوجه الآتي :

أولاً : كتاب مختصر في العقائد الإسلامية المتفق عليها عند **أهل السنة** ، بلا تعرض للخلاف بين الطوائف الإسلامية مطلقاً ، مع الاستدلال عليها بالأدلة الاقناعية القريبة المنال ، والاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة ، ومع الإلمام بشيء من الخلاف بيننا وبين النصارى ، وبيان شبههم في معتقداتهم ، لتكون الخواطر في استعداد لدفع ما يرد عليها من وساوس دعاة الإنجيل المنبثين في كل قطر .

ثانياً : كتاب مختصر في الحلال والحرام من الأعمال ، وبيان الأخلاق الخبيثة ، والصفات الطيبة ، والتنبيه على البدع المستحدثة التي لم يرد في الكتاب فرضها ولا في السنة أثرها ، وظهر في العامة ضررها ، مستدلاً فيه بآيات الكتاب وأحاديث السنة ، مؤيداً بأعمال الصديقين من سلف الأمة ، ولا بد أن يكون مدار الكتاب تقرير ان الإنسان إنما خلق ليكون عبد اللّه ، فكل شيء دون اللّه ورسوله مبذول .

ثالثاً : كتاب في التاريخ ، مختصر يحتوي على مجمل سيرة النبي ﷺ وسيرة أصحابه من وجه ما يتعلق بالأخلاق الكريمة والأعمال العظيمة وفداء الدين بالأرواح والأموال ، مع الإلمام بالسبب في تسلط الإسلام على الأمم في وقت قصير مع قلة أهله وكثرة معارضيه وقوتهم ، وإثبات ان ذلك بسر الصدق في المكافحة والاتحاد في المجاهدة ، ثم يتبع ذلك بتاريخ الخلفاء العثمانيين ، كل ذلك على وجه مختصر سهل التناول .

ثم هذه الكتب تكون للعثمانيين من العرب عربية[1] ومن الترك تركية ، ومن غيرهم بلسانهم إن وجدوا ، وما يذكر فيها من آية وحديث يفسر باللغة الموضوعة فيها .

---

(١) يلاحظ إن مطلب تعليم العرب العثمانيين بلغتهم العربية ظل هدفاً تسعى إليه الحركة القومية العربية في الولايات العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى ، ولم يسلم به العثمانيون إلا بعد المؤتمر العربي الذي عقدته الجمعيات القومية العربية بباريس ١٩١٣ م ، ومن ثم فإن مطلب الأستاذ الإمام هذا في ١٨٨٧ م يستحق الإهتمام ، أما بالنسبة لمصر فلقد كانت ـ عملياً ـ خارج هذا الإطار .

التعليم الديني الوسط للطبقة المرشحة للوظائف

الطبقة الثانية : هم أبناء المسلمين الذين ينتظمون في المدارس السلطانية والشرعية والملكية والعسكرية والطبية وما يتلوها ، والذي يهم الدولة منهم أن يكونوا أمناء لها ، حفاظاً لما استحفظوا عليه من شؤونها ـ الجندي منهم حامل لنفسه على ذباب سيفه[١] حتى ينتصر أو يموت ، والمحكم منهم بفصل المخاصمات قابض على ميزان العدالة ناظر إلى كفف[٢] النظام يرجح ما رجح فيه ويسقط ما سقط منه ، فهو يتحرى الحق ويحكم به أو يموت ، والمولى منهم آمر في إدارة أمور الرعية ، آخذ لمنظار الحذق والدراية ليستبين ما يخفى من مصالح وما يدق من مسالك أهوائها ، ليضبط الأعمال ، ويلزم الحدود ، ويوفر وسائل العمران ، فهو يقيم للدولة ما قامت به مصالح رعاياها ، إلا أن يحول دون ذلك الموت فيموت . فهذه الطبقة بعد أن تشارك الطبقة السابقة في مبدأ التعليم الديني يزاد لها ـ بعد ما تقدم ـ كتب أعلى من تلك الفنون نفسها ، فتوضع لهم في المدارس العالية والإعدادية على الوجه الآتي :

أولاً ـ كتاب يكون مقدمة للعلوم ، يحتوي على المهم في فن المنطق ، وأصول النظر ، وشيء من آداب الجدل .

ثانياً ـ كتاب في العقائد ، يوضع على قواعد البرهان العقلي والدليل القطعي ، مع التزام التوسط ، واتيان الطريق الأقرب ، ومجانبة الخلاف بين المذاهب الإسلامية أيضاً إلا أنه يتوسع فيها بيننا وبين النصارى لإيضاح ما تستلزمه عقائدهم بوجه أجلى وأوضح ، وتفصيل شيء من فوائد العقائد الإسلامية في تقويم المعيشة المدنية ، فضلاً عن غاية السعادة الأخروية .

ثالثاً ـ كتاب يفصل فيه الحلال والحرام وأبواب الفضائل والرذائل ، ببيان أكمل مما في البداية ، وتوضيح لأسباب الأخلاق وعللها وآثارها على وجه يقنع به العقل وتطمئن به النفس ، ثم بيان الحِكَم لبعض الأحكام الدينية وفوائدها في الحياة البشرية ، مع الاستناد في هذا وفي سابقه إلى نصوص الدين وسير السلف الصالح كما تقدم ،

---

(١) ذباب السيف طرفه الذي يضرب به .

(٢) جمع كفة .

ويكون مدار الكلام في الكتابين ما يضرم الحمية في القلوب ، ويرفع النفوس إلى مقام لا تطلب فيه إلا معالي الأمور .

رابعاً ـ كتاب تاريخ ديني ، يحتوي على تفصيل سيرة النبي ﷺ وسيرة أصحابه ، والفتوحات الإسلامية العظيمة في القرون المختلفة ، وما جاء به الخلفاء العثمانيون من ذلك ، والإتيان على كل هذا من وجه ديني محض ، فإن ذكرت فيه الوجوه السياسية كانت تابعة للغرض الديني ، ويبين في هذا الكتاب ما كانت تنبسط إليه سيادة الإسلام من أقطار الأرض ، ويودع فيه من العبارات ما يحرك القلوب إلى طلب المفقود ، فضلاً عن حفظ الموجود ، ثم تبسط فيه أسباب التقدم الإسلامي بأدق مما كان في السابق .

وأبناء هذه الطبقة كالسابقين من إخوانهم يكفيهم أن يتعلموا هذه الكتب بألسنة آبائهم ، وما يذكر من النصوص العربية يفسر لغير العرب كما سبق ، ولا يلزم لتربيتهم الدينية أن يتعلموا اللسان العربي إلا ما يفرض عليهم في العبادات ، وما يتلونه من ذلك فلا بد من إيقافهم على حقيقة معناه بالتفسير حتى يكون كل قائل عارفاً بمدلول ما ينطق به ، ليترك الذِّكر أثراً في الفكر كما هو مطلوب الشارع ، وقد يندرج في هذه الطبقة بعض من يناط بهم أمر التعليم في المدارس والمكاتب الابتدائية إذا وجدت فيهم الأوصاف التي تؤهلهم لذلك ، من الحمية والعفة ، ومحبة الدولة ، والوقوف عند أحكام الشرع الشريف ، مع التبصر في الممنوعات والمطلوبات ، وتمييز ما هو من الدين عما ليس منه ، وإن خالف أوهام العامة .

التعليم الديني العالي لطبقة المعلمين والمرشدين

(الطبقة الثالثة) : هم أبناء المسلمين الذين عقلوا ما تقدم من كتب الطبقتين السابقتين ، وكشف الامتحان امتيازهم في فهمها ، وتخلقهم بالصفات المقصودة بوضعها ، فانتخبوا لذلك على أن يرقى بهم الدرجة العليا من العلم والعمل ، حتى يكونوا عرفاء الأمة ، وهداة الملة ، فيناط بهم التعليم الديني في المدارس العالية والإعدادية ، بل والابتدائية إذا كثر عددهم ، وبهم يناط التعليم لأهل طبقتهم ، فهؤلاء لا يكفي لإبلاغهم الغاية المطلوبة للدولة فهم دراسة ثلاثة أو أربعة من الكتب الدينية ، بل يجب أن يزاد لهم على ما تقدم كتب كثيرة ، يزدادون بدراستها بصيرة في دينهم ، ويستوسعون بها القدرة في البيان لإفادة غيرهم ، فمن المعلوم أنه لا يكفي المرشد ما

يكفي للمسترشد ، ولأجل هذا نقتصر في بيان ما يحتاجون إليه على ذكر الفنون دون التعرض لأعيان الكتب ، إلا قليلاً ، فلتكن الفنون على الوجه الآتي إن شاء اللّٰه .

أولاً : فن تفسير القرآن ، وهو أهم ما يحتاج إليه ، ليقرأ القرآن تفهماً وتطلباً لما أودع اللّٰه فيه من الأسرار والحكمة ، فالقرآن سر نجاح المسلمين ، ولا حيلة في تلافي أمرهم إلا إرجاعهم إليه ، وما لم تقرع صيحته أعماق قلوبهم وتزلزل هزته رواسي طباعهم فالأمل مقطوع من هبوبهم من نومهم ، ولا بد أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه ، على ما ترشد إليه أساليب اللغة العربية ، ليستجاب لدعوته كما استجاب لها رعاة الغنم وساقة الإبل ممن أنزل القرآن بلغتهم ، والقرآن قريب لطالبه متى كان عارفاً باللغة العربية ومذاهب العرب في الكلام وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي ، فعلم ذلك من أجود الوسائل لفهمه ، فإن احتيج إلى وسيلة أخرى فأولاها مطالعة كتب التفسير الذاهبة مذهب تطبيق مفاهيم الكتاب على المعروف عند العرب كتفسير «الكشاف» وتفسير «**القمي النيسابوري**» ومن أخذ طريقهما .

ثانياً : فنون اللغة العربية ، من نحو وصرف ومعان وبيان وتاريخ جاهلي وما يتبع ذلك ليتمكن بها من فهم القرآن والحديث .

ثالثاً : فن الحديث ، على شرط أن يؤخذ مفسراً للقرآن مبيناً له ، مع اطراح ما يخالف نصه من الأحاديث الضعيفة ، والاجتهاد لإرجاع الأحاديث الصحيحة إليه إن كان ظاهرها يوهم المخالفة .

رابعاً : فن الأخلاق والآداب الدينية ، بتفصيل تام وإحاطة كاملة على نحو ما سلك الإمام «**الغزالي**» وفي (الاحياء) ، مع تطبيق تلك القواعد الأدبية الشرعية على الأصول المشهورة .

خامساً : فن أصول الفقه ، من وجه ما يُمَكِّن من صحة الاستدلال بالنصوص الشرعية ، ويوقِف على كليات الشريعة ليستأنس بها في فهم الأحكام ، ونرى أفضل كتاب يفيد لهذا المقصد «الموافقات» للشيخ «**الشاطبي**» المطبوع في تونس .

سادساً : فن التاريخ ، القديم والحديث ، ويدخل في ذلك سيرة النبي ﷺ بالتفصيل وسير أصحابه ، وتاريخ الانقلابات التي عرضت في الممالك الإسلامية الأولى ، وتاريخ **الدولة العثمانية** وما كان منها في إنهاض الإسلام من كبوته التي كباها في

القرون الوسطى بعد الحروب الصليبية ، مع التوفيق في أسباب ما وصلت اليه الملة في هذه الأيام ، ليتبين أنه لا سبب لذلك إلا الجهل بالدين ، والانحراف عن أحكامه ، وانشقاق عصا الأمة بالخلاف الذي لا طائل له .

سابعاً : فن الإقناع والخطابة وأصول الجدل ، لغرض التمكن من تقرير المعاني في الأذهان ، وتثبيت العقائد في النفوس ، وإلزامها الأخذ بمكارم الأخلاق وفضائل الأعمال ، والارتفاع بها عن دنايا الصفات وسفساف الأمور .

ثامناً : فن الكلام ، والنظر في العقائد ، واختلاف المذاهب ، والبحث في أدلة كل ، لا لتحصيل العقيدة ولكن لزيادة البسطة في الفكر والسعة في الرأي ، ولا بأس بقراءة بعض الكتب الحِكْمِيَّة الإسلامية لتكميل الإحاطة بوجوه المسائل العقلية .

فهذا جملة ما يلزم لتحلية نفوس هذه الطبقة بفضيلتي العلم والعمل ، ولم نتعرض لفن الفقه في العبادات والمعاملات ، لأنه في العبادات سهل التناول من أفواه الطلبة ، وفي المعاملات يشترك في طلبه المسلم والذمي والأجنبي ، إذ يضطر إليه كل ساكن في الممالك العثمانية ليعرف كيف يطالب بحقه أو يدافع عنه ، أما سائر العلوم من اللغات والرياضيات والطبيعيات والنظامات وكل ما حددته نظارة المعارف العثمانية فهي على رسمها ، كل مدرسة تتبع قانونها ، لا يضر شيء منها بالدين ، بل الدين يقويها كما أنها تقويه .

هذه الطبقة الأخيرة ينبغي أن تكون تحت نظر مولانا شيخ الإسلام خاصة ، وتكون إدارتها تحت عنايته في سلك مخصوص ، ويدعى لها بالمدرسين المتبصرين من أي أرض يوجدون بها ، وينتخب طلبة العلوم لها من أقوى الناس إدراكاً وأذكاهم أخلاقاً ، ويراعى في الانتخاب كمال الدقة في الامتحان ، ثم لا يعطى الطالب منها شهادة ببلوغه الغاية من علومها وتأهله للتدريس إلا بعد الامتحان الشديد في العلوم المتقدمة ، والبحث الكامل عن سيرته في أحواله وأعماله ، والتحقق من تقدمه في الفضيلتين : العلم والعمل .

* * *

التدريس في جميع تلك الدرجات إنما يقصد منه إشراب القلوب حب الدين وتوقيره ، وجعله الغاية المطلوبة من كل عمل ، حتى تكون للملة وجهة واحدة

يقصدونها بأعمالهم ، فتلتئم قواها الروحية والمالية لخدمة الدين ، وتأييد حافظه الأعظم المدافع عن بيضته حضرة مولانا أمير المؤمنيت، فتكون الملة مهيبة يُخْشَى بأسها، وتخاف بوائق غضبها ، ويؤول بالدولة إلى علو الكلمة في سياستها الخارجية بعدما عادت بركاته على المسلمين في راحتهم الداخلية ، وبالجملة فالقصد من إصلاح الجداول إنما هو إلى إحياء الملة ، وقد كانت كادت تموت والعياذ بالله .

ولهذا يجب أن يكون التدريس في أغلب العلوم المتقدمة ، خصوصاً في الأخلاق والآداب، أشبه شيء بالخطابة، ترسل في المعاني إلى القلوب لتهزها وتستفزها من مقار الخمول والغفلة إلى مقامات التنبه والبصيرة ، ثم يتبع الدرس رعاية لأحوال المعلمين وأعمالهم ، ومؤاخذة لهم إذا خالفوا حكماً من أحكام ما تعلموه ، أو قصروا في عمل من لوازم ما اعتقدوه ، وتذكيرهم في ذلك ، بما يؤثر في قلوبهم ويحرك الساكن من خواطرهم ، ومن ثمة يجب أن يكون القائمون بالتعليم على أكمل الصفات العقلية وأفضل الأعمال النفسية ، يراعى فيهم ذلك بقدر الإمكان .

وإن ثقتنا بوعد الله في قوله ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1] وقوله : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[2] وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾[3] وقوله : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[4] واعتبارنا بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[5] وخبرتنا بأحوال الأمم الأوروبية ، والأسباب التي وصلت بهم إلى ما نراهم عليه في القوة والدراية ، كل ذلك يوجب لنا اليقين القطعي بأن إصلاح التعليم الديني على الوجه المتقدم يكون نشأة حياة جديدة تسري في جميع أرواح المسلمين العثمانيين ، بل هو الذي سيفضي في أسرع وقت إلى توحيد كلمة الإسلام ، وجمع أطرافه تحت كنف الدولة العلية العثمانية ، رغماً عن أنفس كل مخاصم ، ومنه رأي هؤلاء العاجزين[6] أن لا حافظ للدولة ولا واقي للملة

---

(١) محمد : ٧ .

(٢) العنكبوت : ٦٩ .

(٣) النحل : ١٢٨ .

(٤) التوبة : ٣٣ .

(٥) الرعد : ١١ .

(٦) الإشارة إلى الموقعين مع الأستاذ الإمام على اللائحة ، ووصفهم بالعجز للتواضع .

سواه ، وإن جميع ما صرف في سبيله من المتاعب والنفقات فهو أعود بالفائدة مما يصرف لأي عمل سياسي خارجي أو داخلي ، فإنه لا سياسة إلا بالقوة ، ولا قوة إلا بالنجدة ، ولا نجدة إلا بالوحدة ، ولا وحدة إلا بالطاعة ، ولا حقيقة للطاعة إلا بالعقيدة الحسنة ، ولا عقيدة إلا بحياة الدين ، ولا حياة للدين إلا بالتعليم ، حتى يجري على أحكام التجربة ، وليس ذلك إلا ما عرضناه ، وأن جمهور المسلمين ممن تعرف أفكارهم في الأقطار العثمانية ، بل وفي غيرها ، لا يرون دواء لدائهم إلا رجوعهم لاصول دينهم في أخلاقهم وأعمالهم ، وإن يكونوا يجهلون الوسائل إلى ذلك ، فالحمد للّه الذي وفق الدولة ـ حرسها اللّه ـ لتقريب مرغوبهم وتحقيق أمانيهم .

هذا ما نرفعه إلى مقام شيخ الإسلام ، فإن صادف قبولاً فذلك ما نؤمل ويؤمل المسلمون ، وإن كانت الأخرى فقد أدينا ما حضر لنا على حسب عجزنا ، ونسأل اللّه أن يوفق مولانا أمير المؤمنين وأركان دولته إلى تقرير ما هو أعلى من أفكارنا ، وأنجح منها في إصلاحنا ، وإنا في جميع الأحوال نوالي الدعوات الصالحات بنصر مولانا الخليفة الأعظم ، وتأييده ، وبقائه ظلاً للّه ورحمة لعبيده . آمين .

«كلام في الدعاة والمرشدين»

وبقي في موضوع الإصلاح الديني كلام هو كالتتمة له ، فنتقدم لعرضه ، وهو أن المكاتب والمدارس المنشأة في الممالك العثمانية إن لم تكن قليلة بالنسبة للرعايا العثمانيين ، فالداخل اليها قليل بالنسبة إلى عدد الأهالي ، فإن الجمهور الأعظم من سكان القرى والأعراب المتنقلين في أكناف المملكة وأشباههم لا يرون ضرورة لتعليم أولادهم ولا يُقَدِّرون التربية الحسنة حق قدرها ، فاصلاح جداول التعليم في المدارس لا تصيبهم فائدته ، بل يحرمون منها ، كما يحرم الكبار من العامة الذين جاوزوا سن التعليم ، وهؤلاء وأولئك من جسم الدولة ، ولهم وظائف من الأعمال يُطالَبون بأدائها ، والحال فيهم من الجهل ما وصفنا ، والمضرة اللاحقة بالدولة من جهلهم هي كما بينا ، فمن الواجب الالتفات إليهم باصلاح أرواحهم لتستفيد الدولة منهم فائدتها من سواهم .

وذلك لا يكون إلا بترتيب دعوة تنبههم إلى الواجب عليهم من تعليم أبنائهم ،

وتحملهم على السعي في تربيتهم وتهذيبهم ، ثم تخدعهم عن أطباعهم[1] ، وتلين من قساوة قلوبهم ، ثم إنهم لو رغبوا في التعليم ، وكلفت الدولة بانشاء مكاتب لتربية أبنائهم والإنفاق عليها لزادت عليها النفقات ، مع كثرة ما يلزمها من المصاريف في إدارة شؤون المملكة فلا بد أن يكون من وظائف الدعاة تحريض الموسرين والأغنياء أن يبذلوا من فضلات أموالهم ما ينفق على إنشاء المكاتب ، وعمل التعليم فيها ، ويؤلفوا لذلك لجاناً وجماعات في كل بلد وبقعة ، لتدبيره والقيام عليه تحت مراقبة من يقوم بالدعوة فيهم ، ثم يكون من وظائف الدعاة القاء الوعظ العام في المساجد والمجامع ، ليذكروا الناس ما نسوا من دينهم ، ويعرفوهم ما جهلوا منه ، ويشربوا قلوبهم حب الدولة ، ويقرروا في نفوسهم بلطف البيان ان أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين أولى بهم من أنفسهم ، وعلى ذلك يجب أن يكون لأهل الدين دعاة مرشدون ينبثون بين العامة ليقفوهم على أمور دينهم ، ويبادروهم بالدواء قبل استفحال الداء .

وهؤلاء المرشدون يجب أن يكونوا على الأوصاف التي شرطناها في أهل الطبقة الثالثة علماً وعملاً ، وبالجملة فلا بد أن يكونوا من أطول الناس باعاً في الفنون الأدبية الشرعية ، وأوسعهم علماً بعلل الأخلاق وأمراض النفوس ، وأقدرهم على التماس منافذ القلوب للدخول إليها بما يصلحها ، ثم يكونوا أقوم الناس سيرة ، لا يخالف عملهم قولهم ، فيكونون مثالاً للناس يحتذونه ، وقدوة لهم يتبعونها ، ثم لا بد أن يكون في كل قوم بلغتهم ، بل يجب أن يكونوا ممتازين بفصاحة اللسان وجودة المنطق بين القوم الذين يرشدونهم ليقبلوا عليهم بالاستماع .

ومن هذا تلزم المبادرة إلى إصلاح الخطبة في مساجد الجمعة ، وتوليتها قوماً يحسنونها ، ويدرجون فيها ما يمس أحوال العامة في تصرفاتهم المشهودة ، ويبينون لهم مضار الفساد ، ويهدونهم إلى سبل الرشاد ، كما هو مقصود الشارع من فرض الخطبة في الجمعة ، وهذا باب عظيم من الإصلاح ، إذا وُجِّهَت العناية إليه رجونا منه النفع الكثير والخير الغزير .

فإن سأل سائل : أين الكتب التي توضع للطبقة الأولى والثانية من المتعلمين ؟

---

(١) مفردها الطبع ، بفتح الباء ، ومن معانيها الدنس والعيب وما يشين .

وأين الرجال الذين يصلحون للتعليم والتربية ؟ وأين الذين يقومون بتربية الطبقة الثالثة وتهذيبها ؟ وأين الذين يمكن للدولة أن تعتمد عليهم في إرشاد العامة ، وتبثهم دعاة ؟ ثم من أين توجد مصاريف هذه الأعمال ، ثم كيف شَرَطْتَ في أهل الطبقة الثالثة أن يحصلوا تلك العلوم ، مع الايغال فيها والوصول إلى حقائقها ، وذلك يستدعي زمناً طويلًا ؟ .

فالجواب : أما وضع الكتب للطبقتين فسهل جداً ، لو كلف أحدنا بوضعها لتيسر له ذلك بمعونة اللّٰه عز وجل في أقرب وقت يمكن ، متى صدر الأمر بذلك ، تحت نظر مولانا شيخ الإسلام . وأما الرجال الذين يُعَلِّمون في الطبقتين الأوليين ، وفي الثالثة أيضاً ، والذين يليقون لوظيفة الإرشاد فهم ان تعسر وجودهم في بلد واحد أو مدينة واحدة فالبحث عنهم في أطراف بلاد المسلمين يهدي إلى الكفاية منهم لبداية المشروع ، متى صدقت النية ، وخلصت الوجهة للّٰه وللحق في البحث والاختيار ، وأمثال أولئك الرجال ، أهل الدين والاستقامة ، قلما يقفون بأبواب الأمراء أو يتطلبون المناصب إلا إذا رأوا في ذلك مصلحة لدينهم ، فهؤلاء لا يُعْرَفون إلا بعد التفتيش عليهم ، ثم إذا حسنت البداية ، وتبعها الاجتهاد مع الاخلاص في العمل ، وصل الأمر بتوفيق اللّٰه إلى الكمال المطلوب .

وأما طول الزمان في التعليم على أهل الطبقة الثالثة ، فقد علمنا أن الرؤساء الروحانيين من الطائفة النصرانية يقيمون في تعلم لاهوتهم خاصة خمس عشرة سنة ، بل وعشرين ، زيادة على الزمن الذي صرفوه في سائر العلوم ، ومن المقرر عندنا أن ما يشتغلون به هو الباطل ، فليس من المنكر ولا الغريب أن يطول طلاب الحق زمن البحث للاحاطة بأطرافه ، حتى يتمكنوا من نصره وتأييده .

وأما المصاريف ، فإنه متى وجد ولو قليل من الرجال العارفين الصادقين - (وهم موجودون في زوايا الخفاء ، يظهرهم البحث الصحيح والطلب الدقيق) - وقاموا في الناس بالنصيحة من قبل الدولة ، وظهر من حسن تصرفهم واستقامتهم ما اكد ثقة الناس بهم ، فلا تقصر أيديهم عن تخليص الأموال الوافرة من ايدي المترفين من أهالي المملكة العثمانية لتصرف في هذا السبيل ، وأقل تجربة تحقق هذا الذي نقوله ، متى فوض الأمر لأهله ، فإننا لم نأت بشيء من الكلام في هذا الباب إلا عن خبرة بأحوال

إخواننا المسلمين ، وطول ممارسة لأخلاقهم ، والصادقون في خدمة الدين لا يدركهم اليأس من إصلاحه ، فإنه لا ييأس من روح اللَّه إلا القوم الكافرون .

هذا مجمل ما حضر لخواطر العاجزين ، وفي التفاصيل ما يطول به القول أضعافاً مضاعفة ، فإن دعينا إليه لم نتأخر عن بثه ، واللَّه الهادي إلى سواء السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى اللَّه على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه اجمعين جمادى الثانية سنة ١٣٠٤ هـ .

* * *

لائحة إصلاح القطر السوري

أرفع إلى مقام دولتكم السامي[1] أن للدولة العلية ـ أدام اللّه سلطانها ، وعزز مكانها ـ حقوقاً ثابتة على ذمم المسلمين ، تتقاضاها العقيدة بعد أن قضت بها طبعية الحياة الملية ، ولا هوادة بين اللّه وبين أحد من خلقه في إغفال حق من تلك الحقوق ، وأدناها صرف الفكر إلى النظر فيما يعزز جانب تلك الدولة ويقوي أركانها ، وأقصدها بذل ما يستطاع من السعي لدفع ما لا يلتئم مع مصلحتها ، وأعلاها الجود بالنفس واستقبال هول الموت في ذلك السبيل الأقوم .

وإنني على ضعفي ـ والحمد للّه ـ مسلم العقيدة ، عثماني المشرب ، وإن كنت عربي اللسان ، لا أجد في فرائض اللّه ، بعد الإيمان بشرعه والعمل على أصوله ، فرضاً أعظم من احترام مقام الخلافة ، والاستمساك بعصمته ، والخضوع لجلالته ، وشحذ الهمة لنصرته بالفكر والقول والعمل ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، وعندي إن لم أقم على هذه الطريق فلا اعتداد عند اللّه بإيماني ، فإنما الخلافة حفاظ الإسلام ودعامة الإيمان ، فخاذلها محاد للّه ورسوله ، ومن يحاد اللّه ورسوله فأولئك هم الظالمون ، فهذا الذي أزعج همي للفكر في أحوال هذه البلاد مدة اقامتي بها غريباً عن أهلها ، مفكراً في مجاري أعمالهم ، ومآخذ مشاربهم ، وضروب مذاهبهم من وجه ما يتعلق بالدولة ـ رعاها اللّه ـ وهو الذي بعثني على أن أعرض ما ألممت به من ذلك على مقام دولتكم ، بعد الثقة

(١) ـ كتبها وهو في منفاه ببيروت ، ورفعها إلى الوالي التركي على بيروت في شأن إصلاح سوريا .

بأنكم من أغزر رجال الدولة علماً ، وأرجحهم حلماً ، وأقومهم سيرة ، وأشدهم حرصاً على تعزيز عرش الخلافة ، وأصدقهم اخلاصاً في خدمة أمير المؤمنين ـ **أعز اللّه نصره** ـ وارفع إلى علي نظركم ما لو ألقي بين يدي سواكم لخشيت اغفاله ، وتوجست اهماله ، ولو نال الحظ من جليل رأيكم فيه لكساه قبولكم حلة الفخار ، واكسبته لحظات التفاتكم العالي مسحة الحق والنصفة ، فإن كان ما رجوت فذلك فضل اللّه وكمال سجاياكم الطاهرة وعلو رأيكم ، وإن كانت الأخرى فما هو إلا الفرض أقضيه ، مع الإعتراف بالعجز ، وقصور الفكر ، وكلال النظر .

* * *

هذه البلاد من أجدر بلاد الدولة العلية بالرعاية ، وأولاها بالاهتمام ، وموقعها من سائر البلاد العثمانية لا يخفى على نظر دولتكم ، وقد توهم بعض من تولاها من خدَمَة الدولة أن في نفوس أهاليها ميلاً للاستقلال ، وطموحاً للانفساخ عن دوحة الخلافة ـ نعوذ باللّه ـ فهذا وهم لا أساس له ، ولا يمس جانب الحقيقة ، فنفوس السكان على اختلاف طبقاتهم لا ترى من أجل أحوالها ما يؤهلها لأقل شأن يلم بهذه الغاية ، وهم أطوع للسلطة الحاكمة عليهم من ظلهم ، ولا هم لهم إلا في استرضاء العاملين عليها بأية وسيلة كانت ، ولو فرض ان خيالاً بالياً مثل هذا لاح بذهن احد ممن له صلة بالأجانب منهم ، فليس بخارج عن حد الأماني المستحيلة ، وليس في البلاد ولا فيما يجاورها من تجتمع عليه الكلمة ، أو تعقد على التسليم له العزائم .

نعم نشأ هذا الوهم من ألفاظ صدرت من بعض الطغام السذج الذين لا مقام لهم بين العامة ولا الخاصة ، على عهد بعض الولاة لتسامحه فيها وعدم مبالاته بها ، وهي قذفات لا مكان للقصد منها ، وطائشات كلم لا شمة للرأي فيها ، وهي بما يصدر عن الأطفال أشبه منها بما يكون عن الرجال ، ولهذا لم يكن أثرها في أنفس العامة فوق وصول الفاظها إلى أسماعهم ثم ترد على قائليها ويحثى بها التراب في وجوههم ، ولكن مما يوجب الأسف ان بعض الظانين بالرعية هذا الظن من عمال الدولة قد عولوا عليه ، وجاءوا بما عاد على المسلمين بالضرر في تربيتهم ، وأخمد أفكارهم ، وأفاد غيرهم في الاستعلاء عليهم ، كما جرى من بعض أولئك العمال في إلغاء الجمعيات الخيرية الإسلامية ، على قيام أمثالها في سائر الطوائف .

على أنه يوجد أمر آخر إن لم يكن أعظم ضرراً من هذا الوهم ـ على فرض ثبوته ـ فليس بأقل غائله منه ، وذلك إن سكان هذه البلاد ينقسمون أولاً إلى قسمين : **الأول** : سكان جبل لبنان **والثاني** : سكان ولايتي **بيروت وسورية** .

«حالة أهالي جبل لبنان»

أما سكان جبل لبنان فهم طوائف مختلفة ، أكثرها عدداً وأقواها عدة طائفة **الموارنة** من النصارى ، ويليها طائفة **الدروز** ، ويوجد نزر يسير من **أهل السنة** ، وعدد قليل من **الشيعة** ، وعائلات من سائر الطوائف المسيحية . فالموارنة يعتقدون أنفسهم فرنساويين ، وهواهم للدولة الفرنساوية وصفاهم معها ، لاعتقادهم انها الحامية لهم ، والواقية لحقوقهم ، وقوي الاعتقاد فيهم من نحو ثلاثين سنة بعد حوادث لبنان والشام المشهورة[١] ، وامتياز الجبل[٢] ، والحكومة الفرنساوية لاتني في تمكين هذه العقيدة ، بتأييد الجمعيات الفرنساوية ومساعدتها على إنشاء المدارس والمكاتب في جميع أنحاء الجبل ، وتلك الجمعيات إنما وضعت مدارسها على أساس التربية الفرنساوية ، وإشراب المتعلمين فيها مذهب الميل إلى فرنسا ، وإخراجهم بما أمكن من الوسائل عن عوائد بلادهم ، وإبعادهم عن معرفة حقوق أوطانهم ، حتى لقد يخرج التلميذ من المدرسة وكأنه أتى من بلاد فرنسا لا يعلم من أحوال وطنه ودولته إلا ما يعلمه بعض السياحين وطُرَّاق البلاد من الأجانب ، ثم بعد استتمام دروسهم لا يرى النبيل منهم مطلباً أشرف من نيل وظيفة دانية أو عالية في إحدى دوائر الأجانب ، إما ترجماناً لقنصل أو كاتباً في شركة أو ما شاكل ذلك ، ورؤساء هذه الطائفة لا مفزع لهم يلجأون إليه إلا قنصل الدولة الفرنساوية ، وفي كل عام تبذل حكومة فرنسا مبالغ وافرة من الدنانير لإبلاغ هذا الفساد حده .

والدروز كانوا قبل ١٨٦٠ من أقوى أنصار الدولة وأشد الطوائف تعلقاً بها ، ولهم صفات في الشجاعة والثبات تخولهم مقاماً يزيد في الرفعة على مقام الموارنة في الجبل ،

---

(١) الإشارة إلى الأحداث الطائفية التي وقعت بين الموارنة والدروز في سنة ١٨٦٠ م ، وهي التي أذكى نارها الفرنساويون من وراء الموارنة والإنجليز من وراء الدروز ، وهي الأحداث التي ذهب ضحيتها ألوف من الفريقين .

(٢) أي النظام الإداري الخاص الذي منحته الدولة العثمانية لجبل لبنان .

ولكن بدأ فيهم الضعف بعد امتياز لبنان ، عندما صار النظام قاضياً بأن «متصرفه»[١] يكون كاثوليكياً ، وأغلب رجال حكومته من المسيحيين ، وأصبحت قوة البأس لا توصلهم إلى المناصب كما كانت في سابق العهد ، واضطروا لموالاة أهل السلطة ليحفظوا بعض ما بقي لهم ، أو ينالوا شيئاً مما يخولهم النظام نيله ، فانحطت بذلك أحوالهم ، وقد كانوا لا يزالون فئتين : **جنبلاطية** ، **ويزبكية** ، فالجنبلاطيون استمالتهم حكومة **انكلترا** ، وأخص علائقهم مع قنصل الإنكليز ، واليزبكيون ـ وهم أقرب الفئتين إلى الدولة ـ مالوا إلى المشرب الفرنساوي ، وكرعوا منه حتى عموا ، غير أن الحكومة الإنكليزية لم تأل جهداً في استمالتهم أيضاً بواسطة المدارس والمكاتب التي ينشئها المرسلون من البروتستانت لتربية أبناء الدروز أولاً وبالذات ، وتربية غيرهم ثانياً وبالتبع .

والدروز قوم خُلْوٌ من العلوم بالمرة ، سذج كأنهم في بدايات البداوة ، ولكنهم أذكياء بجودة الفطرة ، ولا يخشى على كبارهم أن يخلعوا مذهبهم إلى مذهب آخر ، وإنما يخاف على أبنائهم من ذلك وعلى كبارهم من الانقياد السياسي إلى دولة الانكليز .

أما **المسلمون السنيون والشيعة** وغيرهم فلا نظر إليهم ، وإنما هواهم هوى جيرانهم ، فالمخالطون للموارنة طوع لهم ، والمخالطون للدروز تبع لهم ، وقلما يعرفون شيئاً من شؤون دينهم . **فلبنان** يتنازع النفوذ فيه دولتا **فرنسا وإنكلترا** ، وليس بخاف ما تأتي به هذه المسابقة السياسية بعد ما ظهرت آثار مثلها في بلاد أُخر ، والدولة ـ أعزها الله ـ مع ان البلاد بلادها ليس لها من يُروِّج سياستها ويؤيد كلمتها ، وأمرها يتبع ميل «المتصرف» ، إن صدق في خدمتها كان لها وإلا صار إلى غيرها ، «والمتصرف» شخص يعزل ويولي ، وأهل البلاد هم القوة الراسخة ، وبهم تؤزر السلطة فيهم .

ولكن كل هذه المساعي الأجنبية ـ على ما يحفها من عناية المتذرعين بها ـ تُخْشَى عواقبها وتُرْعِد بوائقها إذا جاء المستقبل على أثر الماضي ، لا يُعَارَض فيه السعي بمثله ، ولا تُقْطَع الطريق على السالكين فيها ، أما إذا توجهت من الدولة لمحة نظر إلى استقباء قلوب رعاياها اللبنانيين لها ، وتطهيرها من تلك الأغيان[٢] الطارئة عليها ، فما أيسر أن

---

(١) حاكمه المحلي .

(٢) من معانيها : الغيوم والشهوات والغث من الأشياء .

يتم لها قصدها وتذهب تلك المساعي هباء منثوراً ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتربية ومدافعة الأجانب بمثل سلاحهم ، فلا بد من النظر في وسيلة لتربية اللبنانيين على المشرب العثماني ، ولئن دعيت إلى تفصيلها بذلت ما في الوسع للفكر فيها .

«حالة أهالي ولايتي بيروت وسورية»

أما ولايتا بيروت وسورية ففيهما من سكان الأعراب المتبدون[١] ، وفيهما القرويون وأهل الحضر ، أما القرويون وسكان المدن فمنهم المسلمون **أهل السنة** وهم الجمهور الأغلب ، ومنهم **الدروز** في «**حوران**» ، ومنهم **الشيعة** سكان «**الشقيف**» وبلاد «**بشارة**» في نواحي «**صيدا**» «**وصور**» ، ومنهم «**النصيرية**» في لواء «**اللاذقية**» ، ومنهم الطوائف المسيحية من موارنة ، **وروم كاثوليك ملكيين** ، **وروم أرثوذكس** ، **وبروتستانت** .

الطوائف النصرانية على اختلافها تذهب مذهباً واحداً في تربية أبنائها وتهيئتهم للأعمال ، وهو مذهب التقليد الإفرنجي ، غير أن منهم من يروقه المشرب الفرنساوي وهؤلاء هم الموارنة ، والروم الملكيون يدفعون بأولادهم في المدارس الأجنبية الفرنساوية مثل مكاتب **الجزويت** وغيرهم لينشأوا كما ينشأ الموارنة في **جبل لبنان** ، وإذا أسسوا مكاتب لأنفسهم كما فعل الموارنة في تأسيس مدرسة الحكمة ببيروت والملكيون في المدرسة البطركية بها ومنشآت أخرى أطراف البلاد فلا يضعونها إلا على قواعد فرنساوية واللسان الأول فيها الفرنساوي ، والهوى والميل فرنساوي ، ومنتهى أمرهم في التحصيل على ما بينا في الموارنة ، ودروس تلك المدارس التي يدعونها وطنية إنما تقرر في كتب من التاريخ وغيره من مؤلفات الأفرنج مما يمتنع دخوله في **البلاد العثمانية** لاحتوائه على الطعن في الدين والدولة ، وهكذا يعلمون ابناء البلاد إلى أن ينتسبوا إلى غير أبيهم الحقيقي ، وأجل شيء يفتخر به الناشئون في تلك المدارس أن يكون لأحدهم ذوق فرنساوي ، ومذهب من مذاهب الفرنساويين السياسية ، وما من مكتب من هذه المكاتب إلا **ولفرنسا** مساعدة مادية وأدبية له .

---

(١) أهل البادية .

ومنهم البروتستانت ومشربهم إنكليزي ، ومنهم من لا مشرب له في التربية وهم **الروم الارثوذكس** ، ومدارسهم الخاصة بهم قلما تكون لها غاية سياسية ، ولكنهم تارة يبعثون بأبنائهم إلى مدارس **الجزويت** وأمثالهم فينشئون فَرَنْسَاوِيِّينَ ، وتارة إلى مدارس أخر فهم ينشأون على المشرب الذي نموا عليه ، وهذه الطائفة أقرب الطوائف المسيحية إلى الدولة ، غير أنها لم تشأ أن تكون محرومة من النسبة إلى الأجانب حتى لا يكون ذلك عاراً عليها في أعين أخوتها من بقية الطوائف ، فاختارت ما يوافقها في المذهب الديني ، فانتسبت إلى **دولة الروس** ، غير أن الروس لم يوجد لهم إلى الآن أعوان للتربية على مشربهم السياسي .

ولو نظم بين هذه المدارس وهذه الطوائف مكتب[1] عثماني على قواعد توافق حال أهل البلاد ، وقام بإدارته رجال متبصرون حذاق في إصابة الأغراض والرمي إليها ، لبزت تربيته جميع تلك التدابير واجتثت أصول تلك المفاسد ، وإنما يلزم لذلك سعي خارج المكتب لجلب التلامذة إليه كما يفعل أرباب تلك المكاتب . وإذا دُعِيتُ لبيان طريقة ذلك السعي استعنت بالله على بيانه .

(النصيرية) : قوم أجلاف أشداء ، يعتقدون بألوهية علي بن أبي طالب ، فمذهبهم الديني غير مذهب الدولة ، وصغار المأمورين منهم ربما كانت منهم معاملات تخالف الواجب عليهم في صداقة الدولة ، ولهذا كثيراً ما انتقض أولئك القوم على الحكام وشقوا عصا الطاعة ، وكان ذلك منهم بسعي وكلاء الأجانب ، وبث الوساوس من المرسلين **البروتستانت** بما انشأوا بينهم من المكاتب ، حتى إنه من نحو ثلاثين سنة اشتد أمرهم في الشقاق ، وكان **«راشد باشا»** والياً على سورية ، فذهب بنفسه لاخضاعهم ، وبعد البحث رأى أن أسباب العصيان كانت إغراء أولئك الشياطين ، فالتمس من الباب العالي تقرير ستين ألف قرش لتصرف على إنشاء مكاتب عثمانية في قرى هذه الطائفة ، وصدر الأمر بذلك ، إلا إنه لم يجر العمل به حتى الآن ! ويوجد أسماء مكاتب يأخذ مأموروها معاشاتهم من خزينة الدولة ، وهم في **اللاذقية** ، ولا مكاتب ولا تعليم !!. وما أقرب هؤلاء من الدولة لو التُفِتَ إلى تربيتهم في مكاتب عثمانية منتظمة ، بل لو اعْتُنِيَ بإخراجهم من مذهبهم إلى الإسلام الصحيح لم يصعب

---

(١) مدرسة .

ذلك إذا أُحْكِم أساس التربية فيهم ، وبني على قواعد الحكمة والدربة ، وقام بالعمل عليه أرباب المكنة والقدرة العقلية والاستقامة النفسية .

(**الشيعة**) : لا يقرون بالخلافة إلا للقائم المنتظر ، ولهذا وجد الأجانب سبيلاً للدخول على قلوبهم ، لكن بغير تلك الطرق التي دخلوا بها على غيرهم ، فإن لهذه الطائفة حمية على مذهبها الديني تفوق حمية جميع المذاهب ، يعتقدون بنجاسة اليهود والنصارى وغيرهم من مخالفي الإسلام ، ولهذا لا يلقون أولادهم في المكاتب المسيحية ، ولكن وكلاء الأجانب وشياطينهم يصورون لهم عمال الدولة في صورة مشوهة ، وربما كان من بعض المأمورين ما يصدق في مزاعم أولئك المفسدين ، وكثيراً ما يخيلون لهم الاحتماء بدولة أخرى ، وليس من البعيد أن تميل أفكارهم إلى خلاف ما يرغبه الصادقون في محبة الدولة ، ولا تؤمن غائلة ذلك ، واستعمال الشدة في مراقبتهم لا يزيدهم إلا نفوراً ، ولكن ما أسهل سد تلك المنافذ على أولئك الأجانب بإنشاء معهد للتربية العثمانية ، بل ما أسهل تذليل شدتهم المذهبية واستصفائهم للدولة بإقامة مهذبين من أهل الأفكار الصائبة ، الذين يسطون على النفوس بجمال أفكارهم وصلاح أخلاقهم ، لا بشكاسة طباعهم وصعوبة شكائمهم ، لا ريب إنهم بعد ذلك يفضلون جانب الدولة على جانب غيرها ، فإن أهملوا كانت العاقبة ضد المأمول .

(**الدروز في حوران**) . لم يخف حالهم على رجال الدولة ، غير انه زاد في سوئها عناية الإنكليز بإرسال رجال من رؤساء **البروتستانت** لتعليمهم وبث الدسائس فيهم ، حتى إنهم عينوا أسقفاً في **القدس** بمعاش ألف وخمسماية ليرا في كل شهر لتدبير التربية في حوران خاصة ؟! . ولا طريق لإصلاحهم وراحة الدولة من ناحيتهم إلا ما يسلكه غيرنا لمثل هذه الغاية وهو التربية والتعليم مع اختيار الصالحين للقيام بها .

(**المسلمون من أهل السنة**) : هم عماد الدولة وركنها الشديد ، وهم قومها الحقيقيون ، وفيهم عصبتها الثابتة . ومن البيّن ان قوائم **الدولة العلية** ـ ثبتها اللّٰه ـ مستقرة على أديم الدين ، لأنها دولة خلافة ، فعاملها في القلوب سلطان الدين ، فكلما قوي الدين في الأفئدة ظهرت آثاره في الأعمال، فاستماتت أهله لحماية مسند الخلافة، وكلما ضعف الدين ضعف أثره بحكم الضرورة ، ولكل وسيلة خلف منها ، أما الدين فلا عوض عنه للدولة العلية ، أيدها اللّٰه .

المسلمون السنيون يتفقون مع الدولة في المذهب الديني تمام الاتفاق ، وهي علاقة

من أمتن العلائق في طبيعها ، ولكن عرض عليها ما يوجب الالتفات ويستدعي دقة النظر ، وهو غشيان الجهل بحقائق الدين بعدما أهمل التعليم الإسلامي الصحيح ، وبيان ذلك مفصل بعض التفصيل في اللائحة المعروضة لدولة شيخ الإسلام[1] ، وقد كان للمسلمين من نحو ثلاثين سنة حال يحمد في نظر المسلم ، فقد تسابقوا ركباناً ورجالاً متطوعين إلى الجهاد المقدس في حرب «سباستبول» المشهورة[2] ، ثم كانت حالهم أيام الحرب الأخيرة من التقاعد ما لا يسر ، وفي هذه الأيام الأخيرة يبذل الرجل منهم كل ما لديه للفرار من الخدمة العسكرية ، وإن جاءت ـ لا قدر اللّٰه ـ حرب ذهبوا إليها كارهين ، بعد أن كانوا يذهبون راغبين ، كل هذا والجهاد من فرائض دينهم ، يفيض به كتاب اللّٰه في أغلب سوره ، وما كان خمود الحمية في نفوسهم إلّا لضعف العقيدة بمخالطة الأوروبيين وإهمال التعليم المذهبي . وقد قال المستر «جي دبليولتيز» مفتش المكاتب الهندية فيما كتبه إلى جريدة «الدايلي تلغراف» الصادرة في فبراير سنة ١٨٨٨[3] أثناء كلامه على لزوم تقوية العقائد الدينية في قلوب الرعايا الهنديين «لا بد أن نؤمن بما آمن به «أكبر شاه» الهندي من ان الدين والمُلْك توأمان ، فكما أن كل دولة تخمد الأفكار الدينية من نفوس رعاياها يسرع إليها العدم ، ويقضي عليها الزوال بحكمه ، ويستحيل عليها أن تدوم ، كذلك كل دولة لا تسند عقائد رعاياها ولا تعينهم على التمسك بها لا يتسنى لها إلى النجاح سبيل» . فهذا انكليزي يطلب من دولته أن تعين المسلمين على التمسك بعقائدهم لتتثبت محبتهم ، فما أجدرنا بالعناية بذلك والملة ملتنا والقوم قومنا .

انتبه المسلمون في هذه لسوء حالهم من نيف وعشر سنين ، وضارعوا سائر الطوائف ، فشكلت منهم جمعيات خيرية «كجمعية المقاصد الخيرية» لتربية أبناء المسلمين ، وإحياء العقائد الدينية في قلوبهم ، ووقايتهم من سطوة الأجانب على أفكارهم ، وجد أعضاء تلك الجمعيات في رعاية المكاتب[4] الابتدائية التي أنشئت على

---

(١) هي لائحة إصلاح التعليم العثماني التي رفعها الأستاذ الإمام إلى شيخ الإسلام بالأستانة ، انظرها في ص ٧٣ من هذا الجزء .

(٢) ضد القيصرية الروسية .

(٣) ومن هذا التاريخ يأتي الضوء على الزمن الذي كتب فيه الأستاذ الإمام اقتراحاته هذه ، قبل أن يرجع إلى مصر في العام التالي .

(٤) المدارس .

نفقة أهل الخير ، فساء ذلك الطوائف المسيحية ، فأخذ المفسدون منهم في الوسوسة لبعض العمال حتى اقنعوهم بأن لهذه الجمعية مقاصد سياسية ، وساعد أولئك السعاة جماعة ممن يدعون الإسلام ولا يعرفونه ، فكانت العاقبة الغاء هذه الجمعيات ، وتحويلها إلى مجالس رسمية ، ثم محي أثرها بالمرة ، والله يشهد ورسوله أن الساعين كاذبون ، ولم أر شيئاً كان أشد على نفوس المسلمين من إلغاء تلك الجمعيات ، فخمدت أفكارهم ، وتقطعت آمالهم ، ورجعوا إلى جاهلية ، إما لا رغبة لهم في العلم أصلاً ، أو لهم رغبة فيما يتعلمه المسيحيون من اللغات الأجنبية وبعض مبادىء علوم لا تفيد في إصلاح الأنفس شيئاً ، ولكن تؤثر في إفسادها .

فالزاعمون انهم من رَغَبَة العلوم يبعثون بأبنائهم إلى تلك المكاتب المسيحية ، فرنساوية أو المانية أو إنكليزية أو وطنية بالاسم أجنبية بالحقيقة ، ولا فرق بين صالحيهم وطالحيهم في ذلك ، وكل هذه المكاتب دينية أنشئت لغرضين : تحويل العقائد إلى المسيحية وإمالة المشارب إلى الدول المنسوبة إليها ، فكان من آثار ذلك ان المتعلمين فيها إما أن يخرجوا مسيحيين في الاعتقاد مسلمين بالاسم أو دهريين لا عقيدة لهم . ولو دُعِيتُ إلى توضيح ما في تلك المدارس من الطرق لافساد قلوب المسلمين لاوضحتها كما هي عندهم .

فالمسلمون السنيون هم أحوج رعايا الدولة إلى عنايتها ، حتى لا يذهب أعوان التربية الشيطانية بقلوبهم ، ولا ينحط بهم الفساد النفسي إلى أسفل مما وصلوا إليه .

وأول ما يلزم لذلك تنظيم مكتب داخلي(١) يؤكل ويشرب فيه في مدينة بيروت ، من صنف المكاتب العالية ، يوضع له قانون «وبروجرام» دروس يوافق حالة البلاد ، وأول شرط فيه أن يكون مديره عارفاً باللغة العربية ، يخاطب أهل البلاد بمثل كلامهم ، وثاني شروطه أن يكون التعليم باللغة العربية في جميع العلوم حتى يقوى التلامذة في العربية ثم يكون التعليم بالتركية بعد ذلك ، ولا بد أن يجعل اللسان الفرنساوي مما يقصد تعليمه في بادىء الأمر حتى يقبل الناس عليه ، وأن يكون في درجة لا تنقص عن مكاتب الأجانب في شيء . وثالث شروطه أن يكون أساسه على إحياء الدين ، وحب

---

(١) مدرسة داخلية .

الدولة ، ولا بد أن يكون «بروجرام» فنونه على وضع خاص ، ورابع شروطه أن يكون مديره من عشاق الدين والدولة ، وليس ينحصر همه في أخذ رابته الشهري ، وأن يكون حكيماً في تصرفه ، وفي حال يجلب ثقة الناس به . والله بعد ذلك كفيل بأن يدفع إليه جميع الطوائف المسيحية ، وضامن لنجاح الدولة في مقصدها منه .

ثم تنشأ مكاتب[1] ابتدائية في أطراف الولايتين على هذا الأساس ، لا فرق إلا بالدنو والعلو . والتربية في جميع الأحوال لا بد أن تكون على بذل المال والنفس في سبيل الله ، ووقاية السلطنة ، كما هو جار في ممالك أوروبا ، وكما كان عليه أسلافنا ، وأن تكون الغاية منها طبع هذا الخلق في النفس حتى لا يحوله محول من فقر أو غنى أو إيثار أو حرمان أو ظلم أو عدالة ، وليس هذا بالعمل الصعب إذا وجهت إليه النية الصالحة ، واصطفي له رجال من أهله ، وما هم بالمعدومين ، ولكنهم ربما يكونون غير معروفين ، والبحث يظهرهم .

وأما أهل البداوة من الأعراب المتنقلة في أطراف البلاد ، فهم مادة غزيرة من مواد المنافع للدولة ، ولكن مما يؤسف عليه انهم كَلٌّ عليها ، ضررهم أكثر من نفعهم ، ولبعض رجال الأجانب علاقات خبيثة معهم ، حتى انني رأيت عند بعض رجال الإنكليز أيام كنت في «لندرا» رسائل من بعض مشايخهم تودداً[2] ، وما ذلك إلا من إهمالهم وعدم العناية بتربيتهم ، وإذا دُعِيتُ إلى وضع لائحة في تهذيبهم ، وجعلهم في حالة لا تنقص عن «التركمان» بالنسبة إلى الروسيا ، بل تزيد عليها أضعافاً مضاعفة ، لاستمددت من الله التوفيق في ذلك .

وربما يقال : إن هذا الأمر وما قبله يحتاج إلى نفقات لا فضل لها في خزينة الدولة ، فأجيب إن أهل العمل وذوي البصيرة فيه يمكنهم أن يفيضوا من الأغنياء على الفقراء بالسعي والجد ، خصوصاً إذا أعيدت جمعية مثل «جمعية المقاصد» ، ولا تحتاج

---

(١) مدارس .

(٢) انظر في هذا الشأن كتابنا (العروبة في العصر الحديث) ص ٢١٦ ـ ٢٢٢ وفيها حديث عن مراسلات الشيخ صالح الخازن مع المستر «وود» كبير جواسيس انجلترا في الشام سنوات ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ م . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ .

خزينة الدولة بعد سنين إلى أن تصرف شيئاً في هذا السبيل ، وطريق الصواب واضح لأهله متى ثبتت العزيمة ، ولا أطيل القول في هذه العجالة فإنما الغرض سوق ما تنبه إليه الفكر إجمالاً إلى ساحة الفضل والكرم ، والمرجو شمولي بالعفو عن تقصيري ، والله يطيل عمر **مولانا الخليفة الأعظم** ، ويرفع الإسلام في خلافته إلى أوج المجد والشرف . آمين .

* * *

مشروع اصلاح التربية في مصر

هذا مجمل أفكار فيما يجب الالتفات إليه من نظام التربية بمصر ويمكن تفصيله عند إرادة العمل به

إذا كان الناس في حاجة إلى صلاح الحاكم[1] فما حاجة الحاكم إلى صلاحهم بأخف من حاجتهم إلى صلاحه ، فإن السلطة سلطتان ، جيدة ، ورديئة ، فالجيدة ما كانت على المحكومين للمحكومين ، والرديئة ما أُخِذَ بها المحكومون لغاية الحاكم وقضاء غرضه الثابت .

أما الأولى : فإن منزلتها من المحكومين منزلة الروح من الجسد ، لها التدبير ، وعلى أعضاء الجسد وظائف العمل . وغاية التدبير والعمل حفظ حياة الكائن الحي ، وهو مجموع الروح والبدن ، فكل يستفيد من الآخر ما به بقاؤه ونماؤه . وكما تحتاج الآلات البدنية إلى سلامة الروح من العلل النفسية ، كالجنون والخمود والجهل ونحو ذلك ، تحتاج الروح إلى سلامة الآلات البدنية من الآفات التي تعطلها عن الحركة كالشلل والخدر والتشنج وما شابه ذلك ، وما يمكن للروح السليمة أن تأتيه في بدن تعطلت آلاته وفسدت أعضاؤه ؟! .

وأما السلطة الثانية : فمنزلتها منهم منزلة الصانع من آلته فصاحب السلطة صانع والمحكوم آلته في الصنع ، فهو كاتب مثلاً والمحكومون قلمه ، أو هو حارث والمحكوم

---

(١) كتبه الأستاذ الإمام قبل عودته إلى مصر من المنفى سنة ١٨٨٩ م ، كما سيتضح من إشارات له أثناء الكلام فيه ، وليس بعد عودته كما يقول الشيخ رشيد رضا في ص ٢٦٤ من (المنشآت) ، وإن كنا نعتقد أن بعض فقراته قد كتبت بعد العودة إلى مصر ، وهي تدل على ذلك بنفسها .

محراثه ، وكما إن الآلة لا تعمل إلا بالعامل ولا يظهر أثرها إلا في يده كذلك العامل لا يمكن له العمل إلا بآلته . وكما يجب أن تكون اليد العاملة قادرة على إدارة الآلة يجب أن تكون الآلة وأجزاؤها صالحة للعمل ، فإن فقد أحد الأمرين امتنع العمل أو نقصت ثمرته ، فكل من السلطتين في حاجة إلى صلاح المحكوم ، فكما يطلب المحكوم في كل حال أن يكون حاكمه صالحاً لأن يحكمه ، كذلك يطلب صاحب السلطة ـ في أي منزلة كان ـ أن يكون المحكوم بحيث ينقاد إلى كل ما يحكم به ، وعلى الصفات التي تنساق به إلى الغاية التي يذهب إليها حاكمه .

أما ما رسخ في خيال بعض الشرقيين ، ومن اغتر بحالهم ممن خالطهم من الأوروبيين ، من أن صاحب السلطة قوته علوية والمحكوم طبيعته سلفية ، ولا نسبة بينهما إلا أن الأول قاهر والثاني مقهور ، وأن الثاني في حاجة إلى صلاح الأول ليكون به رؤوفاً رحيماً ، وإن الأول لا حاجة به إلى صلاح الثاني لأنه مقهور له على كل حال ، فذلك منشأه الغرور والجهل بطبيعة الجمعيات الإنسانية ونظامها الفطري . ولذلك نرى أرباب هذا الاعتقاد من ذوي السلطة لا تدوم لهم دولة ، ولا يثبت لهم سلطان ، لتخبطهم في سيرهم بجهلهم منزلتهم من محكوميهم ، وتصرفهم فيهم على خلاف ما يجب أن يصرفوهم فيه ، وتغافلهم عن استطلاع طباعهم بما يؤهلهم للعمل على ما يريدون منهم .

يقال إن الرعية في كثير من البلاد آلة للحاكم في بلوغ مقاصده في دولته . فقد يكون ذلك حقاً ، لكنها آلة ذات شعور وإرادة ، وما له شعور وإرادة فجميع أعماله إنما تكون عن شعوره وإرادته ، فتصلح الأعمال بصلاح الشعور والإرادة وتفسد بفسادهما ، فلا يمكن أن تكون تلك الآلة صالحة للعمل إلا إذا كان الشعور والإرادة صالحين له ، وصلاحهما بأن يكون الشعور وجداناً ، للفرق بين النافع والضار ، وبين النظام والاختلال ، ليكون ما يقرره الحاكم من القوانين وأصول الإدارة معروفاً عند أغلب الرعية ، وأن تكون الإرادة صادرة عن ذلك الوجدان حتى يكون النظام منها في مكانة الاحترام . فإذا كان الشعور مختلاً ، والإرادة فاسدة ، كانت الأحلام طائشة ، والأهواء متحكمة ، ومداخل السوء كثيرة ، فويل لذي السلطة من تلك الرعية ، وبعيد عليه أن يستقر لسلطانه فيها قرار ، وكل ما يتخيله إصلاحاً لهم أو له فيودعه في أصول حكومته فهو كالنقش على الماء أو الرسم في الهواء .

طبيعة مصر والمصريين

أرض مصر ضيقة عن حاجة أهلها ، فمساحة الصالح منها للسكنى لا تزيد عن حاجة الساكنين زيادة بينة ، وهي محاطة من أطرافها بالصحارى الجدبة والمياه المالحة ، وليس فيها من الغابات ما يعوذ به الوحش من الحيوان فضلاً عن الإنسان ، ولذلك نرى كثيراً من أنواع الوحوش ، التي كنا نراها كثيرة في البلاد من نحو أربعين سنة ، كالضباع والذئاب والخنازير ، قد كادت تنقرض باصلاح الأراضي الزراعية ، وانتشار الإنسان في أطرافها ، وتعهدها بالزرع والعمارة ، وأهل مصر لا يعرفون معنى المهاجرة من دار إلى دار ، ولا يمكن أن يتصوروا ذلك ما دام في أرضهم نبات ينبت ، فإذا أمحلت أرضهم فَضَّلوا الموت على المهاجرة منها ، وتاريخ الماضي وشاهد الحال ينطقان بذلك .

ولذلك كان أهل مصر سكان أرضهم من آلاف من السنين ، وكل قادم إليهم امتزج بهم ، وغلبت عليه عوائدهم وأطوارهم ، وانتسب نسبتهم فصار مصرياً ، وأحرز جميع خواص المصريين ، ونسي أصله وغاب عن أعقابه منشأه . ثم إن طباعهم مرنت على الاحتمال ، وألفت مقاومة القهر بالصبر ، فلو أن سيف المتغلب كان أعدى من سيف المماليك ، وجوره أشد من جور **إسماعيل باشا** لما أمكنه أن ينقص من عددهم مقداراً يذكر ، ولا أن يزيلهم عن مواقفهم مسافة تعتبر ، ولهذا كان المتغلبون يفنون فيهم وهم باقون .

أهل مصر قوم سريعو التقليد ، أذكياء الأذهان ، أقوياء الاستعداد للمدنية بأصل الفطرة ، فما أيسر أن تفعل الحوادث فيهم فتنبههم إلى الأخذ بما يحفظ عليهم حياتهم في ديارهم من أي الوجوه ، فلا يبيدون من حاجة ، فأهل مصر على ذلك هم رعية حاكمهم ، ولا يمكن لحاكمهم أن يستبدل بهم رعية أخرى في بلادهم .

فحاكمهم إذا كان رأساً فَهُم بدنه ، وإذا كان عاملاً فهم آلته ، فلا بد من استصلاحهم حتى يستقر سلطانه عليهم زمناً مديداً ترمي إليه أنظار الدول السامية المقام في المدنية .

أهل مصر في موقع عرف كل الناس منزلته من الأرض ، وهو ممر أهل المشرق إلى المغرب وأهل المغرب إلى المشرق ، وهو في حلق أوروبا ، تتلاقى فيه سيارة الأمم ، فقلما توجد بلاد يكثر فيها اختلاط الأمم مثل هذه البلاد .

الأمم العظيمة الأوروبية يحسد بعضها بعضاً على التمكن في أرض مصر ، أو الفوز بإحراز المنافع السياسية أو المالية فيها ، فالوساوس والدسائس لا تنقطع نفثاتها من أولئك الأحزاب يبثونها بين المصريين ليوغروا صدورهم على من علت كلمته فيهم ، واعظم فاعل في نفوسهم (وأغلبهم مسلمون) أن يقال إن صاحب هذه المنفعة ليس من دينكم ، وإنكم مأمورون ببغضه وانتهاز الفرص لكشف سلطانه متى امكنت .

أهل مصر شديدو الأنفعال بما يلقى إليهم ، كثيرو التذكار لما ينطبق على أهوائهم ، فلكل كلمة من هذا القبيل مكان في نفوسهم ، ولكن ربما لا يظهر أثر ذلك لاحتجابه بحجاب العجز أحياناً ، غير ان طباع المصريين كالكرة المرنة تتأثر بالضغط فينخفض بعض سطحها قليلاً من الزمن ثم لا يلبث أن يعود إلى حاله . فاللّه يعلم متى يظهر أثر تلك الانفعالات التي يمكن أن تتأثر بها نفوسهم بما يلقى إليهم .

يقال إن أهل مصر ضعفاء ، ولكن قد اظهر التاريخ إنه متى وجد القائد كانوا أشد على الخصم من أشجع الأمم واثبتهم قدماً في المواطن ، ولا يعلم متى يوجد القائد ، ومن أي جنس يكون ، إذا تركت أهواؤهم بغير تهذيب ، تجري حيث تجد سبيلاً للاندفاع ، ثم هم لا يُقَدِّرون النظام قدره مهما كان بالغاً من الصلاح ، ولا يبالون به ، بل يعتقدون أن كل نظام حبر على ورق ، فلا يستطيع حاكمهم أن يثبت سلطته عليهم على أمر مكين ، بل هم دائماً في التواء عليه بالمخالفة متى أمكنت الفرصة ، إلا إذا أخذوا بتربية صحيحة ، فهناك تنضبط أحوالهم وينشأ النظام واحترامه في قلوبهم ، ويهتدي صاحب السلطة إلى طرق تصريفهم .

احتقار أمر النظام والتأثر بالوساوس ، إذا لم يكن مبعثهما الحق ، ينشآن عند المصريين من أمرين ، **الأول** : بعد جمهورهم عن المعرفة بوجوه المصالح ، **والثاني** : حرمانهم من التربية التي تطبع في نفوس أغلبهم الاستقامة والتؤدة والتبصر في العواقب ، ومرجع الأمرين إلى سوء العقيدة ، وظن ما ليس بواجب واجباً ، وظن الواجب غير واجب ، فما دامت هذه حالهم فهم رعية غير صالحة ، فلا يصلحون بدنا لرأس ولا آلة لعامل ، لاختلال المدارك ، وفساد الإرادات .

أهل مصر لم يأتهم التاريخ القديم بذي سلطة يفهم هذا السر وتنفذ بصيرته إلى هذه الحقيقة ، فلهذا لم تثبت فيهم دولة لقبيل زمناً يعتد به ، وكل إصلاح نظامي نشأ فيهم كان كالبناء على الهواء ، فالسلطة التي تسعى في أن تجعلهم رعية صالحة تكون قد

فتحت في نفوسهم فتحاً جديداً ، وظفرت ببغيتها منهم ظفراً مبيناً ، وامنت كل غائلة تخشى من دسائس الأعداء ووساوسهم .

أهل مصر قوم أذكياء ، كما قلنا ، يغلب عليهم لين الطباع ، واشتداد القابلية للتأثـر، لكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية وهي ان البذرة لا تنبت في أرض إلا إذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض ، ويتنفس بهوائها ، وإلا ماتت البذرة ، بدون عيب على طبقة الأرض وجودتها ، ولا على البذرة وصحتها ، وإنما العيب على الباذر .

أنفس المصريين أشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعاً فيها ، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذراً غير صالح للتربة التي أودعه فيها ، فلا ينبت ، ويضيع تعبه ، ويخفق سعيه ، وأكبر شاهد على ذلك ما شوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية من عهد محمد علي إلى اليوم ، فإن المأخوذين بها لم يزداودوا إلا فساداً ـ وإن قيل إن لهم شيئاً من المعلومات ـ فما لم تكن معارفهم العامة وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم .

لا اتكلم عن إصلاح لدين غير الإسلام في مصر ، فإن غير المسلمين فيها العدد القليل ، والجمهور الأغلب من المسلمين .

الـدين الإسلامي الحقيقي ليس عـدو الألفة ، ولا حـرب المحبـة ، ولا يحـرم المسلمين من الانتفاع بعمل من يشاركهم في المصلحة ، وإن اختلف عنهم في الدين ، وفي آدابه كفاية لتعريف الآخذ به بوجوه المصالح ، وإرشاده إلى مظان الفوائد ، والبصر بالعواقب ، وتقويمه بفضائل الأخلاق ، وبالجملة فهو أفضل كافل لجعل الرعية صالحة لأن تكون بدناً لرأس أو آلة لعامل . وقد أرشدتنا التجربة إلى أن كل عارف بحقيقة الدين الإسلامي كان أوسع نظراً في الأمور ، وأطهر قلباً من التعصب الجاهلي ، وأقرب إلى الألفة مع أبناء الملل المختلفة ، وأسبق الناس إلى ترقية المعاملة بين البشر ، وإنما يُبْعِد المسلمَ عن غيره جهله بحقيقة دينه ، وهذه آيات القرآن شاهدة على ما نقوله ، اللهم لمن يفهمها كما جاءت ، يعرف معناها كما وردت .

إن القرآن وهو منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتى يظن المتأمل فيه أنهم منهم ، لا يختلفون عنهم إلا في بعض أحكام قليلة ، ولكن عرض على الدين زوائد أدخلها عليه أعداؤه اللابسون ثياب أحبائه ، فأفسدوا قلوب أهاليـه ولا قلوب أقرب إلى الإصلاح من قلوب أهل مصر .

أهل مصر مضى عليهم الزمن الطويل والقرون العديدة ولم يروا مربياً يأخذهم بدينهم ، فحرموا خيره ، ولم يبق عندهم إلا ما فيه المضرة لهم ولغيرهم تحت اسم الدين وليس بدين ، على انه ليس فيهم من ينكر أن القرآن كلام اللّه ، وانه ينبوع الدين ، ولكن ليس لهم من معاهد التربية إلا جهتان المدارس الأميرية ومدرسة الأزهر الدينية ، وليس في الجهتين ما يهديهم لما يجعلهم رعية صالحة ، وهم الآن على غاية الاستعداد لقبول ما يصلحهم .

من يتوجه من ذوي السلطان إلى ذلك لا يجد أقل مقاومة من العامة ولا أغلب الخاصة ، وفي مصر فرصة لا توجد في غيرها لمن أراد ذلك ، فإن بلاداً غير مصر يوقف فيها مثل هذا الأمر على همة أهل الدين ، وسلامة أفكارهم ، ونشاطهم لفتح المدارس الدينية على الطرق المناسبة لحالة البلاد ، أما مصر فلها مدارس أميرية يمكن أن يسلك فيها أي مسلك يختار للتربية ، وليس عليها رقيب سوى أهل السلطة السياسية لا غير ، فلهم أن يأخذوا من الدين أصوله ويغرسوها في المدارس ، ويحملوا نفوس طلاب العلم عليها ، ولا يتعرضون لما زاد عنها لا بالنفي ولا بالإثبات ، ويندبون لتدريس ذلك ذوي قدرة على الأذهان عما وقر فيها ، وتطهيرها مما علق بها من الزوائد الضارة ، ولا يجدون معارضاً لهم من أهل الدين لأنهم لا يهتمون بما لا يقع تحت نظرهم مباشرة ، وما دامت الأصول محفوظة فأنظارهم عن غيرها منصرفة ، وأكبر دليل على ما نقول سكوت أهل الدين عن نوع التربية المعروف في المدارس على ما فيه من مباينة الدين والانتهاء إلى خلعة بالمرة .

المدارس الأميرية

المدارس الأميرية ليس فيها شيء من المعارف الحقيقية ولا التربية الصحيحة . هذه المدارس أنشأها محمد علي باشا بإشارة بعض الفرنسويين لتعليم بعض أولاد «الأرنؤط» و«الأتراك» و«المورلية» ، ليكون منهم رجال عندهم المام ببعض الفنون المحتاج إليها في نظام الحكومة التي أسسها ، وأهم تلك الفنون الهندسة والطب والترجمة ، أما غيرها من العلوم فما كان إلا وسيلة إليها ، ثم لم يشترط في العلم بها أن يكون تاماً . أما التربية على أخلاق سليمة فلم تخطر له ولا لمن تولى إدارة هذه المدارس على بال ، ثم لما لم يكن في ابناء تلك الأجناس وفاء لمطلبه في الوظائف أدخل في تلك

المدارس بعض المصريين جبراً وما كان يدخل مجبوراً إلا الذين لا قوة لهم من الفقراء ، وكان دخول المدارس أشبه بدخول العسكرية في ثقله على المصريين .

ثم جاء خلف محمد علي من عباس وسعيد فأهملوا النظر في المدارس بالمرة ، حتى جاء إسماعيل فوسع نطاقها ، وزاد فيها من المعارف ما له دخل في الإدارة والقضاء وله تعلق بتثقيف العقول في ظاهر الأمر . غير أن جميع ما أتاه من ذلك كان صورياً ليقال إن له في حكومته مثل ما لأوروبا في حكوماتها ، ولم يكن القصد منه تربية العقول ولا تهذيب النفوس ولا تحصيل رجال يصلحون لتولي أعمال الحكومة .

وفي زمن إسماعيل باشا كثرت رغبة الناس في المدارس ، ولكن من الأعيان الذين يطلبون لأولادهم مساند في الحكومة يُحتاج في الوصول إليها إلى بعض الفنون ، ومن الفقراء الذين لا يجدون ما يقتات به أبناؤهم فيرسلونهم إلى المدارس ليستريحوا من نفقتهم ، ولم يكن القصد من جميع تلك الأحوال إلا أن يتعلم ما يؤهله للقيام بعمل ما من أعمال الحكومة ، أو بعبارة أخرى ليكون في يده شهادة تبيح له أن يشغل كرسياً من كراسي أقلام الدواوين ، أما تكوينه بالتعليم والتربية رجلاً صالحاً في نفسه ، يحسن القيام بالعمل الذي يفوض إليه في الحكومة أو في غيره ، فذلك لم يخالط عقول المعلمين ولا من ولاهم أمر التعليم ، فسرى ذلك من السابقين إلى اللاحقين حتى اليوم .

ولو كشفنا عن أذهان التلامذة لم نجد فيها غاية لتعلمهم سوى أن يعيشوا كما عاش غيرهم على أي صفات كانوا ، ولو استفرغنا أذهان المعلمين لم نجد فيها من المقاصد سوى انهم يلقون ما يجدونه في الكتب المقررة للتلامذة ، ويطالبونهم بحفظه ، وفهم عبارته إن كان ، ليعيدوا يوم الامتحان تلاوة ما القي إليهم ، حتى تتم مدتهم في المدرسة ولا يسألونهم مرة واحدة عن مجال أفكارهم هل هو في صالح أو فاسد ، لا مطامح أنظارهم هل إلى نافع أو ضار ، وذلك رسم يؤديه المعلمون ليأخذوا مرتباتهم الشهرية لا غير ، ولهذا لا يكون تلامذتها في آخر الأمر إلا صناعاً أو ناطقين ببعض الألسنة ولا ثقة في الأغلب بشيء من عقولهم ولا أخلاقهم ، إلا من كانت له فطرة سليمة ، وله موهبة طبيعية ، فأولئك تؤدبهم الأيام وتهذبهم التجارب ، وعلى مثل ذلك كانت مكاتب الأوقاف ولا تزال . فإن استمر السير على الطريقة المعروفة الآن كانت النتيجة دائماً كما بيناه ، فلا يؤول ذلك بالمصريين إلى أن يكونوا رعية صالحة لأن تكون بدناً لرأس أو آلة لصانع .

المدارس الأجنبية

وأما المدارس الأجنبية على تنوعها ، فاختلاف المذاهب بين المعلمين والمتعلمين في الأغلب يضعف أثر تلك المدارس من التربية العمومية ، فقليل من المصريين من يرغب في تعليم أولاده فيها ، ومن أرسل بولده إليها داوم نصيحته بعدم الالتفات إلى ما يقوله المعلمون فيها حفظاً لاعتقاده ، ثم ذلك يحدث من الاضطراب في طبيعة الفكر والتزلزل في الأخلاق ما يكون ضرره أكثر من نفعه . وقد غلط من زعم إن لتلك المدارس الأجنبية أثراً سياسياً أو أدبياً في مصر ، بل قد احدثت بعض النفرة في قلوب المسلمين من رؤساء تلك المدارس وأممهم ، ولذلك تاريخ في البلاد معروف فهي ضارة بالألفة ، مبعدة للمحبة ، رغماً عما يزعمه أربابها مما يخالف ذلك ، فلا يصح الاكتفاء بها في التربية عن المدارس الأهلية على اختلافها .

الجامع الأزهر

الجامع الأزهر مدرسة دينية عامة ، يأتي إليها الناس إما رغبة في تعليم علوم الدين رجاء ثواب الآخرة ، وإما طمعاً في بعض الامتيازات لطلاب العلم فيه ، ولا يزال بعضها إلى اليوم ، ولكن مما يؤسف عليه انه لا نظام لها في دروسها ، ولا يُسْأل فيها التلميذ أيام الطلب عن شيء من أعماله ، ولا يبالي أستاذه حضر عنده في الدرس أم غاب ، فَهِم أم لم يفهم ، صلحت أخلاقه أم فسدت ، ويمر عليه الزمان الطويل لا يسمع فيه نصيحة من أستاذه تعود عليه بالإصلاح في دنياه أو دينه ، وإنما يسمع منه ما يملأ القلب بغضاً لكل من لم يكن على شاكلته في الاعتقاد حتى من بني ملته ، ويطبق على الذهن غفلته ، ويستفزه الطيش لتصديق كل ما يسمع إذا كان موافقاً لمبدأ التعصْب الجاهلي ، فأغلب الأوقات تمر على أهل الجد منهم في فهم مباحثات لبعض المتأخرين لا فائدة فيها ، ولا يتعلمون من الدين إلا بعض المسائل الفقهية وطرفاً من العقائد على نهج يبعد عن حقيقته أكثر مما يقرب منها ، وجل معلوماتهم تلك الزوائد التي عرضت على الدين ، ويخشى ضررها ولا يرجى نفعها .

ثم إن المعروفين «بالعلماء» ، وهم الذين يتممون دروسهم في هذه المدرسة ، ويؤذن لهم بالتدريس فيها ، هم قدوة الناس وأئمتهم ، مع أنهم أقرب للتأثر بالأوهام والأنقياد إلى الوساوس من العامة ، وأسرع إلى مشايعتها منهم ، وذلك بما ينشأون عليه

من التعليم الرديء والتربية المختلفة التي لا ترجع إلى أصل صحيح ، فبقاؤهم فيما هم عليه اليوم مما يؤخر الرعية عن تقدير السلطة الصالحة قدرها .

إصلاح مدرسة الأزهر لا بد أن يكون بالتدريج في تغير نظام الدروس ، وجعلها في الابتداء تحت قواعد ساذجة قريبة من الحالة الحاضرة فيها ، بحيث يقرر فيها ان كل من أدرج اسمه في جدول الطلبة يلزم بالحضور في الدروس وإلا حرم الامتياز ، وكل أستاذ يُسْأل عن طلبته ، ثم يجعل ما ينالونه من المنافع الطفيفة منوطاً بالفهم لا بالكتب ، وتغيير «بروغرام» الدروس ، ويزاد عليه أصناف من الكتب بحيث يدخل فيه تدريس الآداب الدينية المفقود الآن بالكلية ، ويكلف الأستاذ بتعهد أخلاق تلميذه لتكون منطبقة على تلك الآداب بقدر الإمكان ، ويجعل شيخ الجامع رقيباً على الأساتذة والتلامذة في ذلك ، ثم يعدل نظام الامتحان النهائي وشروطه ، وكل ذلك يكون على طرق بسيطة لا تستلفت الأذهان إلى شيء خلاف المصلحة ، وتفصيلها يكون في لائحة مخصوصة .

ولا بأس أن يجعل نظام هذه المدرسة مرتبطاً بالمعارف العمومية ، أو بإدارة الأوقاف ، على قواعد تفصل في اللائحة المختصة به ، وقد يظن بعض من لم يتفكر في حالة البلاد ومرتبتها الأدبية والدينية ان إصلاح الأزهر لا يمكن ، لأنه يترتب على مجرد الشروع فيه تشويش أذهان العلماء والعامة على أثرهم ، فهذا ظن فاسد لا يؤيده دليل ولم تقض به تجربة ، إلا ما كان من بعض الرؤساء من مدة نحو عشرين[1] سنة عندما أراد إدخال بعض العلوم الصناعية فيه فقاومه بعض ما كان موجوداً من العلماء ، فيئس من الإصلاح وترك الأمر إلى اليوم ، فقد كان ذلك قبل أن تتقلب الحوادث على مصر ، ولم يكن بالتدريج اللائق ، أما الآن فقد تغيرت الأحوال وأصبح الإصلاح فيه أهون منه في جميع المصالح ، وكل رئيس للنظار يمكنه أن يأتي هذا الإصلاح بمجرد التوجه إليه ، وما يعجز عنه من ذلك فصاحب هذا الفكر هو الكفيل بتنفيذه إذا فوض ذلك إليه ، على أن العناء في ذلك لا يطول إذا صلحت المدارس الأميرية ، فإن الناس لا يختارون الأزهر إلا لسوء ظنهم بالمدارس أو لاعتقادهم ان الأزهر أحفظ للدين منها ، فإذا حصل الإصلاح فيها وجدوها أدنى إلى المنفعة منه ، فعند ذلك تنفرد بكونها معاهد التعليم ويصبح الناس كلهم في طريق واحدة .

---

(١) الإشارة إلى عهد الخديو إسماعيل .

الكتاتيب الأهلية

المدارس الأميرية يتعلق النظر فيها بنظارة المعارف ، ولا يتم لها إحسان النظر من وجه التربية إلا بتوجيه العناية أولاً إلى الكتاتيب الصغيرة المنتشرة في القرى والمدن ، فإنها هي المغذية للمكاتب المنتظمة التابعة للمعارف وللمدارس الأميرية وللأزهر ، فإن كان الغذاء فاسداً كان المزاج المتغذي أشد فساداً . وقد خطر ببال أحد نظار المعارف أن ينظر فيها ، ولكن من الوجه التعليمي وإصلاح الأمكنة بحيث تكون أوفق للصحة ، لا من الوجه التهذيبي ، والثاني هو أهم مطلوب دون الأول ، فإنما ينظر إليه من حيث هو وسيلة للثاني ، فالمعلمون في تلك الكتاتيب يسمون «الفقهاء» وهم لا يعرفون شيئاً سوى حفظ القرآن لفظاً بغير معنى ، وإذا كان في أذهانهم شيء باسم الدين فما هو إلا الزائد الضار دون الأصل النافع ، وقد عرفوا بأنهم أفسد حالاً من العامة ، على ان الكتاتيب يرد عليها أبناء الأهالي جميعاً إلا القليل ، ثم يرجع الغالب إلى ما كان عليه آباؤهم ، فهي منابت للعامة ولكنها لا تنبت الآن إلا جهلاً .

ولا يمكن إصلاح تلك الكتاتيب إلا بإصلاحهم (أي الفقهاء) ، وإصلاحهم مرة واحدة أو إبدالهم بخير منهم متعسر، ولكف إذا وجهت العناية إليهم أمكن إصلاحهم وإصلاح طرق تعليمهم بالتدريج في بضع سنين ، ثم إن ذلك الإصلاح يستدعي عملاً يتعلق بعضه بالمعارف وبعضه بالأوقاف من حيث إن أولئك المعلمين خطباء المساجد في الأغلب ، فلا بد أن ينظر في انتخابهم من المستعدين للفهم وقبول الإصلاح بقدر الإمكان ، وهو يقتضي سعياً حثيثاً وتدقيقاً شديداً وسيراً في أرض مصر أجمعها ونظراً في كل قرية من قراها ، وهو ليس بعسير على الشخص الواحد فضلاً عن أشخاص كثيرين متى وجهت العناية بذلك .

ثم يلزم لذلك تقرير بعض المعلومات التي لا يستغني عنها مصري ، مما يزاد على تعليمه القرآن في تلك الكتاتيب ، حتى إذا خرج التلميذ من الكتاب كان شاعراً بأنه في أي جمعية محكومة بأي طريقة ، فإذا دخل المدرسة أو الأزهر كان نماء معلوماته على ذلك الأساس ، وذلك يستدعي تقرير بعض الكتب الصغيرة ، وتعيين ما يدرج فيها على نمط سهل يفهمه الصغير والكبير ، بأن تبين لهم فيه نسبتهم إلى المأمور والمدير والناظر والمهندس والطبيب والعالم وإلى المقام الخديوي وغير ذلك . وتحدد الطريقة التي يتعلم بها

الفقهاء هذه الأمور القريبة من الأذهان ، والمكان الذي يتعلمون فيه ، والوقت الذي يخصص لذلك ، والمعلم الذي يعلمه ، ثم تقرير العلاقة بين أولئك الفقهاء وبين إدارة الأوقاف ونظارة المعارف .

المكاتب الرسمية الابتدائية

تلامذة هذه المكاتب لا يزالون إلى الآن من الأطفال الذين يقصد كفلاؤهم بتعليمهم التوصل بهم إلى خدمة الحكومة ، سواء نالوا ما قصدوا أم لا ، إلا انهم في الغالب لا يستطيعون أن يذهبوا بهم إلى نهاية التعليم المعد لذلك ، فيرجع الولد إلى أبيه أو من يقوم مقامه بعد نهاية المكتب عارفاً ببعض مبادىء العلوم التي لا يجد لها موضعاً تستعمل فيه ، فلا يلبث أن ينساها ، فيضيع الزمن الذي شغله بالتحصيل بلا فائدة ، ثم إنه يعود بأخلاق أشد فساداً من أخلاق الذين بقوا على الفطرة ثم لم يمسهم التعليم ، ويجد في نفسه نفرة وعجزاً عن العمل فيما كان يعمل والده وأهله من قبله ، فيقضي عمره في البطالة أو ما يقرب منها ، فتزداد أخلاقه فساداً وأفكاره اختلالاً ، ويقف نفسه على عبادة الأوهام ، وخدمة الدسائس التي تنبهه إلى طلب ما يغير الحالة التي عليها الناس طمعاً في تغيير حالة نفسه بلا تعقل ، فيكون زيادة في أمراض البلاد بدل أن يكون عضواً نافعاً لها .

فأول ما يجب لإصلاح هذه المكاتب ، ووضعها على أساس يفيد العامة أن يراعى في «البروجرام» إدخال مبادىء العلوم من وجهها العملي الذي ينطبق على المعاملات الجارية في البلاد ، فقواعد الحساب مثلاً تؤخذ من وجهها العملي مطبقة على المعروف في المعاملات التجارية وحساب الصيارفة الأميريين وغيرهم ، فيتعلمون طريقة وضع المدفوع من الأموال في الأوراق والدفاتر ، وطرق التحصيل لأموال الحكومة ونحو ذلك ، ويدخل فيها فن الأوزان والمكاييل ، وإن كانت مبادىء هندسية فليدخل فيها شيء من المساحة على الطريقة المعروفة في البلاد أو على أفضل منها ، وما يؤخذ من قواعد العربية يكون مصحوباً بالعمل في المكاتبات العادية والمشارطات[1] المتداولة بين

---

(١) العقود والصكوك .

الأهالي ، حتى إذا انفصل التلميذ من المكتب يكون عنده ما يحتاج إليه شخصه أو عائلته وأقاربه وأهل بلده ، فلا ينقطع عن العمل به لكثرة ما يرد عليه منه .

ثم يضم إلى ذلك تعويده على بعض الأعمال الزراعية أو الصناعية في أوقات الرياضة ، أو يخصص لذلك يوم في الأسبوع ، ليعلم كفلاء التلامذة ان للتعليم غاية سوى خدمة الحكومة ، وانهم إذا لم ينالوا الخدمة فإن لهم شأناً سوى البطالة والتفرغ للأوهام الرديئة ، ثم يضاف إلى «البروجرام» مبادىء العقائد الدينية على الأصل الصالح ، وأصول الآداب الدينية على ما يجمع الألفة ويعرف وجه المصلحة في المعاملة والمخالطة ، وشيء من تاريخ البلاد ، وما كانت تعانيه في سابق زمنها ، وما صارت إليه من الراحة في هذه الأوقات(١) ، وشيء من القواعد العامة للنظام الذي هم فيه ، ليعلم التلميذ أنه من أي جنس وفي أي شكل من أشكال الحكومة ، فيتعلم الخضوع والانقياد لكل مسند فيما يصدر منه ، ثم يكون أهم العناية بحمل التلامذة على العمل بما يعملونه من الآداب ، وتشديد المراقبة عليهم في ذلك ، وتوضع لهذا لائحة مخصوصة يحدد فيها «البروجرام» اللازم للمكاتب الابتدائية ، وطريق التعليم ، ويبين فيها المسلك الذي يتخذه المربي المفوض إليه مراقبة أخلاق التلامذة وملاحظة أعمالهم ، فإذا أتم التلميذ مدة المكتب الابتدائي ، ولم يتيسر له أن ينتهي إلى غاية التعليم ، رجع إليه بشيء نافع ، ونمت فيه الأخلاق الصالحة ، والأفكار الحسنة ، وانطبع قلبه على الخير والسلامة ، وكانت له بصيرة في وجوه المعاملة مع من يشترك معهم في المصلحة ، ونبت في قلبه احترام النظام الذي يضبط مصلحته ومصلحة بني وطنه ، ونشأ على محبة العمل والرغبة فيه ، فلا يكون إلى فؤاده سبيل للوساوس ولا منفذ للدسائس .

المدارس التجهيزية والمدارس العالية

لا أتكلم في «بروجرامات» دروس الفنون التي تقرأ فيها ، لأن النظر في ذلك يتعلق بالغرض الذي جعلته الحكومة غاية لإقامة تلك المدارس ، وإنما كلامي فيها منحصر فيما يتعلق بالتربية وتهذيب الفكر وغرس مبدأ الصلاح في نفوس التلامذة ليحسنوا في استعمال ما تعلموا .

---

(١) يكتب الأستاذ الإمام هذا بعد الإحتلال البريطاني ، وبعد عودته من المنفى .

قلنا فيما سبق إن التربية مفقودة في تلك المدارس ، لا يخطر ببال أحد أن يعتني بها عناية حقيقية ، وإنما الموجود فيها صور ورسوم تغر الناظر فيها وهي بمعزل عن الحقيقة ، فالذي يجب لتأسيس التربية فيها تعليم العقائد الدينية على الأصل الصحيح ـ تعليم الآداب الدينية على الطريق الصالحة ـ الزام التلامذة في تصرفهم بموافقة ما تعلموا ، كل ذلك على نمط أرقى مما كان في المكاتب الإبتدائية ـ تعليمهم الإجادة في الكتابة كل في فنه الذي يريد الوصول إلى غاية التعليم فيه ـ تعليمهم أصول النظام العام ، ثم زيادة التوسع فيما يتعلق بفنه من النظام ، فالقانونينون يتوسع لهم في أصول النظام المتعلق بالقضاء والإدارة ، وهو شيء غير نفس القانون ، والمهندسون في أصول النظام المتعلق بالري وتدبير النيل ، وهو شيء غير الهندسة ـ وعلى هذا القياس .

والمربي في كل ذلك يودع في أفكارهم ان القيام بهذه الأعمال مما يطالب به الدين ، وإن فوائدها ليست قاصرة على خدمة الحكومة بل هي من لوازم الحياة الطيبة ، ويورد الأدلة على ذلك ـ وهي كثيرة لا تعد ـ حتى إذا بلغ التلميذ نهاية التعليم أمكنت الثقة به ، وائتمن على عمل يفوض إليه ، وكانت الأنفس مطمئنة من جهته ، لعلمه ان للنظام علاقة بحياته الروحانية كما له علاقة بحياته الجسدانية ، فإن لم يكن له نصيب في خدمة الحكومة وجد سبيلاً آخر للعمل وهو في رضى عن النظام المحيط بأعمال وطنه ، فيكون بذلك عضواً صالحاً ، ويقوم بينه وبين الدسائس حجاب منيع من الاستقامة الفكرية والخلقية ، حتى لو ان التلميذ بعد ذلك حمله الشطط في الفكر على خلع العقيدة الدينية بقيت فيه ملكات الأخلاق الفاضلة طبيعة ثابتة لا تتبدل بتبدل العقيدة .

المعلمون والمربون ، ومدرسة دار العلوم

وجود مثل هؤلاء المعلمين عسير كما يقوله كثير ممن له تعب في البلاد ولم يتفكر في حالتها ، ولم يدقق البحث في مصلحتها ، أما أنا فلا أرى في ذلك صعوبة بقدر ما يتصورونها ، كما ان كثيراً مثلي لا يرون ذلك .

أما أولاً : فلأن بلاداً واسعة مثل مصر لا تعدم أفراداً متفرقين في أنحائها يعرفون من الدين حقيقته ، وللزمان ما يلزم له ، وإنما يجمعهم البحث والتنقيب . وكما ساح ناظر المدرسة الزراعية ليختبر الأرض ويعرف الطرق المسلوكة في البلاد لخدمتها

واستنباتها ، كذلك يجب أن يسيح مدير التربية في الأطراف ليعرف الصالحين لتوليها ، على أن المعروف منهم ليس دون الكفاية للابتداء في العمل ، فإن لم يكن الموجود بالغاً الغاية في المقصود فلا أقل من أن يكون قريباً منها .

وأما ثانياً : فلأنه يمكن تكوين جماعة كثيرة ممن يحتاج إليهم في الغرض بطريقة هي مرسومة الآن ، ولكن لم يطبق العمل منها على الرسم الحقيقي ، على ان في الرسم نقصاً يجب تتميمه ، وتلك الطريقة قد رسمت في المدرسة المسماة «بدار العلوم» .

«دار العلوم» مدرسة ابتدعها سعادة علي باشا مبارك من نحو خمس عشرة سنة[1] ، وشرط أن يكون تلامذتها من طلبة الأزهر ، وأن يكونوا حصلوا من العلوم المقررة فيه مبلغاً يكاد يؤهلهم للتدريس ، ثم جعل في دروس تلك المدرسة دروساً لجميع ما كانوا يقرأونه في الأزهر من العلوم الدينية ، ليتمموه على وجه أجلى وأنفع ، وأضاف إلى ذلك أطرافاً من الفنون الصناعية كالطبيعة والكيمياء والحساب والهندسة ، وشيئاً من الجغرافية والتاريخ ، وقدر غاية الدراسة أن يكون التلميذ المتمم لدروسه فيها صالحاً لأن يكون أستاذاً في العلوم العربية والدينية في المكاتب والمدارس الرسمية ، ولكن جاءت على تلك المدرسة أدوار كثيرة أسقطتها عن مرتبتها التي كانت تنبغي لها ، ثم لم يوضع فيها أساس للتربية التي كان يجب أن تكون أهم شيء يقصد من الانتظام فيها ، ولهذا كان يخرج تلامذتها على ما يخرج عليه تلامذة غيرها من الأخلاق والأفكار ، لا يمتازون عنهم إلا قليلاً ، وإن كانت مع ذلك انشأت أفراداً من أهل العلم والأدب هم الآن معروفون تشهد لهم حالهم بأنهم أفضل من جميع الناشئين في غير تلك المدرسة ، ولكنهم أقل عدداً مما كان ينتظر .

ثم من غريب التصرف إن هذه المدرسة ـ مع انه لم يكن الغرض منها إلا تكوين أساتذة قادرين على التربية عارفين بالعلوم الدينية والعربية حق المعرفة ـ لا يقيمون عليها من النظار إلا جاهلاً بالدين واللغة العربية ، بل غير معتقد بالدين بالكلية ، كما فعلوا

---

(١) دار العلوم أنشأها علي باشا مبارك سنة ١٨٧١ ، فإذا أضفنا إلى هذا التاريخ خمس عشرة سنة ، علمنا ان الأستاذ الإمام قد كتب مشروعه هذا حوالي سنة ١٨٨٦ م ، وكان مقامه في ذلك التاريخ (١٨٨٥ ـ ١٨٨٩ م) بيروت ، وفيها كتب لائحة إصلاح التعليم العثماني ، ولائحة إصلاح القطر السوري ، وهذا المشروع لإصلاح التعليم في مصر .

سابقاً ويريدون أن يفعلوا في هذه الأيام ، ولا يعينون فيها من المعلمين للدروس الدينية إلا من يقصد تعيشهم بمرتباتهم ، وفيهم من لا تجوز معاشرة التلامذة له فضلاً عن أخذهم العلم عنه ، وفيهم من لا يحسن أداء ما كلف به ، وليس فيهم أهل لوظيفته إلا شخصان فقط ، والكل لا عناية له بأمر التربية ولا يهمه فساد أخلاق التلامذة أو صلاحها ، ولا استقامة عقولهم وأفهامهم أو اعوجاجها ، وتعليمهم الدين على ما هو المعروف في الأزهر لا يغيرون منه فاسداً ، ولا يزيدون عليه صالحاً ، وسائر المعلمين للفنون يؤدونها نقلاً من الكتب لا يبينون للتلامذة الغاية من تعلمها ، وليس العيب في ذلك راجعاً إليهم ولكن إلى من لم يضع أصلاً لسيرهم في تعليمهم ، ولم يؤسس قاعدة ترجع إليها جميع الأعمال ، صادرة من المعلمين أو المتعلمين ، ولم يقم على تلك القاعدة خبيراً بالبناء عليها ، عارفاً بالغاية التي توجه المدرسة إليها ، حكيماً في تصرفه بأذهان التلامذة والأساتذة حتى يقيم للتربية بناء معنوياً حقيقياً يأوي إليه كل معلم ومتعلم يأتي من بعده .

هذه المدرسة تصلح أن تكون ينبوعاً للتهذيب النفسي والفكري ، والديني والخلقي ، ويمكن أن ينتهي أمرها إلى أن تحل محل الأزهر ، وعند ذلك يتم توحيد التربية في مصر ولكن يلزم لذلك أمور :

(الأول) : إصلاح «البروجرام» وحذف بعض العلوم التي اشتغل بها التلامذة في الأزهر ، والاكتفاء بتمرينهم على العمل بها ، وتقدير ما يلزم من الفنون الباقية ، وزيادة بعض علوم ليست فيها الآن منها علوم الآداب الدينية وفن أصول النظام مع تعلقه بالدين .

(الثاني) : تغيير طريقة تدريس تفسير القرآن وتعلم الأحاديث النبوية .

(الثالث) : اختيار معلمين صالحين للقيام بالعمل الموصل إلى الغاية المطلوبة للمدرسة .

(الرابع) : تعيين ناظر للمدرسة قد ملأ قلبه وغمر فكره الميل إلى المقصد الذي وضعت له المدرسة ، عالماً بالدين ولغته ، موثوقاً به عند العامة .

(الخامس) : اعطاء تلامذتها بعد نهاية التعلم حق التدريس في الأزهر .

(السادس) : توسيعها إلى ما يسع مئة تلميذ .

(السابع) : أن يزاد في مدتها سنة بعد الدراسة للتمرين على التعليم في نفس المدرسة .

(الثامن) : - وهو أهم ما يجب - أن يكونوا تحت نظام شديد في التهذيب وملازمة العمل بما يعلمون .

(التاسع) : أن تكون وظائف التدريس في المدارس والمكاتب منحصرة فيهم .

(العاشر) : أن تكون درجتهم في الوظائف على حسب أدبهم واقتدارهم على التأديب .

(الحادي عشر) : أن يكون للموظف منها في مدرسة ما سلطة تامة على تهذيب التلامذة وتربية نفوسهم وتقويم أخلاقهم وطباعهم ، وأرقاهم وظيفة في تلك المدرسة يكون رئيساً لمن دونه .

(الثاني عشر) : أن يبقوا بلباسهم الذي هو لباس أهل الدين مهما ترقوا في الوظائف .

ثم إنه يلزم لهذا المشروع كتب تؤلف جديداً ، ولوائح تنظم للعمل على مقتضاها ، وذلك يمكن بعد العزم على الإجراء .

نفقات الإصلاح

يمكن أن يظن أنه يلزم للاصلاح زيادة نفقات ، ولكن إذا دبرت مصاريف المعارف على الوجه اللائق فلا أظن انه يحتاج إلى زيادة ، على انه لو احتيج إليها لا يثقل احتمالها ، بعد اليقين بأن هذا الإصلاح يؤول إلى تمكن السلطة وجعل الرعية صالحة لأن تكون بدناً لرأس أو آلة لعامل ، وأظن أن بذل النفقات في هذا السبيل - وهو سبيل حياة السلطة وحياة الرعية - أفضل منه في جميع السبل ، فإن كانوا يصرفون آلافاً من الجنيهات على بعض المباني الخربة بدعوى انه أحفظ للآثار القديمة فأولى أن يصرف بعض تلك المبالغ على حفظ الذين تبقى لأجلهم تلك الآثار ، فإن التربية هي الحصن الحقيقي للبلاد ، الذي يصونها من جيش الفساد ، وهي آلة صاحب السلطة في الانتفاع بالمحكومين له ، ولا وسيلة للمحكومين سواها في تعريفهم حدودهم التي يجب أن يقفوا عندها بالنسبة إلى مقام صاحب السلطة عليهم . وإني أجد هذا الإصلاح في

مدارس الحكومة يأتي بفائدة أعم من الفوائد التي جاء بها مشروع السيد «أحمد خان[1] في الهند» ، وهو أبعد من ذلك المشروع عن سوء الظن .

شبهة من يعارض المشروع ومكانته في نفسه

ربما يوجد أشخاص ، خصوصاً من الرؤساء ، يقولون : إن هذه الطريق بعيدة النهاية ، لا توصل إلى الغاية - كما قالوا ذلك من قبل - فنقول لهم : إن الطريق التي سلكوها وسلكها أسلافهم من محمد علي إلى الآن قد جربت فلم تعد بخير على البلاد ، فليسلكوا الآن هذه الطريقة على سبيل التجربة بعض سنوات ، فليس هناك ضرر ينتظر ، فإن لم تكن فائدة فلا خوف من المضرة .

إن مـن يزعـم العجز إنما يلجأ إليه لأنه لم يتصور ما يرد من الأمر عليه ، فإن كانت له أدلة فليوردها ، ولا نعدم لها من الحقيقة دافعاً ، فإن أبى إلا العجز فربما يوجد من لو وكل إليه الأمر قام به ولم يعجز عنه ، والتجربة مشرق الحقيقة ، إن شاء اللّٰه تعالى . على انه يمكنني أن أضمن كل ضرر يتصور في هذا المشروع ، واكفل أن يكون له من النفع ما هو أوفر من الفائدة المطلوبة في السير الحاضر .

وإني لا أزال أكرر أن غارس هذا الغرس يجني ثمرته الطيبة ، وأن فوائده ربما نقلت إلى أقطار أخر فعادت بجزيل الخير على ما نماه ، وفي الزمن القريب يبدو صلاحه لصاحب السلطة وللمحكومين له ، ويسهل له تقرير أمره فيمن صلحوا بإصلاحه على قاعدة المحبة والألفة لا على طائشة الإخافة والرهبة ، ويكون بذلك قد كون لنفسه شعباً جديداً يعينه في الشدة ، وينصره في الفتنة ، ويعضده في ساعة المحنة ، ويمحو من نفسه خيال التعلق بغيره ، وتزول من طريقه عقبات تعصب الجاهلية وحمية الحماقة اللابسة ثوب الحمية الدينية ، وفي ظني أن من عارض هذا المشروع فقد عادى سلطته ، وعرض نفسه لغِيَرِ الزمان ، وسياسته لنفوذ شياطين الفتن من مقاوميه . واللّٰه ولي الأمر ، وبيده كل شيء ، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

---

(1) (١٨١٧ - ١٨٩٨ م) مصلح ديني هندي ، كان حسن العلاقة بسلطات الاحتلال الإنجليزي هناك ، حظي بتقدير الأستاذ الإمام ، وكان محل غضب جمال الدين الأفغاني وهجومه ، انظر ترجمته في (زعماء الأصلاح في العصر الحديث) لأحمد أمين ص ١٢١ - ١٣٨ . طبعة القاهرة ١٩٤٩ م .

النهضة الأدبية في الشرق(١)

حضرة صاحب مجلة الجامعة اللامعة .

لعل الجامعة تعني بالصحافة الحاضرة والمجلات والجرائد ما هو منها في مصر . وهكذا ينبغي أن يكون السؤال عنها خاصة ، ولذلك سيكون كلامي قاصراً عليها ، ولا أذكر ما ينشر منها في غير البلاد المصرية إلا إذا دعت الحال إلى القياس والمقارنة .

من البديهي ، وإن غفل عنه كثيرون ، أن قيمة ما يكتب تعلو وتنحط على حسب ما يكون من قصد الكاتب وأثر المكتوب في نفس القارىء ، فإن كانت الجريدة أو المجلة

---

(١) نشرت مجلة الجامعة ، هذا المقال للأستاذ الإمام بدون توقيع ، وذلك جواباً منه عن استفتائها حول النهضة الأدبية في مصر والشام ، الذي حددت موضوعه في : ١ ـ ما رأيكم في الصحافة الحاضرة من مجلات وجرائد ، وكم واحدة تطالعون منها؟ ٢ ـ ما الواجب صنعه في رأيكم لتحسين حالتها ، وهل لديكم نصيحة خصوصية لها؟ ٣ ـ هل تعتقدون بوجود نهضة أدبية حقيقية في الشرق ، وهل هي جارية على قاعدة طبيعية مقتضاها الارتقاء تدريجياً ، ٤ ـ هل لديكم نصيحة خصوصية للشرق والشرقيين ، وخصوصاً المصريين والعثمانيين ، كالدعوة إلى إدخال شيء جديد ونبذ شيء قديم ؟ ٥ ـ ما رأيكم في مجلة الجامعة بنوع خصوصي ، وهل لديكم نصيحة خصوصية لها ؟ . . .

ولقد أجاب الأستاذ الإمام على السؤال الأخير في عدد يناير سنة ١٩٠٢ من (الجامعة) . . ونشرت مقاله هذا في العدد السابع من السنة الثالثة الصادر في مارس سنة ١٩٠٢ م (ذو الحجة سنة ١٣١٩ هـ) . وقالت في التعريف بكاتبه : « . . . ولو أرادت مصر أن تنيب عنها رجلاً من أبنائها في عكاظ العلم والأدب لما وجدت خيراً من جناب الإمام صاحب الرأي . . . » .

أنشئت لمقصد نبيل ، وكان لما يدرج فيها أثر جميل في نفوس قارئيها ، قدرها قدرها العقلاء ، وعدت من حاجيات البلاد أو كمالاتها . فإن أفادت صاحبها مع ذلك غنى في مال أو سموا في مقام أو بسطة في جاه كان كالخلق الجميل ينفع صاحبه ويسر معاشريه ، وإلا كانت كالهمة العالية تتعب من تكون له وإن رفعت به قومه وأهله .

وقد كان لمصر جريدة واحدة ، هي الجريدة الرسمية ، ينشر فيها ما كانت تحب الحكومة أن تنشره من أوامرها وقليل من الأخبار الخارجية التي يروق للحكومة درجها فيها ، وبقية صفحاتها كانت وقفاً على مدح أمير البلاد وبعض رجاله الفخام . وإذا نكب الأمير أحد أولئك الرجال وجد محرر الجريدة أوسع المجال لذكر مثالبه والنيل منه . فكانت قيمة الجريدة بمقدار ما تحتوي عليه ، ولهذا لم يكن الناس يشتركون فيها إلا جبراً .

وأنشئت بعض الجرائد والمجلات بعد ذلك ، ولكنها كانت أشبه بالرسمية . أنشئت مجلة (روضة المدارس) يكتب فصولها أساتذة المدارس وبعض موظفيها . وقليل من سواهم ، ولم يكن الغرض من إنشائها إلا إظهار كل كاتب ما عنده من العلم على زعمه ، أفهم أم لم يفهم ؟! أخذ القارىء حظاً منه أم لم يأخذ ؟! . . ولذلك ماتت بموت أصحاب تلك الرغبة ولم يرثها أحد من الناس .

وانشئت جريدة (وادي النيل) ولها ميل إلى الغرض الذي انشئت له (روضة المدارس) فيما ينشر فيها من الآداب ، وإلى الجريدة الرسمية في المدح والهجاء . ولم يكن في عبارتها ما يسر غير ممدوحها ولا يسيء غير من صدر الأمر بذمه فيها . ولكن كان في إسلوبها ما لا يسيغه إلا ذوق كاتبها رحمه اللّه ، لهذا ماتت بموته ، غير مأسوف عليها من أحد .

ثم جاء زمن بحوادث غيرت الحال التي كانت عليها مصر من قبل ، وظهرت في الناس حاجة إلى الإطلاع على ما يحدث بينهم ، فأحس بعض المهرة وطلاب العيش بهذه الحاجة ، فأسرعوا إلى موافاة الناس بما يسدها ولكنهم واأسفاً لم يكتنهوا كنه الحاجة ولم يحيطوا بحقيقتها ، وغلبتهم حاجتهم إلى الكسب العاجل فأنشأوا جرائد مستقلة عن الحكومة ، لكنها اشتقت من جرائدها ، فجاءت من نوعها وعلى طريقها من حيث اضطرارها إلى إرضاء الحكام والأمراء ومقالاتها في المدح والهجاء . وزادت على ذلك أنها كانت في حاجة إلى إجابة ما يطلب مشتركوها من ذلك ، وهم قوام معيشتها ، فكانت

تنال أجراً من الحكومة على بعض ما يكتب فيها ومن المشتركين على ما يوافق أهواءهم منها ، وصاحب الجريدة لا غرض له يرمي إليه من تعبه في تحريرها إلا أن ينال مالاً أو يكسب جاهاً يستثمره في جلب المال . ثم جاء من ينافسه فاتخذه قدوة وحذا في عمله حذوه . فما قيمة هذه الجرائد ؟ . . هي قيمة الغرض الذي انشئت له ، وذاك الغرض أن يعيش محرروها بحق أو باطل ، هي قيمة أثرها في الناس ، وهو صرفهم عن كسب الفضيلة والتحلي بها إلى الاكتفاء بذكرها ودفع أجرة نشرها .

وانشئت جريدة من الجرائد لغرض سياسي حقيقي أثناء الحرب بين **الدولة الروسية والدولة العثمانية** ، وكان يكتب فيها أفاضل معروفون ، وكانوا يستشيرون العقل والحق والعدل فيما يكتبون . . ولكن غلب على الجريدة ، مع ذلك ، حب الظهور ، ولم تجد إليه سبيلاً إلا بسب من يعارضها فيما تكتب أو يخالفها فيما تقرر ، خصوصاً إن كان المعتدي عدوها وكان عليها أن تمر به مر الكرام ، ولكن كان ذلك في طبيعة الوقت فجرت عليه ، فكنت ترى الجرائد في ذلك الزمن معارض سباب يضحك لمناظرها السفهاء ويبكي من عواقب ما تتقاذف به الحكماء .

ثم ظهرت جرائد كثيرة في هذه البلاد لم يدع أربابها إلى نشرها إلا الحاجة إلى الكسب ، سواء كان بتحميلها العامة فمن لم يحملها انتظر ما لا سبيل إلى اتقائه من شتم وقذف أم كان بحملها على الحكومة ، فإن لم تمدها بما تريد اتخذت الحرية سلاحاً ظالماً تشق به عن العورات ، وآلة لقلب الحقائق وتغييرها إلى ضلالات ، وكثيراً ما جرعت العامة ما خدر عقولها وخيل إليها أنها سعيدة في شقائها .

غير أن ذلك لم يمنع بعض تلك الجرائد أن تتخذ لها سبيلاً إلى مشرب من المشارب تثبت على وروده ، سواء كان ما يوافق العامة أو يوافق الحكومة ، لهذا قويت وصار لها كون مستقل، بحيث لو ذهب شخص القائم بها صح لها أن تبقى وأن يستمر وجودها إذا خلف الذاهب من يسلك مسلكه . لكني لا انكر أنها مع ذلك قليلة الفائدة ، لقلة ما يودع فيها مما ينفع الناس ، ولإرضائها العامة بوهم لا حقيقة له .

كان هذا شأن جرائد الزمن الماضي ، إلى ما يقرب من الحاضر ببضع سنين ، وبعضها استمر في ذلك إلى الآن . . أما اليوم فأمر الجرائد أصبح من أضر الأمور بالعامة ، فإنه إذا سدت السبل في جه العاجز ، وكان يقدر على صف الكلمات بعضها جانب بعض ، بادر إلى إنشاء جريدة تحت اسم ضخم ، ونادى في مقدمتها بانه لا يريد

إلا تقويم العقول وتعذية الأرواح، ثم شرع في تهديد بعض الأغنياء أو الأمراء أو الحكام بكشف أسراره وإبداء عواره ، لا يريد بذلك إلا أن يشتري الناس سكوته .

ويعظم هذا الخطر ضعف طبيعة أغلب العامة من هذه البلاد وميلهم إلى الهزل وغلبة البطالة عليهم ، ولا شيء يدعو إلى الاشتغال بأعراض الناس كالفراغ من العمل ، ولا يسلي الناقص عن نقصه مثل عيب الكامل بما يعاب هو به ، ولا لذة للناقصين تساوي لذتهم بالحط من الكاملين .

هذه العاقبة السيئة التي صارت إليها الجرائد في هذه البلاد لم تذهب على بصيرة بعض الناس قبل الحوادث العرابية وفي أثنائها ، حتى عملوا على السعي في إعدام الجرائد التي يسمونها جرائد أخبار ليستبدل بها مجلات أدبية لتربية العامة وإفادة الخاصة تحت مراقبة من هو أهل لأن يراقبها ، يكون لها ذيول تجارية[1] فقط تصدر كل يوم ، ولا عجب كان من ترقب تلك الحالة ، فإنها من الترقي الطبيعي للنشأة الأولى .

هذا الذي ذكرته فيما يختص بمعاني ما تنشره تلك الجرائد ، أما ما هو من ناحية ألفاظها وأساليبها فذلك مما يحمد في قليل منها ، ولكنه يسوء أهل الذوق ويخيف أهل الغيرة على اللغة في الكثير الأغلب ، فإنك ترى أولئك العجزة الضعفاء يخترعون ألفاظاً من عند أنفسهم فيما يشاؤون من المعاني ويهشمون بها اللغة تهشيماً ، فلا يبالون بما يقدمون أو يؤخرون ، لا يرجعون في ذلك إلى معجم ولا يجرون على قاعدة فيزيدون اللغة ضعفاً على ضعفها ، ويصكون وجه الفصاحة ، ويصفعون قفا البلاغة ، وما ظنك بأمة تهان فيها ملكة العلوم وهي البلاغة ؟!؟

أما المجلات . . فأغلب ما صدر منها أنشيء على ذوق منشئيها ، إما لكسب المال من قوم مخصوصين تروج عندهم بضاعتها ، وإما لنشر شيء من المعارف بين طبقة خاصة من الناس ، وهذا القسم أنبلها ، ولكن الفائدة منه ليست عامة ، وقد يسوء أثره في الناس من دخل فيه الغلو في مشرب أو التفاني في نصرة مذهب والطعن في مذهب آخر بدون تحكيم الإنصاف . غير ان المجلات أكثر خيراً وأقل شراً من الجرائد على كل حال ، لأنها لم تشتق من الشعر القديم القائم على عمودي المدح والهجاء كما اشتقت منه جرائد الأخبار .

---

(١) أي «ملاحق» بلغة الصحافة اليوم . . .

أما النصيحة للجرائد وللمجلات فهي :

أولاً : أن يمتاز أهل الفضل من أربابها بوحدة تجمعهم وتلصق بعضهم ببعض ، حتى لا تدع فرجة لدخيل فيها بينهم ، فيكونوا طبقة خاصة تفرق عند الناس ، ولا يمنعهم من ذلك الاختلاف في المشرب ولا الضغائن التي تسربت في قلوبهم من المنافسة ، فلهم أن يستمروا على اختلافهم وأن يقيموا على ضغنهم ، وإنما الذي عليهم أن يتلاحموا في الأدب ليكونوا عصبة ينصرونه إذا هوجم ويقودونه إذا ضعف ثم يعودون فيما بينهم إلى ما يجب كل منهم أن يكون عليه . وهذا أمر لا يسوء العقلاء ، بل هو ما يمتازون به عن الحمقى والسفهاء .

ثانياً : أن ينظروا في جميع تلك الجرائد الأخرى ، فإذا وجدوا فيها ما يخالف حقيقة أو يذل فضيلة أو يروج رذيلة أو يخالف شريعة أو لغة حملوا عليه حملة واحدة ، ونفروا من قراءته بكل ما تبلغه الاستطاعة ، وفي هذا وحده ما يقوي وحدتهم ، ويحمل النازل عنهم على الالتحاق بهم ، ومن لم يستطع ذلك كفت الأيدي عن تناول ما يكتب خوف العار اللاحق من قراءته ، فتنضب مادته ويدركه الموت الفاضل قبل الحياة الخبيثة . وأن يجتهدوا في تنقية عباراتهم مما يخالف أوضاع اللغة أو يخرج من أساليبها الصحيحة الفصيحة ، وذلك لا يجشمهم إلا مراجعة المعجمات وبعض الكتب من فنون الأدب .

ثالثاً : أن يبعدوا من مجادلة بعضهم بعضاً عن كل ما فيه تعريض بعيب أو رمز إلى مذمة . وأن تتجه مقاصدهم إلى تربية فكر يصح أن يكون عاماً في الأهالي ، ويحملوا الناس عليه ، كالعمل والاهتمام بما هو من العدل والتعاون على الخير والحق ، وأن يجعل ذلك غرضاً يرمي إليه الكاتب في جميع ما يكتب ، مع تسهيل العبارة ما استطاع .

رابعاً : أن ينشىء كل منهم لجريدته شيعة تنصر غرض صاحبها ، وينصر هو ما نماه في نفوس أعضائها ، على أن يكون سبيل الجريدة وشيعتها أن يصل إلى منفعة ثابتة في البلاد ، ولا يكون سبيلها كذلك حتى تراعي في العمل حالة

الأهالي ودرجات استعدادهم وتدقيق النظر في كيفية قيادتهم إلى منافعهم .

أما ما عليه أرباب الجرائد المعتبرة الآن من اتباع أهواء العامة ، فمتى مدحت شيئاً مدحوه ومتى نفرت من شيء نفروا منه ، أو تطلعهم لما يبدو على وجوه بعض الحكام من رضى وسخط فيرضون إذا رضوا ويسخطون إذا سخطوا ، فذلك مما يجعل الجرائد مزعزعة الأركان ضعيفة البناء تسقط لأول عاصفة تهب عليها من حيث كانت تنتظر السكون .

ثم أخص المجلات بأمر يجوز أن تشركها الجرائد فيه ، وهو البحث في عوائد البلاد وأخلاقها ، والتنقيب عن مناشئها ، حتى إذا عرف ما عراها من الأمراض ، وأجيد تشخيصه وعرفت علله وأسبابه بُحث في تدبير العلاج النافع له ، وقُدم إلى الأنفس بالمقدار الذي تحتمله .

هذا ما خطر ببالي الآن أن أقوله . واللّٰه يوفقكم إلى صالح العمل والسلام .

حوار حول الصحافة وإصدار «المنار»

الأستاذ الإمام : إن المصريين في حالة جعلت أفكارهم موجهة إلى شيء واحد من الجرائد وهو أخبار الحكومة وما يقال عن الخديو وعن الإنكليز ، ولا يلتفتون إلى ما وراء هذا ، وقد قامت به ثلاث جرائد «المؤيد» و«المقطم» و«الأهرام» . . . وإنه لا يمكن لك مباراة واحدة منها في خطتها .

وإذا كتبت في الموضوعات الأدبية كالتربية أو التعليم أو آداب اللغة لا يلتفت إلى كلامك الناس ، فإنني لا أعرف أحداً في الأزهر ولا في المدارس مشتغلاً باللغة وآدابها إلا أن يكون في الزوايا من لم نعرف ، وهؤلاء إن وجدوا لا غناء فيهم . وهذا أمر مهم ومفيد ولكنه لا يأتي منه ما يفي بنفقاته ، ولا ينبغي التعب وإنفاق المال هكذا .

الشيخ رشيد : إن صاحب مجلة «الهلال» أخبرني ان له ٣٥٠٠ مشترك .

الأستاذ الإمام : إن كانوا يحسبون ان كل من يكتبون اسمه في دفاترهم مشتركاً فقد يكون عنده هذا العدد ، وأما الذين يدفعون الفلوس فلا أعتقد أنهم يبلغون الألوف .

الشيخ رشيد : إن من غرضي الاشتغال والتمرن على الكتابة في المسائل الإصلاحية المفيدة . .

الاستاذ الإمام : يمكنك أن تكتب هذه المباحث في كتاب ، فهو أرجى لقراءة الناس له .

الشيخ رشيد : إن معالجة قضايا التربية والتعليم ونشر الأفكار الصحيحة لمقاومة الجهل والأفكار الفاسدة التي فشت في الأمة كالجبر والخرافات . . . هو الباعث لي على إنشاء هذه الجريدة - (المنار) - وإنني أسمح أن أنفق عليها سنة أو سنتين من غير أن اكسب شيئاً .

الأستاذ الإمام : إن كان هكذا فهو حسن ، وهذا أشرف الأعمال وأفضلها ، وأنا إذا كنت على ثقة من مشرب هذه الجريدة فإني أساعدها بكل جهدي . . . يجب أن لا نتحيز لحزب من الأحزاب[1] ، وأن لا نرد على جريدة من الجرائد التي تتعرض لنا بذم أو انتقاد ، وأن لا نخدم أفكار أحد من الكبراء ، هؤلاء الشاغلين للوظائف الكبيرة ، الذين يدعون بها كبراء ، إننا قد نستخدمهم ولكن لا نخدمهم . . . إن الطبع ينبغي أن يكون في المطبعة الأميرية للبعد عن الدسائس وعن اطلاع جماعة المطابع على شؤون الجريدة الداخلية . . . لكن أجر الطبع في المطبعة الاميرية غال ، وإنما غلاؤه لأجل التصحيح ، فإذا كانوا يرضون منا الطبع بدون تصحيح بأجرة مناسبة فلا معدل عنها . وأنا أسأل عن هذا الأمر .

* * *

أنتم تسمعون إن في مصر حرية . . . هذه الحرية ليست للمسلمين ، المسلمون في أشد المراقبة عليهم ، وأبعد الناس عن الحرية ، لا حرية لهم فيما ينفعهم أصلاً ، ولكن لهم الحرية المطلقة في كل ما يضرهم[2] .

---

(١) يذكر الشيخ رشيد ان الأستاذ الإمام ضرب عندئذ الأمثلة «بالمؤيد» وبمصطفى كامل ، ووصفه بالشاب المتحمس أو المتهور ، ووصف مقالاته بأنها مجموعة نوبات عصبية بعضها شديد وبعضها خفيف .

(٢) يذكر الشيخ رشيد أن الأستاذ الإمام قال في حديث آخر : «إن الحرية التي كانت بمصر كافية للنهوض بإصلاحها ، وإنما كان العائق فساد الأخلاق» .

عزيز الفاضل نقولا أفندي شحاته . .

بعد إهداء التحية . . أقدم لك حضرة الشيخ محمد رشيد رضا الطرابلسي ، من أفاضل أهل العلم في طرابلس ، وهو الذي سبق الكلام معكم فيه ، وإنه يريد إصدار جريدة أدبية ، وقد ظهر انه اتفق مع مطبعة أخرى غير مطبعة «الأخبار» ، والرجاء إن تساعدوا حضرته بإعطائه أسماء المشهورين من مشتركي جريدتكم من مأموري حكومة ومديرين وغيرهم ومن أعيان ومعتبرين في القطر المصري ، وعندي يقين أنه سينال منكم ما يحب من ذلك . وأكون لكم من الشاكرين .

١٤ مارس سنة ١٨٩٨

محمد عبده

الشيخ رشيد رضا[١]

إن اللَّه بعث إليّ بهذا الشاب (الشيخ رشيد) ليكون مدداً لحياتي ومزيداً في عمري ، إن في نفسي أموراً كثيرة أريد أن أقولها أو اكتبها للأمة ، وقد ابتليت بما شغلني عنها ، وهو يقوم ببيانها الآن كما اعتقد وأُريد ، وإذا ذكرت له موضوعاً ليكتب فيه فإنه يكتبه كما احب ويقول ما كنت أريد أن أقول ، وإذا قلت له شيئاً مجملاً بسطه بما ارتضيه من البيان والتفصيل ، فهو يتم ما بدأت ويفصل ما اجملت ، وقد رأيت في سفري هذا من آثار عمله وتأثير «مناره» ما لم اكن اظن ولا احسب ، فهو قد انشأ لي أحزاباً ، وأوجد لي تلاميذ وأصحاباً . . . ولا أفهم معنى لما تقولون من حاجته السابقة إليّ ، واستغنائه الآن عني ، ماذا كانت تلك الحاجة ؟ وماذا عملت له ؟ أنا واللَّه في خجل من نفسي أنني لم أعمل له شيئاً ، وهو قد عمل لي كل شيء ، عمل لي ما لم يعمله أحد ممن ربيتهم وعلمتهم ومن التزمت طِوال حياتي خدمتهم !!

* * *

---

(١) ذكر الأستاذ الإمام ذلك لجماعة أرادوا النيل من إخلاص الشيخ رشيد للأستاذ الإمام ، وكان من بينهم الشيخ عبد الكريم سليمان الذي أرسل إليه الأستاذ الإمام قائلاً : «إما أن تكف عن السيد رشيد وإما أن أستغني أنا عن صحبة أربعين سنة» .

إن[1] التجسس في هذا البلد لا يكون إلّا لأحد رجلين : الخديو وهو (الشيخ رشيد) قد عاداه لأجلي ، واللورد كرومر وهو لم يعرفه ، ولا يحب أن يعرفه ، وإلّا لكنت أنا الذي أعرفه به .

* * *

إذا[2] كنت أنا إنساناً ذا قيمة في الوجود فإنما ذلك بأخلاقي لا بوظيفة الإفتاء ولا بغيرها ، وأي خلق يكون لي إذا كنت أترك صحبة رشيد رضا لأجل الخديو ؟! وكيف لا أترك صحبتك أنت أيضاً لأجل الخديوي ، إذا أراد ؟! أُحب أن تعلم ويعلم الخديو أنني أفضل أن أعيش أنا والسيد رشيد رضا ههنا في رمل عين شمس على البقاء في منصب الإفتاء وعضوية مجلس إدارة الأزهر ، لأن هذا الرجل متحد معي في العقيدة ، والفكر ، والرأي ، والخلق ، والعمل . . .

نقد للمنار وصاحبه

إنك كثيراً ما تبرز الحق عرياناً ليس عليه حلة ولا حلى يزينه للناظرين ، ويهون قبوله على المبطلين ، فينبغي أن تتذكر أن الحق ثقيل ، وقلما يكون للداعي إليه صديق ، وانه لا بد من مراعاة شعور من يعرض عليهم كيلا يزداد إعراضهم عنه . . .

إن «المنار» في موضوعه ولغته لا يفهم أكثر ما فيه إلا الخواص ، فينبغي أن تتحرى من سهولة العبارة وقلة غريب اللغة فيها ما يقربه من أفهام جميع القارئين ، حتى العوام . . . .

---

(١) ذكر الأستاذ الإمام هذه العبارة رداً على بعض أهل بيته عندما ذكروا قول القائلين : إن الشيخ رشيد جاسوس على الأستاذ الإمام .

(٢) خاطب الأستاذ الإمام بهذه العبارة بطرس باشا غالي عندما سعى إليه برغبة الخديوي النيل من الشيخ رشيد رضا .

حوار بين الأستاذ الإمام والشيخ رشيد حول الشيخ علي يوسف

الشيخ رشيد : إن أكبر أسباب استياء الشيخ علي منك هو اعتقاده أنك الذي حملت صديقك الشيخ أحمد أبا خطوة القاضي الشرعي على الحكم بعدم كفاءته لبنت السيد عبد الخالق السادات .

الاستاذ الإمام : إنني موافق لك فيما كتبت في (المنار) ونقله عنك (المؤيد) في مسألة الكفاءة . . . وأما رأيي في الشيخ علي والسادات ، في شخصهما فهو انهما كفؤان ، لكن في الخسة لا في الشرف ؟!! .

* * *

رسائل إلى فرح انطون

ـ ١ ـ

حضرة[1] الفاضل المحترم فرح أفندي انطون

لا تأخذ عليّ في الإبطاء بالإجابة ، فمن الشواغل ما لا يذكر . وقد يمنع عن الجواب وأكبر . تذكر ثنائي على مشرب الجامعة ، وإنما يثني على العامل عمله ، ويحدّث عن الفاضل فضله . ورجائي أن يتم لك ما أحسنت قصده ، وأن يعجبك النجاح فيما وجهت عزمك نحوه . والسلام .

محمد عبده

١٩ إبريل سنة ١٨٩٩

---

(١) هذه أولى رسائل الأستاذ الإمام إلى فرح أنطون ، وهي رسالة جوابية يرد بها على رسالة لصاحب (الجامعة) يشكر فيها ثناء الإمام على (الجامعة) أول صدورها . وعدد الرسائل التي بعث بها الإمام لفرح أنطون «تبلغ العشرين» كما يقول فرح أنطون . (الجامعة، الجزء الأول من السنة الخامسة ، الصادر في ١ يوليو سنة ١٩٠٦ م و١٠ جمادى الى سنة ١٣٢٤ هـ) . ولم يحدث لقاء مباشر بين الإمام وفرح أنطون رغم ما دار بينهما من مراسلات ومناظرات .

مجلة الجامعة[1]

ـ ٢ ـ

حضرة الفاضل صاحب مجلة الجامعة .

لا أجد الآن من الوقت ما يسع الجواب عن مطالبك جميعها . ولكني أحب أن أجيبك عن كل واحد منها متى أمكنني الوقت من ذلك . وإنما يسهل عليّ أن أجيبك الآن عن آخر سؤال .

رأيي في مجلة الجامعة أنها من أبعد المجلات عن سوء الظن الذي يكثر نشوبه بغيرها ، وليس يعلق بذهن الناظر فيها إلا حسن القصد .

والنصيحة التي أقدمها لمجلة الجامعة أن تستمر على خطتها ، وأن تثابر السير وراء طلبتها ، وأرجو أن تقبل تحية الاحترام من الفقير إلى اللّه وحده .

محمد

---

(١) في الجزء السادس من السنة الثالثة مجلة (الجامعة) الصادر في يناير سنة ١٩٠٢ م . (شوال سنة ١٣١٩ هـ) . نشر هذا الخطاب من الأستاذ الإمام إلى «فرح انطون» يتضمن رأي الإمام في «الجامعة» . . وكانت المجلة قد توجهت باستفتاء من خمسة أسئلة عن النهضة الأدبية الحديثة في مصر والشام . . والسؤال الخامس من هذا الاستفتاء كان موضوعه : «ما رأيكم في مجلة الجامعة بنوع خصوصي ، وهل لديكم نصيحة خصوصية لها؟» . . ولقد قدمت الجامعة لهذا الخطاب بقولها : (امام تسجد له الأقلام) . . أما الكتاب التالي فهو من إمام في القاهرة تسجد لذكره الأقلام في المحابر ، وتتشرف الجامعة بصداقته . . .

ـ ٣ ـ

الآن[١] وصلني رقيمك . . وأشكرك على التهنئة ، وعلى الميل إلى استدامة الصلة . وأحب أن تعرف أن ما يسمى وشايات لا سلطان له عليّ ، وإني لا آخذ بالكلمة تلقى إليّ إلا إذا قام عليها من الأدلة ما يحصل اليقين . ثم إن قلبي لا يسع ما يسميه الناس عداوة ، وليس فيه مكان لذلك . ولكن قلبي قد يحتقر ما لا قيمة له . أحياناً يُظهر ما يجد من ذلك وأحياناً لا يبالي بإظهاره ولا كتمانه .

وما ذكرت مما ذكر [الشيخ رشيد رضا[٢]] لم اطلع عليه ، أو لم التفت إليه ، ولا

---

(١) عندما سافر الأستاذ الإمام إلى الجزائر وتونس ، نشرت الصحف المصرية أن هناك وشايات خرجت من مصر إلى الجزائر ضده ، وإنها توعز إلى سلطات الاحتلال الفرنسي بسوء معاملته لعلاقاته الوثيقة بالإنجليز وسعيه كي «ينفر الجزائريين والتونسيين من الحكم الفرنساوي ، ويدعو إلى عصبة عربية لمقاومتهم» . ولقد نشر الشيخ رشيد رضا أن إحدى الوشايتين قد خرجت من الاسكندرية ، فظن فرح أنطون ، صاحب (الجامعة) ـ وكانت رئاسة غرفة حاكم الجزائر الفرنسي مشتركة في مجلته ـ إن رشيد يعرض به فبعث للأستاذ الإمام بعد عودته يحدثه في هذا الأمر ، ويبرأ إليه من هذا الاتهام . ويطلب إليه أن تنشر الجامعة بعض المواد المتعلقة برحلته هذه ، وكان خطاب فرح أنطون هذا أول خطاب منه للاستاذ الإمام عقب المناظرة الخاصة بابن رشد ، والاضطهاد في النصرانية والإسلام . فأجابه الأستاذ الإمام بهذا الخطاب الذي نثبته هنا . انظر نص خطاب فرح أنطون في (الجامعة) العدد الثالث من السنة الخامسة الصادر في أول أغسطس سنة ١٩٠٦ ١١ جمادي الثاني سنة ١٣٢٤ هـ . ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٢) يشير إليه فرح أنطون بـ «فلان» في عدد الجامعة الذي سبقت الإشارة إليه .

وقت عندي لتحقيقه ، على أنه إن لم يكن فيه إلا : «وواحدة من الأسكندرية» فليس فيه تلميح ولا تصريح بذكرك ، فلم حملته على نفسك ؟!

على أنني قد علمت حق العلم أن وشاية أو تقريراً ـ أو ما شئت فسمه ـ ذهب من الاسكندرية إلى الجزائر ، ولكنك لم تخطر ببالي عندما تحققت ذلك ، فلم تسيء الظن لمجرد ذكر لفظ يشمل مدينة بتمامها ، فيها ممن يشتغل بهذه السفاسف كثير لا يليق بهم أن يكونوا في عمل مثل عمل مجلتك ؟!!

وإنك لو راجعت دفتر أعمالك لوجدت من اكبر ما يصح لقلبي أن يتأثر له ذلك المطبوع الذي أرسلته إليّ ، وبعثت به إلى [**الشيخ رشيد رضا**[1]] ، ولكيلا يبقى منه أثر في نفسي لم أبق له أثراً عندي . وعلى كل حال فلا تجعل لهذه الأمور سلطة على نفسك ، ولا أظن أن عنفوان الشبيبة يمنعك من بذل الجهد فيما احب لك ولكل من يعمل عملاً يرجى منه الخير ويخشى منه الشر في الشرق .

أما ذكرك المجمل ما ألقيته في تونس فإليك من ذلك ما تحب ، غير أني أوجب أن ينسب إلى جريدة (الحاضرة) التي تنشر في تلك المدينة ، لأمرين :

الأول : إنه من حقها . . والثاني : إنه بعبارة صاحبها ، وفيها ما لا يصدر من قلمي العربي عادة . وإذا أشرتَ إلى شيء من سياحتي فليكن بعد تحري ما تعلم من ذلك .

---

(١) يشير الإمام إلى منشور كان فرح أنطون أعده لتوزيعه على الجمهور أثناء المناظرة حول ابن رشد ، واشترط لوقف توزيعه توقف رشيد رضا عن سب الجامعة وصاحبها ، فأوقف الإمام الجدل في هذا الموضوع ، وعدل فرح أنطون عن توزيع المنشور .

ـ ٤ ـ

حضرة[1] الفاضل . .

لو احتقرتك ما كتبت إليك كلمة ، وإنك لتسيء الظن بنفسك أكثر مما يسيئه غيرك . وكنت أود لو كنتَ لنفسك أفضل مما أنت لها اليوم . ولكن . . اللهم عرّفنا بأقدار انفسنا ، فذلك اللهم أنفس ما تعطي وأفضل ما تهب .

---

(١) عندما وصلت رسالة الإمام السابقة إلى فرح أنطون ، أجاب برسالة للإمام قال فيها إنه يعتقد أن الأستاذ الإمام «يحتقر» مجلة الجامعة حقيقة . . . فكانت هذه الرسالة التوضيحية من الأستاذ الإمام إلى فرح أنطون . أنظر نص رسالة فرح أنطون في (الجامعة) في العدد الثالث من السنة الخامسة ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

درس عام في العلم الاسلامي والتعليم[1]

إن بعض إخواننا الذين عرفناهم في تونس قد طلبوا من الفقير مسامرة أو محاورة ، وربما كان ذلك اصطلاحاً عندهم . ثم قالوا درساً ، فسألني بعضهم عن ذلك فقلت : نعم ، هو درس ، ولكن لا تظنوا انه درس في تحقيق مسألة علمية ، فإن عندكم من جلة العلماء من نعترف بفضلهم ، فمن أراد تحقيق مسألة علمية فليراجعهم . أما هذا الفقير فرجل سائح ، قصدت هذه الديار للتعرف ببعض المسلمين ، والنظر في أحوالهم ، وأمور دينهم من حيث العلم والتعليم ، ولذلك لما أجبت طلبهم في إقراء الدرس ، ما قصدت إقراء درس حقيقي ، ولكن التكلم فيما يختلج بفكري من أمر التعليم والعلم ، والإعراب عما في ضميري مما أتمناه لإخواننا المسلمين من التقدم في العلم ، وقد رأيت في بلاد الإسلام التي سحت فيها عدة أناس يشتغلون بالعلم ، ولكني وجدت عند الأغلب اشتباهاً في ما هو العلم الذي يُنفق الوقت في تحصيله ، هذا فيما يخص الأمر المهم الذي كررته لكم ، ولا زلت أكرره ، من أهمية التعليم ، حتى ينتج ذلك التكرار ما نتمناه من التقدم ، ما دام الناس في حاجة إلى التكرار .

---

(١) القاه الأستاذ الإمام في تونس ، وهذا النص هو تلخيص جريدة (الحاضرة التونسية) ، نقلته عنها (المنار) بعد عرضه على الأستاذ الإمام . ولقد أشار الأستاذ الإمام في رسالته إلى فرح أنطون عقب عودته من رحلته إلى الجزائر وتونس إلى أن أسلوب هذه المحاضرة إنما هو من عمل جريدة (الحاضرة) التونسية ، و«أنه بعبارة صاحبها ، وفيها ما لا يصدر عن قلمي العربي عادة . . .» أنظر هذا الخطاب في مكانه من هذا الجزء .

ثم إن هناك مسألة مشتركة بيننا وبينكم ، عامة في سائر بلاد الإسلام ، وهي مسألة الرضا بالموجود ، ولها تعلق أيضاً بالتعليم ، فإذا ذكرت نقصاً أو عيباً في طريقة أو في حالة من الأحوال قيل لك : ماذا نصنع ، ونحن أناس متوكلون على اللّٰه ، وهذا مراد اللّٰه من عباده ؟ وهو عذر المقصر عند تقصيره في بلاد الإسلام ، وعون على ما نراه من النقص في طرق تحصيل العلم ، ولذلك أردت ضمه إلى مبحث التعليم .

* * *

معنى العلم

أما الكلام في معنى العلم فليس الغرض منه الخوض فيما اصطلح عليه علماء السلف الصالح ، أو غيرهم من المتكلمين أو الفلاسفة ، أو غيرهم حتى من الزنادقة ، لأن هذه ألفاظ اصطلاحية طالما شغلت أهل العلم بتفسيرها ، والأخذ والرد في معانيها ، مع أن واضعيها إنما حددوا بها المعاني حتى تنضبط ويسهل تناولها والوصول إليها ، ولكن يصح أن يقال فينا وفيهم إنهم أرادوا خيراً فاستعملنا شراً ، ولذلك أترك الألفاظ الاصطلاحية ، وأتكلم في معنى العلم من حيث هو معروف في الكتاب والسنّة وسيرة السلف الصالح ، وعلى لسان العامة والخاصة .

العلم جاء ذكره في قوله تعالى ﴿**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والذين لا يعْلمونَ**﴾[1] ؟ الآية ، وهو استفهام انكاري ، معناه أنه لا يستوي عالم وجاهل ، وقال تعالى . ﴿**هَلْ تَسْتوي الظُّلماتُ والنُّورُ ؟**﴾[2] ، أي ان الظلمة لا تساوي النور ، فبين لنا تعالى أن الظلمة مثال لحال من لا يعلم، وان النور مثال لحال من يعلم، فتبين من ذلك أن عدم العلم يشبه الظلام ونحن نعلم ما يكون من الإنسان إذا اشتد به الظلام وهو سائر في طريق يقصد غاية معلومة ، فإن الظلام يُعمِّي عليه الطريق ، وربما سلك طريقاً يبعده عن مقصده، وقد يصادف مهواة فيسقط فيها فتدركه هلكته قبل الوصول إلى غايته .

---

(١) الزمر : ٩ .

(٢) الرعد : ١٦ .

وهذه حال الجاهل بوسائل أي غاية من الغايات التي يعرض للإنسان قصدها في حياته ، فكل من طلب غاية في حياته بدون علم لا يصل إليها . فيؤخذ حينئذ من هذه الآية الكريمة أن اللّه تعالى بيّن لنا إن العلم للإنسان كالنور ، لا بمعنى ان العلم سراج أو مصباح ، وإنما ذلك مثل لحال من يعلم الطريق الموصلة له إلى مطلبه ، والوسائل المؤدية إليه ، فإن حاله يشبه حال من يمشي وبين يديه نور يبيّن له السبيل ويكشف له ما فيها من الموانع فيتجنبها أو يذللها ، حتى ينتهي إلى غايته ظافراً بعافيته وسلامته لأن الآيات والأعلام المنصوبة لا يراها المغمور بالظلام ، وإنما يراها المبصر بالضياء والنور . ولما كان العلم ضوءاً يهدي إلى الخير في الاعتقاد والعمل ، كان أوّل ما نزل على النبي الأمّي الذي لا يقرأ ولا يكتب قوله تعالى ﴿**اقرأ بِسمِ ربِّك الذي خلق ، خلق الانْسانَ مِنْ عَلَقْ**﴾[1] ، الآية . فافتتح اللّه الوحي بتعليم القراءة ، والقراءة تعلم ، وجاء في الحديث الشريف أنه قال في أول مرة ، «ما أنا بقارىء» وما زال الملك به حتى قرأ الآيات .

ثم بعد أن أمر تعالى بالقراءة من لا يقرأ عادة ، وبين له أن الذي يأمره بالقراءة هو الذي خلق الخلق كله ، وهو قادر على أن يقرئه بعد أن لم يكن قارئاً ، وانه الذي خلق الانسان الحي الناطق المفصح عما في نفسه من علق أي دم جامد لا عقل فيه ولا نطق ، فهو قادر على أن ينشىء فيه القراءة والعلم وإن لم يسبق له تعلم ـ بعد أن ذكر هذا قال ـ ﴿**اقرأ وربُّكَ الأكْرَمُ الَّذِي علَّمَ بالقَلمِ ، علَّمَ الانْسانَ ما لَمْ يَعْلم**﴾ ، فخص من العلم العلم بالقلم والكتابة تنويهاً بشأن التحرير والبيان ، وتنبيهاً على عظم فائدته ، وهو إنما يكون بعلم اللسان والبراعة فيه .

لا نريد من العلم تصور القواعد ، وإنما نريد منه ملكة الإفصاح والبيان ، وكون المراد منه هذا أمر بديهي ، إذ لولا الكتابة لما وصلنا إلى درجة من الدرجات التي نراها ، فافتتاح اللّه تعالى الوحي بطلب العلم ، والثناء عليه سبحانه بأنه هو الذي علمه ووهبه الإنسان ، إرشاد إلى فضل العلم ، وحث على تحصيله ، خصوصاً العلم بالقلم .

---

(١) العلق : ١ .

(٢) العلق : ٣ .

فالعلم ما يُبَصِّر الإنسان في الغاية التي يطلبها ، ويهديه إلى الحق الذي هو معقد النجاة ، قال تعالى : ﴿ومِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمواتِ والأَرْضِ واخْتلافُ ألسِنَتِكُمْ وألْوانِكُم ، إنَّ في ذلكَ لآياتٍ للعالَمِين﴾[1] ولم يقل للجاهلين أو الغافلين ، فإذا كان للعلم هذه المزية فلا يصح أن يكون العلم الممثل له بالنور إلا علم إرشاد وتبيين ، ثم جاء في الأحاديث والأدعية المأثورة قوله ﷺ «اللهم أنفعني بما علمتني ، وعلمني ما ينفعني ، وزدني علماً[2]» ، كأنه يقول اللهم أجعل علمي علماً صحيحاً ، ينطبق على ما بينته في كتابك ، ويروى أنه قال : «إذا أتى عليّ يوم لا ازداد فيه علماً فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم[3]» ، ثم إننا نجد في الآثار وأقوال العلماء غير ذلك مما يطول ذكره ، كما تجدون فيما يدور على ألسنة الناس عند ذكر العلم ما يرشد إلى انهم لا يفهمون من العلم إلا معنى التبصر في أي أمر من الأمور ، والإتيان به على الوجه الأكمل بقدر الاستطاعة . فتبين من ذلك إذا ان معنى العلم الحقيقي ، الذي أثنى اللّه عليه ، وميز به المهتدين من الضالين ، هو الكشف عن الأمر الحقيقي ، بحيث إذا أراد أن يميلك عنه مميل لا يقدر على ذلك ، كمن عرف طريقاً موصلة إلى غاية فلا يعدل عنها مهما حاول مضله ، فلا يكون العلم حقيقياً ، ولا تنبعث النفس إلى تحصيله ، إلا إذا كان كذلك بالنسبة إلى الغاية المطلوبة منه ، فإذا وجدنا من العلم ما يوصلنا إلى البصيرة بما نقصد من الغاية في مدة قصيرة كيومين مثلاً ، ورأينا ما سمي علماً ولكنه إنما يوصلنا في مدة أطول كأربعة أيام مثلاً ، كان لنا أن نعد الأول علماً حقيقياً ، لأنه أرشدنا إلى أقرب طريق مؤدية إلى الغاية ، وأن نعد الثاني غير علم لأنه عاقنا عنها ، وأوجد لنا العثار[4] فيها ، فالعدول إليه سقوط في الضلة .

وأولى بأن يسمى ضلة ، علم يقصد بتحصيله غاية ، ثم هو لا يؤدي إلى تلك الغاية بالمرة بعد انفاق الزمن الطويل في تحصيله ، فتسميته علماً من الخطأ الذي لا يتفق مع ما جاء في الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة ، واستعمال الخاصة والعامة ،

---

(١) الروم : ٢٢ .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجة .

(٣) رواه الطبراني .

(٤) من معانيه : الشر ، والمكروه ، والمهلكة ، والشدة ، وما عثر به .

ولكن من الناس من يقول لك : العلم يطلق باطلاقات ثلاثة : الإدراك ، والقواعد ، والملكة ، فتحصيل القواعد وإن لم تحصل الملكة يسمى علماً على الحقيقة ، فاشتغالنا بتحصيله اشتغال بتحصيل العلم . غير ان هذا القائل لم يراع ماذا قَصَدَ المُسَمِّي للقواعد علماً فإنه لم يضع لها هذا الاسم إلا لأنها توصل إلى الغاية ، في رأيه ، فإذا استعملت لغير الغاية فقدت معناها ، وعُدَّت من الشواغل عن العلم المطلوب ، فإن شاء سمي هذه الشواغل جهلاً لأنها أضلته عن العلم ، وإن شاء فليسمها علماً كما يهوي لا كما يعرف الناس .

* * *

العلوم الإسلامية

ومن هنا يمكنني أن اتخلص إلى الكلام على حالتنا في تحصيل العلم ، في جميع بلاد الإسلام ، وهو موضوعنا فنقول :

عندنا علوم شتى نشتغل بتحصيلها ونسميها العلوم الإسلامية ، وإنما سميت بهذا الإسم لأن موضوعاتها لها علاقة بدين الإسلام ،كالفقه وأصوله ، وهو علم يبحث فيه عن طرق استنباط الأحكام من أدلتها ، وكعلم التوحيد ، وهو علم إسلامي يبحث فيه عن وجوده تعالى وصفاته الكمالية ، ثم العلوم النقلية كالتفسير ، والحديث ، واللغة ، والنحو ، والمعاني ، والبيان والبديع ، وما سمي علم الوضع .

ومن هذه العلوم وسائل ومقاصد نحن مشتغلون بجميعها ، وسائل ومقاصد . ولا حاجة إلى الكلام في تبيين طرق الاشتغال بها عندنا وعندكم ، إنما الكلام في أمر عام معروف عند الجميع وهو طرق تحصيل هذه العلوم .

* * *

علم النحو وتدريسه

فالنحو مثلاً يدرس بتونس بكتبه التي تقرأ بمصر «كالقَطْر» و«الاشموني» و«الصبان» ، وله غايتان : الأولى التمكن من فهم كتاب اللّه وكلام نبيه عليه الصلاة والسلام وكلام سلف الأمة ، والثانية إصلاح اللسان من الخطأ . نشتغل بعلم هذه القواعد في هذه الكتب ، ثم نشغل أنفسنا بالبحث في عبارة المؤلف هل تدل على ما قصده ؟ فقائل يقول : نعم ، ويأتي قائل آخر يقول : لا ، وقائل ثالث يرجح قول نعم ، ورابع يرجح قول لا ، ونحو هذا مما ترونه في التقارير المكتوبة على الحواشي ، ويطول بذلك الزمان وتضيع الفائدة ، وينصرف الذهن عن القاعدة ، ثم بعد الفراغ من العلم لا يجد الطالب تقويماً في لسانه ولا صحة في تحريره ، ولا قدرة على فهم ما جاء في كلام العرب أو في كتاب اللّه وكلام نبيه ﷺ ، ويزيد الأمر صعوبة طريقة الابتداء التي اختاروها في تدريس النحو ، فإن الأستاذ يبادىء الطالب ـ وهو لا يعلم شيئاً من اصطلاحات العلم ـ بتحقيق المسائل وتفتيتها كما يقولون ، كأنه عريق في العلم ، ولا يراعي مقدار استعداده للفهم . وقد وقع لي أني مكثت سنة ونصف سنة لا أفهم شيئاً من شرح «الكفراوي» على «الآجرومية» ، فحملني عدم الفهم على الهرب من طلب العلم ، لتمكن اليأس من نفسي ، ولكن لأمر أراده اللّه قهرني والدي على الرجوع إلى الطلب ، فهربت في الطريق ، ولكني صادفت في مَهْربي من علمني كيف أطلب العلم من أقرب وجوهه ، فذقت لذته واستمررت في طلبه .

فعلى الأستاذ أن يكون بيده ميزان يزن به ذهن الطالب ، ودرجة استعداده لقبول

ما يقول ، فيجب على المدرس أن يتنازل مع المبتدىء إلى درجته ، ثم يرتقي به شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى درجة التي يتمكن فيها من إدراك دقيق المعاني، وهذا الفن ـ فن معرفة درجات الأذهان وكيفية الاستفادة ـ فن مخصوص تستلزم قراءته ست عشرة سنة إذا كان شرح المطول يحتاج في قراءته إلى ثمان سنين ، ومن أنفق أوقاته في هذا الفن ، الذي ألفت فيه الكتب وبسطت فيه ، فإني أضمن له ثوابه عند اللّه تعالى أضعاف أضعاف ثواب من يختم إقراء المطول ، لما إنه يرشدنا إلى الغاية التي طالبنا اللّه بها .

* * *

علم المعاني والبيان
(والغاية منه)

علم المعاني والبيان علمان يُبْحَث فيهما عن البلاغة ، وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فما هو ذلك المقتضى ؟ نجد الناظر في هذا الفن أو المعلم له يقول : هل تتحقق البلاغة بمطابقة الكلام لمقتضى الحال في الجملة أم لا بد من مراعـاة جميع مقتضيـات الأحوال ، فإن كان الأول فكيف يعد بليغاً من لم يراع الحال كما ينبغي ، وهو يعلم أنه غير مراع له ، وإن كان الثاني فلا تختلف طبقات البلاغة ولا يكون لها أعلى وأسفل . ويطول البحث ، ويكثر الجدال في ذلك وينصرف الذهن عن البلاغة نفسها ، ولا يجد الباحث ما يرده إليها . وهكذا نجد البحث يطول في الغالب إلى حد يشغل الذهن عن الغرض المقصود . مع انه لو قال الأستاذ : البلاغة صفة في الكلام تُبلِغ المتكلم مراده من نفس السامع ، على قدر طاقته ، ثم أنها تكون بمراعاة حال المخاطب ، وذلك ينقسم إلى قسمين ما يتعلق بفهم الكلام ، وما يتعلق بالمعنى الذي سيق له الكلام ، فما يتعلق بنظم الكلام هو موضوع علم المعاني ، ثم ينطلق في بيان ذلك وتقرير المعاني التي سماها الإمام «**عبد القاهر الجرجاني**» واضع هذا الفن معاني النحو . أما القسم الثاني وهو حال المخاطب بالنسبة إلى المعنى الذي سيق له الكلام فتتوقف معرفته على أمور كثيرة ومعارف جمة يتوصل بها إلى معرفة طبائع الأشخاص ، ومداخل المعاني إلى قلوبهم ، فمن أراد أن يقنع مخاطبه بعقيدة مثلاً فعليه أن ينظر ، فإن كان المخاطب ممن لا يقنع إلا بالبرهان فعليه أن يقيمه له ، وإن كان ممن لا يدرك البرهان ولكنه يقنع بالمُسَلَّمات مثلاً سلك معه له تلك السبيل ، ولا يكون بليغاً إلا إذا لاحظ ذلك مع ما يتعلق بالنظم .

لو سلك الأستاذ هذا المسلك لجمع المعاني الكثيرة إلى ذهن الطالب ، ووجه نفسه إلى الغاية المطلوبة منها ، ثم إنه بعد ذلك كله لا يعد معلماً للبلاغة إلا إذا وجه فكر الطالب إلى ممارسة كلام العرب ، ونسج في التحرير والتعبير على ما نسجوا عليه ، حتى تحصل له ملكة البلاغة ، ويصل إلى الغاية من عمله ، فإن غاية هذا العلم تشمل كلا الأمرين : **الأول** : أن يكون الطالب فصيحاً بليغاً فيما يكتب أو يخطب ، **والثاني** : أن يقيس بلاغة البلغاء ببلاغة القرآن فيدرك حقيقة الإعجاز ، وهذا الأمر الثاني هو في الحقيقة الأمر الأول ، فإن من لم يكن بليغاً بالملكة والعمل لا يمكنه أن يميز بين طبقات البلاغة .

* * *

أسهل طرق تعليمه

سئل «**الأصمعي**» أي الرجلين أشعر «**أمسلم بن الوليد**» أم «**أبو نواس**» ؟ فحكم لأبي نواس . فقيل له إن أخاك «أبا عبيد» يحكم لمسلم بأنه أشعر فقال : إن أبا عبيد يروي الشعر ، ولكنه لم يكابد مشقة العمل في صناعته ، فليس أهلاً للحكم . وهذا قول حق فإن من لم يذق لم يعرف. وأما يظن من أنه يتيسر للطالب بعد معرفته اصطلاحات علم المعاني أن ينظر في كتب التفسير «كالكشاف» مثلاً ويعرف ما يقول «الكشاف» في وجوه بلاغة الآية ، وبذلك يكون ممن عرف بلاغة القرآن وإعجازه ، فليس من كلام المحصلين ، لأنه لو كفى ذلك لما كانت حاجة إلى صرف الزمان الطويل في تحصيل علم المعاني . بل كان لنا أن نقول : إن القرآن معجزة لأن صاحب «الكشاف» قال إنه معجزة ، وننتفع بزماننا في تحصيل ما هو أنفع ، وذلك مما لا يعقل . ورب قائل : إن المتكلم اليوم[1] يقول ذلك من قبيل من يأمر غيره بالبر ولا يأتمر به ، فقد عرض بنفسه جزافاً بالقاء خطبة على أناس لا يدري أخلاقهم ، ولا يدري ما يقولون بعده ، ولا يعرف مواضع الخطاب من أنفسهم ، فالجواب : نعم لم أقف على هذه الأمور تفصيلاً ، ولكن مدة إقامتي بهذه الحاضرة كانت مدة اجتماع بأفاضلها وعلمائها ، وبذلك حصلت لي خبرة إجمالية ، فخطر ببالي أن ألقي جملة فيها يطابق مقتضى الحال ، وفي ظني ان ما أقوله إن لم يقع موقعاً حسناً من نفوس جميع السامعين فلا

---

(١) الأستاذ الإمام يعني هنا نفسه ، فهو المتكلم في الدرس .

أقل من أن يستحسنه بعضهم ، وذلك يكفيني في مطابقته لمقتضى الحال .

اختلط علينا الأمر بالنظر في المعاني الاصطلاحية ، وكثرة البحث فيها ، وانقلب الغرض منها إلى مصاب نزل بنا في علومنا وعقولنا ، فانصرفنا بها عما طلب منها ، ولهذا يلزمنا أن نأخذ مأخذاً في العلوم يُسَهِّلُ تحصيلها ، وييسرها على الطالب ، وفي ظني انه إذا هذبت طرق التعلم لطالب علم البلاغة مثلاً أمكنه أن يبلغ الغاية منه في ثلاث سنين ، وكذلك من أراد بلوغ الغاية من النحو لا يحتاج إلى أكثر من ذلك بحيث يصير الطالب بعد هذا فصيحاً بليغاً ، مميزاً بين طبقات البلاغة ، شاعراً بمعنى إعجاز القرآن ، قادراً على فهم ما جاء في كلام السلف ، والانتفاع به فيما يصلح معاشه ومعاده .

وجملة القول ، إن الغاية من هذه العلوم العربية هي أن يبلغ المرء بالتعلم مبلغاً كان عليه العربي بالسليقة ، وهذا يحصل بما قدمناه .

ومما يلزم التنبه إليه في التعليم انه من حق الإنسان أن يفتح للطالب باب النظر بنفسه في العلوم ، فيبين له القاعدة مثلاً ، ثم يطالبه بما يراه في انطباقها على جزئياتها في العمل ، فإنه إذا عوده على أن يقول له كل شيء ، وأن يقوده في كل أمر ، وقف ذهنه عند حد الاتباع ، وصعب عليه أن يحقق أمراً بنفسه ، فعليه أن يطالبه بالعمل دائماً ، ويعلمه طريقة معرفة الخطأ والرجوع إلى الصواب . وهذا هو ما يطلب من الدرس بين يدي الأستاذ حتى تحصل ملكة التمييز . أما الوصول إلى غاية الكمال في العلم بقدر الإمكان فأمره موكول لاجتهاد الطالب بعد مفارقة الدرس . ووقوف ذهن هذا المنقاد في كل شأن عن معرفة الأمر بنفسه من الأمور المحسوسة ، فمن ذلك اني لما جئت هذا البلد كنت أمر من طريق قصيرة من محطة سكة الحديد إلى البيت ذهاباً وإياباً ، ولكن مصحوباً بالسيد «خليل أبو حاجب» ، وقد رأيت أمس واليوم أن أذهب إلى المحطة راجلاً فبعد أن مضيت في طريقي خطوات قيل لي : إن هذا ليس هو الطريق إلى المحطة ، فرجعت إلى طريق آخر ، وطال عليّ السير حتى صعب عليّ الرجوع إلى المنزل لتشتت الطريق عليّ ، واضطررت إلى سؤال بعض المارة عن المحطة فدلني عليها ، فإذا بيني وبينها أطول مما بيني وبين البيت الذي خرجت منه !! . ثم بعد رجوعي إلى البيت خرجت ماشياً مرة أخرى بعد نحو ساعة ، فاهتديت إلى طريق المحطة ، ولكن وقع لي اشتباه على مقربة منها ، ولم تُزَل الشبهة إلا بسؤال مار . أما بعد ذلك فإني لا أضل في هذه الطريق أبداً ،

فالعصمة من الضلال إنما تأتي في الحقيقة من عمل العقل وحده مع الاستعانة بما أرشد إليه المرشدون الراشدون .

* * *

الغاية من علم التوحيد

ومن العلم ما يكون العلم والعمل به واحداً ، كعلم الكلام ، فإن المقصد منه إنما هو تحصيل اليقين بمسائله ، كثبوت الوجود للّه تعالى ، وصفاته الكمالية التي ورد النص باثباتها له ، ودفع شبه الملحدين الذين ينكرون ثبوت شيء منها ، وثبوت بعثة الرسل صلوات اللّه عليهم أجمعين . فهذا العلم إن جرينا في تعلمه على التقليد في الدليل كالتقليد في النتيجة ، واكتفينا بفهم ما جاء من الأدلة على ألسنة من كتبوا فيها ، أعرضنا عن الغاية من وضعه ، لأن اليقين لا يحصل بقراءة الأدلة وخزنها في الأذهان ، وإنما يحصل بالاستدلال الصحيح ، وإدراك العقل وجه الدلالة من نفسه بدون تقليد ، وإنما يعد النظر في دليل المستدل السابق مُعِيناً ومُهَيِّئاً للعقل إلى تصحيح النظر ، فالطريقة التي يجري عليها أغلب المعلمين ليست من غرض علم الكلام في شيء .

ومن الناس من إذا سألته في أمر يتعلق بعقيدة من العقائد فاجأك بقوله : لا تقل ذلك فتكفر أو تعتزل ، أو ما أشبه ذلك ، وهو سلاح يتخذه المرتابون في عقائدهم ترساً يدفعون به ما يخشون من الشبه التي تزلزل عقائدهم ، ولكن هذا الدفاع يدل على ارتياب صاحبه في عقيدته قبل الدفاع ، فإن صاحب اليقين يرتاح إلى كل ما يسمع ، فإن وجد عند مخاطبه شبهة أمكنه أن يزيلها من نفسه . وتلك الطريقة من طرق الدفاع عن العقائد هي التي أغلقت دون المسلمين أبواب العلم ، فإنه كلما لاح نور إلهي في يقين الطالب يهديه إلى طلب الحق وجد من هذه الكلمات «**كالاعتزال**» و«الفلسفة» ما يخمد ذلك النور فيه ، ومن سوء الاستعمال في تعليم هذا العلم أن يُعلَّم الطالب متن

«السنوسية» مثلاً وهو لم يُحصِّل شيئاً من مبادىء العلوم : فيقال : إن الحكم العقلي ينقسم إلى ثلاثة أقسام ، الواجب ، والمستحيل ، والجائز : ثم تُقرَأ له هذه الأقسام بالتعاريف الاصطلاحية ، وهو على جهل تام بما يُعِدُّه لفهم معنى الحكم ، فضلاً عن أقسامه ، فيضطر الطالب إلى حفظ الألفاظ بدون أن يحصُل من معناها إلا على خيالات لا تنطبق على حقيقة .

وقد قال المتقدمون إنه لا ينبغي أن ينظر في علوم الكلام إلا بعد تحصيل مقدماتها، والاستعداد لفهم طرق الاستدلال ، حتى لا يضل الطالب بالنظر فيها وهو على جهل من وسائل فهمها ، فاللازم الأخذ بأحد أمرين إما أن يستدل الناس بالأكوان على مكونها ، وبالآثار على المؤثر فيها ، لينالوا بذلك اليقين فيما يعتقدون ، كل على حسب استعداده ، فالعامي مثلاً يستدل بما بين يديه من نبات وحيوان على حسب ما يظهر له في نظامها ، والسيد «علي الرضا»[1] يكتب كتاباً في التشريح يقول في آخره انه عرف بذلك وجود اللّٰه وإنه المنفرد بالتصرف في هذا الكون . وإما أن يعلم علم الكلام على طريقة تكفل الانتفاع به في الوصول إلى اليقين الذي لا يقبل التزلزل ، والإيمان الذي يملأ القلب خشية من اللّٰه ورجاء به وخضوعاً له .

وأما طلب هذا العلم بمجرد قراءة كتبه ، ومعرفة ما دلت عليه عبارتها فقط ، فهو في الحقيقة مما يصد عن اليقين ويبعد عنه ، خصوصاً إذا خاف الناظر من أن يقال إنه «فيلسوف» أو «معتزلي» أو ما أشبه ذلك ، فإنه لا يقين مع التحرج من النظر ، وإنما يكون اليقين بإطلاق النظر في الأكوان طولها وعرضها ، حتى يصل إلى الغاية التي يطلبها بدون تقييد ، كما هدانا اللّٰه إلى ذلك في كتابه ، فإنه يخاطب الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولا حد ، ووقوفنا عند حد فهم العبارة مضر بنا في العلم ، ومناف لما كتبه أسلافنا وما تركوه لنا من جواهر المعقولات في الكتب النفيسة المستودعة بخزائننا التي أصبحت اليوم أكلة للسوس ، وفراشاً للأتربة ، لا نمد أيدينا لنستلبه منها ، أو لننزعج السوس عن أكلها وإتلافها ! ! أنفس ما فيها فرّ من بين أيدينا ، ورصعت به خزائن أمم أخرى أصبحت الآن تنعت باسم النور ، ولو طلبناها لم نجدها ؟! .

وربما اعتذر الطالب عن قبول النصيحة بأنه لا مناص له عن صرف الزمان في

---

(١) السياق يرشح أنه اسم لطبيب كان من حضور درس الأستاذ الإمام بتونس .

قراءة المطول ونحوه مثلاً ، لأن غيره (ككتاب الصناعتين) ليس مما قرره القانون ، أو لأن الأستاذ لا يريده ، ولأنه يبغي أن يكون عالماً مشهوراً ، ولن يكون كذلك في نظر العامة إلا إذا قرأ المطول بحواشيه في المدة المعلومة ، أو في أطول منها ، ولكن هذا لا يصح عذراً ، ولست أريد بنفي العذر أن أحمل الطالب على عصيان أستاذه ، أو حرمانه مما يطلب من الشهرة بين قومه ، بل أريد أن أنبه إلى سلوك طريق وسط ، وهو أن يجمع بين الحضور في درس الأستاذ ، وتحصيل حقيقة العلم ، فيطالع درس الأستاذ ، ويضم إلى ذلك مطالعة شيء من الكلام البليغ ، وتحرير ما ينسج على منواله في تحصيل الملكة المطلوبة .

ولقد عرض لي ما يعرض للطلبة اليوم ، وكنت أتمنى أن ابلغ من الشهرة ما بلغه غيري ، فحضرت درس تلك الكتب مع اشتغالي باستكمال ما أردت من العلم . على أن طلب الشهرة في العلم إنما هو عند شعور النفس بشيء من الغرور ، فإذا أدركت حقيقة العلم نسيت شهوة الشهرة ، وأدركت انها بمنزلة من الجهل تقضي عليها بتحصيل العلم للعلم ، والعمل به في سائر الأوقات وعلى أي الحالات .

للطالب أو الأستاذ أن يستعيذ من هذه البدع التي يراها جديدة ، ويقول إنها بدع مخالفة لسنة السلف الصالح ، التي لا نريد أن نغيرها ، لأنها لو لم تكن مفيدة لما سنها أسلافنا ، فما لنا إلا إتباعها ، وعليه يكون مثلي كمثل ذلك المغني على مسمع جماعة من الأعاجم بكلام «مجنون ليلى» إلى طلوع الفجر ، فقيل له : باللّه عليك غن لنا عن ليلى ومجنونها ، فقال : إن الغناء كان في ذلك ، قالوا : ولماذا لم تُعْلِمْنا من قبل حتى نفرح !! . ذلك ان الطريقة التي نشير بها هي طريقة أسلافنا الأقدمين ، فالعود إليها إحياء لسنتهم ، وعمل بآثارهم ، فلما كان أسلافنا جارين في تعليمهم على تلك الطريقة القويمة كان نور العلم يضيء لهم سبلهم إلى سعادتهم في معاشهم ومعادهم ، وكانت الأمم التي تعد نفسها اليوم حاملة مصابيح العلم تستضيء بنورهم .

يقول القائلون : إن طلب تغيير الطرق اعتناء بالجديد ، وولوع بالبدع ، أو نزوع لها . وليس الأمر كذلك ، فإن الجديد والبدعة هو ما نراهم عليه ، وقد ظهر أثره وعم ضرره ، فالقديم الحقيقي هو ما ندعو إليه ولا نجاح لنا إلا بالتعويل عليه .

* * *

التوكل

بقيت مسألة نبهنا عليها في أول الأمر وهي إن الواحد منا إذا لاح في ذهنه نور إلهي يرشده إلى طريق العلم ، يأتيه معارض يقول له : إن الحالة الحاضرة هي ما قدر اللّه ، لا حيلة لنا فيها ، فالمرء متوكل على اللّه ، مسير بحسب القدرة ، فعلينا بتسليم أمورنا إليه تعالى ، والتوكل عليه ، وبذلك ينطفىء النور الذي لاح بذهنه ، وبعد أن كان خطر بباله داعي العمل ، ينزع للبطالة والكسل ، والعجب انهم يظنون هذه الوساوس من العقائد الدينية ، ولكن الدين يتبرأ منها ، وما للدين عدو أضر من أمثال هذه الاعتقادات .

نرى النبي ﷺ ، وهو إمامنا وقدوتنا ، لما بعث في دياجير الجهل ، وتحكم سلطان الشرور ، وقبائح العادات في الأمم التي أرسل إليها ، لم يقل إن ذلك ما أراده اللّه ، ولم يُسْلِم أمره للقدر بترك العمل ، وكذلك الصحابة رضي اللّه عنهم ، أصابهم من الآلام في السعي ما أصابهم ، مع انهم أشد الناس توكلاً على اللّه ، وأكملهم تمسكاً بالقدر في طريق الحق ، فإذا كانوا قدوتنا ـ كما هو الحق ـ فلماذا لا نقتدي بسيرتهم ، وننبذ وساوس المبطلين ، وهذيان العُمْي والمغفلين ؟ واللّه تعالى قد دعانا إلى طريق الحق والتواصي بالحق وبالصبر وحملنا على ذلك ؟ **﴿إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وتَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾**[1] ، فالذين فقدوا التواصي بالحق والصبر هم بلا شك خاسرون .

---

(١) العصر : ٢ ، ٣ .

الاحتجاج على ترك العمل بالقَدَر من عقائد الملحدين ، وقد جاء الكتاب الكريم بتشنيع اعتقادهم والنعي عليهم فيـه ، وقد حكى لنا ما كانوا يقولون من نحو ﴿**لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيءٍ**﴾[1] فلا يسوغ لأحد منا ، وهو يدعي أنه مؤمن بالقرآن ، أن يحتج بما كـان يحتج بـه المشركون . من يـزعم أنه متـوكل ، من المتظاهرين بالصلاح ، فهو كاذب زنديق ، لأنه إنما يدعي التوكل إذا طولب بأمر فيه مشقة عليه ، أو يجد في نفسه عجزاً عنه ، لا سيما إذا كان في مصلحة عامة ، فهو يرضى بما يجد ، فإذا رجع أولئك المتبتلون إلى منافعهم الخاصة لم تجد للتوكل في نفوسهم أثراً ، فهم يغشون ويخادعون ويحتالون لتحصيل ما به يعيشون ، أو ما به على الناس يظهرون ، وحينئذ لا يرجعون إلى التوكل ، فهم كذبة لا يصح الاقتداء بهم . وكفانا قدوة وخير أسوة سيد المتوكلين ﷺ فإنه كان على شدة توكله واعتصامه بالاستعانة باللّه جل شأنه لا يفتر عن العمل في الدعوة إلى الحق وحمل الناس عليه .

يحتج بعض الناس على كسلهم بقوله ﷺ «لو انكم تتوكلون على اللّه حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[2] ، ويفسرون ذلك بأننا لو ألقينا أثقالنا على اللّه ، وتركنا أسباب عيشنا في كسبنا ومأكلنا ومطبخنا ومرقدنا ، لرزقنا كما يرزق الطير ، ولكن هذا الفهم خطأ بعيد عن المعنى المراد ، ولولا ذلك لقال ﷺ : لرزقتم كما ترزق الطير تلبث في أعشاشها وتفتح أفواهها فتصبح خماصاً وتمسي بطاناً . يظنون أن هذا الحديث حث على البطالة وترك العمل ، مع انه جاء للحث على العمل . والكلام في معنى حق التوكل ظنه ترك السعي بالمرة وهو خطأ محض ، فالمراد من حق التوكل أن يعتمد الإنسان عـلى اللّه سبحانـه وتعالى ، مـع اتباع سننـه التي سنها في الطلب ، فيحصل الصالح من أسباب مطلوبه ما جعله اللّه سبباً ، ويدقق النظر في ذلك ما شاء حسبـما طالبه اللّه تعالى به ، ثم بعد أن يستعمل الأسباب يناجي ربه بسره : إني قد أتيت بما في استطاعتي ، على مقدار مـا وهبتني ، وما بقي ، ممـا لا اعلم ولا املك ، فهو في يدك ، فأعني بقدرتك ، ولا تحرمني معونتك . ثم يمضي في عمله . هذا هو حق التوكل . وقد أشار إليه ﷺ في قوله : «تغدو خماصاً وتروح بطاناً» ، فإنه أراد بذلك إن الطير إنما تسير في تحصيل معاشها على الإلهام الذي أودعه اللّه فيها ، ألهمها

---

(١) الأنعام : ١٤٨ .

(٢) رواه أحمد والنسائي والترمذي .

معرفة الأماكن التي فيها أقواتها ، كما الهمها الغـدو إلى تلك الأماكن لتصيب أقـواتها منها ، فهي تعمل بإرادتها على ذلك الشعور الذي منحه اللّٰه إياها . فحق التوكل لا يتم لنا إلا بأن نجري في أعمالنا على ما يقوم عندنا مقام الإلهام عند الطير ، والذي يقوم عندنا مقام الإلهام هو العقل ، فلا نكون متوكلين حق التوكل حتى نستعمل نفوسنا في الوسائل التي توصلنا إلى بلوغ الغاية من أعمالنا ، وأن نجيد الاستعمال حتى لا يقع لنا ضلال في طرق الوصول إلى المقصود . فالاعتماد على اللّٰه بهذه الطريقة كافـل نجاح الأعمال .

وبهذه الوسائل يسهل علينا التوفيق بين السعي والتوكل ، لا سيـما في تحصيل العلوم ، وهي كثيرة ، وأولاها بالتقدم فيما اعتقد علوم لساننا العربي ، فإن إصـلاح لساننا هو الوسيلة المفردة لإصلاح عقائدنا ، وجهل المسلمين بلسانهم هو الذي صدهم عن فهم ما جاء في كتب دينهم ، وأقوال أسلافهم ، ففي اللغة العربية الفصحى من ذخائر العلم وكنوز الأدب ما لا يمكن الوصول إليه إلا بتحصيل ملكة اللسان ، ولا تحصل هذه الملكة إلا بالعناية بتحصيل علومه على الوجه الذي سبق بيانه ، من الجمع بين معرفة القواعد من أسهل طرقها بدون التفات إلى عبارات المعبرين ، وبين العمل بالقول والقلم حتى يملك الطالب من اللسان ما كان يملكه العربي بسليقته ، وبدون ذلك لا نصل إلى فهم أسرار شريعتنا ، بل تسد في وجوهنا طرق الوصول إلى الحقيقة منها .

فعلى كل من له غيرة على ملته ان يبذل ما في وسعه لتسهيل طرق تعليم اللغة ، وتحصيل الملكة فيها قولاً وكتابة ، حتى يتكلم بها غالب أهلها ويكتبوا بهـا بالـطريقة الصحيحة ، لأن في انحطاط لغتنا انحطاطاً لنا ولديننا وعقائدنا وأخلاقنا ، وانحطاط ذلك مفسد لجميع أمورنا .

أقول قولي هذا ولا أريد به الزام سامعه بقبوله ، وإلا خالفت ما أدعو إليه من استقلال الفكر وحرية الرأي . على اني لا أظن أن في السامعين من يلتزم به لو طلبت الزامه ، ولكنه رأي أعرضه على مسامعهم ، فإن وجده السامع صواباً أخذ به ، وإلا فإنه لم يخش شيئاً سوى احتماله مشقة الحر في هذا المجلس ! ، وهـو قدر مشترك بيني وبينه ! واللّٰه يوفقنا إلى إصلاح أحوالنا في معاشنا ومعادنا ، وصلى اللّٰه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، والحمد للّٰه رب العالمين .

* * *

التربية[1]

إن الجمعية لم تأخذ على عاتقها أن تساعد كل عائلة فقيرة في الأمة ، لأن ذلك فوق استطاعتها ، بل وضعت لها قانوناً اتفق عليه جميع أعضائها ، وهو قد اشتمل على شروط معينة يجب أن تراعيها الجمعية عند إعانة من تريد إعانته من الفقراء .

ثم جعلت ، كما قدمتُ ، أهم مقصد لديها إصلاح حال الناشئين من أولئك الضعفاء المساكين بالتربية والتهذيب ، إذ الواجب علينا أن نعتني قبل كل شيء بما تعتني به الأمم الأخرى الناجحة قبل غيره ، وهي لم تعتن بشيء أكثر من التربية وتحسين أخلاق العامة وها نحن أولاء نرى فساد الأخلاق عاماً ومصائبه مشاهدة للجميع .

إذا رأينا مجالاً للفخار افتخرنا بآبائنا وأجدادنا الأولين، وإذا حاسبنا أنفسنا رجعنا للملامة والذم على آبائنا الأقربين ، وفي ذلك الفخار كبير العار ، وفي هذا اللوم عظيم اللوم ، لأننا نحن قد أهلمنا وقصرنا وأضعفنا أهم ركن وهو التربية . . أهملنا فتركنا ذلك الفخار التالد يهذب هباء منثوراً ، فلم نتدارك من آثاره شيئاً ، وزدنا الطينة من إهمال أسلافنا الأقربين بلة بإهمال آخر ، فقوضنا ما كان باقياً من آثار ذلك الفخار ، فكان لنا ذلك العار ، وهذا الشنار .

---

(١) ملخص خطاب للأستاذ الإمام في احتفال الجمعية الخيرية الإسلامية سنة ١٣١٤ هـ (سنة ١٨٩٦ م) نشرته (المنار) بالمجلد ٢٦ جـ ١ ص ٧٥٦ ـ ٧٥٩ في ٢٩ شعبان سشة ١٣٤٤ هـ ١٤ مارس سنة ١٩٢٦ م .

إن الإنسان لا يكون إنساناً حقيقياً إلا بالتربية ، وليست هي إلا عبارة عن اتباع الأصول التي جاء بها الأنبياء والمرسلون من الأحكام والحكم والتعاليم . وهي عبارة عن السعادة الحقيقية ، تعلم الإنسان الصدق والأمانة ومحبة نفسه ، فإذا تربى أحب نفسه لأجل أن يحب غيره ، وأحب غيره لأجل أن يحب نفسه .

إذا تربى الإنسان أحس في نفسه أنه سعيد بوجود الآخر معه ، ولكن نحن في وسط لا يحس فيه أحدنا إلا بأنه شقي بوجود غيره ، وقد ذهبت الثقة بيننا أدراج الرياح ، وخلفتها الشكوك والريب والظنون الأثيمة ، المولدة للوساوس والأوهام ، ولا شقاء للمرء أعظم من وجود ضميره في مثل هذا الشقاء والحسبان .

ولكن لو كنا متربين لأنْبَتَّ فينا إحساس واحد يؤلف بين شعورنا وحاجاتنا ، وحينئذ يحس كل فرد منا بأن عليه وظيفة يؤديها لنفسه ولغيره .

إن بلادنا ليست بلاد الجوع القتال ، ولا بلاد البرد القارس المميت ، ولا بلاد الشقاء التي لا ينال الإنسان فيها قوت يومه إلا بالعذاب الأليم . بل نحن في بلاد رزقها اللّه سعة من العيش ، ومنحها خصوبة وغنى يسهلان على كل عائش فيها قطع أيام الحياة بالراحة والسعة . ولكنها ويا للأسف !! منيت ، مع ذلك ، بأشد ضروب الفقر : فقر العقول والتربية .

ليست القوانين التي تفرض العقوبات على الجرائم وتقدر المغارم على المخالفات هي التي تربي الأمم وتصلح من شؤونها ، فإن القوانين لم توضع في جميع العالم إلا للشواذ والهفوات والسقطات ، وأما القوانين العامة المصلحة فهي نواميس التربية الملية لكل أمة .

ونحن على نموذج هذه التربية قد جرينا في خطة التعليم بمدارس الجمعية الخيرية ، ونتمنى أن يصبح هذا النموذج يوماً ما عاماً بين جميع أفراد الأمة المصرية . وإذا لم توجد التربية على مثل هذا النمط فلا حياة للأمة ولا سعادة .

إن العلم الحقيقي هو الذي يعلم الإنسان العلاقة الموجودة بينه وبين غيره من أفراد جامعته ، فهو إذاً يعلم الإنسان من هو ومن معه ، فيتكون من ذلك شعور واحد وروابط واحدة هي ما يسمونه بالاتحاد .

وسنة اللّه في خلقه أن توجد الروابط في العائلات . . ومنها إلى الفروع . . ومنها

إلى الأصول القومية ، ومنها إلى مجموع الأمة التي هو منها . إذاً فلا بد من الوقوف على كنه هذه الروابط ومعانيها ، وإذا تمكن هذا العلم من نفس الإنسان تعلّم كل شيء ، وبحث عن طرق النجاح في كل شيء .

ولكن . . كيف يوجد الاتحاد مع هذا الفساد الذي نشاهده عاماً في أخلاق الأمة ؟! وقدْ انعكست آية الوجدان ، فإذا الإنسان أجفى ما لديه الأقرب فالقريب فالبعيد فالأبعد ؟!

ألا إن الإتحاد ثمرة لشجرة ذات فروع وأوراق وجذوع وجذور هي الأخلاق الفاضلة بمراتبها . . فعلى المسلمين ، إذا أرادوا الإتحاد ، أن يربوا انفسهم تربية إسلامية حقيقية ليجنوا تلك الثمرة ، وبغير ذلك كل أمل باطل ، وكل الأماني أحلام أو أوهام ، وكل احتجاج بغير سعي عجز .

الناس في كل الأمم أكفاء في التمثيل ، ولا نقص في الدنيا إلا من جهة العقول والأخلاق ، وهي لا تكمل إلا بالتربية ، وما وراء ذلك من العلوم لا يبث فينا غير اللقلقة والهذيان .

إن **الجمعية الخيرية الإسلامية** قد شرعت في طريقة ابتدائية للتربية ، ولديها أمل أن تصل إلى الطريقة الانتهائية ، طريقة العمل ، لا طريقة العلم المعيبة التي نرى مثالها في الذين يأتون إلينا كأساتذة عندما نعلن عن حاجتنا لمعلمين وليس لديهم ما يؤهلهم للتربية والتهذيب ، ولست أقول ذلك قدحاً في طريقة التعليم الجارية بين ظهرانينا ، ولكنني أقول بالإجمال : إنها غير ملائمة لمنهاج جمعيتنا التي تحب أن تصلح شؤون الناشئين من الطبقات النازلة .

نحن نتمنى تربية بناتنا ، فإن اللّه تعالى يقول : **﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾**(١) **﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾**(٢) الآية . . إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تشرك الرجل والمرأة في التكاليف الدينية والدنيوية . فكان بذلك ترك البنات يفترسهن الجهل وتستهويهن الغباوة من الجرم العظيم .

---

(١) البقرة : ٢٢٨ .

(٢) الأحزاب : ٣٥ .

انظروا إلى المرأة حين تقول لابنها مثلاً ، إذا أرادت أن تمنحه شيئاً : خذ هذا وأخفه عن الأعين حتى لا يراك أخوك !! فكم من نقيصه علمته بهذا القول ؟! علمته ثلاث خصال هن الموبقات المهلكات : الأثرة ، والدناءة ، والسرقة . وربما ترضيه بإنكار ما اعطته إذا سأله أخوه ، فتعلمه بذلك أقبح خصال السوء والفساد وهو الكذب ، وقد لا يتعلم الطفل عندما يراد تمرينه على النطق والكلام غير ألفاظ السباب والشتائم القبيحة ، فيشب الطفل متعوداً على أن تلفظ شفتاه كل كلام قبيح ، لا يعبأ بماذا ينطق ولا يبالي بما يقول . وإنني أذكر حديثاً شريفاً أو أثراً بمعناه هو : إن الرجل لينطق بالكلمة لا يرى لها بالاً فيهوي بها في النار أربعين خريفاً[١] .

فتأملوا في فظاعة الأخلاق التي يشب عليها أبناء وبنات العامة من الأمة ، ولا خلاص لنا من هذه الورطة الشنيعة إلا بالتربية الكاملة الشاملة للأبناء والبنات ، وإن النساء الجاهلات والرجال الجاهلين لا يمكن أن تتكون من بينهما أمة ولا جمعية ، وعلى الخصوص إذا أصبحت العلائق والروابط الطبيعية مهددة بين الناس كما نشاهده بيننا الآن .

ولقد استنتجت بالإستقراء منذ كنت قاضياً في إحدى المحاكم الجزئية أن نحو ٧٥ في المائة من القضايا بين الأقارب بعضهم مع بعض ، بما لم يحمل عليه غير التباغض وحب الوقيعة والنكاية ، فهل من المعقول أن يكون الفساد في العلائق الطبيعية إلى هذا الحد من التصرم ، ونتساءل عن تصرم العلائق الوطنية ؟! هل يمكن بعد أن نفقد الروابط الضرورية بين العائلات أن نبحث عن الروابط للجامعة الكبرى ؟! أو ليس هذا كمن يطلب الثمر من أغصان الشجر بعد ما جذ أصولها وجذورها ، وقطع أوصال عروقها ، وغادرها قطع أخشاب يابسة ؟؟ .

اللهم إن كنا نريد الحياة والسعادة الدائمة فلنعمل لإصلاح شؤون الناشئين بالتربية المثقفة المهذبة ، ولنجهد أنفسنا في طريق استكمال الأخلاق الفاضلة . وكلما زدنا في

(١) روى الترمذي وابن ماجة والحاكم عن أبي هريرة قول الرسول ﷺ : «إن الرجل يتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار» . . وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قول الرسول : «إن الرجل : يتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يضحك القوم ، وإنه ليقع بها أبعد من السماء .» ـ أنظر هامش ص ٧٥٩ من (المنار) مجلد جـ ١ .

سبيل ذلك سعياً توفر لدينا حب تعضيد هذه الجمعية ، ونمت ثروتها ، فأدت وظيفتها للأمة كما ينبغي .

نسأل اللّه أن يصلح ما بيننا من فساد ، وأن يوفقنا جميعاً إلى ما به نجاحنا وفلاحنا وسعادتنا .

تعليم أولاد الفقراء[1]

ـ ١ ـ

إن الغرض الأول من تأسيس الجمعية : تربية أولاد الفقراء من يتامى وغيرهم تربية يحافظون فيها على عقائدهم وآداب دينهم وأخلاقه وأعماله ، ويستعينون بها على معايشهم وتحصيل أرزاقهم ، ومن عساه يوجد في مدارس الجمعية من أولاد الأغنياء فوجدوه غير مقصود بالذات . .

وإن الامتحان الذي يعرض أمام حضراتكم اليوم هو مطابق لهذا الغرض ومبني على هذا الأصل ، ولهذا لا تسمعون فيه ذكر لغة أجنبية ، ولقد كان من رأي بعض الأعضاء المؤسسين أن تعلم في مدارس الجمعية اللغات الأجنبية لأجل الترغيب في الإقبال عليها ، وقد كان الجواب عن ذلك الرأي : إنه ليس الغرض لمدارس الجمعية التجارة ، فنرغب الناس فيها بما ليس من موضوعها ، وإنما الغرض تربية أولاد الفقراء ، فلو أمكننا أن نلتقطهم من الشوارع ثم نرضي أولياءهم لفعلنا .

لم تنشأ الجمعية لمقصد أعلى من هذا في مدارسها ، كأخذ الشهادات والاستعداد للوظائف ، بل إن أهم مقاصدها أن تنزع من النفوس اعتقاد أن التعليم لا فائدة فيه إلا الاستخدام في الحكومة ، وهذا الفكر كان مستولياً على الأمة ، ونحمد الله أن كثيراً من

---

(١) كلمة الأستاذ الإمام في احتفال مدرسة مصر القاهرة ، إحدى مدارس (الجمعية الخيرية الإسلامية) بامتحان تلامذتها ، وكان الأستاذ الإمام رئيساً للاحتفال ، كما كان رئيساً للجمعية . وكان هذا الاحتفال سنة ١٣١٨ هـ سنة ١٩٠٠ م .

الناس قد انتبه لما في هذا الفكر من الخطأ والضرر . والجمعية توطن نفوس التلامذة في مدارسها على أن يعمل الواحد منهم عمل أبيه باتقان ، ويعيش مع الناس بالأمانة والاستقامة ، فولد النجار يكون نجاراً ، وولد الحداد يكون حداداً ، وولد الفراش يكون فراشاً ، والتربية والتعليم يساعدان كلاً على اتقان عمله وصناعته ، فيكون اكثر كسباً لأنه اكثر اتقاناً للعمل مع الأمانة والاستقامة .

ولا شك أن الإنسان إذا ظفر بفراش كاتب مهذب يزيد في أجره ، ويطول عنده مكثه ، ومن كان فيه استعداد لشيء أعلى مما كان عليه آباؤه ، وظهر عليه ذلك ، فإنه ينبعث إليه من نفسه ، والجمعية تساعده عليه ، وقد حصل هذا لبعض التلامذة ، والجمعية مهتمة بإنشاء قسم صناعي في مدارسها ، لأنه من مقاصدها الأصلية .

هذا الاحتفال بامتحان تلامذة مدارس الجمعية لم يكن بمواطأة ، ولا كان تركه في الماضي إلى هذه السنة ـ وهي الخامسة من سني المدارس ـ عن قصد وإنما هو شيء جاء من نفسه واقتضته طبيعة العمل ، فمثل الجمعية فيه كمثل الطفل الذي تظهر فيه بعد خمس سنين ثمرة العلم . وقد ظهرت الرغبة فيه قبلاً من أعضاء الجمعية ، على ثقتهم بحسن النتيجة لما فيه من ظهور ثمرة العمل التي يسر بها العامل ، وتكون مدعاة لمساعدة إخوانه الآخرين له ، ومسرة من لم يستطع المساعدة ، فإن كل مسلم يسره ان يرى إخوانه المسلمين موفقين للأعمال النافعة للأمة التي لا يستطيعها هو . وهذا هو السبب في دعوة حضراتكم إلى هذا الاحتفال وشكرنا لكم حسن الإجابة والقبول .

ـ ٢ ـ

إن غرض [١] الجمعية من تربية هؤلاء الأطفال الفقراء هو تهذيب نفوسهم ومساعدة كل واحد منهم على إحياء صناعة والده وترقيتها ، إلا أن يرى نفسه مستعداً لصناعة أعلى منها وأرقى . . . إن الجمعية تساعد بالمال من يتخرج من مدارسها ويشتغل بصناعة والده مدة سنة ، وإنها تعلم التلامذة بأنهم لوالديهم أولاً ، ثم للأقربين ، ثم للأمة ، وتعلمهم احترام آبائهم وأمهاتهم ، وتنزع من نفوسهم الميل إلى وظائف الحكومة . .

---

(١) وهذا خطاب الأستاذ الإمام في الاحتفال الثاني بامتحان تلامذة مدرسة الجمعية هذه في ٣١٩ هـ . ١٩٠١ م .

إن من يتعلم في المدارس الأخرى ، وفي أوروبا ، يصبح مشغولاً بالأماني الباطلة التي لا تدرك محتقراً لوالديه وأهله وللناس ، يقضي معظم أوقاته في الملاهي ومعاهد البطالة واللغو في الغالب .

إن الأمة في حاجة إلى تربية الطبقات الدنيا وهي لا ترتقي ولا تسعد إلا بذلك ، لأنهم هم الذين يقومون بمعظم الشؤون وأكثر الحرف التي لا يستغني عنها الخواص ولا يهنأ لهم عيش ما دام أصحابها فاسدي التربية فاقدي الآداب .

إن جراثيم الخير التي تلقيها مدارس الجمعية في نفوس التلامذة لا بد أن تنمو وتغلب جراثيم الشر التي أصيبوا بها من البيئة التي يعيشون فيها ، لأن الحق دائماً يغلب الباطل والخير يصرع الشر ، إلا إذا اضمحل أنصار الحق ودعاة الخير وضاعوا في كثرة الأشرار .

وربما ينازعني بعض السامعين في هذه القاعدة مستدلاً باستحواذ الشرور على الناس ، واكتفي بأن أجيب هؤلاء بكلمة واحدة وهي : ائتوني بعشرة من دعاة الخير في القوم الذين تحكمون بفسادهم وتغلب جراثيم الشر فيهم على جراثيم الخير . . . . .

أما مصادر الجوائز التي وزعت اليوم على نجباء التلامذة فإن لها مصدرين .

أحدهما : إن اللجنة التي تألفت لإيجاد أثر يخلد ذكر المرحوم **علي باشا مبارك** ، لخدمته المعارف ، كانت ارتأت أن تقيم له تمثالاً في نظارة المعارف ، ثم رجعت عن هذا الرأي ، لأن معظم الأمة المصرية يعد التماثيل إهانة لا تكريماً ، ويسمون التمثال : «الصورة المسخوطة» أي الممسوخة . وترجح للجنة أن تعطي هذه الدراهم للجمعية الخيرية تستغلها وتجعل غلتها في كل سنة جوائز للنابغين من تلامذة مدارس **الجمعية الخيرية** ، بشرط أن يؤلف أحد أعضاء الجمعية كتاباً في تاريخ علي باشا ومآثره يوزع مع الجوائز أيضاً ، ويكون هذا احسن ذكرى وأثر . . وقد تأخر تأليف هذا الكتاب في هذه السنة فرأينا من التعجيل بالبر أن توزع الجوائز ، وفي العام القابل يوزع الكتاب إن شاء اللّه تعالى ، وهذا ما أصاب مدرسة **القاهرة** من هذه الجائزة يعطى لأنبغ التلامذة في العربية .

وأما المصدر الثاني : فهو ان الأستاذ الشيخ **عبد الرحيم الدمرداش** تبرع بعشرة

جنيهات للجمعية شكراً للّه تعالى على شفائه من مرض ألم به وجعلها دائمة في كل سنة .

ـ ٣ ـ

لا بد[١] أن يكون بعض الحاضرين ممن يشتغلون بالتربية ينتقد علينا شيئاً أنا أوافقهم على انتقاده قبل أن اذكره واجيب عنه وهو أن يحفظ التلاميذ مقالات في الدين والآداب كالذي سمع منهم الآن فيها من الحكم والمعاني العالية ما لا ترتقي عقولهم إلا بالإحاطة به ، وما تعجز ألسنتهم عن بيانه بغير العبارة المحفوظة .

أعيد القول بأن هذا الانتقاد صحيح وأن حشو الأذهان بحفظ ما لا يفهم يفسدها ، ويذهب باستعداد العلم منها ، ومدارس الجمعية تهتم بهذا الأمر ، فنحن نؤكد دائماً على المعلمين أن لا يعلموا التلاميذ كلاماً لا يفهمونه ، والعمل على هذا ، والتفتيش من ورائه لتحقيقه .

وأما ما سمعتم فقد جاء من باب الاستثناء لغرض صحيح يوافقنا عليه المنتقدون بادي الرأي ، ذلك أن التلميذ يخرج من مدارسنا إلى العمل غالباً ، ولا ثقة لنا بأنه يسمع في خطب المساجد ولا في دروسها شيئاً من حكم الدين وأسراره التي تبعث النفوس على العمل بأحكامه ، كالذي سمعتم من حكم الصوم ، وكذلك لا نرجو أن يجد معهداً من معاهد العلم يسمع فيه شيئاً من مباحث التربية وعلم الاجتماع والآداب العالية بالأولى ، فرأينا أن يحفظ كلٌ تلميذ بعض مقالات من هذه المقاصد يُجْتَهد في إفهامه معانيها بالجملة كما تقتضيه سنّه ، ويوكل الفهم التفصيلي إلى حوادث الزمان ، كبذرة وضعت في أرض صالحة يتعاهدها الزمان بالسقي والتغذية حتى تثمر الثمرة الصالحة إن شاء اللّه تعالى .

إذا أجلتم النظر في أحوال المسلمين ترون أن ترك تعليم الدين على هذا الوجه من بيان فوائده وحِكَمه ، وغرسها في النفوس ـ (وهو الفقه الحقيقي في الدين) ـ قد أدى إلى تركه من بعض المسلمين ، والإتيان به على غير وجه من بعض آخر . ولنضرب لذلك

---

(١) وهذا خطاب الأستاذ الإمام في الاحتفال الثالث بامتحان مدرسة القاهرة التابعة للجمعية الخيرية في سنة ١٣٢٠ هـ سنة ١٩٠٢ م .

مثلاً بفريضة الزكاة التي حفظ تلاميذنا مقالة في فوائدها في العام الماضي ، كما يذكر من حضر احتفاله ، وفريضة الصوم التي سمعتم فوائدها وهي التي تلي الزكاة في الترتيب .

الزكاة ركن من أركان الإسلام ، وبذل المال في إقامة هذا الركن يفضل غيره من أنواع البذل ، ولذلك قرنت الزكاة بالصلاة في القرآن في أكثر المواضع ، وقد جعل اللّٰه إنفاق المال في سبيله آية الإيمان ، وجعل تركه علامة النفاق والكفران ، وقاتل **الخليفة الأول** ، بموافقة الصحابة كلهم ، رضي اللّٰه عنهم ، مانعي الزكاة ، ومع هذا كله نرى المسلمين قد هدموا هذا الركن ونسوه ، حتى كأنه ليس من الدين بالمرة . . . . .

والصوم . . . . إن بعض المسلمين تركوه وإن الذين يصومون لا يؤدون هذه الفريضة على الوجه الذي أراده اللّٰه تعالى بقوله ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُم الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[1] . . . . .

إن مدارس الجمعية وضعت لتعليم أولاد الفقراء ما لا بد منه لكل إنسان ، وهو أن يحسن القراءة بلغة أمته ، ويعرف ما يجب عليه من أحكام دينه ، ويتربى عليه عملاً ، والحساب والتاريخ وتقويم البلدان[2] وطرفاً من مبادىء التاريخ الطبيعي ، وحفظ الصحة ، وأدب المعاشرة ، ولا بد عندنا من تعليم هذه الأشياء على وجه مفهوم في مدة أربع سنين ، وسن التلميذ لا يتجاوز الخمس عشرة سنة . وليس عندنا لغة أجنبية ، لأننا لا نعد التلامذة للوظائف والشهادات ، وإنما نعدهم للعمل بالحرف والصنائع ، وما ذكرنا من التعليم لا يستغني عنه صانع ولا زارع .

كنت أحب أن يكون هذا التعليم عاماً في البلاد ، ومنبثاً في جميع الطبقات ، ثم يتسنى بعده لكل طبقة أن تتناول من العلوم والفنون واللغات في المدارس الثانوية والعالية ما هي مستعدة له . ولكن المانع للمشتغلين بالتعليم والتعلم من التوجه إلى سلوك هذه الطريقة أمران :

أحدهما : أن رغبة الناس منصرفة إلى جعل التعليم ذريعة لأخذ الشهادة ، لأنها شرط للاستخدام في الحكومة ، والسبب في رغبة الناس في خدمة الحكومة هو ان الناس

---

(١) البقرة : ١٨٣ .

(٢) أي علم الجغرافيا .

لعدم ثقتهم بأنفسهم ولجهلهم بطرق الكسب الواسعة ، وضعف همتهم عن سلوكها ، يود كل واحد منهم أن يكون له مورد من الرزق مضمون يعتمد عليه ، وإن كان وشلاً[1] آسناً . فإذا استخدم بمائة وخمسين قرشاً ، ولو في أعلى الصعيد أو السودان ، ينام آمناً مطمئناً ، ويلقي هم الدنيا وراء ظهره ، إلا إذا تيسر له السعي في شفاعة تزيد في راتبه ، أو ينتقل بها إلى مكان غير مكانه ، ولو استعمل مواهبه التي منحه اللّٰه إياها ، وكدح في طلب الرزق من طرقه الواسعة ، لا سيما التجارة ، لجاز أن يكون من أهل الثراء الواسع . .

أما ثاني السببين : فداؤه أقتل ، وعلاجه أعسر ، أتدرون ما هو ؟ هو قلة المعلمين والمربين ، فإننا نحتاج في التعليم الابتدائي إلى من يُبْدىء التلميذ في السنة الأولى (بألف باء) فلا تنتهي السنة إلا وهو يقرأ ويكتب يعرف ما ذكرناه آنفاً وعُرض عليكم نموذجه ، والذين يحسنون هذا النوع من التعليم قليلون ، وقد عزمنا على تجديد مدرسة للجمعية ولكننا عند المذاكرة فيها كنا نشكو من قلة المعلمين . إننا نحتاج معلماً لإحدى مدارسنا فنعلن ذلك في الجرائد فيجيئنا الراغبون بالعشرات ، فنمتحنهم ونختار من نراه الأمثل وإن لم يكن على حسب الرغبة تماماً ، ثم يتمرن على طريقتنا في المدرسة مع طول التنبيه والتفتيش ، ومثل هؤلاء يجدر بنا أن نسميهم معلمي الضرورة . . .

ذكرت هذا لأوجه نفوس العلماء والوجهاء إلى تلافي هذا الخطب ومداواة هذه العلة التي هي أم العلل ، وذلك بإنشاء مدرسة لتخريج المعلمين ، ولا بد في هذا من سعي العلماء ومساعدة الأغنياء .

* * *

ـ ٤ ـ

المدرسة[2] تعلم المبتدئين القراءة والخط والحساب ومبادىء العربية ، وتربيهم على

---

(١) قليلاً .

(٢) وهذه الخطبة القاها الأستاذ الإمام في حفل افتتاح المدرسة الابتدائية بالمحلة الكبرى ، وكانت تابعة للجمعية الخيرية التي يرأسها الأستاذ الإمام ، ولكن هذه المدرسة لم تكن خاصة بأبناء الفقراء ، إذا كانت منشأة بواسطة أغنياء المحلة لأبنائهم أولاً ولأبناء الفقراء بالتبعية . . . ومن هنا جاء اختلاف منهجها واشتماله على اللغة الأجنبية ، على عكس مدارس الجمعية ، وهو ما أشار إليه الأستاذ الإمام في كلمته هذه . ولقد تم حفل الافتتاح هذا في سنة ١٣٢٢ هـ ـ ١٩٠٤ م .

الأعمال الدينية والأدبية ، تعدهم بذلك للعيشة الصالحة في أنفسهم ومع الناس الذين يعيشون معهم ، وهذه المبادىء لا يستغني عنها إنسان فقيراً كان أو غنياً ، فالفلاح يحتاج إلى مكاتبة بعض الناس ، فإذا كتب بيده أو قرأ ما يُكْتَب إليه ، وحسب ما يبيعه ويشتريه بنفسه فهو خير له من الاستعانة بغيره على ذلك ولهذا التعليم فائدة أعلى من الاستعانة على المعيشة وهي إرتقاء العقل واستعداده لفهم المصلحة وتمييزها من المفسدة ، فإننا نرى كثيراً من الناس يقع التنازع بينهم فيتعدى بعضهم على بعض حتى تفنى ثروة الفريقين في التنازع ، وإذا حاولت إقناعهم بأن هذا ضار ، وان الخير والصواب في خلافه ، لا يسهل عليك ذلك لأنهم لا يفهمون .

وأهم ما تقصده الجمعية من التربية في مدارسها تنشئة المتعلمين على الفضائل كالصدق والأمانة اللذين عليهما مدار السعادة ، ما نجحت أمة إلا بهما ، ولا هلكت إلا بفقدهما ، وقد حث الإسلام وجميع الأديان على هذين الخلقين ، ونهى عن الكذب والخيانة أشد النهي ، وإننا مع ذلك نرى الكذب والخيانة فاشيين في الناس إلى حد سلبت معه ثقة الناس بعضهم ببعض ، وفقد الثقة مؤذن بالخراب والدمار .

هذا التعليم سلم يرتقي عنه الغني إلى التعليم العالي ، ويجعل الفقير على مقربة من الغني في الفكر والخلق ، فإما أن يجد فيلحقه ، وإما أن يحسن الاستفادة منه بخدمته ومساعدته في أعماله بالصدق والأمانة ، فهذا التعليم لا يستغني عنه أحد حتى الحمّار والحمَّال .

وتُعَلِّم المدرسة أيضاً مبادىء العلوم ، ولغة أجنبية لإعداد من يريد خدمة الحكومة لها ، وهذا ما لا ترغب فيه الجمعية نفسها ، لكنه من حاجة الناس ، وإنما رغبتها في الاستعانة به على تعلم الصناعة لمن يريدها . ولها الرجاء بهمة وجهاء المحلة وأهل الغيرة من أغنيائها في تأسيس قسم صناعي في هذه المدرسة ، فإن المحلة بلدة كانت معروفة بالصناعة ، وقد وعد صاحب السعادة أحمد باشا المنشاوي بأنه مستعد لمساعدة الجمعية على إنشاء القسم الصناعي فلم يبق إلا اهتمام الوجهاء الحاضرين بالاكتتاب في جميع المراكز وجمع المال الذي يمكن من إتمام العمل .

وقد علمت بأن أهل المحلة الكبرى ثلاثون ألفاً ، أو يزيدون ، وهي قاعدة مركز عدده كثير ، وليس فيها إلا مدرسة للقبط وأخرى للأميركان ، وانني قد رأيت في بعض سياحاتي في البلاد الأجنبية مدينة عدد سكانها ستة عشر ألف نسمة ، وقد انشأ الأهالي

فيها مدرسة كلية تعلم فيها جميع العلوم العالية بمساعدة أهل المركز الذي هي قاعدته ، أنفقوا عليها ملايين الفرنكات ، على أن فيها عدة مدارس ابتدائية ، وفي كل قرية من قرى ذلك المركز مدرسة ابتدائية ، فنرجو أن نبلغ من مجاراة أمثال هؤلاء الأحياء أن ترتقي مدرستنا هذه ويكون فيها قسم صناعي ، وأن يكون لنا في القاهرة مدرسة كلية ، فإن القطر المصري كله لم يبلغ من التقدم في العلم أن كانت فيه مدرسة كلية تعلم فيها العلوم العالية .

ـ ٥ ـ

إنكم [١] انفقتم في خير سبيل ، وتاجرتم أربح متاجرة ، فإن هذه المدرسة ملككم ، لو أن العلم يملك ، وما الجمعية الخيرية إلا نصيرتكم في عملكم ، وهي لا تني في معاونتكم بإذن اللّٰه ، وتؤمل أن تكونوا سواعدها وأعضادها . . .

إن ما فرض على التلامذة الموسرين من أجر التعليم ، (وهو ثلاثمائة قرش سنوياً) ليس مما يضيق به صدر الكريم ، وتعلمون أن نفقة التلميذ في المدارس الأخرى تبلغ ثمانية جنيهات في السنة أو تزيد ، ولو أنكم دفعتم في مدرسة هي لكم ضعف ما تدفعون في مدارس غيركم لكنتم الرابحين ، لأن فرقاً بين من ينفق في بناء دار هي له ومن ينفق على دار مستأجرة . . .

لا نريد أن نخاطب الموسرين الذين أغوتهم شدة الغنى ، وأسكرتهم خمرة الشباب ، فقذفوا بأموالهم في هوة الضياع ، وصرفوا الطارف والتليد فيما يضر وما لا يفيد ، فأولئك كالأنعام بل هم أضل . وإنما نخاطب العقلاء من الأغنياء فنقول : إذا كنتم تقتصدون لتوفروا من مالكم ما تتركون لأولادكم حتى لا يكونوا فقراء تعساء ، فقد سعيتم في طريق محمود مهَّده الإسلام ، ودعا إليه النبي عليه الصلاة والسلام ، وإن ما تصرفونه في سبيل العلم والتربية هو من هذا القبيل أيضاً ، لأنه توفير لسعادة الأبناء ،

---

(١) في يوم السبت ١١ أكتوبر سنة ١٩٠٢ م افتتح الأستاذ الإمام ، في بني مزار ، بمديرية (محافظة) المنيا ، مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية ، والقى في حفل الافتتاح هذه الكلمة التي نشرتها (المنار) في الجزء الرابع عشر من سنتها الخامسة (١٦ رجب سنة ١٣٢٠ هـ ـ ١٩٠٢ م) ص ٥٥٤ ، ٥٥٥) .

بل لا سعادة بالمال إذا لم تصحبه تربية نافعة وعلم صحيح يهتدي بهما المتمول إلى كيفية الانتفاع ، بل لا يكون الإنسان سعيداً إلا إذا كان عائشاً مع مهذبين سعداء . هب انك تركت لولدك ما تبتغي من الثروة ، وهو في موطن خيمت عليه الجهالة ، واستحوذت على أهله الضلالة ، أتراه يعيش سعيداً بين الأشقياء ؟! ويحيا غنياً بين الفقراء ؟! ولا تمتد إليه يد الغواية وتغلب عليه طبائع السفهاء ؟! وتستهويه شياطين الأهواء ؟!.. كلا .. إن المرء بقرينه ، ورجل الخير بين ابناء الشرور على خطر . فمن أنفق من ماله للعلم والتربية فهو الذي يوطىء لذريته أكناف السعادة ، ويوطد لهم دعائم المعيشة الراضية ، لأنه يصلح لهم مباءة يعيشون في ظلالها آمنين .

إن السنة (١) الإلهية في الترقي أن يبدأ الشيء صغيراً ثم يترقي بالتدريج ، وان الأمور التي تنشأ كبيرة فالغالب أن ينحل عقد نظامها في القريب العاجل ، والعياذ بالله تعالى . . .

إن الجمعية الخيرية الإسلامية لم تحدد سن التلميذ في نظامها عبثاً ولا تقليداً ، ولكن حددته لفوائد سامية .. تعلمون بالضرورة أن ليس من دخل هذه المدرسة يكون تحت لواء الوظائف ، بل سيكون منهم التاجر والزارع والصانع . فإذا دخل التلميذ المدرسة في الثامنة ، واتم التعليم في أربع سنين أو خمس يخرج منها غضاً رطيباً مهيئاً للدخول في أي عمل شاء ، وإذا تقدم في السن ، ودخل المدرسة بعد العاشرة عاقه يبس عوده عن أن يلين للأعمال الصناعية أو الزراعية ، وربما عجز أبوه عن إتمام تعليمه وهو عاجز عن الاشتغال بأعمال المعاش فيضيع بين عجزين .

إن علي (٢) باشا مبارك أبطل بمنع ضرب التلامذة التربية بالإهانة والقسوة ، وجعل

---

(١) أشارت (المنار) إلى بعض أغراض خطاب الأستاذ الإمام دون ذكر لفظة ، والموضوع من تلخيص وعرض «حسن أفندي عبد الرزاق» وهنا كان حديث الإمام عن أسباب اقتصار المدرسة هذا العام على فصول السنة الأولى فقط . . . وعدد لذلك أسباباً منها ما سيذكر . . .

(٢) في حفل لمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بالقاهرة في أول يوليو سنة ١٩٠٣ م بتوزيع جوائز علي باشا مبارك ، ألقى الإمام كلمة أشار فيها إلى مآثر علي مبارك على التعليم ، ونشرت (المنار) الكلمة في الجزء الثامن من سنتها السادسة (١٦ ربيع الثاني سنة ١٣٢١ هـ ١٢ يوليو سنة ١٩٠٣ م ، ص ٣١١ ، ٣١٢ . (وكانت قيمة هذه الجوائز ألف قرش تبرع بها الشيخ عبد الرحيم الدمرداش) .

التلميذ مقروناً بكرامة النفس ، وهى قوام التربية ، فإن المعاقبة على الذنب بالإهانة والقسوة لا نؤدب النفس لأنها تخفي الأخلاق الذميمة ولكنها لا تمحوها ، بل تزيدها وتقويها ، فتكون كامنة ، حتى إذا تسنى لها الظهور تظهر في أقبح الصور . وأما الذي يمحو الأخلاق الذميمة فهو الإقناع بقبحها وضررها ، وحسن المعاملة ، وتكريم النفس ، حتى تتكرم عن الشوائن وتأنف من كل ما ينافي الشرف .

وأما الأمر الثالث[1] فهو إنشاء مدرسة دار العلوم التي تسمى الآن «مدرسة المعلمين الناصرية» . . . إن تلامذة هذه المدرسة يؤخذون من طلاب العلم في الأزهر ، فيضمون إلى العلوم الأزهرية ، جملة صالحة من العلوم الكونية التي تقرأ في المدارس . وقد تخرج في هذه المدرسة كثيرون خدموا المعارف في مصر خدمة نافعة ، فمنهم معلمو العربية في جميع مدارس الحكومة وبعض المدارس الأخرى ، ومنهم المشتغلون في المعارف بالتفتيش في المدارس والكتاتيب ، وهم محافظون على زيهم المصري ، زي أهل العلم الديني ، ولهذه المحافظة تأثير عظيم في التربية والتعليم .

---

(١) ذكر الأستاذ الإمام في افتتاح كلمته أثر علي باشا مبارك في تعميم التعليم في المديريات . . وأشارت (المنار) في تقديمها لكلمة الإمام إلى أن هذا الأمر هو أول الأمور الثلاثة التي ذكرها الإمام لعلي مبارك ، ولكنها لم تورد لفظه فيه .

التعليم العام[1]

لا تنفق الحكومة المصرية على التعليم العام إلا مبلغ مائتي ألف جنيه ، مع أن في وسعها إنفاق أكثر منه ، لأن دخلها قد بلغ في الميزانية اثني عشر مليوناً من الجنهيات ، وهي لا تنفك عن زيادة أجـور التعليم التي تتقاضها من الناس على تعليم أولادهم من حين إلى حين ، وقد بلغت من ذلك إلى حد أن صارت تربية الأولاد عبئاً ثقيلاً حتى على أوساط الناس . وإذا استمر هذا التزايد أمسى التعليم زخرفاً لا يتسنى التحلي به إلا في بيوت الأغنياء فقط . ومن المبادىء التي يجري عليها القابضون على أزمة أمورنا أن لا حق لأولاد في نوع ما من التعليم ، فهم يجاهرون به كل المجاهرة ، ويبدو منهم على الدوام في حديثهم وتقاريرهم وكتبهم .

نعم . . إنه من المسلم إلى حد محدود أن الوالد الذي يخصص جزءاً من دخله لتربية أولاده يهمه أن يحصل من التربية على مقابل هذا الجزء ، وأنه يـراقب ولده في التعلم مراقبة فعلية ليحمله على الاستفادة من تعليم يكلفه كثيراً من النفقات ،

---

(١) من رسالة كتبها الأستاذ الإمام إلى «الكونت دي جريفل» «مسيو جورفيل» باللغة الفرنسية ، في صورة «وصية» . . ونشرها «جريفل» في كتابه (مصر الحديثة) . . وتاريخ كتابة الإمام لوصيته هذه هو ٦ يونيو سنة ١٩٠٥ م ، أي قبل وفاته بما يزيد قليلاً عن شهر . انظر (المنار) مجلد ٢٣ جـ ٨ ص ٥٩٦ في ٢٩ صفر ١٣٤١ هـ ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٢٢ م (محاضرة منصور فهمي بـاشا في ذكرى الأستاذ الإمام) . . وكذلك (المنار) مجلد ١١ جـ ٢ ص ١٠٥ ـ ١٠٩ في ٢٩ صفر سنة ١٣٢٦ هـ أول إبريل سنة ١٩٠٨ م .

ولكن الذي لا يسلم به أحد ولا دليل عليه من التجربة هو أن يستنتج من هذا ان كل تعليم مجاني يكون عقيماً ، فإنه مما تنبغي ملاحظته ان التعليم في المدارس المصرية من عهد محمد علي إلى سنة ١٨٨٢ كان مجانياً في كل هذه المدة ، ولم يمنع هذا أن تنتج تلك المدارس عدداً من الرجال المتعلمين تعليماً حقيقياً ، ومعظمهم من الفقراء ، ولم يضر أوروبا أن التعليم مجاني في كثير من البلدان ولكن أي فائدة لنا من الاستشهاد بما غبر من الاختبار في مصر وما حضر من الاعتبار بأوروبا ما دام الذين بيدهم مقاليد حكومتنا مصممين على أن لا يقبلوا إلا ما يهديهم إليه فكرهم .

يشق على الإنسان أن يرى كل سنة مشهد توارد الآباء والأمهات على نظارة المعارف يقودون صغارهم إليها سائلين التصدق عليهم بقبولهم مجاناً في مدارسها معتذرين بفقرهم ، ومدلين بما يكون بعض أفراد أهلهم قد أدوه إلى الحكومة من الخدم ، مؤملين على الدوام أن العناية الإلهية والمرحمة القلبية تلين صلابة ذلك المبدأ ولو مرة واحدة ، ولكنهم يضطرون في آخر الأمر إلى الرجوع إلى بيوتهم أو إلى قراهم خائبين خائري العزائم غير راضين ، لا يدرون ماذا يفعلون بهؤلاء الأبناء الأعزاء الذين تمنوا لهم أماني كثيرة . . .

ما حيلتنا ؟! . . . يقولون لنا : إن بين ظهرانيكم من ابناء وطنكم أغنياء في وسعهم إنشاء مدارس مجانية للفقراء . . آه ، واأسفاه !! نعم . . إن أبناء وطننا في وسعهم القيام بهذا العمل ، وبأحسن منه ، ولكن مصر لا يوجد فيها محبون للإنسانية وأخص من بينهم محبي الإنسانية المستنيرين ، قد يوجد أحياناً بعض منهم يشيدون مساجد لا حاجة إليها لكثرتها عندنا ، وبعض آخر يقف جزءاً من عقاره على وليّ ، ولكن همة الناس وانبعاثها إلى العمل لم توجه نحو التعليم ، فأمتنا أقامت زمناً طويلاً تعتمد على الجماعة في كل شيء ومن أجل كل شيء .

أما إذا نحن نظرنا إلى هذا التعليم الذي تقوم به الحكومة المصرية ، من جهة قيمته ، فإننا نضطر إلى القول بأنه قلما يكون رجلاً في قدرته أن يمارس حرفة تقوم بمعيشته ، ويستحيل أن ينشىء عالماً أو كاتباً أو فيلسوفاً ، فكيف بالنوابغ في شيء من هذا ؟!

وليس للتعليم العالي بمصر سوى مدرسة الحقوق ومدرسة الطب ومدرسة المهندسخانة . . أما جميع العلوم الأخرى التي تتألف منها معارف الإنسان ، فالمصري قد

يأخذ منها بعض معلومات سطحية في المدارس التجهيزية ، ولكن يكاد يكون من المتعذر عليه أن يدرسها دراسة وافية ، بل يقضى عليه غالباً أن يجهلها . .

فعلم الاجتماع بفروعه التاريخية والأخلاقية والاقتصادية ، وعلم الفلسفة القديمة والحديثة ، وعلم آداب اللغة العربية واللغات الأوروبية ، وكذلك الفنون الجميلة لا تعلم بالكلية في مدرسة ما من المدارس المصرية .

فكان فينا القضاة والمحامون ، والأطباء والمهندسون ، ممن تختلف درجاتهم في العلم ، ولكننا لا نجد في طبقة منهم ذلك الباحث ولا ذلك المفكر ولا ذلك الفيلسوف ولا ذلك العالم ولا ذلك الإنسان الذي يمتاز ببعد الفكر والنظر وشهامة الفؤاد وكرم السجايا الذي أوقف حياته كلها على السعي وراء مطلب من مطالب الكمال .

وصفوة القول إن خطة الحكومة التي رسمتها لنفسها ، ويظهر أنها مصممة على أن لا تحيد عنها تتلخص في أمور ثلاثة :

أولها : مساعدة التعليم الابتدائي في المدارس الصغيرة المسماة بالكتاتيب ، حيث تعلم الكتابة والقراءة وقواعد الحساب .

ثانيها : التقليل من نشر التعليم في الأمة ما أمكن .

ثالثها : حصر التعليم الثانوي والتعليم العالي في أضيق الدوائر .

المصريون موقنون بأن من بيدهم مقاليد أمورهم العمومية لا يعملون كل ما في وسعهم لترقية الناشئين اخلاقاً وعقولاً ، وهذا الرأي مما يدعو إلى الأسف والأسى من جميع الوجوه ، فإنه سيحدث في الرأي العام تياراً من الاستياء إن لم يكن عاجلاً فآجلاً ، وليت شعري ماذا يربح الإنكليز من التمادي في ترك هذا الاعتقاد راسخاً في النفوس ! وإذا كان ثمة أمر يصح أن يتلاقى فيه الطرفان ويكون قاعدة للاتحاد فإنما هو التعليم العام ، إذ لا يمكن أن يوجد تناقض بين مصلحة الإنكليز ومصلحة المصريين في هذا المقصد . فمن أراد استدرار ما بمصر من المنافع والخيرات فسبيله في ذلك أن يعني بتعهد ما فيها من موارد الثروة ، وان يبدأ بالإنسان ، بكل ما فيه من معاني الإنسان فلا بد من امتزاج العنصرين الأوروبي والوطني ، وأخذهما على التكاتف في السير نحو هذه الغاية يداً بيد .

ولعمري إن الإنكليز ليسيئون إلى أنفسهم إذا أوهنوا الأهلين وأرخصوا من قيمتهم وصغروا من شأنهم ، فإنما مصلحتهم في أن يكون أبناء هذا الوطن أعزاء أحراراً ، فإن موارد الثروة والخير للإنكليز منوطة بما يصيبنا من ثراء ورخاء . .

رسائل إلى الشيخ رشيد رضا[1]

ـ ١ ـ

. . . . . .

رأيت «حسن باشا»[1] وتذاكرنا في كتابي الفقه والعقائد ، فرأى رأياً لا يخلو من حسن ، وهو أن يكتب المجمع عليه في كل باب ، حتى في النجاسات ، ثم يكتب في حاشية الفصل من أسفل ما يهم من اختلاف المذاهب كلها ، ليكون ذلك هادياً إلى فهم الوحدة في تلك الكثرة ، فإذا سهل عليك ذلك فافعل وأحب أن أراك يوم الأثنين الآتي في عين شمس قبل الظهر إذا تيسر لك ذلك . والسلام .

* * *

ـ ٢ ـ

. . . .

«حسن باشا» أرسل يسألني اليوم : هل شرعت في العمل لتحرير كتابي العقائد والفقه ؟ واحب أن أجيبه ، فهل شرعت ؟ وبودي أن يكون الجواب : نعم ، وأن يتم العمل في مدة قليلة .

* * *

---

(١) هذه الرسائل القصيرة الثلاث تتعلق بطلب الأستاذ الإمام من الشيخ رشيد رضا أن يضع كتابين في الفقه والعقائد يدرسان لتلاميذ مدارس (الجمعية الخيرية الإسلامية) .

(٢) هو حسن باشا عاصم وكيل (الجمعية الخيرية الإسلامية) التي كان يرأسها الإستاذ الإمام .

- ٣ -

ليتك تشتغل بهذا الكتاب أو هذين الكتابين في القريب العـاجل ، حتى يمكن وضعهما بين ايدي التلامذة في أول الدراسة الآتية .

الإصلاح اللغوي

إن اللغة في حاجة إلى إصلاح آخر فوق إصلاح التعليم لفنونها وآدابها ، واتقان الكتابة والخطابة فيها وهو ما فعله الفرنسيس وغيرهم من شعوب العالم في أوروبة ، من تأليف المجامع لوضع المعاجم اللغوية وتاريخ تطور اللغة وما دخل فيها من اصطلاح ومعرب وغيره ، والمعاجم العلمية ، وفلسفة البيان والانتقاد ، وغير ذلك . . . إن هذا النوع من الاصلاح لا يرجى لنا بلوغ شأو الفرنسيس فيه إلا باشتغال جدي مدة خمسين سنة . . . إن فن التأليف والتصنيف قد بلغ الغاية من الارتقاء عندهم ، وإننا في أشد الحاجة إلى حذوهم فيه . .

إن العالم المسلم لا يمكنه أن يخدم الإسلام من كل وجه يقتضيه حال هذا العصر إلا إذا كان متقناً للغة من لغات العلم الأوروبية تمكنه من الاطلاع على ما كتب أهلها في الإسلام وأهله من مدح وذم وغير ذلك من العلوم .

* * *

اصلاح الازهر

الأزهر والاصلاح

إن نفسي توجهت إلى إصلاح الأزهر منذ كنت «مجاوراً» فيه ، بعد التلقي عن السيد **جمال الدين** ، وقد شرعت في ذلك فحيل بيني وبينه ، ثم كنت أترقب الفرص ، فما سنحت إلا واستشرفت لها وأقبلت عليها ، حتى إذا ما صادفت الموانع لويت وصبرت مترقباً فرصة أخرى .

وبعد أن عدت من المنفى حاولت إقناع **الشيخ محمد الأنبابي** ـ شيخ الأزهر ـ بشيء فلم يصادف قبولاً . . قلت له مرة . . هل لك أيها الأستاذ أن تأمر بتدريس مقدمة **ابن خلدون** في الأزهر ؟ ووصفت له من فوائدها ما شاء اللّه أن أصف ، فقال : إن العادة لم تجر بذلك . فانتقلت به في شجون الحديث إلى ذكر الشيوخ ، وسألته : منذ كم مات «**الاشموني**» و«**الصبان**» ؟ قال منذ كذا . قلت : إنهما حديثا عهد بوفاة ، وهذه كتبهما تقرأ بعد أن لم تجر العادة بذلك ، فسكت ولم يدخل في الحديث .

* * *

إن بقاء الأزهر متداعياً على حاله في هذا العصر محال ، فهو إما أن يعمر وإما أن يتم خرابه ، وإنني أبذل جهد المستطيع في عمرانه ، فإن دفعتني الصوارف إلى اليأس من إصلاحه فإنني لا أيأس من الإصلاح الإسلامي ، بل أترك الحكومة واختار أفراداً من المستعدين فأربيهم على طريقة التصوف التي ربيت عليها ليكونوا خلفاً لي في خدمة الإسلام ، ثم أؤلف كتاباً في بيان حقيقة الأزهر أمثل فيه أخلاق أهله وعقولهم ومبلغ علومهم وتأثيرهم في الوجود وانشره باللغة العربية ولغة افرنجية ، حتى يعرف المسلمون وغيرهم حقيقة هذا المكان التي يجهلها الناس حتى من أهله .

تداخل الحكومة في الأزهر[1]

الشيخ رشيد : إن قرار مجلس إدارة الأزهر هو كقرار كل مجلس رسمي وكل محكمة ، يطالب القانون بتنفيذه ويعاقب على تركه ، فلماذا لا تطالب بتنفيذ هذه القرارات الكثيرة التي يمتنع شيخ الأزهر من تنفيذها بصفة رسمية ؟ فلو فعلت هذا مرة واحدة لنفذ كل قرار .

الأستاذ الامام : إن هذا لا يكون إلا بسلطة الحكومة ، وإنني أرجو أن لا أدع الحكومة تتداخل في الأزهر ما دمت فيه ، فكيف أكون أنا الذي يدعوها إلى ذلك ؟ فنحن ندعو الشيوخ بالإقناع معتصمين بالصبر .

إن وجداني[1] ومراقبتي للّه تعالى لا تمكنني من إقرار ما لا يبيحه الشرع . والباطل لا يكون وسيلة إلى الحق .

الأزهر وإصلاح برامجه التعليمية[3]

الشيخ محمد البحيري : إننا نعلمهم كما تعلمنا .

الأستاذ الإمام : وهذا الذي أخاف منه !!

الشيخ البحيري : ألم تتعلم أنت في الأزهر ، وقد بلغت من مراقي العلم وصرت فيه العلم الفرد ؟!

الاستاذ الإمام : إذا كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكر ، فإنني لم أحصله إلا بعد ان مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق فيه من وساخة الأزهر ، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة .؟!!

* * *

---

(١) حوار بين الشيخ رشيد رضا والأستاذ الإمام .

(٢) قال الأستاذ الإمام هذه العبارة جواباً لرسول الخديو الذي طلب منه عدم التعرض لأطماع الخديو في الأوقاف نظير إطلاق يد الإمام في إصلاح الأزهر .

(٣) حوار دار بين الأستاذ الإمام والشيخ البحيري عضو مجلس إدارة الأزهر ، في اجتماع المجلس .

الأزهر واستقلاله عن الحكومة[1]

الأستاذ الإمام : إن لورد كرومر أرسل إلي إنه يريد أن يزورني ، وأنا أعلم إن غرضه الكلام في حالة الأزهر . . . ويريد أن تتدخل الحكومة في عزل الشيخ سليم البشري كما فعلت في عزل الشيخ حسونة النواوي .

الشيخ رشيد : وماذا تنوي أن تقول له ؟

الاستاذ الامام : أقول أحسن ما أعلم ، وأسكت عن شر ما أعلم ، ولا أقول إلا حقاً ، ولا أدع منفذاً لنفوذ الاجنبي أن يتسرب إلى هذا المعهد الديني . . وأنا ما دمت في هذا المكان لا أدع للحكومة مجالاً للتدخل في شؤونه ، لأنها حكومة واقعة تحت سلطة أجنبية .

هل[2] يسر الانجليز بتخريجي لهم رجالاً مستعدين يفهمون حقوقهم ويعرفون كيف يدافعون عنها بقوة مستمدة من العلم والمعرفة ؟!

إنني[3] ما قصدت إلى خدمة المسلمين في شيء ولقيت مقاومة فيه من غيرهم ، لا من انكليزي ، ولا من أفرنسي ، ولا من قطبي ، ولا من شامي .

---

(١) حوار دار بين الأستاذ الإمام والشيخ رشيد رضا .

(٢) هذه العبارة نقلتها عن الأستاذ الإمام جريدة انجليزية ، وترجمت «اللواء» مقالها ، وأسقطت هذه العبارة ، وذكرها الشيخ رشيد رضا .

(٣) هذه عبارة جديدة قيلت في مناسبة مختلفة ، ولكنها مرتبطة بنفس الموضوع .

شيخ الأزهر يخالف قانونه[1]

إن الشيخ سليماً مسكين ، لا يعلم أن مادة . . . من قانون العقوبات تقضي بمحاكمة كل رئيس مصلحة رسمية يمتنع من تنفيذ ما يتقرر من أحكام قانونها محاكمة جنائية ، وإنني لو بلغت النائب العمومي أن مجلس الإدارة قرر كذا وكذا في تاريخ كذا ، بمقتضى قانون الأزهر ، وامتنع رئيسه من تنفيذ هذه القرارات ، فإنه لا يسعه إلا أن يدعوه للتحقيق في محكمة الجنايات ، ولكنني إنما أريد أن يكون إصلاح الأزهر برأي شيوخه واقتناعهم لا بسلطة الحكومة الكافلة لتنفيذ القوانين ، ولا فرق فيها بين قانون الأزهر وسائر قوانين الحكومة ، إذ هو صادر بمقتضى «ديكرتو» خديوي كغيره .

* * *

المادة الثانية من قانون الأزهر : «شيخ الأزهر ينفذ اللوائح وقرارات مجلس الإدارة ، ويتخذ الوسائل لتحسين حالة الأزهر وترقية التعليم ، ويدير الأعمال بما لا يخالف القوانين وقرارات مجلس الإدارة» .

صدرت قرارات من مجلس الإدارة متعلقة بما يجب على مشايخ بعض الأروقة ، وقرارات متعلقة بالتعليم ، وأهمها القرار الصادر بتعيين مدرسين يدرسون العلوم على

---

(١) مقدمة ، ومذكرة كتبها الأستاذ الإمام يثبت بها أن الشيخ سليم البشري ، شيخ الأزهر ، لا يطبق قانونه ، وأن بالإمكان مقاضاته لذلك .

طريقة جديدة عملية توافق أحكام هذا القانون ، ورتبت لهم مرتبات مقدارها ستمائة جنيه في السنة من الأوقاف الخيرية ، وشرط في ذلك القرار ان من لم يقم منهم بما عهد إليه ينزع منه المرتب ويعطى لغيره ، والمعول على الاختبار ، ولكنهم من يوم عينوا إلى هذا اليوم لم ينظر في كيفية تدريسهم ، وهم في التدريس كغيرهم لم يمتازوا عن بقية المدرسين بشيء سوى أخذ المرتبات . والقرارات المتعلقة بمشايخ الأروقة لم ينفذ منها قرار واحد .

* * *

المادة السادسة : **«مجلس الإدارة ينعقد كل ١٥ يوماً مرة على الأقل»** .

لا ينعقد المجلس إلا عند موت شخص لتوزيع مرتبه أو إعطاء كسوته التشريفية لغيره ، أو عند شكوى أو مشاجرة أو نحو ذلك ، أما للنظر في حالة التعليم أو في وضع شيء مفيد له فلا ينعقد ، غاية الأمر أنه ينعقد في شهر شوال من كل سنة لتوظيف أو نقل معلمي الحساب والجغرافية والخط لا غير .

* * *

المادة الثامنة : **«مجلس الإدارة يقترح طريقة توزيع النقود التي ترد إلى الجامع الأزهر ، سواء كان ورودها بصفة دائمية أو موقتة»** .

ظنت المشيخة أن المراد من ذلك : النقود التي تأتي للتوزيع على أنها نقود ، أما ما يرد في شرط الواقفين من النقود التي يشترى بها جرايات فيوزعها الشيخ بدون مدخل للمجلس ، وهكذا جرى العمل ، مع ان المراد عموم ما يخصص للأزهر من النقود سواء اشتري به خبز . أو وزع نقوداً .

* * *

المادة الحادية عشرة : **«مجلس الإدارة يوزع العلوم التي تدرس في الأزهر على الأساتذة وعلى السنين ، ولا يجوز لأستاذ أن يتعدى ما يقرره المجلس»** .

لم يشتغل مجلس الإدارة بتنفيذ هذه المادة قط في العلوم المعهود تدريسها في الأزهر ، وإنما الذي وزع ولا يزال يوزع إلى الآن هو بعض العلوم التي أضيفت ، أي الحساب والجغرافيا والجبر لا غير . وبقية العلوم تهمل ، لا يعرف ما يدرس أولاً ولا

آخـراً إلا ما جرت به العادة في قديم . والمادة المذكورة إنما وضعت لإصلاح القديم لأنه ضار ضرراً ظاهراً .

* * *

المادة السابعة عشرة : تتضمن تقسيم العلوم إلى وسائل ومقاصد ، وأضيف فيها علوم الأخلاق الدينية والحساب والجبر ، وعدت هذه العلوم الثلاثة الجديدة من العلوم الإلزامية التي يمتحن فيها الطالب حتماً عند طلبه الامتحان لنيل شهادته العالمية ، وجاء في المادة ٦٠ أن من مضى عليه أقل من ست سنوات وقت صدور القانون أو من يدخل الأزهر بعد ذلك يكون امتحانه على حسب القانون .

ومع ذلك لم يلتفت إلى إلزام الداخلين بعد صدور القانون بتعليم هذه الفنون ، ولم ينشر ذلك على الذين دخلوا من قبل ومضى عليهم أقل من ست سنوات ، بل لم يتنبه إلى ذلك إلا في هذه الأيام حيث قدم بعض الطلبة ممن تنطبق عليهم المادة ٦ طلبات للامتحان ، فرفض طلبهم بناء على انهم لم يتمموا الحساب والجبر ، ولكن ذلك بعد فوات الوقت .

* * *

المادة التاسعة عشر : العلوم التي يقصد من تعليمها العمل بها كعلوم البلاغة يجب على مدرسيها تمرين الطلبة على تطبيق العلم على العمل .

هذه المادة لم يعمل بحرف منها قط .

المادة ٢٠ : يخصص لعلوم المقاصد أوسع أوقات الدروس ، ولا يصرف في الوسائل من زمن الدراسة ما يساوي الزمن الذي يصرف في المقاصد .

* * *

لا يزال معظم الزمن يصرف في النحو ، وهو من الوسائل ، وأما المقاصد مثل تفسير القرآن والحديث فلا يصرف فيها إلا الزمن القليل .

* * *

المادة ٢٢ : تمنع قراءة الحواشي والتقارير منعاً باتاً في جميع العلوم في الأربع سنوات الأولى ، ويكتفي بالمتون والشروح الواضحة ، وبعد الأربع السنوات يخير الطلبة

والأساتذة في النظر في الحواشي ، وأما التقارير فتمنع قطعاً إلا بقرار من مجلس الإدارة .

حصل اجتهاد مدة سنتين فقط بعد صدور القانون في تنفيذ هذه المادة بجمع المشايخ الذين يدرسون في السنين الأربع الأولى والقاء التنبيهات عليهم لمراعاة هذه المادة ، ولكن لم يقع تفتيش ولا مرة واحدة لينظر هل يعملون بمقتضى التنبيهات أم لا ؟ ثم بعد ذلك أهمل الأمر بالكلية ، والمشايخ يقرؤون الآن ما يريدون ، كما كانوا قبل صدور القانون .

* * *

المادة ٢٣ : «لا يباح للطالب أن يشتغل بعلم من علوم المقاصد قبل أن يستحضر من وسائله ما يمكنه من فهمه ، وعلى كل طالب أن يتلقى أصول مذهبه» .

هذه المادة لا يمكن تنفيذها إلا بتفقد حال كل طالب في دروس المقاصد لمعرفة إن كان تلقى من الوسائل ما يؤهله لفهم كتاب من المقاصد أو كان لم يتلق ما يكفي ، وهذا أمر لم يقع من يوم وضع القانون إلى اليوم ، بل لم يشتغل مجلس الإدارة بتحديد وسائل كل علم ودعوة الطلاب إلى الأخذ بما يقرره .

* * *

المادة ٢٤ : «أكثر مدة الطلب ١٥ سنة» .

مقتضى ذلك أن الطالب لا يقيم على أنه طالب في الأزهر أكثر من ١٥ سنة ، ويوجد طلبة لهم أربعون سنة فما دون ذلك ، ولم يلتفت مجلس الإدارة إلى النظر في تصفية الجامع من هؤلاء البلداء ، بل منهم من يطلب الامتحان والمشيخة لا تجيبه إلى طلبه .

المادة ٣٧ : تقضي بان طلبات الامتحان تقدم إلى المشيخة في الشهور الأربعة الأولى من كل سنة ، وانه بعد ذلك يشكل شيخ الجامع لجاناً لامتحان الطالبين .

ومقتضى ذلك أن يتحتم على الشيخ تشكيل اللجان لامتحان جميع الطالبين وإلا فلا معنى لذكر اللجان بصيغة الجمع ، ولا معنى لتحديد مدة الطلب بالشهور الأربعة ، والآن يوجد ما يزيد على خمسمائة طلب من سنين عديدة ، ولا يمتحن من الطالبين اكثر

من ثمانين شخصاً في السنة ، وفي ذلك قتل للطالبين وهدم لقواهم بتطاول السنين عليهم بلا فائدة .

* * *

أما المواد ٤٣ و٤٥ و٤٦ و٤٧ المتعلقة بكيفية الامتحان فلم يعمل بها ولا مرة واحدة .

اصلاح التعليم في الأزهر[1]

«ها أنا ذا ، كما تروني ، وحيداً ليس لي من الأساتذة من يساعدني ، ولا من دعاة الخير من ينصرني .

أريد أن أعلم في هذا الجامع شيئاً نافعاً بدلاً من هذه الشروح العتيقة البالية الخالية من المعنى ، التي هي أضر من كتبكم القديمة المؤلفة في القرون الوسطى[2] . . .

ولكن هل اجد من يساعدني على ذلك ؟ وإن لم أجد ، فهل أفلح فيه وحدي ؟؟» .

---

(١) خاطب الإمام بهذه الكلمات بعض زواره من مفكري الغرب عندما التقوا به في حجرة صغيرة بالأزهر . وسجل هذه الكلمات الكاتب الإنجليزي «هارولد سبندر» في مقاله عن الإمام . بعد وفاته ، في «الديلي كرونيكل» اللندنية في ٣١ يوليو سنة ١٩٠٥ م . إنظر الجزء الثالث من (تاريخ الأستاذ الإمام) ص ١٨٤ .

(٢) هنا قال الكاتب : إن الإمام أشار إلى عمود من الكتب الضخمة مستند إلى جدار الغرفة .

الأزهر الشريف
والغرض من اصلاح طرق التعليم فيه(١)

ما كنت لأخط سطراً واحداً في موضوع ما يكتبه بعض الناس في هـذا الوقت متعلقاً بالأزهر الشريف لولا ما نسب ناسب كلاماً لأحد شيوخه بعدما وصف بأوصاف تعين شخصه ، ولولا ما جاء في ذلك الكلام مما يمس الأزهر ويمس كثيراً من شيوخه .

لا أتكلم فيما بعث الناسب على ملاقاة الشيخ ، ولا ما دفع الناقل إلى النقل عنه ، فذلك مما عرفه كل قارىء لأول الاطلاع عليه ، ولكن أقول بعض كلمات فيما نسب إلى الشيخ دفعاً للبس من الباطل قد يستر عين الحق عمن يهمهم أن يعرفوه .

لا ننكر على الأستاذ ما قاله في الغرض من إنشاء الأزهر فذلك غرض كل من يبني مسجداً للّه في أي مكان وأي زمان،لا يبني مسجداً إلا ليعبد اللّه فيه ويعلم فيه دينه ، ولا ننكر عليه أن الخدمة التي يلزم أن يؤديها الأزهر هي تعليم الدين . ولكن لم نفهم قوله «وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للأزهر به» . فإن كان يـريد أن التعليم في الأزهـر يجب أن يكون قـاصراً عـلى الفقـه وأصـولـه والحـديث

(١) نشر الأستاذ الإمام هذا المقال في (المقطم) في ١٨ مارس سنة ١٩٠٤ م منسوب «لأحد علماء الأزهر الأعلام»، وذلك رداً على حديث لشيخ الأزهر الشيخ عبد الرحمن الشربيني أدلى به لجريدة (الجوائب المصرية) في ١٢ مارس ونقله عنها (المؤيد) في ١٤ مارس سنة ١٩٠٤ م . وكان شيخ الأزهر قد هاجم الدعوة إلى إصلاح الأزهر ، ووصفها بأنها ترمي إلى أن يحول هذا المسجد العظيم إلى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفىء نوره .

ومصطلحه ، وعلم تقرير العقائد ، كما ورد به الكتاب والسنّة ، وعلم آداب الدين والأخلاق المؤسسة على ما ورد منه ـ وأما ما عدا ذلك وإن كان من مقدمات هذه العلوم السابق ذكرها فلا يصح أن يدرس في الأزهر ـ إن كان يريد ذلك فكنت أكون أول موافق في رأيه لو كان التعليم في الأزهر قاصراً على ذلك في القرون الماضية ، ولو كان حضرة الأستاذ نفسه لم يتعلم ولم يُعلّم في الأزهر غير هذه العلوم . لكنا عرفنا الأستاذ يُقْرِىء فنون البلاغة والنحو والمنطق وعلم الكلام ، على ما في علم الكلام من المذاهب الفلسفية وغيرها ، وعلى ما في مقدمات الأدلة التي يأتي بها المتكلمون من التعرض لمعنى الوجود وهل هو عارض للممكنات أو عين الممكنات ؟ والتعرض لأحكام الجواهر والأعراض ، مما لا يمكن فهمه إلا ببحث دقيق في حقائق الكون ، وقد ذكر لي بعض عشاق الأستاذ ان له براعة في علم الكلام والوقوف على مذاهب الناس في العقائد مما لم يساوه فيها غيره ، وقال لي : إنه يعرف من كتاب المواقف[1] وشراحه ويقف على أسراره ما لم يتفق لغيره أن يعرفه ويقف عليه . ولقد شاركنا الشيخ في أربعين سنة من الخمسين التي ذكرها ولم نجد للإهتمام في الأزهر وجهة إلا تعليم فنون الوسائل من النحو والصرف والمعاني وغيرها مما ليس في علوم الدين وان كان من مقدماتها ، وإني أعرف للشيخ طريقة في تدريس تلك الفنون من أغرب الطرق ، فإذا قرأ (شرح التلخيص في المعاني والبيان) للسعد التفتازاني أفنى فيه بضع سنين يحقق معاني ألفاظه والروابط بين كلماته ، وقلده بعض الناس في ذلك حتى أصبح آباء الطلبة يئنون من طول الإقامة في الأزهر الشريف دون أن يحلى الطالب منها بطائل ، والفضل في ذلك لمذهب الشيخ في التحقيق والتدقيق ، كأن كلام المؤلف قد أنزل من السماء على معصوم فلا يصح أن تقع فيه أداة إلا ولها من أسرار المعاني ما لا يعرفه إلا مثل الأستاذ من عِلْيَة المحققين ؟! .

أما كتاب اللّٰه فلا نعهد للشيخ فيه درساً يستوفي من التحقيق ما يستوفيه أحد شروح «السعد» على التلخيص ولا أخص الشيخ بذلك بل هذا كان شأن الأزهر الذي وجدناه عليه ولا يزال إلى الآن .

كنت أوافق الشيخ على ما رآه ان صح ان يكون ذلك مراده لو سعى ـ حفظه

---

(١) لعضد الدين الأيجي .

الله ـ هو وإخوانه من خدمة العلم في إنشاء مدارس لتعليم الوسائل التي يُرْتَقَى بها إلى فهم علوم الدين ، وبعد أن يستعد الطالب فيها لتلقي العلوم الدينية وينال الشهادة بذلك يأتي إلى الأزهر ويتعلم الدين خاصة .

كل ذلك لم يكن ، فلم يبق إلا ان الشيخ أراد من علوم الدين ما يجمع مقاصده ووسائله حتى علم المنطق والكلام ، فإذا أراد الشيخ ذلك ـ ولا محيص له عن أن يريده ـ فماذا يقول في إمام الحرمين والإمام الرازي وغيرهما من أئمة مذهبه وفيما جاءنا بالتواتر من كتبهم ، وما احتوت عليه من البحث في حقائق الأكوان ليبنوا عليها الأدلة التي رأوا اقامتها لإثبات مُكَوِّنها ؟ وفي العلماء الإجلاء الذين كانوا يقرؤونها في الجامع الأزهر في كل زمان ، وقد يعرفهم الشيخ كما نعرفهم ؟ ان سمح الشيخ لنفسه باللوم على متقدم فإنا لا نسمح لانفسنا بلوم أحد منهم على ما رأى من المصلحة في ذلك . فإذا صح معنا أن ائمتنا سبقونا إلى إضافة هذه العلوم ـ علوم البحث في حقائق الأكوان ـ إلى علوم الدين لأنهم عرفوا ان لا سبيل إلى إقامة الأدلة الصحيحة على العقائد ـ التي شَرْطُ في العلم بها اليقين إلا بذلك البحث وقد شاركهم الأستاذ في العمل على تلك الطريقة ـ فما الذي ينكره الأستاذ من علوم سماها «علوم الأعصر» أو أمور سماها «أمور الدنيا» ؟

هل يعد الحساب من ذلك ؟ وهو باب من أبواب الفقه في قسم من أهم أقسامه وهو علم الميراث أو علم الفرائض ؟ هل يحسب من ذلك سيرة النبي ﷺ التي أمر كثير من المشايخ بتدريسها وهي قسم من الحديث ؟ هل يدخل في ذلك علم الآداب الدينية أو الأخلاق التي تكتسب من الدين وهو الفقه الحقيقي ولا قوام لعلم من علوم الشريعة بدونه ؟ هذه الفنون التي كانت تقرأ من قبل في الأزهر ، لكن لا على سبيل الإلزام فألزم بها الطلبة ، وأصبح كل واحد منهم يعرف انه لا ينال درجة العالمية إلا بتحصيلها ، وما عدا ذلك فهو لا يزال على ما كان ، فهل هذه الفنون هي التي يسميها الأستاذ مبادىء الفلسفة ؟

إن من الغريب عندي أن يكون الأستاذ الذي يشيرون إليه قال هذا الكلام الذي نقل عنه .

الأمر العالي الصادر بتنظيم الأزهر موجود ، والاطلاع عليه سهل ، فهل منعت التقوى أهلها من أن يطلعوا عليه حتى يعرفوا ما هو الإصلاح الجديد ؟

جاء في ذلك الأمر العالي ما يوجب على العلماء والطلبة أن يصرفوا في المقاصد

(وهي علوم الدين) أكثر زمنهم ، وانه لا يباح ان ينفق في تحصيل الوسائل ما يساوي زمن تحصيل المقاصد أو يزيد عليه ، فهل هذه هي الحركة الفلسفية التي أرادها الشيخ ؟ إن الذين أرادوا الاصلاح لم يكن يهمهم إلا أن تكون وجهة الطلبة والمشايخ هي تحصيل الدين والوقوف على أسراره والتخلق بأخلاقه . والأمر العالي الصادر في سنة ١٣١٤[١] وهو ما يسمونه الاصلاح كان كافلاً لذلك لو كان حضرة الأستاذ واخوانه ممن ساعدوا على تنفيذه ، ولكن مثل هذا الكلام الذي نشر في هذه الأيام وأمثاله مما نشر في أوقات أخرى لمقاصد خاصة بعد الذي حال دون الاصلاح ، وعاق طلابه عن الوصول إلى ما يقصده حضرة الأستاذ من جعل التعليم دينياً ، ومن إشراب كل عمل من أعمال الطلبة والأساتذة روح الدين ، فليهنأ الأستاذ ببقاء الأزهر على ما هو عليه قبل الإصلاح وبعده ان كان لم يبلغه ذلك أو بلغه ما يخالفه ممن لم يصدقه الحديث .

أما قول الأستاذ : إن في الطلبة من يحط من مقام الأئمة وينكر عليهم مراتب الاجتهاد فذلك مما لم اسمعه ولا اظن أحداً يعرفه إلا من بَلغه ، غير أنا نعرف أن كثيراً من الطلبة يختلف إلى من لا دين له من يسمون بالمسلمين ويخوضون معهم فيما لا يليق ، لا متعلقاً بالأئمة فقط ولكن قد يصعدون إلى من هو أعلى وأقدس ، وهو شيء يشتكي منه طلاب الاصلاح ، ويحاولون دفع ضرره بتعليم الطلبة تاريخ سلفهم الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة رضوان اللّه عليهم أجمعين ، فإن الذي يخدع الطالب ذلاقة لسان المنافق وجهل الطالب ونقص علمه ، فتروج عنده الأباطيل بسهولة ، ولو علم حال من مضى من سلفه كان من السهل عليه أن يهدي الضال لا أن يتبعه في ضلاله ، فهل يسمح الشيخ بتعليم تاريخ السلف في الأزهر حتى يعرف الطلبة من أحوال الأئمة ما يدفعون به المطاعن فيهم ؟ وهل عَلمَّ الأستاذ أحداً من هو **الإمام الشافعي** وكيف حَصَّل العلم ؟ وكيف عمل على نشره في الآفاق ؟ وكيف كان يعيش في بعد عن مشاغبات الخاصة وغوغاء العامة ، مع الوقوف على أحوالهم ، وتقرير الأحكام بما يتفق مع مصالحهم في شؤون دينهم ودنياهم ؟ فليطلعني حفظه اللّه على واحد أخذ عنه هذه السيرة الجليلة ، سيرة الإمام الشافعي ، محررة بما صح من الأخبار ، لا محشوة بما لا يعقل من الأوهام ؟

---

(١) ١٨٩٥ - ١٨٩٦ .

أما الفوضى المنتشرة في ربوع الأزهر كما يقول فإننا لم نفهم لها معنى . لعله يعني ما حصل من المغاربة وعصيانهم أوامر المشيخة في هذه الأيام ، لو أراد الشيخ أن يقف على حقيقة السبب فيها لصعب عليه أن يعرف ان ذلك من تأريث بعض إخوانه لسبب يسوءه أن يعرفه ، وهي حركة ضد الاصلاح لا ناشئة عنه .

يقول الشيخ : إنه لا يعرف إلا ما أضاع المحبة والرحمة بين الطلبة ومشايخهم ، متى كان هذا ؟ أما انتقاد الطلبة على أساتذتهم فقد كان معروفاً مدة الأربعين سنة التي أقمتها في الأزهر والعشرة التي سبقني بها الشيخ بل قلما توجد مدرسة من مدارس العالم لا ينتقد الطلبة فيها أساتذتهم في بعض أعمالهم وأقوالهم .

وأما وصول الانتقاد إلى حد الإهانة والتقاطع فذلك لم يكن الآن اللهم إلا أن يعني الشيخ ما وقع من احد حذاق المحامين[1] من الشدة في نقده لبعض كلامه ولكن ذلك ليس من الطلبة الآن ، وإن كان قد سبق له طلب مدة الخمسين سنة الماضية ، أظن ان مجلس الشيخ مطروق بأولئك الذين ينقلون له ما لا تعرف له حقيقة .

من أين جاء للشيخ لفظ «سبنسر»[2] وأي طالب نقل إليه هذا الاسم ؟ وأي مبدأ من مبادىء «سبنسر» دخل في الأزهر ؟ وماذا يعني الشيخ بهذا الاسم خاصة لو كان هو الذاكرله ؟ سبحان اللّٰه ما كان أحق بالتقوى أن تنهى أهلها عن اللمز والهمز .

إن الذي يلمزه الشيخ بهذا الكلام طالما نادى في درسه بأن الذي أضر بالعقائد وباللغة إدخال الفلسفة في الأولى والحذو حذو أهلها في الثانية ، فهو وإن تعلم شيئاً مما تعلمه لم يحصله إلا ليدفع الشر بالشر إذا لم تمكن وسائل الخير .

لم لم يقبل الشيخ مشيخة الأزهر بعد حضرة الشيخ **«حسونة النواوي»** وقد ظهر له أن ما أدخله الشيخ حسونة كان شراً على الأزهر ، وكانت مشيخة الأستاذ كافلة بإزالة ذلك الشر ! زهد في المشيخة حتى لا يعلو على بعض إخوانه كما يقول ، سبحان اللّٰه ،

---

(١) الاشارة إلى الأستاذ أحمد الحسيني ، المحامي .

(٢) كان الشيخ الشربيني قد هاجم في حديثه «بعض الطلبة المخدوعين الذين سمعوا بسبنسر وفلسفته ، فهرفوا بما لم يعرفوا ، واشتغلوا بما يلهيهم من هذا وأمثاله ، عما وجدوا في الأزهر من أجله ، وهو طلب علوم الدين لا غير» .

أفما كان له أسوة في سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر بن الخطاب في قبول الرياسة على إخوانهم ليحفظوا نظامهم ؟ هل هو أزهد منهما في الرياسة ؟ أو أعلم منهما بما فيها[١] ؟

يمدح المشايخ الذين رآهم في خمسين سنة لا يشتغلون بالسياسة ؟ ومن الذي يشتغل بالسياسة الآن ؟ هل كان الشيخ حسونة يشتغل بها أو الشيخ سليم من بعده أو حضرة الشيخ الببلاوي اليوم ؟ وأي سياسة يعني الشيخ ؟ إن كان ما يريد منها سياسة الأزهر ، وتنظيمه وتأسيس العمل فيه على قواعد يلزم السير عليها ، فالبادىء بوضع هذا الأساس هو الشيخ العباسي رحمه الله ، ولقد هاج عليه الناس وفيهم كثير من إخوان الأستاذ لأنه وضع قاعدة الامتحان ، على انه كان يغضى من مهابته كما يعرف الشيخ ، وأضرت نصائح المشايخ بكثير من الطلبة إذ حقروا لهم أمر الدخول في الامتحان حتى حرموا من نيل درجة العالمية ، وهم يندبون حظهم إلى اليوم . وقد كنت ممن خدع بتلك النصائح ، ولولا حادثة حدثت ما دخلت في الامتحان ولذهبت متاعبي سدى .

وإن كان يريد للسياسة معنى آخر فما هو؟ ومن هم المشتغلون به؟ أظن ان الشيخ نفسه قد دخل في الاشتغال بالسياسة من حيث لا يشعر حيث سمح بنشر هذا الحديث ، أو لعله يشعر بأنه عمل سياسي لكن يستبيح منه لنفسه ما لا يستبيحه لغيره ! !

نعم عهد لعلماء الأزهر ولطلبته تبعاً لهم الاشتغال بالسياسة قبل أن يدخل فيه ما يسمونه بالاصلاح ، ذلك في أيام الفتنة العرابية ، فقد انقسم المشايخ إلى قسمين أكثرهم مع عرابي وأقلهم مع الخديو السابق ، وكانوا يسمحون لعبد الله أفندي نديم أن يدخل الأزهر ويخطب فيهم بفتنة السياسة ، وكانوا يحيطون به وينادون : اللائحة مرفوضة[٢] . وكان هذا في مدة الخمسين سنة التي ذكرها الشيخ ، وأما ما كان في زمن الفرنسيين وأول مدة محمد علي فلا نتكلم فيه لأنه مضى عليه أكثر من مئة سنة وصار أولئك المشايخ سلفاً رضي الله عنهم .

ألم يكن الأجمل بحضرة الأستاذ في صلاحه وتقواه ان يبذل جهده أولاً في لقاء

---

(١) تولى الشيخ الشربيني مشيخة الأزهر بعد أيام من نشر هذا المقال ، وذلك في ٢٢ مارس سنة ١٩٠٤ .

(٢) أي لائحة الدول الاستعمارية التي قدمها القناصل الأجانب طالبين فيها نفي عرابي وكبار الضباط .

الذين يعنيهم بكلامه ، ويبحث معهم فيما يعملون وما يقصدون ؟ ، فإن رأى خيراً ساعد عليه وإن رأى شراً وعظ ونصح ، فإن لم ينجح النصح كان له الحق فيما ينشره في جرائد سيارة يحب كثير من الناظرين فيها أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ؟؟

اللهم ألهم الأستاذ وإخوانه أن يقرأوا سورة الحجرات ، وأن يعظموا قول اللّه فيها ، فإذا جاءهم فاسق بنبأ تبينوا ولم يصيبوا قوماً بجهالة حتى لا يصبحوا نادمين !؟

أما ما نشره بعض الناس في تلك الجرائد التي لا أشك في منازعة ضمائر أربابها لألسنتهم وأقلامهم من الكلام في الإلحاد ، أو وجوه الإصلاح ، فهو مما لا يصح النظر فيه بل هو مما يمر به العقلاء كراماً . سامح اللّه هؤلاء المخاطرين بشرف الأزهر وأهله الطالبين لإلحاق أشد المضرات به ، ونظر اللّه جل شأنه بعنايته إلى هذا المسجد الشريف ، وقيض له من يتغلب على هذه المصاعب كلها حتى يصبح مؤدياً للوظيفة التي تطلب منه ويتمناها الشيخ الفاضل .

وإذا كان أصحاب الجرائد التي نقلت كلام الشيخ أحراراً فلينقلوا هذا كما نقل ذاك بعضهم عن بعض تأدية للأفكار إلى قرائهم[١] .

تحدي[٢]

إنكم تعلمون ان الإيمان بوحدانية اللّه تعالى هو الأساس الأعظم لدين الإسلام ،

---

(١) الإشارة إلى صاحب (المؤيد) الشيخ علي يوسف الذي نقل حديث الشربيني عن (الجوائب المصرية) لصاحبها خليل مطران .

(٢) ألقى الأستاذ الإمام بكلماته هذه متحدياً خصومه من رجال الأزهر الذين قال بعضهم عن رسالته في التوحيد إنها «إنشاء» وليست «بعلم» . . . وعندما هابوا قبول تحديه أوعزوا إلى من نشر أنه قد أنكر إمكانية إقامة الدليل على عقيدة التوحيد . فرفع الأستاذ الأمر إلى القضاء ، فنسبت الجريدة التي نشرت الخبر معلوماتها إلى الشيخ سليمان العبد ، أحد المشايخ وأحد مدرسي دار العلوم ، وبعد وساطات تنازل الأستاذ عن حقه ودعواه ، واعتذر إليه الشيخ سليمان العبد . فقال له الأستاذ الإمام : «أما تخاف يا شيخ سليمان أن أتقرب إلى اللّه تعالى بإخراجك من وظيفة التدريس في دار العلوم بسوء نتيجة دروسك التي تظهر لي في الامتحان ؟! ولكن يغرك مني أني أعلم أن عندك أولاداً كثيرين تغلب على قلبي الشفقة عليهم!!» ولقد نشر الشيخ سليمان العبد في «المنار» مقالاً يبرىء فيه الأستاذ الإمام من هذا الافتراء .

ولذلك جعلت كلمة التوحيد عنوان الدخول فيه ، حتى إذا ما قالها المشرك في ميدان القتال وجب الكف عنه .. إلخ ..

وسيكون موضوع درسنا الآتي إقامة البرهان على هذه العقيدة ، وإني سأحضر معي عند المجيء إلى هذا الدرس مائة جنيه ، وأعدكم بأن من أقام أمامي البرهان على الوحدانية قبل أن يسمعه مني ، وأمكنه أن يجيب عما أورده عليه من الاعتراض جواباً صحيحاً فإني أدفع إليه هذا المبلغ ، وليبلغ الشاهد منكم الغائب .

* * *

ها هي ذي الجنيهات المائة ، فمن كان مستعداً لإقامة البرهان قبل أن يسمعه مني فليتقدم .... فأصغوا إليّ إذاً ....

حوار مع الشيخ عليش[1]

الشيخ عليش : بلغني انك تقرأ شرح العقائد النسفية درساً .

الشيخ محمد عبده : نعم .

الشيخ عليش : وبلغني انك رجحت مذهب المعتزلة على مذهب الأشعرية !

الشيخ محمد عبده : إذا كنت أترك تقليد الأشعري فلماذا أقلد المعتزلي ؟ إذاً أترك تقليد الجميع وآخذ بالدليل .

الشيخ عليش : أخبرني الثقة بذلك .

الشيخ محمد عبده : هلم الثقة الذي يشهد بذلك ، فليميز أمامنا هنا بين المذهبين ، وليخبرنا أيهما رجَّحْتُ .

الشيخ عليش : أو مثلك يفهم شرح العقائد ؟

الشيخ محمد عبده : الكتاب حاضر ، وأنا حاضر ، فسلني إن شئت .

---

(١) كان الإمام لا يزال طالباً بالأزهر ، وكان يلقي دروساً في مسجد محمد بك أبو الذهب ، فاستدعاه الشيخ عليش ودار بينهما هذا الحوار الذي انتهى بمشادة انسحب بعدها الأستاذ الإمام ليواصل دروسه ، مستعدا لرد اعتداء الشيخ عليش بواسطة عصا وضعها إلى جواره وهو يلقي درسه على الطلاب .

بين اليأس والرجاء

إن إنتقام اللّه تعالى من المسلمين ، لإعراضهم عن كتابه وعن هدى رسوله ، اتباعاً لأهوائهم وشهواتهم ، وما فتنهم به ساداتهم وأمراؤهم ، لمَّا يبلغ حده ، بدليل ان هذه النقم لا تزال تتجدد وتتعدد . . . إن المسلمين مصابون بالعقم ، لا يموت أحد من أصحاب المزايا الكبيرة والأعمال النافعة فيهم ويخلفه مثله ، على خلاف ما ترى في الأمم الحية . . . مثلاً : **الشيخ المهدي العباسي والشيخ علي الليثي ، في مصر . . . والأمير عبد القادر الجزائري ، والسيد محمود حمزة مفتي الشام** ، وغيرهم ، لا يوجد أحد مثلهم ولا من يقرب منهم . . .

(لكن) . . . إنني أرى في هذه الشجرة الجرداء ورقات خضر فلا أدري أهي من بقايا الحياة الأولى أم هي بدء حياة جديدة ؟؟

أرَقٌ لحال المسلمين

أرقني الليلة الفكر في حال المسلمين وما ينزل بهم من البلاء ببعدهم عن دينهم ، واتباع أهوائهم وشهواتهم ، وقوي سلطان الفكر فهاج المجموع العصبي ونبهه تنبيهاً شديداً ، حتى حدثتني نفسي بأن أنزل إلى حيث يكثر اجتماع الناس «كالموسكي» و«الأزبكية» فأقف في الطريق أو تجاه أحد مجامع اللهو (كالمقاهي) ، وأنادي : أيها الناس ، ماذا رأيتم في دينكم من القبيح حتى تركتموه ؟! وماذا رأيتم فيما اخترتم بديلاً منه حتى تقلدتموه ؟! ثم أخطبهم في حقيقة ما هم فيه ، وأنذرهم عاقبة ما هم عليه ، وأبين لهم طريقة النجاة منه . وقد عالجت النوم فلم أملك منه شيئاً ، فلجأت إلى الكتابة ، وما كنت لأكتب في الليل ، فجرى القلم بفصل جعلته في أواخر فصول (رسالة التوحيد) ، فثابت إليّ بعد ذلك نفسي ، وران النوم على عيني ، ولكن الليل كان قد آذن بالرحيل وجاء وقت السحور ، فلم أنل منه نيلاً ، فكانت هذه النومة في النهار عوضاً عما فاتني في الليل[١] .

---

(١) كان ذلك في رمضان سنة ١٣١٥ هـ سنة ١٨٩٨ م . وهذا الحديث أفضى به الأستاذ الإمام للشيخ رشيد رضا إيضاحاً لسبب نومه بالنهار على خلاف العادة .

بين القرآن وكتب الفقه[1]

الشيخ رشيد : ماذا بك ؟ وما هذا الذي تنظر فيه ؟؟.

الأستاذ الإمام : هو التهيج العصبي الذي يلم بي أحياناً من الفكر في الأمور العامة ، وهذه كتب (ثلاثة) في أصول الفقه الهو بمباحثها عن القرآن !! فإنني إذا فكرت فيه رأيت بعد المسلمين عنه فيقوى هذا التهيج العصبي ولم أجد شيئاً يشغل الفكر مثلها ؟؟!

الفقه والفقهاء

إن المسلمين ضيعوا دينهم ، واشتغلوا بالألفاظ وخدمتها ، وتركوا كل ما فيه من المحاسن والفضائل . . . ولم يبق عندهم شيء . هذه الصلاة التي يصلونها لا ينظر اللّٰه إليها ولا يقبل منها ركعة واحدة ، حركات كحركات القرود ، وألفاظ لا يعقلون لها معنى ، لا يخطر ببال أحد منهم انه يخاطب اللّٰه تعالى ويناجيه بكلامه ، ويسبح بحمده ، ويعترف بربوبيته ، ويطلب منه الهداية والمعونة دون غيره .

ومن العجيب أن فقهاء المذاهب الأربعة (وربما غيرهم أيضاً) قالوا : إن الصلاة بلا حضور ولا خشوع يحصل بها أداء الفرض ويسقط الطلب ، ما هذا الكلام ؟!.. إنه لباطل . . كل آية تذكر الصلاة تبطله . . قالوا : النية في الصلاة : أن يقصد الإنسان فعل هذه الصلاة دون غيرها . وبالغ بعضهم فقال : لا بد من تصور جميع أعمالها عند التكبير ، وفسروا قوله ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات» بهذا . إنما قصد الفعل عند مباشرته طبيعي ، فإنني إذا قمت أمشي لا أقصد بمشيي القعود القعود . . وحاشى للّٰه أن نفرض الشريعة الحكيمة هذا ، وتجعل عليه مدار الأعمال والعبادات .

ولكن هؤلاء الفقهاء حرفوا كل نصوص الكتاب والسنة . . إن اليهود لم تحرف التوراة أكثر مما حرفوا . . المراد بالنية ، في الحديث ، قصد المرء وغرضه من فعله ، وهو إما وجه اللّٰه وابتغاء مرضاته (وهو النية الصحيحة) وإما غرض آخر كالرياء . . .

---

(١) جرى ذلك الحديث بين الأستاذ الإمام والشيخ رشيد رضا في منزل الأول بعين شمس سنة ١٣٢١ هـ سنة ١٩٠٣ م .

إن صلاة «المستر براون» الإنكليزي[1] عندي خير من صلاتهم . . . هو رجل انكليزي رأى ترجمة القرآن فأسلم ، وهو يحملها ويقرأ فيها دائماً عند الفراغ ، ويصلي بحسب ما يفهم من القرآن ، ويستقبل القبلة كما حرره بحسب معرفته بعلم الفلك ، ويركع ويسجد ، فهذا وجد عنده روح الصلاة ، وكان لا يعلم الأوقات وعدد الركعات ، قال لي : إنني أصلي عند الفراغ بحرارة وخشوع . . وسألني عن صلاته ، فقلت له : أنا أصلي ، فصلي معي ، وعلمته كيفية الصلاة في زمن قصير بالعمل ، فتمت له الصلاة بصورتها وروحها . . وقال لي مرة : إنه يعجب لكون المسلمين المؤمنين بالقرآن لا يسبقون كل الأمم ويكونون خير الناس ، وقد سألني من أكثر الناس جناية على القرآن ؟ فقلت : ذووه وأصحابه !! فسرَّ بجوابي هذا كثيراً . أُوتيَ كل هذا الإعجاب بالقرآن والاعتبار والاهتداء به مع أن الترجمة الإنكليزية له بعيدة عن الصواب في مواضع كثيرة .

* * *

وقد جعل (الفقهاء) كتبهم هذه ، على علاتها ، أساس الدين ، ولم يخجلوا من قولهم : ! إنه يجب العمل بما فيها وإن عارض الكتاب والسنة ، فانصرفت الأذهان عن القرآن والحديث ، وانحصرت أنظارهم في كتب الفقهاء ، على ما فيها من الاختلاف في الآراء والركاكة . . .

* * *

ينبغي لمن يؤلف أن يحيط أولاً بمسائل الباب الذي يكتب فيه ، وان يعتمد على كتب القرون المتوسطة «كالزيلعي»[2] لا هذه الكتب المختلة «كالكنز» و«التنوير» ، وأن يرجع أحكام الباب ومسائله إلى قواعد كلية ، ثم يسرد الأحكام بعدها في غاية الوضوح ، وان يراعي الترتيب الطبيعي بين المسائل ، فيقدم ما ينبغي تقديمه ويؤخر ما ينبغي تأخيره ، وأن لا يخلط مسائل باب بآخر ، وإن كان بعض المسائل يشترك فيه بابان

---

(١) ضابط بحري بريطاني أدهشته أوصاف البحر في القرآن ، فلما علم من بعض الهنود أن الرسول لم يركب البحر ويعاين أمواجه وظلماته آمن بأن هذا ليس كلاماً من عنده ، فاعتنق الإسلام .

(٢) حديث الأستاذ الإمام في هذه الفقرة جواب عن سؤال للشيخ رشيد رضا حول الطريقة المفيدة في تهذيب فقه الحنفية .

كالبيع والإجارة فلا بأس بذكره في كل باب ، ولا بأس بالإشارة إلى انه تقدم ، وأن يذكر القول الراجح بدليله ، ويذكر بعده القول المرجوح مع الإشارة إلى دليله ، وأن يختصر في مسائل العبادات .

إذا رجعنا إلى كتب القرون المتوسطة ، «كالزيلعي» ، نكون قد خطونا خطوة لإصلاح الكتب والفقه ، وما دمنا مقيدين بعبارات هذه الكتب المتداولة ، ولا نعرف الدين والعلم إلا منها ، فلا نزداد إلا جهلاً . هذا «**الشوكاني**» لما كسر قيود التقليد الأعمى ، حيث كان وهابياً معتدلاً ، صار عالماً فقيهاً . . . إن حالة الفقهاء هذه هي التي ضيعت الدين . . . إن العامي الذي يحتاج إلى الكسب والعمل لا سعة عنده لصرف سنين طويلة في تعلم أحكام الطهارة وسائر العبادات في الأزهر من هذه الكتب الطويلة الصعبة ، وأي حاجة إلى هذه الأبحاث الطويلة ؟ والتدقيقات في مسائل المياه والطهارة والصلاة ؟! . .قال ﷺ : «صلوا كما رأيتموني أصلي» . وشرح صلاته ووضوئه يمكن بيانه في ورقات قليلة ، وكل ماء يشرب وينقى به البدن يطهر به .

من أين جاءهم ان ماء الزهر والورد لا يصح الوضوء به ، وهل فيه زيادة عن الماء إلا شيء من الطيب الذي هو من مقاصد الشريعة ؟ وماء «الكولونيا» أحسن شيء للوضوء ، فإنه يمنع آثار المرض أيضاً ، وكان **الشيخ الأنبابي** يقول بنجاسته لأن فيه «سبيرتو» !! وهل يوجد شيء مطهر كالسبيرتو ؟! والاستدلال على نجاسته بإسكاره ، ضعيف ، فإنه لا يمكن شربه لأنه محرق للجوف ، كذلك محلول السليماني من أحسن المنقيات، والمطهرات الطبية ، وشربه قاتل .

ثم إن الناس تحدث لهم باختلاف الزمان أمور ووقائع لم ينص عليها في هذه الكتب ، فهل نوقف سير العالم لأجل كتبهم ؟! هذا لا يستطاع ، ولذلك اضطر العوام والحكام إلى ترك الأحكام الشرعية ولجأوا إلى غيرها .

إن أهل «**بخارى**» جوزوا الربا لضرورة الوقت عندهم ، والمصريون قد ابتلوا بهذا فشدد الفقهاء على أغنياء البلاد فصاروا يرون ان الدين ناقص ، فاضطر الناس إلى الاستدانة من الأجانب بأرباح فاحشة استنزفت ثروة البلاد وحولتها للأجانب ، والفقهاء هم المسؤولون عند الله تعالى عن هذا وعن كل ما عليه الناس من مخالفة الشريعة ، لأنه كان يجب عليهم أن يعرفوا حالة العصر والزمان ، ويطبقوا عليه الأحكام

بصورة يمكن للناس اتباعها ، لا أنهم يقتصرون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها ويجعلونها كل شيء ، ويتركون لأجلها كل شيء .

يقرءون الأصول ، ولا يخطر ببال أحد منهم أن يرجع فرعاً من هذه الكتب إلى أصله ، أو يبحث عن دليله ، بل لم يخجلوا أن يقولوا : نحن مقلدون ، لا يلزمنا النظر في الكتاب والسنة . . . دانوا لكتب المتقدمين على تعارضها وتناقضها الذي تشتت به شمل الأمة ويكتفون بقول : «وكلهم من رسول الله ملتمس» !؟

كان ينبغي أن يكون للفقهاء جمعيات يتذاكرون فيها ويتفقون على الراجح الذي ينبغي أن يكون عليه العمل ، وإذا كان بعض المسائل رجح لأسباب خاصة بمكان أو زمان ينبغي لهم التنبيه على ذلك ، وإن هذا الحكم ليس عاماً ، وإنما سببه كذا ، لا أنهم يجعلون كل ما قيل عن فقيه واجب الاتباع في كل زمان ومكان .

رسالة إلى أحد علماء الهند(١)

بسم الله الرحمٰن الرحيم . . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ أحمد أبي الخير . حفظه الله .

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد . . فقد سرني أن أعرف لي أخاً جديداً في بلاد الهند ، يقدر العلم قدره ، ويحب بثه بين الناس ونشره .

يسألن الأخ أن أجيزه بجميع ما تلقيت وما قويت ، ويطلب مني أن أرسل إليه سندي في رواياتي . . وإني أقول لحضرتكم : إنني استحي أن أجيز شخصاً لم أره بشيء ، ولم يكن لي فيه أثر بالنسبة إليه ، كيف أجيزك بشيء تقول إنك ترويه عني ، ولم تروه في الحقيقة عني ؟ ثم ما قيمة سند لا أعرف بنفسي رجاله ، ولا أحوالهم ، ولا مكانهم من الثقة والضبط ؟ وإنما هي أسماء تتلقفها المشايخ بأوصاف نقلدهم فيها ، ولا سبيل لنا إلى البحث فيما يقولون .

أحب أن أكشف لك رأيي في هذه الشؤون : هذه كلها صور شغل بها المسلمون

---

(١) أرسلها الأستاذ الإمام من مصر ، كما يتضح من تاريخها ، هي جواب على طلب ذلك العالم الهندي أن يجيزه .

عن الحقائق ، ولا قيمة لها في خلاصهم مما هم فيه من شقاء الدنيا ، ولا فائدة لها فيما يوعدون به من شقاء الآخرة على ما فرطوا في جنب اللّه . وإنما شأني الذي كلفت به هو أن أعلم وأقول وأبين وأكتب ما استطعت ، ومن تلقى عني شيئاً أو فهمه مما كتبته فله أن يرويه عني وأن يؤديه على ما فهمه ، بعد دقة البحث والتحري ، والأخذ بالاحتياط في فهم القول وتحرير الرواية ، فإذا وصل إليك شيء مما أقول أو أكتب ، وفهمته كما أحب أن يُفْهَم ، فإليك الأخذ به وروايته عني ، بعد التحقق من صحة النسبة ، واكون لك من الشاكرين .

أسأل اللّه أن يوفقنا جميعاً إلى خدمة دينه الحق ، إنه ولي العاملين . والسلام عليكم ورحمة اللّه .

١٩ ربيع الأول سنة ١٣٢٢[١] مفتي الديار المصرية

محمد عبده

---

(١) هجرية وهي توافق سنة ١٩٠٤ م .

الرد على هانوتو

الاسلام المسلمون والاستعمار

- ١ -

قرأت[1] الساعة مقالة «مسيو هانوتو» ، المتَرْجَم في جريدتكم نقلاً عن جريدة «الجورنال» الباريسية ، تتميماً لبحثه السابق .

بحثه السابق وشيء من تتمته إنما هو دافق من غيرته على شؤون دولته ، يريد أن يدعو قومه إلى التبصر في وضع قاعدة لمعاملة المسلمين الذين يدخلون تحت ولايتهم ، أو يجاورونهم في ممالكهم ، ذلك لا يتم ، على مذهبه ، إلا بالبحث في طبيعة الأمر الذي صار به المسلمون غيرَ المسيحيين ، وبه يُفَضِّلُ المسلمون سلطة إسلامية على سلطة فرنساوية ، فإن أمكن تلقيح ما عليه المسلمون بالولاء الفرنساوي ، وسَهُل الجمع بين ما وقر في نفوسهم وبين الخضوع الأعمى لسلطان فرنسا ، طاب الجوارُ في قلوب الملة لعقيدة الإسلام والطاعةُ لكل أمر يصدر عن آخر فرنساوي في طبقته ، صح للدولة الفرنساوية ان تمن على المسلمين بالبقاء في الأرض ، وإلا وجب عليها أن تحمل عليهم فتبيدهم من البسيطة أو تجليهم إلى قارة أخرى .

---

(١) كتب الأستاذ الإمام رده على هانوتو في ست مقالات بجريدة المؤيد سنة ١٩٠٠ م سنة ١٣١٨ هـ ، وجاءت مقالاته الثلاث الأولى رداً على مقالين لهانوتو نشرا بجريدة «الجورنال» الفرنسية وترجما ونشرا بالمؤيد، ومقالاته الثلاث الأخيرة رداً على حديث أجراه صاحب «الأهرام» مع «هانوتو» ، ونشر بالأهرام .

ولهذا جره البحث إلى النظر في أصول دين المسلمين ، والمضاهاة بينه وبين الدين المسيحي ، بل بينه وبين أديان كثيرة أشار إليها في كلامه ، ثم الحكم في تفضيل احد الدينين على الآخر بآثار كل منهما في أنفس معتقديه .

أما غايته في البحث ، وتناوله بيده فمحضاء[1] يحرك به نيران العداوة في قلوب الفرنساويين تثير عزائمهم إلى حرب المسلمين ، وليكون «مسيو هانوتو» للأمة الفرنساوية مثل ذلك الراهب الذي أثار تلك الحروب المعروفة[2] ، فذلك أمر نَكِلُ فائدتهُ إليه ، وإلى علمه بمكان دولته من القوة ، ومنزلة تمدنه من المرحمة والإنسانية ، ونستلفت إليه ذكاء بعض شباننا من المسلمين الذين يعرفون اللغة الفرنساوية ، ويتجملون بآداب الأمة الفرنساوية ، ويطربون إذا ذكرت المدنية الفرنسوية .

ولو لم يتعرض «مسيو هانوتو» إلى الطعن في أصل من أصول الدين ، ما حركت قلمي لذكر اسمه ، وكان حظي من النظر في مقاله هو العظة والاعتبار ، حظ الناظر في أحوال الأمم وعمال رجالها ، حظ المؤرخ الذي يقرأ ليفهم ، ويفهم ليعلم ويحكم ، ولا يهمه أخطأ القائل أو أصاب[3] .

أما ما جاء به من التحكك بأصل الدين ، فهو الذي أغْمِزُهُ بما أكتب اليوم :

يرى الناظر في كلام «مسيو هانوتو» لأول وهلة ، انه مقلد في التاريخ ، كما هو مقلد في العقائد ، وإنه جمع خليطاً من الصور وحشرها إلى ذهنه ، ثم هو سلط عليه قلمه ينثرها كما يشاء القدر ليدهش بها من لا يعرف الإسلام من الفرنساويين ، وهو جمهورهم .

---

(١) المحضاء هو العود الذي تحرك به النار كي يزداد اشتعالها .

(٢) الإشارة إلى الراهب «بطرس السائح» الذي تزعم الأساطير الصليبية أنه سمع صوت المسيح بجوار قبره في فلسطين يدعوه كي يطلب من ملوك أوروبا وأمرائها وجمهورها شن الحرب الصليبية ضد العرب والمسلمين !! . فقابل لذلك الباب «أوربانس الثاني» ، وأخذ يجوب أنحاء أوروبا محرضاً على القتال . أنظر الفصل الخاص به في المجلد الأول من تاريخ الحروب المقدسة في المدعوة حرب الصليب ، طبعة القدس سنة ١٨٦٥ م . ص ١ ما بعدها .

(٣) يقرر الأستاذ الإمام منذ البداية تجنبه للسياسة وللجوانب التي هي غاية «هانوتو» من بحثه ، ويعلن أن هدفه هو مناقشة الجوانب الإسلامية الدينية . . وإن كنا نعتقد أن عملية الفصل هذه من الصعب الالتزام الدقيق بها .

أكْثَرَ من ذكر التمدن الآري والتمدن السامي ، والتفريق بينهما ، وأنّ أحَدَهُما قَهَرَ الآخر ، وان التمدن الآري هو الذي ظفر بقرُنْة التمدن السامي ، وما يشبه ذلك .

انَّ مهد التمدن الآري ومنبت غراسه «الهند» لا يزال إلى اليوم على الوثنية التي يحبها «مسيو هانوتو» في أغلب انحائه ، ولكن أهله هم الذين قضوا على الآخذين بعقائدهم أن ينقسموا إلى أقسام لا يمكن الخلط بينها ، بل يدوم تباينها ما دامت الأرض أرضاً ، ومن طبقاتهم من قضى عليهم دينهم بالانحطاط في العقل والخلق والصناعة ، ولا يباح له أن يرتقي إلى طبقة ما فوقه إلى انقضاء العالم وهو الجمهور الأغلب منهم وفيهم من حكم عليه بالنجاسة حتى لا يباح لأهل طبقة أخرى أن تمسه . والاعتقاد بفناء العالم ، وأنه لا يليق بالانسان أن يهتم بشؤون العيش فيه هو مبنى عقائدهم .

فهل جاء هذا للآخذين بدين «البراهمة» من التمدن السامي ؟ وهو لم يَعْرِفْهُمْ إلا في آخر الزمان ، ولم يخالط إلا قلوب القليل منهم ، كما لا يخفى على من له المام بجغرافية البلاد الهندية ؟؟ .

ثم . . هل يظن «مسيو هانوتو» ان التمدن الذي وصل إليه الأوروبيون حُمِلَ إلى أوروبا مع المهاجرين الأولين الذين رحلوا من البلاد الشرقية الآرية إلى الأقطار الغربية ؟؟ .

ألم تخطر بباله تلك العظائم التي انتفخ بها بطن التاريخ ، وما كانت عليه أوروبا من الآرية الهمجية ، وان العلم والمدنية لم يَنْبُعا من معينها ، وإنما جاءاها بمخالطة الأمم السامية ، كما يعلمه المطلع على تاريخ اليونان الأقدمين ، وهم أساتذة الأوروبيين الآخرين ، كما يزعم «مسيو هانوتو» .

ما هذا التمدن الآري الذي كانت عليه أوروبا عندما انتقص اطرَافَهَا المسلمون ؟ هل كانت تلك المدنية هي التسافك في الدماء ، واشهار الحرب بين الدين والعلم ، وبين عبادة اللّه والاعتراف بالعقل ؟؟ . . نعم . . هذا هو الذي كان معروفاً عند الغربيين وقت ما ظهر الإسلام .

ماذا حمل الإسلامُ إلى أوروبا ، وما هي المدنية التي زحف عليهم بها ، فردوها ؟؟

زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا الآريين . زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين ، نَظَّفَ جَميع ذلك ونَقَّاهُ من الأدران

والأوساخ التي تراكمت عليه بأيدي الرؤساء في الأمم الغربية لذلك التاريخ ، وذهب به أبلج ناصعاً ، بَهر به أعين أولئك الغافلين المسكعين[١] الذين كانوا في ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون .

إني أكيل «لمسيو هانوتو»، إجمالاً بإجمال ، والتفصيل لا يجهله قومه ، وكثير من منصفيهم لم يستطع إلا الاعتراف به .

إن أول شرارة الهبت نفوس الغربيين ، فطارت بها إلى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها ، وعمل رجال الدين المسيحي على إطفائها مدة قرون فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، واليوم يرعى أهل أوروبا ما نبت في أرضهم بعد ما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدي أهل دينهم في سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة .

يحار القارىء لكلام «مسيو هانوتو» في معنى المدنية السامية التي جاء بها الإسلام وتصادم بها مع المدنية الآرية . ولعل عنايته بالألفاظ التاريخية ، مع قصوره عن النفوذ إلى حقائق ما أودِعَتْهُ ، هو الذي قَصُرَ به عن النجاح في أعماله في السياسة الخارجية بين أمة مثل الأمة الفرنساوية التي تنقاد بذكائها إلى الأذكياء[٢] . والعارف بطباع الأمم لا يعسر عليه أن يقودها إلى ما يضمن لها الفوز على جيرانها ، وإنما العسر كل العسر أن يوجد فيها ذلك العارف اليوم .

إن الناظر في التاريخ تحمر عيناه من مناظر الدماء المتجسدة على جليد الأزمان ، ذلك مما سفكه أهل ذلك الدين المتحد بالمدنية الآرية ليقاوموا دعاة تلك المدنية ويخمدوا نارها .

إن صح الحكم على الأديان بما يُشَاهَدُ في أحوال أهلها وقت الحكم ، جاز لنا أن نحكم بأن لا علاقة بين الدين المسيحي والمدنية الحاضرة ، فإن الإنجيل بين أيدينا نقرأه ونفهمه ، ولا يغيب عنا شيء من دقائق معناه ، يأمر الأنجيل أهله بالانسلاخ عن الدنيا والزهادة فيها ، يوجبُ عليهم إذا سلبهم السالب قميصاً أن يعطوه الرداء أيضاً وإذا

---

(١) الساكع : من يمشي على غير هداية ، والمتمادي في الباطل ، والمتحير في الأمر .
(٢) كان «هانوتو» وزيراً لخارجية فرنسا .

ضربهم الضارب على خدهم الأيمن أن يديروا له خدهم الأيسر ، وان يَفْنَوْا بكليتهم في الأب ، ويَقُصَّ عليهم أن دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول الغني ملكوت السماوات ، وما شابه ذلك من الوصويا الملكوتية التي تليق برسول إلهي رباني يدعو الناس إلى الانقطاع من هذا العالم الفاني ليليقوا بالانتظام في أهل ذلك العالم الباقي .

هل خطر ببال «مسيو هانوتو» أن يجعل «ما للّه للّه وما لقيصر لقيصر» كما أوصى الإنجيل ؟ وهل رأى مثالاً لذلك في المدنية الآرية التي ناخت مع الدين المسيحي ؟؟

العيان يدلنا على أن شيئاً من ذلك لم يكن ، فإن هذه المدنية إنما هي مدنية الملك والسلطان ، مدنية الذهب والفضة ، مدينة الفخفخة والبهرج ، مدنية الختل والنفاق ، وحاكمها الأعلى هو «الجنيه» عند قوم ، و«الليرا» عند قوم آخرين ، ولا دخل للإنجيل في شيء من ذلك .

أوصى المسيح بأن يترك ما لقيصر لقيصر ، حتى لا يشغب المسيحيون على ملوكهم من غيرهم ، فانقلبت الحال بهم وأصبحوا لا يحتملون أن يروا لهم رعايا من غير دينهم ، فضلاً عن ملوك .

نعم ، يوجد قوم الآن يقيمون أوامر الأنجيل ، وهم جماعة من الأميركان تركوا بلادهم وخرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا إلى القدس الشريف ينتظرون نزول المسيح ليستقبلوه لأول هبوطه على المنارة المشهورة ، وليكونوا أول من يقبل قدميه ويديه ، وهم من طهارة القلب وسلامة النفس ونزاهتها عن الطمع بحيث انقطعوا عن كل عمل سوى النظر في الكتب المقدسة ، فإن كانت هذه هي المدنية الآرية ، التي صارعنها الدين الإسلامي فأنا أول من يسلم لحججه ويقتنع بأدلته .

من الساميين : الفينيقيون ، وهم أساتذة القوم في الصناعة والتجارة ، بل والقراءة والكتابة ، ومنهم : الآراميون ، وقد كانت لهم مدنية لا تُنْكَرُ أيام الرومانيين ، وما كان الغربيون لينكروا فضلهم عن ذلك ، ومبادىء الصناعة والعمل عند جميع الأقوام المرتقية في سلم الإنسانية واحدة ، وإنما يختلف قوم عن قوم بما تحدثه في نفوسهم ضرورات المعيشة ، وما تجلبه عليهم عاصفات الحوادث ، وما تطبعه فيهم طبائع الأقاليم ، وما زالت الأمم يأخذ بعضها عن بعض في المدنية ، لا فرق عندهم بين آري وسامي ، متى مست الحاجة إلى تناول عمل أو مادة أو ضرب من ضروب العرفان لدفع

ضرورة من ضرورات الحياة أو استكمال شأن من شؤونها .

وقد أخذ الغرب الآري عن الشرق السامي أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل عن الغرب المستقل ، فلم يبق من معنى للمدنية يريده حضرة الكاتب إلا الدين ، وقد ظهر في كلامه أن الدين السامي يراد منه التوحيد ، والدين الآري يعني به ما يقابله .

وإني أقرر لهذا الوزير الشهير حقيقة بديهية يعرفها صبيان المكاتب ، وهي ان دين التوحيد ليس ديناً سامياً ، بل هو دين عبراني فقط ، عرف به **إبراهيم عليه السلام** ، وبنوه ، ومنهم **عيسى** من جهة أمه وأصحابه وأنصاره الأولون ، أما بقية الساميين من عرب وفينيقيين وآراميين وغيرهم من الأمم المذكورة في الكتاب المقدس ، وهو يعرفها ، فقد كانوا وثنيين مُشبِّهين ، ولم يخالفوا في ذلك بني عمهم أو اعداءهم الآريين .

وقد خاض الكاتب في تفضيل التشبيه والتجسيم على التوحيد ، وذكر لذلك عللاً وأسباباً أدَّتْهُ إليها سعة اطلاعه في الفلسفة وأحوال الاجتماع الإنساني ، وسنأتي على الكلام فيها ، وهي المقصد من كلامنا إن شاء اللّه تعالى .

وقبل إلقاء القلم ، أُذَكِّر الذين يتفانون في إجلال مثل هذا الوزير كما يتفانى المسلم في اللّه على رأيه ، أني إن صغَّرتُ شأن «**هانوتو**» في معارفه التاريخية ، فذلك لأنه صغير فيها حقيقة ، وكثير من قومه يعرف ذلك منه ، لأنه لا أمير في العلم إلا العلم . والسلام .

ـ ٢ ـ

تحرش «مسيو هانوتو» بمسألتين من أمهات مسائل الدين : القدر ، والتوحيد ، أو التنزيه . وبعد أن خلط في بيان وجه الاشكال في المسألة الأولى واختلاف الناس فيها قديماً ، وإنهم انقسموا إلى فريقين :

قائل بأن العبد مُسَيَّرٌ بقدرة اللّه ، لا عمل لإرادته في فعله .

وذاهب إلى أن خالقه وهبه اختياراً يتصرف به ، فله ما كسب وعليه ما اكتسب .

قال : إن الرأي الأول يحط الإنسان إلى حضيض الضعف ، والثاني يرفعه إلى ذروة القوة ، ثم وصل الأول بمذهب «**البوذيين**» القائلين بفناء الموجودات في الوجود الأزلي ، والثاني بمذاهب اليونانيين القدماء الذين يدينون بتشبيه الإله بالإنسان في أوصافه

المادية ، وإن الأول قعد بأهله ، والثاني ارتفع بمعتقديه إلى مراتب الكمالات الإنسانية . وهو خلط وخبط لم يعهد لهما مثيل .

ثم انصب على الديانتين المسيحية والإسلامية ، وقال : إنهما تمثلان ذينك المذهبين ، أي مذهبي الناس في القدر ، وأن الأولى ربانية تورثت ما ترك الآريون ، والثانية بشرية أخذت ما ترك الساميون ، وأن الأولى ترقى بالإنسان إلى المقام الإلهي ، والأخرى تنزل به إلى أسفل درك حيواني ، ويظهر ميل كل من الديانتين ظهوراً بيناً في الأصل الذي بني عليه كل منهما ، فأصل الأولى : هو إيجاد الإله الأب للإله الابن ، حتى كان إلهاً بشراً ، واتصال الإلهين بروح القدس ، وأصل الثانية : تنزيه الإله عن البشرية وتقديسه إلى حد تنقطع فيه النسبة بينه وبين الإنسان .

ثم رجع بعد هذا إلى الخلط بين الدينين ، وردهما إلى أصول واحدة ، وعقد التشابه بينهما ، إلى آخر ما أطال به على غير جدوى .

* * *

هل عُهِد بين الكُتّاب وأهل النظر تشويش في الفكر وخلل في المقال يشبه ما جاء به هذا الكاتب ؟ أدَعُ الحكم في ذلك لمن له أدنى إلمام بمذاهب الأمم وآرائهم .

لم يختص الكلام في القدر بملة من الملل ، مشبهين أو منزهين ، ولا دخل للتشبيه والتنزيه في شيء من ذلك ، بل كان منشأ الكلام في ذلك الاعتقاد بإحاطة علم اللّٰه بكل شيء ، وشمول قدرته لكل ممكن . وقد عظم الخلاف في المسألة بين المسيحيين انفسهم ، وهي مشبهة في رأي «مسيو هانوتو» ، وبدأ النزاع بينهم قبل الإسلام ، واستمر إلى هذه الأيام ، ولعل «هانوتو» اطلع على مذهب «التوميين» ـ أتباع القديس توما[1] ـ أو الدومينيكيين ، وهم جبرية ، وأشياع «لو ايولا» ، وهم قدرية[2]

---

(١) هو القدس توما الأكويني (حوالي ١٢٢٥ ـ ١٢٧٤ م) ولد في صقلية ، ودرس في نابولي ، ومن أساتذته البرت الكبير ، ولقد أعلن قديساً سنة ١٣٢٣ م ، وهو معدود ضمن كبار رجال اللاهوت (المتكلمين) المسيحيين ، ولقد ترك ثمانية وتسعين كتاباً من أهمها (المجموعة الفلسفية) و(المجموعة اللاهوتية) . أنظر (الموسوعة الفلسفية المختصرة)، الطبعة العربية . القاهرة سنة ١٩٦٣ .

(٢) في الفكر الإسلامي تطلق أحياناً كلمة «قدرية» على الجبرية باعتبارهم هم الذين ينفون «القدر» عن الإنسان وينسبونه للّٰه وحده ، وهذا هو رأي المعتزلة ومن وافقهم ، وتطلق أحياناً على القائلين

اختيارية ، ولكل من المذهبين شيعة بين أهل الملة المسيحية ، وليس هذا بمذهب سامي كما يزعم ، بل لم تنبت أصوله ولم تتشعب فروعه إلا بين الآريين ، ثم انتقلت عدواه إلى غيرهم .

هل سمعت بيهودي استلقى على قفاه ، وترك العمل اتكالاً على القدر ؟ هل سمعت بأحد من الفينيقيين ـ وقد وصلوا بزوارقهم ذات المجاديف إلى جزائر بريطانيا ـ انه كان ينام ويتلذذ بالأحلام اعتماداً على ما يسوقه إليه الغيب ؟ . . لكن سمعنا بذلك في الأديرة ، وبين الرهبان ، وعرفنا أخبار ذلك الجيش العرمرم من المتكلين الذين كانوا يعيشون عالة على الناس حتى ضجت منهم أوروبا في زمن من الأزمان ، وطلبت الخلاص منهم بالسيف البتار .

وقد اشتهر مذهب أهل البخت والاتفاق بين اليونانيين ، ولم يخف أمره على صغار المتعلمين لمبادىء الفلسفة ، ذلك المذهب الذي يبتدئون كتب الفلاسفة بإبطاله ، وهو مذهب القائلين إن الأشياء توجد بالاتفاق أو بالصدفة ، ولا يحتاج الممكن في وجوده إلى سبب . أليس هذا أدخل في باب الجبرية من إسناد كل أمر إلى خالق الكون ؟ وهل يرتفع هذا المذهب بمعتقده الآري إلى منازل الرفعة ومكانات الشرف ؟

* * *

جاء القرآن الشريف ـ وهو الكتاب المنزل بالإسلام ـ يعيب على أهل الجبر رأيهم ، وينكر عليهم قولهم : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أشركنَا وَلَا آباؤنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شيءٍ ، كذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ من قَبْلِهِمْ﴾[1] إلخ الآية ، وأثْبَتَ الكسب والاختيار في نحو أربع وستين آية ، وما جاء به مما يتوهم الناظر فيه ما يخالف ذلك فإنما جاء في تقرير السنن الإلهية العامة ، المعروفة بنواميس الكون ، كما في آية : ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[2] إلخ ونحوها .

والعاقل يرى الفرق الجلي بين مسألة اختيار العبد في أفعاله وبين أثر القدرة

بالحرية والأختيار ، باعتبارهم الذين ينفون «القدر» الخاص بالفعل الإنساني عن اللّه ويجعلونه من نصيب الإنسان الخالق لأفعاله ، وهذا هو رأي الجبرية . أنظر (المغني في أبواب التوحيد والعدل) للقاضي عبد الجبار ابن أحمد جـ ٨ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٨ طبعة القاهرة .

(١) يونس : ٣٩ .

(٢) المائدة : ٤٨ .

الإلهية ، في أخلاق الأمم أو في تغريز الغرائز مثلاً ، فاختيار العبد في أفعاله مما يُقِرُّ به الوجدان ، ولا ينكره إلا من جهل نفسه ، لكن ما عليه الأمم من الاختلاف في الطبائع والغرائز والسجايا ليس لأحد من خلق اللّٰه فيه اختيار ، بل خلقهُ كخلق السماوات والأرض وما بينهما .

وجاء النبي ﷺ ، في عمله وقوله بما يؤيد ذلك ، فكان العامل الذي لا يكلُّ والدّائب الذي لا يملُّ والسّاهر الذي لا ينام والجادَّ الذي لم يبلغ شأوَهُ أحد من الأنام . هل تقول عنه : إنه اتكأ يوماً على وسادته واكتفى بالتسليم للقدر في اتمام دعوته ، قائلاً : الذي كفل لي النصر يكفيني التعب ، وضَمانةُ اللّٰه لإعلاء كلمة دينه تغنيني عن النَّصب ؟ كلا . . بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة إلا نشاطاً ، ولا تجد العصمة الإلهية من نفسه إلا حزماً واحتياطاً .

جاء أصحابه على أثره ، وتبعهم من جاء بعدهم من السلف الأولين ، وكانوا أكمل الناس إيماناً بإحاطة علم اللّٰه وشمول قدرته ، وأعرف الناس بقدر ما آتاهم اللّٰه من قوتي العقل والاختيار ، وكانوا أسوة في السعي ومثلاً في الدأب والكسب ، حتى كان من آثارهم في نشر الإسلام ما يتألم منه اليوم «**هانوتو**» وأمثاله .

هذه هي العقيدة السامية ، أو الدعوة المحمدية ، أو المدنية الإسلامية ارتقت بأربابها ، وهم من أهل البداوة في قاصية من الأرض ، لم يتلمظوا[1] بشيء من نعيم الحضر ، ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة ، حتى بلغت بهم ما بلغت ، واستوت بهم على عروش العزة والسلطان ، ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل مبلغاً مكنهم من التلطف بالأمم حتى وقفوا على ما كان خفياً لديها ، وكشفوا ما كان مستوراً عندها ، واستخرجوا من كنوز معارفها ما ظهر فضله على الأوروبيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية .

ولكن . . وا أسفاه !! نتأت رؤوس بين المسلمين كأنها رؤوس الشياطين ، واحتملت غثاء من قمش[2] الآريين ، وقذفت به في الأرض الطاهرة فتدنس به أديمها ، وانتشر قذَرُهُ وعم مزره .

(١) يتذوقوا بأطراف ألسنتهم .

(٢) الفتات والرديء من كل شيء .

جاء الموالي من عجم الفرس والرومان ، ولبسوا لباس الإسلام ، وحملوا إليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق ، واحدثوا في الدين بدعة الجدل في العقائد ، وخالفوا اللّه ورسوله في النهي عن الخوض في القدر ، وخدعوا المسلمين ببهرج القول وزور الكلام ، حتى كان ما كان من تفرقهم شيعاً ، واللّه يقول لنبيه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾(١) .

وجد بين المسلمين طائفة تعرف «بـالجبريـة» ، ولكنها كـانت ضعيفة ضئيلة ، يقذفها الحق ويطردها العقل وينبذها الدين ، حتى انقرضت بعد ظهورها بقليل ، ولم تبق بينهم بقاء «التوميين» بين النصارى ، وغلب على المسلمين مذهب التوسط بين الجبر والاختيار(٢) ، وهو مذهب الجد والعمـل وصدق الإيمـان ، وأخذَهُ عن المسلمين في أخريات الأيام أهل النظر من النصرانية ، مثـل «بوسيـه» ، ومن مال ميله ، وتبعهم الجمهور الأعظم منهم .

ولكن . . لا أنكر أن الزمان تجهم للمسلمين كما كان قد تنكر لغيرهم ، وابتلاهم بمن فسد من المتصوفة ، من عدة قرون ، فبثوا فيهم أوهاماً لا نسبة بينها وبين أصول دينهم ، فلصقت بأذهانهم ، لا على أنها عقائد ، ولكن وساوس ، قد تَمْلِكُ الجاهـلَ وتُرْبِكُ العاقلَ إذا لم يغلبها بعوامل الدين الصحيح ، فنشأ الكسل بين المسلمين بفشو الجهل بأصول دينهم ، وعاون على ذلك ميل الأعلياء منهم إلى توريطهم فيما هم فيه ، كما هو شأنهم في كل أمة .

وهذا الضرب من المتصوفة أيضاً من «حسنات» الآريين ، فإنه جاءنا من الفرس والهنود بما بقي فيهم من عقائدهم الأولى .

ما أَضَلَّ «هانوتو» وأمثاله من قصار النظر إلا أولئك الدراويش الخبثاء أو البُله

---

(١) الأنعام : ١٥٩ .

(٢) الإشارة إلى مذهب «الأشعرية» المنسـوب إلى أبي الحسن الأشعري (المتـوفى ٣٢٤ هـ) . أنظر تفاصيل مواقف هذه الفرق في كتابنا [المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية] ص ٢٧ ـ ٤٢ طبعة دار الشروق . القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

الذين يغشون أطراف الجزائر[1] وتونس ، ولا يخلو منهم اليوم قطر من أقطار الإسلام ممن اتخذ دينه متجراً يكسب به الحطام ، وجعل من ذكر اللّه آلة لسلب أموال الطغام .

أما لو رجع المسلمون إلى الحقيقة من دينهم لأدوا فرضهم ، واستنبتوا أرضهم ، واستغزروا من الثروة ، وأعدوا لفرنسا ما استطاعوا من قوة ، واعتمدوا في نجاح أعمالهم على معونة القدر ، وايقنوا في صولتهم علماً أن ليس من الموت مفر ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها ونال ما ينال القوي من الضعيف والعزيز من الذليل ، ولا نقلب جنونهم لدى «هانوتو» عقلاً ، وتحول هذيانهم حكمة وعلماً .

هذا ما يتعلق برأيه الضئيل في مسألة القدر عند المسلمين ، أما التنزيه والتشبيه فإنا نوفيه حقه في تتمة هذا المقال ، ونشفق على القارىء من الاملال . والسلام .

ـ ٣ ـ

اليوم آتي على آخر القول[2] لكسر شرة «هانوتو» في توثبه على الإسلام ، وما نعني بالكلام فيه اليوم هو التوحيد والتنزيه ، وخصمه التشبيه والتجسيد (الاعتقاد بتجسيد الألوهية) . ونبدأ الكلام في الثاني ونختم بالحديث عن الأول .

إن كان «مسيو هانوتو» قرأ شيئاً من أحوال الأمم ونشأة العقائد ، وعَقَلهُ ، يَعْلَمُ أن الوثنية ، وتوهم السلطان الإلهي ظاهراً في بعض الموجودات المادية ، كانت عقيدة الواقفين على أبواب الإنسانية ، لم يدخلوها ، ولم يتوسطوا منازلها ، وكانت ولا تزال دليلاً على انحطاط عقول أهلها ، مع تفاوت في درجات ذلك الانحطاط ، تبتدىء من وثنيي أفريقيا وتنتهي إلى بوذيي الصين وبرهمن الهند .

كذا ارتقى الإنسان في العلم ، ولطف وجدانه بالفهم ، ونفذ عقله بالتفكير في أسرار الكون ، وتمزقت دون روحه حجب المادة ، وانجلى له بوجود الأعلى على تفاوت

---

(١) وهؤلاء الدراويش كانوا من ركائز الاستعمار الفرنسي لبلاد الشمال الأفريقي ، ولقد حاربتهم الحركة الوطنية الجزائرية وفي مقدمتها مؤسسها عبد الحميد ابن باديس : انظر كتابنا (مسلمون ثوار) .

(٢) أي آخر القول في الرد على مقالي «هانوتو» في «الجورنال» الباريسية . فسيأتي للأستاذ الإمام ثلاث مقالات أخرى ، رداً على حديث هانوتو مع صاحب جريدة «الإهرام» .

كذلك في درجات الظهور والانجلاء حتى ينتهي إلى الاعتقاد بوجود واحد واجب يستحيل عليه أن يلبس لباس المادة على النحو الذي يظنه «**مسيو هانوتو**» وأمثاله ، لأن ما لا حد له محال أن تحيط وجوده الحدود .

وقد كان هذا شأن اليونانيين الذين يفتخر «هانوتو» بمدينتهم ، نشأوا وثنيين ، ولا زالت الوثنية ترق وتدق وترث[١] بارتقائهم في العلوم وبحث فلاسفتهم في طبائع الكائنات حتى انتهوا وهم في ذرى مدنيتهم إلى التوحيد وتنزيه واجب الوجود عن مخالطة المادة .

وقف «**فيثاغورس**» على عتبة التقديس ، وجاء بعده «**سقراط**» و«**أفلاطون**» و«**أرسطو**» مجاهدين في كشف الغمة عن عيون شعوبهم ، باذلين الوسع في محو ما غشي نفوسهم من ظلمات الوثنية الأولى ، ومن قرأ كتاب (جمهورية) «أفلاطون» التي نقلت إلى العربية أيام «**المأمون**» تحت اسم (المدينة الفاضلة) علم كيف يقارع «أفلاطون» ما بقي من آثار الوثنية ، من الآراء السخيفة والعادات الرديئة التي كانت تحول بين الأمة اليونانية ، وما يبتغي لها من الفضائل التي كان يطمع الفيلسوف ان تكون عليها .

وبعد أن أوصلهم العلم إلى التوحيد ، لم يرتد بهم التنزيه إلى الجهل ، بل بقيت شمس مدنيتهم تشرق في العالم قروناً متعددة ، وكانت أشد صفاء وأبهر سطوعاً .

كذلك قدماء المصريين ، لم يقف بهم العلم دون التوحيد ، غير أن رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم ، واستبقوا صور العبادات الأولى ، والبسوا التنزيه ثوب التشبيه استئثاراً منهم بشرف العقيدة على من دونهم .

فترى ضعف العقل وقلة العلم ونقص الإدراك تقف بصاحبها عند الوسائط[٢] ، وقوة العقل ونفوذ البصيرة وسعة العلم تصعد بأهلها إلى مشهد الوجود الأعلى ، وتشرق بهم من هناك على العالم بأسره ، فيرونه ، عظيمه وحقيره سواء في النسبة إلى تلك القدرة الشاملة والعظمة الغالبة ، كل ذلك يستمد وجوده من مشرق الوجود إلى مراتب قدَّرْتها الحكمة وتَمَّتْ بها النعمة .

---

(١) تبلى .

(٢) ولذلك يسمى المعتزلة ـ وهم أهل التوحيد والتنزيه ـ خصومهم المشبهة : «الحشوية» أي الذين جاء كلامهم حشوا ولغوا ، وقصرت بهم مداركهم عن بلوغ التصورات التنزيهية والتجريدية للذات الخالقة .

فأي مقام أعلى من مقام صاحب هذه العقيدة حيث قام شاهداً على الكون بجملته ، ما فَصَّلَ منه في فهمه وما أجْمل في كلمات علمه ، يحكم عليه بأنه مربوب لرب واحد ، وهو رب العالمين ، وان لا سلطان لشيء من هذا جميعه على نفسه ، لا في الإيجاد ولا في الإمداد ، بل هو وحده يمكنه بما سنَّ له الشرع الألهي ان يصل بنفسه إلى تلك الحضرة ، وان يستمد منها المعونة في كل شؤونه .

* * *

ينقسم أهل التشبيه إلى قسمين : أحدهما من يعتقد الألوهية في بعض الموجودات المشهورة ، ويقف عند ما يعتقد منها . والآخر يعتقد بأن بارىء الكون يظهر في بعضها .

أما الأولون : فهم الذين ضعف الإدراك فيهم عن الإحاطة بحقائق الأكوان ، فإذا ظهرت عليهم آثار قوة من القوى أو سلطة حيوان من الحيوانات ، ظنوه المنفرد بالقدرة عليهم ، وانهم إليه يرجعون في جميع أمورهم . فهؤلاء يسلطون على أنفسهم ما شاءوا وشاء لهم الجهل من جماد وحيوان وإنسان ، ولا يزالون حيارى في شؤون حياتهم حيرتهم بين معبوداتهم ، ثم هم يقيسون معبوداتهم بأنفسهم ، لأنها ليست بأبعد منهم في النوع أو الجنس ، وّيقَدِّرُون لها رغائب وشهوات تفوق رغائبهم وشهواتهم ، يسارعون في إرضائها بما يعن لهم ، كما تشرِّعه لهم أهواؤهم .

ومن ذلك كانت تُرْتَكَبُ القبائح في هياكل الآلهة ، وتُنْتَهَكُ حرمات الفضائل في محاريبها، وتُقَدَّمُ الذبائح الانسانية بين يدي التماثيل الحجرية . وأي دركٍ ينحط إليه الانسان أنزل من هذا ، وأمره معروف في التاريخ ، ولا تزال مشاهده إلى اليوم معروفة .

أما الآخرون : فهم أرقى درجة من أولئك في الإدراك ، ولكن . . ماذا أصابهم ويصيبهم من ذلك الاعتقاد ؟ . . كانوا إذا فاقهم إنسان في عقل أو شجاعة ، أو صَدَرَ منه ما لا يألفون من الأعمال ، أو ظهر بما لا يعرفون من الأحوال ظنوه مظهراً للوجود الإلهي ، فدانوا لسلطانه ، واستكانوا لقهره ، واخذوا أنفسهم بالخضوع لإرادته ، فسلبهم كل ما كانوا يملكون من عقل وإرادة وعزم ، وحق عليهم الصَّغارُ ما داموا على تلك العقيدة .

وقد سَهَّلَ هذا الوهم على كثير من أهل الدهاء أن يَنْزِلوا من الناس منازل الآلهة ، طمعاً في استعبادهم ، وكم قاست الأمم من الرزايا التي جلبتها عليهم هذه العقائد الضالة .

ويقرب من هؤلاء قسم ثالث ليس بخير من القسمين الآخرين ، وهم : المعتقدون بالوسائط . ما قدَرُوا اللّه حق قَدْرِه ، فقاسوه على الكبراء وأهل السمو منهم ، فظنوا انه في ملكوته كملك في جبروته ، يصطفي لنفسه مدبرين من خلقه ، ويستصنع عمالاً للتصرف في شؤون عباده ، فإذا امتاز أحدهم بما يعتقدونه زلفى إلى اللّه ، أو صدر منه ما يظنونه دليلاً على أنه من المقربين إليه ، رفعوه إلى تلك المنزلة ، منزلة الاصطفاء للتصرف في الكون ، فاتخذوه شفيعاً لديه ، يلجأون إليه في مهمات أعمالهم ، ويستمدون منه المعونة بما له من الدالة على رَبِّه ، وإذا سئلوا عما يفعلون وما به يدينون قالوا : ﴿مَا نعْبُدُهُم إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلى اللّه زُلْفَى﴾(١) .

ماذا أصاب هؤلاء من سِرٍّ ما اعتقدوه؟ اسْتُعبِدوا للسادن والكاهن والزعماء ووارثيهم، واستسلموا لهم في جميع شؤونهم، فكانت علومهم من أوهام، وأفهامهم واقفة عند خيالاتهم، ينكرون الأوليات من المعلومات إذا توهموا أنها تخالف تلك الموهومات التي تلقوها عن زعمائهم، ثم كانوا يتركون وسائل الْعُلى اتكالاً على ما يستمدونه منهم. ولا يزال التاريخ يشهد على ما قاسته الانسانية من بلايا هذه العقائد، والعِيان يؤيده في كثير من الأمم في الشرق والغرب إلى اليوم.

هذه مفاسد الوثنية وما جاورها ، لا ينكرها مطلع على مبادىء العلوم الصحيحة ، بل يعرفها كثيرون من العامة الذين لم ينشأوا في جوها الفاسد .

أما زعم «هانوتو» أن وثنية اليونانيين كانت ترتقي بالأفراد في سلم الفضائل طمعاً في نيل مرتبة الألوهية ، فهو زعم لم يقل به من المسيحيين سواه ، فيما أعلم ، ولم يقل أحد من اليونانيين انفسهم أنهم كانوا يسعون في كسب الفضائل عن طريق التوصل إلى مقام الألوهية ، ولا أن الألوهية البشرية تركت فيهم أثراً صالحاً ، بل لم تورثهم إلا تلك الرذائل التي قام سقراط وأفلاطون لمحاربتها ، أما السعي إلى الفضائل فكان للتقرب لأربابها كما هو معلوم .

أما حُكْمُهُ على المسيحية بأنها من ناحية الديانة اليونانية فذلك أدَعُ الكلام فيه إلى

---

(١) الزمر : ٣ .

المسيحيين أنفسهم ، ولكن أقول : إن المسيحية بذلت وسعها ، في بداية أمرها ، لتطهير الأرض من الوثنية التي كان الناس عليها في عهدها ، وجاهدت من تلوث من عقائدها ، من اليهود والرومانيين ، وانبث رجالها في الوثنيين يدعونهم إلى الإله الواحد ، وكان التنزيه قوام دعوتهم كما يعلمه المدقق في فهم كلامهم ، ولم تظهر آثار التشبيه فيها إلا بعد قرون من نشأتها ، وتاريخ الأمبراطور «قسطنطين» معروف عند أهل العلم وغيرهم ، لا حاجة إلى تفصيل ما كان منه .

ثم لما امتد الغلو في التشبيه . ظهرت المظالم ، وعظمت المغارم ، واختفى العلم وخسيء العقل ، وتهدمت أركان النظام ، واستشرى الفساد في الأمم النصرانية ، حتى ظهر الإصلاح وقضى على ما سبقه[1] ، واستقامت أوروبا في طريقتها المعروفة ، وقد أشرنا إلى شيء من أسباب ذلك .

لم نسمع أن أحداً من المسيحيين يعبد اللّه لينال رتبة المسيح ، فيكون إلهاً بشراً ، كما يؤخذ من عبارته . ولم نر أثراً لأحدهم يدل على إنه عَقَلَ عقيدة التثليث على هذا النحو الذي ذكره ، ولكنهم يصرحون بأنها عقيدة لا مجال للعقل فيها ، فلا مُكْنَةَ له في أن يحتذيها . وقد قامت طوائف منهم في أزمان مختلفة تصرح بأن فرقاً بين ما لا يصل إليه العقل وما يناقض حكم العقل ، وذهبت إلى أن المسيح لم يكن إلا نبياً مختاراً بعثه اللّه لخلاص البشر من سلطان الشيطان ، وحملوا الابن على المصطفى (المختار) ، والأب على الرب الرحيم . وأَعْرِفُ بعض طوائف «البروتستانت» اليوم ، وإن كانت قليلة العدد ، يذهب إلى تأويل «الكلمة بالعلم» ، و«روح القدس» بالحياة ، وقد لاقيت بعضهم في بعض أسفاري ، وأَكَّدَ لي أن لهم شيعة تدين بذلك .

وهل كانت المسيحية في سالف الأزمان تجاهد من حولها من الوثنيين لتخرجهم من وثنية إلى وثنية ؟! نعوذ باللّه من هذا الخبط الصادر من محب غير عالم . إني أرفع أدباً من أن أطعن في عقائد المسيحيين في جريدة ، وقد أُمِرْتُ أن أجادل بالتي هي أحسن ، ولكني أرجع إلى الكلام في الآثار التي عَنِي «هانوتو» باتخاذها دليلاً .

جاء الإسلام يدعو العالم بأسره إلى التوحيد ، وصرح بأن دين التنزيه هو دين اللّه

---

(١) الإشارة إلى حركة الإصلاح البروتستانتي التي بدأها مارتن لوثر .

من لدن آدم ونوح وإبراهيم إلى موسى ، ثم هو دين الأنبياء بعد موسى ، ودين خاتم رسل إسرائيل عيسى عليه السلام ، ولم ينكر أن في اليهود ، وفي المسيحيين خصوصاً أهل تنزيه ، وذكر أن منهم من مال إلى التشبيه ، ودعاه إلى الرجعة إلى أصل دينه ، حتى يقوم بالعبادة للّه وحده ، ويعتق من سلطة الرؤساء والزعماء الذين اغتصبوا عقله وملكوا هواه وهمه .

هبت الوثنية واليهودية والنصرانية لمناوأة الإسلام ، وهي أكثر عَدداً وأوفر عُدَداً وأعظم قوة وأشد بأساً ، فلم يكن إلا قليل من الزمن ثم ظهر الحق ونفذ شعاعه إلى القلوب فدخل الناس فيه أفواجاً من كل ملة من الملل ، فأعتقتْ الهمم وافتكتّ العزائم من أسرها ، وأخذ كل يطلب من الكمال ما يعده له استعداده الممنوح له من واجب الوجود ، وأخذ المعتقدون بالتوحيد والتنزيه يشرفون من شرفات الإيمان على أسرار الوجود ، ومزقوا تلك الحجب والأوهام ، واتصلوا بمنابع العلم من الفكر والنظر والدين . ولم يكد أهل الملة يستريحون من الشغب الذي هَبَّتْ ريحه بينهم حتى سطعت أنوار العلم فيهم ولم يبق باب من أبوابه إلا دخلوه ، ولا مُرْتقًى من مراقيه إلاّ تملوه ولم يبق متروك من مخلفات اليونان والفرس والرومان إلا استخرجوه ، من زوايا النسيان وجلوا صدأه وأبرزوه للأنظار .

هذا أثر الإسلام ، وهو دين التنزيه ، ولم يكد ينتهي القرن الثاني من ظهوره حتى جال المسلمون في علوم السماوات والأرض ، وصححوا الأغاليط ، ونقحوا القواعد ، وحرروا الأصول ، وفي مفتتح القرن الثالث أقاموا المراصد ومسحوا الأرض واتوا في ذلك بما هو معهود لأهل العلم في ديارنا وديار مسيو «هانوتو» .

إني أكتفي فيما يقابل هذا بقول جماعة من أهل النظر في الأمم الغربية اليوم :

«أقامت النصرانية في الأرض ستة عشر قرناً ولم تأت بفلكي واحد ، وأخذ المسلمون يبحثون في هذه العلوم بعد وفاة نبيهم ببضع سنين» .

ومع هذا لا يعد ذلك طعناً في أصول الديانة المسيحية ، وإنما هو طعن في تصرف القائمين عليها والمحرفين لها عما جاءت له .

يظن «هانوتو» أن الإسلام قطع الصلة بين العبد وربه ، ولكنه وَهَمَ في ذلك ، فإن الإسلام أفضى بالعبد إلى ربه ، وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة

تبيعه رضاه ، قضى الإسلام بأن لا يكون للكون إلا قاهر واحد يدين له بالعبودية كل مخلوق ، وحظر على الناس مَقامَيْن لا يمكن الرقي إليهما : مقام الألوهية التي تفرد بها ومقام النبوة التي اختص بمنحها من شاء ، ثم أغْلقَ بابها . وما عدا ذلك من مراتب الكمال فهي بين يدي الإنسان ، ينالها باستعداده ، لا يحول دونها حجاب ، إلا ما كان من تقصيره في عمله أو قصوره في نظره .

إذا اعتقدت بقصور فضل اللّه عنك وقفت نفسك حيث وضعتها ولن تستطيع إلى التقدم سبيلاً ، هكذا يرفع الاسلام الصَّحيحُ نَفس صاحبه ، وهذا هو معنى الاسلام والاستسلام الذي اخطأ في فهمه «مسيو هانوتو» فهل بقي الانسان مع هذا المعنى من الاسلام في درك من الحيوانية وفي هجرة عن التوسل بالأسباب إلى مُسَبَّبَاتِهَا في كسب الفضائل والكمالات ؟

يجب على الباحث في الإسلام أن يطلبه في كتابه ، كما يجب عليه أن يطلب آثاره والإسلام إسلام والمسلمون مسلمون ، ولو استشم «مسيو كيمون»[1] الذي استشهد «هانوتو» بكلامه ـ ريح العلم لما استفرغ ذلك القذر من فيه ، ولا حاجة إلى الكلام فيه ، فسخافة رأيه وقلة أدبه تكفيه .

من أين أُتى المسلمون ؟ وكيف دخل عليهم في عقائدهم بالتشبيه وفي عوائدهم بالتمويه ؟ وممن تعلموا الافتراس وعمن أخذوا الضراء بالشهوات ؟؟ . . أنا أعلم ذلك ، وأهل العلم يعلمون ، واللّه من ورائهم محيط .

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى سقطوا في مساقطهم ، وطارحوا الأوهام حتى انجروا إلى مطارحهم وباءوا بما كان لهم وما عليهم . حدثت في الدين بدع أكلت الفضائل وحصدت العقائل وترامت بالناس إلى حيث يصب عليهم ما استفرغه «كيمون» .

---

(١) صاحب كتاب (باثولوجا الإسلام) نقل عنه هانوتو في مقاله الثاني مجموعة من الشتائم في الإسلام ونبيه والمسلمين ، ووصفه للإسلام بأنه مرض وشلل وجنون وجذام ، ووصفه للمسلمين بأنهم وحوش ضارية ، ومطالبته بإبادة خمسهم والحكم على الأربعة أخماس الباقية بالأشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة ، ووضع قبر الرسول في متحف اللوفر ؟!! انظر آراءه هذه ضمن مقال هانوتو في (الإسلام والرد على منتقديه) ص ٢٢ ، ٢٣ .

أما لو رجع المسلمون إلى كتابهم ، واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم ، لسلمت نفوسهم من العيب ، وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم إليه في تنزيله ، وعلى لسان نبيه ، ومهده لهم ، وَخطَّهُ لهم أهل الصلاح منهم ، واستجمعت لهم القوة ، ودبت فيهم روح الفتوة ، وكان ما يلقاه «هانوتو» و«كيمون» من دين صحيح شراً عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع .

يرى «كيمون» أن يخلى وجه الأرض من الإسلام والمسلمين ، ويستحسن رأيه «هانوتو» ، لولا ما يقف في طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين . وبئسما اختارا لسياسة بلدهما ، أن يظهرا ضعتهما ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما .

أما فليعلما ، وكل من يخدع نفسه بمثل حلمهما ، إن الإسلام إن طالت به غيبة فله أوبة ، وان صدعته النوائب فله نوبة . وقد يقول فيه المنصفون من الإنكليز ، مثل «إسحاق طيلر» وهو قس شهير ورئيس في كنيسة :

«إنه يمتد في افريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره والشجاعة والإقدام من أنصاره» .

ويأسف أشد الأسف من السكر والفحش والقمار تنتشر بين السكان بانتشار دعوة المبشرين بينهم ، وقال إنه «يختار إسلاماً لا سُكرَ فيه على مسيحية فيها سُكر» .

وهو لا يزال ينتشر في الصين وغيره من أطراف آسيا ، وسترشده الحوادث إلى طريق الرجوع إلى طهارته وتنثني به الملمات إلى ما كان عليه لأول نشأته ، وتدرك عند ذلك الأمم منه خير ما ترجو إن شاء اللّه .

لو اسلمت الأمة الفرنساوية بأسرها ، وفي مقدمتها «مسيو هانوتو» ، وكانت معاملتها لغير الفرنساويين على ما نعهده في الجزائر ومداغشكر ، هل ترجو من سكان مستعمراتها أن يميلو إليها ، وأن لا ينتهزوا الفرص للثورة عليها ؟ كلا . . فما ظنك بالمسلمين ، وهم يسمعون قصف هذا الرعد ، ولا يرون من المتغلبين عليهم إلا الجد في إهلاكهم والدأب في إفنائهم ؟؟ .

إن العدل ورعاية الحقوق واحترام المعتقدات ، بعد معرفة أصولها ، هي التي

---

(١) انظر رسائل الأستاذ الإمام هذا القس الإنجليزي في مكانها من هذه الأعمال .

تخفف على المغلوب سلطة الغالب ، وتدنو به منه ، وتهون عليه الرضا عنه . ولكن «هانوتو» واضرابه من ساسة الفرنساويين لا يعرفون شيئاً من هذه الأركان الثلاثة ولا يزالون يهرفون بما لا يعرفون حتى يصلوا إلى ما كانوا يحسبون ، فلينتظروا ، إنّا معهم منتظرون .

ـ ٤ ـ

حضرة[1] الفاضل صاحب جريدة «المؤيد» الغراء . .

ألقت إليّ الصدفة نسختين من احدى الجرائد المشهورة في **القطر المصري**[2] ، جاء فيهما حديث بين صاحب الجريدة و«**مسيو هانوتو**» ، صاحب الفصول المعروفة في الإسلام .

ولم أشك في أن كثيراً مما جاء في هذا الحديث صادر عن رأي «مسيو هانوتو» ، لأنه لا يصدر إلا عن عارف مثله بأحوال أوروبا وكثير من أحوال المشرق ، ولهذا رأيت ان حرمانه من حظ النظر فيه ، وتركه يمر بلا مناقشة معه في بعض ما تضمنه ، يُعَدُّ ظلماً له وجوراً عليه ، خصوصاً ونسبة القول إليه يَدَعُ في أذهان الناس أثراً لا يحسن السكوت عنه .

وقد جاء في كلامه ما يدل على أنه قد أُصِيبَ بشيء من سوء الفهم في أحوال المسلمين ، وما انبعثت إليه نفوسهم اليوم ، وسوء الفهم منشأ الشقاق والخصام بين أهل المقصد الواحد ، كما ذكره حضرته في مقال له سابق ، فلا يليق بذي غيرة على الحق أن لا يوفيه من الاعتبار ما يستحق ، وأرجو أن يترجم ما أكتبه في جريدة «المؤيد» الفرنساوية ، وأن يرسل إلى «**مسيو هانوتو**» ، ليقف على ما غاب عنه من مقاصدنا وأفكارنا .

إن كان المسلمون اليوم ينتفعون بشيء ، ويعتبرون بمثال ، لم يكن أنفع لهم من الاعتبار بما جاء في كلام «مسيو هانوتو» فقد أرشدهم إلى عيوب فيهم لا يسعهم

---

(١) (جريدة المؤيد) الأربعاء ٢٥ يوليو ١٩٠٠ م (٢٨ ربيع الأول ١٣١٨ هـ) العدد ٣١٢٠ .

(٢) الإشارة إلى (الاهرام) والحديث مع «هانوتو» أجراه صاحب (الأهرام) «بشارة باشا تقلا» ونشرته الجريدة في العدد ٦٧٨٥ الصادر في ١٦ يوليو ١٩٠٠ م .

إنكارها ، وهداهم إلى مقاصد لطلاب الاستعمار في ديارهم قد شهدوا بالعيان آثارها . وصرح لهم بأن الاعتماد على العدالة في معاملة الدول ضرب من الخيال ، وَعقدُ الآمال بإنصافِ الأمم تَلَمُّسٌ للمحال ، وما على المهتم بحماية ذماره وطالب الطهر من عاره إلا أن يدرك مُدْرَكهُمْ ويعمل عملهم ، ليبلغ من الحول حولهم ، فيفوقهم في القوة ، أو يكون مثلهم فيتعارض في المنافع معهم معارضة المالك ، لا أن يتسلى بالأعاليل ، ويلهو بالأضاليل ، ويقنع بالأماني ، ويكتفي من العمل بالصوت الجهوري واللفظ الطلي وهو من روح قائله خلي ، حتى إذا دهموه وهو في غفلة وأخذوه في نومه أو يقظته بسط يده يلتمس الرحمة منهم ويرقب أن يفيض عليه سبب العدل عنهم ، فهذا عمل الجاهل الأحمق ، وهو بالذلة والاستعباد أحق .

وهي نصيحة يجب على المسلم قبولها من أجنبي عنه ، وكان يجب عليه من قبل أن يقبلها من أبي بكر الصديق ، فقد قال لخالد بن الوليد ، حين أرسله لحرب اليمامة(١) : «حاربهم بمثل ما يحاربوك به ، السيف بالسيف والرمح بالرمح» .

ولا يخفى أن كل نزاع فهو حرب ، وكل منافسة فيما هو عماد الحياة فهي جلاد ، وكل عمل يأتيه أحد المنافسين للظفر بمنافسة فهو جهاد ، وكل وسيلة تظفره بطلبته فهي سلاح ، وكل تجاذب أو تدافع بينهما فهو كفاح ، وكل منفعة حفظها أو استخلصها منه فهي غنيمة ، وكل انخذال عن حق أو تفويت لمصلحة فهو هزيمة .

فالظاهر في ميدان المنافسة من كان رأيه أسدَّ وقوته أشدَّ وسلاحه أحدَّ ، فإذا قربت القوتان من التكافوء أمكن لمصالح المتنافسين أن تتفق ، وسهل على كل منهما أن يرتفق ، وإلا استحال الاتفاق واستبد القوي بالارتفاق(٢) ، بل صعب على الضعيف أن ينال حق البقاء ، سنة الله في عالم الأحياء .

وقد فصل «مسيو هانوتو» ما أجمله بعض أساتذتنا في قوله : «العدل تكافوء القُوَى» .

صرح «مسيو هانوتو» بأن أوروبا بعد أن كانت لا تشتغل إلا بما يجري فيها ،

---

(١) أثناء الحروب الشهيرة بحروب الردة ، ويوم اليمامة هذا من أشهرها ، وفيه قتل مسيلمة الكذاب .
(٢) المنافع والمزايا والمراكز الثابتة القوية .

اندفعت إلى الاستعمار ، ولا يردها عنه إلا قوة الأمم التي تريد الاستعمار فيها ، وَضَربَ المثل باليابان ، فإنها بما ارتقت في المدنية ، وما أصلحت من شؤونها الداخلية ، وأعدت لوقاية ممالكها وحماية مسالكها قد آذنت أوروبا بقوتها ، وحملتها على الإقرار بمكانتها ، فحمت بلادها ومصالحها من صولتها ، وأمكنها بُرْهانُ القوة أن تؤلف بين منافعها ومنافع الأوروبيين . وهو قول حق ، وكان على المسلم أن يعرفه من قرون ، وله في كتابه المنزل خير هاد وارشد مرشد ، وكان يكفيه منه آية : ﴿وأعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[1] ، فقد دعته الآية الكريمة إلى الإعداد ، وطالبته أن يبلغ منه حد المستطاع ، ولا حد لما تستطيعه أُمَّةٌ إذا صرفت قواها العقلية والجسدية فيما هُيِّئَتْ له ، وأطْلَقَتْ له القوة ، وهي كل ما يقوى به خصم على خصم ، ويقْدر به على حماية نفسه وحوزته من اعتداء معتد ، أو يستطيع به استخلاص حق من يد مغتصب ، وخير القُوى ما حُفِظ به الحق وعظمت به المنفعة ووقف لهيبته كل من المتنافسين عند حده حتى يستقر السلام بينهم وتشمل الطمأنينة شؤونهم .

وقد تألفت قوى الأمم الأوروبية من عناصر هي العلم والأدب والتجارة والصناعة والعدل والدين والسلاح . وذكرتُ الدين في جملة عناصر القوة ، لأن «مسيو هانوتو» لا ينكر أن أوروبا تعتمد على الدين في سياسة الاستعمار ، وأن المرسلين والجمعيات الدينية من أهم الوسائل لديها في إعداد الشعوب إلى قبول سلطانها عند سنوح الفرص لسوقه إليها وتهيئة نفوس الأمم لاحتمال ما يقضي به ذلك السلطان متى اظلهم ، وفي فتح المغالق التي لا يستطيع السلاح وحده أن يفتحها ، وتمهيد السبل التي لا يمكن لساعد الجندي وحده أن يمهدها وهو من الأمور المسلمة التي لا يجادل فيها عارف مثل «هانوتو» فلا حاجة للإطالة في بيانه . غير أني اذكر قصة كنت شاهدتها ، لا بأس بذكرها في هذا المقام .

تعلمَّ أحدُ أبناء جبل لبنان ، من بلاد سوريا ، في بعض مدارس الجمعيات الدينية الفرنساوية في تلك البلاد ، وأخذ عن أساتذته كثيراً من آدابهم ، وطالع عدداً من مؤلفات كُتَّابهم ، وامتلأ قلبه بحب فرنسا ، واستقر في ذهنه أنها منبع نور العلم والحرية ، وأنها محررة العالم أجمع من رق الاستبداد ، ثم اشتغل بكتب الفلاسفة

---

(١) الأنفال : ٦٠ .

الفرنساويين ومؤلفات بعض السياسيين ، فعظم عنده الاعتقاد بأن هذه الأمة الجليلة إنما يهمها من سياستها أن تنشر المعارف في العالم لتهذيب العقول وتكميل النفوس ، لتربيتها على أصول العقل وحرية الفكر ، ورأى أن من الزلفى عند الحكومة الفرنساوية أن يذهب إلى باريس ويسألها المعونة على إنشاء مدارس في جبل لبنان ، يُبْنى التعليم فيها على تلك الأصول السابقة ، فذهب إلى باريس سنة ١٨٨٤ ، واتصل بأحد أذكياء السوريين الذين طاب لهم المُقام في البلاد الفرنساوية ، وطلب منه أن يكون وسيلته في نيل ما يرغبه من معونة الحكومة ، فسعى الذكي سعيه ، ثم عاد إلى صاحبه ، وقال له : ان ما تخيلته ضرب من الوسواس ، وإن الحكومة الفرنساوية ، وإن كانت تطرد «الجزويت»[١] من بلادها ، وتنازع الكنيسة في سلطانها ، لكن سياستها في الخارج دينية محضة ، ويمكن أن تعرف ذلك من حمايتها «للجزويت» ، وأعانتها لهم بالمال والقوة في بلادك ، فإن كنت تريد انشاء مدارس دينية في بلاد لبنان كان أمَلُكَ في المساعدة قريباً ، وإلا فارجع واشتغل بما يصلح لشأنك الخاص بك .

فرجع الشاب بالخيبة ، بعدما أقام مدة صرف فيها ما كان عنده من النقود ، ولم يجد من يساعده على الرجوع إلى بلده إلا من رحمه من اصدقائنا إذ ذاك ، وكان لي حظ في مساعدته ، كما كنت شاهداً الحديث الذي رويته .

فإن لم يسْعَ المسلم بعزم ثابت في تحصيل هذه العناصر التي سبق ذكرها ، أو تقوية ما ضعف عنده منها ، وهو مسلم ، كان مخالفاً لكتابه ، ولقول **الصدّيق** ، **رضي الله عنه** ، ومستحقاً للوم «**مسيو هانوتو**» ، ولم تتفق له مصلحة مع مصالح الأوروبيين إلى يوم القيامة .

بقي عليَّ الكلام مع هذا الوزير في أمرين :

الأول : فيما فهمه من شأن المسلمين في هذه الأيام ، وما يسمونه دعوة إلى توحيد كلمة المسلمين قاطبة ، وجمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد .

الأمر الثاني : سوء ظن المسلمين بالسياسة الأوروبية ، بل وبالمسيحيين أجمع ، حتى وصل فقد الثقة بهم إلى أن لا يأتمنوا مسيحياً عثمانياً في عمل من أعماله ، وإن

---

(١) جمعية كاثوليكية متعصبة .

أخلص لهم الخدمة ، كما سمعه من صاحب هذه الجريدة الناشرة الحديث[1] وغيره .

* * *

ـ ٥ ـ

شأن[2] المسلمين اليوم ، وظهور دعوة فيهم إلى توحيد كلمة المسلمين ، وجمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد في جميع البلاد الإسلامية[3] .

* * *

أؤكد «لمسيو هانوتو» أن هذه الدعوة لم يوجد لها أثر إلى اليوم في بلد من بلاد المسلمين ، ولو خطا خطوة إلى معرفة أحوالهم على ما هي عليه لما خطر بباله أن يشير إلى هذه الدعوة ، فضلاً عن أن يبني عليها حكماً ، وإن ما علق بالأوهام منها فإنما منشأه سوء فهم بعض مسيحيي الشرق ، ثم انعكاس ذلك في أذهان سياسي الغرب ، وقد يكون لسوء نية بعضهم مدخل في تعظيم ما توهم فيها .

وإني أعرض الحقيقة كما هي ، لا تغشاها ستار من تمويه ، ولا غطاء من تلبيس ، وأرجو أن يكون في هذا البيان ما يقنع «مسيو هانوتو» بحسن مقاصد المسلمين اليوم في كلامهم عن الدين ، وما يَرُدُّ أمثال صاحب الجريدة التي نشرت حديثه إلى رشدهم[4] ، حتى يتقوا اللّه في أنفسهم وأهل بلادهم ، ولا يتخذ بعضهم من السلم حرباً ولا من السكون شغباً .

لا أنكر ان طائفاً من الدين طاف في هذه السنين الأخيرة بعقول بعض المسلمين في أقطار مختلفة من الأرض ، وان نسمَةً من نَفَسِ الرحمن مرت بأنفس قليل من أهل الفضل فيهم ، فحركت ساكنهم ، وأثارت هممهم إلى النظر فيما كان عليه أهل هذا

---

(١) الإشارة إلى (الإهرام) وبشارة باشا تقلا .

(٢) المؤيد الخميس ٢٩ ربيع الأول سنة ١٣١٨ هـ ٢٦ يوليو سنة ١٩٠٠ م العدد ٣١٢١ . وهو المقال الثاني في الرد على حديث «هانوتو» للأهرام ، والخامس في سلسلة الرد عليه في كل ما أثاره من قضايا وموضوعات . وهذا المقال ، شأن سابقه يتناول السياسة العليا للبلاد الإسلامية .

(٣) هذا هو عنوان المقال كما أورده في المؤيد .

(٤) الإشارة إلى بشار باشا تقلا ، صاحب «الأهرام» .

الدين وفيما صاروا إليه ، وان منهم من يتكلم بما يرى إذا وجد سبيلاً إلى الكلام ، ومنهم من ينشر رأيه في كتاب أو جريدة إذا تهيأت له الوسائل لذلك(١) ، ثم يوجد مقلدون لهؤلاء يقولون ما لا يعلمون ، ويهرفون بما لا يعرفون ، ولا كلام لنا في هذَرِ المقلدين ، وإنما كلامنا فيما يرمي إليه غرض أولئك الناظرين .

* * *

ظهر الإسلام ، لا روحياً مجرداً ، ولا جسدانياً جامداً ، بل إنسانياً وسطاً بين ذلك ، آخذاً من كل القبيلين بنصيب ، فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره ، ولذلك سمّى نفسه دين الفطرة ، وعرف له ذلك خصومه اليوم ، وعدُّوه المدرسة الأولى التي يرْقى فيها البرابرة على سلم المدنية . ثم لم يكن من أصوله «أن يدع ما لقيصر لقيصر» ، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ما له ويأخذ على يده في عمله .

جاء هذا الدين على الوجه الذي ذكرنا ، فهدى ضالاً ، وألان قاسياً ، وهذب خشناً ، وعلم جاهلاً ، ونبه خاملاً ، وأثار إلى العمل كسلاً ، وأقدر عليه وَكِلاً ، وأصلح من الخلق فاسداً ، وروج من الفضيلة كاسداً ، ثم جمع متفرقاً ، ورأب متصدعاً ، وأصلح مختلاً ، ومحا ظلماً ، وأقام عدلاً ، وجدد شرعاً ، ومكن للأمم التي دخلت فيه نظاماً امتازت به عن سواها ممن لم يدخل فيه ، فكان الدين بذلك عند أهله كمالاً للشخص ، وألفةً في البيت ، ونظاماً لِلْمُلك ، وظهرت به آثار النعمة عليهم في جميع شؤونهم ، ولم يفت العلمُ حظه من عنايته ، بل كان قائده في جميع وجوه سيره .

فإن شاء قائل أن يقول : إن الدين لم يعلمهم التجارة ولا الصناعة ولا تفصيل سياسة الملك ولا طرق المعيشة في البيت ، لم يسعه أن ينكر انه أوجب عليهم السعي إلى ما يقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية ، وأوجب عليهم أن يحسنوا فيه ، وأباح لهم الملك ، وفرض عليهم أن يحسنوا المملكة .

وما ظنك بدين يقول خليفته الثاني ، وهو في مدينة «يثرب» ، من بلاد العرب : «ولو ان سخلة(٢) بوادي الفرات أخذها الذئب لَسُئلَ عنها عمر» ، ويقول خليفته

(١) الإشارة إلى الحركة السياسية الإسلامية التي بعثها جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧ م) .
(٢) السخلة : ولد الشاة .

الرابع : «أأقنع من نفسي بأن يقال : أمير المؤمنين ، ولا أشاركهم في مكاره الدهر أو أكون لهم أسوة من جشوبة العيش ؟» ـ أي خشونته ـ يريد بذلك أن يساوي المساكين في العيش ليكون قدوة الأغنياء في الإحسان وأسوة الفقراء في حسن الصبر

هكذا كان الإسلام مهمازاً للمسلمين؛ ، يحثهم إلى جلائل الأعمال ، ومصباحاً لبصائرهم يسترشدون به في استعراف الأحوال وتقويم الأفكار ، وعاطفاً يعطف قلوبهم على الأمم بالعفو والرحمة وحسن المعاملة ، حتى رضِيتَهْمُ الأرض سادة لها وقادة لسكانها ، وكان من أمرهم وأمره ما هو معلوم .

أفبعد هذا يعجب عاقل إذا رأى المسلم يرضى ما رضيه هذا المرشد الحكيم ويمقت ما مقته ؟ أيدهشه أن يرى المسلم يهزأ بكل ما لم يعتقده سائغاً في دينه وإن كان فيه مُلكُ الأرض أو ملكوت السماوات ، بعد أن شهد من أثر نعمة اللّه عليه في هذا الدين ما شهد ؟ . لا عجب في ذلك فإنه نتيجة ضرورية ينساق إليها الأمر بنفسه بحكم سنة اللّه في خلقه .

وا أسفا !! لم يبق للمسلم من الدين إلا هذه الثقة فيه ، أما الدين نفسه فقد انقلب في عقل المسلم وضعُه ، وتغير في مداركه طبعُه ، وتبدلت في فهمه حقيقته ، وانطمست في نظره طريقته ، وحق فيه قول علي كرم اللّه وجهه : «إن هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يُلبسُ الفرْوُ مقلوباً» !!

لا أبحث الآن في الأسباب التي وصلت بالدين في نفس المسلم إلى ما ذكرت ، ولكني أقول ، ولا أخشى مُنكِراً لما أقول : قد دخل على المسلم في دينه ما ليس منه وتسرب في عقائده ، من حيث لا يشعر ، ما لا يتصل بأصلها ، بل يهدم قواعدها ، ويأتي على أسسها .

عرضت البدع في العقائد والأعمال ، وحلت محل الاعتقاد الصحيح ، وأخذت مكان الشرع القويم ، وظهرت آثارها في أعماله ، وعم شؤمها جميع أحواله .

إن صح لفظ الحديث : «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» ، أو لم يصح ، فالقرآن يؤيد معناه ، وعمل الأولين من المسلمين يحقق صحة ما حواه ، فالرجل والمرأة سواء في الخطاب التكليفي ، وكانا سواء في علم ما يجب عليهما من فرائض الإسلام وخصال الإيمان ، وفي طلب العلم بما يلزم لصلاح معادهما ومعاشهما

وبما تحسن به المعاملة مع من يتصل بها قُرُبَ أو بعُدَ ، على تفصيل معروف في كتاب اللّه وسنة رسوله وعمل الصالحين من بعده ، حتى لم يبق باب من أبواب العلم إلا دخل منه بقدر الاستطاعة وما يسمح به الزمان .

ضل المسلم بعد ذلك في طلب العلم ، فظن الرجل أن غاية ما يفرضه الدين منه معرفة الفرائض والوضوء والصلاة والصوم في صورة أدائها ، أما ما يتعلق بسر الأخلاق فيها ، ووسيلة قبولها عند اللّه ، فذلك مما لم يخطر له ببال ، إلا القليل النادر . وأما آداب الدين وتهذيب الروح ، واستكمال الخصال الجليلة ، مما جعله الإسلام غاية العبادات ، وثمرة الأعمال الصالحات ، فهو ـ مع انه أهم علوم الدين ـ مما لا تتوجه إليه عزيمة ، ولا تنصرف نحوه إرادة ، اللهم إلا من أشخاص قلائل منثورين في أطراف الأرض ، لا ترقى بهم أمة ولا تسمو بهم كلمة .

أما من ينقطعون لطلب العلوم ، ليحصلوا جُعْلةً منها ، فقد انقسموا إلى فريقين :

الأول : من يظن أنه وارث علوم الدين ، والقائم بحفظها ، وقد قل أفراده في معظم البلاد الإسلامية ، ولم يبق منه إلا رسوم لا يكاد يدركها نظر الناظر ، والمشتغلون منهم في بعض البلاد ، **كمصر والآستانة** ، فإنما حظ الذكي منهم أن ينظر في كتب مخصوصة عيَّنها له الزمان وضعفُ العرفان ، ويفهمها ، بمعنى أن يثق بأن هذا اللفظ دال على ذلك المعنى ، ومتى تم له ذلك فقد استكمل العلم ، سواء سلم عقله ودينه وأدبه بعد ذلك أم لم يسلم .

فكان مثلُهُ مثل من ورث سلاحاً فكان همه أن ينظر إليه ويملأ عينيه منه ولا يمد يده إليه ليستعمله أو يزيل الصدأ عنه ، فلا يلبث أن يأكله الصدأ ويفسده الخَبثُ . ويزعمون أن الدين يصد عما وراء ما عرفوا من العلوم النافعة . رأي هؤلاء أن لا شأن لهم مع العامة ، ولا يجب عليهم أن يأمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر . وقد ارتكبوا بذلك خطأ في فهم دينهم لا يساويه في سوء عاقبته خطأ ، وللكثير منهم ، بل للأغلب من سوء الفهم في الدين ما لا حاجة إلى عدِّه . ولا يخفى أن ما يحصله هذا الفريق من العلم لا يظهر له أدنى أثر في صلاح الأمة ، كما هو مشهود .

والفريق الثاني : من يهيئه أولياؤه لنيل منصب من مناصب الحكومة ، عال أو

سافل ، وأفراد هذا الفريق ، إن كثروا أو قلوا ، يُحَصِّلُون مبادىء العلوم المعروفة بالعلوم العصرية ، ثم يُحصِّل كل واحد منهم ما به ينال المنصب الذي أعده له والده . على أن ما يُحصِّلُ إما لفظ يُحْفَظُ أو خيال يُحْزِنُ ، والمدار على الوصول إلى ورقة الشهادة!!

ومن هؤلاء من يذهبون إلى أوروبا لاستكمال التربية فيها ، ولا غاية لهم سوى هذه الغاية ، فمن أصاب منهم بعد ذلك وظيفة قنع بها ، وقصَرَ همه على العمل فيها ، ومن لم يجد وقف على الأبواب ينتظرها ، فإذا مل الانتظار أو انقضى زمن العمل ، وجدته في «قهوة» أو «ملهى» يسرف في أوقاته ، ويفسد في أدواته ، والصالحون منهم - وقليل ما هم - لا يهمهم شأن العامة ، شقيت أو سعدت ، هلكت أو قامت ، فأي أثر لما تعَلَّمَهُ هؤلاء يظهر في الأمة - استثني منهم شواذاً في كل بلد ، مع ضعفهم ، يُرْجى أن ينمو عددهم ، وتجني الأمم ثمار أعمالهم - هذا شأن الرجال مع العلم .

أما النساء : فقد ضُرِب بينهن وبين العلم بما يجب عليهم في دينهن أو دنياهن بستار لا يُدْرى متى يُرفع ، ولا يخطر بالبال أن يُعَلَّمْنَ عقيدة أو يؤدِّين فريضة سوى الصوم ، وما يحافظن عليه من العفة فإنما هو بحكم العادة وحارس الحياء ، أو قليل جداً من موروث الاعتقاد بالحلال والحرام . وحشو أذهانهن الخرافات ، وملاك أحاديثهن الترهات . اللهم إلا قليلاً منهن لا يستغرق الدقيقة عدهن .

وكل من الرجال والنساء يَعُدُّ نفسه مسلماً ، يعِدُها بالجنة ، ويُمنِّيها بالسعادة !!

* * *

أخطأ المسلم في فهم معنى «التوكل» و«القدر» فمال إلى الكسل وقعد عن العمل ووكل الأمر إلى الحوادث تصرفه حيثما تهب ريحها ، ويظن أنه بذلك يرضي ربه ، ويوافي رغائب دينه .

اخطأ المسلم في فهم ما ورد في دينه من ان المسلمين خير الأمم ، وان العزة والقوة مقرونتان بدينهم أبد الدهر ، فظن أن الخير ملازم لعنوان المسلم ، وأن رفعة الشأن تابعة للفظه وإن لم يتحقق شيء من معناه ، وان اللّه كفيل بنصره بدون عمل للعبد في الدفاع عنه ، فإن أصابته مصيبة ، أو حلت به رزية ، تسلى بالقضاء ، وانتظر ما يأتي به الغيب بدون أن يتخذ وسيلة لدفع الطارىء ، أو ينهض إلى عمل لتلافي ما عرض من خلل ، أو مُدَافعَةِ الجلل ، مخالفاً في ذلك كتاب اللّه وسنة نبيه .

أخطأ المسلم في فهم معنى الطاعة لأُولي الأمر والانقياد لأوامرهم ، فألقى مقاليده إلى الحاكم ، ووكل اليه التصرف في شؤونه ، ثم أدبر عنه ، حتى ظن أن الحكومة يمكنها القيام بشؤونه جميعها من إدارة وسياسة بدون أن يكون لها منه عون سوى الضريبة التي تفرضها عليه .

ومن رأى حزن الآباء إذا طلب أبناؤهم لأداء الخدمة العسكرية ، وما يبذلونه من السعي في تخليصهم منها ، حكم بأن ما يعقله أكثر المسلمين من معنى الحكومة لا يمكن انطباقه على شيء من أوليات العقل ، وعرف أن ثقتهم بالحاكم قد بلغت حد التأله من حيث ظنوه قادراً على كل شيء بدون عون من أحد ، وانقلبت تلك الثقة إلى الادبار والتخلي عنه من حيث انهم تركوه وشأنه لا يساعدونه في حادث ولا يعينونه في أمر مهم ، اللهم إلا إذا أرغموا على ذلك .

ومن ذا الذي يحسن عملاً إذا ألجىء إليه بالرغم عنه ، ومن هنا انصرف المسلم عن النظر في الأمور العامة جملة جملة ، وضعف شعوره بحسنها وقبيحها ، اللهم إلا ما يمس شخصه منها .

أما الحكام ـ وقد كانوا أقدر الناس على انتشال الأمة مما سقطت فيه ـ فأصابهم من الجهل بما فرض عليهم في أداء وظائفهم ما أصاب الجمهور الأعظم من العامة ، ولم يفهموا من معنى الحكم الا تسخير الأبدان لأهوائهم وإذلال النفوس لخشونة سلطانهم ، وابتزاز الأموال لإنفاقها وإرضاء شهواتهم ، لا يرعون في ذلك عدلاً ، ولا يستشيرون كتاباً ، ولا يتبعون سنة ، حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والاقتداء بهم في الظلم وما يتبع ذلك من الخصال التي ما فشت في أمة إلا حل بها العذاب .

هذا كله إلى ما حدث من بدع أخرى في مذاهب شتى في العقائد وطرق متخالفة في السلوك وآراء متناقضة في الشرائع وتقليد أعمى في جميع ذلك ، فتفرقت المشارب وتوزعت المنازع وعظم سلطان الهوى على أرباب النزعات المختلفة ، كل يجذب إلى نفسه لا ينظر إلى حق ولا يفزع من باطل ، وإنما همه أن يظفر بخصمه ، وذلك الخصم هو ما يدعوه أخاً له في الإسلام في معرض التشدق بالكلام .

وزد على ذلك ، وهذا اكبر بدعة عرضت على نفوس المسلمين في اعتقادهم ،

وهي بدعة اليأس من انفسهم ودينهم ، وظنهم أن فساد العامة لا دواء له ، وان ما نزل بهم من الضر لا كاشف له ، وإنه لا يمر عليهم يوم إلا والثاني شر منه .

مرض سرى في نفوسهم ، وعلة تمكنت من قلوبهم ، لـتركهم المقطوع بـه من كتاب ربهم وسنة نبيهم وتعلقهم بما لا يصح من الأخبار أو خطئهم في فهم ما صح منها ، وتلك علة من أشد العلل فتكا بالأرواح والعقول ، وكفى في شناعتها قوله ، جل شأنه : ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ﴾(١) .

تبع هذه البدع جميعها ـ وأخرى يطول ذكـرها ـ هـزال في الهمم وضعضعة في العزائم وتناقض في الآراء واضطراب في العقول وفساد في الأعمال يبتدىء من البيت وينتهي إلى الأمـة ، يمر في كـل طبقة ، ويجـول في كل دائـرة ، خصوصاً من دوائر الحكومات .

وما يرمى به المسلمون من التعصب الديني الأعمى فإنما عرض على أقوام في بعض البلاد الإسلامية تبعاً لهذه البدع الضالة . على أنني لا أسلم أنهم بلغوا فيه أدنى درجاته في الأمم المسيحية ، شرقية كانت أم غربية ، والتاريخ شاهد لا يكذب .

هذا ما أصاب المسلمين في عقولهم وعزائمهم وأعمالهم بسبب ابتداعهم في دينهم وخطئهم في أصوله وجهلهلم بأدنى أبوابه وفصوله ، ولهذا سلط اللّه عليهم من يسلبهـم نعمة لم يقوموا بشكرها ، وينزل بهم من عقوبة الكفران ما لا قبل لهم بدفعه ، إلا إذا تداركهم بلطفه . وقد ابتلاهم بمن يلصق بدينهـم كل عيب ، ويقرنه ـ إذا ذكره ـ بما يتبرأ منه ، ويعدُّه حجاباً بين الأمم والمدنية ، بل يَعُدُّهُ نبع شقائهم وسبب فنائهم .

تنبه لذلك أفراد من عقلاء المسلمين في أواسط القرن الماضي من سني الهجرة ، في أقطار مختلفة من بلاد فارس والهند وبلاد العرب ، ثم في مصر ، وكل منهم بحث في الداء ، وقدَّر له الدواء ، بحسب فهمه ، على تقارب بينهم ، ولعلهم يلتقون يوماً من الأيام عند الغاية ، إن شاء اللّه .

مقصد الجميع ينحصر في استعمال ثقة المسلم بدينه في تقويم شؤونه ، ويمكن أن يقال : إن الغرض الذي يرمي إليه جميعهم إنما هو تصحيح الاعتقاد وإزالة ما طرأ عليه

---

(١) يوسف : ٨٧ .

من الخطأ في فهم نصوص الدين ، حتى إذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب ، واستقامت أحوال الأفراد ، واستنارت بصائرهم بالعلوم الحقيقية ، دينية ودنيوية ، وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة ، وسرى الصلاح منهم إلى الأمة .

فإذا سمعت داعياً يدعو إلى العلم بالدين ، فهذا مقصده ، أو منادياً يحث على التربية الدينية ، فهذا غرضه ، أو صائحاً ينكر ما عليه المسلمون من المفاسد ، فتلك غايته .

وهذه سبيل لمريد الاصلاح في المسلمين لا مندوحة عنها ، فإن اتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً .

وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة به ما بيناه، وهو حاضر لديهم، والعناء في ارجاعهم إليه أخف من أحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟

لم يخطر ببال أحد ممن يدعو إلى الرجعة إلى الدين ، سواء في مصر أو غيرها ، أن يثير فتنة على الأوروبيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين ، غير أن بعض المسيحيين إذا سمع قولاً في الدين أعرض عن فهمه ، وأنشأ لنفسه غولاً من خياله ، وأخذ يخاف منه ويخشى غائلته ، ثم يسميه باسم الدين ، وبعضهم يظن أنه لو انتبه المسلمون إلى شؤونهم ورجعوا إلى الأخذ بالصحيح من دينهم لاعتصموا بجامعتهم واستعانوا على تقويم أمورهم بأنفسهم ، واستغنوا عمن أدخلوه في أعمالهم من غيرهم ، فيحرم الكثير من المسيحيين تلك المنافع التي نالوها بغفلتهم . وهو سوء ظن من الزاعم بنفسه ، فإنه بظنه هذا يعتقد أنه غاشٌ مُغررٌ وسالبٌ مُتلصِّص ، وسوء ظن بالمسلمين أيضاً ، فإن أهل الوطن الواحد ، لا يستغني بعضهم عن بعض مهما ارتقت معارفهم وعظم اقتدارهم على الأعمال ، وغاية الأمر أن ما كان ينال اليوم بدون حق يصبح وهو لا ينال إلا بحق ، والأجنبي الذي لا ينفق الواحد ويربح المائة يرجع إلى الاعتدال في الكسب ، ويحتاج إلى شيء من التعب في استدرار الربح .

وقد كان المسيحيون عاملين في الدول الإسلامية ، وهي في عنفوان قوتها ، والأجانب يطلبون الكسب في أرجائها وهي في أرفع مقام من عزتها .

نعم . . يعرض في طريق الدعوة إلى الدين . من هذا الوجه . أن يلتمس مسلم بمصر معونة من مسلم بسوريا أو بالهند أو بالعجم أو بأفغانستان ، أو بغير هذه الأقطار ، لأن مرض الجميع واحد وهو البدعة في الدين ، فإذا نجح الدواء في موضع كان السليم أسوة للمريض في موضع آخر ، أما السعي في توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم ، فلم يمر بعقل احد منهم ، ولو دعا إليه داع لكان أجدر به أن يرسل إلى مستشفى المجانين .

يكثر بعض أرباب الأقلام من المسلمين في حكمة الحج ، ويقول : إنه صلة بين المسلمين في جميع أقطار الأرض ، ومن أفضل الوسائل للتعارف بينهم ، فعليهم أن يستفيدوا منه ، وهو كلام حق ، ولكن لا ينبغي أن يفهم على غير وجهه ، فإن الغرض منه أن يذكر المسلمون ما بينهم من جامعة الدين حتى يستعين بعضهم ببعض على إصلاح ما فسد من عقائدهم أو اختلّ من أعمالهم ، وفي مدافعة ما ينزل بهم من قحط أو ظلم أو بلاء ، وهذا أمر معهود عند جميع الأمم التي تدين بدين واحد ، خصوصاً عند الأوروبيين .

يكثر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ، ويعلقون آمالهم بهمته ، وكثير منهم يدعو إلى عقد الولاء له ، وهذا أمر لا ينبغي أن يدهش أحداً ، فإن هذه الدولة هي أكبر دول الإسلام اليوم ، سلطانها أفخم سلاطينهم ، ومنه يرتجى انقاذ ما بين يديه من المسلمين مما حل بهم ، وهو أقدر الناس على اصلاح شؤونهم ، وعلى مساعدة الداعين إلى تمحيص العقائد وتهذيب الأخلاق بالرجوع إلى أصول الدين الطاهرة النقية .

فأي شيء في هذا يزعج أوروبا ، حتى تتحد على هضم حقوق المسلمين، إذا حدثت مثل هذه الحوادث الماضية ، كما يقول «مسيو هانوتو» ؟!

* * *

بقي الكلام على جمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد . يقول «مسيو هانوتو» : إن أوروبا لم تتقدم إلا بعد أن فصلت السلطة الدينية عن السلطة المدنية ، وهو كلام صحيح ، ولكن لم يدر ما معنى جمع السلطتين في شخص عند المسلمين .

لم يعرف المسلمون في عصر من الأعصر تلك السلطة الدينية التي كانت للبابا عند

الأمم المسيحية عندما كان يعزل الملوك ، ويحرم الأمراء ، ويقرر الضرائب على الممالك ، ويضع لها القوانين الالهية .

وقد قررت الشريعة الإسلامية حقوقاً للحاكم الأعلى ، وهو الخليفة أو السلطان ، ليست للقاضي صاحب السلطة الدينية ، وإنما السلطان مدبر البلاد بالسياسة الداخلية ، والمدافع عنها بالحرب أو بالسياسة الخارجية ، وأهل الدين قائمون بوظائفهم ، وليس له عليهم إلا التولية والعزل ، ولا لهم عليه إلا تنفيذ الأحكام بعد الحكم ورفع المظالم إن أمكن .

وهذه الدولة العثمانية قد وضعت في بلادها قوانين مدنية ، وشرعت نظاماً لطريقة الحكم وعدد الحاكمين ومللهم ، وسمحت بأن يكون في محاكمها أعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل التي تحت رعايتها .

وكذلك حكومة مصر ، أنشئت فيها محاكم مختلطة ومحاكم أهلية بأمر الحاكم السياسي ، وشأن هذه المحاكم وقوانينها معلوم ، ولا دخل لشيء من ذلك في الدين . فالسلطة المدنية هي صاحبة الكلمة الأولى ، كما يطلب «مسيو هانوتو» ، ولكن مع ذلك ، لم يظهر نفعها في صلاح حال المسلمين ، بل كان الأمر معكوساً .

امراؤنا السابقون لو اعتبروا أنفسهم أمراء الدين لما استطاعوا المجاهرة بمخالفته في ارتكاب المظالم والمغالاة في وضع المغارم والمبالغة في التبذير الذي جر الويل على بلاد المسلمين ، وأعدمها أعز شيء كان لديها وهو الاستقلال .

إن فرنسا تسمي نفسها حامية الكاثوليك في المشرق ، وملكة انكلترا تلقب نفسها بملكة البروتستانت ، وقيصر الروسيا ملك ورئيس كنيسة معاً . فلم لا يسمح للسلطان عبد الحميد أن يلقب بخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين ؟!

لا أظن ان «مسيو هانوتو» يسيء الظن بدعوة دينية على الوجه الذي بيناه ، وأظنه يكون عوناً للمسلمين على تعضيدها في البلاد الاسلامية الفرنساوية إذا وجد فيها من يقوم بها ، وأنا أضمن له بعد ذلك أن تتفق مصالح المسلمين مع مصالح الفرنساويين ، فإن المسلمين إذا تهذبت أخلاقهم بالدين سابقوا الأوروبيين في اكتساب العلوم وتحصيل المعارف ولحقوا بهم في التمدن ، وعند ذلك يسهل الاتفاق معهم . إن شاء الله .

سوء(١) ظن المسلمين بسياسة أوروبا كلها ، وعدم ثقة سياسييهم بدولة من الدول ، واعتقاد المسلمين بأن مصلحة أوروبا المسيحية تخالف مصلحتهم الإسلامية ، وعدم اطمئنانهم إلى سياسة الدول المسيحية ، حتى أدى بهم فقدان الثقة بالمسيحيين إلى أن لا يأتمنوا مسيحياً عثمانياً ، ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم(٢) .

* * *

سمع بذلك كله «مسيو هانوتو» من صاحب الجريدة المعروفة(٣) ، ومن بعض العثمانيين في الآستانة وباريس ، ثم أخذ يبرهن على أن سياسة أوروبا اقتصادية ملكية لا دينية لاهوتية .

لا أدري من هم المسلمون الذين وصفهم «مسيو هانوتو» ؟ ومن بلَّغهُ أخبارهم ؟ أهم الهنود؟ وهم في حكم دولة أجنبية ، ولا نزال نرى في خطبهم وجرائدهم ما يدل على طاعتهم لحكامهم ، وتعليقهم الآمال بعدلهم ، والتماسهم الحق من طرقه ؟

هل هم مسلمو الروسيا ؟ وثقتهم بحكومتهم ، وثقة حكومتهم بهم لا تخفى على أحد ، حتى إن دولة الروسيا تفضلهم على المسيحيين من غير المذهب الأرثوذكسي ؟!

هل هم الأفغانيون ؟ وإخلاص أميرهم في مصافاة الإنكليز أشهر من أن يذكر ، ولا ينفي أخلاصه حرصه على بلاده ومحافظته على مصلحتها .

هل هم الفرس ؟ واستنامتهم إلى السياسة الروسية لا يجهلها أحد ؟!

هل هم المراكشيون ؟ وهم بمعزل عن كل ما يسمى سياسة ، بل هم في غفلة عن الدين والدنيا جميعاً ، شغل بعضهم ببعض ، فلا ينفكون يتقاتلون ويتسالبون حتى يقضي اللّٰه فيهم بقضائه ؟!

هل هم التونسيون ؟! وقد أثنى عليهم «مسيو هانوتو» بما هم أهله ، وثبت له إرتياحهم إلى السلطة الفرنساوية بمجرد ما أطلقت لهم الحرية الدينية .

---

(١) المؤيد ، السبت ١ ربيع الثاني سنة ١٣١٨ هـ ، ٢٨ يوليو سنة ١٩٠٠ م . العدد ٣١٢٢ .

(٢) عنوان المقال كما أورده (المؤيد) .

(٣) الإشارة إلى بشارة باشا تقلا ، صاحب (الأهرام) .

لعله لم يقصد إلا العثمانيين ، كما يدل عليه بقية كلامه ، وكما يفيده قوله : «أن لا يأتمنوا مسيحياً عثمانياً» ، والعثمانيون منهم المصريون ومنهم غيرهم[1] .

فأما المصريون فلا شيء عندهم يدل على عدم الثقة بالأوروبيين وبالمسيحيين العثمانيين ، فإنهم يشاركون في العمل مواطنيهم من الأقباط في جميع مصالح الحكومة ما عدا المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين ، وهم معهم على غاية الوفاق ، خصوصاً أهل الإخلاص وسلامة النية منهم ، ولكل من الفريقين أصدقاء وأحبة في الفريق الآخر ، ثم شأنهم هو ذلك الشأن مع سائر الطوائف المسيحية ، إلا من ظهر منهم بالتعصب البارد للدين ، وآذاهم في دينهم ، أو في منافعهم الخاصة بهم ، لا لشيء سوى التعصب الأعمى .

ولا نطلب على ذلك شاهداً أقرب من صاحب الجريدة الذي يحادثه «مسيو هانوتو»[2] ، فإنه بعد أن كان على المسلمين أثناء الحرب الروسية العثمانية ، وبعد أن أتى ما أتى عقب الحوادث العرابية ، شهد المسلمون بأنه صديقهم والساعي في خيرهم ، كما افتخر بذلك مراراً في جريدته ، وإن كانت لهم عليه هنات لا تزال تبدو من فيه إلى وقت ذلك الحديث . . فأين فقد هذه الثقة بالعثمانيين المسيحيين في مصر ؟ هل طرد أحد من الخدمة لأنه مسيحي عثماني ؟ هل حرم أحد حق المحاماة وانشاء الجرائد أو المطابع أو إقامة المصانع أو تأسيس البيوت التجارية لأنه مسيحي عثماني ؟ فليأت صاحبنا بشاهد واحد .

اما حالهم مع الأوروبيين فإنا نراهم إذا أحسوا بعدل من انجليزي ذكروه ، أو وصل إليهم معروف من أي عامل أوروبي شكروه ، بل أزيدك على هذا ان المستغيث منهم بالحكومة يطلب منها أن يتولى تحقيق مظلمته انكليزي ، كما شوهد ذلك كثيراً في شكاياتهم ، وليس بقليل من يعرض شكواه على جناب «اللورد كرومر» ، وهو ليس بحاكم رسمي ، فأي دليل على الثقة أكثر من هذا ؟

ليس بقليل في مصر من يثق بالفرنساويين ، ومن له بينهم أصدقاء يركن إليهم ويعتد بولائهم و«مسيو هانوتو» وصاحب الجريدة الذي يحادثه يعرفان ذلك .

---

(١) كانت مصر ـ من الناحية «القانونية» والشكلية ـ لا تزال عثمانية ، ولم تزل عنها هذه الصفة إلا بإعلان الحماية البريطانية عليها غداة الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م .

(٢) بشارة باشا تقلا ، صاحب (الأهرام) .

كثيراً ما أغرى الأوروبيون من الفرنساويين والأميركيين من أرباب المدارس في مصر شباناً من المسلمين بالمروق من دينهم ، والدخول في الديانة المسيحية ، وفرُّوا ببعضهم من القطر المصري إلى البلاد الأجنبية ، وأحرقوا بذلك كبد والديه . ومع ذلك لا نزال نرى المسلمين يرسلون أولادهم إلى مدارسهم ، وناظر المعارف عندنا وزير مسلم ، وأولاده يتربون في مدارس «**الجزويت**» وكثير من أبناء الأعيان المسلمين في مدارس «الفرير» ، فأي ائتمان يفوق هذا الائتمان .

زادت ثقة المصريين من المسلمين بالأوروبيين ، خصوصاً في المعاملات ، حتى أساء أولئك الأوروبيون استعمالها ، وانتهزوا فرصتها ، وسلبوا كثيراً من أهل الثروة ما كان بأيديهم ، ومع ذلك فهم لا يزالون يأمنون ويغالون في الاستنامة إليهم ، ويقلدونهم حتى فيما يخالف دينهم وعوائدهم ، فماذا يطلُبُ من الثقة فوق هذا ؟

هل يشكو عقلاء المسلمين في مصر من شيء مثل ما يشكون من الثقة العمياء بالأجنبي من غير تمييز فيما هو عليه من إخلاص أو غش ، من صدق أو كذب ، من أمانة أو خيانة ، من قناعة أو طمع ، حتى آل الأمر بالناس إلى ما آلوا إليه من خسارة المال وسوء الحال ؟؟! .

فهل هذا هو فقد الثقة بالأوروبيين والعثمانيين المسيحيين الذي يعنيه حضرة صاحب الجريدة وجناب «**مسيو هانوتو**» ؟

وأما العثمانيون من غير المصريين ، فإذا ارتقينا إلى الدولة وسلطانها ، أيده اللّه ، وجدنا أن نظام الدولة ماضٍ باستعمال المسيحيين في ادارتها ومحاكمها في كل بلد فيه مسيحيون ، والمأمورون من المسيحيين ينالون من النياشين والرتب ما يناله المسلمون على نسبة عددهم ، أو فوق ذلك ، وكثير من المسيحيين نالوا من الامتيازات والمنافع في الدولة ما لم ينله مسلم ، وسفارات الدولة ومناصبها العالية لا تخلو من المسيحيين .

إقبال السلطان عبد الحميد على رؤساء الطوائف المسيحية ، وإنعامه عليهم بوسامات الشرف ، واختصاصه لبعضهم بشرف المثول في حضرته ، والإحسان إليه برقيق المخاطبة لا ينقطع ذكره من الجرائد .

صاحب الجريدة التي نقلت الحديث أمثل شاهد على مثل ذلك ، فقد جاهر زمناً ليس بالقصير بما لا ترضى الدولة بمثله ولا بأقل منه من مسلم ، ثم سهل عليه ، وهو

مسيحي ، أن يكون موضع ثقة للجناب السلطاني حتى أدناه منه وقبله في مجلسه ، وسمع منه أمير المؤمنين تلك النصيحة المفيدة التي نشرها في جريدته من نحو شهرين أثر هبوبه لنصرة «مسيو هانوتو» ثم والى عليه احسانه بالرتب والنياشين وغيرها ، فما هي الثقة إن كان هذا فقدانها ؟

أما سياسة الدولة الخارجية فالفرنساويون يشكون من مصافاة السلطان وثقته بدولة المانيا ، وهي دولة مسيحية ، ولا أظنهم يشكون من ثقة أخرى بدولة إسلامية ، وكانت للدولة ثقة لا تتزعزع بالسياسة الإنجليزية ، ثم حدثت حوادث أهمها نشأ من ضعف سياسة «مسترغلادستون» فأعقبها اضطراب في تلك الثقة مدة من الزمان بحكم الضرورة ، ثم إنا نراها اليوم تتراجع ، وفي رجال الدولة من لهم ثقة بصداقة روسيا ، ويودون لو مالت إليها سياسة الدولة ، وهم مسلمون .

والذي احب أن يعرفه «مسيو هانوتو» ، ان سياسة الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية ليست بسياسة دينية ، ولم تكن دينية قط من يوم نشأتها إلى اليوم ، وإنما كانت في سابق الأيام دولة فتح وغلبة ، وفي اخرياتها دولة سياسة ومدافعة ، ولا دخل للدين في شيء في معاملتها مع الأمم الأوروبية .

امبراطور ألمانيا جاء إلى سوريا للاحتفال بفتح كنيسة ، فبالغ السلطان في الاحتفال به إلى الحد الذي اشْتَهَرَ وبَهَر .

يجيء الأمراء المسيحيون من الأوروبيين إلى الآستانة فيلاقون من الاحتفال ما لا يلاقونه في بلاد مسيحية ، وينفق في تعظيم شأنهم من المال ما المسلمون في حاجة إليه ، أليس ذلك لمجاملتهم واكتساب مودتهم ؟ وهل بعد المودة إلا الثقة بصاحب المودة ؟ .

كان يمكن للسلطان أن يكتفي بالرسميات ولا يزيد عليها ، ولكن عُهد في معاملته ما يفوق الرسمي بدرجات ، فإن سلمنا أن سياسة أوروبا ليست بدينية من جميع وجوهها ، فسياسة الدولة العثمانية ، مع أوروبا ، هي كذلك ، ومسلموها تبع لها .

فإن قال قائل : إن حوادث «الأرمن» لم تزل في ذاكرة أهل الوقت[1] ، وينسبون

---

(١) الإشارة إلى صدام الدولة العثمانية مع رعاياها الأرمن بولاية أرمينيا بآسيا العثمانية ، وهوالصدام الذي حدث خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، وبالذات في سنوات ١٨٩٠ ، ١٨٩٥ ، ١٨٩٦ م . . ولقد ظل هذا الصدام في تصاعد حتى بلغ قمته أثناء الحرب العالمية الأولى بواسطة

وقائعها إلى التعصب الديني ، امكن أن يجاب بأن العداوة مع طائفة مخصوصة لا تدل على فقد الثقة بكل مسيحي منها ومن غيرها ، ومع ذلك فإن كثيراً من «الأرمن» في خِدْمة الدولة إلى اليوم ، وهم بذلك موضع ثقتها ، وهذا وذاك يدل على الريب فيما يـزعمون من أن منشأ تلك الوقائع التعصب الديني ، فإن المسيحيين وسواهم في الممالك العثمانية أنعم حالاً من المسلمين ، كما شاهدناهم بأنفسنا .

ولو انصف الأوروبيون لأمكنهم فهم أسباب هذا الاضطراب الذي يظهر زمناً بعد زمن في تلك الأقطار ، ولسهل عليهم أن يعرفوا ان منبعه في أوروبا لا في آسيا .

لا يغثُّ[1] عليّ أن أقول : إن المسيحيين في الممالك العثمانية متمتعون بنوع من الحرية في التعليم والتربية وسائر وجوه الخير ، يتمنى المسلمون أن يساووهم فيه ، فهل هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين أو عدم الثقة بهم ؟

لا يليق بكاتب مثل صاحب تلك الجريدة[2] أن يروي عن المسلمين كافة مثل ما رواه ، فإن ذلك مما يحزن المسلمين والمسيحيين جمعاء ، وإني أعتقد انه عند الكلام على المسلمين لم يكن في ذهنه إلا بعض أشخـاص لم تعجبه آراؤهم فيـه ، فاستحضر في صورهم جميع المسلمين وسياسييهم .

ليعلم «مسيو هانوتو» ، أن جميع ما يقال له ، أو يكتبه بعض العثمانيـين ، لا حقيقة له إلا في ذهن القائل أو الكاتب ، فلا ينبغي أن يعول على مثله في أحكامه ، وعليه أن يحقق الأمر بنفسه إن كان يهمه أن يتكلم فيه .

* * *

رجال الحركة الطورانية (تركيا الفتاة ١٩١٥ م). ومما يذكر أن المصالح الفرنسية الاستعمارية كانت تقف خلف النشاط الأرمني في كثير من الأحيـان ، مستترة بجـامعة المذهب الكاثـوليكي التي تجمعهما . انظر دائرة المعارف الإسلامية . الطبعة العربية الثانية .

(١) الغث من الكلام رديئه ، ومعنى «لا يغث على أن أقول :» أي لا أجد هذا الكلام رديئاً مستوجباً الترك .

(٢) الأهرام .

وأما إن المسلمين أَخَذُوا عليه فيما كتب عن الإسلام ، مع انه خدمهم ، وقوله : «فكيف بحالهم مع من لم يخدمهم» ، فنُبينِّ له الوجه فيه ، ليزول عنه ما سبق إلى فهمه :

لو اقتصر على الكلام في السياسة ، وبحثَ في علاقة المسلمين مع حكومته ، ولم يسط على الدين نفسه في أصلين من أهم أصوله ، لما أخذ عليه أحد ، إلا من ينتقد رأيه من جهة ما هو صحيح أو غير صحيح ، ولكنه لم يكتف بذلك ، وطعن في عقيدة «التوحيد» وبينَّ رداءة أثرها في المسلمين ، واستل سلاحه على عقيدة «القدر» ، وبينَّ سوء ما جرَّت إليه فيهم ، وهو بذلك يثبت، أن المسلمين لا يزالون منحطين ما داموا مسلمين ، وهو ما لا يرضاه أحد منهم .

لو مال على المسلمين فيما هم عليه اليوم ، وفي انحرافهم عن أصول دينهم ، واكتفى بتعنيفهم على إهمالهم لشؤونهم ، وغفلتهم عن مصلحتهم ، كما جاء في حديثه الذي نحن بصدده ، لما وجد من المسلمين إلا معتبراً بقوله ، متعظاً بنصيحته . والسلام .

* * *

كلمات[1]

إن هؤلاء الأفرنج يأخذون مطاعنهم في الإسلام من سوء حال المسلمين ، مع جهلهم هم بحقيقة الإسلام . إن القرآن نظيف والإسلام نظيف ، وإنما لوثه المسلمون بإعراضهم عن كل ما في القرآن واشتغالهم بسفاسف الأمور .

---

(١) قالها الأستاذ الإمام بمناسبة سماعه بطعن أحد الطاعنين الأوروبيين في الإسلام ، بدعوى أن الرسول لم يعلم أتباعه من صفات الخالق سوى أنه حاكم قاهر ، ولم يطلب منهم سوى الفتح لقهر الأمم الأخرى .

الرد على فرح انطوان

الاضطهاد في النصرانية والاسلام

رسائل
من الأستاذ الإمام إلى الشيخ رشيد رضا(١)

ولدنا العزيز . .

وصلني رقيمك ، وأرجو أن يصلني الآخر قبل غروب يوم الخميس إن شاء اللّه . إلى الآن لم أكتب شيئاً ، وقد أخذت القلم الآن لأكتب ، وإذا بداخل يحيي تحية الصباح ويشغلني بما لا فائدة فيه . ولا أدري كيف أصيب الوقت الذي أفرغ فيه لما أريد ، وهو يفر مني فرار الخير من أيدي المسلمين . ربما جئت إلى مصر يوم الخميس إن لم يطرأ ما يحملني على الذهاب إلى رشيد ، والسلام .

رمـل **الاسكندريـة** ٥أغسطس سنـة ١٩٠٢ م .　　　　محمد عبده

ولدنا العزيز . . .

كتبت اليوم وختمت المقال فيما يتعلق بمذهب المتكلمين ورأي الفلاسفة ، والناس جلوس يتكلمون ، وأريد مراجعته صباح الغد إذ لا يمكنني مراجعته وهم جالسون ، وهم لا يفارقونني إلى وقت النوم .

---

(١) هذه المراسلات تتعلق بكتابة ردود الأستاذ الإمام على «فرح انطون» صاحب (الجامعة) المتعلقة بالنقاش حول (الاضطهاد في النصرانية والإسلام) . ونحن نقدمها بين يدي مقالات الأستاذ الإمام حول هذا الموضوع ، كي تلقي الضوء على الظروف والملابسات والأماكن التي شهدت كتابة الأستاذ الإمام لهذه المقالات .

لم أر فرحا إلى الآن ، ولا أدري هل أراه غداً ؟ . . . كما لا أدري هل ينبغي أن تنشر المقال قبل أن يرسل إليه ؟ وعلى كل حال فلا بد من نقله بخط آخر ، ولا يكون إلا خطك .

وأظن أن أكون بمصر مساء الغد إن شاء اللّٰه ، فلتكن عندي بعين شمس صباح الجمعة بعد أن تسأل بالتليفون . والسلام .

رمـل الاسكنـدريـة ٦ أغسـطس سنـة ١٩٠٢ .

محمـد عبده

ولدنا الفاضل . . .

السلام عليكم . . . رأيت ما كتب في (المقطم) ، وهو حسن . «حافظ»[1] يروج (المنار) ، وينجح إن شاء اللّٰه . تذكرت اني نسيت في قسم المسيحية أن أذكر عند الكلام في البروتستانت ورأيهم في الفلسفة وحكاية ما كان يقوله (فولتير) في (أرسطو) هذه العبارة : «وكان علماء السنة يسمون أرسطو المعلم الأول» . فإن كنت لم تطبع إلى الآن سب «ولتير» «لأرسطو» فأضف هذه العبارة بعد ذلك السب ، وإن كان قد انتهى طبعه فاختر لذلك موضعاً في آخر الكلام على رأي المسلمين في الفلسفة قبل تبسم الإسلام من الأديب الذي رماه بضيق الصدر على غير ذنب .

إلى الآن لم اكتب ولا كلمة في الموضوع لأني في شغل شاغل من هؤلاء الناس المرزوئين في عقولهم أولاً ، وفي بيوتهم ثانياً ، وربما فرغت بعد يومين والسلام .

السنبلاوين أول سبتمبر سنة ١٩٠٢ م محمد عبده

ولدنا العزيز . . .

أنا اليوم في «المنصورة» ، وربما فارقتها إلى «عين المنزلة» من طريق النيل طلباً لراحة الفكر ، وهرباً من جو البلدان في فساده . وقد يخطر ببالي أن أرجع إلى القاهرة لأهرب في «عين شمس» ولا أدري ما يفعل اللّٰه بي من اليوم إلى الغد .

أصبحت وقد عوقبت عقوبة من يكل أمره إلى غيره على ضعف ثقته بالناس كافة

---

(١) هو حافظ إبراهيم وكان مرافقاً للأستاذ الإمام في سفره هذا .

إلا من اختار لنفسه ، بحثت في محفظتي عن تتمة ما عندك من المقال المعروف ، وهي تلك البقية التي استبقيتها لأصل بها ما يتبعها ، فلم أجدها ، ولا أرتاب في أن الكاتب الذي كان يحمل المحفظة أخذها في أوراقه مع أوراق توزيع نقود المحروقين . فكدرني ذلك غاية الكدر ، لأني لا أعلم من أي موضع يبتدىء ما كان فيها ، وأرجو أن لا يكون الكاتب قد أضاعها ، أما نهايتها فإني اتذكرها ، ويمكنني أن أبتدىء مما بعدها ، ولكن كيف يملأ الفراغ بين ما سأكتب وبين ما عندك ، إن كانت الورقة قد ضاعت ؟؟ . . . .

المنصورة ٤ سبتمبر ١٩٠٢ م محمد عبده

ولدنا العزيز . . .

وصل رقيمك ، كنت أحب أن يكون اللفظ «**علماء أهل السنة**» بدل علماء المسلمين ، لما تعلم من الفرق ورنة الاسم في آذان المخدوعين . لم أبحث عن الورقة الضائعة ، ولا أظن أنها في المحفظة ، فإن لم تكن عند أحد الكاتبين فقد نسيتها في البيت ، وعلى كل حال فالكتابة في هذا السفر ضرب من المحال ، تعوذ باللّه من عطلة كالتي أنا فيها ، ولكن المدة قصيرة ، وأرى في الراحة شيئاً من الفائدة ، ولا أراك تحتاج إلى التتمة قبل رجوعي إلى حيث يمكن العمل ، فإن المقال الباقي لا ينشر مرة واحدة فيما أظن . . .

أحب أن أعرف أثر المقال في نفس من تعرف من المسيحيين أو المسلمين . والسلام عليكم .

المنصورة ٦ سبتمبر ١٩٠٢ محمد عبده

ولدنا العزيز . . .

وصل رقيمك أمس في «المنصورة» وأنا اليوم فيها ، وربما وصلت إلى مصر مساء يوم الأحد ، وأصبح في عين شمس إن شاء اللّه تعالى صباح يوم الاثنين .

والذي كنت أحب أن أعرفه هو ما يجد المسيحيون في المقال من حسن التأدب ، وكنت أخاف أن يكون بدر مني ما يؤخذ عليّ فيه من هذه الناحية . أما تألمهم من الحق فذلك مما لا يصح أن أشك فيه ، لأن الباطل إذا لم يألم من منظر الحق فمم يألم ؟! .

وجدت بعض اللحن في المقالة ، وقد أصلحته في النسخة التي وردت إليّ ،

واتذكر الآن إني وضعتها في الشنطة ، ولو وجدت حيث أنا صمغاً أو نشاء لبعثت بها إليك ، ولكن أحب أن تنتظر بالملزمة الثانية حتى أحضر يوم الأثنين ، إن شاء الله تعالى . واتذكر الآن من الخطأ «وهبهم اللّه إياها» والصواب : منحهم ، لأن وهب لم يرد في القرآن إلا معتدياً باللام ، ولا أحب أن أخالفه ولو إلى صحيح .

الناس في عماية عن النافع ، وفي انكباب على الضار ، فلا تعجب إذا لم يسرعوا بالاشتراك في «المنار» ، فإن الرغبة في «المنار» تقوى بقوة الميل إلى تغيير الحاضر ، بما هو أصلح للآجل وأعون على الخلاص من شر الغابر ، ولا يزال ذلك الميل في الأغنياء قليلاً ، والفقراء لا يستطيعون إلى البذل سبيلاً ، ولكن ذلك لا يضعف الأمل في نجاح العمل . والسلام .

المنصورة في ١١ سبتمبر ١٩٠٢ م　　　　محمد عبده

لا[١] تعجب مما يصنع عمال «المؤيد» ، فالذي أظنه ـ ولا أخاله إلا صحيحاً ـ هو انهم انتظروا بالنشر ورود خبر من الشيخ «علي»[٢] ، ولذلك لم يحصل النشر إلا بعد ورود «البوسطة» من أوروبا . ولا استبعد أن يكون الشيخ أوصاهم بنشر المقال بدون ذكر مغرسه الأول[٣] إرضاء «لمحمد رشيد»[٤] وخوفاً من إحفاظه لو علم ان «المؤيد» ينقل عن «المنار» . وحجة الشيخ «علي» في ذلك ان عدوه المخنث واقف له بالمرصاد فإذا رأى كلمة طار بها إلى سيده واتخذها وسيلة إلى الطعن في الشيخ ، فإن شئت عذرت العمال وعذرت الشيخ أيضاً ، ونحن لا نريد إلا النشر ، وليست نسبة المنشور مما يهم اغفاله ، فدعهم وما يعملون . والسلام .

محمد

---

(١) هذه حاشية ذيل بها الأستاذ الإمام خطابه هذا .

(٢) الشيخ علي يوسف صاحب «المؤيد» ، وكان الشيخ رشيد رضا قد كلف بعض العاملين في «المؤيد» ـ مسعود أفندي وحافظ افندي عوض ـ بنشر مقال الأستاذ الإمام ـ الذي وردت الإشارة إليه في الخطاب ـ فتأخر النشر في «المؤيد» ، ثم نشر به دون أن ينسب إلى مصدره .

(٣) أي «المنار» المنقول عنه المقال .

(٤) أي الخديو عباس حلمي الثاني .

ذكرت[1] «الجامعة» - في الجزء الثامن من السنة الثالثة في سياق الكلام على ما جرى لابن رشد - ان للناس آراء في : هل الدين المسيحي أوسع صدراً في احتمال مجاورة العلم والفلسفة ، أو ان الدين الإسلامي هو الأرحب خُلقاً ، والأوسع حلماً من الدين المسيحي في قبول أهل النظر في الكون إذا نزلوا بداره ، ولاذوا بجواره ؟ وذكرت ان للقائلين بتسامح الدين المسيحي مع العلم وأهله دون الدين الإسلامي : «أن فولتير وديدرو وروسو ورنان قالوا فيما يضاد الدين ما قالوا ولم يصابوا بضرر . وابن رشد لم يقل شيئاً سوى أنه قرر ما قال أرسطو واوضحة مع تصريحه بسلامة اعتقاده ، ومع ذلك أهين وبصق على وجهه . وللقائلين بسعة حلم الإسلام : إن الإسلام لم يحكم باحراق احد لمجرد الزيغ في عقيدته وكم حكمت المسيحية بذلك .

ثم جَعَلَت أهل الرأي الأول آخر من يتكلم وقالت «فيرد عليهم الأولون بقولهم : هل يجب أن يكون التسامح مع القريب فقط أم مع القريب والغريب معاً ؟ ثم ألا تذكرون الحروب والفتن التي قامت بين شعوب المسلمين وحكامهم بسبب الاعتقادات الدينية ، فأضعفت امتهم ، وفرقت كلمتهم ؟ فهل يجوز أن تسموا محاربة شخص واحد واعدامه (محاربة للإنسانية) ولا تسموا كذلك محاربة شعب لشعب وأمة لأمة» ، اهـ .

ثم قالت الجامعة : إنها لا تفصل بين القولين ، ولكنها فصلت فيهما فصلين :

الفصل الأول : في قولها إنا نرى ان السلطة المدنية في الإسلام مقرونة بحكم الشرع ، لأن الحاكم العام هو حاكم وخليفة معاً ، وبناء على ذلك فإن التسامح يكون في هذه الطريقة أصعب منه في الطريقة المسيحية ، فإن الديانة المسيحية قد فصلت بين السلطتين فصلاً بديعاً مهد للعالم سبيل الحضارة الحقيقية والتمدن الحقيقي وذلك

---

(١) في سنة ١٩٠٢ م كتب فرح أنطون في مجلته (الجامعة) بحثاً عن ابن رشد وفلسفته . . رد عليه الأستاذ الإمام بمقال تجده ضمن الجزء الخاص بالفلسفة والمنطق من هذه الأعمال . . أما هذه المقالات التي نوردها هنا فهي التي ناقش فيها الأستاذ الإمام قضية الحرية والاضطهاد للعلم والعلماء في كل من النصرانية والإسلام ، والتي ضمنها رده على دعوى فرح انطون إن ازدهار العلم في الغرب المسيحي يشهد على تسامح المسيحية معه ، وذلك على العكس من موقف الإسلام .

بكلمة واحدة : «اعطوا ما لقيصر لقيصر وما للّه للّه» . وبناء على ذلك فإن السلطة المدنية في هذه الطريقة إذا تركت للسلطة الدينية مجالاً للضغط على حرية الأفراد من أجل اعتقاداتهم الخصوصية فضلاً عن قتلهم ، وسقي الأرض بدمائهم البريئة ، فإنها تجني جناية هائلة على الإنسانية وعلى ذلك لا يكون في هذه الطريقة من التسامح اكثر مما في تلك ، إذا بدا منها نقص ، ولو كان هذا النقص أخذ من نقص شقيقتها لأنه لا نقص اعظم من نقص القادر على التمام» .

والفصل الثاني : في قولها : «إن العلم والفلسفة قد تمكنا إلى الآن من التغلب على الاضطهاد المسيحي . ولذلك نما غرسهما في تربة أوروبا واينع ، وأثمر التمدن الحديث ، ولكنهما لم يتمكنا من التغلب على الاضطهاد الإسلامي . وفي ذلك دليل واقعي على أن النصرانية كانت اكثر تسامحاً» اهـ .

الجواب الإجمالي

وإني أعجل في الجواب بما ينفي هذين الحكمين إجمالاً :

أما الأول فإن كان الأنجيل فصل بين السلطتين بكلمة واحدة فالقرآن قد أطلق الرأي من كل قيد بكلمتين لا كلمة واحدة ، قال في سورة البقرة :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١] وقال في سورة الكهف ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٢] .

وأما الثاني : وأسأل «الجامعة» في جوابه : أين الاضطهاد الواقع على العلماء اليوم عند المسلمين ؟ وأين أولئك العلماء المضطهدون ؟ وأريد بالعلماء أولئك الذين يساوون

---

(١) البقرة : ٢٥٦ .

(٢) الكهف : ٢٩ .

من ذَكَرْتُهُمْ من فولتير ودريدرو وروسو وأمثالهم . وكيف ساغ لها أن تقول وهي في أرض مصر ، ومصر بلاد إسلامية وحالها كما ترى ؟ فإذا أرادت شاهداً على حال المسيحية والعلم فلتمر اليوم على اسبانيا ولتقف برهة من الزمان ثم لتحكم . يمكنها أن تعد من طلبة العلوم المسلمين مئين في مدارس المسيحيين من «جزويت» و«فرير» و«أميركان» وهي مدارس دينية خصوصاً مدارس «الجزويت». فهل يمكنني أن أجد طالباً واحداً مسيحياً في مدرسة دينية إسلامية يباح الدخول فيها لكل طالب علم من أي ملة ؟ لا نجد إلا قليلاً منهم في مدارس الحكومة ، لعلمهم انها مدارس رسمية لم يقم بناء تعليمها على الدين . فهل سمع ان والداً اضطهد لأنه بعث بولده إلى مدرسة مسيحية يديرها قسوس مسيحيون ؟ يعد هذا من تسامح الإسلام مع العلم اليوم ؟!

لولا ان موضوع كلامي محدود باعتبار التسامح بالنسبة إلى العلم والفلسفة وحدهما لذكرت لصاحب «الجامعة» انه يوجد في بلاده[1] طائفتان تعد آحادهما بالألوف وتزعم كل منهما أن لها نسبة إلى الإسلام وهيَ تعتقد بما لا ينطبق على أصل من أصوله ، حتى أصل التوحيد والتنزيه عن الحلول ، ولا تقول بفرض من فروضه المعلومة منه بالضرورة . وأجمع فقهاء الأمة على انهما من قبيل المرتدين والزنادقة ، لا تؤكل ذبائح أفرادهما ولا يباح لهم أن يتزوجوا من المسلمات ، وإنما اختلفوا في قبول توبة من تاب منهم . ومن العلماء من قال : لا تقبل توبته : وهم مع ذلك عائشون بجوار المسلمين ، ومضى عليهم ما يزيد على تسعمائة سنة ، وقد كانوا تحت سلطان المسلمين والإسلام في أوج القوة ، ودخلوا في حكم الأتراك وهم هم أيام كان مَلِكُ فرنسا يستنجد بمَلِكِهِمْ وكانت عساكرهم على أسوار فيينا . كان أولئك الذين يراهم المسلمون قد خرجوا من دينهم وأسروا عقيدة تناقض عقيدتهم ، قد ظهروا بأعمال تضاد أعمالهم ، وهم جيرانهم وتحت أيديهم ، وفي مكنتهم محوهم ، ومع ذلك عاشوا إلى اليوم ولهم أحبة وأصدقاء بين المسلمين . وللمسلمين بينهم مصافون وأوداء ، فهل عهد مثل ذلك عند المسيحيين ؟

غير ان موضوع قولي محدود كما قلت فلا أخرج عنه ، وأراني نطقت فيه بكلمتي المجملة . ولكن لا يكفي لبيان ما عَرَّضَتْ به الجامعة في قولها : «هل يجب أن يكون

---

(١) أي لبنان . ولم يذكر الأستاذ الإمام من يعنيهم هنا ، وإن تكن هذه الأوصاف صالحة للانطباق على « اليزيدية » و« الدروز » . .

التسامح مع القريب فقط أو مع القريب والغريب الخ » ولا لتحقيق الحق فيما حكمت به في حكمها إلا تفصيل نعرض فيه حالة الدينين من العلم تحت نظر القارىء على وجه يمكن معه الحكم عن فهم ، ولا تلتبس فيه الحقيقة بالوهم .

الجواب التفصيلي

أرى «الجامعة» جاءت في كلامها بأربعة أمور ، آتي بها على حسب ترتيب النسق في تعبيرها :

الأول ـ إن المسلمين قد تسامحوا لأهل النظر منهم ولم يتسامحوا لمثلهم من أرباب الأديان الأخرى .

الثاني ـ ان من الطوائف الإسلامية طوائف قد اقتتلت بسبب الاعتقادات الدينية .

الثالث ـ إن طبيعة الدين الإسلامي تأبى التسامح مع العلم ، وطبيعة الدين المسيحي تيسر لأهله التسامع العلم .

الرابع ـ إن إيناع ثمر المدنية الحديثة إنما تمتع به الأوروبيون ببركة التسامح الديني المسيحي . فلا بد لي من الكلام على كل واحد من هذه الأمور الأربعة ، وابتدىء منها بالثاني لقلة الكلام عليه .

* * *

نفي القتال بين المسلمين لأجل الاعتقاد

لم يسمع في تاريخ المسلمين بقتال وقع بين السلفيين[1] **والأشاعرة** مع الاختلاف العظيم بينهما ، ولا بين هذين الفريقين من **أهل السنة والمعتزلة** ، مع شدة التباين بين عقائد أهل الاعتزال وعقائد أهل السنة سلفيين وأشاعرة . كما لم يسمع بأن الفلاسفة الإسلاميين تألفت لهم طائفة وقع الحرب بينها وبين غيرها . نعم سمع بحروب تعرف بحروب **الخوارج** ، كما وقع من **القرامطة** وغيرهم ، وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف في العقائد ، وإنما أشعلتها الأراء السياسية في طريقة حكم الأمة ، ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لأجل أن ينصروا عقيدة ولكن لأجل أن يغيِّروا شكل حكومة . وما كان من حرب الأمويين والهاشميين فهو حرب على الخلافة ، وهي بالسياسة أشبه ، بل هي أصل السياسة .

نعم وقعت حروب في الأزمنة الأخيرة تشبه أن تكون لأجل العقيدة ، وهي ما وقع بين دولة إيران والحكومة العثمانية ، وبين الحكومة العثمانية **والوهابيين** ، ولكن يتسنى لباحث بأدنى نظر أن يعرف أنها كانت حروباً سياسية ، ويبرهن على ذلك بالولاء المتمكن بين الحكومتين اليوم مع بقاء الاختلاف في العقيدة بين الحكومة العثمانية **وابن الرشيد** أمير الوهابيين .

وأما الحروب الداخلية التي حدثت بعد استقرار الخلافة العباسية واضعفت الأمة

---

(١) هم الذين جعلوا النص سبيلهم الوحيد في الاستدلال ، ورفضوا التأويل لأي من النصوص التي جاءت في القرآن وأحاديث الرسول ، وينطبق هذا الوصف على «الحنابلة» ومدرسة أهل الظاهر .

وفرقت الكلمة فهي حروب منشأها طمع الحكام وفساد أهوائهم وحبهم الاستئثار بالسلطان دون سواهم . ومصدر ذلك كله جهلهم بدينهم ، وارتخاء حبل التمسك به في أيديهم ، وأكبر داء دخل على المسلمين في هممهم وعقولهم إنما دخل عليهم بسبب استيلاء الجهلة على حكومتهم . أقول «الجهلة» وأريد أهل الخشونة والغطرسة الذين لم يهذبهم الإسلام ولم يكن لعقائده تمكن من قلوبهم ، ولو رزق الله المسلمين حاكماً يعرف دينه ويأخذهم بأحكامه لرأيتهم قد نهضوا والقرآن الكريم في إحدى اليدين وما قرر الأولون وما اكتشف الأخرون في اليد الأخرى ، ذلك لآخرتهم ، وهذا لدنياهم وساروا يزاحمون الأوروبيين فيزحمونهم .

ما لنا وللحكام نعرض لهم ؟ الذي عَلَيَّ أن أقول ولا أخشى منازعاً : إنه لم تقع حرب معروفة بين المسلمين للحمل على عقيدة من العقائد أو على تركها ، على أن هذا الأمر الذي جاءت به «الجامعة» والجأتنا إلى الكلام فيه خارج عن الموضوع بالمرة ، لأن الكلام في التسامح الديني مع العلم لا في تسامح عقيدة مع عقيدة أو دين مع دين ، وإلا لأوردنا لها من حروب الطوائف المسيحية بعضها مع بعض وحروبها مع غيرها ما يستغرق أجزاء «الجامعة» بقية هذه السنة إذا أوجزنا ما استطعنا !! .

هل أُذكِّرُها بما كان يقع في **القسطنطينية** من سفك الدماء بين **الأرثوذكس والكاثوليك** على عهد القياصرة الرومانيين ؟ هل اذكرها بحادثة «**برتلمي سنتهلير**» التي سفك فيها الكاثوليك دماء إخوانهم **البروتستانت** وأخذوهم في بيوتهم على غرة وقتلوهم نساء ورجالاً وأطفالاً ؟ بماذا أذكر «الجامعة» من أمثال هذه الوقائع التي أسود لها لباس الإنسانية وتسلبت[1] لحدوثها البشرية ؟ هل يمكن لأحد أن يروي حادثة مثلها وقعت بين شعوب المسلمين بعضهم مع بعض لخلاف في العقيدة مهما عظم الاختلاف .

* * *

تساهل المسلمين مع أهل العلم والنظر من كل ملة

ثم ارجع إلى الأمر الأول من الأمور الأربعة ، لأن الكلام عليه أقل منه على الأمر الثالث . وانني لا أستدل على رعاية الإسلام على الحكماء من الملل غير المسلمة بقول

(١) تسلبت لحدوثها البشرية أي لبست «السلاب» وهي ثياب المأتم السود .

كاتب مسلم ، وإنما أرجع في جميع ما أذكر إلى كتب المؤرخين والفلاسفة من المسيحيين ، وأذكر أسماء جماعة من المسيحيين وغيرهم بلغوا من الخطوة عند الخلفاء وعامة المسلمين وخاصتهم ما لم يبلغه غيرهم .

قال المستر «درابر» ، أحد المؤرخين وكبار الفلاسفة من الأميركان : «إن المسلمين الأولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين[1] ومن اليهود على مجرد الاحترام بل فوضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام ، ورقوهم إلى المناصب في الدولة ، حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا مسنية» (هو يوحنا بن ماسوية الشيهر) وقال في موضوع آخر : «كانت إدارة المدارس مفوضة ، مع نبل الرأي وسعة الفكر من الخلفاء ، إلى النسطوريين تارة وإلى اليهود تارة أخرى . لم يكن ينظر إلى البلد الذي عاش فيه العالِم ولا إلى الدين الذي ولد فيه ، بل لم يكن ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة . قال الخليفة العباسي الأكبر المأمون : الحكماء هم صفوة الله من خلقه ، ونخبته من عباده ، لأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة ، وارتفعوا بقواهم عن دنس الطبيعة ، هم ضياء العالم ، وهم واضعوا قوانينه ، ولولاهم لسقط العالم في الجهل والبربرية» .

وقال في موضع آخر : «إن العرب قد زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤدبي أولادهم من النسطوريين ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ما أتوا على حدوده بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين» .

ولست في حاجة إلى ذكر ما أسس الخلفاء والملوك من المدارس وبنوا من المراصد ، وما حشدوا من الكتب إلى المكاتب ، لأن هذا خارج عن بحثنا الآن وسيرد عليك شيء منه فيما بعد .

---

(١) إحدى الكنائس المسيحية التي تنتسب إلى طائفة مسيحية فرت من الغرب هرباً من الاضطهاد ، وسكنت مشرق العالم العربي منذ ما قبل الإسلام ، والعداء بينهم وبين الكنيسة اليعقوبية شديد . . وكان بطريركهم يسمى «الجاثليق» ، وكانت السريانية لغتهم ، وإليها كانوا يترجمون النصوص اليونانية ثم ينقلونها من السريانية إلى العربية .

طائفة من الحكماء والعلماء الذين حظوا عند الخلفاء

أذكر ممن اشتهر من الحكماء بالحظوة عند الخلفاء جيورجيس بن بختيشوع الجند يسابوري[1] طبيب المنصور ، كان فيلسوفاً كبيراً علت منزلته عند المنصور لأنه كانت له زوجة عجوز لا تشتهى ، فأشفق عليه المنصور ، وأنفذ إليه بثلاث جوار حسان فردهن ، وقال : إن ديني لا يسمح لي بأن اتزوج غير زوجتي ما دامت حية ، فأعلى مكانته حتى على وزرائه ، ولما مرض أمر المنصور بحمله إلى دار العامة وخرج ماشياً يسأل عن حاله ، فاستأذنه الحكيم في الرجوع إلى بلده ليدفن مع آبائه ، فعرض عليه الإسلام ليدخل الجنة فقال: رضيت أن أكون مع آبائي في جنة أو نار، فضحك المنصور وأمر بتجهيزه ووَصلهُ بعشرة آلاف دينار (وهو المنصور الدوانيقي المشهور بالإمساك وكزازة اليد) وأوصى من معه بحمله إذا مات في الطريق إلى مدافن آبائه كما طلب . ثم سأله عمن يخلفه عنده ، فأشار إلى **عيسى بن شهلاثا** ، أحد تلاميذه ، فأخذه المنصور مكان جيورجيس فطفق يؤذي القسوس والبطاركة ويهددهم بمكانه عند الخليفة لينال رغائبه ، فشعر الخليفة بذلك فطرده .

وممن حظي عند المنصور : **نوبخت** المنجم وولده أبو سهل وكانا فارسيين على

---

(١) توفي سنة ٧٧١ م . ويعد أقدم ممثل لطبقة من الأطباء الذائعي الشهرة من أسرته نفسها . . ويقال إنه أول من ترجم كتباً طبية إلى العربية . انظر (العلم عند العرب) لالدومييلي. ص١٢٧ ترجمة د . عبدالحليم النجار ، ومحمد يوسف موسى طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢ م .

مذهب الفرس ثم كانت ذرية مسلمة لأبي سهل ، كانوا جميعاً منجمين لهم شهرة في علوم الكواكب فائقة[1] .

وممن حظي بالمكانة العليا عند الخليفة **المهدي ثيوفيل بن توما**[2] النصراني المنجم ، وكان على مذهب **الموارنة** من سكان **لبنان** ، وله كتب في التاريخ جليلة ، ونقل كتاب **اميروس** إلى السريانية بافصح عبارة .

وممن أرتفع شأنه عند الرشيد من الفلاسفة **بختيشوع الطبيب وجبريل**[3] **ولده ويوحنا ابن ماسويه**[4] النصراني السرياني ، ولاّه **الرشيد** ترجمة الكتب القديمة ، طبية وغيرها ، وخدم الرشيد ومَنْ بعده إلى **المتوكل** ، وكان يعقد في داره مجلساً للدرس والمناظرة ولم يكن يجتمع في بيت للمذاكرة في العلوم من كل نوع والأداب من كل فن مثل ما يجتمع في بيت يوحنا بن ماسوية .

وممن علا قدره في زمن **المأمون** يوحنا[5] البطريق مولى المأمون ، أقامه كذلك أميناً على ترجمة الكتب من كل علم من علوم الطب والفلسفة . وكذلك ارتفع شأن **سهل بن سابور وسابور ابنه** وكانا نصرانيين وولي **سابور بن سهل** بيمارستان جند يسابور .

وكان سلمويه[6] بن بنان النصراني طبيباً عند المعتصم ولما مات جزع عليه جزعاً

(١) وإلى جانب عملهم في التنجيم كانت لهم ترجمات من الفارسية إلى العربية خصوصاً أبو سهل الفضل بن نوبخت . انظر الفهرست (لابن النديم ص ٢٧٤ طبعة ليبزح سنة ١٨٧١ م .

(٢) هو ثيوفيل بن توما الرهاوي ، توفي سنة ٧٨٥ م ، وهو ممن ترجم في الطب لجالينوس ، وكان فلكي المهدي . . انظر ص ١٢٧ من العلم عند العرب .

(٣) وكان بختيشوع هذا رئيساً لأطباء بيمارستان بغداد ، وتوفي سنة ٨٠١ م ، أما ابنه جبريل فلقد توفي سنة ٨٣٠ م . بعد أن أصبح الطبيب الخاص للرشيد منذ سنة ٨٠٥ م . انظر (تاريخ العرب) «مطول» لفيليب حتي ص ٣٨٤ طبعة بيروت سنة ١٩٥٣ م .

(٤) وهو تلميذ جبريل بن بختيشوع ، توفي سنة ٨٥٧ م . وله في الطب مؤلفات ومترجمات . . انظر ص ١٣١ من (العلم عند العرب) . ومن آثاره كتاب (دغل العين) الذي يعد أقدم نص تناول أمراض العين بشكل منظم ـ (تاريخ العرب) ص ٤٤٥ .

(٥) هو يوحنا بن يوسف بن الحارث البطريق ، كان قساً ، ويلقب أحياناً بيوحنا القس ، قال عنه ابن النديم : إنه كان «ممن يقرأ عليه كتاب اقليدس وغيره من كتب الهندسة . وله نقل من اليوناني» انظر الفهرست ص ٢٨٢ .

(٦) هو سلاموية بن بنان ، من تلاميذ مدرسة «جنديسابور» ومن أعوان حنين بن إسحاق ، وأصبح طبيب بلاط المعتصم العباسي سنة ٨٣٢ م .

شديداً ، وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة النصارى .

وكان بختيشوع بن جبريل عند المتوكل يوماً ، فأجلسه بجانبه ، وكان عليه دراعة حرير رومية بها فتق ، فأخذ المتوكل يحادثه ويعبث بالفتق حتى وصل إلى النيفق (وهو ما اتسع من الثوب) ودار الكلام بينهما حتى سأله المتوكل : بماذا تعلمون أن الموسوس (المصاب بخبل في عقله) يحتاج إلى الشد ؟ فقال بختيشوع : إذا عبث بفتق درّاعة طبيبه حتى بلغ النيفق شددناه ، فضحك المتوكل حتى استلقى .

وفي أيام المتوكل اشتهر حنين بن إسحاق النصراني العبادي(١) ، وهو من أشهر المترجمين لكتب أرسطو وغيره ، وامتحن المتوكل صدقه ، فظهرت له عزيمة لا تفل ، فاقطعه اقطاعات واسعة ، وكان قد عرف بفصاحة العبارة وحسن الترجمة في زمن المأمون وهو فتى فكلفه بترجمة الكتب وكان يعطيه وزن ما يترجم ذهباً ، وكانت بينه وبين الطيفوري النصراني محاسدة أفضت إلى طلب الحكم على حنين في مجلس الأساقفة بالحرمان من الكنيسة ، فمات غماً لاضطهاد أهل طائفته له مع عزته وعلو قدره عند الخليفة ، وهذا الطيفوري أيضاً كان من المقربين عند الخلفاء .

وممن أرتفع شأنه عند الخلفاء والخاصة والعامة في زمنه أيام خلافة الراضي متى(٢) بن يونس المنطقي النصراني النسطوري ، كان متفنناً في جميع العلوم العقلية ، أخذ عنه أبو نصر الفارابي(٣) وانتهت إليه الرئاسة في بغداد ، وكان من أهل ديرقني ، ونشأ في

---

(١) ولد سنة ٨٠٩ م وفي تاريخ وفاته خلاف بين سنة ٨٧٣ وسنة ٨٧٧ م ، رأس مدرسة (دار الحكمة) ببغداد ، وكتاب (التعريفات) الذي ترجمه «لهيبو قريط الكوسى» يعد أقدم متن في الطب ، درس في شبابه على ابن ماسويه ، وتعلم العربية على يد الخليل بن أحمد في البصرة . وذهب إلى بغداد سنة ٨٢٦ . انظر ص ٥٠ ، ٩٩ وما بعدها من (مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب) لأوليري ترجمة د . تمام حسان طبعة القاهرة ، مكتبة الانجلو ، بدون تاريخ .

(٢) هو أبو بشر متى بن يونس المتوفى سنة ٩٤٠ يوناني من أهل «ديرقني» يقول عنه ابن النديم : إنه «ممن نشأ في أسكول مرماري» وله تفسير من السرياني إلى العربي ، أي ترجمة . . وإليه انتهت رياسة المنطقيين في عصره كما كان مسؤولاً عن ترجمة كتاب الشعر لأرسطو ، انظر الفهرست ص ٢٦٣ .

(٣) لقب بالمعلم الثاني ، لأنه جمع وهذب ما ترجم قبله من آثار أرسطو ، بينما لقب أرسطو بالمعلم الأول لأنه هذب وجمع ما تفرق من مباحث المنطق ومسائله ، كما يقول ابن خلدون ، وكانت وفاة الفارابي بدمشق سنة ٩٥٠ م عن ثمانين عاماً . انظر (الموسوعة الفلسفية المختصرة) الطبعة العربية القاهرة ١٩٦٣ م .

مدرسة مار ماري ، وقرأ على روفائيل وبنيامين الراهبين اليعقوبيين .

ومن المقربين عند الخلفاء قسطا البعلبكي[1] ، ومن فلاسفة دولة الإسلام ، وهو نصراني طلبه الخلفاء إلى بغداد لأجل الترجمة . ثم يحيى[2] بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي ، انتهت إليه الرياسة ومعرفة العلوم الحكمية في وقته ، وقرأ على متى بن يونس وعلى أبي نصر الفارابي .

ومنهم أبو الفرج بن الطيب فيلسوف عالم ، قالوا كان كاتب الجاثليق ومتميزاً في النصارى ببغداد ، وكان يقرىء صناعة الطب في البيمارستان العضدي ، وكان معاصراً للشيخ الرئيس ابن سينا[3] ، والرئيس يمدح طبه ولا يحمد فلسفته ، وله كلام فيه .

وممن كانت له المكانة الرفيعة عند الخلفاء والخاصة والعامة ثابت بن قرة[4] الحراني الصابىء ، من طائفة الصابئين المعروفة ، وتربى في بيت محمد[5] بن موسى بن شاكر ، الفلكي المشهور ، وبلغ في علوم الفلسفة مبلغاً لم يُدانِه فيه غيره ، وله تآليف كثيرة في المنطق والطب والرياضيات ، وبلغ عند المعتضد مقاماً تقدم فيه عنده على وزرائه .

---

(١) هو قسطا بن لوقا البعلبكي ، مسيحي سوري ، ترجم مؤلف «هيبسيقليس» الإسكندري (حوالي ١٨٠ ق . م .) ، وهو المعروف الآن بالكتاب الرابع عشر من كتب اقليدس . . كما راجع ترجمة الحجاج بن يوسف بن مطر الحاسب لأقليدس . . وترجم أيضاً لثيودوسيوس ، وأرسطو . . وتوفي سنة ١٩٢٣ م . أنظر ص ٤٥ من (مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب) . وانظر كذلك الفهرست ص ٢٩٥ .

(٢) ولد في «تكريت» سنة ٨٩٣ م وتوفي ببغداد سنة ٩٧٤ م . مسيحي يعقوبي ، من مترجماته التقديم الذي وضعه «أمونيوس» على كتاب (ايساغوجي) لفورفوريوس .

(٣) فيلسوف وطبيب ، ولد سنة ٩٨٠ م وتوفي سنة ١٠٣٧ م .

(٤) هو أبو الحسن ثابت بن قرة بن مروان بن ثابت . ولد سنة ٢٢١ هـ وتوفي سنة ٢٨٨ هـ (سنة ٩٠١ م) كان صيرفياً بحران من قبل أن يستصحبه معه محمد بن موسى بن شاكر عندما توسم فيه الذكاء وأيقن فصاحته ، أنظر الفهرست ص ٢٧٢ .

(٥) توفي سنة ٢٥٩ هـ ، في شهر ربيع الأول ، وهو مع أخويه : أحمد ، والحسن يؤلفون أسرة علمية يقول عنهم ابن النديم «وهؤلاء القوم ممن تناهى في طلب العلوم القديمة ، وبذل فيها الرغائب ، وأتعبوا فيها نفوسهم ، وأنفذوا إلى بلد الروم من أخرجها إليهم، فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السني ، فأظهروا عجائب الحكمة ، وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم ، وهو الأقل» . أنظر الفهرست ص ٢٧١ .

وولد ثابت هذا سنة إحدى عشرة ومائتين «بحران» ، ثم كان ابناه **إبراهيم بن ثابت بن قرة وسنان بن ثابت بن قرة** على قدم أبيهما . ومن حفدته **أبو الحسن ثابت بن قرة** . وكان ثابت وإبراهيم وسنان **صابئين** ولهم من المنزلة ما علمت ، ومدحهم كثير من الشعراء المسلمين وهم صابئة .

* * *

ماذا أعد «للجامعة» من الفلاسفة والحكماء من الملل المختلفة الذين وسعهم صدر الإسلام ، ولم يضن عليهم بالرعاية والاحترام ؟ هل تريد أن أتمم لها الكلام بذكر كثير من فلاسفة الإسلام المسلمين الذين نالوا أسمى الدرجات وأعلى المقامات عند الخلفاء والملوك ؟ هل أنا في حاجة إلى ذكر فيلسوف الإسلام **أبي يوسف**[1] **يعقوب الكندي** - وهو بصري الأصل - ابن **الأمير إسحق** الذي كان أميراً **للمهدي والرشيد على الكوفة** ، وهو من ذرية الأشعث بن قيس أحد أصحاب رسول اللّه ﷺ ، وكان عالماً بالطب والفلسفة والهيئة والحساب والموسيقى ، واشتغل بالترجمة ، كما اشتغل غيره بها ، فترجم كثيراً من كتب الفلسفة وأوضح الغامض منها ، وكانت له المكانة العليا عند **المأمون والمعتصم** وولده أحمد. هل أنا في حاجة إلى ذكر **بني موسى بن شاكر : محمد وأحمد والحسن** ، الذين اشتغلوا في مساحة الكرة الأرضية ومعرفة محيطها وقطرها وما كان لهم من المنزلة عند الأمراء والخلفاء ؟ أأذكر **ابن سينا** ومنزلته في قومه ووصوله إلى مسند الوزارة عند **شمس الدولة** ، أم أذكر **الفارابي** وما كان له من المكانة عند **سيف الدولة ابن حمدان** .

لا ريب أن **أبا العلاء**[2] **المعري** يصلح أن يكون رجلاً ممن تعنى «الجامعة» بنشر تراجمهم ، وقد قال ما لم يقل بمثله **فولتير وروسو** ، وقد مات مع ذلك على فراشه . وقبره اليوم مزار يرحل إليه في بلده .

أظن إنه يسهل بعد سرد ما عددناه أن يعرف قراء «الجامعة» ان الإسلام كان

---

(١) طليعة الفلاسفة العرب ، ولد سنة ٨٠٣ م ، كما تقول الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ويقول فيليب حتي في (تاريخ العرب) ص ٤٥٢ : إنه ولد في منتصف القرن التاسع الميلادي . . . والكندي ممن قال بقول المعتزلة في العدل والتوحيد .

(٢) فيلسوف شهير وشاعر أشهر ، ولد سنة ٩٧٣ م وتوفي سنة ١٠٥٧ م .

يوسع صدره للغريب كما يوسعه للقريب بميزان واحد ، وهو ميزان احترام العلماء للعلم ، ويسهل عليّ ، أن التمس العذر «للجامعة» بأنها عندما كتبت ما كتبت تمثلت لها بعض حوادث ، قيل إنها حدثت للدين ، وما حدثت له ، بل كان سبب حدوثها أما سياسة خرقاء ، أو جهالة عمياء ، أو تأريث بعض السفهاء .

لا أطيل خوف الإملال ، وانتقل الآن إلى الأمر الثالث وهو المقابلة بين طبيعة الدينين وهو أهم مما سبق ومما سيلحق .

طبيعة الدين المسيحي

تمهيد

ظنت «الجامعة» ان الدين المسيحي فصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية ، ولذلك كان في طبيعته التسامح ، أما الدين الإسلامي فمن أصوله ان السلطان ملك وخليفة ديني وذلك مما يصعب معه التسامح في رأيها .

ليس هذا بكاف في بيان طبيعة كل من الدينين واستعدادهما للتسامح مع العلم ، أو مع أية عقيدة تخالفها ، بل لا بد من بيان أركان الدين ، وأهم أصوله التي ترجع إليها جميع الفروع وعنها تصدر الآثار الحقيقية .

عند النظر في أي دين للحكم له أو عليه في قضية من القضايا يجب أن أن يؤخذ ممحصاً مما عرض عليه من بعض عادات أهله أو محدثاتهم التي ربما تكون جاءتهم من دين آخر . فإذا أريد أن يحتج بقول أو عمل لاتباع ذلك الدين في بيان بعض أصوله فليؤخذ في ذلك بقول أو عمل أقرب الناس إلى منشأ الدين ومن تلقوه على سذاجته التي ورد بها من صاحب الدين نفسه .

وإنني أوجز القول في إيراد الأصول الأولى التي وردت في الأناجيل المعروفة الآن في أيدي المسيحيين وجاءت في كلام أئمتهم الأولين ، ثم إيراد ما جر إليه الأخذ بتلك الأصول بحكم طبيعة الدين .

الأصل الأول للنصرانية : الخوارق

أول أصل قام عليه الدين المسيحي وأقوى عماد له هو خوارق العادات ، تقرأ الأناجيل فلا تجد للمسيح عليه السلام دليلاً على صدقه إلا ما كان يصنع من الخوارق ، وعددها في الأناجيل يطول شرحه ، ثم إنه جعل ذلك دليلاً على صحة الدين لمن يأتي بعده ، فجعل لأصحابه ذلك كما تراه في الإصحاح العاشر من انجيل «متّى» وغيره . إذا تتبعت جميع ما قال الأولون من أهل هذا الدين تجد خوارق العادات من أظهر الآيات على صحة الاعتقادات ، ولا يخفى ان خارق العادة هو الأمر الذي يصدر مخالفاً لشرائع الكون ونواميسه، فإذا ساغ أن يكون ذلك لكل من علا كعبه في الدين لم يبق عند صاحب الدين ناموس يعرف له حكم مخصوص .

زاد الانجيل على هذا ان الإيمان ، ولو كان مثل حبة خردل ، كاف في خرق نواميس الكون ، كما قال في الإصحاح السابع عشر من «متّى» : ١٠ «فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل : انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ، ولا يكون شيء غير ممكن لديكم» . وفي الحادي عشر من «مُرْقُس» ٢٣ : «لأني الحق أقول لكم : إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ، ولا يشك في قلبه ، بل يؤمن أن ما يقوله له يكون ، فمهما قال يكون له ، ٢٤ لذلك أقول لكم : كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم» .

فكل بحث يؤدي إلى أن للكون شرائع ثابتة ، وان للعلل والشرائط أو الأسباب أو الموانع أحكاماً في معلولاتها أو ما شرطت فيه أو ما تسبب عنها ، أو ما استحال وجوده

لوجودها كان مضاداً لهذا الأصل في أي زمن . وقد كان كل علم من علوم الأكوان لا بد فيه من هذا البحث ، فكل علم مضاد لهذا الأصل . ثم إن صاحب الاعتقاد بهذا الأصل لا يحتاج إلى البحث في الأسباب والمسببات ، لأن اعتقاده في الشيء أن يكون وارادته لأن يكون كافيان في حصوله ، فهو في غنى عن العلم والعلم عدو لما يعتقد . فما أصعب احتماله إذا جاء يزاحمه في سلطانه .

الأصل الثاني للنصرانية ـ سلطة الرؤساء

وبعد هذا الأصل أصل آخر وهو السلطة الدينية التي منحت للرؤساء على المرؤوسين في عقائدهم وما تكنه ضمائرهم . وقد أحكم هذه السلطة ما ورد ١٦ : ١٩ من أنجيل «متّى» «أعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات» وفي ١٨ : ١٨ منه «الحق أقول لكم : كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء ، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء» .

فإذا قال الرئيس الكهنوتي لشخص إنه ليس بمسيحي صار كذلك ، وإذا قال إنه مسيحي فاز بها . فليس المعتقد حراً في اعتقاده ، يتصرف في معارفه كما يرشده عقله ، بل عينا قلبه مشدودتان بشفتي رئيسه ، فإذا اهتزت نفسه إلى بحث أوقفها القابض على تلك السلطة . وهذا الأصل ان نازع فيه بعض النصارى اليوم فقد جرت عليه النصرانية خمسة عشر قرناً طوالا .

الأصل الثالث للنصرانية ـ ترك الدنيا

وبعد هذين الأصلين أصل ثالث وهو التجرد من الدنيا والانقطاع إلى الآخرة ، تجد هذا الأصل في الأناجيل وفي «أعمال الرسل» ، وكلما قرأتَ في الكتب الأولى عثرتَ به . وتجد الأوامر الصادرة بالانقطاع إلى الملكوت والهروب من عالم الملك صريحة في الإصحاح السادس والعاشر والتاسع عشر من انجيل «متّى» . فمِمّا جاء في السادس : «لا تقدرون ان تخدموا اللّه والمال ٢٥ لذلك أقول لكم : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لاجسادكم بما تلبسون ، أليست الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس ؟ إلى أن قال : ٣٣ ولكن اطلبوا أولاً ملكوت اللّه وبره وهذه تزاد

لكـم ٣٤ وأقول لكم أيضاً : «إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت اللّه» وفي العاشر : «٩ لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ١٠ ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا إلخ» .

وحث على الرهبانية وترك الزواج وفي ذلك قطع النسل البشري قال في (١٩ : ١٠ من مَتّى) «ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات من استطاع أن يقبل فليقبل» .

ثم إن ملكوت السموات قد نيط أمره بالإيمان المجرد عن النظر في الأكوان ، فماذا يكون حظ صاحب الاعتقاد بهذا الأصل من النظر في أي علم ، والعلم لا دخل له في شؤون الآخرة والدنيا قد حرمت عليه ؟ لا ريب أن همه يكون في الصلاة وصرف القلب بكليته إلى العبادة دون سواها ، وليس الفكر في الخليقة من العبادة عنده ، فإن عبادة الانجيل ليست شيئاً سوى الإيمان والصلاة .

الأصل الرابع للنصرانية :

الإيمان بغير المعقول

وبعد هذه الأصول أصل أربع ، وهو عند عامة المسيحيين أصل الأصول ، لا يختلف فيه **كاثوليك** ، **ولا أرثوذكس** ، **ولا بروتستانت** ، وهو ان الإيمان منحة لا دخل للعقل فيها ، وان من الدين ما هو فوق العقل ، بمعنى ما يناقض أحكام العقل ، وهو مع ذلك مما يجب الإيمان به . قال **القديس «أنسيلم»** يجب أن تعتقد أولاً بما يعرض على قلبك بدون نظر ، ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت ، فليس الإيمان وهو الوسيلة الفردة إلى النجاة ، في حاجة إلى نظر العقل ، والكون وما فيه لا يهم المؤمن أن يجيل فيه نظره» . وقول القديس : «ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت» نوع من التفضل على النزعة البشرية إلى الفهم ، وعلى الميل الفطري إلى تصوير ما يتعلق به الاعتقاد ، وإلا فمجرد الإيمان كاف في الخلاص . ثم الويل كل الويل لطالب الفهم إذا أدى اجتهاده إلى شيء يخالف ما تعلق به إيمانه ، فكأن معنى الفهم أن يخلق المؤمن لنفسه ما يسلّي به نفسه على إيمانه بغير المفهوم .

الأصل الخامس للنصرانية

أن الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج إليه البشر في المعاش والمعاد

ثم ينضم إلى الأصول الأربعة خامس وهو أن الكتب المعروفة «بالعهد القديم» و«العهد الجديد» تحتوي على كل ما يحتاج البشر إلى علمه ، سواء كان متعلقاً بالاعتقادات الدينية ، والآداب النفسية والأعمال البدنية ، مما يؤدي إلى نيل السعادة في الملكوت الأعلى ، أو كان من المعارف البشرية التي يتأتى للعقل الإنساني أن يتمتع بها . قال «تيرتورليان» ـ وهو أفضل من وصف الاعتقاد المسيحي في نهاية القرن الثالث قبل أن تعرض عليه البدع الكثيرة ـ : «إن عقائد المسيحية أسست على الكتب السماوية ، ودليل صحة هذه الكتب قدمها ، وكونها أقدم من كتاب «اميروس» وأقدم من أقدم أثر معروف عند الرومانيين ، وأقدم من تأسيس الحكومة الرومانية نفسها ، والزمن ناصر الحقيقة ، ثم تحقق النبوءات التي وردت فيها» . ثم قال «إن أساس كل علم هو الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة ، وإن اللّٰه لم يقصر تعليمنا بالوحي على الهداية إلى الدين فقط ، بل علمنا بالوحي كل ما أراد أن نعْلَمه من الكون ، والكتاب المقدس يحتوي على العرفان على المقدار الذي قُدِّر للبشر أن ينالوه» فجميع ما جاء في الكتب السماوية من وصف السماء والأرض وما فيها وتاريخ الأمم ـ مما يجب تسليمه مهما ضارب العقل وخالف شاهد الحس ـ فعلى الناس أن يؤمنوا به أولاً ، ثم يجتهدوا ثانياً في حمل أنفسهم على فهمه ، أي على تسليمه أيضاً كما ترى .

وقال بعض فضلائهم : إنه يمكن أن يؤخذ فن المعادن بأكمله من الكتاب المقدس .

* * *

الأصل السادس للنصرانية

التفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى الأقربين

ينتظم تلك الأصول كلها أصل سادس وهو آخرها فيما أرى ، ذلك الأصل هو الذي ورد في الإصحاح العاشر من انجيل «مَتّى» وهو : «٣٤ لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض ، ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً ٣٥ فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه ، والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها ٣٠ واعداء الإنسان أهل بيته» .

وقد صرح في عدة مواضع من الإنجيل ان الإخلال بشيء من محبة المسيح أو بالانقياد إلى جميع ما أوصى به موجب للهلاك ، وإن كان قد جاء في مواضع كثيرة إن الإيمان وحده كاف في الخلاص ، غير ان روح الشدة التي جاءت في قوله : «لا تظنوا إني جئت لألقي سلاماً إلخ» هي التي بقي أثرها في نفوس الأولين من المعتقدين بالدين المسيحي وعفت على آثار ما كان يصح أن تستشعره النفوس من بعض الوصايا الأخر .

* * *

نتائج هذه الأصول وآثارها

من هنا أعْرضَ المسيحيون الأولون عن شواغل الكون وصدوا عن سبيل النظر فيه إظهاراً للغني بالإيمان والعبادة عن كل شيء سواهما ، وحجروا على همم النفوس أن تنهض إلا إلى الدعوة إلى ذلك الإيمان وتلك العبادة ، ووسائل الدعوة هي الإيمان والعبادة كذلك ، فإذا نزعت العقول إلى علم شيء من العالم وضعوا أمام نظرها كتب «العهد القديم» وحصروا العلم بين دفاتها استغناء بالوحي عن كل عمل للعقل سوى

فهمه من عباراته ، وليس يسوغ لكل ذي عقل فهمه ، بل إن يتلقى فهمه من رؤساء الكنيسة خوفاً من الزيغ عن الإيمان السليم ـ **البروتستانت** رأوا إنه يجوز لغير الكنيسة تفسير الكتاب المقدس ـ ثم إن إلقاء السيف ووضع التفريق بين الأقارب والأحبة إنما جاء حافظاً لذلك كله ، فإذا خطر على قلب احد خاطر سوء يرمي إلى معارضة شيء من أمور الإيمان المقررة وجب قطع الطريق على ذلك الخاطر ، ولم يجز في شأن صاحبه هوادة ولا مرحمة ، كما أفهمه **المسيح** بعمله ، على حسب ما ورد في الإنجيل ، فقد قيل له : «٤٧ أمك وأخوتك واقفون خارجاً طالبين أن يكلموك ٤٨ فأجاب وقال للقائل له : من هي أمي ومن هم أخوتي ؟ ٤٩ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال : ها أمي وأخوتي» ونحو ذلك مما يدل على وجوب المقاطعة بين من يعتقد بالدين المسيحي ومن يحيد عن شيء من معتقده . ولا يخفى أن الشيء يكون بذرة ثم نبتاً ثم شجراً فانظر إلى ما صار أمر هذه البدايات بحكم الطبيعة .

وقر في نفوس المسيحيين ان السلامة في ترك الفكر والأخذ بالتسليم وتقرر عند القوم قاعدة : «ان الجهالة أم التقوى» (وكثير من أهل الأديان مسيحيين ومسلمين لا يزالون يجرون على هذه القاعدة ببركة ما ورثوا عن أبناء الزمن الغابر) فحصروا التعليم في الأديار ، ومنعت الكنيسة أن ينشر التعليم بين العامة إلا ما كان دعوة إلى الصلاح وتقرير الإيمان على وجه ظاهر . وبقي غير القسيسين في جهالة حتى بأمور الدين وحقائقه وأسراره .

ظهرت ذات الذنب التي تنسب إلى «**هالي**» في سنة ١٦٧٢ فاضطربت لظهورها أوروبا ، ولجأوا إلى البابا ، واستجاروا به فأجارهم ، وطردها من الجو ، فولت في الفضاء مذعورة من لعنته ولم تعد إلا بعد خمس وسبعين سنة ؟!!

لم يكن يسمح لأحد أن يبدي رأياً يخالف صريح ما في الكتاب ، وعندما أظهر «**بلاج**» رأيه في ان الموت كان يوجد قبل آدم ، أي ان الحيوانات كان يدركها الموت قبل أن يخطىء آدم بالأكل من الشجرة ، قام لذلك ضوضاء وارتفعت جلبة ، وانتهى الجدال والجلاد إلى صدور أمر امبراطوري بقتل كل شخص يعتقد ذلك . يقول المؤرخ : وهكذا عد الاعتقاد بأن الموت كان يزور الأحياء قبل آدم جريمة على الملك .

أحرقت كتب البطالسة والمصريين **بالاسكندرية** على عهد «**جول قيصر**» ، ثم إن «**تيوفيل**» **بطريرك الاسكندرية** انتحل أدنى الأسباب لإثارة ثورة في المدينة لاتلاف ما بقي

في مكتبة البطالسة ، بعضه بالإحراق وبعضه بالتبديد . قال «**أوروسيوس**» المؤرخ : إنه رأى أدراج المكتبة خالية من الكتب بعد أن نال تيوفيل الأمر الأمبراطوري باتلافها بنحو عشرين سنة .

ثم جاء بعد تيوفيل ابن اخته «**سيريل**» وكان خطيباً مفوهاً له على الشعب سلطان بفصاحته ، وكان في **الاسكندرية** بنت تسمى «**هيباتي**» الرياضية تشتغل بالعلوم والفلسفة ، وكان يجتمع إليها كثير من أهل النظر في العلوم الرياضية ، وكان لا يخلو مجلسها من البحث في أمور أخَر ، خصوصاً في هذه الأمور الثلاث : من أنا ؟ وإلى أين أذهب ؟ وماذا يمكنني أن أعلم ؟ فلم يحتمل ذلك القديس «سيريل» ، مع إن البنت لم تكن مسيحية بل كانت على دين آبائها المصريين ، فأخذ يثير الشعب عليها حتى قعدوا لها وقبضوا عليها في الطريق سائرة إلى دار ندوتها ، وجردوها من ثيابها وأخذوها إلى الكنيسة مكشوفة العورة وقتلوها هناك ، ثم قطع جسمها وجرد اللحم عن العظم وما بقي منها ألقي في النار . يقول المؤرخ راوي هذه القصة : ولم يُسأل «سيريل» عما صنع «بهيباتي» ، ولم تنظر الحكومة الرومانية فيما وقع عليها ، ولعل ذلك كان أول ما تقررت تلك القاعدة . «الغاية تشفع للوسيلة» .

ما من عقيدة ظهرت في المسيحية وأريد تقريرها من فريق ونازع فيها فريق إلاّ وقد سالت لها الدماء فلنراجع التاريخ لنتمثل أرض **مصر** مصبوغة بدماء المسيحيين من فريقين مختلفين عندما أريد تقرير عبادة **العذراء** واتخاذها للّه أماً . كان ذلك في طبيعة الدين : أن من لم يتبع **المسيح** فهو هالك ، والهالك لا يستحق الحياة . ألم تر في الإصحاح الخامس من الأعمال إلى قصة الرجل الذي باع جميع ما عنده ، وعندما جاء **بطرس** أعطاه الثمن وادخر لنفسه شيئاً أخفاه عنه ، فاطلع بطرس على حقيقة الأمر ، ووبخ الرجل وتصرف فيه بسلب حياته من طريق المعجزة ، ثم جاءت امرأته وكان لها اطلاع على ما أخفى زوجها ولم تنهه فوبّخها بطرس وأخبرها بموت زوجها فماتت هي أيضاً ، فإذا كان اللّه يسلب الحياة جزاء على اختلاس الرجل شيئاً من مال نفسه لم يقدمه هدية للرسل فكيف تكون الحياة من حقه إذا خالف اللّه في الأرض ونابذهم فيما يعتقدون ؟

قال **البابا انوشان الثالث** ـ عند الكلام في مصادرة الذين يخالفون العقيدة الكاثوليكية : «لا يجوز أن يترك لأولاد الجاحدين سوى الحياة ، وترك الحياة لهم منٌ

واحسان» فلم يقصر الجزاء على الجاحدين ولكن لَعَدَّاه إلى أولادهم ، وقد ترك الحياة لأولادهم يتمتعون بها ضرباً من الإحسان عليهم لأنهم لا حق لهم في أن يعيشوا وقد جحد آباؤهم .

* * *

مقاومة النصرانية للعلم

لا أجد في التاريخ ذكراً للعلم والفلسفة بعد ظهور المسيحية في مظهر القوة لعهد قسطنطين وما بعده إلا في أثناء المنازعات الدينية التي كان يُفْصَل فيها تارة بسلطان الملوك ، وأخرى بجمع المجامع ، وثالثة بسفك الدماء ، فتخمد شعلة العلم وينتصر الدين المحض . وإنما الذكر كل الذكر لما كان بين المسيحية وما جاورها من الملل الأخرى من الحروب الدينية للحمل على العقيدة بما كان يعتقد المسيحيون ، وما كان يقع بين ملوك أوروبا من التسافك في الدماء باغراء رؤساء الكنيسة ، وأمر ذلك معروف عند من له المام بالتاريخ ، وليس من موضوعنا الكلام فيه .

ولكني أرى شبه نزاع بين العلم والدين ظهر في أوروبا بعد ظهور الإسلام ، واستقرار سلطانه في بلاد الأندلس ، واحتكاك الأوروبيين بالمسلمين في الحروب الصليبية .

رجع الآلاف من الغزاة الصليبيين إلى بلادهم ، وحملوا إلى الناس أخباراً تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة من أن المسلمين جماعة من الوثنيين ، غلبوا على الأرض المقدسة ، وأجلوا عنها دين التوحيد ، ونفوا منها كل فضيلة وإخلاص ، وهم وحوش ضارية ، وحيوانات مفترسة ، فلما قفل الغزاة إلى ديارهم قصوا على قومهم أن اعداءهم كانوا أهل دين وتوحيد ومرءوة وذوي ود ووفاء وفضل مجاملة .

ثم كان الخليفة الحكم الثاني(١) جعل من بلاد الأندلس فردوساً ، كما قال الفيلسوف الأميركاني(٢) ، وكان اليهود والنصارى يتلاقون في تلك البلاد تحت ظلال الأمن والحرية ، قال بطرس المحترم الشهير : «إنه رأى كثيراً من العلماء يأتون إلى تلك

---

(١)الذي تولى على الأندلس من ١٩٦١ م حتى ٩٧٦ م .

(٢) «درابر » الذي سبقت إشارة الأستاذ الإمام إليه .

البلاد لتلقي العلوم الفلكية حتى من بلاد انكلترا ، وأولئك الذين يسعون إلى طلب العلوم من أي بلاد جاءوا كانوا يجدون فيها رحباً وسعة ، وكان قصر الخليفة يشبه أن يكون مصنعاً للكتب ـ نسخ وتذهيب وتجليد» إلخ ما قال .

ثم انتشرت صناعة الورق التي اخترعها العرب ، ثم وجدت المطبعة ، وسهل على الناس أن ينشروا آراءهم بعد أن تنبهت أفكارهم بما جلب إليهم رسل العلم الذين حملوه إليهم من أهالي اسبانيا ومن حملوه مما جاورها ، ثم انساب إلى العلم شيء مما سماه الأوروبيون فلسفة ابن رشد ، وعند ذلك اهتمت المسيحية بالأمر ، وأخذت تحارب كل ما يظهر على السنة الناس أو يرد على اسماعهم مما يخالف ما في الكتب المقدسة وتقاليد الكنيسة .

قال «رومنيس» : «إن قوس قزح ليس قوساً حربياً بيد اللّٰه ينتقم بها من عباده إذا أراد ، بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء» . فجلب إلى روما وحبس حتى مات ، ثم حوكمت جثته وكتبه ، فحكم عليها والقيت في النار ، وقيل في علة الحكم : إنه أراد الصلح بين كنيستي روما وانكلترا ، وأي ذنب أعظم من هذا الصلح ؟ هو اضخم بلا ريب من ذنب القول بأن قوس قزح من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء ؟!

* * *

مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش

انشئت المراقبة على المطبوعات ، وحتم على كل مؤلف وكل طابع أن يعرض مؤلفه أو ما يريد طبعه على القسيس أو المجلس الذي عين للمراقبة ، وصدرت أحكام المجمع المقدس بحرمان من يطبع شيئاً لم يعرض على المراقب ، أو ينشر شيئاً لم يأذن المراقب بنشره ، وأوعز إلى هذا المراقب أن يدقق النظر حتى لا ينشر ما فيه شيء يومىء إلى مخالفة العقيدة الكاثوليكية ، ووضعت غرامات ثقيلة على أرباب المطابع يعاقبون بها فوق الحرمان من الكنيسة .

انشئت محكمة التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة عندما خيف ظهورهما بسبب تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته خصوصاً في جنوب فرنسا وإيطاليا . انشئت هذه المحكمة الغريبة بطلب الراهب «توركماندا» .

قامت المحكمة بأعمالها حق القيام ، ففي مدة ١٨ سنة ـ من سنة ١٤٨١ إلى ١٤٩٩ ـ حكمت على ١٠ آلاف ومائتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم أحياء ، فأحرقوا ، وعلى ٦ آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير ، فشهروا وشنقوا ، وعلى سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفة ، فنفذت ، ثم أحرقت كل توراة بالعبرية .

ماذا كانت وسائل التحقيق عند هذه المحكمة «المقدسة» ؟ وسيلة واحدة هي أن يحبس المتهم وتجري عليه أنواع العذاب المختلفة بآلات التعذيب المتنوعة إلى أن يعترف بما نسب إليه وعندئذٍ يصدر الحكم ويعقبه التنفيذ .

قرر مجمع «لاتران» سنة ١٥٠٢ أن يلعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد وطفق «الدومينكان» يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر في كلامه شيئاً من الصناعة والعبادة ، لكن ذلك لم يمنع الأمراء وطلاب العلوم من كل طبقة من تلمس الوسائل للوصول إلى شيء من كتبه وتحلية العقول ببعض أفكاره .

أشتدت محكمة التفتيش في طلب أولئك المجرمين طلاب العلم والسعاة إلى كسبه ، ونيط بها كشف البدعة والحكم فيها مهما اشتد خفاؤها : في المدن ، في البيوت ، في السراديب ، في الأنفاق ، في المخازن ، في المطابخ ، في المغارات ، في الغابات ، في الحقول . فوفت بما كلفت مع البهجة والسرور اللائقين بأصحاب الغيرة على الدين ، عملاً بالقول الجليل «ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً» .

كان يؤخذ الرهبان في صوامعهم ، والقسوس في كنائسهم ، والأشراف في قصورهم ، والتجار بين بضائعهم ، والصناع في مصانعهم ، والعامة في بيوتهم ومزارعهم ، وحيثما وجدوا ، وأينما ثقفوا ، ويوقفون أمام المحكمة ، وتصدر الأحكام عليهم يوم اتهامهم .

قرر مجمع «لاتران» أن يكون من وسائل الاطلاع على أفكار الناس الاعتراف الواجب أداؤه على المذهب الكاثوليكي أمام القسيس في الكنيسة .

تذهب البنت أو الزوجة أو الأخت لأجل الاعتراف بين يدي القسيس يوم الأحد ، فيكون مما تسأل عنه عقيدة أبيها وزوجها أو أخيها ، وما يبدر من لسانه في

بيته ، وما يظهره في أعماله بين أهله ، فإذا وجد القسيس متلقي الاعتراف شيئاً من الشبهة في طلب العلم غير المقدس على من سأل عنه رفع أمره إلى المحكمة ، فينقض شهاب التهمة عليه . فإذا سئل عن الشاهد الذي عول عليه في اتهامه لا يجاب ، وإنما يقام التعذيب مقام شخص الشاهد ، وهو من أهله ، حتى يعترف .

أوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب في قلوب أهل أوروبا ما خيل لكل من يلمح في ذهنه شيء من نور الفكر إذا نظر حوله أو التفت وراء أن رسول الشؤم يتبعه وأن السلاسل والأغلال أسبق إلى عنقه ويديه من ورود الفكرة العلمية إليه ، وقال «**باغليادیس**» ما كان يقوله جميع الناس لذلك العهد : «يقرب من المحال أن يكون الشخص مسيحياً ويموت على فراشه» .

حكمت هذه المحكمة من يوم نشأتها سنة ١٤٨١ إلى سنة ١٨٠٨ على ثلاثمائة وأربعين ألف نسمة ، منهم نحو مائتي ألف أحرقوا بالنار أحياء .

* * *

اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة

لما كان ابن رشد هو الينبوع الذي تفجر منه ماء العلم والحرية في أوروبا ، على زعم القسوس ، وكان ابن رشد أستاذاً يتعلم عنده كثير من اليهود ، وقد اتهموا بنشر أفكاره وآرائه ، ثم هو مع ذلك مسلم ، صب غضب الكنيسة على اليهود والمسلمين معاً ، فصدر الأمر في ٣٠ مارس ١٤٩٢ بان كل يهودي لم يقبل المعمودية في أي سن كان وعلى أي حال كان ، يجب أن يترك بلاد **إسبانيا** قبل شهر يوليو ، ومن رجع منهم إلى هذه البلاد عوقب بالقتل ، وأبيح لهم أن يبيعوا ما يملكون من عقار ومنقول بشرط أن لا يأخذوا في الثمن ذهباً ولا فضة ، وإنما يأخذون الأثمان عروضاً وحوالات . ومن ذا الذي يشتري اليوم بثمن ما يأخذه بعد ثلاثة أشهر بلا ثمن ؟! وصدر أمر (**توركماندو**) أن لا يساهم أحد من سكان **اسبانيا** في أمر من أمورهم . وهكذا خرج اليهود ـ تاركين كل ما يملكون ـ بأرواحهم ، على انه لا نجاة لكثير منها ، فقد اغتالها الجوع ومشقة السفر مع العدم والفقر .

وفي فبراير سنة ١٥٠٢ نشر الأمر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) من **إشبيلية**

وما حولها ـ من لم يقبل المعمودية منهم يترك بلاد إسبانيا قبل شهر إبريل ـ وأبيح لهم أن يبيعوا ما يملكون على الشرط الذي وضع لليهود، ولكن وضع للمسلمين شرط آخر وهو أن لا يذهبوا في طريق يؤدي إلى بلاد إسلامية ، ومن خالف ذلك فجزاؤه القتل . فهؤلاء المساكين نفوا جميعاً إلى القتل ، إن لم يكن قتل الجزاء عند الرجوع فالموت ملاقيهم بالتعب مع العري والجوع .

ألا يعجب القارىء إذا رأى أن (برونو) يحرق بالنار حياً بعد حبس طويل سنة ١٦٠٠ لأنه قال بقول الصوفية في وحدة الوجود ، وقال إن هذا العالم يحتوي على عوالم كثيرة ؟ الحمد لله رب العالمين .

* * *

ظهر القول بكروية الأرض ـ ذلك الأمر الذي عرفه المسلمون ، وصار رأياً لهم في أول خلافه بني العباس ، ولم تتحرك له شعرة في بدن ـ فأحدث اضطراباً شديداً في عالم النصرانية ، ولا يسع هذا المقال ما وقع من الحوادث في شأنه .

هل يصدق القارىء ان ما قصده «**كريستوف كولمب**» من السفر إلى المحيط الأطلانطيقي لعله يكتشف أرضاً جديدة كان من الأمور التى اهتمت لها الكنيسة ، وحكم مجمع سلامانك بأنه مخالف لأصول الدين؟ ثم أعيد النظر فيه وعرض على أقوال الأباء من «**كريزستوم**» و«**أوغستين**» و«**جيروم**» و«**غريغوار**» و«**بازيل**» و«**انبرواز**» ، وعلى رسائل الرسل والأناجيل والنبوات والزبور والأسفار الخمسة ، ولم ينتج هذا العرض شيئاً ، ولكن ساعده على ما قصده بعض الملوك رغم الكنيسة ، كما هو معلوم ؟ قال كريستوف كولمب «إن الذي أوحى إليّ هذا القصد النبيل هي كتب «**ابن رشد**» من هنا تفهم لم قامت الكنسية وقعدت ؟

قاعدة سلطان رجال الكنيسة على غيرهم ؟

ما أشد تمسك الكنيسة بهذا الأصل الجليل «السلطة للقسوس والطاعة على العامة» ، كل رأي لم يصدر عن ذلك المصدر الديني الذي يربط ويحل في الأرض والسماء فهو باطل تجب مقاومته بكل ما يستطاع . لهذا حكم على «**غاليلي**» الذي ذهب إلى أن حركة الكواكب هي على النظام المعروف عند الفلكيين اليوم .

مقاومة الكنيسة للحقن تحت الجلد :

هل تدري ماذا حصل من المقاومة لإدخال الحقن تحت الجلد بمادة المرض ؟ اكتشفت هذه الطريقة الطبية عند المسلمين في **الآستانة** ، ثم نقلتها إلى أوروبا امرأة **تسمى «مونتاجو»** سنة ١٧٢١ ، فقامت قيامة القسوس وعارضوا في استعمالها ، واحتيج في تعضيدها إلى التماس المساعدة من ملك **انكلترا** ، وعادت هذه الشدة في المعارضة عندما اكتشفت طريقة تطعيم الجدري .

مقاومة تسهيل الولادة :

أيّ مقاومة لم يلاقها اكتشاف تخدير المرأة عند الولادة حتى لا تحس بألم الطلق ؟! . اكتشاف أميركاني رأى حضرات القسوس فيه انه يخلص المرأة من تلك اللعنة أو تلك العقوبة التي سجلت عليها في سفر التكوين (إذ جاء في الإصحاح الثالث منه : وقال للمرأة : تكثيراً أكثر أتعاب حملك ، بالوجع تلدين أولاداً) .

* * *

مقاومة السلطة المدنية وحدية الاعتقاد

نشر البابا منشوراً في سنة ١٨٦٤ جاء فيه لعن كل من يقول بجواز خضوع الكنيسة لسلطة مدنية ، أوجواز أن يفسر أحد شيئاً من الكتب المقدسة على خلاف ما ترى الكنيسة ، أو يعتقد بأن الشخص حر فيما يعتقد ويدين به ربه . وفي منشور له سنة ١٨٦٨ : إن المؤمنين يجب عليهم أن يفدوا نفوذ الكنيسة بأرواحهم وأموالهم ، وعليهم أن ينزلوا لها عن آرائهم وأفكارهم ، ودعا الروم **الأرثوذكس والبروتستانت** إلى الخضوع للكنيسة الرومانية على هذا الوجه .

وفي سنة ١٨٧١ كان النزاع بين حكومة **بروسيا** والبابا في عزل أستاذ في إحدى الكليات رأى رأياً لا يروق للحزب **الكاثوليكي**، فحرمه البابا وطلب من الحكومة عزله، وكانت إحدى المعضلات السياسية، غير أن عزيمة «**بسمارك**» نصرت مدنية القرن التاسع عشر على سلطان الكنيسة، وأبقت الأستاذ، وجعلت التعليم تحت السلطة المدنية .

* * *

مقاومة الجمعيات العلمية والكتب

لا أذكر الجمعيات العلمية التي ألغيت ، والاجتماعات التي عطلت ، لا لشيء كان فيها سوى هداية البشر إلى منافعهم ، وتنوير بصائرهم بكشف ما احتجب عنهم من سر الخليقة بالبحث النظري ، ومن الطريق العقلي ، من غير إستشارة المسيطر الإلهي ـ وهو الكنيسة ـ ولكن أذكر شيئاً واحداً وهو أن الكردينال «اكسينيس» أحرق في غرناطة ٨ آلاف كتاب بخط القلم فيها كثير من ترجمة الكتب المعول عليها عند علماء أوروبا لذلك العهد .

* * *

البروتستانت أو الإصلاح

ربما يقول قائل : إن هذا الذي ذكرت هو عمل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، ولكن قد قام في المسيحية مصلحون ، وقد رفعوا تلك السيطرة عن الضمائر والعقول ، ومن عهد ظهور الإصلاح والرجوع إلى أصول الدين الأولى بزغت شمس العلم بالغرب ، وبسط للعلم بساط التسامح ، وذلك لا يمكن أن يكون إلا جرياً مع طبيعة الدين .

لا أذكر في الجواب عن ذلك إلا ما ذكر البروتستانت انفسهم في تاريخ الإصلاح : استمرت عقوبة الموت قانوناً يحكم به على كل من يخالف معتقد الطائفة ، وقد أمر كلفان[1] بإحراق (سيرفيت) في جنيف لأنه كان يعتقد ان الدين المسيحي كان قد دخل عليه شيء من الابتداع قبل مجمع نيقة ، وكان يقول أن روح القدس ينعش الطبيعة بأسرها . فكان جزاؤه على هذا أن شوي على النار حتى مات ، وكذا احرق (فايتي) في تولوز سنة ١٦٢٩ .

كان لوثير أشد الناس انكاراً على من ينظر في فلسفة أرسطو ، وكان ذلك المصلح يلقب هذا الفيلسوف بالخنزير الدنس الكذاب ، ونحو ذلك من الألقاب التي لا بأس بها إذا صدرت من أهل الغيرة على الدين في طريق الدفاع عنه !! وكان كلفان أقل شتماً

(١) زعيم الإصلاح البروتستانتي بعد مارتن لوثر .

للفيلسوف من لوثير ، لكنه لم يكن احسن ظناً به ولا أوسع صدراً لمن يطلع على شيء من كتبه . وكان علماء المسلمين يلقبون هذا الفيلسوف «المعلم الأول» فتأمل الفرق بين الفريقين !!

قالوا : البروتستانت قاموا يطالبون بالحرية في فهم الكتب المقدسة ، وبإبطال السلطة على غفران الذنوب ، والتجارة ببيع الثواب والسعادة الأخروية ، وإبطال عبادة الصور . ولكنهم لم يغيروا شيئاً من الاعتقاد بأن الكتب المقدسة هي نبراس الهداية في طريق العلم البشري ، كما أنها منبع نور الإيمان بالدين الإلهي ، وإنه لا يباح للعقل أن ينساق في نظره إلى ما يخالف شيئاً مما حوته وأنه لا حاجة إلى شيء من العلم وراء ما ورد فيها . وبالجملة انهم لم يبطلوا أصلاً من الأصول الستة التي تقدمت ، إلا أنهم قالوا بمنع غلو الرؤساء في سلطتهم المبنية على الأصل الثاني في سابق قولنا .

قالوا : ولهذا لم يكن مذهب الإصلاح أخف وطأة على العلم ، ولا أفضل معاملة من **الكاثوليك** ، لأن كلا المذهبين يرجع إلى طبيعة واحدة (وهي القائمة على الأصول الستة) ولم يكن لأهل النظر العقلي جزاء في كلتا الملتين إلا القتل وسفك الدم .

لو كنت ممن يحب الجدل في الدين لعددت فيما ذكرته من عناصر الدين المسيحي ما تضمنه قول بعض الناقدين عند الكلام على الحروب المسيحية ،واضطهادات الكنيسة «ما أهون الدم على من يمثل في عبادته أكل الدم ، وعلى من يعتقد أن خلاص العالم الإنساني من الخطيئة إنما كان بسفك الدم البريء على يد المعتدي الأثيم» لكني في بحثي هذا لا أريد أن استعمل قوة الخيال ، ولا أن اذكر ما يعد من قبيل الجدال ، وإنما آتي بما هو حكاية حال ، ليس للناظر فيها مقال .

* * *

الفصل بين السلطتين في المسيحية

بقي علينا الكلام فيما جعلته «الجامعة» أساساً للفصل بين السلطتين الدينية والملكية ، وبه كانت طبيعة الدين المسيحي أدعى إلى التسامح مع العلم في نظرها . لو سلمنا أن في تلك العبارة معنى الفصل كما قالت «الجامعة» ـ وقال كثير غيرها ممن أرادوا مقاومة السلطة الدينية ـ فماذا يفيد الفصل إذا كان دين الملك نفسه يقضي عليه

بمعاداة العلم ؟ أفلا يغلب اعتقاد الملك وما يملك نفسه مما فيه نجاته الروحية على مطالب الملك ؟ وكم من ملك جعل مصالح مملكته قرباناً لسلطان عقيدته ! هب أن مصالح الملك تكون دائماً أغلب على النفس من حكم العقيدة وقاهر الإيمان والوجدان وقد أقام الدين سلطتين منفصلتين ، احداهما . تحل وتربط في الأرض وفي السماء فيما هو من خاصة الدين ، والأخرى تحل وتربط في الأرض فيما هو من خصائص الدنيا ، أفلا يكون هذا الفصل قاضياً بتنازع السلطتين وطلب كل واحدة منهما التغلب على الأخرى فيمن تحت رعايتهما معاً ؟ وهل يسهل على السلطة الدينية أن تدع رعاياها تتصرف في أبدانهم وأموالهم بل وفي عقولهم أيدي الملوك بما تقتضيه مصالح الملك الفاني ! إذا كان ذلك التصرف مخالفاً لما جاء في كنز المعارف وهو الكتب السماوية وتأويل الرؤساء الروحيين وسننهم ! فإذا همت هذه السلطة بالمعارضة أفتصبر الأخرى ! هذا هو الذي وقع في العالم المسيحي منذ ظهرت سلطة الدين .

كيف يتسنى للسلطة المدنية أن تتغلب على السلطة الدينية وتقف بها عند حدها ؟ والسلطة الدينية إنما تستمد حكمها من اللّٰه ، ثم تمد نفوذها بتلك القوة إلى أعماق قلوب الناس ، وتديرها كيف تشاء ، والملك لا قوة له إلا بأولئك الناس المغلوبين للسلطة الدينية .

لا يتأتى للملك أن يغالب تلك القوة إلا بعد أن يتناول من الوسائل ما لا يُعدُّ لأضعاف سلطتها . نعم هذا الفصل يُسهل التسامح لو كانت الأبدان التي يحكمها الملك يمكنها أن تأتي أعمالها على حدة مستقلة عن الأرواح التي تحيا بها ، والأرواح كذلك تأتي أعمالها بدون الأبدان التي تحمل قواها .

ثم هل هذا هو معنى قول الانجيل؟ القصة على ما جاء في الانجيل أن بعض المرائين أراد أن يسقط المسيح ليأخذ عليه ما ينم به ، فسأله : أيجوز أن نعطي جزية لقيصر ؟ فأجاب : لم تجربونني ؟ ائتوني بدينار لأنظر إليه . فأتوه بدينار ، فقال : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ قالوا : لقيصر ، فقال : اعطوا ما لقيصر لقيصر وما للّٰه للّٰه . فمعناه الظاهر من سياق القصة : إن صاحب السكة التي تتعاملون بها إذا ضرب عليكم أن تدفعوا منها شيئاً فأدفعوه له ، أما قلوبكم وعقولكم وجميع ما هو من اللّٰه وعليه طابع صنعته ، فلا تعطوا منه لقيصر شيئاً ، العلم ليس مما عليه طابع قيصر بل عليه طابع اللّٰه ، فلا يمكن

أن يكون العلم تحت سلطة غير السلطة الروحانية . فأي تسامح مع العلم في هذا ؟

* * *

اعتقاد المسلمين في المسيح والمسيحية

هذا الذي عرضناه من طبيعة الدين المسيحي وأوردناه من مشاربه ، فيما بعد نشأته ، وما وقع من حوادث أهله مع طلاب العلم ورواد المعارف في كل زمن إلى ما يقرب من أيامنا هذه ، كل ذلك مأخوذ من تأريخهم الذي كتبوه عن أنفسهم ، ومن نصوص كتبهم الدينية التي يتوكأون عليها فيما ذكرنا من سيرتهم وأعمالهم .

أما رأيي ورأي أهل العقيدة الصحيحة من المسلمين في المسيح عليه السلام ودينه : فهو على غير ما رآه القارىء ، إنا نعتقد أن المسيح روح اللّه وكلمته ورسوله إلى بني إسرائيل بعث مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وجاءهم من الدين بما فيه هدى لهم ورشاد في شؤون معاشهم ومعادهم ، ولم يطالبهم بتعطيل قوة من قواهم التي منحهم اللّه تعالى إياها ، بل طالبهم بشكر اللّه تعالى عليها ، ولا يُشْكَر حق الشكر إلا باستعمالها جميعاً فيما أعدها اللّه له . والعقل من أجلّ القوى بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها ، والكون جميعه هو صحيفته التي ينظر فيها وكتابه الذي يتلوه ، وكل ما يقرأ فيه فهو هداية إلى اللّه وسبيل للوصول إليه . وكل ما صح عندنا عن السيد المسيح لا يخالفه شيء منه . هذا الذي نعتقد . فإن صح عنه شيء يكون في ظاهره مخالفة لهذه الأصول أمكننا تأويله حتى يرجع معناه إليها أو وكلنا الأمر فيه إلى اللّه وقلنا (لا علمَ لنا إلا ما علَّمتنا)[1] .

الدين دين اللّه ، وهو دين واحد في الأولين والآخرين ، لا تختلف إلا صوره ومظاهره ، وأما روحه وحقيقته ، مما طُولب به العالَمون اجمعون على ألسن الأنبياء والمرسلين فهو لا يتغير : إيمان باللّه وحده ، وإخلاص له في العبادة ، ومعاونة الناس بعضهم لبعض في الخير وكف أذاهم بعضهم عن بعض ما قدروا . وهذا لا ينافي الارتقاء في الدين بارتقاء عقول البشر واستعدادهم لكمال الهداية ، ونعتقد أن دين الإسلام جاء ليجمع البشر كلهم على هذه الأصول ، ومن أهم وظائفه إزالة الخلاف

---

(١) البقرة : ٣٢ .

الواقع بين أهل الكتاب ودعوتهم إلى الاتفاق والإخاء والمودة والإئتلاف ، وهذا ما عمل عليه المسلمون قرناً بعد قرن بحسب قوة تمسكهم بالإسلام .

وإذا سأل سائل : إذا كان الذي قدمت فيما سبق هو اعتراف فضلاء الأوروبيين أنفسهم في منافاة طبيعة الدين للعلم ، واشتداده في معاداته ، فما هذا الإنقلاب الذي حصل في أوروبا وما هذا التسامح الذي يتمتع به العلم اليوم في أقطارها ؟

فجوابه في الكلام على الأمر الرابع مما ذكرت «الجامعة» ، وهو يكون بعد عرض طبيعة الدين الإسلامي ، وما يليق أن يكون له مع العلم ، وما انجر إليه الحال بمقتضى تلك الطبيعة ، وما عرض عليها مما سترها وحال بينها وبين أثرها في أخريات الأيام ، وسنوجز القول فيه كما أوجزناه فيما مضى .

* * *

طبيعة الإسلام مع العلم بمقتضى أصوله

تمهيد للأصل الأول :

للإسلام في الحقيقة دعوتان : دعوة إلى الاعتقاد بوجود اللّه وتوحيده ، ودعوة إلى التصديق برسالة **محمد** ﷺ .

فأما الدعوة الأولى فلم يعول فيها إلا على تنبيه العقل البشري وتوجيهه إلى النظر في الكون ، واستعمال القياس الصحيح ، والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب وتعاقد الأسباب والمسببات ليصل بذلك إلى أن للكون صانعاً واجب الوجود عالماً حكيماً قادراً ، وأن ذلك الصانع واحد ، لوحدة النظام في الأكوان . وأطلق للعقل البشري أن يجري في سبيله الذي سنته له الفطرة بدون تقييد ، فنبهه إلى أن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتحريك الرياح ـ على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها في تسخير الفلك لمنافعه ، وإرسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السحاب ماء فتحيا به الأرض بعد موتها ، وتنبت ما شاء اللّه من النبات والشجر ، مما فيه رزق الحي وحفاظ حياته ـ كل ذلك من آيات اللّه عليه أن يتدبر فيها ليصل إلى معرفته .

ثم قد يزيده تنبيهاً بذكر أصل للكون يمكن الوصول إلى شيء منه بالبحث في

عوالمه فيذكر ما كان عليه الأمر في أول خلق السموات والأرض كما جاء في آية ﴿أو لَمْ يَرَ الَّذين كفـروا أنَّ السَّمواتِ والأرْضَ كَانَتَا رَتقاً فتقناهما وجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شيْءٍ حي أفلاَ يُؤْمِنُونَ﴾[1] ونحوها من الآيات . وهو إطلاق لعنان العقل ليجري شوطه الذي قدر له في طريق الوصول إلى ما كانت عليه الأكوان ، وقد يزيد التنبيه تأثيراً في إيقاظ العقل ما يؤيد ذلك من السنة ، كما جاء في خبر من سأل النبي ﷺ أين كان ربنا قبل السموات والأرض فأجابه عليـه السلام : «كان في عماء تحت هـواء» والعماء عنـدهم السحاب . فترى القرآن في مثل هذه المسألة الكبرى لا يقيد العقل بكتاب ولا يقف به عند باب ، ولا يطالبه فيه بحساب ، فليقرأ القارىء القـرآن يغنني عن سرد الآيات الداعية إلى النظر في آيات الكون ﴿أوَ لَمْ يَنْظُروا في مَلَكُوتِ السَّمواتِ وَالأرْضِ وَمَا خلقَ اللَّهُ مِنْ شيءٍ﴾[2] ؟ ﴿وآيَةٌ لَهُمْ الأرْضُ المَيْتَةُ أحْيَيْنَاها وأخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأكُلُون﴾[3] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ وَاخْتِلافُ ألْسِنَتِكُم وألْوَانِكُمْ﴾[4] . وأمثال ذلك . فلو أردت سرد جميعها لأتيت بأكثر من ثلث القرآن ، بل من نصفه في مقالي هذا .

يذكر القرآن إجمالاً من آثار اللَّه في الأكوان تحريكاً للعبرة ، وتذكيراً بالنعمة ، وحفزاً للفكرة ، لا تقريراً لقواعد الطبيعة ، ولا إلزاماً باعتقاد خاص في الخليقة ، وهو في الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذه السبيلن ، انظر كيف يقرع بالدليل ﴿لَوْكَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللَّه لَفَسَدَتَا﴾[5] . ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ من وَلَدَ . وَمَا كَانَ مَعـهُ مِنْ إلَهٍ . إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلَه بَما خَلَقَ . وَلَعَلاَ بعْضُهمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصفُون﴾[6] .

فالإسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان باللَّه ووحدانيته لا يعتمـد على شيء سوى الدليل العقلي . والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غـير معتادة ، ولا يخـرس لسانـك بقارعـة

---

(١) الأنبياء : ٣٠ .
(٢) الأعراف : ١٣٥ .
(٣) يس : ٣٣ .
(٤) الروم : ٢٢ .
(٥) الأنبياء : ٢٢ .
(٦) المؤمنون : ٩١ .

سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية . وقد اتفق المسلمون ـ إلا قليلاً ممن لا يعتد برأيه فيهم ـ على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات ، وانه لا يمكن الإيمان بالرسل إلا بعد الإيمان بالله . فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب انزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبأنه يجوز أن ينزل كتاباً ويرسل رسولاً .

وقالوا كذلك : إن أول واجب يلزم المكلف أن يأتي به هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله ، لينتقل منه إلى تحصيل الإيمان بالرسل وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة(١) .

وأما الدعوة الثانية فهي التي يحتج فيها الإسلام بخارق العادة ، وما أدراك ما هو خارق العادة الذي يعتمد عليه الإسلام في دعوته إلى التصديق برسالة النبي عليه السلام ؟ هذا الخارق للعادة هو الذي تواتر خبره ، ولم ينقطع أثره ، هذا هو الدليل وحده ، وما عداه مما ورد في الأخبار سواء صح سندها أو أشتهر أو ضعف أو وَهى ، فليس مما يوجب القطع عند المسلمين ، فإذا اورد في مقام الاستدلال فهو على سبيل تقوية العقد لمن حَصَّل أصله وفَضلٌ من التأكيد لمن سَلَّمه من أهله .

ذلك الخارق المتواتر المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده . والدليل على إنه معجزة خارقة للعادة ، تدل على أن موحيه هو الله وحده ـ وليس من اختراع البشر ـ هو إنه جاء على لسان أُمِّيٍّ لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم ، وقد نزل على وتيرة واحدة ، هادياً للضال ، مقوماً للمعوج ، كافلاً بنظام عام لحياة من يهتدي به من الأمم ، منقذاً لهم من خسران كانوا فيه ، وهلاك كانوا اشرفوا عليه . وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على ما لم يرتق إليه كلام سواه . حتى لقد دعا الفصحاء والبلغاء أن يعارضوه بشيء من مثله فعجزوا ، ولجأوا إلى المجالدة بالسيوف وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به إلى أن الجأوهم إلى الدفاع عن حقهم ، كان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الإسلام تمد عالمها باضوائها ، وتنشر أنوارها في أجوائها .

---

(١) والمعتزلة خصوصاً ، والقائلون بالعدل والتوحيد عموماً ، هم في مقدمة من رأى هذا الرأي .

وهذا الخارق قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم ، وطولبوا بان يأتوا في نظرهم على آخر ما تنتهي إليه قوتهم ، فإن وجدوا طريقاً لابطال اعجازه أو كونه لا يصلح دليلاً على المُدَّعى فعليهم أن يأتوا به ، وقال تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ في رَيبٍ مِمَّا نَزَّلنا عَلى عَبْدِنا فأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[1] وقال : ﴿أفَلَا يَتدَبَّرُونَ القُرْآنَ ؟ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيرِ اللَّهِ لَوَجدُوا فِيهِ أخْتِلافاً كثِيراً﴾[2] قال غير ذلك مما هو مطالبة بمقاومة الحجة . ولم يطَالبهم بمجرد التسليم على رغم من العقل .

معجزة القرآن جامعة من القول والعلم ، كل منهما مما يتناوله العقل بالفهم ، فهي معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضي فيها ، واطلقت له حق النظر في انحائها ، ونشر ما انطوى في اثنائها وله منها حظه الذي لا ينتقص . فهي معجزة أعجزت كل طوق أن يأتي بمثلها ، ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها . أما معجزة موت حي بلا سبب معروف للموت ، أو حياة ميت ، أو إخراج شيطان من جسم ، أو شفاء علة من بدن ، فهي مما ينقع[3] عنده العقل ويجمد لديه الفهم ، وإنما يأتي بها اللّه على يد رسله لاسكات أقوام غلبهم الوهم ولم يضيء عقولهم نور العلم ، وهكذا يقيم اللّه بقدرته من الآيات للأمم على حسب الاستعدادات .

ثم إن الإسلام لم يتخذ من خوارق العادات دليلاً على أن الحق لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم ترد فيه كلمة واحدة تشير إلى أن الداعين إليه يمكنهم أن يغيروا شيئاً من سنة اللّه في الخليقة ، ولا حاجة إلى بيان ذلك ، فهو أشهر من أن يحتاج إلى تعريف .

---

(١) البقرة : ٢٣ .

(٢) النساء .

(٣) أي يتغير .

الأصل الأول للإسلام

النظر العقلي لتحصيل الإيمان

فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح ، فقد أقامك منه على سبيل الحجة ، وقاضاك إلى العقل ، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته ، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه ؟

بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة : ان الذي يستقصي جهده في الوصول إلى الحق ، ثم لم يصل إليه ومات طالباً غير واقف عند الظن ، فهو ناج . فأي سعة لا ينظر إليها الحرج أكمل من هذه السعة ؟

* * *

الأصل الثاني للإسلام

تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض

أشرع إليك بذكر أصل يتبع هذا الأصل المتقدم قبل أن أنتقل إلى غيره : اتفق أهل الملة الإسلامية ، إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه ، على انه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل ، وبقي في النقل طريقان طريق التسليم بصحة المنقول ، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر إلى الله في علمه ، والطريق الثانية : تأويل النقل ، مع المحافظة على قوانين اللغة ، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل .

وبهذا الأصل ، الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي ﷺ ، مُهِّدت بين يدي العقل كل سبيل ، وأزيلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال إلى غير حد ، فماذا عساه يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب إلى ما هو أبعد من هذا ؟ وأي فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم ان لم يسعهم هذا الفضاء ؟ إن لم يكن في هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ولا سماء بأجرامها وأبعادها .

* * *

أصل ثالث

من أصول الأحكام في الإسلام : البعد عن التكفير

هلَّا ذهبت من هذين الأصلين إلى ما اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم، وهو إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر، فهل رأيت تسامحاً مع أقوال الفلاسفة الحكماء أوسع من هذا ؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولاً لا يحتمل الإيمان من وجه واحد من مائة وجه ؟! إذا بلغ به الحمق هذا المبلغ كان الأجدر به أن يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية ويؤخذ بيديه ورجليه فيلقى في النار!!

* * *

أصل رابع في الإسلام

الاعتبار بسنن اللّه في الخلق

يتبع ذلك الأصل الأول في الاعتبار ـ وهو أن لا يعول بعد الأنبياء في الدعوة إلى الحق على غير الدليل ، وأن لا ينظر إلى العجائب والغرائب وخوارق العادات ـ أصل آخر وضع لتقويم ملكات الأنفس القائمة على طريق الإسلام وإصلاح أعمالها في معاشها ومعادها ذلك هو أصل العبرة بسنة اللّه فيمن مضى ومن حضر من البشر ، وفي آثار سيرهم فيهم .

فمما جاء في الكتاب العزيز مقرراً لهذا الأصل ـ ﴿قَدْ خلتْ مِنْ قبْلِكُمْ سُنَنٌ فسيروا

في الأرض فانظرُوا كيف كَانَ عاقبةُ المكذِّبين﴾[1] - ﴿سُنَّةَ من قـدْ أرسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْويلاً﴾[2] ﴿فَهَلْ يَنظُرونَ إلا سُنَّةَ الأوَّلِينَ ؟ فَلَنْ تَجِدِ لِسُنَّةِ اللَّه تبديلاً ولنْ تَجد لسنةِ اللَّهِ تحويلا﴾[3] ﴿أوَ لمْ يسيروا في الأرض فينظروا كيفَ كانَ عاقبة الذِين من قبلهم ؟﴾[4] إلخ .

في هذا يصرح الكتاب إن للّـه في الأمم والأكوان سنناً لا تتبدل ، والسنن الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلى حسبها تكون الآثار ، وهي التي تسمى شرائع أو نواميس ، ويعبر عنها قوم بالقوانين ، ما لنـا ولاختلاف العبـارات ؟ الذي ينـادي به الكتاب ، أن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل ، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله ويبني عليها سيرته وما يأخذ به نفسه ، فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر إلا الشقاء ، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه ، أو اتصل بالمقربين سببه ، فمهما بحث الناظر وفكر ، وكشف وقرر ، أتى لنا بأحكام تلك السنن ، فهو يجري مع طبيعـة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ، ولا تنفر منه ، فلم لا يعظم تسامحها معه ؟

جاء الإسلام لمحو الوثنية ، عربية كانت أو يونانية أو رومانية أو غيرها ، في أي لباس وجدت ، وفي أي صورة ظهرت ، وتحت أي اسم عرفت ، ولكن كتابه عربي ، والعربية لغة أولئك الوثنيين أعدائه الأقربين، وفهم معناه موقوف على معـرفة أوضـاع اللسان ، ولا تعرف أوضاعه حتى تعرف مواضع استعمال كلمه وأساليبه ، ولن يكون ذلـك إلا بحفظ ما نـطق به العـرب من منظوم ومنثـور ، وفيه من آدابهم وعـاداتهم واعتقاداتهم ما يعيد عند الناظر في كلامهم صورة كاملة من جاهليتهم وما فيها من الوثنية وأطوارها . هكذا صنع المسلمون الأولون ، ركبوا الأسفار وأنفقـوا الأعمار ، وبـذلوا الدرهم والدينار في جمع كلام العرب وحفظه وتدوينه وتفسيره ، توصلاً بذلك إلى فهم كتاب ربهم المنزل فكانوا يعدون ذلك ضرباً من ضروب العبادة ، يرجون من اللّه فيه

---

(١) آل عمران : ١٣٧ .

(٢) الإسراء : ٧٧ .

(٣) فاطر : ٤٣ .

(٤) الروم : ٩ .

حسن المثوبة ، فكان من طبيعة الدين أن لا يحتقر العلم الذي ولد هو فيه ، بل قد يكون من الدين علم ما ليس منه ، متى حسنت النية في تناوله ، وهذا باب من التسامح لا يقدر سعته إلا أهل العلم به ، وأما المسيحيون الأولون فقد هجروا لسان المسيح عليه السلام سريانياً كان أو عبرانياً ، وكتبوا الأناجيل باللغة اليونانية ، ولم يكتب في العبرية إلا إنجيل «متّى» ، فيما يقال . ألا ترى أن اسم الانجيل نفسه يوناني ؟ كل ذلك كراهة لليهود الذين كان ينطق المسيح بلسانهم ، ويعظهم بلغتهم ، وتحرجاً من النظر في دواوين آدابهم ، وما توارثوا من عاداتهم .

* * *

الأصل الخامس للإسلام

قلب السلطة الدينية

أصل من أصول الإسلام أنتقلُ إليه ـ وما أجله من أصل ـ قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها .

هدم الإسلام بناء تلك السلطة ، ومحا أثرها ، حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم . لم يدع الإسلام لأحد بعد اللّٰه ورسوله سلطاناً على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه ، على أن الرسول عليه السلام كان مبلغاً ومذكراً ، لا مهيمناً ولا مسيطراً ، قال اللّٰه تعالى : ﴿فذكِّرْ إنَّما أنتَ مُذكرٌ ، لستَ عليهم بمُصيطر﴾(١) ولم يجعل لأحد من أهله أن يحل ولا أن يربط لا في الأرض ولا في السماء . بل الإيمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين اللّٰه سوى اللّٰه وحده ، يرفع عنه كل رق إلا العبودية للّٰه وحده ، وليس لمسلم مهما علا كعبه في الإسلام ، على آخر ، مهما انحطت منزلته فيه ، إلا حق النصيحة والإرشاد . قال تعالى في وصف المفلحين : ﴿وتواصَوْا بالحق وتواصَوْا بِالصَّبْر﴾(٢) وقال ﴿وَلْتكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْر ويَأْمُرُون بالمَعْرُوفِ

---

(١) الغاشية : ٢٢ .

(٢) العصر : ٣ .

وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ (1) وقال ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾(2) فالمسلمون يتناصحون ، ثم هم يقيمون أمة تدعو إلى الخير ـ وهم المراقبون عليها ـ يردونها إلى السبيل السوي إذا انحرفت عنه ، وتلك الأمة ليس لها عليهم إلا الدعوة والتذكير والانذار ، ولا يجوز لها ولا لأحد من الناس أن يتتبع عورة أحد ، ولا يسوغ لقوي ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد ، وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به عن أحد إلا عن كتاب الله وسنة **رسوله** ﷺ .

لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله ، وعن رسوله من كلام رسوله ، بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف ، وإنما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم ، كقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبها ، وأحوال العرب خاصة في زمان البعثة ، وما كان الناس عليه زمن النبي ﷺ ، وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحي ، وشيء من الناسخ والمنسوخ من الآثار . فإن لم تسمح له حاله بالوصول إلى ما يعده لفهم الصواب من السنة والكتاب فليس عليه إلا أن يسأل العارفين بهما ، وله بل عليه أن يطالب المجيب بالدليل على ما يجيب به سواء كان السؤال في أمر الاعتقاد أو في حكم عمل من الأعمال . فليس في الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه .

* * *

---

(1) آل عمران : ١٠٤ .

(2) التوبة : ١٢٢ .

السلطان في الإسلام

لكن الإسلام دين وشرع فقد وضع حدوداً ، ورسم حقوقاً ، وليس كل معتقد في ظاهر أمره بحكم يجري عليه في عمله، فقد يغلب الهوى، وتتحكم الشهوة، فيغمط الحق، ويتعدى المعتدي الحد، فلا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لاقامة الحدود، وتنفيذ حكم القاضي بالحق، وصون نظام الجماعة. وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى في عدد كثير، فلا بد أن تكون في واحد، وهو السلطان أو الخلفية.

الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم . ولا هو مهبط الوحي ، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة . نعم شَرْطٌ فيه أن يكون مجتهداً ، أي أن يكون من العلم باللغة العربية وما معها ـ مما تقدم ذكره ـ بحيث يتيسر له ان يفهم من الكتاب والسنة ما يحتاج إليه من الأحكام ، حتى يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد ، ويسهل عليه إقامة العدل الذي يطالبه به الدين والأمة معاً .

هو ـ على هذا ـ لا يخصه الدين في فهم الكتاب والعلم بالأحكام بمزية ولا يرفع به إلى منزلة ، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء ، إنما يتفاضلون بصفاء العقل ، وكثرة الإصابة في الحكم ، ثم هو مطاع ما دام على المحجة ونهج الكتاب والسنة ، والمسلمون له بالمرصاد ، فإذا انحرف عن المنهج أقاموه عليه ، وإذا أعوج قوموه بالنصيحة والاعذار إليه ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، فإذا فارق الكتاب والسنة في عمله وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره ، ما لم يكن في استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه . فالأمة ـ

أو نائب الأمة ـ هو الذي ينصبه ، والأمة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه ، وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها فهو حاكم مدني من جميع الوجوه .

ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الأفرنج (تيوكراتيك) أي سلطان إلهي ، فإن ذلك عندهم هو الذي ينفرد بتلقي الشريعة عن اللّٰه ، وله حق الأثرة بالتشريع ، وله في رقاب الناس حق الطاعة ، لا بالبيعة وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة ، بل بمقتضى الإيمان ، فليس للمؤمن ما دام مؤمناً أن يخالفه ، وإن اعتقد أنه عدو لدين اللّٰه وشهدت عيناه من أعماله ما لا ينطبق على ما يعرفه من شرائعه ، لأن عمل صاحب السلطان الديني وقوله في أي مظهر ظهرا : هما دين وشرع . هكذا كانت سلطة الكنيسة في القرون الوسطى ، ولا تزال الكنيسة تدعي الحق في هذه السلطة كما سبقت الإشارة إليه .

كان من أعمال التمدن الحديث الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية ، فترك للكنيسة حق السيطرة على الاعتقاد والأعمال فيما هو من معاملة العبد لربه : تشرع وتنسخ ما تشاء ، وتراقب وتحاسب كما تشاء ، وتحرم وتعطي كما تريد . وخول السلطة المدنية حق التشريع في معاملات الناس بعضهم لبعض وحق السيطرة على ما يحفظ نظام اجتماعهم ، في معاشهم لا في معادهم ، وعدوا هذا الفصل منبعاً للخير الأعم عندهم .

ثم هم يبهمون[1] فيما يرمون به الإسلام من انه يحتم قرن السلطتين في شخص واحد ، ويظنون ان معنى ذلك في رأي المسلم : ان السلطان هو مقرر الدين ، وهو واضع احكامه ، وهو منفذها ، والإيمان آلة في يده يتصرف بها في القلوب بالاخضاع ، وفي العقول بالاقناع ، وما العقل والوجدان عنده الا متاع ، ويبنون على ذلك أن المسلم مستعبد لسلطانه بدينه ، وقد عهدوا أن سلطان الدين عندهم كان يحارب العلم ويحمي حقيقة الجهل ، فلا يتيسر للدين الإسلامي أن يأخذ بالتسامح مع العلم ما دام من أصوله ان إقامة السلطان واجب بمقتضى الدين . وقد تبين لك أن هذا كله خطأ محض وبعد عن فهم معنى ذلك الأصل من أصول الإسلام . علمت أن ليس في الإسلام سلطة دينية ، سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير ، والتنفير عن الشر وهي

---

(١) أي يضلون .

سلطة خولها اللّه لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خلها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم ، ومن هنا تعلم «الجامعة» ان مسألة السلطان في دين الإسلام ليست مما يضيق به صدره ، وتحرج به نفسه عن احتمال العلم . وقد تقدم ما يشير إلى ما صنع الخلفاء العباسيون والأمويون والأندلسيون من صنائع المعروف مع العلم والعلماء وربما أتينا على شيء آخر منه فيما بعد .

يقولون : إن لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني أفلا يكون للقاضي أو للمفتي أو شيخ الإسلام .

وأقول : إن الإسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قررها الشرع الإسلامي ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعي حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه ، أو ينازعه في طريق نظره .

* * *

الأصل السادس للإسلام

حماية الدعوة لمنع الفتنة

قالوا : إن الدين الإسلامي دين جهادي ، شرع فيه القتال ، ولم يكن شرع في الدين المسيحي ، ففي طبيعة الدين روح الشدة على من يخالفه ، وليس ذلك الصبر والاحتمال اللذان تقضي بهما شريعة المسالمة ، وهي التي وردت في كثير من الوصايا المسيحية «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الآخر . من سخرك ميلاً فسر معه ميلين» (مَتّى : ٣٩ و٤٠) ونحو ذلك حتى لقد طلبت فيها محبة العدو ، وهي مما لا يدخل تحت الاختيار ، بل ولا محبة الصديق ، وإنما الاختياري العدل بين الأعداء والأولياء . لكن في ملكوت اللّه كل شيء مستطاع ولا شيء فيه بمستحيل .

قلنا : لكن انظروا : هل دفع الشر بالشر عند القدرة عليه ، وعند عدم التمكن من سواه ، خاص بالدين الإسلامي ؟ أو هو في طبيعة كل قادر يعذر إلى خصمه ؟ ليس القتل في طبيعة الإسلام بل في طبيعته العفو والمسامحة ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَاعْرِضْ

عَنِ الجَاهِلِينَ﴾[1] ولكن القتال فيه لرد اعتداء المعتدين على الحق وأهله إلى أن يأمن شرهم ، ويضمن السلامة من غوائلهم ، ولم يكن ذلك للإكراه على الدين ولا للانتقام من مخالفيه ، ولهذا لا تسمع في تاريخ الفتوح الإسلامية ما تسمعه في الحروب المسيحية ، عندما اقتدر أصحاب «شريعة المسالمة» على محاربة غيرهم من قتل الشيوخ والنساء والأطفال .

لم تقع حرب إسلامية بقصد الإبادة كما وقع كثير من الحروب بهذا القصد بأيدي المسيحيين . وإنما كان الصبر والمسالمة ديناً عندما كانت القدرة والقوة تعوزان الدين . وغاية ما يقال : إن العناية الإلهية منحت الإسلام في الزمن القصير من القوة على مدافعة أعدائه ما لم تمنحه لغيره في الزمن الطويل ، فتيسر له في شبيبته ما لم يتيسر لغيره إلا في كهولته أو شيخوخته .

* * *

مقابلة بين الإسلام الحربي

والمسيحية السلمية

الإسلام الحربي كان يكتفي من الفتح بإدخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه ، ثم يترك الناس وما كانوا عليه من الدين يؤدون ما يجب عليهم في اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد ، وإنما يكلفهم بجزية يدفعونها لتكون عوناً على صيانتهم والمحافظة على أمنهم في ديارهم ، وهم في عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار ، لا يضايقون في عمل ، ولا يضامون في معاملة . خلفاء المسلمين كانوا يوصون قوادهم باحترام العُبَّاد الذين انقطعوا عن العامة في الصوامع والأديار لمجرد العبادة ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال وكل من لم يُعِن على القتال . وجاءت السنة المتواترة بالنهي عن إيذاء أهل الذمة ، وبتقرير ما هم من الحقوق على المسلمين «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» «ومن آذى ذمياً فليس منا» واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الإسلام . ولست أبالي إذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الأحكام عندما بدأ الضعف في الإسلام ـ

---

(١) الأعراف : ١٩٩ .

وضيق الصدر من طبع الضعيف ـ فذلك مما لا يلصق بطبيعته ويخلط بطينته .

المسيحية السلمية كانت ترى لها حق القيام على دين يدخل تحت سلطانها ، تراقب أعمال أهله ، وتخصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم ، حتى إذا تمت لها القدرة على طردهم ، بعد العجز عن إخراجهم من دينهم وتعميدهم ، اجلتهم عن ديارهم وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل في كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقياً .

لا يمنع غير المسيحي من تعدي المسيحي إلا كثرة العدد ، أو شدة العضد كما شاهد التاريخ وكما يشهد التاريخ وكما يشهد كاتبوه . ذلك كله لأنه ما جاء ليلقي سلاماً بل سيفاً ، ولأنه جاء ليفرق بين البنت وأمها والابن وأبيه . والإسلام يقول كتابه في شأن الوَالدين المشركين : ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشرِكَ بي مَا لَيس لَكَ بِه علمٌ فَلا تُطعهُمَا وصاحِبهُما في الدُّنيا مَعرُوفاً واتَّبعْ سبِيلَ من أنابَ إليّ﴾(١) فهو في اشتداده على المُهدِّدين لأمنه لا يقضي بالفرقة بين أب وابن ولا بين أم وبنت ، بل يأمر الأولاد المؤمنين أن يصحبوا الوالِدين المشركين بالمعروف في الدنيا مع محافظتهم على دينهم .

وأنت ترى الإسلام من جهة يكتفي من الأمم والطوائف التي يغلب على أرضها بشيء من المال أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلُّبه عليهم ، وبأن يعيشوا في هدوء لا يعكرون معه صفو الدولة ، ولا يخلون بنظام السلطة العامة ، ثم يرخي لهم بعد ذلك عنان الاختيار في شؤونهم الخاصة بهم ، لا رقيب عليهم فيها إلا ضمائرهم . ومن جهة أخرى ينهى أفراد المؤمنين عن مقاطعة ذوي قرباهم من المشركين ويطالبهم بحسن معاملتهم . ففي طبيعته أن يكل أمر الناس في سرائرهم إلى ربهم ، وفي طبيعته أن يجير من لا يعتقد عقيدته ، ويحمي من لا يتبع سنته ، وان كان في عمى من الجهالة ، وخبل من الضلالة ، افترى انه يصعب عليه بعد ذلك أن يحتمل العلم والعلماء ، ويضيق به حلمه عن صنع الجميل بالفضل والفضلاء ، ممن ينفق عمره في تقرير حقيقة ، أو كشف غامض أو تبيين طريقة ؟ كلا ثم كلا ، فمن بحث ونقب وسبر ونقر ، أو شق الأرض أو ارتقى إلى السماء ، فهو في أمن من أن يعرض الإسلام له في شيء من عمله ، إلا أن

---

(١) لقمان : ١٥ .

يحدث شغباً ، أو يفسد أدباً ، فعند ذلك تمتد يد الملك لرد كيد الكائد ، وإصلاح الفاسد بسماح من الدين .

الأصل السابع للإسلام

مودة المخالفين في العقيدة

المصاهرة :

أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية ، نصرانية كانت أو يهودية ، وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها ، والقيام بفروض عبادتها ، والذهاب إلى كنيستها أو بيعتها ، وهي منه بمنزلة البعض من الكل ، وألزم له من الظل ، وصاحبته في العز والذل ، والترحال والحل ، بهجة قلبه ، وريحانة نفسه ، وأميرة بيته ، وأم بناته وبنيه ، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه .

لم يفرق الدين في حقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية . ولم تخرج الزوجة الكتابية ، باختلافها في العقيدة مع زوجها ، من حكم قوله تعالى ﴿**وَمِنْ آياتهِ أنْ خَلقَ لَكُمْ مِنْ أنْفُسِكمْ أزْواجاً لِتسْكُنوا إلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنكُمْ مَوَدَّةً وَرَحمةً إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقوْمٍ يَتفَكرُّون**﴾[1] فلها حظها من المودة ونصيبها من الرحمة وهي كما هي . وهو يسكن إليها كما تسكن إليه ، وهو لباس لها كما انها لباس له . أين أنت من صلة المصاهرة التي تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة ، وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة ، على ما عهد في طبيعة البشر ؟ وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم وذوي القربى لوالدتهم . ايغيب عنك ما يستحكم من ربط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذي لم يعهد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه ؟ ولا يخفى عل صحيح النظر أن تقرير التسامح على هذا الوجه في نشأة الدين مما يُعَود القلوب على الشعور بأن الدين معاملة بين العبد وربه والعقيدة طور من أطوار القلوب يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب فهو الذي يحاسب عليها . وأما المخلوق فلا تطول يده إليها ، وغاية ما يكون من العارف بالحق أن ينبه

---

(١) الروم : ٢١ .

الغافل ، ويعلم الجاهل وينصح ويرشد الضال . لا يكفر في ذلك نعمـة العشير ولا يسلك به مسالك التعسير ، ولا يقطع أمل النصير ، ولا يخالف سنة الوفاء ، ولا يحيد عن شرائع الصدق في الولاء .

ماذا ترى الزوجة الكتابية لو كانت من أهل النظر العقلي وذهبت مذهباً يخالف مذهب زوجها ؟ أفينقص ذلك من مودته لها ؟ أو يضعف من شعور الرحمة التي افاضها اللّه بينه وبينها ؟ فإذا كان المسلم يتعود الاحتمال بل يتعود المحبة والنصرة لمن يخالفه في عقيدته ودينه وملته ، ويألف مخالطته وعشرته وولايته ونصرته ، أتراه لا يحتمل أن يرى بجواره من يعمل نظره في نظام الخليقة ليصل منه إلى اكتشاف سر أو تقرير أصل في علم ، أو قاعدة لصناعة ؟ إن كان قد يخالف ظاهراً مما يعتقد أو يميل إلى رأي غير الذي يجد ؟ أفلا يسع هذا ما يسع المجاهر بالخلاف ، وهو معه على ما رأيت من الائتلاف .

لو ذهبت أعُد ما في طبيعة الإسلام من عناصر وأركان كلها تؤلف مزاج الكرم وتكون حقيقة المسامحة مع العلم لأطلت على القارىء اكثر مما اطلت . ولهذا أرى من الواجب عليّ أن اختم القول بذكر أصل أشرت إليه ولا غنى لما نحن فيه عن ذكره .

* * *

الأصل الثامن للإسلام

الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة

الحياة في الإسلام مقدمة على الدين . أوامر الحنيفية السمحة إن كانت تختطف العبد إلى ربه ، وتملأ قلبه من رَهَبه ، وتفعم أمله من رَغَبهِ ، فهي مع ذلك لا تأخذه عن كسبه ، ولا تحرمه من التمتع به ، ولا توجب عليه تقشف الزهادة ولا تجشمه في ترك الملذات ما فوق العادة .

صاحب هذا الدين ﷺ لم يقل «بع ما تملك واتبعني» ولكن قال لمن استشاره فيما ويتصدق به مِنْ ماله « الثلث ، والثلث كثير ، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » .

* * *

فرض الصوم على المؤمنون ، لكن إذا خشي منه المرض أو زيادته أو زادت المشقة فيه جاز تركه ، بل قد يجب إذا غلب على الظن الضرر فيه .

الوضوء والغسل من شروط الصحة للصلاة إلا إذا خشي منه الضرر أو عرضت مشقة في تحصيل الماء .

القيام مما لا تصح الصلاة إلا به ، إلا إذا أصابت المصلي مشقة فيه فيسقط ويصلي قاعداً .

السعي إلى الجمعة واجب ، إلا إذا كان وحل غزير أو مطر كثير أو ما يوجب تعباً ومشقة فيسقط . وهكذا تجد القاعدة قد عمت «صِحَّةُ الأبدان مقدمة على صحة الأديان» فترى الدين قد راعى في احكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح .

* * *

أباح الإسلام لأهله التجمل بأنواع الزينة ، والتوسع في التمتع بالمشتهيات ، على شريطة القصد والاعتدال ، وحسن النية ، والوقوف عند الحدود الشرعية ، والمحافظة على صفات الرجولية . جاء في الكتاب العزيز ﴿يَا بني آدمَ خُذُوا زِينَتكُمْ عِندَ كلِّ مَسجِدٍ وَكُلُوا واشرَبوا ولاَ تُسرِفُوا إنَّهُ لا يُحِبُّ المُسرِفينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتي أخرَجَ لِعِبادِهِ والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزقِ ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمنُوا في الحَياةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ القِيامَةِ ، كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلمُونْ * قُلْ إنما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ ما ظَهَر مِنها ومَا بَطَن والاثْمَ والبَغيَ الحَقِّ وأنْ تَقُولوا عَلى اللَّه مَا لا تَعلمون ﴾[١] .

ثم عد اللَّه النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا ، التي يذكرنا بها فضله ، ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره ، كما قال ﴿وَالأنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمنافِعُ وَمِنْها تأكلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وحِينَ تَسرَحُونَ وَتَحملُ أثقالَكُمْ إلى بَلدٍ لَمْ تَكُونُوا بالغيه إلا بشقِّ الأنفسُ إنَّ ربَّكُمْ لرَؤوف رَحيمٌ * والخَيل وَالبغَالَ وَالحَمير لِتركَبُوهَا وزَينةً وَيَخلُقُ مَا لا تَعلَمُون﴾[٢] ثم قال ﴿وَهُو الذِي سَخَّر البحرَ لِتأكلُوا مِنهُ

(١) الأعراف : ٣١ ـ ٣٣ .

(٢) النحل : ٥ ـ ٩ .

لحماً طريّاً وَتَسْتخرجُوا مِنْهُ حِليةً تَلبَسُونَهَا وترى الفُلْكَ مواخِرَ فيه وَلتَبْتَغُوا مِنْ فضلِهِ وَلَعَلَّكمْ تَشكُرون﴾[١]

ووضع قانوناً للانفاق وحفظ المال في قوله ﴿إنَّ المُبَذِّرين كانُوا إخوانَ الشّيَاطِين وَكان الشَّيطانُ لِرَبِّه كَفُوراً . وَلاَ تَجعَلْ يَدَكَ مَغلُولةً إلى عُنقكَ ولا تَبسُطها كلَّ البَسطِ فتقْعد مَلُوماً مَحْسوراً﴾[٢] .

* * *

النهي عن الغلو في الدين

وخشى على المؤمن أن يغلوا في طلب الآخرة فيهلك دنياه وينسى نفسه منها ، فذكرنا ـ بما قصه علينا ـ أن الآخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم اللّه علينا في الدنيا ، إذ قال ﴿وَابتَغِ فيما آتاك الله الدَّار الآخرة وَلا تنْسَ نصيبَك مِنَ الدُّنيَا وأحْسِن كَمَا أحْسَنَ اللَّه إليكَ ولا تبغِ الفسَادَ في الأرض إنَّ اللَّه لا يُحبُّ المُفسِدينَ﴾[٣] .

فنرى ان الإسلام لم يبخس الحواس حقها ، كما انه هيأ الروح لبلوغ كمالها . فهو الذي جمع للإنسان أجزاء حقيقته ، واعتبره حيواناً ناطقاً ، لا جسمانياً صرفاً ، ولا ملكوتياً بحتاً ، جعله من أهل الدنيا كما هو من أهل الآخرة ، واستبقاه من أهل هذا العالم الجسداني كما دعاه إلى أن يطلب مقامه الروحاني . أليس يكون بذلك وبما بينه في قوله ﴿هُوَ الذي خَلَق لَكمْ مَا في الأرضِ جميعاً﴾[٤] قد اطلق القيد عن قواه ، ليصل من رفه الحياة إلى منتهاه ؟ والنفوس ، مطبوعة على التنافس ، قد غرز فيها حب التسابق فيما تعتقده خيراً أو تجده لذيذاً أو تظنه نافعاً .

وليس في الغريزة الإنسانية أن يقف بها الطلب عند حد محدود ، أو ينتهي بها السعي إلى غاية لا مطالع للرغبة وراءها ، بل خصَّها اللّه بالمكنة من الرقي في أطوار

---

(١) النحل : ١ .
(٢) الإسراء : ٢٧ ـ ٢٨ .
(٣) القصص : ٧٧ .
(٤) البقرة : ٢٩ .

الكمال من جميع وجوهه إلى ما شاء اللّه أن ترقى بدون حد معروف .

* * *

نتيجة جمع الإسلام بين مصالح الدين والدنيا

فإذا جمع سائق الأنفس ومزجيها ، ومرشدها وهاديها ، بين شاحذين : شاحذ التمتع بمتاع الحياة الدنيا ، وشاحذ الرغبة في النعيم الدائم في الآخرة ، فقد جمع لها كل ما يسمو بها عن الرضى في الدنيا بالدون وفي الآخرة بعذاب الهون ، فترى كل نفس تمضي مع استعدادها بشهامة فؤادها مضاء الزميع(١) لا تخشى العثرة بالوعيد ، ولا تقعد عن مطلبها قعدة الرعديد ، فتطلب منافعها من هذا الكون الذي وجدت فيه ووجد لها ، فتسير في مناكب الأرض ولا تكتفي عن الكُـلِّ بالبعض ، وتبحث في تربتها ، ولا تجد ما يصدها عن النظر في الهواء ، والبحث في الماء ، والاهتداء بنجوم السماء ، بعد معرفة مواقعها ، وحركاتها في مداراتها واستقامتها وانحرافها ، وظهورها وخنوسها(٢) ، وبالجملة فكل مستعد لوجه من وجوه النظر أو الولوج في باب من أبواب العلم ، ينطلق إلى حيث يبلغ به استعداده إما للنجاة من ضرورة ، وإما لاستتمام منفعة أو استكمال لذة ، لا يجد من نواهي الدين ما يصده عن مطلب ولا ما يكف يده عن تناول رغيبه ، اين هذا من ذلك الذي لا يرى الخلاص إلا في مجافاة هذا العلم ولذائذه ، ويجد ان الغنى والثروة من الحجب التي لا تخرق ، تحول بينه وبين ملكوت السموات ؟

كيف يتسنى للمسلم أن يشكر اللّه حق شكره ، إذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره ، لينفذ من مظاهره إلى سره ، ويقف على قوانينه وشرائعه ، ويستخدم كل ما يصح لخدمته في توفير منافعه ؟ يشكر اللّه إذا توانى في ذلك وقد أرشده اللّه في كتابه وبسنة نبيه إلى ان عالمه إنما خلق لأجْلِهِ ، وقد وضعه اللّه تحت تصرف عقله . انظر إلى لطف الاشارة في الآية المتقدمة ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ**﴾ إلخ حيث قال : ﴿**كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَعْلَمُونَ**﴾ فأهل العلم هم الذين يعرفون مقدار نعم اللّه تعالى فيما يرفه به معيشتهم ، ويجمل به هيئتهم ، ويحلي به زينتهم .

---

(١) الشجاع ، الماضي العزيمة .

(٢) غيابها .

المسلمون مسوقون بنابل من دينهم إلى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد ، ولا يرضيهم من ذلك ما دون الغاية ، ولا يتوفر شيء من وسائل ذلك إلا بالعلم ، فهم محفوزون أشد الحفز إلى طلب العلم وتلمسه في كل مكان ، وتلقيه من أية شفة وأي لسان ، فإذا لاقاهم العالِمُ في أي سبيل ، أو عثروا به في أي جيل ، أو ظهر لهم من أي قبيل ، هشوا له وبشوا ، ونصبوا إليه وكمشوا[1] وشدوا به أواصرهم ، وعقدوا عليه خناصرهم ، ولا يبالون ما تكون عقيدته إذا نفعتهم حكمته ، «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو احق بها» ألم يأتهم عن ربهم : ﴿**يُؤتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُتِيَ خَيراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُلُوا الألبَابِ**﴾[2] . ألم يسمعوا في وصفهم قوله : ﴿**الَّذين يَستَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أحْسَنَهُ**﴾[3] .

ذلك شأن المسلم مع العلم ، إذا كان مسلماً حقاً ، وذلك ما تنجر إليه طبيعة دينه ، حديث «اطلبوا العلم ولو بالصين» إن كان في سند لفظه إلى النبي ﷺ مقال فسند معناه متواتر ، فإنه سند القرآن نفسه ، فإن اللَّه يفضل العلم بدون قيد ولا تخصيص ، فالمسلم مطالب بطلب العلم ولو في الصين ، ولم يكن في الصين مسلم على عهد النبي ﷺ .

لا شيء ينقلب عند النفس الإنسانية لذة بنفسه ، وإن كان في أول أمره مطلوباً بالغير ، مثل العلم ، تطلب العلم أولاً لحاجتك إليه في تقويم معيشة ، أو ترفيه حال ، أو دفاع عن نفس وملة ، ثم لا تلبث إذا أوغلت فيه أن تجد اللذة في العلم نفسه ، فتصير اللذة بتحصيله والوصول إلى دقائقه غاية تقصد بنفسها ، وتضمحل فيها كل غاية سواها ، وعلة ذلك ظاهرة ، فإن العلم مسرح نظر العقل ، والعقل قوة من أفضل القوى الإنسانية بل هي أفضلها على الحقيقة ، وقد وضع لها العليم الحكيم لذة ، كما منح لكل قوة سواها نعيماً ولذة ، ولست في حاجة إلى تعديد لذة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس ، فالحيوان يعرفها بَلْهَ الإنسان ، وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع عظمت لذته باستعمالها فيما وجهت له ، فيمكنك أن تستنتج من ذلك أن لا شيء

---

(١) أسرعوا .

(٢) البقرة : ٢٦٩ .

(٣) الزمر : ١٨ .

عند الإنسان ألذ من كشف المجهول ، وإحراز المعقول . وقد سمح الإسلام للمسلم أن يتمتع في هذه الحياة الدنيا بما يلذ له مع القصد والاعتدال . أفلا يكون من لذائذه ومتممات نعيمه أن يسبح في مملكة العلم ليمتع عقله ، ويسيح في بسيط الأرض ليكسب رزقه ويقيت أهله ؟ على أن العلم كان من ضروريات معيشة المسلم أو حاجاتها ، كما ذكرنا ، فإذا طفق يستنبط ماءه للضرورة ، ويستجلي سناءه للحاجة ، فلا يلبث أن يصير هو حاجة نفسه ، وشاغله عن حاجات حسه ، حتى يدخل معه في رمسه ، كما وقع لكثير من المسلمين . قال إمام جليل[١] من أئمتهم «طلبنا العلم لغير اللّه فأبى أن يكون إلا اللّه» .

* * *

نتائج هذه الأصول

وآثارها في المسلمين

إلى م أفضت طبيعة الإسلام بالمسلمين ؟ وماذا كان أثرها في أسلافهم الأولين ؟ فتح ، **عمرو بن العاص** ، رضي اللّه عنه ، **مصر** واستولى بجيشه على الاسكندرية بعد لحاق النبي ، ﷺ ، بالرفيق الأعلى بست سنوات في رواية وتسع سنوات في رواية أخرى ، والإسلام في طلوع فجره وتفتح نوره ، فكان من بقايا ما تركت الأزمان الأولى رجل مسيحي من **اليعقوبيين** اسمه «**يوحنا النحوي**» ، كان في بدء أمره ملاحاً يعبر الناس بسفينته ، وكان يميل إلى العلم بطبيعته ، فإذا ركب معه بعض أهل العلم أصغى إلى مذاكراتهم ، ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن ٤٠ سنة ، فبلغ فيه ما لم يبلغه الناشئون فيه من طفولتهم ، وقد احسن من العلم فنوناً كثيرة حتى عد من فلاسفة وقته واطبائه ومناطقته .

يقول كثير من مؤرخي الغربيين ومؤرخي المسلمين : ان عمرو بن العاص سمع به فاستدناه منه ، واكرمه لعلمه ، ووقعت بينهما محبة ظهر أمرها واشتهر ، حتى قال احد الفلاسفة الغربيين «ان المحبة التي نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا

---

(١) هو الإمام أبو حامد الغزالي .

النحوي ترينا ما يسمو إليه العقل العربي من الأفكار الحرة والرأي العالي ، بمجرد ما اعتق من الوثنية الجاهلية ودخل في التوحيد المحمدي اصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع» .

خالط المسلمون أهل **فارس** و**سورية** و**سواد العراق** ، وأدخلوهم في اعمالهم ، ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم ، حتى كانت دفاترهم بالرومية في سورية ، ولم تغير بالعربية إلا بعد عشرات من السنين ، فاحتكت الأفكار بالأفكار ، وافضت سماحة الدين إلى أن أخذ المسلمون في دراسة العلوم والفنون والصنائع .

* * *

اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية ثم العقلية

بعد ٢٠ سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام أخذ الخليفة **علي بن أبي طالب** ، كرم اللّه وجهه ، يحض على تعليم الآداب العربية ، ويطلب وضع القواعد لها ، لما رأى من حاجة الناس إلى ذلك ، وأخذ المسلمون يتحسسون نور العلم في ظلام تلك الفتن استرسالاً مع ما يدعوهم إليه دينهم ، وتنبههم لطلبه شريعتهم ، وإن كانت الحروب الداخلية التي اشتعلت نارها في أطراف بلادهم للنزاع على أمر الخلافة قد شغلتهم عن كل شيء من مصالحهم ، فإنها لم تشغلهم عن تلمس العلوم والتناول منها بالتدريج على سنة الفطرة . فالبراعة في الآداب : من علم بوقائع العرب وتاريخهم ، وقول الشعر وإنشاء البليغ من النثر ، قد بلغت في خلافة بني أمية مبلغاً لم تبلغه أمة قط في مثل مدتها . كان الخلفاء الأمويون يعلمون منزلتها ، ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء بالسِّيَر ، ثم ظهرت آثار العلوم العقلية في آخر دولتهم ، وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الأول .

نقل الخفاء الأمويون دار الخلافة من **المدينة** إلى الشام ، ولم يسيروا في الزهد سيرة الخلفاء الراشدين ، فقد جاء رسول من الفرس إلى **عمر بن الخطاب** ، رضي اللّه عنه؛ ، فلما سأل عنه دُلَّ عليه ، فذهب إليه ، فإذا هو نائم على الأرض تحت نخل البقيع بين الفقراء ، وجاءت رسل الملوك إلى **معاوية** ، رحمه اللّه ، فإذا هو في قصر مشيد ، محلى البنيان بأجمل ما يكون من الصنعة العربية ، مزين بالجنات والرياض

وينابيع الماء ، مفروش بأحسن الفرش ، يرى الناظر فيه افخر الأثاث والرياش ، ولم يكن معاوية في ذلك قد خالف الدين أو حاد عن طريقه ، وإنما تناول مباحاً ، وتمتع برخصة آتاه اللّه آياها . ولا يخفى ما في ذلك من ترويج فنون الابداع في الصنعة على اختلاف ضروبها .

* * *

اشتغالهم بالعلومي الكونية
في أوائل القرن الثاني

انقضت دولة بني أمية والناس في ظلمات من الفتن ، كما قلنا ، ودالت الدولة لبني العباس ، واستقرت في نصابها من آل بيت **النبي** قرب نهاية الثلث الأول من القرن الثاني للهجرة (١٣٢) ثم نقل **المنصور** عاصمة الملك إلى **بغداد** ، فصارت بعد ذلك عاصمة العلم والمدنية أيضاً ، وأخذ المنصور أيضاً ينشيء المدارس للطب والشريعة ، وكان قد جعل من زمنه ما ينفقه في تعلم العلوم الفلكية ، واكمل حفيده **الرشيد** ما شرع فيه ، وأمر بأن يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها ، وجاء **المأمون** فوصلت به دولة العلم إلى أوج قوتها ، ونالت به اكبر ثروتها ، ويقال إنه حمل إلى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم ما يثقل مئة بعير ، وكان من شروط صلحه مع «**ميشيل الثالث**» أن يعطيه مكتبة من مكاتب الآستانة فوجد مما فيها من النفائس كتاب «**بطليموس**» في الرياضة السماوية ، فأمر المأمون في الحال بترجمته وسموه بالمجسطي ، ولا يسهل على كاتب احصاء ما ترجم من كتب العلوم على اختلافها في دولة بني العباس ابناء عم الرسول ﷺ .

* * *

أنشاؤهم دور الكتب العامة والخاصة

وقد أخذت دولة الإسلام تعتني بدور الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول سواها ، حتى كان في **القاهرة** في أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوي على مائة الف مجلد ، منها ستة آلاف في الطب والفلك لا غير . وكان من نظامها أن تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين في القاهرة ، وكان فيها كرتان سماويتان (إحداهما) من الفضة يقال إن صانعها

بطليموس نفسه ، وأنه أنفق فيها ثلاثة آلاف دينار (والشانية) من البرونز . ومكتبة الخلفاء في اسبانيا بلغ ما فيها ستمائة ألف مجلد ، وكان فهرسها أربعة وأربعين مجلداً . وقد حققوا أنه كان في أسبانيا وحدها سبعون مكتبة عمومية ، وكان في هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة .

وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب ، ويجعلون ديارهم معاهد دراسة لما تحتوي عليه . يقال : إن سلطان **بخاري** دعا طبيباً اندنوسياً ليزوره فأجابه أن ذلك لا يمكنه لأن كتبه تحتاج إلى أربعمائة جمل لتحملها وهو لا يستغني عنها كلها . وكان **حنين بن إسحاق** النسطوري في **بغداد** ممن جعل في داره مكتبة عامة يفد إليها طلاب العلوم العقلية والرياضية ، وكان يتبرع بمذاكرتهم فيما يرويدون المذاكرة فيه .

انشاؤهم المدارس للعلوم
وطريقة التدريس فيها

غُطي بسيط المملكة الإسلامية على سعتها بالمدارس . نقول «على سعتها» لأنها زادت في السعة على المملكة الرومانية بكثير ، فكنت تجد المدارس في كل الأقطار : في المغول ، في التتار من جهة المشرق ، في **مراكش** ، في **فاس** ، في **إسبانيا** من جهة المغرب .

كانت طريقة الأساتذة في التدريس أن كل مدرس يعد درسه ، ويكتب في الموضوع الذي يلقي الدرس فيه ما يريد أن يكتب ، ثم يلقيه على التلامذة ، وهم يكتبون عنه ، ثم تكون هذه الدروس كتباً وأمالي تنشر بين الناس في كل علم . وهنا نبادر إلى القول بأن المؤرخين قد أجمعوا على أن جميع المقالات والكتب كانت تنشر ويتداولها الناس بدون أدنى مراقبة ولا حجر ولا نقص شيء مما كتب صاحب الكتاب ، غير أن مؤرخاً واحداً رأيته ذكر انه قد وضع قانون في بعض الممالك الإسلامية لنشر كتب العقائد مقتضاه أن لا ينشر منها شيء إلا بإذن ، على اني لا أعلم شيئاً من ذلك وقع في الممالك الإسلامية أيام كان الإسلام إسلاماً .

نرجع إلى الكلام في المدارس الاسلامية : يقول «جبون» في كلامه على حماية المسلمين للعلم في الشرق وفي الغرب «إن ولاة الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء في إعلاء مقام العلم والعلماء ، وبسط اليد في الإنفاق على إقامة بيوت العلم ، ومساعدة

الفقراء على طلبه . وكان عن ذلك أن ذوق العلم ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشر في نفوس الناس من **سمر قند** و**بخارى** إلى **فارس** و**قرطبة** . انفق وزير واحد لأحد السلاطين ـ (وهو نظام الملك) ـ مئتي ألف دينار على بناء مدرسة في **بغداد** ، وجعل لها من الريع ليصرف في شؤونها خمسة عشر ألف دينار في السنة ، وكان الذين يُغَذّون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وإبن أفقر الصناع فيها ، غير ان الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة ، وابن الغني يكتفي بمال أبيه ، والمعلمون كانوا يُنْقَدُون رواتب وافرة» اهـ .

انقسمت الممالك الإسلامية ، في زمن من الأزمان ، إلى ثلاثة أقسام ، وتنازع الخلافة ثلاث شيع ، كان العباسيون في آسيا (الشرق) ، والأمويون في الأندلس من أوروبا (الغرب) والفاطميون في مصر من أفريقيا (الوسط) ، ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث قاصراً على الملك والسلطان ولكن كان التنافس أشد التنافس في العلم والأدب ، وكان مرصد «**سمر قند**» قائماً في ناحية المشرق يشير إلى ما كان عليه المشرقيون من العناية برياضة الأفلاك ، ومرصد «**جيرالد**» في **الأندلس** ، يجيبه بأن أهل المغرب ليسوا بأحط منهم في الإدراك .

جميع المدارس في البلاد الإسلامية أخذت نظام الامتحان في المدارس الطبية عن مدرسة الطب في **القاهرة** ، وكان من أشد النظامات وأدقها ، ولم يكن لطبيب أن يمارس صناعته إلا على شريطة أن تكون بعد شهادة له بأنه فاز في الامتحان ، على شدته ، وأول مدرسة طبية انشئت في قارة أوروبا على هذا النظام المحكم هي التي انشأها العرب في «**سالرن**» من بلاد **إيطاليا** ، وأول مرصد فلكي أقيم في أوروبا هو الذي أقامه العرب في «**اشبيلية**» من بلاد اسبانيا .

ولع المسلمون بالعلوم الكونية على اختلافها ، والفنون الأدبية بجميع أنواعها ، حتى القصص والأساطير الخيالية في الأحوالي الاجتماعية ، وابتدأوا بأخذ العلم عن اليونانية والسريانية ، وأخذوا ينقلون كتب الأولين من تلك الألسن إلى اللغة العربية بالترجمة الصحيحة . وكان مترجموهم في أول الأمر مسيحيين **وصابئين** وغيرهم ، ثم تعلم كثير من علماء المسلمين اللسان اليوناني واللاتيني وكتبوا معاجم في اللسانين وذلك كله ليأخذوا العلوم من أصولها وينقلوها إلى لسانهم على حسب ما يصل إليه علمهم فيها وكان المعلمون لأبناء العظماء في أول الأمر من المسيحيين واليهود ، ثم أنشئت المدارس

الجامعة ، وكان المدرسون فيها من كل ملة ودين ، كل يعلم العلم الذي عرف هـو بالبراعة فيه .

* * *

علوم الغرب واكتشافاتها

كان علم العرب في أول الأمر يونانياً ، لكنه لم يلبث كذلك إلا دون قرن واحد ثم صار عربيـاً ولم يرض العـربي أن يكون تلميـذاً **لأرسطوا وأفـلاطون أو أقليـدس أو بـطليموس** زمنـاً طويـلاً ، كما بقي الأوروبي كـذلك عشرة قـرون كاملة في التـاريخ المسيحي .

قـالوا : إن «**بـاكون**» هـو أول من جعل التجـربة والمشـاهـدة قـاعـدة للعلوم العصرية ، أو أقامها مقام الرواية عن الأساتذة والتمسك بآراء المصنفين ، واطلق العلم من رق التقليد . ذلك حق في أوروبا ، وأما عند العرب فقد وضعت هذه القـاعدة عندهم لبناء العلم عليها في أواخر القرن الثاني من الهجرة .

أول شيء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجريبات ، وأن لا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية في العلوم ما لم تؤيدها التجربة ، حتى لقد نقل «**جوستاف لوبون**» عن أحد فلاسفـة الأوروبيين أن القاعدة عند العرب هي «جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفـاً » وعند الأوروبي إلى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي «اقرأ في الكتب وكرر ما يقول الأستاذ تكن عالماً» . فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلبت الحال ، وماذا أعقبت من سـوء المآل .

قال «ديلامبر» في تاريخ علم الهيئة : «إذا عددت في اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين أمكنك أن تعد في العرب عدداً كبيراً غير محصور» . وأما في الكيمياء فلا يمكنك أن تعد مجرباً واحداً عند اليونانيين ، ولكنك تعد من المجربين مئين عند العرب ، ولهذا عدت الكيمياء الحقيقية من اكتشافات العرب دون سواهم . وقد كانوا يعدون الهندسة والفنون الرياضية من الآلات المنطقية ، يستعملونها في الاستدلال على القضايا النظرية ، وهي من أصدق الأدلة في الإيصال إلى المجهولات كما هو معروف .

العرب هم أول من استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على أقسام الزمن ، وهم أول من اتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض .

قد اكتشفوا قوانين لثقل الأجسام ، جامدها ومائعها ، حتى وضعوا لها جداول في غاية الدقة والصحة ، كما وضعوا جداول للأرصاد الفلكية ، وكانت تلك الجداول معروفة يطلع عليها الناظرون في سمر قند وبغداد وقرطبة ، حتى لقد وصلوا بتلك القوانين إلى ما يقرب من اكتشاف الجاذبية .

لا يمكنني في مقالي هذا أن اعد ما اكتشف العرب ، ولا ما زادوه في العلوم على اختلاف أنواعها ، فذلك يحتاج إلى سفر كبير ، وقد أحصى ذلك أهل المعرفة والإنصاف من فلاسفة الأوروبيين ومؤرخيهم وربما يتيسر لأبناء الأمة العربية أن ينشروا ذلك لإخوانهم حتى يعرفوا ما كان عليه أسلافهم ، ولكني أذكر كلمة قالها بعض حكماء الغربيين(١) .

«تأخذنا الدهشة أحياناً عندما ننظر في كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد انها لم تولد إلا في زماننا ، كالرأي الجديد في ترقي الكائنات العضوية ، وتدرجها في كمال أنواعها ، فإن هذا الرأي كان مما يعلمه العرب في مدارسهم ، وكانوا يذهبون به إلى أبعد مما ذهبنا ، فكان عندهم عاماً يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن . والأصل الذي بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقي المعادن في أشكالها قال «الخازني»(٢) : إذا سمع الشعب الجاهل ما يقال بين العلماء : إن الذهب قد تقلب في الأشكال المختلفة حتى صار ذهباً ، ظن من هذا انه مر في صور معادن أخرى فكان رصاصاً ثم قصديراً ثم صفراً ثم فضة ثم صار بعد ذلك ذهباً ، ولا يعلم ان الفلاسفة إذا قالوا ذلك فإنما يقصدون منه ما أرادوه من قولهم في الإنسان : إنه وصل إلى حالته الحاضرة بالتدريج ، ومن طريق الترقي ، وهم لم يعنوا بقولهم هذا إنه تقلب في صور الأنواع كأن كان ثوراً ثم حماراً ثم فرساً ثم قرداً ثم صار بعد ذلك إنساناً» اهـ .

---

(١) هو «درابر» الأميركاني ، الذي سبقت الإشارة إليه .

(٢) هو أبو الفتح عبد الرحمن المنصور الخازني ، ويسمى الخازن ، من علماء النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي . أنظر ص ٣٥٠ ـ ٣٥٥ من (تراث العرب العلمي في الرياضيات الفلك) لقدري حافظ طوقان . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

ويقول الفيلسوف «**جوستاف لبون**» : «إن العرب أول من علَّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين» .

وهنا أنكر على بعض فلاسفتهم ما نقلوه عن ابن رشد من انه ذهب في حرية الرأي إلى نقض أصل الدين وقال : إن الروح لا بقاء لها بعد فناء الجسد وإنما الذي يبقى هي أرواح الأنواع . فإن هذا خطأ عرض لهم من سوء فهم كلامه في بيان بقاء الأنواع دون الأشخاص ، فإنه قال كما قال **أرسطو** وغيره : إن الأشخاص توجد وتفنى وأما الأنواع فهي باقية لا تزول . وهذا باب آخر يغاير بالمرة ما استنتجوا منه (وقد سبق الكلام في بيان رأيه من وجه آخر)[١] كما اخطأوا في قولهم عنه : إنه كان يعتقد بان اللّٰه روح العالم يظهر في صوره ، والكل يرجع إليه ، بمعنى أنه يفنى في ذاته ولا يبقى في العالم باق آخر . وهو يقرب من قولهم السابق . فإن ابن رشد كان مسلماً وكان يعرف ان الإسلام لا ينافي العلم ، وإنما ينافي هذا الضرب من الوهم الذي لم يسقط فيه أحد إلا من عثرة في طريق العلم ، أو الاسترسال مع الخيال . وكثير ممن سكروا بهذا الرأي أفاقوا منه . ولكنْ كتب **ابن رشد** التي بين أيدينا تبعد بنا نسبة هذا الرأي إليه كما سبق بيانه ولكني لا أنكر نسبته لو نسب إلى «**ابن سبعين**[٢]» وهو ممن أخذ عن تلاميذ ابن رشد ، فإن في كلامه ما يدل على ذلك .

ويقول فيلسوف آخر : «إن العلوم التي تلقاها العرب عن اليونانيين وغيرهم وكانت ميتة بين دفات الدفاتر ، مقبورة بين جدران المكاتب ، أو مخزونة في بعض الرؤوس كأنها أحجار ثمينة في بعض الخزائن ، لاحظَّ للإنسانية منها سوى النظر إليها ـ صارت عند العرب حياة الآداب ، وغذاء الأرواح ، وروح الثروة ، وقوام الصنعة ، ومهمازاً للقوى البشرية يسوقها إلى كمالها الذي أعدت له ، وليس في الأوروبيين من درس التاريخ وحكم العقل ثم ينكر أن الفضل في إخراج أوروبا من ظلمة الجهل إلى ضياء العلم ، وفي تعليمها كيف تنظر وكيف تفكر ، وفي معرفتها أن التجربة والمشاهدة هما الأصلان اللذان يبنى عليهما العلم إنما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التي حملوها

---

(١) الإشارة إلى مقال الأستاذ الإمام عن فلسفة ابن رشد ، وهو المقال الذي رد به على فرح أنطون . أنظره في الجزء الخاص بالفلسفة والمنطق من هذه الأعمال .

(٢) هو أبو محمد عبد الحق ابن سبعين (حوالي ١٢١٧ ـ ١٢٦٩ م) من أقطاب التصوف الأندلسيين .

إليهم وأدخلوهما من إسبانيا وجنوب **إيطاليا وفرنسا** عليهم . وكان من حظ العلم العربي والأدب المحمدي عندما دخلا إلى إيطاليا أن البابا كان غائباً ، لأن كرسيه كان انتقل إلى فرنسا في «**افنيون**» نحو سبعين سنة ، فدب العلم إلى شمال إيطاليا واستقر به هناك . إن شوارع باريس لم تفرش بالحجارة إلا في القرن الثاني عشر ، وقد رصت بالبلاط على نحو ما رصت به مدن إسبانيا» اهـ .

يقول آخر : «لا أدري كيف أعطانا الإسلام في مدة قرنين عدداً من الفلكيين يطول سرد أفراده وأن الكنيسة تسلطت على العالم المسيحي اثني عشر قرناً في أوروبا ولم تمنحنا فلكياً واحداً» .

هذا النماء والزكاء العلمي لم يكن خاصاً بطائفة دون طائفة بل كان النـاس في التمكن من تناوله سواء ، وإنما كان التفاضل بالجد والعمل . والفضل في ذلك كله لحلم الخلفاء وعمالهم ، وسماحة الدين ويسره وسهولته على أهله وأهـل ذمته . قـال بعض الفلاسفة الغربيين قولاً يعرفه الحق وتثبته المشاهدة : «إن شعوب الأرض لم تر قط فاتحاً بلغ من الحلم هذا المبلغ (يريد فاتحي الإسلام على اختلافهم) ولا ديناً بلغ في لينه ولطفه هذا الحد» .

أخذُ الخلفاء والأمراء بيد العلم والعلماء

إن الخلفاء ، الذين يقال عنهم : إنهم رؤساء دين وحكام سياسة معاً ، كانوا هم بأنفسهم المتعلمين للعلوم ، الداعين إلى تعلمها ، كانوا العالمين العاملين . كان خليفة **كالمأمون** يضطهد أحياناً أعداء الفلسفة ، وقد عرف التاريخ كثيرين من أرباب الشهرة الذين قضوا في سجنه الشهور أو السنين ، لأنهم كانوا يعـادون الفلسفة ظناً منهم أن منها ما يعدو على الدين فيفسده ، هل رأيت في غير الإسلام رئيساً دينياً يضطهد أعداء العلم وجفاة الفلسفة ؟ لعلك لا تجده أبداً .

كان أهل العلم والأدب عامة يجدون من الاحترام عند الخلفاء والأمراء والخاصة ما يليق بهم كيفما كانت حالهم ، واضرب المثل بالشيخ **أبو العلاء المعري** ، لشهرته بين الناس بما يشبه الزندقة .

يذكر **علي بن يوسف القفطي**[1] أن **صالح بن مرداس** ـ صاحب حلب ـ خرج إلى **المعرة** ، وقد عصى أهلها عليه ، فنازلها في حصارها ورماها بالمنجنيق ، فلما أحس أهلها بالغلب سعوا إلى أبي العلاء بن سليمان ، وسألوهُ أن يخرج ويشفع فيهم ، فخرج ومعه قائد يقوده ، فأكرمه صالح واحترمه ثم قال : ألك حاجة ؟ قال : الأمير ـ أطال اللّٰه بقاءه ـ كالسيف القاطع لأنَ مَسُّه ، وخشن حده ، وكالنهار البالغ ، قاظ وسطه وطاب برده ﴿**خُذْ العَفْوَ وأمُرْ بالْعُرْف وَاعْرِضْ عَنْ الجَاهِلِينَ**[2]﴾ فقال له صالح : قد وهبتها لك ، ثم قال : أنشدنا شيئاً من شعرك لنرويه ، فأنشده على البديهة أبياتاً فيه ، فترحل **صالح** . فانظر كيف وهب الأمير بلداً عصى أهله لفيلسوف معروف بما هو عنه معروف .

ولو ذكرت ما نال العلماء والفلاسفة عند الأمراء والخلفاء لطال بي المقال أكثر مما طال وفيما سبق كفاية لمكتف .

إزالة شبهتين
وبيان حقيقة الاضطهاد

قد يتوهم قوم أن الاضطهاد قد يظهر في مقت العامة وخَلْقُهم ما يخلقون من المفتريات على أهل العلم والفكر الحر ، وهمس بعضهم في آذان بعض ، وتغامزهم على أهل الفضل ، ولمزهم إياهم بالألقاب ، بل واحتقارهم في بعض الأحيان ، وهذا النوع منه عند المسلمين بلا نكير . وهو خطأ ظاهر لأن هذا النوع ـ ممن يكره أهل العلم ـ لا تخلو منه أرض ولا تطهر منه بلاد مهما بلغ أهلها من الحرية ومهما بلغ ذوق العلم من نفوس أهلها ، فإن القائمين على عقيدة **الكاثوليك** إلى اليوم في أرض **فرنسا** يمقتون الفلاسفة الذين يظهرون بمعاداة الكنيسة ويكتبون ما يوهن قواعدها ، وقد تختلق عليهم أحزاب الكاثوليك ما لم يقولوه ، ويرون أن النظر في كتبهم لا يجوز في شريعة الدين ، ونحن لا نرتاب في أن نحو هذا كان عند المسلمين أيام كانت سوق الفلسفة رائجة

---

(١) ولد في صعيد مصر سنة ١١٧٢ م ، وعاش في حلب حيث تولى الوزارة في عصرها الأيوبي ، وتوفي بها سنة ١٢٤٨ م ، وهو مشهور بكتابه (أخبار العلماء بأخبار الحكماء) .

(٢) الأعراف : ١٩٩ .

عندهم ، ولكنه ليس من الاضطهاد في شيء ، وإنما هي نفرة الإنسان مما لا يعرف مع ترك صاحبه وشأنه يمضي في سبيله إلى حيث يشاء .

يقول آخرون : إن التاريخ يروي لنا أن بعض أرباب الأفكار قد أخذه السيف لغلوه في فكره ، فلم يترك له من الحرية ما يتمتع به إلى منتهى ما يبلغ به ، وليس يصح أن ينكر ما صنع الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة .

وأقول : ان كثيراً من الغلو إذا انتشر بين العامة أفسد نظامها واضطرب أمنها ، كما كان من آراء الحلاج[1] وأمثاله ، فتضطر السياسة للدخول في الأمر لحفظ أمن العامة ، فتأخذ صاحب الفكر ، لا لأنه تفكر ولكن لأنه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه ، بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه ، مع أن غيره في غنى عما يراه هو حقاً له ، وتخشى الفتنة إذا استمر مدعي الحرية في غلوائه ، فلهذا يرى حُفَّاظ النظام أن أمثال هؤلا يجب أن ينفى منهم المجتمع صوناً له عما يزعزع أركانه ، ونحن نرى الفلسفة اليوم تضطهد الدين هذا الضرب من الاضطهاد . ألم تقض الحكومة الفرنسية على الراهبين والراهبات أن تكون جمعياتهم ومدارسهم تحت سيطرة الحكومة ؟ وأن لا ينشأ شيء منها إلا بإذن من الحكومة ؟ ومن لم يخضع لذلك تنحل جمعيته وتقفل مدارسه بقوة السلاح ، وقد ينفى من البلاد كما نفي كثيرون في سنين سابقة ، ولكن هل يسمى هذا اضطهاداً ؟ كلا ، إنما الاضطهاد حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش واضطهاد رؤساء الإصلاح بعدها في أول نشأتهم .

ماذا يقول القائلون ؟! إن التعليم عند المسلمين كان غريباً أمره يكاد يكون خفياً سره ، مسجد أو مدرسة تابعة لمسجد يجلس فيها للتدريس الفقيه والمتكلم والمحدث والنحوي والمتأدب والفيلسوف والفلكي والمهندس ، ينتقل الطالب من الفقيه ليجلس بين يدي الفيلسوف ، ومن مجلس الحديث إلى مجلس الأدب ، وإذا وقعت مذاكرة بينهم في مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها في الإقناع والإلزام ، وسقطت قيمة الغلو في التعبير . واخذ التسامح بينهم مأخذه .

---

(١) شهيد التصوف . صلب ببغداد لأسباب سياسية غلفت يومئذ بآرائه في وحدة الوجود ، وكان ذلك سنة ٩١٢م .

كان **عمرو بن عبيد**[1] رئيس المعتزلة وأشدهم صلابة في أصول مذهبه، ومع ذلك فهو من مشايخ الإمام **البخاري** صاحب الصحيح ، وكانت له منزلة عند **المنصور** تعلو كل ذي منزلة عنده ، حتى قال له يوماً وهو خارج من بين يديه «رميت لكل الناس حباً فلقطوا إلا إياك يا عمرو بن عبيد» فانظر كيف كان لإمام من أئمة **السنة** أن يصل سنده في الحديث برئيس من رؤساء المعتزلة ولا يرى في ذلك بأساً ؟.

إذا عدَّ عاد بعض رجال العلم الذين أخذتهم القسوة في الإسلام وقتلتهم حماقة الملوك باغراء الفقهاء وأهل الغلو في الدين ، فما عليه إلا أن ينظر في أحوالهم فيقف لأول وهلة على أن الذي أثار أولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين ، وأن ليست الغيرة عليه هي الباعث لهم على الوشاية بهم ، وطلب تنكيلهم ، وإنما تجد الحسد هو العامل الأول في ذلك كله ، والدين آلة له . ولهذا لا ترى مثل ذلك الأذى يقع إلا على قاضي قضاة **كابن رشد** ـ ورجوع الحاكم إلى العفو عنه وإنزاله منزلته دليل على ذلك ـ أو وزير أو جليس خليفة أو سلطان ، أو ذي نفوذ عظيم بين العامة . وهذا كما يقع من الفقهاء مثلاً لإيذاء الفلاسفة ، يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض لإهلاك بعضهم بعضاً ، كما يشهد به العيان ويحكي لنا التاريخ ، فليس هذا كذلك معدوداً من معنى اضطهاد الدين للفلسفة ، لأن التحاسد أكثر ما يقع بين من لا دين لهم على الحقيقة وإن لبسوا لباسه . وإنما ذلك الاضطهاد هو الذي يحمل عليه محض الاختلاف في العقيدة ، أو ظن المخالفة للدين في شيء من العلم أو العمل لضيق الدين عن أن يسع المخالف بجانبه . وهذا لم يقع في الإسلام . اللهم إلا أن يكون حادث لم يصل إلينا .

هذه طبيعة الدين الإسلامي عرضتها عليك في أهم عناصرها ومقومات مزاجها ، وهذا كان أثرها في العالم الشرقي والغربي ، وهذه سعة فضل الدين وقوته على احتمال مخالفيه وتيسيره لأولئك المخالفين أن يحتموا به متى رضوا بان يستظلوا بظله ، هل في هذا خفاء على ناظر ؟ وهل يرضى لبيب لنفسه أن ينكر الضوء الباهر ، أفلا يبتسم الإسلام عجباً وهو في أشد الكرب لعقوق أبنائه ، من أديب لم يكن يعده من أعدائه ، إن لم

---

(١) صاحب واصل بن عطاء في بلورة فكر العدل والتوحيد في مدرسة المعتزلة . ولد سنة ٦٩٩ م . وكان سياسياً وعالماً ونموذجاً في الزهد والتقوى .

يحسبه في أحبائه ، عندما يراه يسدد سهمه إليه ، ويجور كما يجور الجائرون في حكمه عليه[1] ؟؟ .

الإسلام اليوم
والاحتجاج بالمسلمين على الإسلام

ربما يسأل سائل فيقول : سلمنا أن طبيعة الإسلام تأبى اضطهاد العلم بمعناه الحقيقي ، وإنه لم يقع من المسلمين الأولين تعذيب ولا إحراق ، ولا شنق لحملة العلوم الكونية ، ومقومي العقول البشرية ، لكن أليس العلماء من المسلمين اليوم أعداء العلوم العقلية ، والفنون العصرية ، أوليس الناس تبعاً لهم ؟ أفلا يكون للأديب عذره فيما يراه ويسمعه حوله ؟ ألم يسمع بأن رجلاً في بلاد إسلامية غير البلاد المصرية[2] كتب مقالاً في الإجتهاد والتقليد وذهب فيه إلى ما ذهب إليه أئمة المسلمين كافة ، ومقالاً بيّن فيه رأيه في مذهب الصوفية ، وقال إنه ليس مما انتفع به الإسلام ، بل قد يكون مما رزىء به ، أو ما يقرب من هذا ـ وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله ـ فلما طبع مقاله في مصر تحت اسمه هاج عليه حملة العمائم ، وسكنة الأثواب العباعب ، وقالوا : إنه مرق من الدين وجاء بالإفك المبين ، ثم رفع أمره إلى الوالي فقبض عليه وألقاه في السجن ؟ فرفع شكواه إلى عاصمة الملك وسأل السلطان أن يأمر بنقله إلى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه ، بين يدي عادل لا يجور ، ومهيمن على الحق لا يحيف ، إلخ ما يقال في الشكوى . فأجيب طلبه ، لكن لم ينفعه ذلك كله ، فقد صدر الأمر هناك أيضاً بسجنه ولم يعف عنه إلا بعد أشهر ، مع أنه لم يقل إلا ما يتفق مع أصول الدين ولا ينكره القارىء والكاتب ، ولا الآكل والشارب .

ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسي (والد السنوسي صاحب الجغبوب) كتب

---

(١) الإشارة هنا إلى صاحب «الجامعة» فرح أنطون .

(٢) الإشارة هنا إلى المفكر والمناضل العربي عبد الحميد الزهراوي ، وكان قد نشر رأيه هذا في المنار فاعتقل في الشام . . ويقول الشيخ رشيد رضا إن السبب الحقيقي لاعتقال الزهراوي كان راجعاً إلى أفكاره حول الخلافة التي ضمنها إحدى مقالاته في جريدة (المقطم) . . ولقد أعدم الأتراك هذا المناضل مع زملاء آخرين له في سنة ١٩١٦ م لاشتراكه في الجمعيات القومية الرامية إلى استقلال العرب عن حكم الأتراك العثمانيين .

كتاباً في أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية ، وجاء في كتاب له ما يدل على دعواه انه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة ، وقد يرى ما يخالف رأي مجتهد أو مجتهدين . فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية وكان المقدم في علماء الجامع الأزهر الشريف[1] فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين ، واتبع سبيلاً غير سبيل المؤمنين، وربما كان يجترىء الأستاذ على طعن الشيخ السنوسي بالحربة لو لاقاه ، وإنما الذي خلص السنوسي من الطعنة ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة وإرتكاب الجريمة باسم الشريعة ، هو مفارقة السنوسي للقاهرة قبل أن يلاقيه الأستاذ المالكي .

هل غاب عن الأذهان ما كان ينشر في الجرائد من نحو ثلاث سنين بأقلام بعض علماء الجامع الأزهر من المقالات الطويلة الأذيال ، الواسعة الأردان ، في استهجان إدخال علم تقويم البلدان (الجغرافية) بين العلوم التي يتلقاها طلبة الأزهر ؟ وكان كتاب تلك المقالات يعرضون بمن أشار بادخال هذا العلم وغيره بين تلك العلوم ، وانه إنما يريد الغض من علوم الدين[2] ؟ أم لم تنشر في العام الماضي فصول بأقلام بعضهم تشير إلى مطعن في عقيدة البعض الآخر وإرادة التشهير به ، مع أنه لم يجهر بمنكر ولم يقل قولاً يبعد من الكتاب والسنة ؟ .

ألم تحمل إلينا الرواة ما عند علماء الأفغان والهند والعجم من شدة التمسك بالقديم والحرص على ما ورثوا عن آبائهم الأقربين ، وإقامة الحرب على كل من حاول أن يزحزحهم إصبعاً عما كان عليه سلفهم ، وإن كان في البقاء عليه تلفهم ، وما عليه الحال اليوم في حكومة المغرب من الغلو في التعصب والمعاقبة بقطع بعض الأعضاء في شرب الدخان ، أو بالقتل في كلمة ينكرها السامعون ، وان أجمع عليها المسلمون الآخرون .

ثم ألا يتخيل المتأمل انه يسمع من جوف المستقبل صخباً ولجباً ، وضوضاء وجلبة

---

(١) الإشارة هنا إلى الشيخ «عليش» .

(٢) كان الأستاذ الإمام هو الداعي لإدخال الجغرافيا ضمن علوم الأزهر ، وهو الذي توجهت نحوه الألسنة والأقلام بالاتهامات .

وهيعات مضطربة ، إذا قيل إنه ينبغي لطلبة الأزهر أن يدرسوا طرفاً من مبادىء الطبيعة أو يحصلوا جملة من التاريخ الطبيعي ؟ ألا تقوم قيامة المتقين ؟ ألا يصيحون أجمعين أكتعين أبتعين : هذا عدوان على الدين ، هذا توهين لِعِقْدِه المتين ، هذا تغرير بأهله المساكين ، ولا يزالون يشيدون بهذا إلى أن لا يبقى شيء عرف له اسم في اللغة إلا الصقوه بهذه البدعة في زعمهم ؟

هل هذه الحال جديدة على المسلمين ، حتى يقال إنها عارض عرض عليهم أو مرض من الأمراض الوافدة إليهم ؟ لا يسهل على من يعرض أحوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة أن يظن أن هذه الحال من العلل الطارئة على أمزجة الأمم ، خصوصاً عندما يجد الوحدة في الصفات والشمول في جميع الاعتبارات ، فلو أخذت مسلماً من شاطىء الاطلانطيقي ، وآخر من تحت جدار الصين لوجدت كلمة واحدة تخرج من أفواههما وهي : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ، وإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُقْتَدُونَ﴾[1] وكلهم أعداء لكل مخالف لما هم عليه ، وأن نطق به الكتاب ، واجتمعت عليه الآثار .

اللهم إلا فئة زعمت انها نفضت غبار التقليد ، وأزالت الحجب التي كانت تحول بينها وبين النظر في آيات القرآن ومتون الأحاديث ، لتفهم أحكام اللّه منها ، ولكن هذه الفئة أضيق عطنا[2] وأحرج صدراً من المقلدين ، وان أنكرت كثيراً من البدع ، ونحت عن الدين كثيراً مما أضيف إليه وليس منه، فإنها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقيد به، بدون التفات إلى ما تقضيه الأصول التي قام عليها الدين وإليها كانت الدعوة ولأجلها منحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية السليمة أحباء[3] .

هل يمكن أن ينكر أحد جمود الفقهاء ووقوفهم عند عبارات المصنفين ، على تباينها واختلافها واضطراب الآراء في فهمها ؟ وإذا عرضت حادثة من الحوادث ولم يكن لمصنف معروف رأي فيها أحجموا عن إبداء الرأي ، واجتهدوا في تحويلها عن حقيقتها إلى أن تتفق مع قول معروف في كتاب من الكتب ، حتى لقد جاء طالب علم من بلد من بلاد الدولة العثمانية وأراد الالتحاق بأحد الأروقة في الجامع الأزهر فوقع الشك :

---

(١) الزخرف : ٢٣ .

(٢) العطن ، من معانيها مبرك الإبل ومربض الغنم .

(٣) الإشارة إلى دعاة الحركة الوهابية .

هل بلده مما لاهله استحقاق في ذلك الرواق على حسب نص الواقف ؟ فقال قائل لشيخ الرواق ان كتب تقويم البلدان تشهد بأن البلد داخل في شرط الواقف . فقال : انني لا اقتنع بما في تلك الكتب ، وإنما الذي يصح أن آخذ به هو أن يكون فقيه ـ (ممن مات) ـ قال إن هذا البلد من قطر كذا ، وهو الذي وقف الواقف على أهله ؟!. وإذا قيل لأحدهم: إن الأئمة أنفسهم إن يعينوا مواقع البلدان ولم يضعوا لنا جدولاً لبيان ما يحويه كل قطر ، وبيان الحدود التي ينتهي إليها ، وان أصول ديننا تسمح لنا بأن نأخذ بأقوال العلماء في هذه الفنون ـ (وهم منا) ـ وبتواتر الأخبار وما أشبه ذلك من البديهيات ، قال : إنما أريد نصاً فقهياً ، لا دليلاً عقلياً .

وإذا قيل لهم : اختلت الشؤون ، وفسدت الملكات والظنون ، وساءت أعمال الناس وضلت عقائدهم وهوت عباداتهم من روح الإخلاص فوثب بعضهم على بعض بالشر ، وغالت أكثرهم أغوال الفقر ، فتضعضعت القوة ، واخترق السياج وضاعت البيضة ، وانقلبت العزة ذلة ، والهداية ضلة وساكنتكم الحاجة والفتكم الضرورة ، ولا تزالون تألمون مما نزل بكم وبالناس فهل نبهكم ذلك إلى البحث في أسباب ما كان سلفكم عليه ، ثم في علل ما صرتم وصار الناس إليه ؟ قالوا : ذلك ليس إلينا ، ولا فرضه اللّه علينا وإنما هو للحكام ينظرون فيه ، ويبحثون عن وسائل تلافيه ، فإن لم يفعلوا ـ ولن يفعلوا ـ فذلك لأنه آخر الزمان ، وقد ورد في الأخبار ما يدل على أنه كائن لا محالة، وإن الإسلام لا بد أن يرفع من الأرض، ولا تقوم القيامة إلا على لكع بن لكع . واحتجوا على اليأس والقنوط بآيات وأحاديث وآثار تقطع الأمل ، ولا تدع في نفس حركة إلى عمل ؟!!

رأي رينان في الإسلام

هذا الجمود ـ الذي لو أردنا بيان ما امتد إليه من طيات الأفكار وثنيات الوجدان ، لكتبنا فيه كتاباً ـ هو الذي حمل «المسيو رينان» الفيلسوف الفرنسي المشهور أن يقول في عرض كلام له في تساهل المذاهب الدينية مع العلم ما نقلته عنه «الجامعة» : «على أنني أخشى أن يثبت الدين الإسلامي وحده في وجه هذا التسامح العام في العقائد ، ولكني أعرف أن في نفوس بعض الرجال المتمسكين بآداب الدين الإسلامي القديمة وفي بضعة من رجال «الآستانة» وبلاد الفرس جراثيم جيدة ، تدل على فكر واسع ، وعقل ميال إلى المسامحة ، إلا أنني أخشى أن تختنق هذه الجراثيم بتعصب بعض

الفقهاء ، فإذا اختنقت قضي على الدين الإسلامي . ذلك انه من الثابت الآن أمران : **الأول** : أن التمدن الحديث لا يريد إماتة الأديان بالمرة ، لأنها لا تصلح أن تكون وسيلة إليه . **والثاني** : إنه لا يطيق أن تكون الأديان عثرة في سبيله . فعلى هذه الأديان ان تسالم وتلين ، وإلا كان موتها ضربة لازب ، اهـ . كلام رنان بتصرف لفظي قليل .

فمن أين يكون هذا الجمود العام ، الذي سمح للطاعنين أن يحكموا على الإسلام بأنه عثرة في طريق المسلمين ، يسقط بهم دون أن ينالوا فلاحاً في سعيهم أو نجاحاً في أعمالهم من أين يكون هذا الجمود إن لم يكن من طبيعة الدين ؟ ومن أين يكون ما سردناه من الحوادث إن لم يكن ناشئاً من أصول الدين ؟ فإن لم تُسَلِّم بأن هذا اضطهاد ، وان الاضطهاد من لوازم الدين الإسلامي ، فعليك أن تسلم بأنه عداوة للعلم ، أو اشمئزاز منه ، أو استهجان له ، أو احتقار لشأنه ، وأحد هذه الأمور كاف ـ إذا عم بين المسلمين ـ في أن ينفر بهم عن كل مجد ، وأن يحرمهم كل نفع ، وأن يحقق فيهم ما تنبأ به «رينان» وغيره ، فما قولك في هذا ؟ .

الجواب

أقول : هذا كلام فيه شيَةٌ من الحق ، ولمعة من الصدق ، أما ما نسمعه حولنا من سجن من قال بقول السلف فليس الحامل عليه التمسك بالدين ، فإن حملة العمائم إنما حركهم الحسد لا الغيرة ، وأما صدور الأمر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة ، والخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد فتنتشر عدواه فيتنبه غافل آخر ، ويتبعه ثالث ، ثم ربما تسري العدوى من الدين إلى غير الدين . . إلى آخر ما يكون من حرية الفكر (التي يعوذون بالله منها) .

فإن شئت أن تقول : إن السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم فأنا معك من الشاهدين ، أعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة ، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة ، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس ؟! .

يدلك على إن العقوبة سياسية أن الرجل كان يقول بقول السلف من أهل الدين . لا تقل إن هذه السياسة من الدين ، فإني أشهد الله ورسوله وملائكته وسلفنا

أجمعين ، أن هذه السياسة من أبعد الأمور عن الدين ، كأنها الشجرة التي ﴿تَخْرُجُ في أَصْلِ الجَحِيم ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِين فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فمالئون منها البُطُونَ ، ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيم ، ثُمَّ إِنَّ مَرجِعَهُمْ لإلَى الجَحِيمِ ، إِنَّهُمْ ألْفَوْا أبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ، فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾[1] .

جمود المسلمين ، وأسبابه

وأما ما وصفت بعد ذلك من الجمود فهو مما لا يصح أن ينسب إلى الإسلام ، وقد رأيت صورة الإسلام في صفائها ونصوع بياضها ، ليس فيها ما يصح أن يكون أصلاً يرجع إليه شيء مما ذكرت ، ولا مما تنبأ بسوء عاقبته «رينان» وغيره . وإنما هي علة عرضت للمسلمين عندما دخلت على قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الإسلام في أفئدتهم ، وكان السبب في تمكنها من نفوسهم واطفائها لنور الإسلام من عقولهم ، هو السياسة ، كذلك هو تلك الشجرة الملعونة في القرآن : عبادة الهوى واتباع خطوات الشياطين ، هو السياسة .

لم أر كالإسلام ديناً حفظ أصله ، وخلط فيه أهله ، ولا مثله سلطاناً تفرق عنه جنده ، وخُفِر عهده ، وكُفِر وعيده ووعده ، وخفى على الغافلين قصده ، وان وضح للناظرين رشده ، أكل الزمان أهله الأولين ، وأدال منهم خشارة[2] من الآخرين . لا هم فهموه فأقاموه ولا هم رحموه فتركوه ، سواسية من الناس اتصلوا به ، ووصلوا نسبهم بنسبه ، وقالوا نحن أهله وعشيرته ، وحماته وعصبته ، وهم ليسوا منه في شيء ، إلا كما يكون الجهل من العلم ، والطيش من الحلم ، وأفن الرأي من صحة الحكم .

أنظر كيف صارت مزية من مزايا الإسلام سبباً فيما صار إليه أهله : كان الإسلام ديناً عربياً ، ثم لحقه العلم فصار علماً عربياً ، بعد أن كان يونانياً ، ثم أخطأ خليفة في السياسة فاتخذ من سعة الإسلام سبيلاً إلى ما كان يظنه خيراً له ، ظن أن الجيش العربي قد يكون عوناً لخليفة علوي ، لأن **العلويين** كانوا الصق ببيت **النبي** ﷺ ، فأراد أن يتخذ له جيشاً أجنبياً من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التي ظن أنه يستعبدها بسلطانه ، ويصطنعها باحسانه ، فلا تساعد الخارج عليه ، ولا تعين طالب مكانه من

---

(١) الصافات : ٦٤ ـ ٧١ .

(٢) الخشارة الردىء من كل شيء ، وفضالة المائدة ، وسفلة الناس ، وهو المراد هنا .

الملك ، وفي سعة احكام الإسلام وسهولته ما يبيح له ذلك ، هناك استعجم الإسلام وانقلب عجمياً .

خليفة عباسي أراد أن يصنع لنفسه ، وبئس ما صنع بأمته ودينه(١) ، أكثر من ذلك الجند الأجنبي ، وأقام عليه الرؤساء منه ، فلم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة في قبضتهم ، ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الإسلام ، والقلب الذي هذبه الدين ، ولم ينفذ منه شيء إلى وجدانهم ، وكثير منهم كان يحمل إلهه معه يعبده في خلوته ، ويصلي مع الجماعات لتمكين سلطته ، ثم عدا على الإسلام آخرون ، كالتتار وغيرهم ومنهم من تولى أمره .

أي عدو لهؤلاء أشد من العلم الذي يعرّف الناس منزلتهم ، ويكشف لهم قبح سيرهم ؟ فمالوا على العلم وصديقه الإسلام ميلتهم . أما العلم فلم يحفلوا بأهله ، وقبضوا عنه يد المعونة ، وحملوا كثيراً من أعوانهم على أن يندرجوا في سلك العلماء وأن يتسربلوا بسرابيلهم ، ليعدوا من قبيلهم ، ثم يضعوا للعامة في الدين ما يبغض اليهم العلم ، ويبعد بنفوسهم عن طلبه ، ودخلوا عليهم ـ وهم أغرار ـ من باب التقوى وحماية الدين ، زعموا الدين ناقصاً ليكملوه أو مريضاً ليعللوه ، أو متداعياً ليدعموه ، أو يكاد ينقضّ ليقيموه .

نظروا إلى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية ، وفي عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك تعظيم شعائره ، وتفخيم أوامره ، والغوغاء عون الغاشم ، وهم يد الظالم ، فخلقوا لنا هذه الاحتفالات ، وتلك الاجتماعات ، وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة وأركس(٢) الناس في الضلالة ، وقرروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم ، وجعلوا ذلك عقيدة ، حتى يقف الفكر ، وتجمد العقول ، ثم بثوا أعوانهم في أطراف الممالك

---

(١) هو الخليفة العباسي المعتصم ، حكم من سنة ٨٣٣ م حتى سنة ٨٤٢ م .
(٢) أي أعادهم إلى حالتهم الأولى في الضلالة قبل أن يهتدوا .

الإسلامية ، ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يقنع العامة ، وأن كل ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو ما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ، ومن دخل في شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه ، وأن ما يظهر من فساد الأعمال واختلال الأحوال ، ليس من صنع الحكام وإنما هو تحقيق لما ورد في الأخبار من أحوال آخر الزمان ، وإنه لا حيلة في إصلاح حال ولا مآل وأن الأسلم تفويض ذلك إلى اللّه ، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه ، ووجدوا في ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك ، وفي الموضوعات والضعاف[1] ما شد أزرهم في بث هذه الأوهام .

وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضللين ، وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم في جميع الأطراف ، واتخذوا من عقيدة القدر مثبطاً للعزائم وغلاًّ للأيدي عن العمل . والعامل الأقوى في حمل النفوس على قبول هذه الخرافات إنما هو السذاجة ، وضعف البصيرة في الدين ، وموافقة الهوى ـ أمور إذا اجتمعت أهلكت ـ فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ، ورسخ في نفوس الناس من العقائد ما يتضارب وأصول دينهم ويباينها على خط مستقيم ، كما يقال .

هذه السياسة ـ سياسة الظلمة وأهل الأثرة ـ هي التي روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه ، وسلبت من المسلم أملاً كان يخترق به أطباق السموات ، وأخلدت به إلى يأس يجاور به العجماوات فجل مما تراه الآن مما تسميه العامة إسلاماً فهو ليس بإسلام ، وإنما حفظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحج ، ومن الأقوال قليلاً منها حرفت عن معانيها ، ووصل الناس ـ بما عرض لدينهم من البدع والخرافات ـ إلى الجمود الذي ذكرته ، وعدوه ديناً ، نعوذ باللّه منهم ومما يفترون على اللّه وعلى دينه ، فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الإسلام ، وإنما هو شيء آخر سموه إسلاماً ، والقرآن شاهد صادق **﴿لا يأتيهِ الباطلُ من بْينَ يَديهِ ولا منْ خلفه تنزيلٌ من حكيم حميدٍ﴾**[2] يشهد بأنهم كاذبون ، وأنهم عنه لاهون وعما جاء به معرضون . وسنوفي لك الكلام في مفاسد هذا الجمود ، ونثبت أنه علة لا بد أن تزول .

---

(١) أي الأحاديث الموضوعة ، والضعيفة السند .
(٢) فصلت : ٤٢ .

مفاسد هذا الجمود ونتائجه

طال أمد هذا الجمود لاستمرار عمل العاملين في المحافظة عليه ، وولع شهواتهم بالدفاع عنه ، وقد حدثت عنه مفاسد يطول بيانها ، وإنما يحسن اجمال القول فيها ،

كان الدين هو الذي ينطلق بالعقل في سعة العلم ، ويسبح به في الأرض ، ويصعد به إلى أطباق السماء ليقف به على أثر من آثار اللّٰه ، أو يكشف به سراً من أسراره في خليقته أو يستنبط حكماً من أحكام شريعته ، فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ما تشاء ، وتبلغ من التمتع بها ما تريد . فلما وقف الدين ، وقعد طلاب اليقين ، وقف العلم وسكنت ريحه ، ولم يكن ذلك دفعة واحدة ، ولكنه سار سير التدريج .

جناية الجمود على اللغة :

أول جناية لهذا الجمود كانت على اللغة العربية وأساليبها وآدابها ، فإن القوم كانوا يعنون بها لحاجة دينهم إليها ، أريد حاجتهم في فهم كتابهم إلى معرفة دقائق أساليبها ، وما تشير إليه هيئة تراكيبها ، وكانوا يجدون انهم لن يبلغوا ذلك حتى يكونوا عرباً بملكاتهم ، يساوون من كانوا عرباً بسلائقهم ، فلما لم يبق للمتأخر إلا الأخذ بما قال المتقدم ، قصر المحصلون تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم ، واكتفوا باخذ حكم اللّٰه منة بدون أن يرجعوا إلى دليله ، ولو نظروا في الدليل فرأوه غير دال له بل دالاً لخصمه ، بان كان قد عرض له في فهمه ما يعرض للبشر الذين لم يقرر الدين عصمتهم ، خَطَّأوا نظرهم وأعموا أبصارهم وقالوا : نعوذ باللّٰه أن تذهب عقولنا إلى غير ما ذهب إليه متقدمنا ، وارغموا عقلهم على الوقفة ، فيصيبه الشلل من تلك الناحية . فأي حاجة له بعد ذلك إلى اللغة العربية نفسها ؟ وقد يكفيه منها ما يفهم به أسلوب كلام المتقدم ، وهو ليس من أولئك العرب الذين كان ينظر الأولون في كلامهم .

وهكذا كل متأخر يقصر فهمه على النظر في كلام من يليه ، هو غير مبال بسلفه الأول ، بل ولا بما كان يحف بالقول من أحوال الزمان ، فهو لا ينظر إلا إلى اللفظ وما يعطيه ، فتسقط منزلته في تحصيل اللغة بمقدار بُعده عن أهلها ، حتى وصل حال الناس إلى ما نراهم عليه اليوم : جعلوا دروس اللغة لفهم عبارة بعض المؤلفين في النحو وفنون

البلاغة ، وإن لم يصلوا منها إلى غاية في فهم ما وراءها ، فدَرَسَتْ علوم الأولين وبادت صناعتهم ، بل فقدت كتب السلف الأولين ، رضي اللّه عنهم ، واصبح الباحث عن كتاب (المدونة) لمالك ، رحمه اللّه تعالى ، أو كتاب (الأم) للشافعي ، رحمه اللّه تعالى ، أو بعض كتب الأمهات في فقه الحنفية ، كطالب المصحف في بيت الزنديق ؟!. تجد جزءاً من الكتاب في قطر وجزءه الآخر في قطر آخر ، فإذا اجتمعت لك اجزاء الكتاب وجدت ما عرض لها من نسخ النساخ حائلاً بينك وبين الاستفادة منها .

هذا كله من أثر الجمود ، وسوء الظن باللّه ، وتوهم أن أبواب فضل اللّه قد اغلقت في وجوه المتأخرين ، ليرفع بذلك منازل المتقدمين ، وعدم الاعتبار بما ورد في الأخبار من أن المبلِّغ ربما كان أوعى من السامع وان هذه الأمة كالمطر لا يُدْرَي أوله خيراً أو آخره . وقلة الالتفات إلى ذلك قد أضاعت آثار المتقدمين انفسهم ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه . لا ريب أن القارىء يحيط بمقدار ضرر هذه الجناية على اللغة . يكفيه من ذلك انه إذا تكلم بلغته ، لغة دينه وكتابه وقومه ، لا يجد من يفهم ما يقول ، وأي ضرر أعظم من عجز القائل عن أن يصل بمعناه إلى العقول ؟!

جناية الجمود على النظام والاجتماع :

واعظم من هذه الجناية جناية التفريق ، وتمزيق نظام الأمة ، وإيقاعها فيما وقع فيه مَنْ سبقها من الاختلاف وتفرق المذاهب والشيع في الدين . كان اختلاف السلف في الفتيا يرجع إلى اختلاف أفهام الأفراد وكل يرجع إلى أصل واحد لا يختلفون فيه ، وهو كتاب اللّه وما صح من السنة ، فلا مذهب ولا شيعة ولا عصبية تقاوم عصبية ، ولو عرف بعضهم صحة ما يقول الآخر لأسرع إلى موافقته كما صرح به جميعهم . ثم جاء أنصار الجمود فقالوا : يولد مولود في بيت رجل من مذهب إمام فلا يجوز له أن ينتقل من مذهب أبيه إلى مذهب آخر ، وإذا سألتهم قالوا : «وكلهم من رسول اللّه ملتمس» !! لكنه قول باللسان لا أصل له في الجنان . ثم كانت حروب جدال بين ائمة كل مذهب لو صرفت آلاتها وقواها في تبيين أصول الدين ونشر آدابه وعقائده الصحيحة بين العامة ، لكنا اليوم في شأن غير ما نحن فيه . يجد المطلع على كتب المختلفين من مطاعن بعضهم في بعض ما لا يسمح به أصل من أصول الدين الذي ينتسبون إليه ، يضلل بعضهم بعضاً ، ويرمي بعضهم بعضاً بالبعد عن الدين ، وما المطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن ، ولكنه الجمود ، قد يؤدي إلى الجحود .

كان الاختلاف في العقائد ، على نحو الاختلاف في الفتيا ، تخالف أشخاص في النظر والرأي ، وكان كل فريق يأخذ عن الأخر ولا يبالي بمخالفته له في رأيه ، مسجدهم واحد وإمامهم واحد وخطيبهم واحد ، فلما جاء دور الجمود ـ دور السياسة ـ أخذ المتخالفون في التنطع ، وأخذت الصلات تتقطع وامتازت فرق وتألفت شيع ، كل ذلك على خلاف ما يدعو إليه الدين ، وقد بذل قوم وسعهم في تمييز الفرق تمييزاً حقيقياً ، فما استطاعوا ، وإنما هو تمييز وهمي ، وخُلْفٌ في أكثر المسائل لفظي ، وإنما هي الشهوات وضروب السياسات اشعلت نيران الحرب بين المنتسبين إلى تلك الشيع ، حتى آل الأمر إلى هذه الفُرْقَة التي يظن الناظر فيها أنها لا دواء لها .

قال قائل[1] من عدة سنين : إنه ينبغي أن يعين القضاة في مصر من أهل المذاهب الأربعة لأن أصول هذه المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها ، وقال : إن الضرورة قاضية بان يؤخذ في الأحكام ببعض أقوال من مذهب مالك أو مذهب الشافعي تيسيراً على الناس ودفعاً للضرر والفساد : فقام كثير من المتورعين ، يحوقلون ويندبون حظ الدين ، كَأَنَّ الطالب يطلب شيئاً ليس من الدين ، مع إنه لم يطلب إلا الدين ، ولم يأت إلا بما يوافق الدين ، وربما كان عليه العمل في أقطار العالم إلى ما قبل عدة سنين ، فأين قول هؤلاء : «وكلهم من رسول اللّه ملتمس» ؟! لكن هو جمود المتأخر على رأي من سبقه مباشرة ، وقَصْر نظره عليه دون التطلع إلى ما وراءه . أو هي السياسة تحل ما تشاء ، وتحرم ما تشاء ، وتصحح ما تشاء ، وتعطل ما تشاء ، والناس منقادون إليها بأزمَّةِ القوة أو الأهواء .

جناية الجمود على الشريعة وأهلها :

هذا الجمود في أحكام الشريعة جر إلى عسر حمل الناس على إهمالها : كانت الشريعة الإسلامية أيام كان الإسلام إسلاماً سمحة تسع العالم بأسره ، وهي اليوم تضيق عن أهلها ، حتى يضطروا إلى أن يتناولوا غيرها وأن يلتمسوا حماية حقوقهم فيما لا يرتقي إليها ، واصبح الأتقياء من حملتها يتخاصمون إلى سواها .

(١) الإشارة إلى اقتراحات الاستاذ الإمام في تقريره عن إصلاح المحاكم الشرعية . انظره في مكانه من هذا الكتاب .

صعب تناول الشريعة على الناس حتى رضوا بجهلها عجزاً عن الوصول إلى علمها ، فلا ترى العارف بها من الناس إلا قليلاً لا يعد شيئاً إذا نسب إلى من لا يعرفها . وهل يتصور من جاهل بشريعة أن يعمل باحكامها ؟! ، فوقع أغلب العامة في مخالفة شريعتهم ، بل سقط احترامها من انفسهم . لأنهم لا يستطيعون أن يطبقوا أعمالهم بمقتضى نصوصها ، وأول مانع لهم ضيق الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات وكثرة الاختلاف .

سألت يوماً أحد المدرسين في بعض المذاهب : هل تبيع وتشتري وتصرف النقود على مقتضى ما تجد في كتب مذهبك ؟ فأجاب ؟ إن تلك الأحكام قلما تخطر بباله عند المعاملة بالفعل ، وإنما يفعل ما يفعل الناس . هكذا فعل الجمود بأهله ، ولو أرادوا أن تكون للشريعة حياة يحيا بها الناس ، لفعلوا ، ولسهل عليهم وعلى الناس أن يكونوا بها أحياء .

تعلم ما وصل إليه الناس من فساد الأخلاق والانحراف عن حدود الشريعة . لو سألت عن سببه في القرى وصغار المدن لوجدته أحد أمرين : إما فقد العارف بالشريعة والدين ، وسقوط القرية أو المدينة في جاهلية جهلاء ، يرجع بعض أهلها إلى بعض في معرفة الحلال والحرام ، وليس المسؤول بأعلم من السائل ، وكلهم جاهلون ، وإما عجز العارف عن تفهيم من يسأله ، لاعتقال لسانه عن حسن التعبير بطريقة تفهمها العامة ، فهو إذا سئل يقرأ كتاباً أو يسرد عبارة يصعب على السامع فهمها وعلى المتكلم افهامها ، وذلك للحرج الذي وضع فيه نفسه فلا يستطيع التصرف فيما يسمع ولا فيما يعلم . فإذا قلت للعارف تعلم من وسائل التعبير ما يقدرك على مخاطبة الطبقات المختلفة من الناس حتى تنفع بعلمك ، واعْلُ بنفسك إلى ان تفهم الغرض من قول إمامك ، فتجد لأصله انطباقاً على هذه الحادثة مثلاً وان لم يأت ذكرها بنفسها في قوله أو قول من جاء بعده من أتباعه ، قال : سبحان اللّٰه ! يريد أن لا يأتي شيئاً إلا إذا أتى به شيخه الذي أخذ عنه يداً بيد ، ولو أبعد بنظره لوجد قدماء المشايخ قد فعلوه وبالغوا فيه حتى خالفوا من أخذوا عنه في بعض رأيه ، ثم إذا حاججته في ذلك لم يبعد من رأيه أن يعدك زنديقاً ، وانك تدعوه إلى الخروج من دينه ، ولا يدري المسكين انه بذلك يخالف نصوص دينه وأنه يتهيأ للخروج منه ، نعوذ باللّٰه تعالى .

كان كلام بيني وبين أحد المدرسين في أخذ الطلبة بالنصيحة ، وتذكيرهم بفضائل

الأخلاق وصالح الأعمال ، خصوصاً عند القاء الدروس الفقهية ودروس الحديث والتوحيد فقال لي : إنه لا فائدة في ذلك قطعاً ، وهو تعب في غير طائل فقلت له : ذلك حق عليك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وليس عليك أن يأتمر المأمور ولا أن ينتهي المنهي . فقال : إذا تحققت استحالة المنفعة كان الأمر والنهي لغواً .

فأنظر كيف اعتقد استحالة الانتفاع بنصحه لبلوغ الفساد من النفوس غايته ، كما يزعم ولم ينظر في الوسيلة إلى اقتلاع هذا الفساد ، مع ان الدين يدعوه إلى ذلك ، وهو يعمل كل يوم عمله لتعليم من لا سبيل إلى إصلاحه ، هذا كله لأنه لم ير نفسه أهلاً لأن يتخذ وسيلة لم يتخذها من أخذ عنه ، أو لم يرشده إليها من تعلم هو بين يديه ، ولم يتذكر عند ذلك شيئاً من الأوامر الإلهية التي وردت في النصيحة والتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر وان اليأس من روح اللّه إنما يكون من القوم الكافرين أو الضالين .

لا ، بل إذا قلت له : إن هذا الضرب من ضروب التعليم عقيم لا ينتج المطلوب منه ، أو إن هذا الكتاب الذي تعود الطلاب قراءته قد يضر بقارئيه ، وغيره أفضل منه . كاد يظن أن قولك هذا مخالف للدين ، ورأى العدول عما تعوده نوعاً من الإخلال بالدين وقد يقيم عليك حرباً يعتقد نفسه فيها مجاهداً في سبيل اللّه .

إذا قلت له : إن دروس السلف كانت تقريراً للمسائل ، وإملاء للحقائق على الطلاب ، ولم يكن لأحد منهم كتاب يأخذه بيده ويقرئه تلاميذه ، ولم يكن بأيدي الطلبة إلا الأقلام والقراطيس يكتبون ما يسمعونه من أفواه أساتذتهم ، قد يعترف لك بصحة ما تقول ، ولكنه يستمر في عمله ، اعتماداً على انه وجد الناس هكذا يعملون ، فهل يخطر ببال عاقل أن هذا الجمود من الدين ؟ وهل يرتاب من له أدنى إدراك في سوء عقباه على الدين وأهل الدين ؟

جناية الجمود على العقيدة :

ذلك جمودهم في العمل ، وأشد ضرراً منه الجمود في العقيدة : نسوا ما جاء في الكتاب وأيدته السنة من ان الإيمان يعتمد اليقين ، ولا يجوز الأخذ فيه بالظن ، وأن العقل هو ينبوع اليقين في الإيمان باللّه وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة وأن النقل ينبوع له فيما بعد ذلك من علم الغيب كأحوال الآخرة وفروض العبادات وهيآتها ، وأن العقل إن لم يستقل وحده في إدراك ما لا بد فيه من النقل فهو مستقل لا محالة في الاعتقاد

بوجود الله ، وبأنه يجوز أن يرسل الرسل فتأتينا عنه بالمنقول . . نسوا ذلك كله وقالوا : لا بد من اتباع مذهب خاص في العقيدة ، وافترقوا فرقاً وتمزقوا شيعاً - كما قلنا - ولم يكفهم الإلزام باتباع مذهب خاص في نفس المعتقد ، بل ذهب بعضهم إلى أنه لا بد من الأخذ بدلائل خاصة للوصول إلى ذلك المعتقد، فيكون التقليد كالتقليد في المدلول، وكأنهم جعلوا النقل عماداً لكل اعتقاد، ويا ليته النقل عن المعصوم، بل النقل ولو عن غير المعروف، فتقررت لديهم قاعدة: ان عقيدة كذا صحيحة، لأن كتاب كذا للمصنف فلان يقول ذلك. ولما كانت الكتب قد تختلف أقوالها صار من الصعب أن يجد الواحد منهم لنفسه عقيدة قارة صافية غير كدرة ولا متزعزعة. وقد سرى ذلك من قراء المقلدين إلى أمييهم، فتراهم يعتقدون كل ما يقال وينقل عن معروف الاسم وإن لم يكن في حق الأمر من أهل العلم، وتتناقض عقائدهم على حسب تناقض مسموعاتهم.

انجر التساهل في الاعتماد على النقل إلى الخروج عما اختطه لنا السلف ، رضي الله عنهم ، فقد كانوا ينقبون عن صفات من ينقلون عنه ، ويمتحنون قوله ، حتى يكونوا على شبه اليقين من أنه موضع الثقة . ولكن جمود المتأخر على ما يصل إليه من المتقدم صير النقل فوضى ، فتجد كل شخص يأخذ عمن عرفه وظن انه أهل للأخذ عنه ، بدون بحث ولا تنقيب ، حتى شاع بين الناس من الأقوال وموضوعات الأحاديث ما ترتفع الأصوات بالشكاية منه من حين إلى حين . وكل ما تراه من البدع المتجددة فمنشأه سوء الاعتقاد الذي نشأ من رداءة التقليد ، والجمود عند حد ما قال الأول بدون بحث في دليله ولا تحقيق في معرفة حاله ، وإهمال العقل في العقائد على خلاف ما يدعو إليه الكتاب المبين والسنة الطاهرة . دخلت على الناس لذلك عقائد يحتاج صاحب الغيرة على الدين في اقتلاعها من أنفسهم إلى عناء طويل وجهاد شديد ، وسلاحه الكتاب وسلاح أعدائه أقوال بعض من تقدم ممن يعرف وممن لا يعرف . وما أكثر عدد من ينصر أعداءه اليوم وما أقلهم غداً إن شاء الله .

سأل سائل من الأستاذ شيخ الجامع الأزهر عن حكم عمل من الأعمال الجارية في المساجد يوم الجمعة - ومنزلة الشيخ من الرياسة في أهل العلم بالدين منزلته - فأفتى بما ينطبق على السنة وما يعرفه العارفون بالدين وقال : إن العمل بدعة من البدع يجب التنزه عنها . اتظن أن المستفتي أمكنه العمل بمقتضى الفتيا ؟ كلا . حدث قيل وقال ،

وكثرة تسـآل ، ودخلت السياسة ، ثم قيل : إن الزمان ناصر الحقيقة ، وقد وجدنا الأمر كذلك من قبلنا ، وسكت السائل وماذا يصنع المجيب ؟ .

نعم هذا من شؤم ذلك الجمود ، فقد فصل بين العامة ومن يرجى فيهم تقويم ما أعوج منها ، ووكلت إلى أناس منها لا علم لهم بالدين ولا بالأدب ، وقد غرسوا في أذهان الدهماء شر الغرس ، ولا تجني الأمم منه إلا أخبث الثمر . فلو قام العالم بالدين وأراد أن يبين حكم اللّه المصرح به في كتابه وسنة نبيه ﷺ ، المجمع عليه عند السلف قاطبة لا نتصب له ناعر من العامة يصيح في وجهه ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾[1] ويريد من آبائه الأولين : من رآهم بعد ولادته ، أو ذكرت له اسماؤهم بلسان مضليه ، حتى صار إرشاد العامة اليوم من أصعب الأمور واشقها على طالبه .

ماذا يمكن أن أقول ؟ . . أصبح الرجل يرتكب في وسائل العبادة أقبح المنكرات في الـدين ، وإذا دعي إلى ترك المنكـر نفر وزمجـر وأبى واستكبر . انـظر ماذا يصنـع الموسوسون ، ومن يقرب منهم ، في الاستبراء من البول على مرأى من المارة ، وفيهم النساء والأطفال ، وهم يظنون انهم يتقربون إلى اللّه بما يفعلون .

هذا هو شأن العامـة يرون مـا ليس بدين دينـا ، ويصعب على حُفَّـاظ الدين إرشادهم بفضل جمودهم على ما ورثوا من ملقنيهم بدون تعقل .

فهذا معظم الأمة تراه قد تملص من أيدي منذريه ، ولو شاءوا لأقبل كل منهم على صحبه ، وهو أيسر شيء على حملة الشريعة ، وما هو إلا أن يرجعوا إلى ما كان عليه ﷺ وأصحابه من سعة الدين وسماحته ، ثم العمل على حفظه وحياته .

* * *

الجمود ومتعلمو المدارس النظامية

ثم إن الجمود قد أحدث لنا فريقاً آخر وهو فريق المتعلمين على الطرق الجديدة ، إما في مدارس الحكومات الإسلامية وإما في المدارس الأجنبية داخل بلادهم أو خارجاً عنها . لا اتكلم عن هذا الفريق في بلاد القرم أو القوقاس أو سمر قند أو بخارى أو

---

(١) القصص : ٣٦ .

الهند ، فإني لا أعرف كثيراً من أحوالهم ، ومن رأيته منهم رأيت فيه خيراً ، وأرجو أن يكون منهم لقومهم ما ينتظره الإسلام من العارفين به ، فقد رأيت أفراداً قليلين من هؤلاء تعلموا في البلاد الأوربية ودرسوا العلوم فيها درساً دقيقاً ، وهم أشد تمسكاً بلب الدين الإسلامي وروحه من كثير ممن يدعي الورع والتقوى ، ولا يسمحون لأنفسهم بترك عادة صحيحة من العادات التي أورثها دينهم قومهم ، فنعم المتعلمون هؤلاء ، أكثر الله منهم .

وإنما اتكلم عن هذا الفريق من المتعلمين في **مصر وسورية** وسائر بلاد **الدولة العثمانية**. سماحة الإسلام وسعة حلمه للعلم أباحت للمسلمين أن يرسلوا أولادهم ليأخذوا العلم في المدارس الرسمية وغير الرسمية عن أساتذة فيهم المسلم وغير المسلم ، أو عن أساتذة كلهم غير مسلمين ، بل في مدارس لم تبن إلا لترويج دين غير الدين الإسلامي ، وأباحت لغير آباء هؤلاء التلامذة أن يسكتوا وأن لا ينكروا عليهم عملهم ، ما دامت العقيدة سالمة من الهدم أو الضعضعة .

جودة تلامذة المدارس الأجنبية :

هؤلاء التلامذة إن كانوا في مدارس أجنبية لا أثر لتعليم الدين الإسلامي فيها ، بل ربما يعلم فيها دين آخر ، فقد يسري إلى عقائدهم شيء من الضعف ، وقد تذهب عقائدهم بالمرة ، وتحتل مكانها عقائد أخرى تناقضها كما شوهد ذلك مراراً ، ولو كان آباؤهم على علم بطرق الاستدلال الإقناعية لعقائد دينهم لدعموا من عقائد ابنائهم ، وحفظوها من التزلزل أو الزوال ، وكيف يكون لأولئك الآباء شيء من هذا العلم مع الجمود على طرق قديمة لا يصل إلى فهمها من ينقطع لتعلمها ، فضلاً عن أولئك المساكين . بل لو كان هناك مرشدون على طريقة يسهل فهمها لتيسر لهؤلاء التلامذة أن يهتدوا بهديهم ، ولكن الجمود صير كل شيء صعباً ، وكل أمر غير مستطاع .

فهذه جناية من جنايات الجمود على أبناء المسلمين الذين يتعلمون في مدارس أجنبية ، يخرجهم من دينهم من حيث لا يشعرون . ويا ليتهم يستبدلون بالدين رادعاً آخر من الأدب والحكمة كما يرجو بعض المغرورين الذين لا يعلمون طبائع هذه الأمم ، أو كما يروجه بعض من لا يريد الخير بها ولكنه ترك أفئدتهم هواء خالية من كل زاجر أو دافع ، اللهم إلا زاجراً عن خير أو دافعاً إلى شر ، فاتخذوا إلههم هواهم وإمامهم

شهوتهم فهلكوا واهلكـوا ومن هؤلاء ورثة الأغنيـاء الذين تصيـح من شرور أعمالهم الجرائد كل يوم ، فالجهل خير مما يتعلم هؤلاء بدون ريبة ، وليت الإسلام لم يرحب صدره لمثل هذا الضار من التعليم والتعلم .

* * *

جمود تلاميذ المدارس الرسمية والأهلية

أما المتعلمون في مـدارس رسمية أو غـير رسمية للتعليم الـديني فيها شيء من البقية ، فهؤلاء ينشأون على شيء من المعارف في الفنون المختلفة ، وتقرر لهم حقائق في الكون السماوي أو الأرضي ، أو في الاجتماع الإنساني ، ومن عرف شيئاً انطلق لسانه بالخوض فيه ، وقد يسمعه متنطع ممن يلبس لباس أهل الدين ، وهو جامد على ألفاظ سمعهـا فلو سمع غـيرها أنكـره وظنه مخـالفاً للعقيـدة الصحيحة ، فـأخذ يلوم المتعلم ويوبخه ويرميه بالمروق من الدين ، هذا والمتعلم لا يشك في قوة دليله ، ولجهله بالدين يعتقد أن ما يقوله خصمه منه ، فينفر من دينه نفرته من الجهل ، ولو قال له قائل : ارجع إلى كتب الدين تجد فيها ما يسرك وينصرك على نفسك وعلى خصمك ، حار لا يدري إلى أي كتاب يرجع ؟ ولم يسهل عليه فهم تلك العبارات التي ورثها القوم ، على ما فيها من تشتيت وتعقيد ، وأبقوها كما ورثوها ، فيعود إلى النفور من الدين نفور طالب الفهم مما لا يمكنه فهمه .

لهذا يعتقد أكثر هؤلاء أن الدين شيء غير مفهوم ، بل قد يعده بعضهم خرافة ـ «نعوذ بالله» ـ فيأخذون عنـه جانبـاً ، ويتركون عقائده وفضائله وآدابه ، ويلتمسون لهم آداباً في غيره ، وقلما يجدونها ، فتراهم وقد فترت قلوبهم وقصرت هممهم ، فـلا يطلبون إلا ما تطلبه العامة من كسب معيشة أو علو جاه ، ويسلكون إلى ذلك أي طريق ولو أضروا بالعامة أو الخاصة «ما دام الشرف محفوظاً» فإذا وجد بينهم من يدعي الوطنية أو الغيرة الملية أو نحو ذلك ، فإنما ينشر الألفاظ نشراً لا يرجع فيها إلى أصل ثابت ، ولا إلى علم صحيح ، ولهذا يطلب المصلحة لبلاده من الوجه الذي يؤدي إلى المفسدة ، وهو يشعر ـ أو لا يشعر ـ على حسب حاله . ومنهم من يصيح باسم الدين ولا تتحرك نفسه لمعرفة حكم من احكامه ، أو درس عقيدة من عقائده . فشأنهم كلام في كلام ، ولبئس ما يصنعون ، ولولا هذا الجمود لوجدوا في كتب دينهم وفي أقوال حملته ما تبتهـج به

قلوبهم ، وتطمئن إليه نفوسهم ، ولذاقوا طعم العلم مأدوماً بالدين وتمكنوا من نفع انفسهم وقومهم ولوجدت منهم طبقة معروفة يرجع إليها في سير الأمة وسياسة أفكارها وأعمالها الاجتماعية .

* * *

الجمود علة تزول

تفصيل مضرات هذا الجمود وسيئاته يحتاج إلى كتاب طويل فنكتفي بما أوجزناه في الصفحات السابقة . ولكن يبقى الكلام في انه عارض يمكن زواله إن شاء اللّٰه تعالى .

قد عرفت من طبيعة الدين الإسلامي ـ بعد عرضها عليك فيما سبق ـ أنها تسمو عن أن ينسب إليها هذا المرض الخبيث ـ مرض الجمود على الموجود ـ وكم في الكتاب من آية تنفر من اتباع الآباء مهما عظم أمرهم ، وتدعو إلى استعمال العقل فيما كانوا عليه ، لا حاجة إلى إعادة ذلك .

ثم إننا أشرنا أيضاً إلى بعض الأسباب التي جلبت هذا الجمود على المسلمين لا على الإسلام ، وان محدثها إما عدو للمسلمين طالب لخفض شأنهم أو لاستعبادهم واستغلال أيديهم لخاصة نفسه ، وإما محب جاهل يظن خيراً ويعمل شراً ، وهذا الثاني كان أشد نكاية وأعون على الغواية ، وهل تزول هذه العلة ويرجع الإسلام إلى سعته الأولى وكرمه الفياض ؟ وينهض بأهله إلى ما ذخر لهم فيه ؟؟

جاء في الكتاب المبين ﴿**إنَّا نَحنُ نَزَّلْنَا الذِّكرَ وإنَّا لَهُ لَحَافِظُونْ**﴾[1] . ذلك الذكر هو الذكر الحكيم ، هو القرآن الذي ﴿**أُحكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلتْ من لَدُن حَكِيم خبير**﴾[2] كما قال ﴿**كِتابٌ فُصِّلت آياته قُرْآناً عَربياً لِقَوْمٍ يعْلمُون**﴾[3] ، وعد اللّٰه بحفظ هذا الكتاب ، وقد انجز وعده ، لم تطل إليه يد عدو مقاتل ولا يد محب جاهل فبقي كما نزل ، ولا يضره عمل الفريقين في تفسيره وتأويله ، فذلك ، مما لا يلتصق به ، فهو لا يزال بين دفات المصاحف طاهراً نقياً ، بريئاً من الاختلاف والاضطراب ، وهو إمام المتقين ،

---

(١) الحجر : ؛ ٩ .

(٢) هود : ١ .

(٣) فصلت : ٣ .

ومستودع الدين ، وإليه المرجع إذا اشتد الأمـر ، وعظم الخـطب وسئمت النفوس من التخبط في الضلالات . ولا يزال لأشعة نوره نفوذ من تلك الحجب التي أقاموها دونه . ولا بد أن تتمزق كلها بأيدي أنصاره فيبتلج ضياؤه لأعين أوليائه . إن شاء اللّٰه تعالى .

هذا الضياء كان ولا يزال يلوح لامعه في حنادس الظلم لأفراد اختصهم اللّٰه بسلامة البصيرة ، فيهتدون به إليه ، ويحمدون سراهم بما عرفوا من نجاح مسعاهم ، ولكن الذين اطبقت عليهم ظلم البدع ، وران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب للشيع ، وطمست بصائرهم ، وفسدت عقولهم بما حشوها من الأباطيل ، وبما عطلوها عن النظر في الدليل ، هؤلاء في عمى عن نوره ، وقلوبهم في أكنة أن يفقهوه وفي إذانهم وقر ، يصيحون بأنهم عمي صم ، فلا يرون له سناء ، ولا يسمعون له نداء ، ويعدون ذلك من كمال الايمان به . ولبئس ما رضوا لأنفسهم من السفه وطول الحلم وهم يعلمون .

هذا حال الجمهور الأعظم ممن يوصفون بـأنهم مسلمون ، ويجلبـون العار عـلى الإسلام بدخولهم تحت عنوانه ، ويقوون حجج أعدائه في حربه بزعمهم الاجتماع تحت لوائه ، وما هم منه في شيء ، كما قدمنا .

هؤلاء لا بد أن يصيبهم ما أصاب الأمم . فقد اتبعوا سننهم شبراً بشبر ذراعاً بذراع ، وضيقوا على أنفسهم بدخولهم في جحر الضب الذي دخلوه ، ومن اتبع سنن قوم استحق الوقوع تحت أحكام سنن اللّٰه فيهم ، ولن يخلص مما قضى اللّٰه في عذابهم . فقد قص عليهم سير الأولين ، وبين لهم ما أنزل بهم عندما انحرفوا عن سننه ، وحادوا عن شرعه ، ونبذوا كتابه وراءهم ظهرياً . . أحل بهم الذل ،وضرب عليهم المسكنة ، وأورث غيرهم أرضهم وديارهم . فهل ينتظر المتبعون سننهم ، السائرون على أثرهم ، أن يصنع اللّٰه بهم غير الذي صنع بسابقيهم ؟! وقد قضى بأن تلك سنته ولن تجد لسنته تبديلاً ؟!

لا تزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين إلى الإسلام ، ولا تزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا ، وقد بدأوا يفيقون من سكرتهم ، ويفزعون إلى طلب النجاة ، ويغسلون قذى المحدثات عن بصائرهم ، وعند ذلك يجدون هذا الكتاب الكريم في انتظارهم يعد لهم وسائل الخلاص ، ويؤيدهم في سبيله بـروح القدس ، ويسـير بهم إلى منابـع العلم ، فيغترفون منها ما يشاءون ، فيعرفون أنفسهم ، ويشهدون ما كان قد كمن فيها من قوة ، فيأخذ بعضهم بيد بعض ، ويسيرون إلى المجد غير ناكلين ولا مخذولين .

ولهذا أقول : إن الاسلام لن يقف عثرة في سبيل المدنية أبداً ، لكنه سيهذبها وينقيها من أوضارها ، وستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهله . وهذا الجمود سيزول ، وأقوى دليل على زواله ، بقاء الكتاب شاهداً عليه بسوء حاله ، ولطف اللّٰه بتقييض أناس للكتاب ينصرونه ويدعون إليه ويؤيدونه ، والحوادث تساعدهم ، وسوط عذاب اللّٰه النازل بالجامدين ينصرهم .

هذا الكتاب المجيد الذي كان يتبعه العلم حيثما سار شرقاً وغرباً لا بد أن يعود نوره إلى الظهور ويمزق حجب الضلالات ، ويرجع إلى موطنه الأول في قلوب المسلمين ، ويأوي إليها . العلم يتبعه وهو خليله الذي لا يأنس إلا إليه ، ولا يعتمد إلا عليه .

يقول أولئك الجامدون الخامدون ـ كما يقول بعض أعداء القرآن : إن الزمان قد أقبل على آخره ، وإن الساعة أوشكت أن تقوم ، وان ما وقع فيه الناس من الفساد ، وما مني به الدين من الكساد ، وما عرض له من العلل ، وما نراه من الخلل ، إنما هو أعراض الشيخوخة والهرم ، فلا فائدة في السعي ولا ثمرة للعمل فلا حركة إلا إلى العدم ، ولا يصح أن يمتد بصرنا إلا إلى العدم ، ولا أن ننتظر من غاية لأعمالنا سوى العدم ـ (نعوذ باللّٰه) ـ .

هؤلاء حفده الجهل ، وأعوان اليأس يهرفون بما لا يعرفون ، ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا أنه كاد ينقطع عند نهايته ؟ إن الذي مضى بيننا وبين مبدأ الإسلام ـ (أي الهجرة) ـ ألف وثلاثمائة وعشرون عاماً ، وإنما هي يوم أو بعض يوم فقط من أيام اللّٰه تعالى . وإن آيات اللّٰه في الكون ـ وإن كانت تدل على أن ما مضى على الخليقة يقدر بالدهور الدهارير ـ تشهد بأن ما بقي لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره كل تقدير ﴿**فَما لِهَؤلاء القَوْم لا يَكَادُون يَفْقَهون حَدِيثاً ؟**﴾[١] .

إن ما بيننا وبين مبدأ الإسلام لا يزيد عن عمر ستة وعشرين رجلاً كل رجل يعيش خمسين سنة ، فهل يعد مثل ذلك دهراً طويلاً بالنسبة إلى دين عام كدين الإسلام ؟ إن زمناً كهذا لا يكفي ـ وقد تبين أنه لم يكف ـ لإهداء الناس كافة بهديه ، ولم تقومُ القيامة على الدين ولم تقم على شرهم وطمعهم .

---

(١) النساء : ٧٨ .

وقد وعد اللّٰه بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله ، فسار في سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعواماً ، ثم انحرف به أهله عن سبيله وساروا به إلى ما يرون ونرى . ولن ينقضي العالم حتى يتم ذلك الوعد ، ويأخذ الدين بيد العلم ، ويتعاونا معاً على تقويم العقل والوجدان ، فيدرك العقل مبلغ قوته ويعرف حدود سلطته، فيتصرف فيما أتاه اللّٰه تصرف الراشدين، ويكشف ما مكنه فيه من أسرار العالمين ، حتى إذا غشيته سبحات الجلال وقف خاشعاً ، وقفل راجعاً ، وأخذ أخذ الراسخين في العلم ، الذين قال فيهم أمير المؤمنين **علي بن أبي طالب** ، كرم اللّٰه وجهه ، فيما روي عنه : «هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيب ، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسير من الغيب المحجوب، فمدح اللّٰه اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً . وسمي تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً» واعتبر بعد ذلك بقوله «فاقتصر على ذلك ، ولا تقدر عظمة اللّٰه سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين . هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته ، وحاول الفكر المبرأ عن خطرات الوسواس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته . وتولهت القلوب إليه لتجري في كيفية صفاته وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ، ردعها وهي تجوب مهاوي سدف الغيوب ، متخلصة إليه سبحانه فرجعت إذ جبهت معترفة بأن لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته ، ولا تخطر ببال أولى الرّويّات خاطرة من تقدير جلال عزته» .

هنالك يلتقي ـ (أي العقل) ـ مع الوجدان الصادق ـ (القلب) ـ ولم يكن الوجدان ليدابر العقل في سيره داخل حدود مملكته متى كان الوجدان سليماً ، وكان ما استضاء به من نبراس الدين صحيحاً ـ إياك أن تعتقد ما يعتقده بعض السذج من أن فرقاً بين العقل والوجدان ـ (القلب) ـ في الوجهة ، بمقتضى الفطرة والغريزة ، فإنما يقع التخالف بينهما عرضاً عند عروض العلل والأمراض الروحية على النفوس ، وقد أجمع العقلاء على أن المشاهدات بالحس الباطني ـ (الوجدان أو القلب) ـ من مبادىء البرهان العقلي ، كوجدانك انك موجود ، ووجدانك لسرورك وحزنك وغضبك ولذتك وألمك ، ونحو ذلك .

منحنا العقل للنظر في الغايات والأسباب والمسببات ، والفرق بين البسائط والمركبات ـ والوجدان لإدراك ما يحدث في النفس والذات من لذائذ وآلام ، وهلع

واطمئنان ، وشماس[1] وإذعان ونحو ذلك مما يذوقه الإنسان ، ولا يحصيه البيان ، فهما عينان للنفس تنظر بهما . عين تقع على القريب ، وأخرى تمتد إلى البعيد. وهي في حاجة إلى كل منهما ولا تنتفع بإحداهما حتى يتم لها الانتفاع بالأخرى؛ ، فالعلم الصحيح مقوم الوجدان. والوجدان السليم من أشد أعوان العلم، والدين الكامل علم وذوق، عقل وقلب ، برهان وإذعان ، فكر ووجدان . فإذا اقتصر دين على أحد الأمرين فقد سقطت إحدى قائمتيه ، وهيهات أن يقوم على الأخرى . ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الإنسان الواحد إنسانين والوجود الفرد وجودين .

قد يدرك عقلك الضرر في عمل ولكنك تعمله طوعاً لوجدانك ، وربما ايقنت المنفعة في أمر وأعرضت عنه إجابة لدافع من سريرتك ، فتقول : إن هذا يـدل على تخالف العقل والوجدان . ولكني أقول : إن هذه حجة من لا يعرف نفسه ولا غيره . عليك أن ترجع إلى نفسك فتتحقق من أحد الأمرين ـ إما أن يقينك ليس بيقين ، وإنه صورة عرضت عليك من قول غيرك ، فأنت تظنها علماً وما هي به ، وإما إن وجدانك وهم تمكن فيك ، وعادة رسخت في مكان القوة منك ، وليس بالوجدان الصحيح ، وإنما هو عادة ورثتها عمن حولك وظننتها شعوراً منبعه الغريزة وما هي منه في شيء .

لا بد أن ينتهي أمر العـالم إلى تآخي العلم والـدين على سنـة القرآن والـذكر الحكيم . ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذي صح معناه «تفكروا في خلق اللّه ، ولا تفكروا في ذات اللّه» وعند ذلك يكون اللّه قد اتم نوره ولو كره الكافرون ، وتبعهم الجامدون القانطون ، وليس بينك وبين ما اعدك به إلا الزمان الذي لا بد منه في تنبيه الغافل ، وتعليم الجاهل ، وتوضيح المنهج ، وتقويم الأعوج ، وهو ما تقتضيه السنة الإلهية في التدريج **﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِين خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَـنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾**[2] **﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَراهُ قريباً﴾**[3] **﴿إِنْ تَنصُرُوا اللَّه ينصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾**[4] وهو خير الناصرين .

* * *

(١) امتناع واباء :
(٢) الأحزاب : ٦٢ .
(٣) المعارج : ٧ .
(٤) محمد : ٧ .

حرية العلم في أوروبا الآن

ونسبتها إلى الماضي والحاضر في الإسلام

لم يبق علينا من الكلام إلا ما يتعلق بالأمر الرابع مما ذكرته الجامعة وهو «أن تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحي في أوروبا ، وعدم تمكنها من التغلب على الاضطهاد الإسلامي دليل واقعي على ان النصرانية كانت أكثر تسامحاً مع الفلسفة» .

ليس من السهل عليّ أن اعتقد ان أديباً كصاحب «الجامعة» يقول هذا القول ـ وهو ناظر إلى الحقيقة بكلتا عينيه مع معرفته بلسان الغربيين وإطلاعه على ما كتبوا في هذه المسألة وهي من أهم المسائل التاريخية ـ وإنما هي عين الرضى تناولت من حاضر الحال ، ومما انتهى إليه سير التاريخ ما تناولت ثم أملت على قلبه ما جرى به قلمه .

هل يصح أن تسمى الاستكانة للغالب تسامحاً ؟ وهل يسمى العجز مع التطلع للنزاع عند القدرة حلماً ؟ أم يسمى غل الأيدي عن الشر بوسائل القهر كرماً ؟ هل تعد مساكنة جناب البابا لملك إيطاليا في مدينة واحدة واجتماع الكرسيين العظيمين : كرسي المملكة الإيطالية وكرسي المملكة البابوية في عاصمة واحدة تسامحاً من قداسة البابا مع الملك ؟ أليس الأجدر بالمنصف أن يسمى ذلك تسامحاً من الملك مع البابا لأنه صاحب القوة والجيش والسلطنة ، ويمكنه أن يسلب البابا تلك الثمالة التي بقيت له من السلطة الملكية ؟ كما أن الأليق به أن يسمي تلك الحالة التي عليها أهل أوروبا اليوم من طمأنينة العلم بينهم بجانب الدين ـ تساهلاً من العلم مع الدين لا تسامحاً من الدين مع العلم ،

بعد ما كان بينهما وبعد غلبة العلم واستيلائه على عرش السلطان في جميع الممالك ورضاء الدين بأن يكون تابعاً له في أغلبها ؟!.

* * *

اقتباس مدنية أوروبا من الإسلام وأسباب ظهورها العام

السبب الأول : الجمعيات :

كان جلاد بين العلم والدين في أوروبا وتألفت لنصرة العلم جمعيات وأحزاب منها ما اتخذ السر حجاباً له حتى يقوى ، ومنها ما ابتدأ بالمجاهرة ، وكان الدين يظفر بالعلم كما سبق بيانه لكثرة أعوانه وضعف أعوان العلم ، حتى اشرقت الآداب المحمدية على تلك البلاد من سماء **الأندلس** ، وتبع إشراق تلك الآداب واشتغال الناس بها سطوع نور العلم العربي من الجانب الشرقي كما ذكرنا . وقد وجد هذان النوران استعداداً كمن بالنفوس للاستضاءة بهما في السبيل التي تؤدي بهما إلى المدنية التي كانا يحملانها . هذا الاستعداد كسبته الأنفس بما ضايقها من غلو رؤساء الدين في استعمال سلطانهم ، واشتدادهم في استعباد العقل والوجدان حتى ضاق ذرع الفطرة عن الاحتمال ، فأخذ الشعور الإنساني يتلمس السبيل إلى الخلاص ، وإذ لاح له هذان النوران اتخذهما له هداية ، واستقبلهما بوجهه ، وكان بعد ذلك ما كان من تأثر[1] الدين لأهل العلم وإحراقهم بالنيران ، ونفيهم من الأوطان ، ومقاومة رؤساء الدين للحكومات ولأهل الأفكار المستقلة في أدنى الأشياء وأعلاها حتى إنه عندما شرع ملوك **فرنسا** في فرش شوارع **باريس** بالبلاط على الأسلوب الذي وجدوه في مدينة **قرطبة** ، وصدر الأمر بمنع تربية الخنازير في تلك الشوارع ، أغضب ذلك قسوس القديس انطوان ونادوا بأن خنازير القديس لا بد أن تمر في الشوارع على حريتها الأولى ، وحصل لذلك شغب عظيم اضطر الحكومة أن تسمح بذلك مع صدور الأمر بأن توضع في أعناقهم أجراس . وقالوا ان الملك فيليب السمين مات بسقطة عن فرسه عندما انزعج الفرس من منظر خنزير وصلصلة الجرس في عنقه ؟!

---

(١) أي تعقبهم .

لقائل أن يقول : إن القسوس في ذلك الزمان كان يمكنهم أن يمتنعوا من وضع الأجراس في أعناق الخنازير فرضاهم بذلك يعد تسامحاً عظيماً مع العلم (أو الصناعة) .

ويسهل علي أن أوافقه على أن مثل هذا الضرب من التسامح في أجراس الخنازير كان يظهر من حين إلى حين ، إلا أنه فيما أظن لا يكفي في تشييد هذه المدنية التي يفتخر بها الأوروبيون اليوم ، ونحن لا نبخسها قدرها كذلك !!

السبب الثاني : الضغط الديني

شدة الحاجة وغلو الرؤساء كانا يوقدان الغيرة في قلوب طلاب العلم فلم تفتر لهم همة ، فعظم أمرهم واكتشفوا كثيراً من الحقائق التي نفعت العامة ونبهت العقول للأخذ بما يهتدون إليه ، وصارت الحرب بينهم وبين رؤساء الدين سجالاً ، إلى أن ظهر دعاة الإصلاح الديني (البروتستانت) فانضم دعاة العلم إليهم ظناً منهم أن سيكونون معهم من المجاهدين في سبيل العلم وكان منهم «ايراسم» الشهير ، فلما انتصر طلاب الإصلاح ودالت لهم دولة استمروا يعاقبون بالموت على الأفكار التي تخالف ظاهر ما يعتقدون كما تقدم ، فانفصل «ايراسم» ومن معه من حماة الحرية واستقلال الإرادة الشخصية ، وترك المصلحين يتفرقون شيعاً ويقتل بعضهم بعضاً ، وقال : ما كنت أظن أن دعاة الاصلاح يكونون كذلك أعداء العلم .

هذه الطوائف التي تفرقت عقائدها في الاصلاح لم تنتظر إلا أن تأمن عدوها العام وهو الكنيسة **الكاثوليكية** الرومانية ، فلما أمنتها أخذ بعضها يصول على بعض ، واشتعلت نيران الحروب بينهم . قال أحد أفاضل مؤرخيهم «وكلما ارتفعت طائفة منهم إلى عرض القوة لوثت يديها بالجرائم في العمل لافناء البقية الباقية ، حتى سئمت النفوس دوام تلك الحال ووجدت من توالي حوادث الانتقام وظهور مضارها في كل طائفة أن الأفضل لكل طائفة أن تمنح الأخرى من الحرية ما لا تستغني عنه واحدة منها ، والعلم كان يعمل عمله في كشف الحقائق وترقية الآداب ، وكان من أقوى المنبهات إلى مضار الحروب ، ومفاسد العدوان على حرية الأشخاص ، من أي طائفة كانت . من هذا نشأ ذلك الأصل العظيم : أصل التسامح والرضى بمجاورة المخالف في الرأي : نشأ من القهر والقسوة التي كانت كل طائفة تعامل بها الأخرى» انتهى كلام المؤرخ بالمعنى .

السبب الثالث : الثورة :

ولا حاجة بي إلى ذكر ما جاءت به الثورة الفرنسية . وكيف كانت قيامتها على الدين ورؤسائه مما هو معلوم ، وإنما أنبه القارىء إلى الاعتبار بما تقدم من القول ، وبما يمكنه أن يقف عليه في كتب القوم . ليعلم أن الدين المسيحي في أوروبا لم يحتمل العلم فضلاً وكرماً وإنما قويت عليه أحزاب العلم فساموه استكانة وخضوعاً ، ولو شاء أن لا يحتمل لم يستطع إلى ذلك سبيلاً .

السبب الرابع : ترك المسيحية :

رؤساء الدين المسيحي رجال ذوو عزيمة وإقدام وغيرة على دينهم ، قلما يدانيهم فيها رؤساء دين من الأديان ، وهم مع غلوهم في الدين واشتدادهم في استعمال سلطانهم على النفوس ، كانوا ـ ولا يزالون ـ يتخذون كل وسيلة لتأييد دينهم ، وهم أشد الناس حرصاً على تقويم أركانه ودفع الشبه عنه ، ولم يزدهم العلم الجديد إلا وسائل وسبلاً لترويج عقائده وآدابه ، ولم تفتر لهم همة في نشره وتزيينه للقلوب ، ومع ذلك كله نرى أن رجال العلم وحماة المدنية يتسللون منه ، والعامة من الشعوب في تخاذل عنه ، والأمة الفرنسية ـ التي كانت تدعى بنت الكنيسة ـ أصبحت من أشد الناس عليه ، ورأت فلسفتها أن تحدد حرية أهل الدين في تعاليمهم واجتماعهم : ومدارس اللاهوت لا تزال عامرة وطلاب اللاهوت يعدون بالألوف كل ذلك وكثير من الدول ترى من مزاياها حماية الدين المسيحي في أقطار الأرض .

قال أحد رؤساء البروتستانت ـ في خطبة من خطبة التي ألقاها في بعض البلاد الفرنسية سنة ١٩٠١ بعد كلام له في ان المسيحية، رومانية أو بروتستانتية، فقدت خاصتها الدينية كما فقدت فائدتها الاجتماعية ما نصه مترجماً : إذا كان الدين المسيحي ليس شيئاً سوى الكثلكة المحتاجة إلى الإصلاح (المذهب الروماني) أو الكثلكلة التي دخلها الإصلاح بالفعل (المذهب البروتستنتي) فالقرن الموفي للعشرين (القرن الحاضر) لا يكون مسيحياً أبداً .

وقد جاء في كلام هذا الخطيب ما يصرح بأنه يريد أن يطلب للمسيحية معنى آخر ينطبق كل الانطباق على اعتقاد المسلمين فيها ، فإن وفق للنجاح في سعيه زال الخلاف ـ إن شاء الله ـ بين الدين والعلم ، بل بين المسيحية والإسلام .

عودة إلى ساحة الإسلام

آخذ بيد القارىء الآن ، وأرجع به إلى ما مضى من الزمان ، وأقف به وقفة بين يدي خلفاء بني أمية والأئمة من بني العباس ووزرائهم ، والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والأئمة المجتهدون من حولهم ، والأدباء والمؤرخون والأطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون وسائر أهل النظر من كل قبيل مطيفون بهم ، وكل مقبل على عملة ، فإذا فرغ عامل من العمل أقبل على أخيه ووضع يده في يده ، يصافح الفقيه المتكلم والمحدث الطبيب والمجتهد الرياضي والحكيم ، وكل يرى في صاحبه عوناً على ما يشتغل هو به . . وهكذا أدخل به بيتاً من بيوت العلم فأجد جميع هؤلاء سواء في ذلك البيت يتحادثون ويتبحاثون ، والإمام **البخاري** حافظ السنّة بين يدي **عمران بن حطان الخارجي** يأخذ عنه الحديث ، **وعمرو بن عبيد** رئيس **المعتزلة** بين يدي **الحسن البصري** شيخ السنّة من التابعين يتلقى عنه ، وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل « لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدَّبته ، وكأن الأنبياء ربته ، إن قام بأمر يقعد به ، وان قعد بأمر قام به ، وان أمر بشيء كان ألزم الناس له ، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن منه ، ولا باطناً أشبه بظاهر منه » .

بل أرفع بصري فأجد الإمام **أبا حنيفة** أمَام الإمام **زيد بن علي** (صاحب مذهب **الزيدية من الشيعة**) يتعلم منه أصول العقائد والفقه ، ولا يجد أحدهم من الآخر إلا ما يجد صاحب الرأي في حادثة ممن ينازعه فيه اجتهاداً في بيان المصلحة ، وهما من أهل بيت واحد . . أمُرُّ به بين تلك الصفوف التي كانت تختلف وجهتها في المطلب وغايتها واحدة وهي العلم ، وعقيدة كل واحد منهم أن فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة كما ورد في بعض الأحاديث .

الخلفاء أئمة في الدين مجتهدون ، وبأيديهم القوة ، وتحت أمرهم الجيش ، والفقهاء والمحدثون والمتكلمون ، والأئمة المجتهدون الآخرون هم قادة أهل الدين ومن جند الخلفاء ، الدين في قوته والعقيدة في أوج سلطانها ، وسائر العلماء ممن ذكرنا بعدهم يتمتعون في اكنافهم بالخير والسعادة ورفه العيش وحرية الفكر ، لا فرق في ذلك بين من كان من دينهم ومن كان من دين آخر ، فهنالك يشير القارىء المنصف إلى أولئك المسلمين ، وأنصار ذلك الدين ، ويقول : هنا يطلق اسم

التسامح مع العلم في حقيقته ، ههنا يوصف الدين بالكرم والحلم ، ههنا يعرف كيف يتفق الدين مع المدنية ، عن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخذ فنون الحرية في النظر ، ومنهم تهبط روح المسالمة بين العقل والوجدان (أو بين العقل والقلب كما يقولون) .

يرى القارىء انه لم يكن جلاد بين العلم والدين . وإنما كان بين أهل العلم وبين أهل الدين شيء من التخالف في الآراء ، شأن الأحرار في الأفكار الذين أُطْلِقوا من غل التقييد وعوفوا من علة التقليد ، ولم يكن يجري فيما بينهم اللمز والتنابز بالألقاب ، فلا يقول احد منهم لآخر : إنه زنديق أو كافر أو مبتدع أو ما يشابه ذلك ، ولا تتناول أحداً منهم يدٌ بأذى إلا إذا خرج عن نظام الجماعة ، وطلب الإخلال بأمن العامة ، فكان كالعضو المجذوم ، فيقطع ليذهب ضرره عن البدن كله .

ملازمة العلم للدين
وعدوى التعصب في المسلمين

متى ولع المسلمون بالتكفير والتفسيق ، ورمي زيد بانه مبتدع وعمرو بانه زنديق ؟؟

أشرنا فيما سبق إلى مبدأ هذا المرض ، ونقول الآن : إن ذلك بدأ فيهم عندما بدأ الضعف في الدين يظهر بينهم ، وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله ـ تلك الفتن التي كان يثيرها أعداء الدين في الشرق وفي الغرب لخفض سلطانه وتوهين أركانه ـ وتصدر للقول في الدين برأيه مـن لم تمتزج روحه بروح الدين ، وأخذ المسلمون يظنون إن من البدع في الدين ما يحسن إحداثه لتعظيم شأنه ، تقليداً لمن كان بين أيديهم من الأمم المسيحية وغيرها . وانشأوا ينسون ماضي الدين ومقالات سلفهم فيه ، ويكتفون برأي من يرونه من المتصدرين المتعالمين ، وتولى شؤون المسلمين جهالهم ، وقام بإرشادهم في الأغلب ضلالهم ، في أثناء ذلك حدث الغلو في الدين، واستعرت نيران العداوات بين النظار فيه ، وسهل على كلٍ منهم ، لجهله بدينه ، أن يرمي الآخر بالمروق منه لأدنى سبب ، وكلما إزدادوا جهلاً بدينهم إزدادوا غلواً فيه بالباطل ، ودخل العلم والفكر والنظر ـ (وهي لوزام الدين الإسلامي) ـ في جملة ما كرهوه ، وانقلب عندهم ما كان واجباً من الدين محظوراً فيه .

لا أكاد أُخَطىءُ القارىء إذا زعم إن المسلم إنما استفاد اسم زندقة ، وتزندق

ومتزندق وزنديق من فضل ما علمه جيرانه ، إذ كانوا يقولون : هرتقة وتهرتق وهو هرتوقي أو ما يماثل ذلك ، أو زعم أن قد فشت في المسلمين سرعة التكفير بطريق العدوى من أهل الملل المتشددة ، وأن الذي سهل سريان العدوى بتلك السرعة الشديدة هو ضعف المزاج الديني عند المسلمين بجهلهم بأصوله ومقوماته ، ومتى ضعف المزاج استعد لقبول المرض كما هو معلوم .

إن المسلمين لما كانوا علماء في دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم . أصيبوا بمرض الجهل بدينهم فانهزموا من الوجود ، وأصبحوا أكلة الآكل وطعمة الطاعم ، هل وقف الجهل بالمسلمين عند تكفير من يخالفهم في مسائل الدين ، أو يذهب مذهب الفلاسفة أو ما يقرب من ذلك ؟ لا ، بل عدا بهم الجهل على أئمة الدين ، وخدمة السنة والكتاب ، فقد حملت كتب الإمام **الغزالي** إلى **غرناطة** وبعد ما انتفع بها المسلمون أزماناً هاج الجهل بأهل تلك المدينة وانطلقت السنة المتعالمين من البربر بتفسيقه وتضليله ، فجمعت تلك الكتب خصوصاً نسخ «إحياء علوم الدين» ووضعت في الشارع العام في المدينة وأحرقت[1] . قال قوم يعدون أنفسهم مسلمين في **ابن تيمية** ـ وهو أعلم الناس بالسنة وأشدهم غيرة على الدين ـ إنه ضال مضل . وجاء على أثر هؤلاء مقلدون يملأون أفواههم بهذه الشتائم ، وعليهم إثمها وإثم من يقفوهم بها إلى يوم القيامة .

إهمال آثار السلف
وحال علوم الدين وطلابها

أهمل المسلمون علوم دينهم والنظر في أقوال سلفهم ، حتى انك لا تجد اليوم في أيديهم كتاباً من كتب **أبي الحسن الأشعري** ولا **أبي منصور الماتريدي** ، ولا تكاد ترى مؤلفاً من مؤلفات **أبي بكر الباقلاني** أو **أبي إسحاق الاسفراييني** ، وإذا بحثت عن كتب هؤلاء الأئمة في مكاتب المسلمين أعياك البحث ولا تكاد تجد نسخة صحيحة من كتاب .

كتب على القرآن تفاسير كثيرة في القرن الثالث من الهجرة وما بعده إلى السادس ،

---

(١) كان ذلك في عصر المرابطين (١٠٩٠ ـ ١١٤٧ م) عندما ساد فكر الفقهاء .

منها تفسير **الطبري** وتفسير **أبي مسلم الأصفهاني** وتفسير **القرطبي** وتفسير **الجصاص** وتفسير **الغزالي** وتفسير **أبي بكر ابن العربي** وكثير غيرها ، وفيها من آراء أولئك الأئمة ووجوه استنباط الحِكَم والأحكام ما لا غنى لطالب علم الدين عنه ، فهل يجد الباحث المجد نسخة من هذه الكتب الجليلة يمكن الوثوق بصحتها إلا بطريق المصادفة وحسن الاتفاق ؟ وهل يليق بأمة تدعي أنها على دين ، وان لها فيه سلفاً ، أن تهجر آثار سلفها وتدع ما كتبوا طعمة للعث وفراشاً للتراب ؟ هل وقع مثل ذلك من المشتغلين باللاهوت المسيحي في زمن من الأزمان .

إن حالة طلبة العلوم الدينية الإسلامية أصبحت مما يرثى له في أكثر بلاد المسلمين ، فهم لا يقرأون من كتب الكلام إلا مختصرات مما كتب المتأخرون ، يتعلم أذكاهم منها ما تدل عليه عباراتها ، ولا يستطيع أن يتعلم البحث في أدلتها وتصحيح مقدماتها ، وتمييز صحيحها من باطلها ، وإنما يتلقاها كأنها كتاب اللّه أو كلام نبيه صلى اللّه عليه وآله وسلم يأخذ فيها بالتسليم . فإذا ناظره مناظر في بعض قضاياها وعجز عن تصحيحه قطع الجدال بقوله : هكذا قالوا . وإن لم يكن القول متفقاً عليه ، بل قد يكون القول مما لم يقل به سوى صاحب الكتاب الذي اشتغل به ، وربما كان صاحب الكتاب ممن لو رآه احد من السلف لم يرضه تلميذاً يعي عنه ما يقول .

كاد ينقطع طلب العلوم الدينية في **سوريا والحجاز وتونس والجزائر** ، وقلّ جداً في المغرب الأقصى ، ولم يبق الاهتمام به إلا في بعض الصحارى ، وذلك إما لصعوبة طرق التعليم ، واقتضائها الزمن الطويل ـ وحاجات الناس مانعة لهم من إفناء أعمارهم في عمل لا يسد من حاجتهم ـ وإما لتفضيل الآباء تربية أبنائهم على الطرق الحديثة في أوروبا ، أو في المدارس الأخرى ، وليس فيها من الدين شيء ، وإن كان فيها شيء منه فهو مما لا يعد تعليماً دينياً ينظر إليه . . وإما للفتور والخمود الذي نشأ عن التقليد والجمود ، وبذلك تجد المسلمين قد تولاهم الجهل بدينهم ، وأخذتهم البدع من جميع جوانبهم وانقطعت الصلة الحقيقية بينهم وبين سلفهم ، حتى لو عرض على الجمهور الأعظم منهم ما اتفق عليه السلف من الأحكام لانكروه واستغربوه وعدوه بدعة في الدين . وصح فيهم ما قال **عمر الخيام** في بعض أشعاره الفارسية مخاطباً النبي عليه الصلاة والسلام «إن الذين جاءوا بعدك زينوا لك دينك ووشوه وزركشوه حتى لو رأيته أنت لأنكرته» .

فهذا الصنف من المسلمين ـ وهو معظمهم ـ قد أنكر دينه الحق وعاداه ، ونقم على أهله القائمين بخدمته ، وإنما اصطفى لاعتقاده بعض أفراد لم يعرف عن السلف اختصاصهم بالثقة ، ولم يسمح الدين باختصاصهم بالتقليد ، فإذا وقع من هذا الصنف ما فيه أذى للعلم وأهله ، فهل يعد ذلك واقعاً من دين الإسلام ـ دين محمد ﷺ ـ دين القرآن ـ دين السنة الثابتة ـ دين الخلفاء الراشدين ، ومن تبعهم من السلف الأولين ؟؟

متابعة العلم للإسلام ومباينته لسواه :

الحق أقول ـ والحس يؤيدني ـ : ما عادوا العلم ولا العلم عاداهم إلا من يوم إنحرافهم عن دينهم وأخذهم في الصد عن علمه ، فكلما بَعُد عنهم علم الدين بَعُد علم الدنيا وحرموا ثمار العقل . وكانوا كلما توسعوا في العلوم الدينية ، توسعوا في العلوم الكونية ، وضربوا الزمان بسوط من العزة ، وأما غيرهم فكلما اتصلوا بالدين وجَدُّوا في المحافظة عليه أنكرهم العلم وتجهمهم واكفهر وجهه للقائهم ،وكلما بعدوا من الدين سالمهم العلم وبش في وجوههم ، ولذلك يصرحون بأن العلم من ثمار العقل ، والعقل لا يصح أن يكون له في الدين عمل ، ولا أن يظهر منه فيه أثر ، والدين من وجدانات القلب ، ولا علاقة بين ما يجد القلب وما يكسب العقل . فالفصل تام بين العقل والدين ، ولا سبيل إلى الجمع بينهما : سامحهم اللّه فيما يسمونه تسامحاً مع العلم ، وهم يصرحون بأنه عدوه الذي يستحيل أن يكون بينه وبينه سلم .

هل عرفت السبب في إضطهاد المسلمين للعلم ؟ أقول «اضطهاد» ولا أريد به ما كان عند الأمم المسيحية من الاشتداد في إبادة أهله والتنكيل بهم واختراع ضروب التعذيب ، والتفنن في صنع آلات الهلاك ، مع الأخذ بالشبهة ، والاكتفاء في الإعدام بمجرد التهمة ، فإن ذلك لم يقع عند المسلمين لا أيام علمهم ، ولا في أزمنة جهلهم ، ولكن أريد من الاضطهاد الإعراض عن العلم ، ورمي الألفاظ السخيفة في وجوه أهله ، وقذفهم بشيء من الشتائم مع الابتعاد عنهم .

لا ريب أنك قد أيقنت بأن السبب في هذا الذي يسميه الأديب اضطهاداً ، إنما هو جهلهم بدينهم . فالدواء الذي ينجع في شفائهم من هذا الداء لا يكون إلا ردهم إلى العلم بدينهم والتبصر فيه للوقوف على أسراره والوصول إلى حقيقة ما يدعو إليه . كان

الدين واسطة التعارف بينهم وبين العلم ، فلما ذهبت الواسطة تناكرت النفوس وتبدل الأنسُ وحشة .

الدعاة في الإسلام :

فهل قام بينهم دعاة للعلم حقيقيون ، أو دعاة لأصل الدين عارفون ، ثم استعصت قلوب المسلمين عليهم ، وجمحت نفوسهم عن الأنقياد لهم ؟ وهل كثر أولئك الدعاة في أطراف بلاد المسلمين كثرتهم في أوروبا من أواسط القرن الرابع عشر من التاريخ المسيحي إلى أن ظهرت قوة العلم في أوائل القرن السابع عشر وفيما بعد ذلك ؟ لا ـ إنما رأينا من الصادقين أفراداً يظهرون متفرقين في عصور مختلفة ، ربما لا يجتمع أربعة منهم ـ فما يزيد ـ في قرن واحد ، ويأخذون في العمل لما وجهوا إليه ، ثم لا يكادون ينطقون ببعض الكلم ، فيحس الناس بهم ، فيأخذ المستعد أهبته لمفارقة ما كان عليه واتباعهم ، حتى تشعر السياسة ـ (نعوذ باللّه منها) ـ بما عسى أن يكون من أمرهم ، فتخمد أنفاسهم قبل أن يبلغوا من قلب أحد ما أرادوا من غرس أفكارهم ، فينطفىء النور ، ويدلهم الديجور .

فهل يعد الأديب هذه الضربات من أيدي أرباب السياسية اضطهاداً للعلم لأجل حماية الدين ؟ أنزه كل أديب عن أن يظن ذلك ، وإنما هي صدمات تقع على الدين لا تختلف عن امثالها مما يصيبه منهم مباشرة ، فلا تعد حجة على الدين في نظر المنصف .

المقلِّد دون المقلَّد :

ربما يقول القائل : إن كان المسلمون قد أخذوا الجمود في التقليد والنفرة من العلم والاعتقاد بالعداوة بين الدنيا والآخرة وبين العقل والدين وما أشبه ذلك مما هم فيه ، ورثوه عن الأمم السابقة عليهم خصوصاً أقرب الملل إليهم ، فما بالهم لم يقلدوا المسيحيين في الحرص على نشر دينهم والتوسع في علومه مذيلاً بما أخذوه عنهم ، ولم يقسموا أنفسهم قسمين كما قسم المسيحيون إخوانهم قسمين : قسماً ينقطع إلى الآخرة في الأديار والصوامع ، وقسماً يشتغل بالدنيا ليقيت نفسه ويقيت أهل القسم الأول ، ويحمي نفسه ويحميهم من العدوان ؟ وما لك ترى المسلمين خملوا ، وارتخت أعصابهم ، وسئموا النظر في علوم دينهم كما ذكرت ، ثم صاروا أبعد الناس عن معرفة الطرق لتحصيل الغنى والثروة ، والقبض على ناصية القوة وصولجان العزة ؟ وطرحوا أنفسهم في

تيار من القدر ـ كما يقولون ـ يجري بهم إلى حيث لا يعلمون ، ثم مع ذلك أحرص الناس على حياة ، وأشدهم لهفاً على الحطام ، فلا ترى الجمهور منهم في شيء للدين ولا للدنيا ، فما هذا التناقض ؟

فأقول له : إنك قد نسيت أن المقلِّد يكون دائماً أحط حالاً وأخس منزلة من المقلَّد . فالمقلِّد إنما ينظر من عمل المقلَّد إلى ظاهره ولا يدري سره ولا ما بني عليه ، فهو يعمل على غير نظام ، ويأخذ الأمر لا على قاعدة . ولذلك سقط المسلمون في شر مما كان عليه مقلدوهم ، لا سيما إنهم قد خلطوا في التقليد ، وأضافوا إلى دينهم ما لا يمكن أن يتفق معه ، فصاروا في مثل حال المتخبط الذي تتنازعه عدة قوى يذهب مع كل منها آناً ثم ينتهي أمره بعد الخيبة بالتعب الشديد ، فيستلقي إلى أن يستريح فينهض إلى العمل على هدى أو يموت .

لما كان المسلمون علماء كانت لهم عينان : عين تنظر إلى الدنيا والأخرى تنظر إلى الآخرة ، فلما طفقوا يقلدون اغمضوا إحدى العينين ، واقذوا الأخرى بما هو أجنبي عنهم ، ففقدوا المطلبين ، ولن يجدوهما إلا بفتح ما اغمضوا وتطهير ما اقذوا .

الإصلاح والمصلحون :

للقائل أن يقول : كيف تدعي أن دعاة العلم والدين قليل بين المسلمين ، مع أننا نسمع أصواتهم تتلاقى في جو مصر وسورية وغيرهما من البلاد في هذه الأيام ؟ كل يقول : ديني ملتي ، إسلام مسلمون ، قرآن سنة ، مجد الإسلام القديم ، سلفه الصالحون ، تعلم ، تعليم ، كتب قديمة ، كتب جديدة ، وما يشاكل ذلك ، مما يظهر منه أن الداعين إلى العلم أو المنبهين إلى الأخذ بأصول الدين الإسلامي كثيرون ، ولا نرى مع ذلك من اغلب المسلمين إلا آذاناً صماً وأعيناً عمياً ، وصداً عما يدعو إليه هؤلاء ؟

ويمكنني أن أقول له : إن الصادق من هؤلاء ليس بكثير عدة ، والجمهور منهم قلما يخلص قصده ، وما تجد أكثرهم إلا متجرين بهذه الكلمات ، لكسب بعض دريهمات ، ويظهر لك ذلك من انهم يلفظون هذه الاسماء ، وقلما يدرسون شيئاً من مدلولاتها ليقفوا على الحقيقة منه ، وإنما يلقف بعضهم عن بعض ظواهر ، كالزبد لا يمكث في الأرض ، وأما الصادقون على قلتهم فقد بدأ بعض الناس يسمعون ما يقولون ويطلبون الرشاد مما

يعلمون خصوصاً في أمر الدين ، والجمع بينه وبين مصالح الدنيا ولا سيما في بلاد الهند وبين مسلمي روسيا . ولكن الإصلاح ليس ريحاً تهب فتمسح الأرض من الشرق إلى الغرب في وقت قريب ، فانتظر .

قد يقول القائل : لم لم يكثر هؤلاء كثرتهم بين الأوروبيين فيما مضى ، حتى يغلبوا الظالمين من أهل السياسة ويستميلوا العادلين منهم إليهم ، وينهضوا بالمسلمين من هذه الرقدة التي طال أمدها عليهم ؟ ولم لا يزال أهل البصيرة منهم قليلين متفرقين يهمسون بالقول ولا يجهرون ، وليس للعلم فيهم دعاة عمليون ؟ أليس ذلك سبيلاً لمؤاخذة الإسلام وحجة عليه .

وأقول له : إن حظ المسلمين لا يصح أن يكون أسعد من حظ مقلديهم ، بل المنتظر أن يكون اتعس ، وقد أقامت المسيحية ما يزيد على ألف سنة قبل أن يظهر فيها العلم ، أو تنشأ الحرية الشخصية ، أو تسري فيها الحركة العلمية إلى ما فيه صلاح الجمعية الإنسانية ، مع توالي المنبهات ، وتواصل الصدمات إثر الصدمات ، ولم يمض على المسلمين من يوم استحكمت فيهم البدعة ، وأطبقت عليهم ظلم المحدثات ، ودخلوا جحر الضب الذي دخله من كان قبلهم إلا أقل من ثمانمائة سنة ، فلم يمض عليهم ، وهم في بدعهم الجديد ، ذلك الزمن الذي قد يكون عمراً لمثل هذه الحالة ، ثم تقضي نحبها في آخره . وما اظن أن يمر على المسلمين مثل تلك المدة قبل أن يبلغوا من صلاح الدين والدنيا ما هم أهل له .

الفرق بين التعصبين :

وعلى كل حال لا يجوز في شريعة الانصاف أن يذكر المسلمون في جانب جمهور المسيحيين إذا ذكر الغلو في التعصب الديني ، فضلاً عن أن يقال إن المسلمين أشد إفراطاً فيه . والشاهد يدلنا على أنه قد يكون للمسلمين في التعصب ألفاظ وكلمات ، ولكن الذي يكون من جمهور المسيحيين إنما هو أعمال وضربات في المعاملات ، وما على طالب الحقيقة إلا أن يسيح بفكره في مثل المستعمرات الهولاندية في الشرق ومملكة الترنسفال قبل سقوطها ، وبلاد الناتال في الجنوب ، ثم يرجع إلى بعض بلاد الروسيا في الشمال من قبل عشرين سنة ، ثم يرجع إلى الجزائر وما يليها في جهة الغرب ، ليعلم كيف تكون الشدة في المعاملة مع غير أهل المذاهب المسيحية ، وكيف يبلغ التعصب من

أهله حداً تنظر إليهم فيه الإنسانية شزراً ، ولا تقبل لهم فيه المدنية عذراً .

ما على الباحث إلا أن ينظر فيما يكتبه الكتاب الفرنسيون ليعلم انهم في حيرة من أمرهم مع المسلمين ، يريدون أن تكون لحكومتهم طمأنينة فيما ملكت من بلاد المسلمين[1] ، ولكن حكومتهم لا تجد السبيل إليها ، مع ما اتخذته قاعدة لعملها ، وهو الشدة والإفراط في القسوة على المسلمين خاصة وحدهم دون سواهم ، وأرباب الأقلام يبحثون عن تلك الطمأنينة مع المحافظة على تلك القسوة ، ويأبى اللّه أن يعثرهم على ما يبحثون عنه ، لأنهم يطلبون الجمع بين الضدين في موضع واحد ، وهو محال كما يقرره فلاسفتهم .

* * *

رأي هانوتو الأخير

في معاملة المسلمين :

موسيو «هانوتو» أطلق لقلمه من سنوات أن يجري في البحث عن طريقة حكم للمسلمين ، وقاعدة لمعاملتهم في البلاد التي يحكمها الفرنسيون ، وجاء في فصول مقاله بما لا يزال يذكره القراء ثم بعد أن قتل المسألة علماً ثلاث سنين ، ورأى سوء تأثير قوله في المسلمين رجع إلى موضوع البحث في هذه السنة بلسان غير الذي كان ينطق به ، ورأى غير الذي كان يصدر عنه . وإني ذاكر ملخص ما نقلته الجرائد من خطابه الذي ألقاه في المجتمع الجغرافي في شهر مارس من هذه السنة[2] متعلقاً بأفريقيا وأقتصر منه على ما يتعلق بما نحن فيه ، وهو بالمعنى :

«إن القواعد التي يجب أن يكون عليها العمل في أفريقية هي مخالفة القواعد القديمة التي كانت تجري عليها السياسة الاستعمارية فيما مضى من الزمان» ـ (أي قبل ساعة وقوف الخطيب لإلقاء خطابه) ـ ثم بَيَّن هذه القواعد الجديدة التي يعامل بها المحكومون : «إنها الأمن والسلم» ثم قال «اننا مدينون لهم بالعدل والسلم ، كما أننا

---

(١) الإشارة هنا إلى مقالات «هانوتو» انظر رد الأستاذ الإمام عليها في مكانها من هذا الجزء .
(٢) ١٩٠٢ م .

مدينون لهم بالتساهل الديني ، ولست أشير إلى هذا الموضوع الخطير الذي له علاقة بكل ما يثير النفس البشرية إلا إشارة خفيفة فأقول : إن التمدن الأوروبي يجد في طريقه في إفريقيا ، لا سيما في شمالها ، ذلك الدين القديم العظيم الذي هو دين الإسلام ، والذي هو في هذه الجهات ـ (شمال افريقيا) ـ أكثر نشاطاً منه في غيرها ، وهذا الدين يدعو إلى إله واحد ويجعل الإيمان بالتوحيد مصدراً لكل الفضائل الذاتية والاجتماعية ، ويستولي على المؤمن استيلاء شديداً ، فلا يعود يقدر على التفلت منه . فمن المفروض علينا التساهل في هذا الشأن ، بل ليس التساهل بكاف وحده ، فمن الواجب أن ندرس هذا الدين ، ونبذل جهدنا في فهمه . وعلينا أن نتخذ الكلمة الإسلامية (لا إكراه في الدِّين)[1] شعاراً لا نخرج عن حدود معناها ، وأن نحترم الدين الإسلامي ونحميه من كل طارىء سوء . ولا بأس بذكر كلمة للأمير عبد القادر الجزائري في هذا المقام وهي : «إن أصحاب الأديان الثلاثة يشبهون ثلاثة أخوة من ثلاث أمهات» اهـ . محصل كلام هانوتو .

قبل الكلام عليه أسأل القارىء : هل سمع مثل هذه الكلمة ممن يماثل الأمير عبد القادر ـ في نسبه إلى صاحب الرسالة ، ومقامه في أهل دينه ، ومكانته من سلامة العقيدة ـ في مذهبه ؟ أو سمع ما يقرب منها ممن لا يدانيه من أهل الملل الأخرى ؟؟

ترى «هانوتو» يرشد أهله إلى اتخاذ سبيل جديدة في سياسة المسلمين ، وهذا الجديد هو السلم والأمن والتساهل مع المسلمين في أن يستمروا مسلمين ، واحترام حقوقهم وتركهم يعملون بدينهم . وعد هذا مبدأ جديداً لم يسبق الجري على مثله . وهل تجيب الحكومة الفرنسية طبله؟ مسألة فيها نظر، فهل يليق بمنصف أن يذكر السلم إذا ذكر التعصب ما دام في الكون مثل هذه الدرجة منه ؟

* * *

سياسة الإنجليز في التسامح

نعم نحن لا ننكر ان بين الأمم الأوروبية أمة تعرف كيف تحكم من ليس على دينها ، وتعرف كيف تحترم عقائد من تسوسهم وعوائدهم ، وهي الأمة الإنجليزية ،

---

(١) البقرة : ٢٥٦ .

فهي وحدها الأمة المسيحية التي تقدر التسامح حق قدره ، ولا يصعب علينا أن نقول : إن منشأ ذلك أن امراءها في الحروب الصليبية وقواد جيشها كانوا من أشد الصليبيين علاقة بسلطان المسلمين وأمراء جيشه ، وقد امتاز الانكليز في ذلك الزمن المظلم بدرس عقائد المسلمين وعاداتهم ، فحملوا من ذلك شيئاً كثيراً إلى بلادهم ، ولم تحجبهم غشاوة التعصب عن إبصار ضوء الحق ، وظهور أثر ذلك في كثير من كتابهم مثل «**ولتر سكوت**» و«**شيل**» وغيرهما قبل أن يظهر في أقلام الكاتبين من غير الإنكليز بازمان طويلة ، فلنا أن نقول ولا نخشى لائماً : إن هذه الخصلة الشريفة ـ خصلة إطلاق الحرية لأهل الدين يتمتعون بإداء فرائضه مع احترام ما يحترمون ـ هي من أجل الخصال متى ورثها غير المسلمين عن المسلمين ، وهل أجد من يأبى عَليَّ القول بأن الإسلام السليم من البدع هو أستاذ الإنكليز وعنه أخذوا هذه الخلة ؟ ألا ترى أن نظامهم في ذلك يقرب من نظام المسلمين يوم كانوا مسلمين ؟ : يكتفون من الناس بالخضوع للقوانين وأداء ما يفرض عليهم من الضرائب ، ثم يحفظون نظام العدل بينهم بقدر ما تسمح به السياسة لا يفرقون بين دين ودين ؟ وهكذا كان حال المسلمين وإن كان ذلك على قاعدة أبَرَّ وأرحم .

خاتمة

فإن قال قائل : أليس لهذا المقال من آخر ؟ أليس في طول الكلام مجلبة الملل ، وترويج الكسل ؟ قلت : إني أوجه كلامي هذا إلى أهـل النهم إلى الفهم ، وأرباب الشره إلى المعرفة ولا أظن هؤلاء إلا طالبين ما هو أوسع من هذا المقال ، وأطول منه أضعافاً مضاعفة ، لأن الموضوع جليل ، والكلام فيه مهما كثر قليل ، وأمـا القارىء الملول ، فعقله مدخول ، وعزمه مفلول ، وفكره مغلول ، وهو قصير الهمة فيما يقصر وفيما يطول ، فلا يُنْظَر إليه في الخطاب ، ولا يُعتَدُّ به عند الحساب ، ومع ذلك فأنا واقف عند هذا الحد ، وانتظر بتفصيل القول في مسألة أمراض الإسلام ، وآثار البدع والمحدثات فيه والعلل التي نشبت بالمسلمين بسببها ، فرصة أخرى .

وقبل أن أترك القارىء أنبهه إلى أن ما أُجْمِل في هذه الفصول لم يُقصد به الطعن في حال أحد من الناس ولا طائفة من الطوائف ، كما يعرفه القارىء نفسه من لباس المعاني وما يكسوها من الأدب والتنزه عن كلمة تشم منها رائحة العيب على آخر . وقد يعلم من هذه النزاهة أن هذا رأي طبخناه لنطعمه بأنفسنا ، وننفق منه على من تلزمنا نفقته من أهلنا ، ولم يكن يخطر ببالنا عندما أجدنا طبخه أن نفيض منه على غيرنا ، لكن إذا عشا الساري إلى ضوء نارنا ، وطلب القرى منا ، فاسمعناه ما لدينا ، وعرضنا عليه أحر من نفس الحياة ، وأهنأ من خلق الأناة ، إن شاء اللّه . أهـ .

* * *

رسالة التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالِمِينَ ، الرَّحمنَ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَومِ الدِّينِ ، إيَّاكَ نَعبُدُ وإيَّاكَ نستَعِينُ ، اهْدنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلْيهِمْ ، غَيرِ المْغضُوبِ عَليْهِمْ ولَا الضَّالِّين .

(وبعد) . . . فلما كنت في بيروت ، من أعمال سوريا ، أيام بعدي عن مصر ، عقب حوادث سنة ١٢٩٩ هجرية[١] ، ودعيت في سنة ١٣٠٣[٢] لتدريس بعض العلوم في المدرسة السلطانية ، ومنها علم التوحيد ، رأيت أن المختصرات في هذا الفن لا تأتي على الغرض من إفادة التلامذة ، والمطولات تعلو عن إفهامهم ، والمتوسطات أُلِّفَتْ لزمن غير زمانهم .

فرأيت من الأليق أن أملي عليهم ما هو أمَسُّ بحالهم . فكانت أمالي مختلفة ، تتغاير بتغاير طبقاتهم ،أقربها إلى كفاية الطالب ما أملي على الفرقة الأولى ، في أسلوب لا يصعب تناوله ، وإن لم يعهد تداوله ، وسير منها إلى المطالب من غير نظر إلا إلى صحة الدليل ، وإن جاء في التعبير على خلاف ما عهد من هيئة التأليف ، رامياً إلى الخلاف من مكان بعيد ، حتى قد لا يدركه إلا الرجل الرشيد .

(١) الإشارة إلى حوادث الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ م .
(٢) الموافقة لسنة ١٨٨٦ م .

غير ان تلك الأمالي لم تحفظ إلا في دفاتر التلامذة ، ولم أستبق لنفسي منها شيئاً ، وعرض بعد ذلك ما استقدمني إلى مصر ، وكان من تقدير اللّه أن أشتغل بغير التعليم ، حتى أتى النسيان على ما أمليت ، وذهب عن الخاطر جميع ما ألقيت ، إلى أن خطر لي من مدة أشهر خاطر العود إلى ما تهواه نفسي ، ويصبو إليه عقلي وحسي . وأن أشغل أوقات فراغي بمدارسة شيء من علم التوحيد ، علماً مني أنه ركن العلم الشديد .

فذكرت سابق العمل ، وتعلق بمثله الأمل ، ولكيلا أنفق من الزمن ما أنا في أشد الحاجة إليه في إنشاء ما أرى التعويل عليه ، عزمت أن أكتب إلى بعض التلامذة ليرسل إليّ ما تلقاه بين يدي ، وذكرت ذلك لأخي ، فأخبرني أنه نسخ ما أملي على الفرقة الأولى ، فطلبته وقرأته ، فإذا هو على مقربة مما أحب ، قد يحتاج إليه القاصر ، وربما لا يستغني عنه المكاثر ، على اختصار فيه مقصود ، ووقوف عند حد من القول محدود ، قد سلك في العقائد مسلك السلف ، ولم يعب في سيره آراء الخلف ، وبعد عن الخلاف بين المذاهب ، بُعْد ممليه عن أعاصير المشاغب .

لكن وجدت فيه إيجازاً في بعض المواضع ، قد لا ينفذ منه ذهن المطالع ، و إغفالاً لبعض ما تمس الحاجة إليه وزيادة عما يجب في مختصر مثله أن يقتصر عليه ، فبسطت بعض عباراته ، وحررت ما غمض من مقدماته ، وزدت ما أغفل ، وحذفت ما فضل ، وتوكلت على اللّه في نشره ، راجياً أن لا يكون في قصره ما يحمل على إغفال أمره ، أو يغض من قدره ، فما من أحد بأصغر من أن يُعِين ، ولا بأكبر من أن يُعَان ، واللّه وحده ولي الأمر وهو المستعان .

مقدمات

التوحيد : علم يبحث فيه عن وجود اللّه ، وما يجب أن يثبت له من صفاته ، وما يجب أن ينفي عنه وعن الرسل ، لإثبات رسالتهم ، وما يجب أن يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب إليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم .

أصل معنى التوحيد : اعتقاد أن اللّه واحد ، لا شريك له . وسمي هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه ، وهو إثبات الوحدة للّه في الذات والفعل في خلقه الأكوان ، وأنه وحده مرجع كل كون ، ومنتهى كل قصد .

وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبي ﷺ ، كما تشهد به آيات الكتاب العزيز ، وسيأتي بيانه .

وقد يسمي علم الكلام ، إما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون هي أن كلام اللّه المتلو حادث أو قديم ، وإما لأن مبناه الدليل العقلي ، وأثره يظهر من كل متكلم في كلامه ، وقلما يرجع فيه إلى النقل ، اللهم إلا بعد تقرير الأصول الأولى ، ثم الانتقال منها إلى ما هو أشبه بالفرع عنها ، وإن كان أصلاً لما يأتي بعدها ، وإما لأنه في بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق في تنبيه مسالك الحجة في علوم أهل النظر ، وأُبْدل المنطق بالكلام للتفرقة بينهما .

هذا النوع من العلم ، علم تقرير العقائد ، وبيان ما جاء في النبوات ، كان معروفاً عند الأمم قبل الإسلام ، ففي كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه

وتأييده ، وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك ، لكنهم كانوا قلما ينحون في بيانهم نحو الدليل العقلي ، وبناء آرائهم وعقائدهم على ما في طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون ، بل كانت منازع العقول في العلم ومضارب الدين في الإلزام بالعقائد ، وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفي نقيض ، وكثيراً ما صرح الدين على لسان رؤسائه : انه عدو العقل ، نتائجه ومقدماته ، فكان جُلُّ ما في علوم الكلام تأويلاً وتفسيراً وإدهاشاً بالمعجزات ، أو إلهاء بالخيالات ، يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الأمم قبل البعثة الإسلامية .

* * *

جاء القرآن فانتهج بالدين منهجاً لم يقم عليه ما سبقه من الكتب المقدسة ، منهجاً يمكن لأهل الزمن الذي أنزل فيه ، ولمن يأتي بعدهم أن يقوموا عليه ، فترك الاستدلال على نبوة النبي ، ﷺ ، بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة ، وحصر الدليل في حال النبي ، مع نزول الكتاب عليه في شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ، ولو في مثل أقصر سورة منه ، وتناول من مقام الألوهية ما أذن اللّه لنا وما أوجب علينا أن نعلم .

لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ، ادعى وبرهن ، وحكى مذاهب المخالفين ، وكر عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحكام والإتقان على أنظار العقول ، وطالبها بالإمعان فيها ، لتصل بذلك إلى اليقين لصحة ما أدعاه ودعا إليه ، حتى انه في سياق قصص أحوال السابقين كان يقرر أن للخليقة سنة لا تُغيَّرُ وقاعدة لا تتبدل ، فقال : ﴿**سُنةَ اللّه التي قَد خَلتْ من قَبلُ ولن تَجدَ لسنةِ اللّه تبديلاً**﴾[١] ، وصرح : ﴿**إن اللّه لا يُغيِّرُ ما بقومٍ حتَّى يغيروا مَا بأنفُسهم**﴾[٢] ، واعتضد بالدليل حتى في باب الأدب ، فقال : ﴿**ادفعِ بالتي هِيَ أحسَنُ فإذا الذِي بَينكَ وبَينهُ عَدَاوةٌ كأنَّه وليّ حميم**﴾[٣] .

وتآخى العقلُ والدينُ لأول مرة في كتاب مقدس ، على لسان نبي مرسل ،

---

(١) الفتح : ٢٣ ؛ .

(٢) الرعد : ١١ .

(٣) فصلت : ٢٤ .

بتصريح لا يقبل التأويل ، وتقرَّر بين المسلمين كافة - إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه - ان من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل ، كالعلم بوجود اللّٰه ، وبقدرته على إرسال الرسل ، وعلمه بما يوحى به إليهم ، وإرادته لاختصاصهم برسالته ، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة ، وكالتصديق بالرسالة نفسها .

كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل .

* * *

جاء القرآن يصف اللّٰه بصفات ، وإن كانت أقرب إلى التنزيه مما وُصِفَ به في مخاطبات الأجيال السابقة ، فمن صفات البشر ما يشاركها في الاسم ، أو في الجنس ، كالقدرة ، والاختيار ، والسمع ، والبصر ، وعزا إليه أموراً يوجد ما يشبهها في الإنسان كالاستواء على العرش ، وكالوجه واليدين ، ثم أفاض في القضاء السابق ، وفي الاختيار الممنوح للإنسان ، وجادل الغالين من أهل المذهبين . ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيئات ، ووكل الأمر في الثواب والعقاب إلى مشيئة اللّٰه ، وأمثال ذلك مما لا حاجة إلى بيانه في هذه المقدمة .

فاعتبار حكم العقل مع ورود أمثال هذه المتشابهات في النقل فَسَحَ مجالاً للناظرين ، خصوصاً ودعوة الدين إلى الفكر في المخلوقات لم تكن محدودة بحد ولا مشروطة بشرط ، للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤد إلى الاعتقاد باللّٰه على ما وصفه بلا غلو في التجريد ولا دنو في التحديد[1] .

* * *

(١) التجريد هنا يراد به الذهاب في تنزيه اللّٰه عن مشابهة الحوادث ، وعن الاتصاف بالصفات الزائدة على الذات ، إلى الحد الذي يصبح فيه تصور الذات الإلهية كفكرة مجردة عن الصفات والتحديدات . . . ونحن نجد هذا التجريد عند المعتزلة وكل من واقفهم في التنزيه ، وبالذات عند الفلاسفة الإلهيين . . . فابن رشد مثلاً يتصور الذات الإلهية عقلاً للعالم ، وعلماً محضاً ، ونظاماً هو أشبه بالقوانين التي تحكم الوجود وتحفظه وتهيمن عليه . . انظر تصوره للذات الإلهية في دراستنا (المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد) . . أما التحديد فإننا نجده بدرجات متفاوتة عند المشبهة والمجسمة وبعض القائلين بالحلول والاتحاد .

مضى زمن النبي ، ﷺ ، وهو المرجع في الحَيْرَةِ والسراج في ظلمات الشبهة ، وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر في مدافعة الأعداء ، وجمع كلمة الأولياء ، ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم يبتلونها[١] بالبحث في مباني عقائدهم . وما كان من اختلاف قليل رُدَّ إليهما ، وقُضيَ الأمر فيه بحكمهما ، بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين ، إن كانت حاجة إلى الاستشارة ، وأغلب الخلاف كان في فروع الأحكام لا في أصول العقائد ، ثم كان الناس في الزمنين يفهمون إشارات الكتاب ونصوصه ، يعتقدون بالتنزيه ، ويفوضون فيما يوهم التشبيه . ويرون أن له معنى غير ما يُفهِمُه ظاهر اللفظ .

كان الأمر على ذلك إلى أن حدث ما في عهد الخليفة الثالث ، وأفضى إلى قتله ، هوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة ، واصطدم الإسلام بأهله صدمة زحزتهم عن الطريق التي استقاموا عليها ، وبقي القرآن قائماً على صراطه ﴿**إنّا نحنُ نَزَّلنا الذِّكر وإنا لَهُ لحافظون**﴾[٢] ، وفتح للناس باب لتعدي الحدود التي حدها الدين ، فقد قُتل الخليفة بدون حكم شرعي ، وأشعر الأمر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول في أنفس من لم يملك الايمان قلوبهم ، وغلب الغضب على كثير من الغالين في دينهم ، وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الأصالة منهم فقُضيَت أمور على غير ما يحبون .

وكان من العاملين في تلك الفتنة **عبد الله بن سبأ** ، يهودي أسلم ، وغلا في حب **علي كرم الله وجهه** ، حتى زعم أن الله حل فيه ، وأخذ يدعو إلى أنه الأحق بالخلافة ، وطعن على عثمان ، فنفاه إلى **مصر** ، فوجد فيها أعواناً على فتنته ، إلى أن كان ما كان مما ذكرنا ، ثم ظهر بمذهبه في عهد علي فنفاه إلى **المدائن** ، وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده[٣] .

---

(١) يمتحنونها ويمحصونها .

(٢) الحجر : ٩ .

(٣) من الباحثين من يشكك في وجود شخصية عبد الله بن سبأ أصلاً ، أو على الأقل يرى أن الناس قد اتخذوا منها مشجباً يعقلون عليه الأخطاء حتى لا تلحق الشبهات بشخصيات عزيزة على القلوب من صحابة رسول الله ، وحتى لا ترد المسببات إلى أسبابها الحقيقة ، تلك الأسباب التي أثمرت أحداث عهد عثمان ابن عفان . انظر في ذلك د . طه حسين (الفتنة الكبرى) جـ ١ ، ٢ .

توالت الأحداث بعد ذلك ، ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ما عقدوا ، وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان إلى الأمويين ، غير أن بناء الجماعة قد انصدع ، وانفصمت عرى الوحدة بينهم ، وتفرقت بهم المذاهب في الخلافة ، وأخذ الأحزاب في تأييد آرائهم ، كل ينصر رأيه على رأي خصمه بالقول والعمل ، وكانت نشأة الاختراع في الرواية والتأويل ، وغلا كل قبيل ، فافترق الناس إلى شيعة وخوارج ومعتزلين ، وغلا الخوارج في عهد مروان الأول[1] فكفّروا من عداهم ، ثم استمر عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهورية ، وتكفيرهم لمن خالفهم زمناً طويلاً إلى أن تضعضع أمرهم على يد المهلب بن أبي صفرة[2] ، وانتشرت فارّتهم في بلاد المغرب فأشعلوا فيها الفتن ، وبقيت منهم بقية إلى اليوم في أطراف افريقيا وناحية من جزيرة العرب .

وغلا بعض الشيعة فرفعوا علياً أو بعض ذريته إلى مقام الألوهية أو ما يقرب منه ، وتبع ذلك خلاف في كثير من العقائد .

غير ان شيئاً من ذلك لم يقف في سبيل الدعوة الإسلامية ، ولم يحجب ضياء القرآن عن الأطراف المتنائية عن مثار النزاع ، وكان الناس يدخلون فيه أفواجاً من الفرس والسوريين ومن جاورهم ، والمصريين والأفريقيين ومن يليهم ، واستراح جمهور عظيم من العمل في الدفاع عن سلطان الإسلام ، وآن لهم أن يشتغلوا في أصول العقائد والأحكام بما هداهم اليه سير القرآن اشتغالاً يحرص فيه على النقل ولا يهمل فيه اعتبار العقل ولا يغض فيه من نظر الفكر ، ووجد من أهل الاخلاص من انتدب نفسه للنظر في العلم والقيام بفريضة التعليم . ومن أشهرهم الحسن البصري[3] ، فكان له مجلس

---

(١) هو مروان بن الحكم الأموي ، حكم بعد معاوية الثاني (٦٨٣ ـ ٦٨٥ م) .

(٢) من قواد الحجاج بن يوسف الثقفي ، تمكن من هزيمة الخوارج الأزارقة بقيادة قطري بن الفجاءة الذين كانوا قد امتلكوا «كرمان» وكانت الموقعة الفاصلة سنة ٦٩٨ م أو سنة ٦٩٩ م .

(٣) هو الحسن بن أبي الحسن (٢١ ـ ١١٠ هـ ـ ٦٤ ـ ٧٢٨ م) واسم أبيه يسار ، وكان أبوه من سبي «ميسان» وهي «كورة» بين «البصرة» و«واسط» ، وكانت أمه مولاة لأم سلمة زوج الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكانت تعطيه ثديها في غياب أمه وهو رضيع . أنظر (تهذيب التهذيب) لابن حجر العسقلاني جـ ٢ ص ٢٧٠ طبعة حيدر أباد بالهند سنة ١٣٢٥ هـ .

للتعليم والإفادة في **البصرة** يجتمع إليه الطالبون من كل صوب وتمتحن فيه المسائل من كل نوع .

وكان قد التحف بالإسلام ولم يتبطنه أناس من كل ملة ، دخلوه حاملين لما كان عندهم ، راغبين أن يصلوا بينه وبين ما وجدوه ، فثارت الشبهات بعد ما هبت على الناس أعاصير الفتن ، واعتمد كل ناظر على ما صرح به القرآن من إطلاق العنان للفكر، وشارك الدخلاء مَنْ حقَّ لهم السبق من العرفاء ، وبدت رؤوس المشاقين تعلو بين المسلمين .

وكانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الاختيار واستقلال الإنسان بإرادته وأفعاله الاختيارية ، ومسألة من ارتكب الكبيرة ، ولم يتب : اختلف فيها **واصل بن عطاء**[1] ، مع أستاذه **الحسن البصري** ، واعتزله ، يُعَلِّمُ أصولاً لم يكن أخذها عنه ، غير أن كثيراً من السلف ومنهم الحسن ـ على قول . . كان على رأي أن العبد مختار في أعماله الصادرة عن علمه وإرادته[2] ، وقام ينازع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا إلى أن الإنسان في عمله الإرادي كأغصان الشجرة في حركاتها الاضطرارية . كل ذلك وأرباب السلطان من بني مروان لا يحفلون بالأمر ، ولا يعنون برد الناس إلى أصل ، وجمعهم على أمر يشملهم ثم يذهب كل إلى ما شاء .

ثم لم يقف الخلاف عند المسألتين السابقتين ، بل امتد إلى إثبات صفات المعاني للذات الألهية أو نفيها عنها ، وإلى تقدير سلطة العقل في معرفة الأحكام الدينية حتى ما كان منها فروعاً وعبادات (غلواً في تأييد خطة القرآن) ، أو تخصيص تلك السلطة بالأصول الأولى ، على ما سبق بيانه ، ثم غالى آخرون ، وهم الأقلون ، فمحوها

(١) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء (٨٠ ـ ١٣١ هـ ٦٩٩ ـ ٧٤٩ م) الملقب بالغزال ، من الموالي ، ولد بالمدينة ، ثم ذهب إلى البصرة ، أخذ القول بحرية الإنسان واختياره عن معبد الجهني ، وأخذ القول بالتنزيه عن جهم بن صفوان ، وهو أول من تبلورت على يديه حركة المعتزلة التي ورثت تراث القائلين بالعدل والتوحيد . أنظر : المنية والأمل لابن المرتضى ص ١٧ ـ ٢٠ طبعة الهند سنة ١٣١٦ هـ .

(٢) تشهد بذلك رسالة له في «القدر» بعث بها إلى عبد الملك بن مروان . ولقد قمنا بتحقيقها ونشرها ضمن الجزء الأول من (رسائل العدل والتوحيد) طبعة دار الشروق، في القاهرة ، وفي الخلاف حول موقفه من هذه القضية أنظر (تهذيب التهذيب) جـ ٢ ـ ٢٧٠ و(المعارف) لابن قتيبة ص ٤٤٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م .

بالمرة ، وخالفوا في ذلك طريقة الكتاب ، عناداً للأولين[١] ، وكانت الآراء في الخلفاء والخلافة تسير مع الآراء في العقائد كأنها مباني الاعتقاد الإسلامي .

* * *

تفرقت السبل بأتباع «**واصل**» ، وتناولوا من كتب اليونان ما لاق بعقولهم ، وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما اثبته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعاً إلى أوليات العقل وما كان سراباً في نظر الوهم ، فخلطوا بمعارف الدين ما لا ينطبق حتى على أصل من أصول النظر ، ولجوا في ذلك حتى صارت شيعهم تعد بالعشرات ، أيدتهم الدولة العباسية وهي في ريعان القوة ، فغلب رأيهم ، وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب ، فأخذ المتمسكون بمذاهب السلف يناضلون معتصمين بقوة اليقين وأن لم يكن لهم عضد من الحاكمين .

عرف الأولون من العباسيين ما كان من الفرس في إقامة دولتهم وقلب دولة الأمويين ، واعتمدوا على طلب الأنصار فيهم ، وأعدوا لهم منصات الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم ، فعلا أمر كثير منهم وهم ليسوا من الدين في شيء . وكان فيهم «**المانوية**[٢]» «**واليزدية**[٣]» ومن لا دين له وغير أولئك من الفرق الفارسية ، فأخذوا ينفثون من أفكارهم ، ويشيرون بحالهم وبمقالهم إلى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم ، فظهر الإلحاد وتطلعت رؤوس الزندقة حتى صدر أمر **المنصور**[٤] بوضع كتب لكشف شبهاتهم وإبطال مزاعمهم .

فيما حوالي هذا العهد كانت نشأة هذا العلم نبتاً لم يتكامل نموه ، وبناء لم يتشامخ علوه ، وبدأ كما انتهى مشوباً بمبادىء النظر في الكائنات جرياً على ما سنه القرآن من ذلك .

---

(١) الإشارة إلى «الظاهرية» ومدرسة «أهل الحديث» الذين أنكروا التأويل وإعمال العقل فيما وراء ظاهر النصوص .

(٢) ويقال لهم الثنوية ، وهم القائلون بالنور والظلمة ، وبقدمهما ، واستقلالهما ونبيهم «ماني» الذي ظهر في عهد «سابور بن أردشير بن بابك» . وهم فرق متعددة . أنظر : القاضي عبد الجبار (المغني في أبواب التوحيد والعدل) جـ ٥ ص ٩ ـ ٧٠ .

(٣) لعلها : المزدقية ، وهي فرقة من فرق الثنوية . أنظر المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحات .

(٤) المؤسس الحقيقي للدولة العباسية حكم من سنة ٧٥٤ م حتى سنة ٧٧٥ م .

وحدثت فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته[١] ، وانتصر للأولى جمع من خلفاء العباسيين ، وأمسك عن القول ، أو صرح بالأزلية عدد غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة أو المتعففين عن النطق بما فيه مجاراة البدعة، واهين في ذلك رجال من أهل العلم والتقوى ، وسفكت فيه دماء بغير حق ، وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين . على هذا كان النزاع بين ما تطرف من نظر العقل وما توسط أو غلا من الاستمساك بظاهر الشرع ، والكل على وفاق على أن الأحكام الدينية واجبة الاتباع ، ما تعلق منها بالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده ، وما مس بواطن القلوب وملكات النفوس فرض التروض[٢] عليه .

وكان وراء هؤلاء قوم من أهل الحلول أو الدهريين ، طلبوا أن يحملوا القرآن على ما حملوه عند التحاقهم[٣] بالإسلام ، وافرطوا في التأويل ، وحولوا كل عمل ظاهر إلى سر باطن ، وفسروا الكتاب بما يبعد عن تناول الخطاب بُعْدَ الخطأ عن الصواب ، وعرفوا **بالباطنية** أو **الإسماعيلية** ، ولهم أسماء أخر تعرف في التاريخ ، فكانت مذاهبهم غائلة الدين وزلزال اليقين ، وكانت لهم فتن معروفة وحوادث مشهورة .

مع اتفاق السلف وخصومهم في مقارعة هؤلاء الزنادقة وأشياعهم كان أمر الخلاف بينهم جللاً ، وكانت الأيام بينهم دولاً ، ولا يمنع ذلك من أخذ بعضهم عن بعض واستفادة كل فريق من صاحبه إلى أن جاء الشيخ **أبو الحسن الأشعري**[٤] في أوائل القرن الرابع ، وسلك مسلكه المعروف وسطا بين موقف السلف وتطرف من خالفهم ، وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر ، وارتاب في أمره الأولون ، وطعن كثير

---

(١) كان ذلك في عهد المأمون العباسي سنة ٢١٨ هـ .

(٢) بمعنى ترويض النفس وتعويدها وتطويعها عليه .

(٣) يمكن أن تقرأ التحاقهم ، بالقاف ، والتحافهم ، بالفاء ، على معنى أنهم لم يؤمنوا به كما يجب أن يكون الإيمان .

(٤) (٢٦٠ - ٣٢٤ هـ ـ ٨٧٣ - ٩٣٥ م) ، ولد بالبصرة ، وتوفي ببغداد ، وكان شافعياً في المذهب الفقهي ، وفي الكلام كان معتزلياً ثم خرج على المعتزلة ومن أهم كتبه (الإبانة عن أصول الديانة) و(مقالات الإسلاميين) . أنظر دائرة المعارف الإسلامية .

منهم على عقيدته ، وكفره **الحنابلة** واستباحوا دمه ، ونصره جماعة من أكابر العلماء ، **كإمام الحرمين**(١) ، **والأسفراييني**(٢) ، **وأبي بكر الباقلاني**(٣) وغيرهم ، وسموا رأيه بمذهب **أهل السنة والجماعة** ، فانهزم من بين أيدي هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان : قوة الواقفين عند الظواهر ، وقوة الغالين في الجري خلف ما تزينه الخواطر ، ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد قرنين إلا فئات قليلة في أطراف البلاد الإسلامية .

غير أن الناصرين **لمذهب الأشعري** ، بعد تقريرهم ما بنى رأيه عليه من نواميس الكون ، أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدي إليه من عقائد الإيمان ذهاباً منهم إلى أن عدم الدليل يؤدي إلى عدم المدلول .

ومضى الأمر على ذلك إلى أن جاء الإمام الغزالي(٤)**والإمام الرازي**(٥) ومن أخذ مأخذهم ، فخالفوهم في ذلك ، وقرروا أن دليلاً واحداً أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها فلا وجه للحجر في الاستدلال .

* * *

أما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ، ولم يكن من هَمِّ أهل النظر من الفلاسفة ، إلا تحصيل العلم والوفاء بما تندفع إليه رغبة العقل من كشف مجهول أو استكناه معقول ، وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ما شاءوا ، وكان الجمهور من أهل الدين يكنفهم بحمايته ويدع لهم من إطلاق الإرادة ما يتمتعون به في تحصيل لذة عقولهم ، وإفادة الصناعة ، وتقوية أركان النظام البشري بما يكشفون من مساتير الأسرار المكنونة في ضمائر الكون ، مما أباح اللّٰه لنا أن نتناوله بعقولنا وأفكارنا في قوله : ﴿**خَلَقَ لكُمْ ما في الأرض جميعاً**﴾(٦) ، إذ لم يستثن من ذلك ظاهراً ولا خفياً ، وما كان عاقل من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق أو يضع العقبات في سبيلهم إلى

---

(١) هو أبو المعالي عبد الملك بن أبي محمد عبد اللّٰه بن يوسف الجويني ، الفقيه الشافعي ، وهو أستاذ الغزالي ، ونسبته إلى «جوين» إحدى نواحي «نيسابور» ، توفي سنة ٤٧٨ هـ .

(٢) المتوفي سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) .

(٣) المتوفي سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) .

(٤) (١٠٥٩ ـ ١١١٢ م) أشهر من أن يعرف .

(٥) المراد فخر الدين الرازي ، وهو أبو الفضل محمد بن عمر بن الحسين ، المعروف بابن الخطيب ، ولد بمدينة الري سنة ٥٤٤ هـ أو سنة ٥٤٣ هـ ، وتوفي سنة ٦٠٦ هـ .

(٦) البقرة : ٢٩ .

ما هدوا إليه ، بعدما رفع القرآن من شأن العقل وما وضعه من المكانة بحيث ينتهي إليه أمر السعادة والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع ، وبعد ما صح من قوله عليه السلام : «أنتم أعلم بشؤون دنياكم» ، وبعدما سن لنا في غزوة بدر من سنة الأخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء[1] .

لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم .

الأول : الاعجاب بما نقل إليهم عن فلاسفة اليونان ، خصوصاً عن **أرسطو وأفلاطون** ، ووجد أن اللذة في تقليدها لبادىء الأمر .

والثاني : روح الوقت[2] ، وهو أشأم الأمرين ، زجوا بأنفسهم في المنازعات التي كانت قائمة بين أهل النظر في الدين ، واصطدموا بعلومهم في قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة ، فهال حماة العقائد عليهم ، وجاء **الغزالي**[3] ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجد في كتب الفلاسفة مما يتعلق بالألهيات وما يتصل بها من الأمور العامة أو أحكام الجواهر والأعراض ومذاهبهم في المادة وتركيب الاجساد وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام يمس شيئاً من مباني الدين ، واشتدوا في نقده ، وبالغ المتأخرون منهم في تأثرهم حتى كاد يصل بهم السير إلى ما وراء الاعتدال . فسقطت منزلتهم من النفوس ونبذتهم العامة ولم تحفل بهم الخاصة ، وذهب الزمان بما كان ينتظر **العالم الإسلامي** من سعيهم .

هذا هو السبب في خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة في كتب المتأخرين ، كما نراه في كتب **البيضاوي**[4] **والعضد**[5] وغيرهم وجمع علوم نظرية شتى وجعلها جميعاً علماً واحداً ، والذهاب بمقدماته ومباحثه إلى ما هو أقرب إلى التقليد من النظر فوقف العلم عن التقدم .

* * *

---

(١) الإشارة إلى أخذ الرسول برأي بعض الصحابة في مكان النزول ببدر ، وعدوله عن رأيه هو في المنزل الذي كان قد اختاره للنزول .

(٢) أي روح العصر وطابعه .

(٣) الإشارة هنا إلى كتابه (تهافت الفلاسفة) .

(٤) هو أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي ، المتوفى سنة ٧٩١ هـ .

(٥) هو العضد الإيجي ، صاحب الموسوعة الشهيرة (المواقف) ، توفي سنة ٧٥٦ هـ (سنة ١٣٥٥ م) .

ثم جاءت فتن طلاب الملك من الأجيال المختلفة ، وتغلب الجهال على الأمر ، وفتكوا بما بقي من أثر العلم النظري النابع من عيون الدين الإسلامي ، فانحرفت الطريق بسالكيها ، ولم يعد بين الناظرين في كتب السابقين إلا تحاور في الألفاظ وتناظر في الأساليب ، على أن ذلك في قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور .

ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم ، فجاء قوم ظنوا في أنفسهم ما لم يعترف به العلم لهم ، فوضعوا ما لم يَعُدْ للإسلامِ قِبلٌ باحتماله ، غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصاراً ، ومن البعد عن ينابيع الدين أعواناً ، فشردوا بالعقول عن مواطنها ، وتحكموا في التضليل والتكفير ، وغلوْا في ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم في دعوى العداوة بين العلم والدين ، وقالوا لما تصف السنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام ، وهذا كفر وهذا اسلام ، والدين من وراء ما يتوهمون ، والله ، جل شأنه ، فوق ما يظنون وما يصفون . ولكن ماذا أصاب العامة في عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم ، وبعد طول الخبط وكثرة الخلط ؟؟ شر عظيم وخطب عميم .

هذا مجمل من تاريخ هذا العلم ينبئك كيف أسس على قواعد من الكتاب المبين ، وكيف عبثت به في نهاية أمره ايدي المفرقين ، حتى خرجوا به عن قصده ، وبعدوا به عن حده ، والذي علينا اعتقاده أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد لا دين تفريق في القواعد ، العقل من أشد أعوانه ، والنقل من أقوى أركانه ، وما وراء ذلك فنزغات شياطين أو شهوات سلاطين ، والقرآن شاهد على كل بعمله ، قاض عليه في صوابه وخطله .

* * *

الغاية من هذا العلم : القيام بفرض مُجْمَعٍ عليه ، وهو معرفة الله تعالى بصفاته ، الواجب ثبوتها له ، مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به ، والتصديق برسله على وجه اليقين الذي تطمئن به النفس اعتماداً على الدليل ، لا استرسالاً مع التقليد ، حسبما أرشدنا إليه الكتاب ، فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون ، وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه ، تحصيلاً لليقين بما هدانا إليه ، ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم في الأخذ بما عليه آباؤهم ، وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك

واستتباعه لهدم معتقداتهم وإمحاء وجودهم الملي ، وحَقٌّ ما قال ، فإن التقليد كما يكون في الحق يأتي في الباطل ، وكما يكون في النافع يحصل في الضار فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ولا تجمل بحال الإنسان .

أَقْسَامُ ٱلمَعْلُومِ

يقسمون المعلوم إلى ثلاثة أقسام :

ممكن لذاته .

وواجب لذاته .

ومستحيل لذاته .

ويعرفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هي ، أما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هي ، والممكن ما لا وجود له ولا عدم من ذاته ، وإنما يوجد لموجود ويعدم لعدم سبب وجوده ، وقد يعرض له الوجوب والاستحالة لغيره ، وإطلاق المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز ، فإن المعلوم حقيقة لا بد أن يكون له كون في الواقع ينطبق عليه العلم ، والمستحيل ليس من هذا القبيل كما تراه في أحكامه ، وإنما المراد ما يمكن الحكم عليه وإن في صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها إلى الحكاية عنه .

حُكْمُ المُسْتَحِيلِ

وحكم المستحيل لذاته : أن لا يطرأ عليه وجود ، فإن العدم من لوازم ماهيته من حيث هي ، فلو طرأ الوجود عليه لسلب لازم الماهية من حيث هي عنها ، وهو يؤدي إلى سلب الماهية عن نفسها بالبداهة ، فالمستحيل لا يوجد ، فهو ليس بموجود قطعاً ، بل لا يمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة كما أشرنا إليه ، فهو ليس بموجود حتى ولا في الذهن .

أَحْكَامُ المُمْكِنِ

من أحكام الممكن لذاته : أن لا يوجد إلا بسبب وأن لا ينعدم إلا بسبب ، وذلك لأنه لا واحد من الأمرين له لذاته ، فنسبتهما إلى ذاته على السواء ، فإن ثبت له أحدهما

بلا سبب لزم رجحان أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح وهو محال بالبداهة .

ومن أحكامه انه إن وجد يكون حادثاً لأنه قد ثبت أنه لا يوجد إلا بسبب ، فإما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده ، والأول باطل ، وإلا لزم تقدم المحتاج على ما إليه الحاجة ، وهو إبطال لمعنى الحاجة ، وقد سبق الاستدلال على ثبوتها ، فيؤدي إلى خلاف المفروض ، والثاني كذلك ، والإلزام يساويهما في رتبة الوجود فيكون الحكم على أحدهما بأنه أثر والثاني مؤثر ترجيحاً بلا مرجح ، وهو مما لا يسوغه العقل ، على أن علِّيَّة أحدهما ومعلولية الآخر رجحان بلا مرجح ، وهو باطل بالبداهة ، فتعين الثالث ، وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه ، فيكون مسبوقاً بالعدم في مرتبة وجود السبب ، فيكون حادثاً ، إذ الحادث ما سُبِق وجوده بالعدم ، فكل ممكن حادث إن وجد .

الممكن لا يحتاج في عدمه إلى سبب وجودي ، لأن العدم سلب ، والسلب لا يحتاج إلى إيجاد بداهة ، فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه أو لعدم ما كان سبباً في بقائه ، أما في وجوده فيحتاج إلى سبب وجودي ، لأن العدم لا يكون مصدراً للوجود ، فالموجود إن حدث فإنما يكون حدوثه بإيجاد ، وذلك كله بديهي .

كما يحتاج الممكن للسبب في وجوده ابتداء يحتاج إليه في البقاء ، لما بينا ان ذات الممكن لا تقتضي الوجود ، ولا يرجح لها الوجود عن العدم إلا للسبب الخارجي الوجودي ، فذلك لازم من لوازم ماهية الإمكان لا يفارقها من حيث هي ، فلا يكون للممكن حالة يقتضي فيها الوجود لذاته ، فيكون في جميع أحواله محتاجاً إلى مرجح الوجود عن العدم ، لا فرق بين الابتداء والبقاء .

معنى السبب على ما ذكرنا منشأ الإيجاد ، ومعطي الوجود ، وهو الذي يعبر عنه بالموجد ، وبالعلة الموجدة ، وبالعلة الفاعلة ، وبالفاعل الحقيقي ، ونحو ذلك من العبارات التي تختلف مبانيها ولا تتباين معانيها . وقد يطلق السبب أحياناً على الشرط أو المُعِدِّ الذي يهيىء الممكن لقبول الإيجاد من موجوده ، وهو بهذا المعنى قد يحتاج إليه في الابتداء ويستغني عنه في البقاء ، وقد تكون الحاجة إلى وجوده ثم عدمه ، ومن هذا القبيل وجود البَنَّاء فإنه شرط في وجود البيت ، وقد يموت البَنَّاء ويبقى بناؤه ، وليس

البَنّاء واهب الوجود للبيت ، وإنما حركات يديه وحركات ذهنه وأطوار إرادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به ، وبالجملة فيوجد فرق بين توقف الممكن على شيء وبين استفادته الوجود من شيء ، فالتوقف قد يكون على وجود ثم عدم ، كما في توقف الخطوة الثانية على الأولى ، فإن الأولى ليست واهبة الوجود للثانية ، وإلا وجب وجودها معها مع أن الثانية لا توجد إلا إذا انعدمت الأولى ، أما استفادة الوجود فتقضي سبق مالك للوجود يعطيه للمستفيد منه وأن يكون وجود المستفيد مستمداً من وجود الواهب لا يقوم إلا به فلا يستقل بنفسه دونه في حال من الأحوال .

المُمْكِنُ مَوجُودٌ قَطْعاً

نرى أشياء توجد بعد ان لم تكن ، وأخرى تنعدم بعد أن كانت ، كأشخاص النباتات والحيوانات ، فهذه الكائنات إما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة ، لا سبيل إلى الأول لأن المستحيل لا يطرأ عليه الوجود ، ولا إلى الثاني لأن الواجب له الوجود من ذاته وما بالذات لا يزول ، فلا يطرأ عليه العدم ولا يسبقه ، كما سيجيء في أحكام الواجب ، فهي ممكنة ، فالممكن موجود قطعاً .

وجودُ المْمكِنِ يَقتضي بالضَّرُورَةِ وجُودَ الواجِب

جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة ، وكل ممكن محتاج إلى سبب يعطيه الوجود ، فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها إلى موجِدٍ لها ، فإما أن يكون عينها ، وهو محال لاستلزامه تقدم الشيء على نفسه ، وإما أن يكون جُزأها ، وهو محال لاستلزامه أن يكون الشيء سبباً لنفسه ولما سبقه إن لم يكن الأول ولنفسه فقط إن فرض أول وبطلانه ظاهر ، فوجب أن يكون السبب وراء جملة الممكنات ، والموجود الذي ليس بممكن هو الواجب ، فثبت أن للممكنات الموجودة موجداً واجب الوجود .

وأيضاً الممكنات ، سواء كانت متناهية أو غير متناهية قائمة بوجود ، فذلك الوجود إما أن يكون مصدره ذات الإمكان وماهيات الممكنات ، وهو باطل لما سبق في أحكام الممكن من أنه لا شيء من الماهيات الممكنة بمقتضٍ للوجود ، فتعين أن يكون مصدره سواها وهو الواجب بالضرورة .

أحكام الواجب

صِفَاتُ البُرْهانِ الَّتي يَجبُ الاعْتِقادُ بِها
الْقِدَمُ . . وَالْبَقاءُ . . وَنَفيُ التَّركيبِ

من أحكام الواجب : أن يكون قديماً أزلياً ، لأنه لو لم يكن كذلك لكان حادثاً ، والحادث ما سُبق وجُودهُ بالعدم ، فيكون وجوده مسبوقاً بعدم ، وكل ما سُبق بالعدم يحتاج إلى علة تعطيه الوجود ، وإلا لزم رجحان المرجوح بلا سبب ، وهو محال ، فلو لم يكن الواجب قديماً لكان محتاجاً في وجوده إلى موجِد غيره وقد سبق أن الواجب ما وجوده لذاته ، فلا يكون ما فُرِض واجباً ، وهو تناقض محال .

ومن أحكامه أن لا يطرأ عليه عدم ، والا لزم سلب ما هو للذات عنها ، وهو يعني سلب الشيء عن نفسه ، وهو محال بالبداهة .

من أحكامه أن لا يكون مركباً ، إذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التي هي ذاته ، وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة ، فيكون وجوده جملة محتاجاً إلى وجود غيره ، وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته ، ولأنه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفاً على الحكم بوجود أجزائه ، وقد قلنا إنه له لذاته من حيث هي ذاته ، ولأنه لا مـرجح لأن يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه ، بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هي الواجبة دونه .

نفي التركيب في الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية أو خارجية ، فلا يمكن للعقل أن يحاكي ذات الواجب بمركب ، فإن الأجزاء العقلية لا بد لها من منشأ انتزاع في الخارج ، فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة في الخارج وإلا كانت ما فرض حقيقة عقلية اعتباراً كاذب الصدق لا حقيقة .

وكما لا يكون الواجب مركباً لا يكون قابلاً للقسمة في أحد الامتدادات الثلاث ، أي لا يكون له امتداد ، لأنه لو قبل القسمة لعاد بها إلى غير وجوده الأول ، وصار إلى وجودات متعددة ، وهي وجودات الأجزاء الحاصلة من القسمة ، فيكون ذلك قبولاً للعدم أو تركباً وكلاهما محال كما سبق .

الحَياة

معنى الوجود وإن كان بديهياً عند العقل لكنه يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار ، وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداهة .

كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ما هو كمال لتلك المرتبة في المعنى السابق ذكره ، وإلا كان الوجود لمرتبة سواها ، وقد فرض لها ما يتجلى للنفس من مُثُل الوجود لا ينحصر ، وأكمل مثال في أي مراتبه ما كان مقروناً بالنظام والكون على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش ، فإن كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجوداً مستمراً وإن في النوع ، كان أدل على كمال المعنى الوجودي في صاحب المثال .

فإن تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدراً لكل نظام كان ذلك عنواناً على أنها اكمل المراتب وأعلاها وأرفعها وأقواها .

وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن كما قلنا ، وظهر بالبرهان القاطع ، فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها ، فهو يستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا .

وكل ما تصوره العقل كمالاً في الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهور ، وأمكن أن يكون له ، وجب أن يثبت له . وكونه مصدراً للنظام وتصريف الأعمال على وجه لا اضطراب فيه يعد من كمال الوجود كما ذكرنا ، فيجب أن يكون ذلك ثابتاً له ، فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التي تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له .

فمما يجب أن يكون له صفة الحياة ، وهي صفة تستتبع العلم والإرادة ، وذلك إن الحياة مما يعتبر كمالاً للوجود بداهة ، فإن الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام ، وناموس

الحكمة ، وهي في أي مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار في تلك المرتبة ، فهي كمال وجودي ، ويمكن أن يتصف بها الواجب وكل كمال وجودي يمكن أن يتصف به وجب أن يثبت له ، فواجب الوجود حي ، وإن باينت حياته حياة الممكنات ، فإن ما هو كمال للوجود إنما هو مبدأ العلم والإرادة . ولو لم تثبت له هذه الصفة لكان في الممكنات ما هو أكمل منه وجوداً ، وقد تقدم إنه أعلى الموجودات وأكملها فيه .

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه ، فكيف لو كان فاقداً للحياة يعطيها ؟ فالحياة له كما أنه مصدرها .

الْعِلْمُ

ومما يجب له : صفة العلم ، ويراد به انكشاف شيء عند من ثبتت له تلك الصفة ، أي مصدر ذلك الانكشاف منه ؛ لأن العلم من الصفات الوجودية التي تُعَدُّ كمالاً في الوجود ، ويمكن أن تكون للواجب ، وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت له ، فواجب الوجود عالم .

ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال في الموجودات الممكنة، ومن الممكنات من هو عالم، فلو لم يكن الواجب عالماً لكان في الموجودات الممكنة ما هو أكمل من الوجود الواجب، وهو محال كما قدمنا.

ثم هو واهب العلم في عالم الامكان ، ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده .

علم الواجب من لوازم وجوده ، كما ترى ، فيعلو على العلوم علو وجوده عن الوجودات ، فلا يتَصَوَّرُ في العلم ما هو أعلى منه ، فيكون محيطاً بكل ما يمكن علمه ، وإلا تصور العقل علماً أشمل ، وهو إنما يكون لوجود أكمل ، وهو محال .

ما هو لازم لوجود الواجب يفنى بفنائه ويبقى ببقائه ، وعلم الواجب من لوازم وجوده ، فلا يفتقر إلى شيء مَّا وراء ذاته ، فهو أزلي ، أبدي ، غني عن الآلات ، وجولات الفكر ، وأفاعيل النظر ، فيخالف علوم الممكنات بالضرورة .

من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده في نظام الممكنات من الإحكام والإتقان ووضع كل شيء في موضعه ، وقرن كل ممكن بما يحتاج إليه في وجوده وبقائه ، وذلك ظاهر لجلي النظر مما يشاهد في الأعيان ، كبيرها وصغيرها ، عُلْوِيِّها وسُفْلِيِّها ، هذه الروابط بين الكواكب ، والنسب الثابتة بينها ، وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل عالمه أو

العالم بأسره ، وغير ذلك مما فُصّل في علوم الهيئة الفلكية ، كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره .

اعْتَبِرْ بما تراه في جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها ، وإيتائها ما تحتاج إليه في تقويم وجودها من الآلات والأعضاء ، ووضع ذلك في مواضعه من أبدانها ، وإيداع غير الحساس منها ، كالنبات قوة الميل إلى تناول ما يناسبه من الغذاء دون ما لا يلائمه ، فترى بذرة الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ في أرض واحدة ، ثم تسقى بماء واحد ، وتنمى بعناية واحدة ، ولكن تلك تمتص من المواد ما يغذي المر الزعاف وهذه تتناول ما يغدو حلو المذاق . وإرشاد الحساس منها إلى استعمال ما منح من تلك الأدوات والأعضاء ، وسوق كل قوة من قواه إلى ما قدرت له ، فهو الذي يعلم حال الجنين وهو نطفة أو علقة ، ويعلم حاجته متى تكامل خلقه وانشأه نشأة الحي المستقل في عمله ، إلى الأيدي والأرجل والأعين والمشام والآذان وبقية المشاعر الباطنة ، ويستعمل ذلك فيما يقيم وجوده ويقيه من العوادي عليه ، وحاجته إلى المعدة والقلب والكبد والرئة ونحوها من الأعضاء التي لا غنى عنها في النمو والبقاء إلى الأجل المحدود للشخص أو للنوع ، وهو الذي يعلم حالة الجروة من الكلاب ، مثلاً ، وأنها متى كبرت تلد الجراء متعددة فيمنحها أطباء[1] متكثرة ، وغير ذلك مما لا يستطاع احصاؤه ، وقد فصل الكثير منه في كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمى التاريخ الطبيعي وفنون منافع الأعضاء والطب وما يتبعه ، على أن الباحثين في كل ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الهمم وما كشفوا من الأسرار لم يزالوا في أول البحث .

هذا الصنيع الذي إنما تتفاضل العقول في فهم أسراره ، والوقوف على دقائق حكمه ، ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شيء ، الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى ؟ هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالصدفة أن يكون ينبوعاً لهذا النظام ، وواضعاً لتلك القواعد التي يقوم عليها وجود الأكوان ، عظيمها وحقيرها ؟ كلا . . بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم .

---

(١) مفردها طبي ، بضم الطاء وكسرها مع سكون الباء ، وهو حلمة المرضع ، المراد هنا كثرة حلمات الكلبة كي ترضع الجراء الكثيرة في وقت واحد .

الإرَادَة

مما يجب لواجب الوجود : الإرادة ، وهي صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة . بعد ما ثبت ان واهب وجود الممكنات هو الواجب ، وأنه عالم ، وأن ما يوجد من الممكن لا بد أن يكون على وفق علمه ، ثبت بالضرورة أنه مريد ، لأنه إنما يفعل على حسب علمه . ثم إن كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة ، وله وقت ومكان محدودان ، وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة ، وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة ، ولا معنى للإرادة إلا هذا .

أما ما يعرف من معنى الإرادة ، وهو ما به يصح للفاعل أن ينفذ ما قصده ، وأن يرجع عنه ، فذلك محال في جانب الواجب ، فإن هذا المعنى من الهموم الكونية ، والعزائم القابلة للفسخ ، وهي من توابع النقص في العلم ، فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك .

القُدْرَة

ومما يجب له : القدرة ، وهي صفة بها الإيجاد والإعدام . ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وإرادته ، فلا ريب يكون قادراً بالبداهة ، لأن فعل العالم المريد فيما علم وأراد إنما يكون بسلطة له على الفعل ولا معنى للقدرة إلا هذا السلطان .

الاخِتيَارُ

ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار ، إذ لا معنى له إلا إصدار الأمر بالقدرة على مقتضى العلم ، وعلى حكم الإرادة فهو الفاعل المختار ليس من أفعاله ولا من تصرفه في خلقه ما يصدر عنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودي بدون شعور ولا إرادة ، وليس من مصالح الكون ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف ، بحيث لو لم يراعه لتوجه عليه النقد ، فيأتيه تنزهاً عن اللائمة ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى إنما تقررت له بحكم انه أثر الوجود الواجب الذي هو أكمل الوجودات وأرفعها ، فالكمال في الكون إنما هو تابع لكمال

المُكَوِّن ، وإتقان الإبداع إنما هو مظهر لسمو مرتبة المبدع ، وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والإرادة المطلقة ، فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع ﴿أَفَحَسِبتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[1] ، وهذا هو معنى قولهم : إن أفعاله لا تُعَلَّل بالأغراض ، ولكنها تنزه عن العبث ، ويستحيل أن تخلو من الحكَم ، وإن خفي شيء من حكمته عن أنظارنا .

* * *

الْوَحْدَةُ

ومما يجب له : صفة الوحدة ، ذاتاً ووصفاً ووجوداً وفعلاً . أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفي التركيب في ذاته ، خارجاً وعقلاً ، وأما الوحدة في الصفة ، أي أنه لا يساويه في حياته الثابتة له موجود ، فَلِمَا بَيَّنَّا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود وليس في الموجودات ما يساوي واجب الوجود في مرتبة الوجود ، فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات ، وأما الوحدة في الوجود وفي الفعل ، ويعني بها التفرد بوجوب الوجود ، وما يتبعه من ايجاد الممكنات ، فهي ثابتة ، لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة ، وإلا لم يتحصل معنى التعدد ، وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة ، لأن الصفة إنما تتعين وتنال تحققها الخاص بها بتعين ما ثبتت له بالبداهة ، فيختلف العلم والارادة باختلاف الذوات الواجبة إذ يكون لكل واحدة منها علم وإرادة يباينان علم الأخرى وإرادتها ، ويكون لكل واحدة علم وإرادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها .

هذا التخالف ذاتي ، لأن علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته لا لأمر في الخارج ، فلا سبيل إلى التغير والتبدل فيهما كما سبق . وقد قدمنا أن فعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم إرادته ، فيكون فِعلُ كُلٍّ صادراً على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية ، فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإرادتهم ، وهو خلاف يستحيل معه الوفاق ، وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الايجاد في عامة الممكنات ، فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه وإرادته ، ولا مرجح لنفاذ احد القدرتين دون الأخرى ، فتتضارب أفعالهم

---

(١) المؤمنون : ١١٥ .

حسب التضارب في علومهم وإرادتهم ، فيفسد نظام الكون ، بل يستحيل معه الوفاق ، وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الإيجاد في عامة الممكنات ، فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه وإرادته ، ولا مرجح لنفاذ أحد القدرتين دون الأخرى ، فتتضارب أفعالهم حسب التضارب في علومهم وإرادتهم ، فيفسد نظام الكون ، بل يستحيل أن يكون له نظام ، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات ، لأن كل ممكن لا بد أن يتعلق به الإيجاد على حسب العلوم والأرادات المختلفة ، فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة ، وهو محال ، فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، ولكن الفساد ممتنع بالبداهة ، فهو ، جل شأنه ، واحد في ذاته وصفاته ، لا شريك له في وجوده ولا في أفعاله .

الصِّفَاتُ السَّمْعَةُ الَّتي يَجِبُ الأعْتِقَادُ بِهَا

ما قدمنا من الصفات التي يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هي ما أرشد إليه البرهان ، وجاءت به الشريعة الإسلامية ، وما تقدمها من الشرائع المقدسة ، لتأييده والدعوة إليه بلسان نبينا **محمد** ، ﷺ ، ولسان من سبقه من الأنبياء ، صلوات الله عليهم أجمعين .

ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ، ولا يحيله العقل إذا حمل على ما يليق بواجب الوجود ، ولكن لا يهتدي إليه النظر وحده ، ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعاً لما قرره الشرع ، وتصديقاً لما أخبر به .

* * *

الْكَلَامُ

فمن تلك الصفات : صفة الكلام ، فقد ورد أن الله كلم بعض انبيائه ، ونطق القرآن بأنه كلام الله. فمصدر الكلام المسموع عنه سبحانه لا بد أن يكون شأناً من شؤونه ، قديماً بقدمه ، أما الكلام المسموع نفسه ، المعبرِّ عن ذلك الوصف القديم فلا خلاف في حدوثه ، ولا في انه خَلْقٌ من خَلْقِهِ ، وخصص بالإسناد إليه لاختياره له سبحانه في الدلالة على ما أراد بلاغه لخلقه ، ولأنه صادر عن محض قدرته ، ظاهراً وباطناً ، بحيث لا مدخل لوجود آخر فيه بوجه من الوجوه سوى أن من جاء على لسانه

مَظهَرٌ لصدوره ، والقول بخلاف ذلك مصادرة للبداهة وتجرؤ على مقام القـدم بنسبة التغير والتبدل إليه ، فإن الآيات التي يقرؤها القارىء تَحْدُثُ وتَفنى بالبداهة كلما تُلِيَتْ .

والقائل بقدم القرآن المقروء أشنع حالاً وأضل اعتقاداً من كل ملة جاء القرآن نفسه بتضليلها والدعوة إلى مخالفتها ، وليس في القول بأن اللّٰه أوجد القرآن ، بدون دخل لكسب بشر في وجوده ، ما يمس شرف نسبته ، بل ذلك غاية ما دعا الدين إلى اعتقاده ، فهو السنة ، وهو ما كان عليه النبي واصحابه ، وكل ما خالفه فهو بـدعة وضلالة .

أما ما نقل إلينا من ذلك الخلاف الذي فرق الأمـة وأحدث فيهـا الأحداث ، خصوصاً في أوائل القرن الثالث من الهجرة ، وإباء بعض الأئمة أن ينطق بأن القرآن مخلوق ، فقد كان منشأه مجرد التحرج ، والمبالغة في التأديب من بعضهم ، وإلا فيجل مقام مثل الإمام ابن حنبل عن أن يعتقد أن القرآن المقروء قديم وهـو يتلوه كل ليلة بلسانه ويكيفه بصوته(١) .

* * *

الْبَصَرُ وَالسَّمْعُ

ومما ثبت له بالنقل : صفة البصر ، وهي ما به تنكشف المبصرات .

وصفة السمع ، وهي ما به تنكشف المسموعات . فهو السميع البصير ، لكن علينا أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولا حدَقة ولا باصرة .

* * *

كلَامٌ في الصِّفَاتِ إجمالاً

ابتدىء الكلام فيما اقصد بذكر حديث إن لم يصح فكتاب اللّٰه بجملته وتفصيله

---

(١) أي أن الحروف المكتوبة ، والأصوات المسموعة والمقروءة من فعل الإنسان الكاتب والقارىء ، أما المصدر الذي تعبر عنه هذه الحروف والأصوات ، والذي يعبر هو في ذات الوقت عن مراد اللّٰه فهو قديم .. وكثيرون من الأشعرية يرون هذا الرأي ، انظر في ذلك فتوى للعز بن عبد السلام في (طبقات الشافعية الكبرى) للسبكي جـ ٥ ص ٨٦ ، ٩٤ ، ٨٩ طبعة القاهرة الأولى .

يؤيد معناه ، وهو قوله ، ﷺ : «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا» .

إذا قدَّرْنا عقل البشر قدره ، وجدنا غاية ما ينتهي إليه كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني حساً كان أو وجداناً أو تعقلاً ، ثم التوصل بذلك إلى معرفة مناشئها ، وتحصيل كليات لأنواعها ، والإحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها ، أما الوصول إلى كنه حقيقتها فمما لا تبلغه قوته ، لأن اكتناه المركبات إنما هو باكتناه ما تركبت منه ، وذلك ينتهي إلى البسيط الصرف ، وهو لا سبيل إلى اكتناهه بالضرورة ، وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره ، خذ اظهر الأشياء وأجلاها ، كالضوء : قرر الناظرون فيه له أحكاماً كثيرة فصلوها في علم خاص به ، ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو ولا أن يكتنه معنى الإضاءة نفسه ، وإنما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان ، وعلى هذا القياس .

ثم إن الله لم يجعل للإنسان حاجة تدعو إلى اكتناه شيء من الكائنات ، وإنما حاجته إلى معرفة العوارض والخواص ، ولذة عقله ، إن كان سليماً إنما هي تحقيق نسبة تلك الخواص إلى ما اختصت به ، وإدراك القواعد التي قامت عليها تلك النسب ، فالاشتغال بالاكتناه إضاعة للوقت ، وصرف للقوة إلى غير ما سيقت إليه .

اشتغل الإنسان بتحصيل العلم بأقرب الأشياء إليه ، وهي نفسه ، أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هي عرض أو جوهر ؟ هل هي قبل الجسم ؟ أو بعده ؟ هل هي فيه ؟ أو مجردة عنه ؟ . . . كل هذه صفات لم يصل العقل إلى إثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه ، وإنما مبلغ جهده انه عرف أنه موجود حي له شعور وإرادة ، وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع إلى تلك العوارض التي وصل إليها ببديهته ، أمّا كنه شيء من ذلك ، وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده ، ولا يجد سبيلاً للعلم به .

هذا حال العقل الإنساني مع ما يساويه في الوجود أو ينحط عنه ، بل وكذلك شأنه فيما يظن من الأفعال إنه صادر عنه كالفكر وارتباطه بالحركة والنطق ، فما يكون من أمره بالنسبة إلى ذلك الوجود الأعلى ؟ ماذا يكون اندهاشه ، بل انقطاعه[1] إذا وجه نظره إلى ما لا يتناهى من الوجود الأزلي الأبدي ؟؟ .

---

(١) الانقطاع هنا بمعنى العجز .

النظر في الخلق يهدي بالضرورة إلى المنافع الدنيوية ، ويضيء للنفس طريقها إلى معرفة من هذه آثاره وعليها تجلّت أنواره ، وإلى إتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ما هي عليه من النظام .

وتخالف الأنظار في الكون إنما هو من تصارع الحق والباطل ، ولا بد أن يظفر الحق ويعلو الباطل بتعاون الأفكار ، أو صولة القوي منها على الضعيف .

أما الفكر في ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة ، وهو ممتنع على العقل البشري ، لما عَلمت من انقطاع النسبة بين الوجودَيْن ولاستحالة التركيب في ذاته ، وتطاول إلى ما لا تبلغه القوة البشرية . من جهة أخرى ، فهو عبث ومهلكة ؟ لأنه سعي إلى ما لا يُدْرَك ، ومهلكة لأنه يؤدي إلى الخبط في الاعتقاد ، لأنه تحديد لما لا يجوز تحديده ، وحصر لما لا يصح حصره .

لا ريب أن هذا الحديث ، وما أتينا عليه من البيان ، كما يأتي في الذات من حيث هي يأتي فيها مع صفاتها ، فالنهي واستحالة الوصول إلى الاكتناه شاملان لها ، فيكفينا من العلم بها أن نعلم إنه متصف بها ، أمَّا ما وراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ، ولا يمكن لعقولنا أن تصل إليه ، ولهذا لم يأت الكتاب العزيز ، وما سبقه من الكتب ، إلا بتوجيه النظر إلى المصنوع لينفذ منه إلى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية ، أما كيفية الاتصاف بها فليس من شأننا أن نبحث فيه .

فالذي يوجبه علينا الإيمان هو أن نعلم أنه موجود ، لا يشبه الكائنات ، أزلي ، أبدي حي ، عالم ، مريد ، قادر ، منفرد في وجوده ، وفي صفاته ، وفي صنع خلقه ، وانه متكلم ، سميع ، بصير ، وما يتبع ذلك من الصفات التي جاء الشرع بإطلاق أسمائها عليه . أما كون الصفات زائدة على الذات ، وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معاني الكتب السماوية ، وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ، ونحو ذلك من الشؤون التي اختلف عليها النظار وتفرقت فيها المذاهب فمما لا يجوز الخوض فيه ، إذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل إليه ، والاستدلال على شيء منه بالألفاظ الواردة ضعف في العقل وتغرير بالشرع ، لأن استعمال اللغة لا ينحصر في الحقيقة ، ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تُراعى فيه الوجودات بكنهها

الحقيقي ، وإنما تلك مذاهب فلسفة ، إن لم يضل فيها أَمْثَلُهُمْ فلم يهتد فيها فريق إلى مقنع . فما علينا إلا الوقوف عندما تبلغه عقولنا ، وأن نسأل اللّٰه أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدمنا .

* * *

أفعال اللّٰه

جَلَّ شَأْنُهُ

أفعال اللّٰه صادرة عن علمه وإرادته ، كما سبق تقديره ، وكل ما صدر عن علم وإرادة فهو عن الاختيار ، ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته ، فلا شيء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته فجميع صفات الأفعال من : خلق ، ورزق ، وإعطاء ، ومنع ، وتعذيب ، وتنعيم ، مما يثبت له تعالى بالإمكان الخاص ، فلا يطوفن بعقل عاقل ـ بعد تسليم انه فاعل عن علم وإرادة ـ أن يتوهم أن شيئاً من أفعاله واجب عنه لذاته ، كما هو الشأن في لوزام الماهيات ، أو في اتصاف الواجب بصفاته مثلاً ، فإن ذلك هو التناقض البديهي الاستحالة ، كما سبقت الإشارة إليه .

بقيت علينا جولة نظر في تلك المقالات الحمقى التي اختبط فيها القوم اختباط إخوة تفرقت بهم الطرق في السير إلى مقصد واحد ، حتى إذا التقوا في غسق الليل صاح كل فريق بالآخر صيحة المستنجد ، فظن كل أن الآخر عدو يريد مقارعته على ما بيده ، فاستمر بينهم القتال ، ولا زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب ، ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد إلى من بقي ، وهم الناجون ، ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعاً على بلوغ ما أملوا ، ولوافتهم الغاية إخواناً بنور الحق مهتدين ، نريد تلك المقالات المضطربة في انه يجب على اللّٰه رعاية المصلحة في أفعاله[1]، وتحقيق وعيده فيمن

---

(١) وهو ما يعرف عند المعتزلة من أن اللّٰه سبحانه يجب عليه فعل الصلاح والأصلح لعباده .

تعدى حدوده من عبيده[1] ، وما يتلو ذلك من وقوع أعماله تحت العلل والأعراض ، فقد بالغ قوم في الإيجاب حتى ظن الناظر في مزاعمهم أنهم عدوه واحداً من المكلفين ، يفرض عليه أن يجهد للقيام بما عليه من الحقوق وتأدية ما لزمه من الواجبات ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

وغلا آخرون في نفي التعليل عن أفعاله حتى خيل للممعن في مقالاتهم أنهم لا يرضونه إلا قُلبّاً يبرم اليوم ما نقضه بالأمس ، ويفعل غداً ما أخبر بنقيضه اليوم ، أو غافلاً لا يشعر بما يستتبعه عمله . ﴿سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمّا يَصِفُونَ﴾[2] وهو أحكم الحاكمين وأصدق القائلين ، جبروت اللّه وطهارة دينه أعلى وأرفع من هذا كله .

اتفق الجميع على أن أفعاله تعالى لا تخلو من حكمة ، وصرح الغلاة والمقصرون جميعاً بأنه تعالى منزه عن العبث في أفعاله ، والكذب في أقواله ، ثم بعد هذا أخذوا يتنابذون بالألفاظ ويتمارون في الأوضاع ، ولا يُدرى إلى أي غاية يقصدون ، فلنأخذ ما اتفقوا عليه ، ولنرد إلى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه .

حكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحفظ نظاماً أو يدفع فساداً، خاصاً كان أو عاماً ، لو كشف للعقل من أي وجه لعقله ، وحكم بأن العمل لم يكن عبثاً ولعباً ، ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع إلى هذا حاكمناه إلى أوضاع اللغة ، وبداهة العقل . لا يسمى ما يترتب على العمل حكمة ، ولا يتمثل عند العقل بمثالها إلا إذا كان ما يتبع العمل مراداً لفاعله بالفعل ، وإلا لعُدَّ النائم حكيماً فيما لو صدرت عنه حركة في نومه قتلت عقرباً كاد يلسع طفلاً ، أو دفعت صبياً عن حفرة كاد يسقط فيها ، بل لوسِم بالحكمة كثير من العجماوات إذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصة أو العامة ، والبداهة تأباه .

من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء أن أفعال العاقل تصان عن

---

(١) وهو أحد الأصول الخمسة عند المعتزلة ، سموه صدق الوعد والوعيد ، وأحالوا عليه أن يتخلف وعده للطائعين ووعيده للعاصين . انظر الفصل الذي كتبناه عن هذه الأصول الخمسة في بحثنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية) .

(٢) الصافات : ١٨٠ .

العبث . ولا يريدون من العاقل إلا العالم بما يصدر عنه بإرادته ، ويريدون من صونها عن العبث أنها لا تصدر إلا لأمر يترتب عليها ، يكون غاية لها ، وإن كان هذا في العاقل الحادث فما ظنك بمصدر كل عقل ومنتهى الكمال في العلم والحكم ؟ كلها مسلمات لا ينازع فيها أحد .

صنع اللّه الذي اتقن كل شيء ، وأحسن خلقه ، مشحون بضروب الحكم ، ففيه ما قامت به السماوات والأرض وما بينهما ، وحفظ به نظام الكون بأسره ، وما صانه عن الفساد الذي يفضي به إلى العدم ، وفيه ما استقامت به مصلحة كل موجود على حدته ، خصوصاً ما هو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان ، ولولا هذه البدائع من الحكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه .

فهذه الحكم التي نعرفها الآن بوضع كل شيء في موضعه ، وإيتاء كل محتاج ما له إليه الحاجة ، إما أن تكون معلومة له مرادة مع الفعل أم لا . . لا يمكن القول بالثاني ، وإلا لكان قولاً بقصور العلم ان لم تكن معلومة، أو بالغفلة ان لم تكن مرادة، وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شيء ، واستحالة غيبة أثر من آثاره عن إرادته ، فهو يريد الفعل ، ويريد ما يترتب عليه من الحكمة ، ولا معنى لهذا إلا إرادته للحكمة من حيث هي تابعة للفعل .

ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل ، مع العلم بارتباطها به ، فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة ، وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة ، إذ لو صح توهم أن ما يترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة ، كما سبق .

فوجوب الحكمة في أفعاله تابع لوجوب الكمال في علمه وإرادته ، وهو مما لا نزاع فيه بين جميع المتخالفين ، وهكذا يقال في وجوب تحقيق ما وعد وأوعد به ، فإنه تابع لكمال علمه وإرادته وصدقه ، وهو أصدق القائلين ، وما جاء في الكتاب أو السنة مما قد يوهم خلاف ذلك يجب إرجاعه إلى بقية الآيات وسائر الآثار ، حتى ينطبق الجميع على ما هدت إليه البديهات السابق إيرادها ، وعلى ما يليق بكمال اللّه ، وبالغ حكمته ، وجليل عظمته ، والأصل الذي يرجع إليه كل وارد في هذا الباب قوله تعالى : ﴿**وَمَا خلقنا السَّماء والأرْض ومَا بيْنَهُما لاعبين ، لوْ أَرَدنا أَنْ نتَّخِذ لَهْواً لاتَّخذْنَاهُ منْ لدُنا إن كُنَّا**

فاعِلِينَ ، بَلْ نَقْذِفُ بالحقِّ على الباطِلِ فيَدْمغُهُ فإذا هُو زاهِقٌ ولكُمُ الوَيلُ مِمّا تصِفُون﴾[1] .

وقوله : ﴿لاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنّا﴾ أي لصدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق ، الذي لا يشوبه نقص ، وهو محال ، وإن في قوله : ﴿إن كُنا فاعِلِينَ﴾ ، نافية ، وهو نتيجة القياس السابق .

بقي أن الناظرين في هذه الحقائق ينقسمون إلى قسمين : فمنهم من يطلب علمها لأنه شهوة العقل وفيه لذته ، فهذا القسم يسمي المعاني بأسمائها ولا يبالي جوز الشرع إطلاقها في جانب اللّه أم لم يجوِّز ، فيسمي الحكمة غاية وغرضاً ، وعلة غائية ، ورعاية للمصلحة ، وليس من رأيه أن يجعل لقلمه عناناً يرده عن إطلاقه اسما متى صح عنده معناه ، وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له ، غير مبال بما يوهمه اللفظ .

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة ان ذلك دين يتعبد به ، واعتقاد بشؤون لإله عظيم يُعبد بالتحميد والتعظيم ، ويجب الاحتياط في تنزيهه حتى بعفة اللسان عن النطق بما يوهم نقصاً في جانبه ، فيتبرأ من تلك الألفاظ ، مفردها ومركبها ، فإن الوجوب عليه يوهم التكليف والإلزام ، وبعبارة أخرى يوهم القهر والتأثر بالأغيار ، ورعاية المصلحة توهم إعمال النظر وإجالة الفكر ، وهما من لوازم النقص في العلم والغاية ، والعلة الغائية والغرض توهم حركة في نفس الفاعل من قبل البدء في العمل إلى نهايته ، وفيها ما في سوابقها ، ولكن اللّه أكبر . . هل يصح أن تكون سعة المجال أو التعفف في المقال سبباً في التفرقة بين المؤمنين ، وتماريهم في الجدال حتى ينتهي بهم التفرق إلى ما صاروا إليه من سوء الحال ؟! .

أفعال العباد

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه انه موجود ، ولا يحتاج في ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده ، كذلك يشهد انه مدرك لأعماله الاختيارية ، يزن نتائجها

---

(١) الأنبياء : ١٦ ـ ١٨ .

بعقله ، ويقدرها بإرادته ، ثم يُصدرها بقدرة ما فيه ، ويُعَدُّ إنكار شيء من ذلك مساوياً لانكار وجوده ، في مجافاته لبداهة العقل .

كما يشهد بذلك في نفسه يشهده أيضاً في بني نوعه كافة ، متى كانوا مثله في سلامة العقل والحواس ، ومع ذلك فقد يريد إرضاء خليل فيغضبه ، وقد يطلب كسب رزق فيفوته ، وربما سعى إلى منجاة فسقط في مهلكة ، فيعود باللائمة على نفسه إن كان لم يحكم النظر في تقدير فعله ، ويتخذ من خيبته أول أمره مرشداً له في الأخرى ، فيعاود العمل من طريق أقوم وبوسائل أحكم ، ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهي ، إن كان سبب الاخفاق في المسعى منازعة منافس له في مطلبه ؛ لوجدانه من نفسه انه الفاعل في حرمانه ، فينبري لمناضلته ، وتارة يتجه إلى أمر أسمى من ذلك ، إن لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره دخل فيما لقي من مصير عمله ، كأن هب ريحٌ فأغرق بضاعته ، أو نزل صاعق فأحرق ماشيته ، أو علق أمله بمعينٍ فمات ، أو بذي منصب فَعُزل ، يتجه من ذلك إلى أن في الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته ، وأن وراء تدبيره سلطاناً لا تصل إليه سلطته ، فإن كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل إلى أن حوادث الكون بأسره مستندة إلى واجب وجود واحد ، يصرفه على مقتضى علمه وإرادته ، خشع وخضع ، ورد الأمر إليه فيما لقي ، ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقي ، فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الممكنات ، يشهد بالبداهة أنه في أعماله الاختيارية ، عقلية كانت أو جسمانية ، قائم بتصريف ما وهب اللّٰه له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله ، وقد عرف القوم شكر اللّٰه على نعمه فقالوا : هو صرف العبد جميع ما أنعم اللّٰه به عليه إلى ما خلق لأجله .

على هذا قامت الشرائع ، وبه استقامت التكاليف ، ومن أنكر شيئاً منه فقد أنكر مكان الإيمان من نفسه ، وهو عقله الذي شرفه اللّٰه بالخطاب في أوامره ونواهيه .

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم اللّٰه وإرادته وقدرته ، وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار ، فهو من طلب سر القدر الذي نُهينا عن الخوض فيه ، واشتغال بما لا يكاد تصل العقول إليه ، وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصاً من المسيحيين والمسلمين ، ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفاً حيث ابتدأوا وغاية ما فعلوا أن فرقوا وشتتوا ، فمنهم

القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلالها المطلق[١] ، وهو غرور ظاهر ، ومنهم من قال بالجبر وصرح به[٢] ، ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه[٣]، وهو هدم للشريعة ومحو للتكاليف وإبطال لحكم العقل البديهي ، وهو عماد الإيمان .

ودعوى ان الاعتقاد بكسب العبد لأفعاله يؤدي إلى الإشراك بالله ، وهو الظلم العظيم ، دعوى من لم يلتفت إلى معنى الإشراك على ما جاء به الكتاب والسنة ، فالإشراك : اعتقاد أن لغير الله أثراً فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة ، وأن لشيء من الأشياء سلطاناً على ما خرج عن قدرة المخلوقين . وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعيناً به فيما لا يقدر العبد عليه ، كالاستنصار في الحرب بغير قوة الجيوش . والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التي هدانا الله إليها ، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التي شرعها الله لنا . هذا هو الشرك الذي كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم ، فجاءت الشريعة الإسلامية بمحوه ، ورد الأمر فيما فوق القدرة البشرية والأسباب الكونية إلى الله وحده ، وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية :

الأول : أن العبد يكسب بإرادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته .

والثاني : إن قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات ، وإن من آثارها ما يحول بين العبد وبين انفاذ ما يريده ، وأن لا شيء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه .

جاءت الشريعة لتقرير ذلك ، وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه في توفيقه إلى إتمام عمله ، بعد إحكام البصيرة فيه ، وتكليفه بأن يرفع همته إلى استمداد العون منه وحده ، بعد أن يكون قد أفرغ ما عنده من الجهد في تصحيح الفكر وإجادة العمل . ولا يسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب إلى غير ذلك .

---

(١) هم المعتزلة ومن رأى رأيهم .

(٢) وهم الجبرية الخلص ، وأول فرقهم «الجهمية» أتباع الجهم بن صفوان ، المتوفي سنة ١٢٨ هـ ، وسارت على دربهم هذا فرق كثيرة .انر الفصل الذي كتبناه عن الجبرية في بحثنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية) .

(٣) هم الأشعرية الذين لا يغني عنهم قولهم بالكسب شيئاً من الاتفاق في نهاية المطاف مع الجبرية . انظر في ذلك بحثنا السابق أيضاً .

وهذا الذي قررناه قد اهتدى إليه سلف الأمة فقاموا من الأعمال بما عجبت له الأمم ،وعول عليه من متأخري أهل النظر إمام الحرمين الجويني ، رحمه اللّه ، وإن أنكر عليه بعض من لم يفهمه .

أكرر القول بأن الإيمان بوحدانية اللّه لا يقتضي من المكلف إلا اعتقاد أن اللّه صرفه في قواه فهو كاسب لإيمانه ولما كلفه اللّه به من بقية الأعمال ، واعتقاد أن قدرة اللّه فوق قدرته ، ولها وحدها السلطان الأعلى في إتمام مراد العبد بإزالة الموانع أو تهيئة الأسباب المتممة مما لا يعلمه ولا يدخل تحت إرادته .

أما التطلع إلى ما هو أغمض من ذلك فليس من مقتضى الإيمان ، كما بينا ، وإنما هو من شرَهِ العقول في طلب رفع الاستار عن الأسرار ، ولا أنكر أن قوماً قد وصلوا بقوة العلم ، والمثابرة على مجاهدة المدارك إلى ما أطمأنت به نفوسهم وتقشعت به حيرتهم ، ولكن قليل ما هم . على أن ذلك نور يقذفه اللّه في قلب من شاء ، ويخص به أهل الولاية والصفاء . وكثر ما ضل قوم وأضلوا ، وكان لمقالاتهم أسوأ الأثر فيما عليه حال الأمة اليوم ، لو شئتُ لقرَّبتُ البعيد فقلت : إن مِن بَالِغ الحكم في الكون أن تتنوع الأنواع على ما هي عليه في العيان ، ولا يكون النوع ممتازاً عن غيره حتى تلزمه خواص ، وكذا الحال في تميز الأشخاص ، فواهب الوجود يهب الأنواع والأشخاص وجودها على ما هي عليه ، ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه .

* * *

اخْتِيَارُ الإنْسَانِ

ومن تلك الأنواع الإنسان ، ومن مميزاته حتى يكون غير سائر الحيوانات ، أن يكون مفكراً مختاراً في عمله على مقتضى فكره ، فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه ، ولو سُلِب شيء منها لكان إما مَلكاً أو حيواناً آخر ، والفرض انه الإنسان ، فهبة الوجود له لا شيء فيها من القهر على العمل .

ثم عِلْم الواجب محيط بما يقع من الإنسان بإرادته ، وبأن عمل كذا يصدر في وقت كذا ، وهو خير يثاب عليه ، وأن عملاً آخر شر يعاقب عليه . عقاب الشر

والأعمال في جميع الأحوال حاصلة عن الكسب والاختيار ، فلا شيء في العلم بسالب للتخيير في الكسب ، وكون ما في العلم يقع لا محالة إنما جاء من حيث هو الواقع ، والواقع لا يتبدل ، وليس لشيء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر في اختياره ، لا بالمنع ولا بالالزام ، فانكشاف الواقع للعالم لا يصح في نظر العقل ملزماً ولا مانعاً ، وإنما يربك الوهم تغيير العبارات وتشعب الألفاظ . ولو شئت لزدت في بيان ذلك ورجوت أن لا يبعد عن عقل ألِف النظر الصحيح ، ولم تفسد فطرته بالمماحكات اللفظية ، لكن يمنعني عن الإطالة فيه عدم الحاجة إليه في صحة الإيمان وتقاصر عقول العامة عن إدراك الأمر في ذاته مهما بالغ المعبر في الإيضاح عنه ، والتياث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد ، فهم يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه ، ولا يريدون إلا موافقاً لما يعتقدون ، فإن جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا في مقاومته وان أدى ذلك إلى جحد العقل برمته ، فأكثرهم يعتقد فيستدل ، وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد ، فإن صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم : ويل للخابط ، ذلك قلب لسنة اللّٰه في خلقه ، وتحريف لهديه في شرعه ، عرتهم هزة من الجزع ، ثم عادوا إلى السكون محتجين بأن هذا هو المألوف ، وما أقمنا إلا على معروف ، ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه العلي العظيم .

* * *

حُسْنُ الأفعَالِ وَقُبْحُهَا

الأفعال الإنسانية الاختيارية لا تخرج عن أن تكون من الأكوان الواقعة تحت مداركنا ، وما تنفعل به نفوسنا عند الإحساس بها أو استحضار صورها يشابه كل المشابهة ما تنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا أو حضورها في مخيلاتنا ، وذلك بديهي لا يحتاج إلى دليل .

نجد في أنفسنا بالضرورة تمييزاً بين الجميل من الأشياء والقبيح منها ، فإن اختلفت مشارب الرجال في فهم جمال النساء ، أو مشارب النساء في معنى جمال الرجال ، فلم يختلف أحد في جمال ألوان الأزهار ، وتنضيد أوراق النباتات والأشجار ، خصوصاً إذا كانت أوضاع الزهر على أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين تلك الألوان بعضها مع بعض ، ولا في قبح الصورة الممثل بها بتهشيم بعض أجزائها ، وانقطاع البعض الآخر على غير نظام ، وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة أو إعجاباً ، ومن القبيح

اشمئزازاً أو جزعاً ، وكما يقع هذا التمييز في المبصرات يقع في غيرها من المسموعات والملوسات والمذوقات والمشمومات ، كما هو معروف لكل حساس من بني آدم بإحدى تلك الحواس .

ليس هذا موضع تحديد ما هو الجمال وما هو القبح في الأشياء ، ولكن لا يخالفنا أحد في أن من خواص الإنسان ، بل وبعض الحيوان ، التمييز بينهما ، وعلى هذا التمييز قامت الصناعات على اختلاف أنواعها ، وبه ارتقى العمران في أطواره إلى الحد الذي نراه عليه الآن ، وإن اختلفت الأذواق ففي الأشياء جمال وقبح .

* * *

هذا في المحسوسات واضح كما سبق ، ولعله لا ينزل عن تلك الدرجة في الوضوح ما يلم به العقل من الموجودات المعقولة ، وإن اختلف اعتبار الجمال فيها ، فالكمال في المعقولات كالوجود الواجب ، والأرواح اللطيفة ، وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه ، وتنبهر له بصائر لاحظيه ، وللنقص قبح لا تنكره المدارك العالية ، وإن اختلف أثر الشعور ببعض أطواره في الوجدان من أثر الأحساس بالقبيح في المحسوسات ، وهل في الناس من ينكر قبح النقص في العقل ، والسقوط في الهمة ، وضعف العزيمة ؟؟ ويكفي أن أرباب هذه النقائص المعنوية يجاهدون في اخفائها ويفخرون أحياناً بأنهم متصفون بأضدادها .

وقد يجمل القبيح بجمال أثره ، ويقبح الجميل بقبح ما يقترن به ، فالمر قبيح مستبشع ، والملك الدميم المشوه الخلقة ينبو عنه النظر ، لكن أثر المر في معالجة المرض ، وعدل الدميم في رعيته ، أو إحسانه إليك في خاصة نفسك ، يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته ، فإن جمال الأثر يلقي على صاحبه أشعة من بهائه ، فلا يشعر الوجدان منه إلا بالجميل . ومثل ذلك يقال في قبح الحلو إذا أمر ، واشمئزاز النفس من الجميل إذا ظلم وأضر .

هل يمكن لعاقل أن لا يقول في الأفعال الاختيارية كما قال في الموجدات الكونية ، مع أنها نوع منها ، وتقع تحت حواسنا ومداركنا العقلية ، إما بنفسها وإما بأثرها ، وتنفعل نفوسنا بما يلم بها منها كما تنفعل بما يرد عليها من صور الكائنات ؟؟ . . كلا . .

بل هي قسم من الموجدات ، حكمها في ذلك حكم سائرها بالبداهة .

* * *

فمن الأفعال الإختيارية ما هو معجب في نفسه ، تجد النفس منه ما تجد من جمال الخلق ، كالحركات العسكرية المنتظمة ، وتقلب المهرة من اللاعبين في الألاعيب المعروفة اليوم «بالجمناستيك» ، وكإيقاعات النغمات على القوانين الموسيقية من العارف بها ، ومنها ما هو قبيح في نفسه ، يحس منه ما يحس من رؤية الخَلْق المشوه ، كتخبط ضعفاء النفوس عند الجزع ، وكولولة النائحات ونقع[1] المذعورين .

ومنها ما هو قبيح لما يعقبه من الألم ، وما هو حسن لما يجلب من اللذة أو دفع الألم ، فالأول كالضرب والجرح وكل ما يؤلم من أفعال الإنسان ، والثاني كالأكل على جوع والشرب على عطش ، وكل ما يُحصِّل لذة أو يدفع ألماً لا يحصى عده ، وفي هذا القسم يكون الحسن بمعنى ما يلذ والقبيح بمعنى المؤلم .

وقلما يختلف تمييز الإنسان للحسَن والقبيح من الأفعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية في سلسلة الوجود ، اللهم إلا في قوة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح .

* * *

ومن الأفعال الاختيارية ما يحسن باعتبار ما يجلب من النفع ، وما يقبح بما يجر إليه من الضرر ، ويختص الإنسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى إذا أخذ من أكمل وجهاته ، وقلما يشاركه فيه حيوان آخر ، اللهم إلا من أحط جهاته وهو خاصة العقل وسر الحكمة الإلهية في هبة الفكر .

فمن اللذيذ ما يقبح لشؤم عاقبته ، كالإفراط في تناول الطعام والشراب ، والانقطاع إلى سماع الأغاني ، والجري في أعقاب الشهوات ، فإن ذلك مفسدة للصحة ، مضيعة للعقل ، متلفة للمال ، مدعاة للعجز والذل ، وإنما قبح اللذيذ في هذا الموضع لقصر مدته ، وطول مدة ما يجر إليه عادة من الآلام التي قد لا تنتهي إلا بالموت

---

(١) من معانيه ارتفاع الصوت والغبار ، وشق الجيوب .

على أسوأ حالاته ، ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومُقاسات شدائد الألم .

ومن المؤلم ما يحسن كتجشم مشاق التعب في الأعمال لكسب الرزق ، وتأمين النفس على حاجاتها في أوقات الضعف ، ومجاهدة الشهوات ، ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حيناً من الزمن ليتوفر للقوى البدنية والعقلية حظها من التمتع بما قُدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لا يخالطه اضطراب ، أو على نمط يخفف من رزايا الحياة ، إن عدت الحياة مثاراً لها .

ومن المؤلم الذي عده العقل البشري حسناً مقارعة الإنسان عدوه ، سواء كان من نوعه أو من غيره ، للمدافعة عن نفسه أو عن أنصاره ، ومنهم بنو أبيه أو قبيلته أو شعبه أو أمته ، حسب ارتقائه في الاحساس ، ومخاطرته حتى بحياته في سبيل ذلك ، كأنه يرى في بذل هذه الحياة أمناً على حياة أخرى تشعر بها نفسه وان لم يحددها عقله .

ومنه معاناة التعب في كشف ما عمي عن علمه من حقائق الكون ، كأنه لا يرى المشقة في ذلك شيئاً بالقياس إلى ما يُحصِّل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ماله من الاستطاعة .

وعُدَّ من اللذيذ المستقبح مد اليد إلى ما كسبه الغير بسعيه واستشفاء ألم الحقد بإتلاف نفس المحقود عليه أو ماله ، لما في ذلك من جلب المخافة العامة حتى على ذات المعتدي ، ويمكنك من نفسك استحضار ما يتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها .

كل هذا عرفه العقل البشري ، وفرَّق فيه بين الضار والنافع ، وسمى الأول فعل الشر والثاني عمل الخير ، وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة ، وقد حددهما النظر الفكري على تفاوت في الإجمال والتفصيل للتفاوت في درجات عقول الناظرين ، وناط بهما سعادة الإنسان وشقاءه في هذه الحياة ، كما ربط بهما نظام العمران البشري وفساده وعزة الأمم وذلتها وضعفها وقوتها ، وإن كان المحددون لذلك والآخذون فيه بحظ من الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر .

* * *

كل هذا من الأوليات العقلية ، لم يختلف فيه مِلِّيّ ولا فيلسوف . فللأعمال الاختيارية ، حُسْن وقُبح في نفسها ، أو باعتبار أثرها في الخاصة أو في العامة ، والحس أو العقل قادر على تمييز ما حَسُن منها وما قبح بالمعاني السابقة ، بدون توقف على سمع .

والشاهد على ذلك ما تراه في بعض أصناف الحيوان ، وما نشهده من أفاعيل الصبيان قبل تعقل ما معنى الشرع ، وما وصل إلينا من تاريخ الإنسان وما عرف عنه في جاهليته .

ومما يحسن ذكره هنا ما شاهده بعض الناظرين في أحوال النمل ، قال : كانت جماعة من النمل تشتغل في بيت لها ، فجاءت نملة كأنها القائمة بمراقبة العمل ، فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع المناسب ، فأمرت بهدمه ، فهدم ، ورفع البنيان إلى الحد الموافق ، ووضع السقف على أرفع مما كان ، وذلك من انقاض السقف القديم . وهذا هو التمييز بين الضار والنافع ، فمن زعم أن لا حسن ولا قبح في الأعمال على الاطلاق فقد سلب نفسه العقل ، بل عدها أشد حمقاً من النمل .

* * *

سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل ، فإذا وصل مستدل ببرهانه إلى إثبات الواجب وصفاته غير السمعية ، ولم تبلغه بذلك رسالة ، كما حصل لبعض أقوام من البشر ، ثم انتقل من النظر في ذلك وفي أطوار نفسه إلى أن مبدأ العقل في الإنسان يبقى بعد موته ، كما وقع لقوم آخرين ، ثم انتقل من هذا مخطئاً أو مصيباً ، إلى أن بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعي سعادة لها فيه أو شقاء ، ثم قال : إن سعادتها إنما تكون بمعرفة اللّٰه وبالفضائل ، وإنها إنما تسقط في الشقاء بالجهل باللّٰه وبارتكاب الرذائل ، وبنى على ذلك ان من الأعمال ما هو نافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة ، ومنها ما هو ضار لها بعده بإيقاعها في الشقاء ، فأي مانع عقلي أو شرعي يحظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله : ان معرفة اللّٰه واجبة ، وأن جميع الفضائل وما يتبعها من الأعمال مفروضة ، وان الرذائل وما يكون عنها محظورة ؟؟ وأن يصنع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر إلى الاعتقاد بمثل ما يعتقد، وإلى أن يأخذ من الأعمال بمثل ما أخذ به حيث لم يوجد شرع يعارضه .

أما أن يكون ذلك حالاً لعامة الناس ، يعلمون بعقولهم أن معرفة اللّٰه واجبة ، وأن الفضائل مناط السعادة في الحياة الأخرى ، والرذائل مدار الشقاء فيها ، فمما لا يستطيع عاقل أن يقول به ، والمشهود من حال الأمم كافة يضلل القائل به في رأيه .

لو كانت حاجات الإنسان ومخاوفه محدودة كما هي حاجات فيل أو أسد مثلاً ،

وكان ما وهب له من الفكر واقفاً عند حد ما إليه الحاجة ، لاهتدى إلى من المنع وإتقاء المضار على وجه لا يختلف فيه أفراده ، ولسعدت حياته وتخلص كل من شر الآخر ، ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع . لكن قضى عليه حكم نوعه بأن لا يكون لحاجته حد ، ولا تختص معيشته بجو من الأجواء ولا بوضع من الأوضاع ، وأن يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله في سد عوزه وتوفير لذاته ، في أي إقليم ، وعلى أي حال ، وأن يختلف ظهور هذه المدارك في أطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافاً لا تنتهي درجاته ، ولولا هذا لما اختلفت عن بقية الحيوانات إلا باستقامة القامة وعرض الأظفار .

* * *

وهب اللّه الإنسان أو سلط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان : الذاكرة ، والمخيلة ، والمفكرة .

فالذاكرة : تثير من صور الماضي ما ستره الاشتغال بالحاضر ، فتستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه إليه الأشباه أو الأضداد الحاضرة ، فقد يذكر الشيء بشَبَهه وقد يذكره بضده ، كما هو بديهي .

والخيال : يجسم من المذكور ، وما يحيط به من الأحوال ، حتى يصير كأنه شاهد ، ثم ينشىء له مثال لذة أو ألم في المستقبل يحاكي ما ذهب به الماضي ، ويهمز للنفس في طلبه أو الهرب منه فتلجأ إلى **الفكر** : في تدبير الوسيلة إليه .

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الإنسان ، ومنها ينبوع بلائه . فمن الناس معتدل الذكر هادىء الخيال صحيح الفكر ، ينظر مثلاً في حال مسرف أنفق ماله في غير نافع ، وضاقت يده عما يقيم معيشته ، فيذكر ألماً لحاجة مضت ، ثم يتخيل المال ومنافعه وما تتمتع به النفس من اللذة به ، سواء في سد حاجاته ، أو في دفع الألم الذي يحدثه مشهد الفاقة في غيره ، بإعطاء المضطر ما يذهب بضرورته ، ثم يتخيل ذلك المآل آتياً من وجوهه التي لا يتعلق بها حق من حقوق غيره ، وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسيلة إليه من تلك الوجوه بالعمل القويم في استخدام ما وهبه اللّه من القوى في نفسه وما سخره له من قوى الكون المحيط به .

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال ، يرى مالاً مثلاً في يد غيره ، فيتذكر لذةً

ماضية أصابها بمثل هذا المال ، ويُعَظِّم له الخيال لذة مثلها في المستقبل ، ولا يزال يعظم في تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع ظل الخيال عل طريق الفكر فيستر عنه ما طاب من وجوه الكسب ، وإنما يعمد إلى استعمال قوته أو حيلته في سلب المال من يد مالكه ، لينفقه فيما تخيل من المنفعة ، فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له ، وأخل بالأمن الذي أفاضه اللّه بين عباده ، وسَنَّ سنة الاعتداء ، فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول إلى الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله .

وخفيف من النظر في أعمال البشر يجليها جميعاً على نحو ما بينا في المثالين ، فلقوة الذاكرة وضعفها ، ولحدة الخيال واعتداله ، واعوجاج الفكر واستقامته أعظم الأثر في التمييز بين النافع والضار في أشخاص الأعمال ، وللأمزجة والأجواء وما يحتف بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم في التخيل والفكر ، بل وفي الذكر .

فالناس متفقون على أن من الأعمال ما هو نافع ، ومنها ما هو ضار ، وبعبارة أخرى : منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح ، ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه إصابة وجه الحق في معرفة ذلك . ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة وان كان مؤلماً في الحال ، وان القبيح ما جر إلى فساد في النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به ، وإن عظمت لذته الحاضرة ، ولكنهم يختلفون في النظر إلى كل عمل بعينه اختلافهم في أمزجتهم وسِحَنِهِمْ ومناشئهم وجميع ما يكتنف بهم ، فلذلك ضربوا إلى الشر في كل وجه ، وكل يظن أنه إنما يطلب نافعاً ويتقي ضاراً .

فالعقل البشري وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته في هذه الحياة ، اللهم إلا في قليل ممن لم يعرفهم الزمن ، فإن كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم اشار إليهم الدهر بأصابع الأجيال ، وقد سبقت الإشارة إليهم فيما مر .

وليست عقول الناس سواء في معرفة اللّه تعالى ، ولا في معرفة حياة بعد هذه الحياة ، فهم وإن اتفقوا في الخضوع لقوة أسمى من قواهم ، وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم ، ولكن أفسدت الوثنية عقولهم ، وانحرفت بها عن مسلك السعادة ، فليس في سعة العقل الإنساني في الأفراد كافة أن يعرف من اللّه ما يجب أن يعرف ، ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغي أن يفهم ، ولا أن يقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه في

تلك الدار الآخرة ، وإنما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصه اللّٰه بكمال العقل ، ونور البصيرة ، وإن لم ينل شرف الاقتداء بهدي نبوي ، ولو بلغه لكان أسرع الناس إلى اتباعه ، وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم إلى العرفان من وجه غير ما يليق في الحقيقة أن ينظر منه إلى الجلال الإلهي .

ثم من أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشري أن يصل إليه وحده ، وهو تفصيل اللذائذ والآلام ، وطرق المحاسبة على الأعمال ولو بوجه ما ، ومن الأعمال ما لا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه ، لا في هذه الحياة ولا فيما بعدها ، كصور العبادات ، كما يرى في أعداد الركعات ، وبعض الأعمال في الحج في الديانة الإسلامية وكبعض الاحتفالات في الديانة الموسوية ، وضروب التوسل والزهادة في الديانة العيسوية ، كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشري أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه ، ويعلم اللّٰه أن فيه سعادته .

لهذا كله كان العقل الإنساني محتاجاً ، في قيادة القوى الإدراكية والبدنية إلى ما هو خير له في الحياتين ، إلى معين يستعين به في تحديد أحكام الأعمال وتعيين الوجه في الاعتقاد بصفات الألوهية ، ومعرفة ما ينبغي أن يعرف من أحوال الآخرة ، وبالجملة في وسائل السعادة في الدنيا والآخرة ، ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من جنسه ، ليفهم منه أو عنه ما يقول ، وحتى يكون ممتازاً على سائر الأفراد بأمر فائق على ما عرف في العادة وما عرف في سنة الخليقة ، ويكون بذلك مبرهناً على أنه يتكلم عن اللّٰه الذي يعلم مصالح العباد على ما هي عليه ، ويعلم صفاته الكمالية ، وما ينبغي أن يعرف منها ، والحياة الآخرة ، وما أعد فيها ، فيكون الفهم عنه ، والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير ، معيناً للعقل على ضبط ما تشتت عليه ، أو درك ما ضعف عن إدراكه ، وذلك المعين هو النبي .

النبوة تحدد ما ينبغي أن يلحظ في جانب واجب الوجود من الصفات ، وما يحتاج إليه البشر كافة من ذلك ، وتشير إلى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضُلوا به غيرهم من مقامات عرفانهم ، لكنها لا تحتم إلا ما فيه الكفاية للعامة ، فجاءت النبوات مطالبة بالاعتقاد بوجود اللّٰه ، وبوحدانيته ، وبالصفات التي اثبتناها ، على الوجه الذي بيناه ، وأرشدت إلى طرق الاستدلال على ذلك ، فوجوب المعرفة على هذا الوجه المخصوص ، وحسن المعرفة ، وحظر الجهالة والجحود بشيء أوجبه الشرع في ذلك

وقبحه مما لا يعرف إلا من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس ، ولو استقل عقل بشري بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاقتناع الذي هو عماد الطمأنينة ، فإن زيد على ذلك أن العرفان ، على ما بيّنه الشرع ، يستحق المثوبة المعينة فيه ، وضده يستحق العقوبة التي نص عليها ، كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة ، غير أن ذلك لا ينافي أن معرفة اللّه على هذه الصفة حسنة في نفسها ، وإنما جاء الشرع مبيناً للواقع ، فهو ليس مُحدث الحسن ، ونصوصه تؤيد ذلك ، وأذكر مثالاً من كثير :

قال تعالى على لسان يوسف : ﴿أأرْبابٌ متفرقونَ خير أم اللّه الواحد القهار﴾[1] يشيرون بذلك إشارة واضحة إلى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر في وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم ، وهو يذهب بكل قوتهم إلى التعصب لما وجه قلبه إليه ، وفي ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى ، أما اعتقاد جميعهم بإله واحد فهو توحيد لمَنازِع نفوسهم إلى سلطان واحد ، يخضع الجميع لحكمه ، وفي ذلك نظام أُخوَّتهم ، وهي قاعدة سعادتهم ، وإليها مآلهم فيما اعتقد وان طال الزمان ، فكما جاء الشرع مطالباً بالاعتقاد جاء هادياً لوجه الحُسن فيه .

النبوة تحدد أنواع الأعمال التي تناط بها سعادة الإنسان في الدارين ، وتطالبه عن اللّه بالوقوف عند الحدود التي حددتها ، وكثيراً ما تُبَيّن له مع ذلك وجوه الحُسْن أو القبح فيما أُمِرَ به ونُهِيَ عنه ، فوجوب عمل من المأمور به ، أو الندب إليه ، وحظر عمل ، أو كراهته من المنهي عنه على الوجه الذي حددته الشريعة ، وعلى أنه مثاب عليه بأجر كذا ، ومُجَازَى عليه بعقوبة كذا ، مما لا يستقل العقل بمعرفته ، بل طريقة معرفته شرعية ، وهو لا ينافي أيضاً أن يكون المأمور به حَسَناً في ذاته ، بمعنى أنه مما يؤدي إلى منفعة دنيوية أو أخروية ، باعتبار أثره في أحوال المعيشة ، أو في صحة البدن ، أو حفظ النفس أو المال أو العِرْض ، أو في زيادة تعلق القلب باللّه ، جل شأنه ، كما هو مفصل في الأحكام الشرعية ، وقد يكون من الأعمال ما لا يمكن درك حُسنه ، ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قُبحه ، وهذا النوع لا حُسُن له إلا الأمر ولا قُبح إلا النهي . واللّه أعلم .

* * *

---

(١) يوسف : ٣٩ .

الرسالة العامة

نريد من الرسالة العامة : بعثة الرسل لتبليغ شيء من العقائد والأحكام عن اللّٰه خالق الإنسان وموفيه ما لا غنى له عنه ، كما وفى غيره من الكائنات سداد حاجاتها ، ووقاء وجودها ، على القدر الذي حدد لها في رتبة نوعها من الوجود .

والكلام في هذا البحث من وجهين :

الأول : وهو أيسرهما على المتكلم ، وجه أن الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الإيمان ، فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد بأن اللّٰه أرسل رسلاً من البشر ، مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه ، قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته وتبيين لسلطانه القاهر على عباده ،وتفصيل لأحكام في فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها ، وفي مثالب فعال وخلائق ينهاهم عنها ، وأن يعتقد بوجوب تصديقهم في أنهم يبلغون ذلك عن اللّٰه ، ووجوب الاقتداء بهم في سيرهم ، والائتمار بما أمروا به والكف عما نهوا عنه ، وأن يعتقد بأن منهم من أنزل اللّٰه عليه كتباً تشتمل على ما أراد أن يبلغو من الخبر عنه ومن الحدود والأحكام التي علم الخير لعباده في الوقوف عندها ، وأن هذه الكتب التي نزلت عليهم حق ، وأن يؤمن بأنهم مؤيدون من العناية الألهية بما لا يعهد للعقول ولا للاستطاعة البشرية ، وان هذا الأمر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبي في دعواه ، فمتى ادعى الرسول النبوة ، واستدل عليها بالمعجزة ، وجب التصديق برسالته .

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم ، وصحة عقولهم ،

وصدقهم في أقوالهم ، وأمانتهم في تبليغ ما عهد إليهم أن يبلغوه ، وعصمتهم من كل ما يشوه السيرة البشرية ، وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار وتنفر منه الأذواق السليمة ، وأنهم منزهون عما يضاد شيئاً من هذه الصفات المتقدمة ، وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية .

أما فيما عدا ذلك فهم بشر يَعتريهم ما يعتري سائر أفراده ، يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام ، ويمرضون وتمتد إليهم أيدي الظلمة ، وينالهم الاضطهاد ، وقد يُقتلون .

* * *

المُعْجِزَة

المعجزة : ليست من نوع المستحيل عقلاً ، فإن مخالفة السير الطبيعي المعروف في الإيجاد مما لم يقم دليل على استحالته ، بل ذلك مما يقع ، كما يشاهد في حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات ، مع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الإتلاف .

فإن قيل : إن ذلك لا بد أن يكون تابعاً لناموس آخر طبيعي ، قلنا : إن واضع الناموس هو موجد الكائنات ، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات ، غاية ما في الأمر إننا لا نعرفها ، ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه اللّه بفضل من عنده .

على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار ، يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أي هيئة ، وتابعاً لأي سبب ، إذا سبق في علمه أنه يحدثه كذلك .

المعجزة لا بد أن تكون مقرونة بالتحدي عند دعوى النبوة ، وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده ، لأن النبي يستند إليها في دعواه انه مبلغ عن اللّه ، فإصدار اللّه لها عند ذلك يعد تأييداً منه له في تلك الدعوى ، ومن المحال على اللّه أن يؤيد الكاذب ، فإن تأييد الكاذب تصديق له ، وتصديق الكاذب كذب ، وهو محال على اللّه . فمتى ظهرت المعجزة ، وهي مما لا يقدر عليه البشر ، وقارن ظهورها

دعوى النبوة ، علم بالضرورة أن الله ما أظهرها إلا تصديقاً لمن ظهرت على يده ، وإن كان هذا العلم قد يقارنه الانكار مكابرة .

وأما السحر وأمثاله فإن سُلِّمَ ان مظاهره فائقة عن آثار الأجسام والجسمانيات ، فهي لا تعلو عن متناول القوى الممكنة فلا يقارب المعجزة في شيء .

* * *

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للأنبياء ، فلأنهم لو انحطت فِطَرهم عن فِطَر أهل زمانهم ، أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أُخر ، أو مَسَّ عقولهم شيء من الضعف ، لما كانوا أهلاً لهذا الاختصاص الالهي الذي يفوق كل اختصاص : اختصاصهم بوحيه ، والكشف لهم عن أسرار علمه .

ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفرات ، لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمُنكِرِ في إنكار دعواهم ، ولو كذبوا أو خانوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم ، ولكانوا مضلين لا مرشدين ، فتذهب الحكمة من بعثتهم ، والأمر كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عُهد إليهم تبليغه من العقائد والأحكام .

أما وقوع الخطأ منهم فيما ليس من الحديث عن الله ، ولا له مدخل في التشريع ، فَجَوَّزَهُ بعضُهُمْ ، والجمهور على خلافه ، وما ورد من مثل أن النبي ﷺ ، نهى عن تأبير النخل ، ثم أباحه لظهور أثره في الإثمار ، فإنما فعله ، عليه الصلاة والسلام ، ليُعَلِّم الناس أن ما يتخذونه من وسائل الكسب ، وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجاربهم ، ولا حظر عليهم فيه ما دامت الشرائع مَرْعِيَّة والفضائل مَحْمِيَّة . وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة فمما خفي فيه سر النهي عن الأكل ، والمؤاخذة عليه ، وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سبباً لعمارة الأرض ببني آدم . كان النهي والأكل رمزين إلى طورين من أطوار آدم ، عليه السلام ، أو مظهرين من مظاهر النوع الإنساني في الوجود . والله أعلم . ومن العسر إقامة الدليل العقلي أو إصابة دليل شرعي يقطع بما ذهب إليه الجمهور .

حَاجَةُ الْبَشَرِ إلَى الرِّسَالَةِ

(الوجه الثاني) : سبق لك في الفصل السابق ما يهم الكلام عليه من الوجه

الأول ، وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده في الرسل ، والكلام في هذا الفصل موجه ، إن شاء اللّه ، إلى بيان الحاجة إليهم ، وهو معترك الافهام ، ومزلة الاقدام ، ومزدحم الكثير من الأفكار والأوهام .

ولسنا بصدد الإتيان بما قال الأولون ، ولا عرض ما ذهب إليه الآخرون ، ولكنا نلزم ما التزمنا في هذه الوريقات من بيان المعتقد ، **والذهاب إليه من أقرب الطرق ، من غير نظر إلى ما مال إليه المخالف أو استقام عليه الموافق ، اللهم إلا إشارة من طرف خفي أو إلماعاً لا يستغني عنه القول الجلي .**

وللكلام في بيان الحاجة إلى الرسل مسلكان :

الأول : ـ وقد سبق الإشارة إليه يتبدىء من الاعتقاد ببقاء النفس الإنسانية بعد الموت ، وإن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا ، تتمتع فيها بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم ، وأن السعادة والشقاء في تلك الحياة الباقية معقودان بأعمال المرء في حياته الفانية ، سواء كانت تلك الأعمال قلبية كالاعتقادات والمقاصد والإرادات ، أو بدنية كأنواع العبادات والمعاملات .

اتفقت كلمة البشر ، موحدين ووثنيين ، مِلّيينّ وفلاسفة ، إلا قليلاً لا يقام لهم وزن ، على أن لنفس الإنسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن ، وانها لا تموت موت فناء مطلقاً ، وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وإن اختلفت منازعهم في تصوير ذلك البقاء ، وفيما تكون عليه النفس فيه ، وتباينت مشاربهم في طرق الاستدلال عليه ، فمن قائل بالتناسخ(١) في أجساد البشر أو الحيوان على الدوام ، ومن ذاهب إلى أن التناسخ ينتهي عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال .

ومنهم من قال : إنها متى فارقت الجسد عادت إلى تجردها من المادة ، حافظة لما فيه لذتها أو ما به شقوتها .

---

(١) نظرية قديمة ، قال بها فيثاغورس ، أخذاً عن الفلسفة الهندية ، وهي تعني انتقال النفس بعد الموت إلى جسم آخر ، سواء أكان نباتاً أو حيواناً أو إنساناً ، ومن المتصوفة من يرى تقسيم التناسخ بحسب ما تنتقل إليه النفس ، فإذا انتقلت من إنسان إلى إنسان سمي «نسخاً» ، وإذا انتقلت من إنسان إلى حيوان سمي «مسخاً» ، وإذا انتقلت من إنسان إلى نبات سمي «فسخاً» ، وإذا انتقلت من إنسان إلى جماد سمي «رسخاً» . . . أنظر (المعجم الفلسفي) مادة «تناسخ» .

ومنهم من رأى انها تتعلق بأجسام أثيرية ألطف من هذه الأجسام المرئية . وكان اختلاف المذاهب في كنه السعادة والشقاء الأخرويين ، وفيما هو متاع الحياة الآخرة ، وفي الوسائل التي تُعدُّ للنعيم أو تُبعد عن النكال الدائم . وتضارب آراء الأمم فيه ، قديماً وحديثاً ، مما لا تكاد تحصى وجوهه .

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة ، المنبث في جميع الأنفس ، عالمها وجاهلها ، وحشيِّها ومستأنسها ، باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها ، لا يمكن أن يعد ضلَّة عقلية ، أو نزعة وهمية ، وإنما هو الالهامات[1] التي اختصَّ بها هذا النوع ، كما أُلهم الإنسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه في هذه الحياة الدنيا .

وإن شذ أفراد منه ، ذهبوا إلى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للإرشاد في عمل ما ، أو إلى أنه لا يمكن للعقل أن يوقن باعتقاد ، ولا للفكر أن يصل إلى مجهول ، بل قالوا أن لا وجود للعالم إلا في اختراع الخيال ، وأنهم شاكون حتى في أنهم شاكون[2] .

ولم يطعن شذوذ هؤلاء في صحة الإلهام العام المشعر لسائر أفراد النوع أن الفكر والعقل هما ركن الحياة وأس البقاء إلى الأجل المحدود .

كذلك قد أُلهمَت العقول وأُشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان في الوجود ، بل الإنسان ينزع هذا الجسد كما يُنزع الثوب عن البدن ، ثم يكون حياً باقياً في طور آخر وإن لم يدرك كنهه .

ذلك الهام عقلي يكاد يزاحم البديهة في الجلاء ، يُشعرُ كل نفس انها خلقت مستعدةً لقبول معلومات غير متناهية ، من طرق غير محصورة ، شيقةً إلى لذائذ غير محدودة ، ولا واقفة عند غاية ، مهيأةً لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغايات ، معرضةً لآلام من الشهوات ، ونزعات الأهواء ، ونزوات الأمراض على الأجساد ، ومصارعة الأجواء والحاجات ، وضروب من مثل ذلك لا تدخل تحت عد ولا تنتهي عند حد . الهام يستلفتها بعد هذا الشعور إلى أن واهب الوجود للأنواع إنما قدر

---

(١) المراد هنا « بالالهامات » : الشعور العام الموجود من أصل الفطرة ، وليس « الإلهامات » بمعنى ما يقابل « المعقولات » وسيأتي الحديث عن هذا الأخير فيما بعد .

(٢) الإشارة إلى مذهب «اللاأدرية» الذين ينكرون قيمة العقل وقدرته على المعرفة .

الاستعداد بقدر الحاجة في البقاء ، ولم يُعهد في تصرفه العبث والكيل الجزاف ، فما كان استعداده لقبول ما لا يتناهى من معلومات وآلام ولذائذ وكمالات لا يصح أن يكون بقاؤه قاصراً على أيام أو سنين معدودات .

شعور يهيج بالأرواح إلى تحسس هذا البقاء الأبدي ، وما عسى أن تكون عليه متى وصلت إليه ، وكيف الاهتداء ، وأين السبيل وقد غاب المطلوب وأعْوزَ الدليل . شعورنا بالحاجة إلى استعمال عقولنا في تقويم هذه المعيشة القصيرة الأمد لم يكفنا في الاستقامة على المنهج الأقوم ، بل لزمتنا الحاجة إلى التعليم والإرشاد ، وقضاء الأزمنة والأعصار في تقويم الأنظار ، وتعديل الأفكار ، وإصلاح الوجدان ، وتثقيف الأذهان ، ولا نزال إلى الآن من هم هذه الحياة الدنيا في اضطراب ، لا ندري متى نتخلص منه ، وفي شوق إلى الطمأنينة لا نعلم متى ننتهي إليها .

هذا شأننا في فهم عالم الشهادة ، فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا في العلم بما في عالم الغيب ؟ هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدي بها إلى الغائب ؟ وهل في طرق الفكر ما يوصل كل أحد إلى معرفة ما قدر له في حياة يشعر بها ، وبأن لا مندوحة عن القدوم عليها ، ولكن لم يوهب من القوة ما ينفذ إلى تفصيل ما أعد له فيها ، والشؤون التي لا بد أن يكون عليها بعد مفارقة ما هو فيه . أو إلى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشؤون ؟؟ هل في أساليب النظر ما يأخذ بك إلى اليقين بمناطها من الاعتقادات والأعمال ، وذلك الكون مجهول لديك ، وتلك الحياة في غاية الغموض بالنسبة إليك ؟؟

كلا . . . فإن الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة في نظر العقل ومرامي المشاعر ، ولا اشتراك بينهما إلا فيك، أنت فالنظر في المعلومات الحاضرة لا يوصل إلى اليقين بحقائق تلك العوامل المستقبلة .

أفليس من حكمة الصانع الحكيم ـ الذي أقام أمر الإنسان على قاعدة الإرشاد والتعليم ، الذي خلق الإنسان وعلمه البيان ، علمه الكلام للتفاهم ، والكتاب للتراسل ـ أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يُعِدُّ لها ، بمحض فضله ، بعض من يصطفيه من خلقه ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، يميزهم بالفِطَر السليمة ، ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه ، والأمانة على مكنون سره ، مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه ، أو ذهبت بعقله جلالته

وعظمته ، فيشرفون على الغيب بإذنه ، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين ، نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها ، هم وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها ، ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله وما خفي على العقول من شؤون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه ، وما قدر أن يكون له مدخل في سعادتهم الأخروية ، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد لهم من علمه ، معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد عن متناول أفهامهم ، وأن يبلغوا عنه شرائع عامة ، تحدد لهم سيرهم في تقويم نفوسهم ، وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم في ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله ، اللاحق علمه بأعماق ضمائرهم في إجماله . ويدخل في ذلك جميع الأحكام المتعلقة بكليات الأعمال ، ظاهرة وباطنة ، ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات ، حتى تقوم بهم الحجة ، ويتم الاقناع بصدق الرسالة ، فيكونون بذلك رسلاً من لدنه إلى خلقه مبشرين ومنذرين .

لا ريب أن الذي أحسن كل شيء خلقه ، وأبدع في كل كائن صنعه ، وجاد على كل حي بما إليه حاجته ، ولم يحرم من رحمته حقيراً ولا جليلاً من خلقه ، يكون من رأفته بالنوع الذي أجاد صنعه ، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التي اختص بها غيره ، أن ينقذه من حيرته ، ويخلصه من التخبط في أهم حياتيه ، والضلال في أفضل حاليه .

يقول قائل: ولِمَ لَمْ يُوْدِع الغرائز ما تحتاج إليه من العلم؟ ولم يضع فيها الانقياد إلى العمل وسلوك الطريق المؤدية إلى الغاية في الحياة الآخرة ؟ وما هذا النحو من عجائب الرحمة في الهداية والتعليم ، وهو قول يصدر عن شطط العقل ، والغفلة عن موضوع البحث ، وهو النوع الإنساني ، ذلك النوع على ما به ، وما دخل في تقويم جوهره من الروح المفكر ، وما اقتضاه ذلك من الاختلاف في مراتب الاستعداد باختلاف أفراده ، وأن لا يكون كل فرد منه مستعداً لكل حال بطبعه ، وأن يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال ، فلو أُلْهِمَ حاجاته كما تُلْهَمُ الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع ، بل كان إما حيواناً آخر كالنحل والنمل أو مَلَكاً من الملائكة ليس من سكان هذه الأرض .

المسلك الثاني : في بيان الحاجة إلى الرسالة يؤخذ من طبيعة الإنسان نفسه : أرَتنا الأيام ، غابرها وحاضرها ، أن من الناس من يختزل نفسه من جماعة البشر ، وينقطع

إلى بعض الغابات أو إلى رؤوس الجبال ، ويستأنس إلى الوحش ، ويعيش عيش الأوابد من الحيوان ، يتغذى بالأعشاب وجذور النبات ، ويأوي إلى الكهوف والمغاور ، ويتقى بعض العوادي عليه بالصخور والأشجار ، ويكتفي من الثياب بما يخصف[1] من ورق الشجر أو جلود الهالك من حيوان البر ، ولا يزال كذلك حتى يفارق الدنيا .

ولكن مَثَلَ هذا مثَل النحلة تنفرد عن الدَّبْر[2] وتعيش عيشة لا تتفق مع ما قدر لنوعها ، وإنما الإنسان نوع من تلك الأنواع التي غُرزَ في طبعها أن تعيش مجتمعة ، وإن تعددت فيها الجماعات ، على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع في بقائه ، وللمجموع من العمل ما لا غنى للواحد عنه في نمائه وبقائه ، وأودعَ في كل شخص من أشخاصها شُعُورٌ مًا بحاجة إلى سائر أفراد الجماعة التي يشملها اسم واحد ، وتاريخ وجود الإنسان شاهد بذلك ، فلا حاجة إلى الإطالة في بيانه ، وكفاك من الدليل على أن الإنسان لا يعيش إلا في جُمْلةٍ ، ما وهبه من قوة النطق ، فلم يخلق لسانه مستعداً لتصوير المعاني في الألفاظ وتأليف العبارات إلا لاشتداد الحاجة به إلى التفاهم وليس الاضطرار إلى التفاهم بين اثنين أو أكثر إلا الشهادة بأن لا غنى لأحدهم عن الآخر .

حاجة كل فرد من الجماعة إلى سائرها مما لا يشتبه فيه ، وكلما كثرت مطالب الشخص في معيشته ازدادت به الحاجة إلى الأيدي العاملة ، فتمتد الحاجة ، وعلى أثرها الصلة ، من الأصل إلى العشيرة ، ثم إلى الأمة ، وإلى النوع بأسره ، وأيامنا هذه شاهدة على أن الصلة التابعة للحاجة قد تعم النوع ، كما لا يُخْفي هذه الحاجة ـ خصوصاً في الأمة التي حققت عنوانها لها ـ صلات وعلائق ميزتها عمن سواها ، حاجة في البقاء ، حاجة في التمتع بمزايا الحياة ، حاجة في جلب الرغائب ودفع المكاره من كل نوع .

لو جرى أمر الإنسان على أساليب الخلقة في غيره لكانت هذه الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين أفراده ، عامل يشعر كل نفس أن بقاءها مرتبط ببقاء الكل .

فالكل منها بمنزلة بعض قواها ، المسخرة لمنافعها ، ودرء مضارها ، والمحبة عماد

---

(١) يلصق ويطبق .

(٢) الدّبر ، بفتحي الدال المشددة وسكون الباء : جماعة النحل والزنانير .

السلم ورسول السكينة إلى القلوب ، هي الدافع لكل من المتحابين على العمل لمصلحة الآخر ، الناهض بكل منهما للمدافعة عنه في حالة الخطر ، فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظاً لنظام الأمم وروحاً لبقائها ، وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون ، فإن المحبة حاجة لنفسك إلى من تحب ، أو ما تحب ، فإن اشتدت كانت ولعاً وعشقاً .

لكن . . . كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحابين إذا كانت الحاجة إلى ذات المحبوب أو ما هو فيها لا يفارقها ، ولا يكون هذا النوع منها في الإنسان إلا إذا كان منشأه أمراً في روح المحبوب وشمائله التي لا تفارق ذاته ، حتى تكون لذة الوصول في نفس الاتصال لا في عارض يتبعه ، فإذا عرض التبادل والتعاوض ، ولوحظ في العلاقة بينهما ، تحولت المحبة إلى رغبة في الانتفاع بالعوض ، وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع ، وقام بين الشخصين مقام المحبة إما سلطان القوة أو ذلة المخافة أو الدهان والخديعة من الجانبين .

يحب الكلب سيده ويخلص له ، ويدافع عنه دفاع المستميت ، لما يرى انه مصدر الإحسان إليه في سداد عوزه ، فصورة شبعه وريه وحمايته مقرونة في شعوره بصورة من يكفلها له ، فهو يتوقع فقدها بفقده ، فيحرص عليه حرصه على حياته ، ولو أنه انتقل من حوزته إلى حوزة آخر وغاب عنه السنين ثم رآه معرضاً لخطر مّا عادت إليه تلك الصورة يصل بعضها بعضاً ، واندفع إلى خلاصه بما تمكنه القوة ، ذلك إن الإلهام الذي هدى به شعور الكلب ليس مما تتسع به المذاهب ، فوجدانه يتردد بين الإحسان ومصدره ، وليس له وراءهما مذهب ، فحاجته في سد عوزه هي حاجته إلى القائم بأمره ، فيحبه محبته لنفسه ، ولا يبخس منها شوب التعاوض في الخدمة .

أما الإنسان ـ وما أدراك ما هو ـ فليس أمره على ذلك ، ليس ممن يلهم ولا يتعلم ، ولا ممن يشعر ولا يتفكر ، بل كان كماله النوعي في إطلاق مداركه عن القيد ، ومطالبه عن النهايات ، وتسليمه على صغره إلى العالم الأكبر على جلالته وعظمه ، يصارعه بعوامله ، وهي غير محصورة ، حتى يعتصر منه منافعه ، وهي غير محدودة ، وإيداعه من قوى الإدراك والعمل ما يعينه على المغالبة ويمكنه من المطالبة بسعيه ورأيه ، ويتبع ذلك أن يكون له في كل كائن مما يصل إليه لذة ، وبجوار كل لذة ألم ومخافة ، فلا

تنتهي رغائبه إلى غاية ، ولا تقف مخاوفه عند نهاية : ﴿إِنَّ الإنسان خُلِقَ هلوعاً ، إذا مسَّهُ الشرُّ جزوعاً ، وإذا مَسَّهُ الخير مَنوعاً﴾(١) .

تفاوتت أفراده في مواهب الفهم ، وفي قوى العمل ، وفي الهمة والعزم ، فمنهم المقصر ضعفاً أو كسلاً ، المتطاول في الرغبة شهوة وطمعاً ، يرى في أخيه أنه العون له على ما يريد من شؤون وجوده ، لكنه يذهب من ذلك إلى تخيل اللذة في الاستئثار بجميع ما فيه يده ، ولا يقنع بمعاوضته في ثمرة من ثمار عمله ، وقد يجد اللذة في ان يتمتع ولا يعمل ، ويرى الخير في أن يقيم مقام العمل إعمال الفكر في استنباط ضروب الحيل ، ليتمتع وان لم ينفع ، ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له أن لا ضَيْر عليه لو انفرد بالوجود عمن يطلب مغالبته ، ولا يبالي بإرساله إلى عالم العدم بعد سلبه فكلما حثه الذكر والخيال إلى دفع مخافة ، أو الوصول إلى لذيذ ، فتح له الفكر باباً من الحيلة ، أو هيأ له وسيلة لاستعمال القوة ، فقام التناهب مقام التواهب ، وحل الشقاق محل الوفاق ، وصار الضابط لِسيرة الإنسان إما الحيلة وإما القهر .

* * *

اللذةُ الرُّوحانيةُ

هل وقف الهوى بالإنسان عند التنافس في اللذائذ الجسدانية ، وتجالد أفراده طمعاً في وصول كل إلى ما يظنه غاية مطلبه ، وإن لم تكن له غاية ؟؟

كلا . . ولكن قُدِّر له أن تكون له لذائذ روحانية ، وكان من أعظم همه أن يشعر بالكرامة له في نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ما ، حسبما يمتد إليه نظره ، وقد بلغت هذه الشهوة حداً من الأنفس كادت تتغلب على جميع الشهوات ، وأخذت لذة الوصول إليها من الأرواح مكاناً كاد لا تصعد إليه سائر اللذات ، وهي من أفضل العوامل في إحراز الفضائل ، وتمكين الصلات بين الأفراد والأمم ، لو صرفت فيما سيقت لأجله ، ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف بغيرها للأسباب التي أشرنا إليها من التفاوت في مراتب الإدراك والهمة والعزيمة ، حتى خيل للكثير من العقلاء أن يسعى إلى إعلاء منزلته

---

(١) المعارج : ٢٠ .

في القلوب بإخافة الآمن وإزعاج الساكن وإشعار القلوب رهبـة المخافة لا تَهيُّب الحرمة .

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة بُني نظامهم وعُلِّق بقاؤهم في الحياة على تعاونهم ، ورفد بعضهم بعضاً في الأعمال ؟ أو لا تكون هذه الأفاعيل السابق ذكرها ، سبباً في تفانيهم ؟ لا ريب أن البقاء على تلك الأحول من ضروب المحال ، ، فلا بد للنوع الإنساني في حفظ بقائه من المحبة أو ما ينوب منابها .

لجأ بعض أهل البصيرة في أزمنة مختلفة إلى العدل ، وظنوا ، كما ظن بعض العارفين ونطق به في كلمة جليلة ، أن العدل نائب المحبة .

نعم . . لا يخلو القول من حكمة ، ولكن . . من الذي يضع قواعد العدل ، ويحمل الكافة على رعايتها ؟؟ . قيل : ذلك هو العقل ، فكما كان الفكر والذكر والخيال ينابيع الشقاء ، كذلك تكون وسائل السعادة ، وفيها مستقر السكينة ، وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم وقوة العقل وأصالة الحكم يذهب بكثير من الناس إلى ما وراء حجب الشهوات ، وتعلو بهم فوق ما تُخَيِّله المخاوف ، فيعرفون لكل حق حرمته ، ويميزون بين لذة ما يفنى ومنفعة ما يبقى ، وقد جاء منهم أفراد في كل أمة ، وضعوا أصول الفضيلة ، وكشفوا وجوه الرذيلة ، وقسموا أعمال الإنسان إلى ما تحضر لذته وتسوء عاقبته ، وهو ما يجب اجتنابه ، وإلى ما قد يشق احتماله ولكن تسر مغبته ، وهو ما يجب الأخذ به . ومنهم من أنفق في الدعوة إلى رأيه نفسه وماله ، وقضى شهيد إخلاصه في دعوة قومه إلى ما يحفظ نظامهم ، فهؤلاء العقلاء هم الذين يضعون قواعد العدل ، وعلى أهل السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها ، وبذلك يستقيم أمر الناس .

هذا قول لا يجافي الحقَّ ظاهرُه ، ولكن . . هل سُمِعَ في سيرة الإنسان ، وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافَّةُ أفراده أو الغالب منهم لرأي العاقل لمجرد أنه الصواب ؟ وهل كفى في اقناع جماعة منه ، كشعب أو أمة ، قول عاقلهم : انهم مخطئون ، وأن الصواب فيما يدعوهم إليه ، وإن أقام على ذلك من الأدلة ما هو أوضح من الضياء وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء ؟؟ . .

كلا . . لم يُعْرَفْ ذلك في تاريخ الإنسان ، ولا هو مما ينطبق على سُنّتِه . فقد تقدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس في الإدراك ، وهم مع ذلك يدَّعون المساواة في العقول والتقارب في الأصول ، ولا يَعْرِفُ جمهورهم من حال الفاضل إلا كما يَعْرِفُ من

أمر الجاهل ، ومن لم يكن في مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من الفضل ، فمجرد البيان العقلي لا يدفع نزاعاً ، ولا يرد طمأنينة ، وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها ، فيذهب بالناس مذهب شهواته ، فتذهب حرمتها ، ويتهدم بناؤها ، ويفقد ما قصد بوضعها .

* * *

الحاجَةُ الأُخْرَوِية

أضف إلى ما سبق من لوازم نزعات الفكر ونزعات الأهواء شعوراً هو ألصق بالغريزة البشرية ، وأشد لزوماً لها : كل إنسان ، مهما علا فكره وقوي عقله ، أو ضعفت فطنته وانحطت فطرته ، يجد من نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته وقوة ما أنِس منه الغلبة عليه مما حوله ، وأنه محكوم بإرادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من العوالم في وجوه قد لا يعرفها معرفة العارفين ، ولا تتطرق إليها إرادة المختارين . تشعر كل نفس انها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى ، فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها أخرى ، ولا سبيل لها إلا الطريق التي حددت لنوعها ، وهي طريق النظر ، فذهب كل في طلبها وراء رائد الفكر ، فمنهم من تأولها ببعض الحيوانات ، لكثرة نفعها أو شدة ضررها ، ومنهم من تمثلت له في بعض الكواكب ، لظهور أثرها ، ومنهم من حجبته الأشجار والأحجار ، لاعتبارات له فيها ، ومنهم من تبدت له آثار قوى مختلفة في أنواع متفرقة ، تتماثل في أفراد كل نوع وتتخالف بتخالف الأنواع ، فجعل لكل نوع إلهاً .

ولكن . . . كلما رق الوجدان ، ولطفت الأذهان ، ونفذت البصائر ، ارتفع الفكر ، وجلَّت النتائج ، فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك إلى معرفة هذه القدرة الباهرة ، واهتدى إلى أنها قدرة واجب الوجود ، غير أن من أسرار الجبروت ما غمض عليه ، فلم يسلم من الخبط فيه ، ثم لم يكن له من الميزة الفائقة في قومه ما يحملهم على الاهتداء بهديه ، فبقي الخلاف ذائعاً والرشد ضائعاً .

اتفق الناس في الإذعان لما فاق قُدَرَهمْ وعلا متناول استطاعتهم ، ولكنهم اختلفوا في فهم ما تلجئهم الفطرة إلى الإذعان له ، اختلافاً كان أشد أثراً في التقاطع بينهم ، وإثارة أعاصير الشقاق فيهم من اختلافهم في فهم النافع والضار ، لغلبة الشهوات عليهم .

إن كان الإنسان قد فُطر على أن يعيش في جملة ، ولم يُمنَح من تلك الفطرة ما مُنِحَهُ النحل وبعض أفراد النمل مثلاً من الإلهام الهادي إلى ما يلزم لذلك ، وإنما تُرك إلى فكره يتصرف به على نحو ما سبق ، كما فُطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها إلى معرفته ، ولم يَفض عليه مع ذلك الشعور عرفانُه بذات ذلك القاهر ولا صفاته ، وإنما أُلقي به في مطارح النظر ، تحمله الأفكار في مجاريها ، وترمي به إلى حيث يدري ولا يدري ، وفي كل ذلك الويل على جامعته ، والخطر على وجوده ، فهل مُنِيَ هذا النوع بالنقص ، ورُزِىء بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها في منازل الوجود ؟؟ . . نعم . . هو كذلك ، لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه .

* * *

الرُّسُل والرِّسالة

الإنسان عجيب في شأنه يصعد بقوة عقله إلى أعلى مراتب الملكوت ، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت ، ويسامي بقوته ما يعظم أن يسامى من قوى الكون الأعظم ، ثم يصغر ويتضاءل وينحط إلى أدنى درك في الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر ما لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه ، لسر عرفه المستبصرون ، واستشعرته نفوس الناس أجمعين .

من ذلك الضعف قِيدَ إلى هداه ، ومن تلك الضِّعة أُخِذَ بيده إلى مشرق سعادته أكمل الواهب الجواد لجملته ما اقتضت حكمته في تخصيص نوعه بما يميزه عن غيره أو ينقص من أفراده، وكما جاد على كل شخص بالعقل المُصرِّفِ للحواس، لينظر في طلب اللقمة وستر العورة والتوقي في الحر والبرد جاد على الجملة بما هو أَمَسُّ بالحاجة في البقاء وآثَر في الوقاية من غوائل الشقاء وأحفظُ لنظام الاجتماع الذي هو عماد كونه بالإجماع .

مَنَّ عليه بالنائب الحقيقي عن المحبة ، بل الراجع بها إلى النفوس التي أقفرت منها ، لم يخالف سنته فيه من بناء كونه على قاعدة التعليم والإرشاد ، غير أنه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه ، وهي جهة الخضوع والاستكانة ، فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين ، وميزهم من بينها بخصائص من أنفسهم ، لا يشركهم فيها سواهم ، وأيد ذلك ، زيادة في الاقناع ، بآيات باهرات تملك النفوس ، وتأخذ الطرق على سوابق

العقول ، فيستخذي الطامح ، ويذل الجامح ، ويُصدَمُ بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده ، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه .

يطرقون القلوب بقوارع من أمر اللّه ، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته ، فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الإذعان له ، ويستوي في كونه لما يجيئون به المالك والمملوك ، والسلطان والصعلوك ، والعاقل والجاهل ، والمفضول والفاضل ، فيكون الإذعان لهم أشبه بالاضطراري منه بالاختياري النظري .

يعلمونهم ما شاء اللّه أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، وما أراد أن يَعلَمُوه من شؤون ذاته وكمال صفاته ، وأولئك هم الأنبياء المرسلون .

فبعثة الأنبياء صلوات اللّه عليهم من متممات كون الإنسان ، ومن أهم حاجاته في بقائه ، ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص ، نعمة أتمها اللّه لكيلا يكون للناس على اللّه حجة بعد الرسل . وسنتكلم عن وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد .

* * *

إمكانُ الوحي

الكلام في إمكان الوحي يأتي بعد تعريفه ، لتصوير المعنى الذي يراد منه ، ولنعرف المعنى الحاصل بالمصدر ، فيفهم معنى المصدر نفسه ولا يعنينا ما تثيره الألفاظ في الأذهان ، ولنذكر من اللغة ما يناسبه :

يقال : وحيت إليه وأوحيت ، إذا كلمته بما تخفيه عن غيره ، والوحي مصدر من ذلك ، والمكتوب والرسالة وكل ما القيته إلى غيرك ليعلمه . ثم غلب فيما يلقى إلى الأنبياء من قبل اللّه : وقيل الوحي إعلام في خفاء ، ويطلق ويراد به الوحي .

وقد عرفوه شرعاً : إنه كلام اللّه تعالى المنزل على نبي من أنبيائه .

أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه ، مع اليقين بأنه من اللّه بواسطة أو بغير واسطة ، والأول[1] بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت .

ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب

---

(١) أي ما هو بواسطة .

على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور(١) .

أما إمكان حدوث هذا النوع من العرفان (الوحي) ، وانكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه اللّه بذلك ، وسهولة فهمه عند العقل ، فلا أراه مما يصعب إدراكه إلا على من لا يريد أن يدرك ، ويحب أن يرغم نفسه الفهّامة على أن لا تفهم .

نعم . . يوجد في كل أمة ، وفي كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص في العلم ما وراء سواحل اليقين ، فيسقطون في غمرات من الشك في كل ما لم يقع تحت حواسهم الخمس ، بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها ، كما سبقت الإشارة ، فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا إلى ما هو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان ، فينسون العقل وشؤونه ، وسره ومكنونه ، ويجدون في ذلك لذة الإطلاق عن قيود الأوامر والنواهي ، بل عن مجالس الحشمة التي تضمهم إلى الالتزام بما يليق ، وتحجزهم عن مقارفة ما لا يليق ، كما هو حال غير الإنسان من الحيوان ، فإذا عرض عليهم شيء من الكلام في النبوات والأديان ، وهَمَّ من أنفسهم هام بالإصغاء ، دافعوه بما أوتوا من الاختيار في النظر ، وانصرفوا عنه ، وجعلوا أصابعهم في آذانهم حذر أن يخالط الدليل أذهانهم فيلزمهم العقيدة ، وتتبعها الشريعة ، فيحرموا لذة ما ذاقوا ، وهو مرض في الأنفس والقلوب يستشفى منه بالعلم ، إن شاء اللّه .

قلت : أي استحالة في الوحي ؟ وأن ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره ، من غير فكر ولا ترتيب مقدمات فكر ، مع العلم أن ذلك من قِبلِ واهب الفكر ومانح النظر ، متى حفَّت العنايةُ من مَيَّزتْه هذه النعمة .

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة ، يعلو بعضها بعضاً ، وأن الأدنى منها لا يُدْرِكُ ما عليه الأعْلى إلاّ عَلَى وجه من الإجمال ، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم فقط ، بل لا بد معه من التفاوت في الفِطَر التي لا مدخل فيها لاختيار

---

(١) أي إن الفرق بين الوحي والإلهام أن متلقي الوحي يستيقن أنه من اللّه ، وليس ذلك شرطاً في متلقي الإلهام .

الإنسان وكسبه ، ولا شبهة في أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهي عند من هو أرقى منه ، ولا تزال المراتب ترتقي في ذلك إلى ما لا يحصره العدد ، وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس من يرى البعيد عن صغارها قريباً فيسعى إليه ، ثم يدركه ، والناس دونه ينكرون بدايته ، ويعجبون لنهايته ، ثم يألفون ما صار إليه كأنه من المعروف الذي لا يُنَازَع ، والظاهر الذي لا يُجَاحَد ، فإذا انكره منكر ثاروا عليه ثورتهم في بادىء الأمر على من دعاهم إليه ، ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهراً في كل أمة إلى اليوم .

فإذا سُلِّمَ ـ ولا محيص عن التسليم ـ بما أسلفنا من المقدمات ، فَمِنْ ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها ، عند الوصول إليها ، أن لا يُسَلَّمَ بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر ، بأصل الفطرة ، ما تستعد به ، من محض الفيض الإلهي ، لأن تتصل بالأفق الأعلى ، وتنتهي من الإنسانية إلى الذروة العليا ، وتشهد من أمر اللّه شهود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعصى الدليل والبرهان ، وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحاً على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم ثم تُصدِرُ عن ذلك العلم إلى تعليم ما عَلِمت ودعوة الناس إلى ما حُمِلَتْ على إبلاغه إليهم ، وأن يكون ذلك سنة اللّه في كل أمة وفي كل زمان على حسب الحاجة .

يُظهِرُ برحمته من يختصه بعنايته ، ليفي للاجتماع بما يضطر إليه من مصلحة ، إلى أن يبلغ النوع الإنساني أشده ، وتكون الأعلام التي نصبها لهدايته وسعادته كافية في إرشاده ، فتُخْتَمُ الرسالة ويُغلَقُ باب النبوة ، كما سنأتي عليه في رسالة نبينا ﷺ .

الملائكة

أما وجود بعض الأرواح العالية ، وظهورها لأهل تلك المرتبة السامية فمما لا استحالة فيه بعدما عرفنا من أنفسنا وأرشدنا إليه العلم ، قديمه وحديثه ، اشتمال الوجود على ما هو الطف من المادة ، وإن غُيِّب عنا ، فأي مانع من أن يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقاً لشيء من العلم الإلهي وأن يكون لنفوس الأنبياء إشراف عليه ، فإذا جاء به الخبر الصادق حَمَلَنا على الاذعان بصحته .

أما تمثل الصوت ، وأشباح لتلك الأرواح في حس من اختصه اللّه بتلك المنزلة فقد عُهِد عند أعداء الأنبياء ما لا يبعد عنه في بعض المصابين بأمراض خاصة على

زعمهم ، فقد سَلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل في خيالهم ويصل إلى درجة المحسوس ، فيصدق المريض في قوله أنه يرى ويسمع ، بل يجالد ويصارع ، ولا شيء من ذلك في الحقيقة بواقع ، فإن جاز التمثل في الصور المعقولة ، ولا منشأ لها إلا في النفس وأن ذلك يكون عند عروض عارض على المخ ، فلم لا يجوز تمثل الحقائق المعقولة في النفوس العالية ؟ وأن يكون ذلك لها عندما تنزع عن عالم الحس وتتصل بحظائر القدس ؟ وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل في أهل تلك الدرجة ، لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد في مزاج غيرهم .

وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف في تلك العلاقة من سواهم وهو مما يسهل قبوله ، بل يتحتم ، لأن شأنهم في الناس أيضاً غير الشؤون المألوفة ، وهذه المغايرة ، من أهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على رسالتهم ، والدليل على سلامة شهودهم ، وصحة ما يحدثون عنه .

إن امراض القلوب تشفى بدوائهم ، وان ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة في أممهم التي تأخذ بمقالهم ، ومن المنكر في البديهة أن يصدر الصحيح من معتل ويستقيم النظام بمختل .

أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء ، ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الأنس بما يقارب تلك الحال في النوع أو الجنس ، لهم مُشَارفة في بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال[1] لا تنكر عليهم ، لتحقق حقائقها في الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يُحَدَّثُ به عن الأنبياء ، صلوات اللّه عليهم ، ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف .

ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه ظهور الأثر الصالح منهم ، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمجه الذوق السليم ، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق في سرائرهم المتلألىء في بصائرهم إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة وترويح قلوب الخاصة، ولا يخلو العالم من متشبهين

(١) اشتهر بتحديده والحديث عنه أفلاطون ، وهو عنده مبدأ الوجود والمعرفة كليهما .

بهم ، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ، ويسوء مآلهم ومآل من غرروا به ، ولا يكون لهم إلا سوء الأثر في تضليل العقول وفساد الأخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم ، إلا أن يتداركهم الله بلطفه ، فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، فلم يبق بين المنكرين لأحوال الأنبياء ومشاهدهم وبين الإقرار بإمكان ما انبئوا به بل وبوقوعه إلا حجاب من العادة ، وكثيراً ما حجب العقول حتى عن إدراك أمور معتادة .

وُقُوعُ الوَحيِ والرِّسالَةِ

الدليل على رسالة نبي وصدقه فيما يحكي عن ربه ، ظاهر للشاهد الذي برىء حاله ، ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات ، ويحقق بالعيان ما يغنيه عن البيان ، كما سلف في الوجه الأول من الكلام على الرسالة .

أما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر ، وهو كما تبين في علم آخر : رواية خبر عن شهود من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب [عادة] ، وآيته قهر النفس على اليقين بما جاء فيه ، كالإخبار بوجود «مكة» أو بأن للصين عاصمة تسمى «بكين» . وسبب استحالة التواطوء على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة[١] ، وخلوه من عوارض تضعف الثقة به ، ومرجع كل ذلك إلى العدد وبُعْد الراوي عن التشيع لمضمون الخبر .

لا نزاع بين العقلاء في أن هذا النوع من الأخبار يُحَصِّلُ اليقين بالمُخْبَرِ به ، وإنما النزاع في اعتبارات تتعلق به ، ومن الأنبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر كإبراهيم وموسى عيسى ، ومما جاء به الخبر انهم لم يكونوا فيمن بُعثوا بينهم بالأقوى سلطاناً ، ولا بالأكثر مالاً ، ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم ما دعوا إليه ، وغاية الأمر أنهم لم يكونوا من الأدْنين الذين تعافهم النفوس ، وتنبو عنهم الأنظار ، ومع ذلك ، واستحكام السلطان لغيرهم ، ووفرة المال لديه واستعلائه عليهم بما كسب من العلم ، قاموا بدعوة إلى الله على رغم الملوك وأجنادهم ، وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم

---

(١) مثل ان لا يكون الخبر ممتنعاً عقلاً ، وأن يكون المخبر به محسوساً .

في عروشهم ، وادعوا انهم يبلغون عن خالق السماوات والأرض ما أراد شرعه للناس ، وأقاموا من الدليل ما تصاغرت دونـه قوة المعارضة ، ثم ثبتت في الكون شرائعهم ثبات الغريزة في الفطرة ، وكان الخير لأممهم في اتباع ما جاؤوا به .

حالفتهم القوة واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها ، ورزأهم الضعف وغالبهم الشقاء ما انحرفوا عنها ، وخلطوا فيها ، فهذا وما أقاموه من الأدلة عند التحدي لا يصح معه ، في العقل ، أن يكونوا كاذبين في حديثهم عن اللّٰه ، ولا في دعواهم أنه كان يوحى إليهم ما شرعوا للناس .

على أن من لا يعتقد ما يقول لا يبقى لمقاله أثر في العقول ، والباطل لابقاء له إلا في الغفلة عنه ، كالنبات الخبيث في الأرض الطيبة ينبت بإهمالها وينمو باغفالها ، فإذا لاستها عناية الزراع غلبه الخصب وذهب به الزكاء .

ولكن تلك الديانات التي جاء بها أولئك الأنبياء قامت في العالم الإنساني ما شاء اللّٰه مما قدر لها ، مُقام سائر قواه ، مع كثرة المعارضين ، وقوة سلطان المغالبين ، فلا يمكن أن يكون أساسها الكذب ودعامتها الحيلة ، وكلامنا هذا في جوهرها الذي يلوح دائماً في خلال ما أُلحق بها المبتدعون ، أما بقية الرسل ممن يجب علينا الإيمان بهم فيكفي في إثبات نبوتهم إثبات رسالة نبينا ﷺ ، فقد أخبرنا برسالتهم ، وهو الصادق فيما بلغ به . وسنأتي على الكلام في رسالة نبينا محمد ، ﷺ ، في باب على حدته إن شاء اللّٰه .

وَظِيفَةُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

تبين مما تقدم في حاجة العالم الإنساني إلى الرسل ، انهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص ، وأن بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية ، قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها ، ونعمة من نعم واهب الوجود ميز بها الإنسان عن بقية الكائنات من جنسه ، ولكنها حاجة روحية ، وكل ما لامس الحس منها فالقصد فيه إلى الروح ، وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة ، أو تقويم ملكتها ، أو إيداعها ما فيه سعادتها في الحياتين ، أما تفصيل طرق المعيشة والحذق في وجوه الكسب وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم ، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه ، إلا من وجهة العظة العامة ، والإرشاد إلى الاعتدال فيه ، وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يُحدِث ريباً في الاعتقاد بأن للكون إلهاً واحداً قادراً عالماً حكيماً ، متصفاً بما أوجب الدليل

أن يتصف به ، وباستواء نسبة الكائنات إليه في أنها مخلوقة له ، وصنع قدرته ، وإنما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال ، وشرطه أن لا ينال شيء من تلك الأعمال السابقة أحداً من الناس بِشَرٍّ في نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة على ما حدد في شريعتها .

* * *

يرشدون العقل إلى معرفة الله ، وما يَعْرِفُ من صفاته ، ويبينون الحد الذي يجب أن يَقِفَ عنده في طلب ذلك العرفان ، على وجه لا يشق عليه الأطمئنان إليه ، ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة .

يجمعون كلمة الخلق على إله واحد ، لا فُرْقَةَ معه ، ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده ، وينهضون نفوسهم إلى التعلق به في جميع الأعمال والمعاملات ، ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الأوقات ، تذكرة لمن ينسى ، وتزكية مستمرة لمن يخشى ، تُقَوِّي ما ضعف منهم ، وتَزِيدُ المستيقن يقيناً .

يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم ، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم ، فَيَفْصِلُون في تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ، ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تَقُومُ به المصالح العامة ، ولا تفوت به المنافع الخاصة ، يعودون بالناس إلى الألفة ، ويكشفون لهم سر المحبة ، ويستلفتونهم إلى أن فيها انتظام شمل الجماعة ، ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم ليستوطنوها قلوبهم ، ويشعروها أفئدتهم ، يعلمونهم لذلك أن يرعى كُلٌّ حقَّ الآخر وإن كان لا يغفل حقه ، وان لا يتجاوز في الطلب حده ، وان يعين قويهم ضعيفهم ، ويمد غنيهم فقيرهم ، ويهدي راشدهم ضالهم ، ويعلم عالمهم جاهلهم .

يضعون لهم ، بأمر الله ، حدوداً عامة ، يسهل عليهم أن يردوا إليها أعمالهم ، كاحترام الدماء البشرية إلا بحق ، مع بيان الحق الذي تهدر له ، وحظر تناول شيء مما كسبه الغير إلا بحق ، مع بيان الحق الذي يبيح تناوله ، واحترام الأعراض ، مع بيان ما يباح وما يحرم من الابضاع ، ويشرعون لهم مع ذلك أن يُقَوِّمُوا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والأمانة ، والوفاء بالعقود ، والمحافظة على العهود ، والرحمة بالضعفاء ، والإقدام على نصيحة الأقوياء ، والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء .

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية إلى طلب الرغائب السامية ، آخذين في ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب ، والإنذار والتبشير ، حسبما أمرهم اللَّه جلَّ شأنه .

يفصلون في جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا اللَّه عنهم ، وما يعرضهم لسخطه عليهم ، ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة ، وما أعد اللَّه فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده ، وأخذ بأوامره ، وتجنب الوقوع في محاظيره . يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن اللَّه لعباده في العلم به ، مما لو صعب على العقل اكتناهه لم يشق عليه الاعتراف بوجوده .

بهذا تطمئن النفوس ، وتثلج الصدور ، ويعتصم المرزوء بالصبر انتظاراً لجزيل الأجر ، أو إرضاء لمن بيده الأمر ، وبهذا ينحل أعظم مشكل في الاجتماع الإنساني لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم في حلة إلى اليوم .

* * *

ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمي الصناعات ، فليس مما جاؤوا له تعليم التاريخ ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ، ولا بيان ما اختلف من حركاتها ، ولا ما استكن من طبقات الأرض ، ولا مقادير الطول فيها والعرض ، ولا ما تحتاج إليه النباتات في نموها ، ولا ما تفتقر إليه الحيوانات في بقاء أشخاصها وأنواعها ، وغير ذلك مما وضعت له العلوم ، وتسابقت في الوصول إلى دقائقه الفهوم ، فإن ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة ، هَدَى اللَّه إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك ، يزيد في سعادة المحصلين ، ويقضي فيه بالنكد على المقصرين ، ولكن كانت سنة اللَّه في ذلك أن يتبع طريقة التدرج في الكمال ، وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمل على الإجمال بالسعي فيه ، وما يكفل التزامه بالوصول إلى ما أعد اللَّه له الفطر الإنسانية من مراتب الارتقاء .

أما ما ورد في كلام الأنبياء من الإشارة إلى شيء مما ذكرنا في أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض ، فإنما يقصد منه النظر إلى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه ، أو توجيه الفكر إلى الغوص لإدراك أسراره وبدائعه ، ولغتهم ، عليهم الصلاة والسلام ، في مخاطبة أممهم لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون ، وإلا ضاعت الحكمة في إرسالهم ،

ولهذا قد يأتي التعبير الذي سيق إلى العامة بما يحتاج إلى التأويل والتفسير عند الخاصة ، وكذلك ما وجه إلى الخاصة يحتاج إلى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة ، وهذا القسم أقل ما ورد في كلامهم .

* * *

على كل حال لا يجوز أن يقام الدين حاجزاً بين الأرواح وبين ما ميزها اللّه به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الإمكان ، بل يجب أن يكون الدين باعثاً لها على طلب العرفان ، مطالباً لها باحترام البرهان ، فارضاً عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد في معرفة ما بين يديها من العوالم ، ولكن مع التزام القصد والوقوف في سلامة الاعتقاد عند الحد . ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب الدين .

اعْتِراضٌ مَشْهورٌ

قال قائل : إن كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر ، وكمالاً لنظام اجتماعهم ، وطريقاً لسعادتهم الدنيوية والأخروية ، فما بالهم لم يزالوا أشقياء ، عن السعادة بعداء ، يتخالفون ولا يتفقون ، يتقاتلون ولا يتناصرون ، يتناهبون ولا يتناصفون ، كل يستعد للوثبة ولا ينتظر إلا مجيء النوبة ، حَشْوَ جلودهم الظلم وملء قلوبهم الطمع ، عدَّ أهل كل ذي دين دينهم حجة لمقارعة من خالفهم فيه ، واتخذوا منه سبباً جديداً للعداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصالح والمنافع ، بل أهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم ، وتختلف مذاهبهم في فهمه ، وتتفارق عقولهم في عقائدهم ، ويثور بينهم غبار الشر ، وتتشبث أهواؤهم بالفتن ، فيسفكون دماءهم ويخربون ديارهم ، إلى أن يغلب قويهم ضعيفهم ، فيستقر الأمر للقوة لا للحق والدين . . فها هو الدين الذي تقول إنه جامع الكلمة ورسول المحبة كان سبباً في الشقاق ، ومُضْرِماً للضغينة ، فما هذه الدعوى وما هذا الأثر ؟؟؟

نقول في جوابه : نعم . . كل ذلك قد كان ، ولكن بَعْدَ زمن الأنبياء وانقضاء عهدهم ، ووقوع الدين في أيدي من لا يفهمه ، أو يفهمه ويغلو فيه ، ولكن لم يمتزج حبه بقلبه ، أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الأنبياء أنفسهم أو الخيرة من تبعتهم ، وإلا فقل لنا : أي نبي لم يأت أمته بالخير الجم

والفيض الأعم ؟ ولم يكن دينه وافياً بجميع ما كانت تمس إليه حاجتها في أفرادها وجملتها ؟؟

أظن أنك لا تخالفنا في أن الجمهور الأعظم من الناس ، بل الكل - إلا قليلاً - لا يفهمون فلسفة «أفلاطون» ، ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق «أرسطو» ، بل لو عرض أقرب المعقولات إلى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتي بها مُعَبِّرٌ لما أدركوا منها إلا خيالاً لا أثر له في تقويم النفس ولا في إصلاح العمل ، فاعتبر هذه الطبقات في حالها التي لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها ، ثم انصب نفسك واعظاً بينها في تخفيف بلاء ساقه النزاع إليها ، فأي الطرق أقرب إليك في مهاجمة شهواتهم وردها إلى الاعتدال في رغائبها .

من البديهي أنك لا تجد الطريق الأقرب في بيان مضار الإسراف في الرَّغَب وفوائد القصد في الطلب ، وما ينحو نحو ذلك ، مما لا يصل إليه أرباب العقول السامية إلا بطويل النظر ، وإنما تجد أقصر الطرق وأقومها أن تأتي إليه من نافذة الوجدان المطلة على سر القهر المحيط به من كل جانب ، فتذكره بقدرة اللّٰه الذي وهبه ما وهب ، الغالب عليه في أدنى شؤونه إليه ، المحيط بما في نفسه ، الآخذ بأزِمَّة هممه ، وتسوق إليه من الأمثال في ذلك ما يقرب إلى فهمه ، ثم تروي له ما جاء في الدين المعتَقِدِ به من مواعظ وعبر ، ومن سِيَر السلف في ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة ، وتنعش روحه بذكر رضا اللّٰه إذا استقام ، وسخطه عليه إذا تقحم ، عند ذلك يخشع منه القلب ، وتدمع العين ، ويستخذي الغضب ، وتخمد الشهوة ، والسمع لم يفهم من ذلك كله إلا أنه يُرْضِي اللّٰه وأولياءه إذا أطاع ، وَيُسْخِطُهُمْ إذا عصى ، ذلك هو المشهود من حال البشر ، غابرهم وحاضرهم ، ومُنْكِرُهُ يَسِمُ نَفْسَهُ انه ليس منهم .

كم سمعنا ان عيوناً بكت ، وزفرات صعدت ، وقلوباً خشعت لواعظ الدين ؟ لكن هل سَمِعْتَ بمثل ذلك بين يدي نُصَّاحِ الأدب وزعماء السياسة ؟؟

متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم لما فيه من المنفعة لعامتهم أو خاصتهم ، وينفي الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك ؟ هذا أمر لم يعهد في سير البشر ، ولا ينطبق على فطرهم ، وإنما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد ، ولا قيام للأمرين إلا بالدين ، فعامل الدين هو أقوى العوامل في أخلاق

العامة ، بل والخاصة وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذي هو خاصة نوعهم .

سُوءُ الاسْتِعْمال

قلنا : إن منزلة النبوات من الاجتماع هي منزلة العقل من الشخص ، أو منزلة العَلمِ المنصوب على الطريق المسلوك ، بل نصعد إلى ما فوق ذلك ونقول : منزلة السمع والبصر .

أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر ؟ وبين الطريق السهلة السلوك والمعابر الوعرة ؟ ومع ذلك فقد يسيء البصير استعمال بصره ، فيتردى في هاوية يهلك فيها ، وعيناه سليمتان تلمعان في وجهه ، يقع ذلك لطيش أو إهمال أو غفلة أو لجاج وعناد .

وقد يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرة شيء ، ويعلم ذلك الباغي في رأيه من أهل الشر ، ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة ، ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها .

ولكن وقوع هذه الأمثال لا ينقص من قدر الحس أو العقل فيما خلق لأجله ، كذلك الرسل ، عليهم السلام ، أعْلامُ هداية نصبها اللّه على سبيل النجاة ، فمن الناس من اهتدى بها فانتهى إلى غايات السعادة ، ومنهم من غلط في فهمها أو انحرف عن هديها فانكب في مهاوي الشقاء ، فالدين هاد ، والنقص يعرض لمن دُعُوا إلى الاهتداء به ، ولا يطعن نَقْصُهُم في كماله ، واشْتِدادِ حَاجَتِهِم إليه ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كثيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلَّا الفَاسِقِينَ﴾[1] .

ألَا إن الدين مستقر السكينة ، ولجأ[2] الطمأنينة ، به يرضى كُلٌّ بما قُسِمَ له ، وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله ، وبه تخضع النفوس إلى أحكام السنن العامة في الكون ، وبه ينظر الإنسان إلى من فوقه في العلم والفضيلة ، وإلى من دونه في المال والجاه ، اتِّباعاً لما وردت به الأوامر الإلهية .

---

(١) البقرة : ٢٦ .

(٢) اللجأ مصدر معناه : الحصن والملاذ .

الدين أشبه بالبواعث الفطرية الإلهامية منه بالدواعي الاختيارية . الدين قوة من أعظم قوى البشر ، وإنما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى ، وكل ما وُجِّه إلى الدين من مثل الاعتراض الذي نحن بصدده فتبعته في أعناق القائمين عليه ، الناصبين أنفسهم منصب الدعوة إليه ، أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه ، وما عليهم في إبلاغ القلوب بغيتها منه إلا أن يهتدوا به ويرجعوا به إلى أصوله الطاهرة الأولى ، ويضعوا عنه أوازر البدع ، فترجع إليه قوته ، وتظهر للاعمى حكمته .

ربما يقول قائل : إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل إلى رأي القائلين باهمال العقل بالمرة في قضايا الدين ، وبأن أساسه هو التسليم المحض ، وقطع الطريق على أشعة البصيرة أن تنفذ إلى فهم ما أُودِعَهُ من معارف وأحكام .

فنقول : لو كان الأمر كما عساه أن يقال ، لما كان الدين عَلَماً يُهتدى به ، وإنما الذي سبق تقريره هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهي ، كما لا يستقل الحيوان في درك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها ، بل لا بد معها من السمع لإدراك المسموعات مثلاً ، كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات ، والعقل هو صاحب السلطان في معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما مُنِحَتْ لأجله ، والاذعان لما تكشف من معتقدات وحدود أعمال . كيف ينكر على العقل حقه في ذلك ، وهو الذي ينظر في أدلتها ليصل منها إلى معرفتها ، وانها آتية من قبل اللّه ، وإنما على العقل بعد التصديق برسالة نبي أن يصدق بجميع ما جاء به ، وإن لم يستطع الوصول إلى كنه بعضه ، والنفوذ إلى حقيقته ، ولا يقضي عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدي إلى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين في موضع واحد في آن واحد ، فإن ذلك مما تتنزه النبوات عن أن تأتي به ، فإن جاء ما يوهم ظاهِرُهُ ذلك في شيء من الوارد فيهما ، وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد ، وله الخيار بعد ذلك : **في التأويل** ، مسترشداً ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه في كلامه ، **وفي التفويض** إلى اللّه في علمه ، وفي سلفنا الناجين من أخذ بالأول ومنهم من أخذ بالثاني .

رِسالةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ

ليس من غرضنا ، في هذه الوريقات ، أن نلم بتاريخ الأمم عامة ، وتاريخ

العرب خاصة في زمن البعثة المحمدية ، لنبين كيف كانت حاجة سكان الأرض ماسة إلى قارعة تهز عروش الملوك ، وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم ، وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء إلى من دونهم من رعاياهم الضعفاء ، وإلى نار تنقض من سماء الحق على أدم[1] الأنفس البشرية ، لتأكل ما اعشوشبت به من الأباطيل القاتلة للعقول ، وصيحة فصحى تزعج الغافلين وترجع بألباب الذاهلين ، وتنبه المرؤوسين إلى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الضالين ، والهداة الضالين ، والقادة الغارين ، وبالجملة تؤوب بهم إلى رشد يقيم الإنسان على الطريق التي سنها الله له : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾[2] ليبلغ بسلوكها كماله ، ويصل على نهجها إلى ما أُعِدَّ في الدارين له .

ولكنا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر إمعان وإنصاف : كانت دولتا العالم ، دولة الفرس في الشرق ودولة الرومان في الغرب في تنازع وتجالد مستمر ، دماء بين العالمين مسفوكة ، وقوى منهوكة ، وأموال هالكة ، وظُلَمٌ من الإحن حالكة ، ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والإسراف والفخفخة والتفنن في الملاذ بالغة حد ما لا يوصف في قصور السلاطين والأمراء ، والقواد ورؤساء الأديان من كل أمة ، وكان شَرَهُ هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حد ، فزادوا في الضرائب ، وبالغوا في فرض الأتاوات ، حتى اثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم ، واتوا على ما في أيديها من ثمرات أعمالها ، وانحصر سلطان القوى في اختطاف ما بيد الضعيف ، وفكر العاقل في الاحتيال لسلب الغافل ، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر ، والذل والاستكانة ، والخوف والاضطراب ، لفقد الأمن على الأرواح والأموال .

غمرت مشيئة الرؤساء إرادة من دونهم ، فعاد هؤلاء كأشباح ، اللاعب يديرها من وراء حجاب ، ويظنها الناظر إليها من ذوي الألباب ، ففُقِد بذلك الاستقلال الشخصي ، وظن أفراد الرعايا انهم لم يخلقوا إلا لخدمة ساداتهم وتوفير لذاتهم ، كما هو الشأن في العجماوات مع من يقتنيها .

---

(١) من معانيه السمرة والسواد .

(٢) الإنسان : ٣ .

ضلت السادات في عقائدها وإهوائها ، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها ، ولكن بقي لها من قوة الفكر أردأ بقاياها ، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الإلهي ، الذي يخالط الفطر الإنسانية ، قد يفتق الغلف التي أحاطت بالقلوب ، ويمزق الحجب التي أسدلت على العقول ، فتهتدي العامة إلى السبيل ، ويثور الجم الغفير على العدد القليل ، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحباً من الأوهام ، ويهيئوا كِسَفاً من الأباطيل والخرافات ، ليقذفوا بها في عقول العامة ، فيغلظ الحجاب ، ويعظم الرَّيْن ، ويختنق بذلك نور الفطرة ، ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم .

وصرح الدين ، بلسان رؤسائه ، انه عدو العقل ، وعدو كل ما يثمره النظر ، إلا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس ، وكان لهم في المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ومدد لا ينفد .

هذه حالة الأقوام كانت في معارفهم ، وذلك كان شأنهم في معايشهم ، عبيد أذلاء حيارى في جهالة عمياء ، اللهم إلا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية والشرائع السابقة آوت إلى بعض الأذهان ، ومعها مقت الحاضر ، ونقص العلم بالغابر ، ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها ، بما انقلب من الوضع ، وانعكس من الطبع ، فكان يرى الدنس في مظنة الطهارة ، والشره حيث تنتظر القناعة ، والدعارة حيث ترجى السلامة ، والسلام مع قصور النظر عن معرفة السبب ، وانصرافه لأول وهلة إلى أن كل ذلك هو الدين ، فاستولى الاضطراب على المدارك ، وذهب بالناس مذهب الفوضى في العقل والشريعة معاً ، وظهرت مذاهب الإباحيين والدهريين في شعوب متعددة ، وكان ذلك ويلاً عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب .

وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة في النزعات ، خاضعة للشهوات ، فخر كل قبيلة في قتال أختها ، وسفك دماء أبطالها ، وسبي نسائها ، وسلب أموالها ، تسوقها المطامع إلى المعامع ، ويزين لها السيئات فساد الاعتقادات ، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حدا صنعوا أصنامهم من الحلوى ، ثم عبدوها ، فلما جاعوا أكلوها !! وبلغوا من تضعضع الأخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصاً من عار حياتهن ، أو تنصلاً من نفقات معيشتهن ، وبلغ الفحش بهم مبلغاً لم يعد معه للعفاف قيمة . وبالجملة : فكانت رُبُط النظام الاجتماعي قد تراخت عقدها في كل أمة ، وانفصمت عراها عند كل طائفة .

أفلم يكن من رحمة اللّه بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برجل منهم ، يوحي إليه رسالته ، ويمنحه عنايته ، ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم ، التي أظلت رؤس جميع الأمم ؟؟.

نعم . . كان ذلك ، وله الأمر من قبل ومن بعد ، في الليلة الثانية عشر من ربيع الأول ، عام الفيل ـ (٢٠ إبريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام) ـ ولد محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب بن هاشم القرشي ، بمكة ، ولد يتيماً ، توفي والده قبل أن يولد ، ولم يترك له من المال إلا خمس جمال وبعض نعاج وجارية ، ويروى أقل من ذلك . وفي السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً ، فاحتضنه جده عبدالمطلب ، وبعد سنتين من كفالته توفي جده ، فكفله من بعده عمه أبو طالب ، وكان شهماً كريماً ، غير أنه من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله ، وكان ﷺ من بني عمه وصبية قومه كأحدهم ، على ما به من يُتْمٍ فقد فيه الأبوين معاً ، وفَقْرٍ لم يسلم منه الكافل والمكفول ، ولم يقم على تربيته مهذب ، ولم يعن بتثقيفه مؤدب ، بين أتراب من نبت الجاهلية ، وعشراء من حلفاء الوثنية ، وأولياء من عبدة الأوهام ، وأقرباء من حفدة الأصنام ، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل ، بدناً وعقلاً وفضيلة وأدباً ، حتى عرف بين أهل مكة ، وهو في ريعان شبابه ، بالأمين .

أدب إلهي لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء ، خصوصاً مع فقر الْقُوَّام ، فاكتهل ﷺ كاملاً والقوم ناقصون ، رفيعاً والناس منحطون ، موحداً وهم وثنيون ، سِلْماً وهم شاغبون ، صحيح الاعتقاد وهم واهمون ، مطبوعاً على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون .

من السنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه ، لا سيما إن كان من ذوي قرابته وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ، ولا أستاذ ينبهه ، ولا عضد إذا عزم يؤيده ، فلو جرى الأمر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم وأخذ بمذاهبهم إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع إلى مخالفتهم إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده ، ولكن الأمر لم يجر على سنته ، بل بُغِّضت إليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة ،

وما جـاء في الكتاب من قوله : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾[1] لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد ، أو على غير السبيل القويم قبل الخلق العظيم ، حاش لله ، إن ذلك لهو الافك المبين ، وإنما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب السبيل إلى ما هدوا إليه من انقـاذ الهالكـين ، وإرشاد الضالين ، وقد هدى اللّه نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته .

* * *

وجد شيئاً من المال يسد حاجته ـ (وقد كان له في الاستزادة منه ما يرفه معيشته) ـ بما عمل لخديجة ، رضي اللّه عنها ، في تجارتها ، وبما اختارته بعد ذلك زوجها ، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له وعون على بلوغه ما كان عليه أعاظم قومه ، لكنه لم ترقه الدنيا ، ولم تغره زخارفها ، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله في الوصول إلى ما ترغبه الأنفس من نُعيمها ، بل كلما تقدم به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة ، ونما فيه حب الإنفراد والانقطاع إلى الفكر ، والمـراقبة والتحنث[2] بمنـاجاة اللّه تعـالى ، والتوسل إليه في طلب المخرج من همه الأعظم في تخليص قومه ، ونجاة العالم من الشر الذي تولاه ، إلى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه إليه الإلهام الإلهي ، وتجلى عليه النور القدس ، وهبط عليه الوحي من المقام العلي ، في تفصيل ليس هذا موضعه .

لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سُلِب من ملكـه ، وكانت نفـوس قومـه في انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفي قناعة بما وجده من شرف النسبة إلى المكان ، دل عليهما مـا فعل جـده عبد المـطلب عند زحـف «أبـرهة» الحبشي[3] عـلى ديارهم ، جاء الحبشي لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام ، وبيتهم الحرام ، ومنتجع حجيجهم ، ومستوى العلية من آلهتهم ، ومنتهى حجة القرشيين في مفاخـرتهم لبني

---

(١) الضحى : ٧ .

(٢) أي التعبد بمناجاة اللّه .

(٣) الملقب بالأشرم ، حكم اليمن العربيـة لحساب ملك الحبشـة ، وكان في الأصـل عبداً لـرجل روماني ، واستقل باليمن عن الحبشة فترة من الزمن ، وكان مسيحياً ، بدأ حكمه لهذه البلاد سنة ٥٣١ م . أنظر دائرة المعارف الإسلامية .

قومهم ، وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الإبل فيها لعبد المطلب مائتا بعير ، وخرج عبد المطلب في بعض قريش لمقابلة الملك ، فاستدناه وسأله حاجته فقال : هي أن ترد إلي مائتي بعير أصبتها ، فلامه الملك على المطلب الحقير وقت الخطب الخطير ، فأجابه : أنا رب الإبل أما البيت فله رب يحميه .

هذا غاية ما ينتهي إليه الاستسلام ، وعبد المطلب في مكانه من الرياسة على قريش ، فأين من تلك المكانة محمداً ﷺ ، في حاله من الفقر ، ومقامه في الوسط من طبقات أهله ، حتى ينتجع مُلْكاً أو يطلب سلطاناً ؟؟ . . لا مال ، لا جاه ، لا جند ، لا أعوان ، لا سليقة في الشعر ، لا براعة في الكتاب ، لا شهرة في الخطاب ، لا شيء كان عنده مما يُكْسب المكانة في نفوس العامة ، أو يرقى به إلى مقامٍ ما بين الخاصة .

ما هذا الذي رفع نفسه فوق النفوس ؟ ما الذي أعلى رأسه على الرؤوس؟ ما الذي سما بهمته على الهمم حتى انتدب نفسه لإرشاد الأمم ، وكفالته لهم كشف الغمم ، بل وإحياء الرمم ؟؟

ما كان ذلك إلا ما القى اللَّه في روعه من حاجة العالم إلى مُقَوِّمٍ لما زاغ من عقائدهم ، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم . ما كان ذلك إلا وجدانه ريح العناية الإلهية ، ينصره في عمله ، ويمده في الانتهاء إلى أمله قبل بلوغ أجله . ما هو إلا الوحي الإلهي يسعى نوره بين يديه ، يضيء له السبيل ، ويكفيه مُؤْنَةَ الدليل . ما هو إلا الوعد السماوي قام لديه مقام القائد والجندي .

أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة إلى التوحيد والاعتقاد بالعلي المجيد ، والكل ما بين وثنية متفرقة ودهرية وزندقة ؟ . . نادى في الوثنيين بترك أوثانهم ، ونبذ مُعبوداتهم ، وفي المشبهين المنغمسين في الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم ، وفي الثنوية بإفراد إله واحد بالتصرف في الأكوان ، ورد كل شيء في الوجود إليه ، أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم إلى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنوروا سر الوجود الذي قامت به . صاح بذوي الزعامة ليهبطوا إلى مصاف العامة في الاستكانة إلى سلطان معبود واحد هو فاطر السماوات والأرض ، والقابض على أرواحهم في هياكل أجسادهم . تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى ، فبين لهم بالدليل وكشف لهم بنور الوحي أن نسبة أكبرهم إلى اللَّه كنسبة أصغر

المعتقدين به ، وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية إلى أدنى سلم من العبودية ، والاشتراك مع كل ذي نفس إنسانية في الاستعانة برب واحد ، يستوي جميع الخلق في النسبة إليه ، لا يتفاوتون إلا فيما فَضَّل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة . وَخَزَ بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له ، ويحلوا أغلالهم التي أَخَذَتْ بايديهم عن العمل ، وقطعتهم دون الأمل . مال على قراء الكتب السماوية والقائمين على ما أُودِعَتْه من الشرائع الإلهية ، فبَكَّتْ الواقفين عند حروفها بغباوتهم ، وشدد النكير على المحرفين لها ، الصارفين لألفاظها إلى غير ما قُصِد من وحيها ، اتباعاً لشهواتهم ، ودعاهم إلى فهمها ، والتحقق بسر علمها حتى يكونوا على نور من ربهم . واستلفت كل إنسان إلى ما أُودِعَ فيه من المواهب الإلهية ، ودعا الناس اجمعين ذكوراً وإناثاً ، عامة وسادات ، إلى عرفان أنفسهم ، وانهم من نوع خصه اللّه بالعقل ، وميزه بالفكر ، وشرفه بهما وبحرية الإرادة فيما يرشد إليه عقله وفكره ، وإن اللّه عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان ، وسلطهم على فهمها ، والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال ، والوقوف عند حدود الشريعة العادلة والفضيلة الكاملة ، وأقدرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد إلا من خصهم اللّه بوحيه ، وقد وكل إليهم معرفتهم بالدليل ، كما كان الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع . والحاجة إلى أولئك المصطفين إنما هي في معرفة الصفات التي أذن اللّه أن تعلم منه ، وليست في الاعتقاد بوجوده ، وقرر أن لا سلطان لأحد من البشر على آخر منه إلا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل ، ثم الانسان بعد ذلك يذهب بإرادته إلى ما سخرت له بمقتضى الفطرة .

دعا الانسان إلى معرفة انه جسم وروح ، وأنه بذلك من عالمين مُختلفين ، وإن كانا ممتزجين ، وإنه مطالب بخدمتهما جميعاً وإيفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الإلهية من الحق . دعا الناس كافة إلى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقون في الحياة الأخرى ، وبين لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الإخلاص للّه في العبادة والإخلاص للعباد في العدل والنصيحة والإرشاد .

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ، ولا حول له ولا قوة ، كل هذا كان منه والناس احبّاء ما ألفوا ، وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة ، أعداء ما جهلوا ، وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة ، كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم ،

وعبيد شهوتهم ، لا يفقهون دعوته ولا يعقلون رسالته . عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة ، وحُجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر في دعوى فقير أمي مثله ، لا يرون فيه ما يرفعه إلى نصيحتهم ، والتطاول إلى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف .

لكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ، ويناضلهم بالدليل ، ويأخذهم بالنصيحة ، ويزعجهم بالزجر ، وينبههم للعبر، ويحوطهم مع ذلك ، بالموعظة الحسنة ، كأنما هو سلطان قاهر في حكمه ، عادل في أمره ونهيه ، أو أب حكيم في تربية أبنائه ، شديد الحرص على مصالحهم ، رؤوف بهم في شدته ، رحيم في سلطته .

ما هذه القوة في ذلك الضعف ؟؟ ما هذا السلطان في مظنة العجز ؟! ما هذا العلم في تلك الأمية ؟! ما هذا الرشاد في غمرات الجاهلية ؟! . إن هو إلا خطاب الجبروت الأعلى ، قارعة القدرة العظمى ، نداء العناية العليا ذلك خطاب اللّه القادر على كل شيء ، الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً ، ذلك أمر اللّه الصادع ، يقرع الأذان ، ويشق الحجب ، ويمزق الغلف[1] ، وينفذ إلى القلوب على لسان من اختاره لينطق به ، واختصه بذلك ، وهو اضعف قومه ، ليقيم من هذا الاختصاص برهاناً عليه ، بعيداً عن الظنة ، بريئاً من التهمة ! لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه .

أي برهان على النبوة اعظم من هذا !؟ . . امي قام يدعو الكاتبين إلى فهم ما يكتبون وما يقرأون ؟! بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ، ليمحصوا ما كانوا يعلمون ؟! في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ؟! ناشىء بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء ؟؟ غريب في أقرب الشعوب إلى سذاجة الطبيعة وأبعدها عن فهم نظام الخليقة والنظر في سننه البديعة ، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ، ويخط للسعادة طرقاً لن يهلك سالكها ولن يخلص تاركها ؟! .

ما هذا الخطاب المفحم ؟ ما ذلك الدليل الملجم ؟ . . أأقول ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم ؟! لا ، لا أقول ، ولكن أقول كما أمره اللّه أن يصف نفسه ، إن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه . نبي صدق الأنبياء ، ولكن لم يأت في الاقناع برسالته بما يلهي الأبصار ، أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر ، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما

(١) مفردها غلاف .

أعدت له ، واختص العقل بالخطاب ، وحاكم إليه الخطأ والصواب ، وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

* * *

القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذي لا تتطرق إليه الريبة ، ان النبي ، ﷺ ، كان في نشأته وأميته على الحال التي ذكرنا ، وتواترت أخبار الأمم كافة على انه جاء بكتاب قال إنه أُنزل عليه ، وان ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب في المصاحف، المحفوظ في صدور من عني بحفظه من المسلمين إلى اليوم . كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة، نقب على الصحيح منها ، وغادر الأباطيل التي ألحقتها الأوهام بها . ونبه على وجوه العبرة فيها . حكى عن الأنبياء ما شاء اللّٰه أن يقص علينا من سيرهم ، وما كان بينهم وبين أممهم ، وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم ، المعتقدون برسالتهم . آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم ، وما خلطوا في أحكامهم ، وما حرفوا ، بالتأويل ، في كتبهم . وشرع للناس أحكاماً تنطبق على مصالحهم ، وظهرت الفائدة في العمل بها والمحافظة عليها ، وقام بها العدل ، وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره ، ثم عظمت المضرة في إهمالها والانحراف عنها أو البعد بها عن الروح الذي أودعته ، ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية ، كما يتبين للناظر في شرائع الأمم ، ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب ، وتهش لاستقبالها العقول ، وتنصرف وراءها الهمم انصرافها في السبيل الأمم .

نزل القرآن في عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرقى الأعصار عند العرب ، وأغزرها مادة في الفصاحة ، وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب ، وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ، ونتائج الفطنة والذكاء ، هو الغلب في القول ، والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب ومقر الإذعان من العقول ، وتفانيهم في المفاخرة بذلك لا يحتاج إلى الإطالة في بيانه .

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي ، ﷺ ، والتماسهم

الوسائل ، قريبها وبعيدها ، لإبطال دعواه ، وتكذيبه في الاخبار عن اللّه ، واتيانهم في ذلك على مبلغ استطاعتهم ، وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته ، والأمراء الذين يدعوهم السلطان إلى مناوأته ، والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته ، وقد أشتد جميع أولئك في مقاومته ، وانهالوا بقواهم عليه ، استكباراً عن الخضوع له ، وتمسكاً بما كانوا عليه من أديان آبائهم ، وحمية لعقائدهم وعقائد أسلافهم ، وهو مع ذلك يخطِّىء آراءهم ، ويسفه أحلامهم ، ويحتقر أصنافهم ، ويدعوهم إلى ما لم تعهده أيامهم ، ولم تخفق لمثله أعلامهم ، ولا حجة له بين يدي ذلك كله إلا تحديهم بالإتيان بمثل اقصر سورة من ذلك الكتاب ، أو بعشر سور من مثله . وكان في استطاعتهم أن يجمعوا إليه من العلماء والفصحاء البلغاء ما شاءوا ، ليأتوا بشيء من مثل ما أتى به ، ليبطلوا الحجة ، ويفحموا صاحب الدعوة :

جاءنا الخبر المتواتر انه مع طول زمن التحدي ، ولجاج القوم في التعدي أُصيبوا بالعجز ، ورجعوا بالخيبة وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام ، وقضى حكمه العلي على جميع الأحكام . أليس في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمي أعظم معجزة وأدل برهان على انه ليس من صنع البشر ؟ وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الإلهي ، والحكم الصادر عن المقام الرباني على لسان الرسول الأمي ، صلوات اللّه عليه .

* * *

هذا وقد جاء في الكتاب من أخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون ، كالخبر في قوله : ﴿غُلبت الرُّومُ في أدنى الأرض وَهمْ من بعد غلبهمْ سَيَغلبون في بضع سنين﴾[1] ، وكالوعد الصريح في قوله : ﴿وعَد اللّه الذين آمنوا مِنْكم وعَمِلوا الصّالحات ليَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرض كمَا استخلفَ الذين من قبلهم﴾[2] الآية ، وقد تحقق جميع ذلك وفي القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته .

ومن الكلام عن الغيب فيه ما جاء في تحدي العرب به ، واكتفائه في الرجوع عن

---

(١) الروم : ٢ ـ ٤ .

(٢) النور : ٥٥ .

دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله ، مع سعة البلاد العربية ، ووفـرة سكانها ، وتبـاعد أطرافها ، وانتشار دعوته على لسان الوافدين إلى مكة من جميع أرجائها ، ومع انه لم يسبق له ، ﷺ ، السياحة في نواحيها والتعرف بـرجالهـا ، وقصور العلم البشري ، عادة ، عن الإحاطة بما أودع في قوى أمة عظيمة كالأمة العربية ، فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشرياً ، ومن الصعب ، بل من المتعذر ، أن يصدر عن عاقل التزامٌ كالذي التزمه ، وشرطٌ كالذي شرطه على نفسه ، لغلبة الظن عند من له شيء من العقل أن الأرض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته ، وإنما ذلك هو اللّٰه المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه ، وقد أحاط عِلمهُ بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له وبلوغ ما حثهم عليه .

يقول واهم : إن العجز حجة على من عجز ، فإن العجز هي حجة الإفحـام وإلزام الخصم ، وقد يلتزم الخصم ببعض المسلمات عنده فيُفحَمَ ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ، ولكن ليس ذلك بملزم لغيره ، فمن الممكن أن لا يسلم غيره بما سلمه ، فلا يفحمه الدليل ، بل يجد إلى إبْطَاله أقرب سبيل .

وهو وَهمٌ يضمحل بما قدمناه من البيان ، إذ لا يوجد من المشابهة بـين إعجاز القرآن وإفحام الدليل إلا انه يوجد عن كل منهما عجز ، وشتان بين العجزين ، وبُعْدَ ما بين وجهتي الاستدلال فيهما ، فإن إعجاز القرآن برهن على أمر واقعي ، وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة ، وقلنا : القوى البشريـة ، لأنه جـاء بلسان عربي ، وقد عرف الكتاب عند جميع العرب في عهد النبوة ، وكان حـال العصر من البلاغة كما ذكرنا ، وحال القوم في العناد كـما بينا ، ومـع ذلك لم يمكن للعـرب أن يعارضوه بشيء من مبلغ عقولهم ، فلا يعقل أن فارسياً أو هندياً أو رومانياً يبلغ من قوة البلاغة في العربية أن يأتي بما عجز عنه العرب أنفسهم ، وتَقَاصُرُ القوى جميعها عن ذلك ، مع التماثل بين النبي وبينهم في النشأة والتربية ، وامتياز الكثير منهم بـالعلم والدراسة دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر ، فهو اختصاص من اللّٰه سبحانه لمن جاء على لسانه .

ثم ما ورد في القرآن من تسجيل العجز عليهم ، والتعرض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوة ، مما يدل على الثقة من أمره ، مع ما سبق تعداده من الأمور التي لا يمكن معها لعاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن وانفساح الأجل ، كل ذلك يدل على

أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة ، لا رجل يعظ وينصح على العادة .

فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب الباقي الذي لا يعرض عليه التغيير ولا يتناوله التبديل أن نبينا **محمداً** ، ﷺ ، رسول الله إلى خلقه ، فيجب التصديق برسالته والاعتقاد بجميع ما ورد في الكتاب المنزل عليه ، والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة ، وقد جاء في الكتاب انه خاتم الأنبياء ، فوجب علينا الإيمان بذلك كذلك .

* * *

الدين الإسلامي
أو
الإسلام(١)

بقي علينا أن نشير إلى وظيفة الدين الإسلامي ، وما دعا إليه ، على وجه الإجمال ، وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة ، والسر في كون النبي ، ﷺ ، خاتم المرسلين ، صلوات اللّه عليه وعليهم أجمعين .

هو الدين الذي جاء به محمد ، ﷺ ، وَعَقَلَهُ مَنْ وَعَاهُ عنه من صحابته ومن عاصرهم ، وجرى العمل عليه حيناً من الزمن بينهم بلا خوف ولا اعتساف في التأويل ، ولا ميل مع الشيع ، وأتى مجمله في هذا الباب مقتدياً بالكتاب المجيد في التفويض لذوي البصائر أن يفصلوه . وما سندي فيما أقول إلا الكتاب ، والسنة القويمة ، وهدى الراشدين .

* * *

التَّوْحِيدُ

جاء الدين الاسلامي بتوحيد اللّه تعالى في ذاته وأفعاله ، وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين ، فأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من

---

(١) من هنا حتى ما قبل موضوع (التصديق بما جاء به محمد ﷺ) من رسالة التوحيد هذه ، نشر أيضاً في كتاب (الإسلام والرد على منتقديه) ص ٩١ ـ ١١٨ . ولقد راجعنا النسختين وقومنا منهما النص .

الصفات العلية ، كالعلم ، والقدرة ، والإرادة ، وغيرها ، وعلى انه لا يشبهه شيء من خلقه ، وأن لا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم ، وأنهم له وإليه راجعون : **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾**(١) .

وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها ، له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ، ولم يشتبهوا في شيء منها ، وأن ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز في جسدٍ أو رُوح أحَدٍ من العالَمين ، وإنما يختص سبحانه من شاء من عباده بما شاء من علم وسلطان على ما يريد أن يسلطه عليه من الأعمال ، على سنة له في ذلك سنها في علمه الأزلي ، الذي لا يعتريه التبديل ولا يدنو منه التغيير ، وحظر على كل ذي عقل أن يعترف لأحد بشيء من ذلك إلا ببرهان ينتهي في مقدماته إلى حكم الحس وما جاوره من البديهات التي لا تنقص عنه في الوضوح ، بل قد تعلوه ، كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتفاعهما معاً ، أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلاً ، وقضى على هؤلاء ، كغيرهم ، بأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون ، وأن ما يجريه على أيديهم فإنما هو بإذن خاص ، وبتيسير خاص ، في موضع خاص ، لحكمة خاصة ، ولا يعرف شأن اللّه في شيء من هذا إلا ببرهان ، كما تقدم .

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب : **﴿وَاللَّهُ أخرجَكمْ منْ بُطُونِ أُمّهاتِكُمْ لا تعلمون شيئاً ، وجَعل لَكمُ السمّعَ والأبصارَ والأفئدة لعلَكمْ تشكرون﴾**(٢) ، والشكر عند العرب معروف أنه : تصريف النعمة فيما كان الإنعام بها لأجله ، دل بمثل هذا على أن اللّه وهبنا من الحواس ، وغرز فينا من القوى ما نصرفه في وجوهه ، بمحض تلك الموهبة ، فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عليها . وأما ما تتحير فيه مداركنا ، وتقصر دونه قوانا ، وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها ، أو ناصر يمدها فيما أدركها العجز عنه ، على أنه فوق ما تعرف من القوى المسخرة لها ، وكان لا بد من الخضوع له ، والرجوع إليه ، والاستعانة به ، فذلك إنما يردُّ إلى اللّه وحده ، فلا يجوز أن تخشع إلا له ولا أن تطمئن إلا إليه ، وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه في الحياة الآخرة ، لا يسوغ لها أن تلجأ إلى أحد غير اللّه في قبول أعمالها من الطيبات ، ولا في

---

(١) الأخلاص : ١ ـ ٤ .

(٢) النحل : ٧٨ .

غفران أفاعيلها من السيئات ، فهو وحده مالك يوم الدين .

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها في الصورة والشكل أو العبارة واللفظ ، لم يختلف عنها في المعنى والحقيقة ، تبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة التي لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة ، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التي كانت تلازم تلك الأوهام ، وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف في المعبودين وعليهم ، وأرتفع شأن الإنسان وسمت قيمته بما صار إليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لأحد إلا لخالق السماوات والأرض وقاهر الناس أجمعين ، وأبيح لكل أحد ، بل فرض عليه أن يقول كما قال إبراهيم : **﴿إنِّي وجهتُ وجهي للذي فطَر السَّموات والأرض حَنيفاً وَمَا أنَا مِنَ منَ الْمُشرِكِين﴾**[(1)] ، وكما أمر رسول الله ﷺ ، أن يقول : **﴿إنَّ صَلاتِي ونُسكي وَمحيَايَ وَمَماتي للَّه رَبِّ العَالمِينَ لا شَريكَ لَهُ وبِذَلِكَ أُمرتُ وأَنَا أوَّلُ المُسلِمينَ﴾**[(2)] ، تجلت بذلك للإنسان نفسه حرة كريمة ، وأُطلقت إرادته من القيود التي كانت تقعدها بإرادة غيره ، سواء كانت إرادة بشرية ظن انها شعبة من الإرادة الإلهية ، أو أنها هي ، كإرادة الرؤساء والمسيطرين أو إرادة موهومة اخترعها الخيال ، كما يظن في القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها ، وافتكت عزيمته من أسر الوسائط ، والشفعاء ، والمتكهنة والعرفاء ، وزعماء السيطرة على الأسرار ، ومتنحلي حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين اللَّه ، الزاعمين أنهم واسطة النجاة ، وبأيديهم الإشقاء والإسعاد . وبالجملة ، فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين ، وصار الإنسان بالتوحيد ، عبد اللَّه خاصة ، حراً من العبودية لكل ما سواه ، فكان له من الحق ما للحر على الحر ، لا عَلِيّ في الحق ولا وضيع ، ولا سافل ولا رفيع ، ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ، ولا تفاضل إلا بتفاضلهم في عقولهم ومعارفهم ، ولا يقربهم من اللَّه إلا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء ، ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين وتمخض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة وكفت عنها أيدي العالة وأهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعمله وخدمته .

* * *

---

(1) الأنعام : ٧٩ .

(2) الأنعام : ١٦٢ .

مَكانَةُ العمَلِ

طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه ، وقور أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴿فمَنْ يَعمَلْ مِثقالَ ذَرةٍ خيراً يَرَهْ ومَنْ يَعمَلْ مِثقَالَ ذرةٍ شرّاً يرَهْ﴾[1] ، ﴿وأَنْ لَيسَ للإنسانِ إلاَّ مَا سَعَى﴾[2] ، وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلاً وشرباً ولباساً وزينة ، ولم يحظر عليه إلا ما كان ضاراً بنفسه ، أو بمن يدخل في ولايته ، أو ما تعدى ضرره إلى غيره ، وحدد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة ، فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله ، واتسع المجال لتسابق الهمم في السعي حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها ، إلا حقاً محترماً تصطدم به .

* * *

حُرِّيَّةُ الفِكرِ . . والتَّجْدِيدِ

أنحى الإسلام على التقليد ، وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر ، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس ، واقتعلت أصوله الراسخة في المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم . صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نوْمةٍ طال عليه الغيب فيها ، كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه هينمة[3] من سدنة هياكل الوهم : «نم فإن الليل حالك ، والطريق وعرة والغاية بعيدة ، والراحة كليلة والأزواد قليلة» . !!

علا صوت الإسلام على وساوس الطغام ، وجهر بـأن الإنسان لم يخلق لِيُقـاد بالزمام ، ولكنه فُطِر على أن يهتدي بالعلم والأعلام ، أعلام الكون ودلائل الحوادث ، وإنما المعلمون منبهون ومرشدون ، وإلى طرق البحث هادون ، صرح في وصف أهل الحق بأنهم : ﴿الذين يستَمعُون القَولَ فيَتَّبِعونَ أحْسنهُ﴾[4] ، فوصفهم بالتمييز بين ما

---

(١) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

(٢) النجم : ٢٩ .

(٣) الهيمنة : الصوت الخفي .

(٤) الزمر : ١٨ .

يقال ، من فرق بين القائلين ، ليأخذوا بما عرفوا حسنه ، ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ، ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ، ووضعهم تحت أنظار مرؤوسيهم ، يخبُرونهم كما يشاؤون ، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون . صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء ، وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ، ولا مُسمِياً لعقول على عقول ، ولا لأذهان على أذهان ، وإنما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان ، بل للاحق مِنْ علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه ، وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم ، وطغيان الشر الذي وصل إليهم بما اقترفه سلفهم : ﴿قُلْ سِيرُوا في الأرْضِ فَانْظُرُوا كَيفَ كانَ عَاقِبَةُ المكَذِّبينَ﴾[1] ، وأن أبواب فضل اللّه لم تغلق دون طالب ، ورحمته التي وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب ، عاب أرباب الأديان في اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته سير أسلافهم ، وقولهم : ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنا عَليهِ آبَاءنا﴾[2] ، ﴿إنَّا وَجَدْنا آباءنا عَلى أُمَّةٍ وإنَّا على آثارِهِمْ مُهْتَدُون﴾[3] .

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قَيَّده ، وخلصه من كل تقليد كان استعبده ، ورده إلى مملكته يقضي فيها بحكمه وحكمته ، مع الخضوع مع ذلك للّه وحده ، والوقوف عند شريعته ، ولا حد للعمل في منطقة حدودها ، ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها .

بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما : استقلال الإرادة ، واستقلال الرأي والفكر ، وبهما كملت له انسانيته ، واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه اللّه له بحكم الفطرة التي فطر عليها ، وقد قال بعض حكماء الغربيين ، من متأخريهم : إن نشأة المدنية في أوربا إنما قامت على هذين الأصلين ، فلم تنهض

---

(١) الأنعام : ١١ .

(٢) لقمان : ٢١ .

(٣) الزخرف : ٢٢ .

النفوس للعمل ولم تتحرك العقول للبحث والنظر إلا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم ، وإن لهم حقاً في تصريف اختيارهم ، وفي طلب الحقائق بعقولهم ، ولم يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا في الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح ، وقرر ذلك الحكيم : أنه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام ومعارف المحققين من أهله في تلك الإمان(١) .

رفع الإسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين في فهم الكتب السماوية ، استئثاراً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم ، وضناً به على كل من لم يلبس لباسهم ، ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتبة المقدسة ، ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرأوا قِطعاً من تلك الكتب ، لكن على شريطة أن لا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم إلى ما ترمي إليه ، ثم غالوا في ذلك فحَرموا أنفسهم أيضاً مزية الفهم إلا قليلاً ، ورموا عقولهم بالقصور عن إدراك ما جاء في الشرائع والنبوات ، ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ تعبداً بالأصوات والحروف فذهبوا بحكمة الإرسال ، فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا ، فقال : ﴿وَمِنهُمْ أُميُّونَ لا يَعْلمُونَ الكِتابَ إلاَّ أَمانَّي وَإنْ هُمْ إلاَّ يَظنُونَ﴾(٢) ، ﴿مَثلُ الذِينَ حُمِّلوا التَّوْارَة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ أسفاراً ، بِئسَ مَثَلُ القَوْم الذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِ اللَّهِ ، واللَّهُ لا يَهدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٣) . أما الأماني ففسرت بالقرآت والتلاوات ، أي لا يعلمون منه إلا أن يتلوه ، وإذا ظنوا أنهم على شيء مما دعا إليه فهو عن غير علم بما أودعه ، وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه ديناً ، وإذا عَنَّ لأحدهم أن يبين شيئاً من أحكامه ومقاصده ، لشهوة دفعته إلى ذلك ، جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة ، واعتسف في التأويل ، وقال : هذا من عند اللّه ﴿فوَيلٌ لِلذِينَ يَكتُبونَ الكِتَاب بأيْديهمْ ثُمَّ يَقُولون هَذا مِنْ عِنْد اللَّهِ لِيَشْتَروا به ثمَناً قليلاً﴾(٤) ، أما الذين قال : إنهم لم يحملوا التوراة ،

---

(١) الإشارة إلى أثر التعاليم الإسلامية التي اقتبسها الغرب من الأندلس وبواسطة الاختلاط زمن الحروب الصليبية . . إلخ في حركة الإصلاح في أوروبا . وسيأتي لنا تعليق خاص بهذا الامر في الفصل الخاص بانتشار الإسلام من رسالة التوحيد هذه .

(٢) البقرة : ٧٨ .

(٣) الجمعة : ٥ .

(٤) البقرة : ٧٩ .

وهي بين أيديهم بعدما حُمِّلوها، فهم الذين لم يعرفوا منها إلا الألفاظ، ولم تسمُ عقولهم إلى دركِ ما أودعَته من الشرائع والأحكام، فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها، وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التي نصبت بإنزالها، فحق عليهم ذلك المثل الذي أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به، مثَلُ الحمار الذي يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها إلا العناء والتعب وقصم الظهور به، وانبهار النَّفس، وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال، فما كان سبباً في إسعادهم، وهو التنزيل والشريعة، أصبح سبباً في شقائهم بالجهل والغباوة.. وبهذا التقريع ونحوه، وبالدعوة العامة إلى الفهم وتمحيص الألباب للتفقه واليقين، مما هو منتشر في القرآن العزيز، فرض الاسلام على كل ذي دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع اللّه في كتبه، وما قرر من شرعه، وجعل الناس في ذلك سواء بعد استيفاء الشرط بإعداد ما لا بد منه للفهم، وهو سهل المنال على الجمهور الأعظم من المتدينين، لا تختص به طبقة من الطبقاتُ ولا يحتكر مزيته وقت من الأوقات.

* * *

اتفاقُ الأدْيان على التَّوْحيد

جاء الإسلام والناس شيع في الدين، وإن كانوا، إلا قليلاً، في جانب عن اليقين، يتنابذون ويتلاعنون، ويزعمون في ذلك أنهم بحبل اللّه مستمسكون، فرقة وتخالُف وشغبٌ يظنونها في سبيل اللّه أقوى سبب، أنكر الإسلام ذلك كله، وصرح تصريحاً لا يحتمل الريبة بأن دين اللّه في جميع الأزمان وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد، قال اللّه: **﴿إنَّ الدينَ عندَ اللّه الإسلامُ وما اختلفَ الذِينَ أُوتُوا الكِتابَ إلَّا من بَعْدمَا جاءهمْ العِلمُ بَغْياً بينَهمْ﴾**[١]، **﴿ما كَان إبراهيم يَهُودياً ولا نصرانيَّاً ولكن كان حَنيفاً مُسْلِماً وَمَا كانَ من المُشركِينَ﴾**[٢] **﴿وَشرَع لَكُمْ من الدِّين مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً، والَّذي أوحَيْنَا إلَيْك وَمَا وَصَيَّنا به إبرَاهيمَ وَمُوسىَ وَعِيسى أنْ أَقِيمُوا الدِّين ولا تَتَفرقوا فِيهِ، كَبُرَ على المُشركِين مَا تدْعوهُمْ إليه﴾**[٣]، **﴿قُلْ يا أَهْل الكِتاب تَعالَوا إلى كلمةٍ سَوَاءٍ**

---

(١) آل عمران: ١٩.

(٢) آل عمران: ٦٧.

(٣) الشورى: ١٣.

بَيْنَنَا وَبَينكُمْ أنْ لا نعْبُدَ إلاَّ اللَّه وَلاَ نُشرك بِهِ شَيئاً وَلا يَتخَّذَ بَعْضنَا بَعْضاً أرباباً مَنْ دون اللَّهِ فإنْ تَوَلَّوْا فقُولُوا أشهَدوُا بأنَّا مُسْلِمونَ﴾[١] ، وكثير من ذلك يطول إيراده في هذه الوريقات .

والآيات الكريمة التي تعيب على أهل الدين ما نزعوا إليه من الاختلاف والمشاقة ، مع ظهور الحجة ، واستقامة المحجة لهم في علم ما اختلفوا فيه مَعْرُوفةٌ لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته . نص الكتاب على أن دين اللَّه في جميع الأزمان هو إفرادهُ بالربوبية ، والاستسلام له وحدة بالعبودية ، وطاعته فيما أمر به ، ونهى عنه ، مما هو مصلحة للبشر ، وعماد لسعادتهم في الدنيا والآخرة ، وقد ضمنه كتبه التي أنزلها على المصطفين من رسله ، ودعا العقول إلى فهمه منها ، والعزائم إلى العمل به ، وإن هذا المعنى من الدين هو الأصل الذي يُرْجَع إليه عند هبوب ريح التخالف ، وهو الميزان الذي توزن به الأقوال عند التناصف ، وإن اللجاج والمراء في الجدل فراق مع الدين ، وبعد عن سنته ، ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الإلهية في الإنعام على البشرية ، ذهب الخلاف وتراجعت القلوب إلى هداها ، وسار الكافة في مراشدهم إخواناً ، بالحق مستمسكين وعلى نصرته متعاونين .

* * *

اخْتِلافُ الأدْيان في العَبادَات

أما صور العبادات ، وضروب الاحتفالات ، مما اختلفت فيه الأديان الصحيحة سابقها مع لاحقها ، واختلاف الأحكام متقدمها مع متأخرها ، فمصدره رحمة اللَّه ورأفته في إيتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان ، وكما جرت سنته ـ وهو رب العالمين ـ بالتدريج في تربية الأشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، إلى راشد في عقله . كامل في نشأته ، يمزق الحجب بفكره ، ويواصل أسرار الكون بنظره ، كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هدية في تربية الأمم ، فلم يكن من شأن الإنسان ، في جملته ونوعه ، أن يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه اللَّه إلى يوم يبلغ من الكمال منتهاه ، بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته في النمو

---

(١) آل عمران : ٦٤ .

قائماً على ما قررته الفطرة الإلهية في شأن أفراده ، وهذا من البديهيات التي لا يصح الاختلاف فيها ، وإن اختلف أهل النظر في بيان ما تفرع منه في علوم وضعت للبحث في الاجتماع البشري خاصة ، فلا نطيل الكلام فيه هنا .

* * *

تَطَوُّرُ الأدْيَانِ

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة ، بل والخاصة ، في طور أشبه بطور الطفولية للناشىء الحديث العهد بالوجود ، لا يألف منه إلا ما وقع تحت حسه ، ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه ، وأن يتناول بذهنه من المعاني ما لا يقرب من لمسه ، ولم ينفث في روعه من الوجدان الباطن ما يُعْطِفهُ على غيره من عَشِيرهِ أو ابن جنسه ، فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه في هم شاغل عما يُلْقى إليه فيما يصله بغيره ، اللهم إلا يداً تصل إلى فمه بطعام أو تسنده في قعود أو قيام .

فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بما يَلْطفُ في الوجدان ، أو يرقى إليه بسلم البرهان ، بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام ـ وهم عيال اللّه ـ سير الوالد مع ولده في سذاجة السن ، لا يأتيه إلا مِنْ قِبل ما يحسه بِسَمعِه أو ببصره ، فأخذتهم بالأوامر الصادعة ، والزواجر الرادعة ، وطالبتهم بالطاعة ، وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة[1] . كلفتهم بمعقول المعنى ، جلي الغاية ، وان لم يفهموا معناه ، ولم تصل مداركهم إلى مرماه ، وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم ، وتنفعل به مشاعرهم ، وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه .

ثم مضت على ذلك أزمان ، علت فيها الأقوام وسقطت ، وارتفعت وانحطت ، وجربت وكسبت ، وتخالفت واتفقت ، وذاقت من الأيام آلاماً ، وتقلبت في السعادة والشقاء أياماً وأياماً ، ووجدت الأنفس بنَفْث[2] الحوادث ولقَن[3] الكوارث شعوراً أدق

---

(١) الإشارة هنا إلى الديانة الموسوية .

(٢) القاء الحوادث وإلهامها .

(٣) لقن الكوارث : كلامها المباشر ودلالاتها .

من الحس ، وأدخل في الوجدان ، لا يرتفع في الجملة عما تشعر به قلوب النساء ، أو تذهب معه نزعات الغلمان ، فجاء دين يخاطب العواطف ، ويناجي المراحم ، ويستعطف الأهواء ، ويحادث خطرات القلوب ، فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها ، ويوجه وجوههم نحو الملكوت الأعلى ، ويقتضي من صاحب الحق أن لا يطالب به ولو بحق ، ويغلق أبواب السماء في وجوه الأغنياء ، وما ينحو نحو ذلك مما هو معروف[1] ، وسن للناس سنناً في عبادة اللّه تتفق مع ما كانوا عليه ، وما دعاهم إليه ، فلاقى من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها ، وداوى من أمراضها ، ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله ، وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ بأقواله ، ووقر في الظنون أن اتّباع وصاياه ضرب من المحال ، فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك في السلطان ، ومزاحمة أهل الترف في جمع الأموال ، وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل ، وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الأباطيل .

هذا كان شأنهم في السجايا والأعمال ، نسوا طهارته ، وباعوا نزاهته . أما في العقائد فتفرقوا شيعاً ، وأحدثوا بدعاً ، ولم يستمسكوا من أصوله إلا بما ظنوه من أشد أركانها ، وتوهموه من أقوى دعائمها ، وهو حرمان العقول من النظر فيه ، بل وفي غيره من دقائق الأكوان ، والحظر على الأفكار أن تنفذ إلى شيء من سرائر الخلقة ، فصرحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل ، وأن الدين من أشد أعداء العلم ، ولم يكفِ الذاهب إلى ذلك أن يأخذ به نفسه ، بل جد في حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة ، وافضى الغلو في ذلك بالأنفس إلى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الإنساني ، وهي نزعة الحرب بين أهل الدين للإلزام ببعض قضايا الدين ، فتقوض الأصل وتخرمت العلائق بين الأهل ، وحلت القطيعة محل التراحم ، والتخاصم مكان التعاون ، والحرب محل السلام ، وكان الناس على ذلك إلى أن جاء الإسلام .

* * *

(١) الإشارة هنا إلى المسيحية .

الإسلامُ

كان سنُّ الاجتماع البشري قد بلغ بالإنسان أشده وأعدته الحوادث الماضية إلى رشده ، فجاء الإسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب ، ويشركه مع العواطف والإحساس في إرشاد الإنسان إلى سعادته الدنيوية والأخروية ، وبيَّن للناس ما اختلفوا فيه ، وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه ، وبرهن على أن دين اللّٰه في جميع الأجيال واحد ، ومشيئته في إصلاحِ شؤونهم وتطهير قلوبهم واحدة ، وأن رسم العبادة على الأشباح إنما هو لتجديد الذكرى في الأرواح ، وان اللّٰه لا ينظر إلى الصور وإنما ينظر إلى القلوب ، وطالب المكلّف برعاية جسده كما طالبه بإصلاح سره ، ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن ، وعد كلا الأمرين طهراً مطلوباً ، وجعل روح العبادة الإخلاص ، وأن ما فرَض من الأعمال إنما هو لما أوجَب من التطبع بصالح الملكات **﴿إنَّ الصَّلاة تنهى عن الفحْشاء والمُنكر﴾**(١) ، **﴿إنَّ الانسانَ خُلق هَلوعاً ، إذا مسَّهُ الشر جزوعاً وإذ مسه الخَيْرُ منوعاً ، إلا المصلِّين﴾**(٢) ، ورفع الغني الشاكر إلى مرتبة الفقير الصابر ، بل ربما فضله عليه ، وعامل الانسان في مواعظه معاملة الناصح الهادي للرجل الرشيد ، فدعاه إلى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة ، وصرح بما لا يقبل التأويل ان في ذلك رضا اللّٰه وشكر نعمته ، وأن الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا وصول إلى خير العقبى إلا بالسعي في صلاح الدنيا .

---

(١) العنكبوت : ٤٥ .

(٢) المعارج : ١٩ .

التفت إلى أهل العناد فقال لهم : ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] . وعنف النازعين إلى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من أصول اليقين ، ونصَّ على أن التفرق بغي وخروج عن سبيل الحق المبين ، ولم يقف في ذلك عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان ، بل شرع شريعة الوفاق ، وقررها في العمل ، فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب ، وسوغ مؤاكلتهم ، وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتي هي أحسن ، ومن المعلوم أن المحاسنة هي رسول المحبة ، وعقد الالفة ، والمصاهرة إنما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين ، والارتباط بينهما بروابط الائتلاف .

ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل في ذمتهم من غيرهم كما يدفعون عن أنفسهم ، ونص على أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ولم يفرض عليهم جزاء ذلك إلا زهيداً يقدمونه من مالهم ، ونهى بعد ذلك عن كل إكراه في الدين ، وطيب قلوب المؤمنين في قوله ﴿يَا أَيُّها الذِينَ آمَنُوا عليكمْ أَنْفُسَكمْ لا يَضرُّكُمْ مَّنْ ضلَّ إذا اهْتدَيتمْ﴾[2] ، فعليهم الدعوة إلى الخير بالتي هي أحسن ، وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أي ضرب من ضروب القوة في الحمل على الإسلام ، فإن نوره جدير أن يخترق القلوب ، وليست الآيات في الأمر بالمعروف بين المسلمين ، فإنه لا اهتداء إلا بعد القيام به ، ولو أريد ذلك لكان التعبير : «على كل واحد منكم بنفسه» لا (عَليكُمْ أنْفسكمْ) ، كما هو ظاهر لكل عربي ، كل ذلك ليرشد الناس إلى أن اللّه لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ، ولكن ليهديهم إلى الخير في جميع نواحيه .

رفع الإسلام كل امتياز بين الاجناس البشرية ، وقرر لكل فطرة شرف النسبة إلى اللّه في الخلقة ، وشرف اندراجها في النوع الإنساني بالجنس[3] والفصل[4]

---

(١) البقرة : ١١١ .

(٢) المائدة : ١٠٥ .

(٣) الجنس ، في المنطق ، هو كل مقول على كثيرين مختلفين بالحقيقة في جواب ما هو . انظر (المعجم الفلسفي) .

(٤) الفصل في المنطق ، هو جملة الموضوعات التي تربط بينها صفات مشتركة ، ويطلق على جزء من الماهية يميز النوع كالناطق بالنسبة للإنسان ، وإذا ميز النوع عن مشاركيه في الجنس القريب ، سمي «بالفصل القريب» وإذا ميزه عن مشاركيه في الجنس البعيد سمي «بالفصل البعيد» . انظر المرجع السابق .

والخاصة[١] ، وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذي أعده الله لنوعها ، على خلاف ما زعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حُرم منها غيرهم ، وتسجيل الخسة على أصناف زعموا إنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم ، فأماتوا بذلك الأرواح في معظم الأمم وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحاً .

هذه عبادات الإسلام ، على ما في الكتاب وصحيح السنة ، تتفق على ما يليق بجلال الله ، وسمو وجوده عن الأشباه ، وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة . . .

فالصلاة : ركوع وسجود ، وحركة وسكون ، ودعاء وتضرع ، وتسبيح وتعظيم ، وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الإلهي الذي يغمر القوة البشرية ، ويستغرق الحول ، فتخشع له القلوب ، وتستخذي له النفوس ، وليس فيها شيء يعلو على متناول العقل إلا نحو تحديد عدد الركعات ، أو رمي الجمرات[٢] ، على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير ، وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالأصول التي وضعها الله للعقل في الفهم والتفكير .

أما الصوم : فحرمان يعظم به أمر الله في النفس ، وتعرف به مقادير النعم عند فقدها ، ومكانة الإحسان الإلهي في التفضل بها ﴿**كُتبَ عَليْكمْ الصِّيَامُ كما كتبَ عَلى الذين من قبلكُمْ لعَلَّكُمْ تَتقُون**﴾[٣] .

أما أعمال الحج فتذكير للإنسان بأوليات حاجاته ، وتعهدٌ له بتمثيل المساواة بين أفراده ، ولو في العمر مرة ، يرتفع فيها الامتياز بين الغني والفقير ، والصعلوك والأمير ، ويظهر الجميع في معرض واحد عراة الأبدان ، متجردين عن آثار الصنعة ، وَحّدت بينهم العبودية لله رب العالمين ، كل ذلك مع استبقائهم في الطواف والسعي والمواقف ولمس الحجر ذكرى **إبراهيم عليه السلام** ، وهو أبو الدين ، وهو الذي سماهم المسلمين ، واستقرار يقينهم على أن لا شيء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع ، وشعار هذا الإذعان الكريم في كل عمل : «الله أكبر» .

---

(١) هي الكلي الدال على نوع واحد في جواب أي شيء هو ، لا بالذات ، بل بالعرض . . وتطلق على ما ليس داخلاً في الماهية ولكنه يميز الشيء ، كما تطلق على ما هو ملازم للشيء على الدوام ، إلخ . . إلخ . انظر المرجع السابق .

(٢) في مناسك الحج .

(٣) البقرة : ١٨٣ .

أين هذا كله مما تجد في عبادات أقوام آخرين ؟ يضل فيها العقل ، ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد ؟! .

كشف الإسلام عن العقل غُمَّة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير : «العالم» والكون الصغير «الإنسان» فقرر أن آيات اللّٰه الكبرى في صنع العالم إنما يجري أمرها على السنن الإلهية التي قدرها اللّٰه في علمه الأزلي ، لا يغيرها شيء من الطوارىء الجزئية ، غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن اللّٰه فيها ، بل ينبغي أن يحيى ذكره عند رؤيتها ، فقد جاء على لسان النبي ، ﷺ : «إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللّٰه لا يخسفَان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا اللّٰه» . وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجري على نظام واحد ، لا يقضي فيه إلا العناية الأزلية على السنن التي أقامته عليها .

ثم أماط اللثام عن حال الإنسان في النعم التي يتمتع بها الأشخاص أو الأمم ، والمصائب التي يرزأون بها ، ففصَلَ بين الأمرين فصلاً لا مجال معه للخلط بينهما ، فأما النعم التي يُمتعُ اللّٰه بها بعض الأشخاص في هذه الحياة ، والرزايا التي يرزأ بها في نفسه فكثير منها ـ كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعة والضعف والفقد ـ قد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج ، أو طاعة وعصيان ، وكثيراً ما أمهل اللّٰه بعض الطغاة البغاة ، أو الفجرة الفسقة ، وترك لهم متاع الحياة الدنيا ، وكثيراً ما امتحن اللّٰه الصالحين من عباده ، واثنى عليهم في الاستسلام لحكمه ، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم في التسليم بقولهم ﴿إنَّا للّٰهِ وإنَّا إليهِ رَاجِعونَ﴾(١) ، فلا غضبُ زيد ولا رضا عمرو ، ولا إخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل في هذه الرزايا ولا في تلك النعم الخاصة ، اللهم إلا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبَّبِ بالسبب على جاري العادة ، كارتباط الفقر بالإسراف ، والذل بالجبن ، وضياع السلطان بالظلم وكارتباط الثروة بحسن التدبير في الأغلب ، والمكانة عند الناس بالسعي في مصالحهم على الأكثر ، وما يشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر .

أما شأن الأمم فليس على ذلك ، فإن الروح الذي أودعه اللّٰه جميع شرائعه

---

(١) البقرة : ١٥٦ .

الإلهية ، من تصحيح الفكر ، وتسديد النظر ، وتأديب الأهواء ، وتحديد مطامح الشهوات ، والدخول إلى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغيبة من أسبابها ، وحفظ الأمانة ، واستشعار الأخوة ، والتعاون على البر ، والتناصح في الخير والشر ، وغير ذلك من أصول الفضائل ، ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة : ﴿مَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنيَا نُؤتِهِ منها﴾(١) ، ولن يسلب اللّٰه عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها ، يزيد اللّٰه النعم بقوته ، وينقصها بضعفه ، حتى إذا فارقها ذهبت السعادة على أثره ، وتبعته الراحة إلى مقره ، واستبدل اللّٰه عزة القوم بالذل ، وكثرهم بالقل ، ونعيمهم بالشقاء ، وراحتهم بالعناء ، وسلط عليهم الظالمين ، أو العادلين فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون : ﴿وإذَا أردْنَا أنْ نُهلِكَ قَرْيةً أمَرنَا مُترفِيها فَفسقُوا فِيها فَحق عَليْها القَولُ فَدمَّرناها تَدْمِيراً﴾(٢) . أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل ، ثم لا ينفعهم الأنين ولا يجديهم البكاء ، ولا يفيدهم ما بقي من صور الأعمال ، ولا يستجاب منهم الدعاء ، ولا كاشف لما نزل بهم إلا أن يلجأوا إلى ذلك الروح الأكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر ﴿إنَّ اللّٰهَ لا يُغَيرُ ما بِقَومٍ حتَّى يُغَيِّروا ما بأنْفُسِهم﴾ (٣) ، ﴿سُنَّةَ اللّٰهِ في الذِينَ خَلوا مِنْ قَبْـلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسنَّةِ اللّٰهِ تَبْدِيلاً﴾(٤) . وما أجل ما قاله **العباس بن عبد المطلب** في استسقائه : «اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يرفع إلا بتوبة» .

على هذه السنن جرى سلف الأمة ، فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة ، كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه ، ويشق الفلك ببكائه ، وهو ولع بأهوائه ، ماض في غلوائه ، وما كان يغني عنه ظنه من الحق شيئاً .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٥ .

(٢) الإسراء : ١٦ .

(٣-) الرعد : ١١ .

(٤) الأحزاب : ٦٢ .

التَّعلِيم

حث القرآن على التعليم ، وإرشاد العامة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقال : ﴿فَلَوْلا نَفر مِنْ كلِّ فِرقةٍ مِنهُمْ طائِفة لِيَتفقهُوا في الدِّين وَلِيُنْذرُوا قومهم إذا رَجعُوا إليْهِمْ لَعَلهم يحْذرُون﴾(١) ، ثم فرض ذلك في قوله : ﴿وَلتكنْ مِنكُمْ أُمةٌ يَدعُونَ إلى الخَير وَيَأمُرونَ بالمعْروفِ وَينهون عَنْ المُنكرِ وأوَلئكَ هُمْ المُفلحونَ ، وَلا تكونوا كالَّذينَ تَفرَّقوا وَاختلفوا من بعدما جاءَهمْ البيِّناتُ وأُولئك لَهُمْ عذاب عظِيمٌ ، يَوْم تَبيضُّ وُجُوهٌ وتَسودُّ وُجوه فأمَّا الذينَ اسْودَّتْ وجُوهُهُمْ أكفرتُمْ بعَد إيمانكم فَذُوقُوا العذابَ بِما كنُتمْ تكفرونَ وأمَّا الذينَ ابيضتْ وجوهُهُمْ ففي رَحمةِ اللَّه هُمْ فِيها خالِدونَ ، تلكَ آياتُ اللَّه نتلوها عليكَ بالحق وما اللَّهُ يُريدُ ظُلماً للعالمِين ، ولِلَّه مَا في السمَّوات وما في الأرْض وإلى اللَّه ترجعُ الأمورُ﴾(٢) ، ثم بعد هذا الوعيد الذي يزعج المفرطين ، وتحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين ، أبرز حال الأمارين بالمعروف النهائين عن المنكر في أجل مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة ، فقال : ﴿كُنتم خير أمة أُخرجتْ للناسِ تأمُرونَ بالمعروف وتَنْهونَ عن المُنكرِ وتؤمنون باللَّه﴾(٣) ، فقدم ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان ، في هذه الآية ، مع أن الإيمان هو الأصل الذي تقوم عليه أعمال البر ، والدوحة التي تتفرع عنها أفنان الخير ، تشريفاً

(١) التوبة : ١٢٢ .

(٢) آل عمران : ١٠٤ ـ ١٠٩ .

(٣) آل عمران : ١١٠ .

لتلك الفريضة ، وإعلاء لمنزلتها بين الفرائض ، بل تبنيها على أنها حفاظ الإيمان وملاك أمره ، ثم شد بالإنكار على قوم اغفلوها ، وأهل دين أهملوها ، فقال ﴿**لُعِنَ الـذِينَ كفروا مِنْ بَني إسرائيل على لسان داودَ وعيسى بن مريَم ، بما عصوا وكانوا يَعْتدونَ ، كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعَلُوه لِبئس ما كانوا يَفعلونَ**﴾[1] فقذف عليهم اللعنة ، وهي أشد ما عنونَ اللّه به على مقتِهِ وغضبه .

الزَكَاةُ

فرض الإسلام للفقراء في أموال الأغنياء حقاً معلوماً يفيض به الآخرون على الأولين ، سداً لحاجة المعدم ، وتفريجاً لكُرْبَةِ الغارم ، وتحريراً لرقاب المستعبَدين ، وتسييراً لأبناء السبيل ، ولم يحث على شيء حثه على الانفاق من الأموال في سبيل الخير ، وكثيراً ما جعله عنوان الإيمان ودليل الاهتداء إلى الصراط المستقيم ، فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة ، ومَحَّص[2] صدورهم من الأحقاد على من فضَّلهم اللّه عليهم في الرزق ، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء ، وساق الرحمة في نفوس هؤلاء على أولئك البائسين ، فاستقرت بذلك الطمأنينة في نفوس الناس أجمعين ، وأي دواء لأمراض الاجتماع انجع من هذا ؟ ﴿**ذَلِكَ فَضلُ اللّهِ يُؤتيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللّهُ ذُو الفَضلِ العَظِيم**﴾[3] .

* * *

أغلق الإسلام بابي الشر ، وسد ينبوعي فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريماً باتاً لا هوادة فيه .

لم يَدع الإسلام ، بعد ما قررنا ، أصلاً من أصول الفضائل إلا أتى عليه ، ولا أُمّاً من أمهات الصالحات إلا أحياها ، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها ، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده ـ كما ذكرنا ـ حرية الفكر ، واستقلال العقل في النظر ، وما به

(١) المائدة : ٧٨ .

(٢) أي خلصها .

(٣) الحديد : ٢١ .

صلاح السجايا وما فيه إنهاض العزائم إلى العمل وسوقها في سبيل السعي . ومن يتلو القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزاً لا ينفد وذخيرة لا تفنى .

هل بعد الرشد وصاية ؟ وبعد اكتمال العقل ولاية ؟؟ . . كلا قد تبين الرشد من الغي ، ولم يبق إلا اتباع الهدى ، والانتفاع بما ساقته أيدي الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين ، لهذا ختمت النبوات بنبوة **محمد** ، ﷺ ، وانتهت الرسالات ، كما صرح بذلك الكتاب ، وأيدته السنة الصحيحة ، وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده[1] ، واطمئنان العالم بما وصل إليه من العلم إلى أن لا سبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها انه يُحَدِّثُ عن الله بشرع ، أو يصدع عن وحيه بأمر ، هكذا يصدق نبأ الغيب : ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَلِكنْ رَسُولَ الله وخَاتمَ النَّبِيِّينَ وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شيءٍ عَلِيماً**﴾[2] .

* * *

(١) الإشارة إلى المتنبئين بعد الرسول ﷺ ، وأشهرهم مسيلمة الكذاب .
(٢) الأحزاب : ٤٠ .

انتشار الإسلام
بِسَرْعَةٍ لَمْ يُعْهَدْ لَها نَظيرٌ في التَّاريخ

كانت حاجة الأمم إلى الإصلاح عامة ، فجعل اللّه رسالة خاتم النبيين عامة كذلك ، لكن يندهش عقل الناظر في أحوال البشر عندما يرى أن هذا الدين يجمع إليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها في أقل من ثلاثين سنة ، ثم يتناول من بقية الأمم ما بين المحيط الغربي وجدار الصين في أقل من قرن واحد ، وهو أمر لم يعهد في تاريخ الأديان ، ولذلك ضل الكثير في بيان السبب ، واهتدى إليه المنصفون فبطل العجب .

ابتدأ هذا الدين بالدعوة ، كغيره من الأديان ، ولقي من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل ، أُوذِيَ الداعي ، ﷺ ، بضروب الإيذاء ، وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب ، لولا عناية اللّه ، وعُذِّبَ المستجيبون له ، وحُرِمُوا الرزق ، وطُرِدُوا من الدار ، وسُفِكَتْ منهم دماء غزيرة ، غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر يُثَبِّتُ اللّه بمشهدها المستيقنين ، ويقذف بها الرعب في أنفس المرتابين ، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهي ذَوْبُ ما فسد من طباعهم فتجري من مناحرهم جري الدم الفاسد من المفصود على أيدي الأطباء الحاذقين ﴿لِيَميزَ اللَّهُ الخَبيثَ مِنَ الطَّيبِ ويَجْعلَ الخَبيثَ بَعضهُ عَلى بَعض فَيَركُمهُ جَميعاً فَيجعلهُ في جَهنَم أُولئكَ همْ الخَاسِرُونَ﴾[1] .

---

(١) الأنفال : ٣٧ .

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الإسلام ، ليحصدوا نبتته ، ويخنقوا دعوته ، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للأقوياء ، والفقير للأغنياء ، ولا ناصر له إلا أنه الحق بين الأباطيل والرشدُ في ظلمات الأضاليل ، حتى ظفر بالعزة ، وتعزز بالمنعة . وقد وطىء أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر ، كانت تدعو إليها ، وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان ، وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ، ومع ذلك لم يبلغ بهم السعي نجاحاً ، ولا أنالهم القهر فلاحاً .

ضم الإسلام سكان القفار العربية إلى وحدة لم يعرفها تاريخهم ، ولم يُعهد لها نظير في ماضيهم ، وكان النبي ، ﷺ ، قد أبْلغ رسالته ، بأمر ربه ، إلى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان ، فهزّئوا وامتنعوا ، وناصبوه وقومه الشر ، وأخافوا السابلة ، وضيقوا على المتاجر ، فبعث إليهم البعوث في حياته ، وجرى على سنته الأئمة من صحابته ، طلباً للأمن وابلاغاً للدعوة ، فاندفعوا في ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم ، وانهالوا به على تلك الأمم في قوتها ومنعتها ، وكثرة عدَدها ، واستكمال أُهَبها وعُددها ، فظفروا منها بما هو معلوم .

وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها ، واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين ، وأباحوا لهم البقاء على أديانهم ، وإقامة شعائرها آمنين مطمئنين ، ونشروا حمايتهم عليهم ، يمنعونهم ما يمنعون منه أهلهم وأموالهم ، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءاً قليلاً من مكاسبهم على شرائط معينة .

كانت الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة اتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة إلى دينها ، يلجون على الناس بيوتهم وَيغشُون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر ، وبرهانهم الغلبة ، وحجتهم القوة ، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ، ولم يعهد في تاريخ فتوح الإسلام ان كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة ، يأخذون على أنفسهم العمل في نشره ، ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين ، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ، ومحاسنتهم المعاملة ، وشهد العالم بأسره أن الإسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلاً وإحساناً عندما كان يعدها الأوروبيون ضِعَةً وضعفاً .

رفع الإسلام ما ثَقُل من الإتاوات[1] ، ورد الأموال المسلوبة إلى أربابها ، وانتزع الحقوق من مغتصبيها ، ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم . بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يُقْبَل إسْلامٌ مِنْ داخِلٍ فيه إلا بين يدي قاض شرعي بإقرارٍ من المسلم الجديد أنه أسلم بلا إكراه ولا رغبة في دنيا ، وصل الأمر في عهد بعض الخلفاء الأمويين أن كره عمالهم دخول الناس في دين الإسلام لما رأوا انه ينقص من مبالغ الجزية ، وكان في حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة[2] . عرف خلفاء المسلمين وملوكهم ، في كل زمن ، ما لبعض أهل الكتاب ، بل وغيرهم من المهارة في كثير من الأعمال ، فاستخدموهم وصعدوا بهم إلى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش في إسبانيا ، اشتهرت حرية الأديان في بلاد الإسلام حتى هجر اليهود أوروبا فراراً منها بدينهم إلى بلاد الأندلس وغيرها .

هذا ما كان من أمر المسلمين في معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم ، لم يفعلوا شيئاً سوى انهم حملوا إلى أولئك الأقوام كتاب اللّٰه وشريعته ، وألقوا بذلك بين أيديهم ، وتركوا الخيار لهم في القبول وعدمه ، ولم يقوموا بينهم بدعوة ، ولم يستعملوا لإكراههم عليه شيئاً من القوة ، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه ، فما الذي أقبل بأهل الأديان المختلفة على الإسلام ، واقنعهم أنه الحق ، دون ما كان لديهم ، حتى دخلوا فيه أفواجاً ، وبذلوا في خدمته ما لم يَبذل له العرب أنفسهم ؟؟

ظهور الإسلام ، على ما كان في جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية ، وتغلبه على ما كان فيها من رزائل الأخلاق وقبائح الأعمال ، وسيره بسكانها على الجادة القويمة ، حقق لقراء الكتب الإلهية السابقة أن ذلك هو وعد اللّٰه لنبيه إبراهيم وإسماعيل ، وإن هذا الدين هو ما كانت تبشر به الأنبياء أقوامها من بعدهما ، فلم يجد

---

(١) عند فتح العرب لمصر كان الفلاح المصري يدفع للدولة البيزنطية أكثر من ثلاث عشرة ضريبة ، اختصرها العرب إلى ضريبتين اثنتين ، معلومتي المقدار وميعاد السداد ، متناسبتين مع الوضع الاقتصادي الذي يعيش فيه . انظر دراستنا عن (أرض مصر وفلاحها من الفتح العربي إلى الاقطاع الحربي) مجلة «الهلال» عدد سبتمبر سنة ١٩٧٠ م .

(٢) انظر : فان فلوتن (السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية) ص ٥٢ وما بعدها . ترجمة د . حسن إبراهيم حسن ، محمد زكي إبراهيم . الطبعة الثانية ، القاهرة .

أهل النصفة منهم سبيلاً إلى البقاء على العناد في مجاحدته ، فتلقوه شاكرين ، وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين .

أوقع ذلك من الريب في قلوب مقلديهم ما حركهم إلى النظر فيه ، فوجدوا لطفاً ورحمة ، وخيراً ونعمة ، لا عقيدة ينفر منها العقل ، وهو رائد الإيمان الصادق ، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية ، وهي القاضية في قبول المصالح والمرافق . رأوا ان الإسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلي ، ويلحقها بالملكوت الأعلى ، ويدعوها إلى إحياء ذلك الشعور بخمس صلوات في اليوم ، وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ، ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ، ويعد برضا اللّٰه ونيل ثوابه حتى في توفية البدن حقه ، متى حسنت النية وخلصت السريرة فإذا نزت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الإلهي ينتظره متى حسنت التوبة وكملت الأوبة . تبدت لهم سذاجة الدين عندما قرأوا القرآن ، ونظروا في سيرة الظاهرين من حامليه اليهم ، وظهر لهم الفرق بين ما لا سبيل إلى فهمه وما تكفي جولة نظر في الوصول إلى علمه ، فتراموا إليه خفافاً من ثقل ما كانوا عليه . كانت الأمم تطلب عقلاً في دين ، فوافاها ، وتتطلع إلى عدل في إيمان ، فأتاها ، فما الذي يحجم بها عن المسارعة في طُلبَتها والمبادرة إلى رغبتها ؟؟ . كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التي رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق ، وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشؤون الأدنين متى عرضت دونها شهوات الأعلين ، فجاء دين يحدد الحقوق ويسوي بين جميع الطبقات في احترام النفس والدين والعرض والمال ويُسوغُ لأمرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبي بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان في قطر كبير ، وما كان يريده لنفسه ، ولكن ليوسع به مسجداً ، فلما عقد العزيمة على دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى إلى الخليفة فورد أمره برد بيتها إليها مع لوم الأمير على ما كان منه[1] !! عدل يسمح ليهودي أن يخاصم مثل علي بن أبي طالب أمام القاضي ، وهو من نعلم من هو ، ويستوقفه معه للتقاضي ، إلى أن قضى الحق بينهما . هذا وما سبق بيانه مما جاء به الإسلام هو الذي حببه إلى من كانوا أعداءه ، ورد إليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه .

---

(١) الأمير هو عمرو بن العاص ، والي مصر ، والمرأة قبطية مسيحية .

غلب على المسلمين في كل زمن روح الإسلام ، فكان من خُلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ، ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم إلا بعد أن يحرجهم الجار ، فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم ، ثم لا يكون إلا طائفاً يحل ثم يرتحل ، فإذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب إلى سابق ما الفته من اللين والمياسرة .

ومع ذلك ـ بل وغفلة المسلمين عن الإسلام ، وخذلانهم له ، وسعي الكثير منهم في هدمه بعلم وبغير علم ـ لم يقف الإسلام في انتشاره عند حد ، خصوصاً في الصين وفي إفريقيا ، ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع إلى الأخذ بعقائده ، على بصيرة فيما تنزع إليه ، لا سيف وراءها ، ولا داعي أمامها ، وإنما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه ، مع قليل من حركة الفكر في العلم بما شرعه .

ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الإسلامي ، وإقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة ، إنما كان لسهولة تعقله ، ويسر أحكامه ، وعدالة شريعته ، وبالجملة ، لأن فِطَرَ البشر تطلب ديناً ، وترتاد منه ما هو أمسُّ بمصالحها ، وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها ، وأدعى إلى الطمأنينة في الدنيا والآخرة ، ودين هذا شأنه يجد إلى القلوب منفذاً ، وإلى العقول مخلصاً ، بدون حاجة إلى دعاة ينفقون الأموال الكثيرة والأوقات الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لإسقاط النفوس فيه . هذا كان حال الإسلام في سذاجته الأولى وطهارته التي أنشأه اللّه عليها ، ولا يزال على جانب عظيم منها في بعض أطراف الأرض إلى اليوم .

* * *

قال من لم يفهم ما قدمناه ، ولم يرد أن يفهمه : إن الإسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة إلا بالسيف ، فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن بإحدى اليدين والسيف بالأخرى ، يعرضون القرآن على المغلوب ، فإن لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته . سبحانك هذا بهتان عظيم !! . ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الأخبار تواتراً صحيحاً ، لا يقبل الريبة في جملته ، وإن وقع اختلاف في تفصيله ، وإنما شَهرَ المسلمون سيوفهم دفاعاً عن أنفسهم وكفاً للعدوان عنهم ، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ، ولم يكن من المسلمين مع غيرهم إلا أنهم جاوروهم فكان الجوار طريق العلم بالإسلام ، وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال إليه .

لو كان السيف ينشر ديناً فقد عمل في الرقاب للإكراه على الدين والإلزام به ، مهدداً كل أمة لم تقبله بالإبادة والمحو من سطح البسيطة ، ومع كثرة الجيـوش ووفرة العدد وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها ، وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الإسلام في أقل من قرن ، هذا ولم يكن السيف وحده ، بل كان الحسام لا يتقدم خطوة إلا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاءون تحت حمايته ، مع غيرة تفيض من الأفئدة ، وفصاحة تتدفق من الألسنـة ، وأموال تخلب ألباب المستضعفين . إن في ذلك لآيات للمستيقنين .

جَلَّتْ حكمة اللّٰه في أمر هذا الدين . سلسبيل حياة نَبَع في القفار العربية ، أبعد بلاد اللّٰه عن المدنية ، فاض حتى شَملها ، فأحياها حياة شعبية مِلِّيّة ، علا مده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء في رفعتها ، وتعلو أهل الأرض بمدنيتها ، زلزل هديره ـ على لينه ـ ما كان استحجر من الأرواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها .

قالوا : كان لا يخلو من غلب (بالتحريك) . قلنا : تلك سنة اللّٰه في الخلق ، لا تزال المصارعة بين الحق والباطل ، والرُّشدِ والغيِّ قائمة في هذا العالم إلى أن يقضي اللّٰه قضاءه فيه . إذا ساق اللّٰه ربيعاً إلى أرض جدبة ليحيي ميتها وينقع غلتها وينمي الخصب فيها ، أفينقص من قدره أن أتى في طريقه على عقبة فَعلاهَا ، أو بيت رفيع العماد فهوى به ؟؟

سطع الإسلام على الديار التي بلغها أهله ، فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه إلا أن يسمعوا كلام اللّٰه ويفقهوه ، اشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمناً ، وانحرفوا عن طريق الدين أزماناً فوقف وقفة القائد خذله الأنصار ، وكاد يتزحزح إلى ما وراء ، لكن اللّٰه بَالِغُ أمْرهُ ، فانحدرت إلى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها «جنكيز خان» ، وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل[1] ، وكانوا وثنيين جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب ، ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الإسلام ديناً وحملوه إلى أقوامهم ، فَعمَّهُمْ منه ما عَمَّ غيرهم ، جاءوا لشقوتهم فعاجوا بسعادتهم .

حمل الغرب عـلى الشرق حملة واحدة ، لم يبق ملك من ملوكـه ولا شعب من

---

(١) كان ذلك منتصف القرن الثالث عشر الميلادي .

شعوبه إلا اشترك فيها ، واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتي سنة[1] ، جُمِعَ فيها للغربيين من الغيرة والحمية للدين ما لم يسبق لهم من قبل ، وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم ، وزحفوا على ديار المسلمين ، وكانت فيهم بقية من روح الدين ، فغلب الغربيون على كثير من البلاد الإسلامية ، وانتهت تلك الحروب الجارفة بإجلائهم عنها ، لِمَ جاءوا ؟ وبماذا رجعوا ؟؟.

ظفر رؤساء الدين في الغرب بإثارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاءون من سكان الشرق ، أو يستولي سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لأنفسهم الحق في الاستيلاء عليه من البلاد الإسلامية . جاء من الملوك والأمراء وذوي الثروة والأعلياء جم غفير ، وجاء ممن دونهم من الطبقات ما قدروه بالملايين ، استقر المقام بكثير من هؤلاء في أرض المسلمين ، وكانت فترات تنطفىء فيها نار الغضب وتثوب العقول إلى سكينتها ، تنظر في أحوال المجاورين ، وتلتقط من أفكار المخالطين وتنفعل بما ترى وما تسمع ، فتبينت أن المبالغات التي أطاشت الأحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة ، ثم وجدت حرية في دين ، وعلماً وشرعاً وصنعة ، مع كمال في يقين ، وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الإيمان لا من العوادي عليه ، ثم جمعت من الآداب ما شاء اللّٰه وانطلقت إلى بلادها قريرة العين بما غنمته من جلادها . هذا ما كسبه السفار من أطراف الممالك إلى بلاد الأندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها ثم عادوا به إلى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا ، وأخذت الأفكار في ذلك العهد تتراسل ، والرغبة في العلم تتزايد بين الغربيين ، ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ، ونزعت العزائم إلى تقييد سلطان زعماء الدين والأخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه ، وحرفوا في معناه ، ولم يكن بعد ذلك إلا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو إلى الاصلاح والرجوع بالدين إلى سذاجته ، وجاءت في إصلاحها بما لا يبعد عن الإسلام إلا قليلاً ، بل ذهب بعض طوائف الإصلاح في العقائد إلى ما يتفق مع عقيدة الإسلام إلا في التصديق برسالة محمد ﷺ ، وان ما هم عليه إنما هو دينه ، يختلف عنه اسماً ولا يختلف معنى ، إلا في صورة العبادة لا غير .

ثم أخذت أمم أوروبا تفتكُّ من أسرها ، وتصلح من شؤونها ، حتى استقامت

---

(١) في الحروب الشهيرة بالحروب الصليبية (١٠٩٦ ـ ١١٩٢ م) .

أمور دنياها على مثل ما دعا إليه الإسلام ، غافلة عن قائدها ، لاهية عن مرشدها ، وتقررت أصول المدنية الحاضرة التي تفاخر بها الأجيال المتأخرة من سبقها من أهل الأزمان الغابرة . هذا طَلٌّ مِنْ وَابلِهِ أصاب أرضاً قابلةً فاهْتزَّت وربتْ وأنبتت من كل زوج بهيج .

جاء القوم ليبيدوا فاستفادوا ، وعادوا ليفيدوا ، ظن الرؤساء ان في إهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم ، وتقوية ركنهم ، فباءوا بوضوح شأنهم ، وضعضعة سلطانهم وما بيَّناه في شأن الإسلام ، ويعرفه كل من تفقَّه فيه ، قد ظفر به كثير من أهل النظر في بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا انه كان أكبر اساتذتهم فيما هم فيه اليوم . وإلى اللّه عاقبة الأمور(١) .

* * *

(١) في الفصل الخاص بالقرآن أشرنا إلى تبني الإمام لرأي ذلك الحكيم الغربي الذي أرجع الإصلاح الديني في أوروبا المسيحية إلى تعاليم الإسلام المقتبسة من أهله . . وهنا يعود الأستاذ الإمام للحديث عن هذا الأمر مشيراً إلى «الآداب التي جمعها الصليبيون المحاربون في المشرق ، والمكاسب العلمية التي اكتسبها «سفراء» أوروبا من الأندلس ، وثمرة كل ذلك التي تجسدت في حركة الإصلاح الديني المسيحية ، وكيف جاء المذهب الجديد ـ البروتستانتية ـ قاب قوسين أو أدنى من الإسلام . . وللمرحوم الأستاذ أمين الخولي بحث نفيس في هذا المقام عنوانه (صلة الإسلام بإصلاح المسيحية) «سنة ١٩٣٥ م» قدم فيه دراسة علمية تثبت بالأدلة والبراهين ما أشار إليه في إجمال هنا الأستاذ الإمام .

ومما تجدر الإشارة إليه إن الأستاذ الخولي قد عاب في نهاية بحثه على الشيخ رشيد رضا وضعه في الطبعة السابعة من رسالة التوحيد سنة ١٣٥٣ هـ سنة ١٩٣٤ م وضعه لهذه الفقرة عنواناً فرعياً هو (اقتباس الإصلاح الديني في أوروبا من الإسلام) بحجة أن كلام الأستاذ الإمام لا يشير إلى الاقتباس ، ولكننا نرى وبين أيدينا الطبعة الثالثة من (رسالة التوحيد) أن نص الأستاذ الإمام فيها يشهد بسبقه بالإشارة إلى ما أبدع في دراسته بعد ذلك الأستاذ الخولي،عليهم جميعاً رحمة اللّه .

إيرَادُ سَهْلُ الإيرَادِ

يقول قائلون : إذا كان الإسلام إنما جاء لدعوة المختلفين إلى الاتفاق ، وقال كتابه : ﴿إنَّ الذينَ فرَّقُوا وَكانُوا شِيعاً لسَتَ مِنهمْ في شَيءٍ﴾[1] ، فما بال الملة الإسلامية قد مزقتها المشارب ، وفرقت بين طوائفها المذاهب ؟؟

إذا كان الإسلام مُوَحِّداً فما بال المسلمين عَدَّدُوا ؟ إذا كان مُولِّياً وَجْه العبد وِجْهَةَ الذي خلق السماوات والأرض ، فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا يستطيع من دون اللّه خيراً ولا شراً ؟ وكادوا يعدون ذلك فصلاً من فصول التوحيد ؟! . إذا كان أول دين خاطب العقل ، ودعاه إلى النظر في الأكوان ، وأطلق له العنان يجول في ضمائرهم بما يسعه الإمكان ، ولم يشرط عليه في ذلك سوى المحافظة على عقد الإيمان ، فما بالهم قنعوا باليسير ، وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ظناً منه أنه قد يُرْضي اللّه بالجهل وإغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع ؟! ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها ؟. ما بالهم بعد أن كانوا قدوة في الجد والعمل ، أصبحوا مثلاً في القعود والكسل ؟. ما هذا الذي الحق المسلمون بدينهم ، وكتاب اللّه بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوه وبين ما دعاهم اليه فتركوه ؟!

إذا كان الإسلام في قُرْبةٍ من العقول والقلوب ، على ما بينتَ فما باله اليوم ـ على

(١) الأنعام : ١٥٩ .

رأي القوم ـ تقْصر دون الوصول إليه يد المتناول ؟ إذا كان الإسلام يدعو إلى البصيرة فيه ، فما بال قراء القرآن لا يقرأونه إلا تَغنياً ، ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم إلا تَظنياً .

إذا كان الإسلام منح العقل والإرادة شرف الاستقلال ، فما بالهم شَدُّوهما إلى أغلال ، أيَّ أغلال ؟! إذا كان قد أقام قواعد العدل ، فما بال أغلب حكامهم يُضرَبُ به المثل في الظلم ؟ إذا كان الدين في تَشوُّفٍ إلى حرية الأرقاء ، فما بالهم قضوا قروناً في استعباد الأحرار ؟ إذا كان الإسلام يَعدُّ من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء ، فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء ؟ إذا كان الإسلام يحظر الغيلة ويحرم الخديعة ويوعد على الغش بأن الغاش ليس من أهله ، فما بالهم يحتالون حتى على اللّه وشرعه وأوليائه ؟ إذا كان قد حَرَّمَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فما هذا الذي نراه بينهم في السر والعلن والنفس والبدن ؟ إذا كان قد صرح بأن الدين النصيحة للّه ولرسوله وللمؤمنين ، خاصتهم وعامتهم ، و﴿إنّ الإنسانَ لَفِي خُسرٍ إلا الذِينَ آمَنُوا وَعمِلوا الصَّالِحاتِ وتَواصَوْا بالحَقِّ وتَواصَوْا بالصَّبْرِ﴾[١] ، وإنهم إن لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلط عليهم شِرارَهمْ ، فيدعو خِيارهم فلا يُستَجابُ لهم ، وشَدَّدَ في ذلك بما لم يُشدِّدْ في غيره ، فما بالهم لا يتناصحون ولا يتواصُون بحق ، ولا يعتصمون بصبر ، ولا يتناصحون في خير ولا شر ، بل ترك كل صاحبهُ وألقى حبله على غاربه ، فعاشوا أفذاذاً[٢] ، وصاروا في أعمالهم أفراداً ، لا يحس أحدهم بما كان من عمل أخيه كأن ليس منه ، وكأنْ لم تجمعه معه صلة ، ولم تضمهُ اليه وشيجة ؟! ما بال الأبناء يقتلون الآباء ؟ وما بال البنات يعققن الأمهات ؟ أين وشائج الرحمة ؟ أين عاطفة الرحم على القريب ؟؟ أين الحق الذي فُرضَ في أموال الأغنياء للفقراء وقد أصبح الأغنياء يسلبون ما بقي في أيدي أهل البأساء ؟!

قبس من الإسلام أضاء الغرب ، كما تقول ، وضوءُه الأعظم وشمسه الكبرى في الشرق ، وأهلُه في ظلمات لا يبُصرون . . أصحَّ هذا في عقل ، أو عهدَ في نقل ؟! ألم تر إلى الذين تذوقوا من العلم شيئاً ، وهم من أهل هذا الدين ، أول ما يعلق بأوهام

---

(١) العصر : ٢-٣ .

(٢) أفراداً مغرقين في الفردية ، ضد التضامن والجماعية .

أكثرهم أن عقائده خرافات ، وقواعده وأحكامه ترهات ، ويجدون لذتهم في التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الأفكار وبعداء الأنظار ؟ وإلى الذين قصروا هممهم على تصفح أوراق من كتبه ، ووسموا أنفسهم بأنهم حُفاظ أحكامه والقوّام على شرائعه ، كيف يجافون علوم النظر ويهزأون بها ، ويرون العمل فيها عبثاً في الدين والدنيا ، ويفتخر الكثير منهم بجهلها ، كأنه في ذلك قد هجر منكراً ، أو ترفع عن دنيئة ؟!

فمن وقف على باب العلم من المسلمين تجد دينه كالثوب الخَلِق ، يستحي أن يظهر به بين الناس ، ومن غَرتهُ نفسه بأنه على شيء من الدين ، وانه مستمسك بعقائده يرى العقل جِنَّة[1] والعلم ظِنة !! أليس في هذا ما يُشهدُ اللّه وملائكته والناس على أن لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين ؟؟!!

* * *

الجواب

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم ، بل من عدة أجيال ، وربما كان ما جاء في الإيراد قليلاً من كثير ، وقد وصف الشيخ **الغزالي** ، رحمه اللّه ، وابن **الحجاج** ، وغيرهما من أهل البصر في الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم ، عامتهم وخاصتهم ، بما حوته مجلدات ، ولكن قد أتيت في خاصة الدين الإسلامي بما يكفي للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن ، مع التدقيق في فهم معانيه ، وحملها على ما فهمه أولئك الذين أُنزل فيهم وعُمِل به بينهم ، ويكفي في الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات في التاريخ على ما كتبه محققو ومصنفو سائر الأمم ، فذلك هو الإسلام .

وقد أسلفنا ان الدين هدى وعقل ، من أحسن في استعماله والأخذ بما أرشد إليه نال من السعادة ما وعد اللّه على اتّباعه . وقد جُرب عِلاج الاجتماع الإنساني بهذا الدواء ، فظهر نجاحه ظهوراً لا يستطيع معه الأعمى انكاراً ، والأصم إعراضاً . وغاية ما قيل في الإيراد : أن أعطى الطبيبُ إلى المريض دواء ، فصح المريض ، وانقلب الطبيب بالمرض الذي كان يعمل لمعالجته ، وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء في

---

(١) الجنة ، بكسر الجيم وتشديد النون المفتوحة : من معانيها : الجنون ، وهو المراد هنا .

بيته وهو لا يتناوله ، وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيُعَافُون من مثل مرضه ، وهو في يأس من حياته ، ينتظر الموت ، أو تبَدُّل سنةِ اللَّه في شفاء أمثاله .

كلامنا اليوم في الدين الإسلامي وحاله على ما بينا ، أما المسلمون ، وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الآن ، وسيكون الكلام عنهم في كتاب آخر(١) إن شاء اللَّه .

* * *

التصديق

بما جاءَ به محمد ﷺ

بعد أن ثبتت نبوته ، عليه السلام ، بالدليل القاطع ، على ما بينا ، وأنه إنما يخبر عن اللَّه تعالى ، فلا ريب أنه يجب تصديق خبره ، والإيمان بما جاء به ، ونعني بما جاء به ما صرح به في الكتاب العزيز ، وما تواتر الخبر به تواتراً صحيحاً مستوفياً لشرائطه ، وهو : «ما أخبرَ به جماعة يستحيل تواطؤهُم على الكذب عادة في أمر محسوس» .

ومن ذلك أحوال ما بعد الموت ، من بعث ، ونعيم في جنة وعذاب في نار ، وحساب على حسنات وسيئات ، وغير ذلك مما هو معروف . ويجب أن يُقتصر في الاعتقاد على ما هو صريح في الخبر ، ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعي بظنيٍّ . وشرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الإلهي عن مشابهة المخلوقين ، فإن ورد ما يوهمُ ظاهرُهُ ذلك في المتواتر وجب صرفه عن الظاهر ، إما بتسليم للَّه في العلم بمعناه ، من اعتقاد أن الظاهر غير مراد ، أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة .

أما أخبار الآحاد فإنه يجب الإيمان بما ورد فيها على من بلغته وصدَّق بصحة

---

(١) تعد كتابات الأستاذ الإمام التي تتناول علاقة الإسلام بالحضارة ووضع المسلمين إزاءها وفاء بوعده هذا ، وهي مقالات وأبحاث جمعناها في أعماله الكاملة ، أما في حياته فلم يخرج كتاباً متكاملاً في هذا الموضوع .

رواياتها ، أما من لم يبَلغه الخبر ، أو بلغه وعرضت له شبهة في صحته ، وهو ليس من المتواتر ، فلا يطعنُ في إيمانه عدم التصديق به . والأصل في جميع ذلك : أن من أنكر شيئاً وهو يعلم أن النبي ، ﷺ ، حدَّث به ، أو قرره فقد طعن في صدق الرسالة وكذب بها . ويُلحق به من أهمل في العلم بما تواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة ، وهو ما في الكتاب وقليل من السنة في العمل .

من اعتقد بالكتاب العزيز ، وبما فيه من الشرائع العملية ، وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هي في ظاهر القول ، وذهب بعقله إلى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها ، مع الاعتقاد بحياة بعد الموت ، وثواب وعقاب على الأعمال والعقائد ، بحيث لا ينقص تأويله شيئاً من قيمة الوعد والوعيد ، ولا ينقص شيئاً من بناء الشريعة في التكليف ، كان مؤمناً حقاً[1] ، وأن كان لا يصح اتخاذه قدوة في تأويله ، فإن الشرائع الإلهية قد نظر فيها إلى ما تبلغه طاقة العامة لا إلى ما تشتهيه عقول الخاصة . والأصل في ذلك أن الإيمان هو اليقين في الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر بلا قيد في ذلك إلا احترام ما جاء على ألسنة الرسل .

* * *

بقيت علينا مسألتان ، وضعتا في هذا العلم في مكان من الاهتمام ، وما هما منه إلا حيث يكون غيرهما مما أجملنا القول فيه :

الأولى : جواز رؤية الله تعالى في الآخرة .

والأخرى : جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات ، من غير الأنبياء ، من الأولياء والصديقين .

* * *

---

(١) هذه المسألة من المسائل التي أثارت جدلاً قديماً بين المفكرين ، فالغزالي ، مثلاً ، يرى تكفير من ينكر الأوصاف الحسية لما بعد الموت وللمعاد بوجه خاص ، بما في ذلك حشر الأجساد والعقوبات الحسية ، بينما يرى ابن رشد أن هذه الأوصاف الحسية «تمثيل» يهدف إلى الاقناع للجمهور ، لأن «تمثيل المعاد لهم بالأمور الجسمانية أفضل من تمثيله بالأمور الروحانية» . . والأستاذ الإمام هنا يميل إلى رأي ابن رشد في هذا الموضوع . انظر (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) للغزالي ص ٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧ م و(تهافت التهافت) لابن رشد ص ١٣٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م .

رؤيةُ اللّه

أما الأولى ، فقد اشتد فيها النزاع ثم انتهى إلى وفاق بين المنزهين لا مجال معه للتنازع ، فإن القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزيه متفقون على أن الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا في مجرى العادة ، بل هي رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ، ومثلها لا يكون إلا ببصر يختص اللّه به أهل الدار الآخرة أو تتغير فيه خاصته المعهودة في الحياة الدنيا ، وهو ما لا يمكننا معرفته ، وان كنا نصدق بوقوعه متى صح الخبر ، والمنكرون لجوازها لم ينكروا انكشافاً يساويها ، فسواء كان ذلك بالبصر غير المعهود أو بحاسة أخرى فهو في المعنى يرجع إلى قول خصومهم[1] . ولكن مني الإسلام بقوم يحبون الخلاف ، واللّه فوق ما يظنون .

* * *

الْكَرَامَاتُ

أما الثانية ، فأنكر جواز وقوع الكرامات أبو إسحاق الاسفراييني ، من أكابر أصحاب أبي الحسن الأشعري ، وعلى ذلك المعتزلة إلا أبا الحسين البصري[2] فقال بجواز وقوعها ، وعليه جمهور الأشاعرة .

(١) انظر في رأي المعتزلة حول هذه القضية كتابنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية) الفقرة الخاصة بالرؤية من فصل «الأصول الخمسة لأهل العدل والتوحيد» . ومنه نعلم أن هذا اللقاء بين الفريقين الذي يتحدث عنه الأستاذ الإمام لم يحدث ، ويصعب أن يحدث .

(٢) هو عبد اللّه الحسين بن علي البصري (٣٠٨ ـ ٣٩٩ هـ) كان تلميذاً لأبي هاشم عبد السلام بن محمد الجبائي ، وهو معدود في الطبقة العاشرة من طبقات المعتزلة . انظر المنية والأمل ص ٦٢ ـ ٦٦ .

واستدل الذاهبون إلى الجواز بما جاء في الكتاب من قصة الذي عنده علم الكتاب الواردة في خبر بلقيس ، من إحضاره عرشها قبل ارتداد الطَّرْف[1] ، وقصة مريم عليها السلام ، وحضور الرزق عندها[2] ، وقصة أصحاب الكهف[3] .

واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة في المعجزات ، وأولوا ما جاء في الآيات .

أما ان ذلك يوقع الشبهة في المعجزات فليس بصحيح ، لأن المعجزات إنما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن اللّٰه تعالى ، ولا بدّ أن تكتنفها حوادث تميزها عما سواها ، وأما ما احتجَ به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه ، لأن ما في قصة مريم وآصف[4] قد يكون بتخصيص من اللّٰه تعالى ، لوقوعه في عهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شؤون اللّٰه في أنبياء ذلك العهد إلا قليلاً ، وأما قصة أهل الكهف فقد عَدَّها اللّٰه من آياته في خلقه ، وذَكَّرنَا بها لنعتبر بمظاهر قدرته ، فليست من قبيل ما الكلام فيه من عموم الجواز .

فبقي البحث في جواز وقوع الكرامات نوعاً من البحث في متناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير ، وفي مكان الأعمال الصالحة ، وارتقاء النفوس في مقامات الكمال من العناية الإلهية ، وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر[5]

أما مجرد الجواز العقلي ، وأن صدور خارق للعادة على يد غير نبي مما تتناوله القدرة الإلهية ، فلا أظن انه موضع نزاع يختلف عليه العقلاء ، وإنما الذي يجب الالتفات إليه هو أن أهل السنة وغيرهم في اتفاق على انه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي للّٰه معين بعد ظهور الإسلام فيجوز لكل مسلم ، بإجماع الأمة ، أن

---

(١) الإشارة إلى قوله تعالى ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ الآية «النمل : ٤٠» .

(٢) الإشارة إلى قوله تعالى ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند اللّٰه ، أن اللّٰه يرزق من يشاء بغير حساب﴾ «آل عمران : ٣٧» .

(٣) الإشارة إلى قصة أصحاب الكهف ونومهم الطويل ثم يقظتهم . انظر سورة الكهف (الآيات ٩ وما بعدها) .

(٤) أي زكريا .

(٥) هو التصوف .

ينكر صدور أي كرامة كانت من أي ولي كان ، ولا يكون بإنكاره هذا مخالفاً لشيء من أصول الدين ، ولا مائلاً عن سنة صحيحة ، ولا منحرفاً عن الصراط المستقيم .

أين هذا الأصل المُجْمعُ عليه مما يهذي به جمهور المسلمين في هذه الأيام ؟ حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الأولياء وتتفاخر فيها همم الأصفياء ؟؟! . . وهو مما يبرأ منه اللّه ودينه وأوليـاؤه وأهل العلم أجمعون .

* * *

خاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَعَدَ اللَّهُ الذينَ آمَنـوا مِنكُمْ وَعمَلوا الصَّالِحـاتِ لَيْستخلفَنَّهمْ في الأرْض كما اسْتخَلفَ الذينَ مِنْ قَبْلِهمْ ، وليُمكِّننَّ لَهُمْ دِينهَمْ الذي ارْتَضى لَهُمْ ، وَلَيُبدِّلنَّهمْ مِنْ بَعدِ خَوْفِهمْ أمْناً ، يَعبُدُونَني لا يُشْرِكـون بـي شَيئاً ، وَمَن كَفَـر بَعدَ ذلـكَ فَأولِئـكَ هُمْ الفَاسِقُونَ﴾(١) .

وقد فُسِّر الكفرُ في هذه الآية بكفر النعمة ﴿وأنَّا لَمَّا سَمِعنَا الهُدَى آمنَّا به ، فَمَنْ يُؤمِنْ بِربِّهِ فلاَ يَخافُ بَخْساً وَلا رَهقاً ، وأنَّا مِنّا المُسْلِمُونَ وَمِنّا القَاسُطونَ فَمنْ أسْلَمَ فأولئكَ تَحرَّوا رَشداً ، وأمَّا القَاسِطونَ فَكانُوا لِجهنمَ حَطباً ، وأنْ لوْ اسْتقـامُوا عـلى الطَّريقة لأسْقَيناهمْ مَاءً غَدقاً لِنَفْتنهمْ فِيهِ ومَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّه يَسْلكهُ عَذاباً صَعَداً ، وأنَّ المساجِدَ للَّهِ فَلا تَدعُوا مع اللَّهِ أحَداً ، وأنهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعوهُ كادُوا يَكُونونَ عَليهِ لُبدَاً ، قُلْ إنَّما أدْعُوا رَبِّي وَلا أُشْرِك بِهِ أحَداً ، قُلْ إنِّي لا أمْلِكُ لَكُم ضرّاً وَلا رَشداً ، قُلْ إني لَنْ يُجيرني مِنَ اللَّهِ أحدٌ وَلنْ أجِدَ مِنْ دُونِه مُلْتَحَدا إلاَّ بَلاغاً مِنَ اللَّهِ ورِسالاتِهِ وَمنْ يَعْصِ اللَّه ورَسولهُ فإنَّ لهُ نارَ جهَنَم خَالدينَ فِيها أبَداً حَتَّى إذَا رَأوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلمُون مَنْ أضعَفُ ناصِراً وأقَلُّ عَدَداً ، قلْ إنْ أدْري أقرِيبٌ مَا تُوعَدُون أمْ يَجْعَلُ لهُ رَبِّي أمَداً ، عَالِمُ الغيْبِ فَلا يُظهْرُ على غَيبِهِ أحَداً إلاّ مَنْ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فإنَّهُ يَسلُكُ مِنْ بينَ يَديْهِ وَمِنْ خَلفِهِ رَصداً لِيَعْلمَ أنْ قَدْ أبلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وأحَاطَ بِمَا

---

(١) النور : ٥٥ .

لَدَيهِمْ وَأَحْصَى كلَّ شيَءٍ عَدَداً﴾[1] .

صدق اللَّه العظيم ، وبلَّغ رسوله الكريم وخسىء الشيطانُ الرجيم ، وحق الشكر للَّه رب العالمين الرحمن الرحيم .

* * *

---

(١) الجن : ١٢ ـ ٢٨ .

أفعال الإنسان(١)

كان بعض القوم بطراً جاهلاً إذا أصابه خير ونعمة يقول ان اللّه تعالى قد اكرمه بما أعطاه من ذلك وأصدره من لدنه وساقه إليه من خزائن فضله عناية منه به لعلو منزلته ، وإذا وصل إليه شر ـ وهو المراد من السيئة ـ يزعم أن منبع هذا الشر هو النبي ﷺ وأن شؤم وجوده هو ينبوع هذه السيئات والشرور . فهؤلاء الجاهلون الذين كانوا يرون الخير والشر والحسنة والسيئة يتناوبانهم قبل ظهور النبي وبعده كانوا يفرقون بينهما في السبب الأول لكل منهما فينسبون الخير أو الحسنة إلى اللّه تعالى على أنه مصدرها الأول ومعطيها الحقيقي يشيرون بذلك إلى أنه لا يد للنبي فيه وينسبون الشر أو السيئة إلى النبي على أنه مصدرها الأول ومنبعها الحقيقي كذلك وأن شؤمه هو الذي رماهم بها وهذا هو معنى «من عند اللّه» و«من عندك» أي من لدنه ومن خزائن عطائه ومن لدنك ومن رزاياك التي ترمي بها الناس . فرد اللّه عليهم هذه المزاعم بقوله (قل كل من عند اللّه) أي أن السبب الأول وواضع أسباب الخير والشر المنعم بالنعم والرامي بالنقم إنما هو اللّه وحده ، وليس ليُمن ولا لشؤم مدخل في ذلك فهو بيان للفاعل الأول الذي يرد إليه

(١) وهي مقالة أجاب بها الأستاذ الإمام عن سؤال سأل صاحبه عن كيفية الجمع في القرآن بين الآية القائلة : ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند اللّه وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند اللّه فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ ؟ وبين الآية التي تقول : ﴿ما أصابك من حسنة فمن اللّه وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولاً وكفى باللّه شهيداً﴾ . . . ؟؟

الفعل فيما لا تتناوله قدرة البشر ولا يقع عليه كسبهم ، وهو الذي كان يعنيه أولئك المشاقون عندما يقولون : الحسنة من اللّٰه والسيئة من محمد أي أنه لا دخل لاختيارهم في الأولى ولا في الثانية وأن الأولى من عناية اللّٰه بهم والثانية من شؤم محمد عليهم فجاءت الآية ترميهم بالجهل فيما زعموا ولو عقلوا لعلموا أن ليس لأحد فيما وراء الأسباب المعروفة فعل ـ الخير والشر في ذلك سواء ـ .

هذا فيما يتعلق بمن بيده الأمر الأعلى في الخير والشر والنعم والنقم ، أما ما يتعلق بسنة اللّٰه في طريق كسب الخير والتوقي من الشر والتمسك بأسباب ذلك ، فالأمر على خلاف ما يزعمون كذلك ، فإن اللّٰه سبحانه وتعالى قد وهبنا من العقل والقوى ما يكفينا في توفير أسباب سعادتنا والبعد عن مساقط الشقاء ، فإذا نحن استعملنا تلك المواهب فيما وهبت لأجله وصرفنا حواسنا وعقولنا في الوجوه التي ننال منها الخير ـ وذلك إنما يكون بتصحيح الفكر واخضاع جميع قوانا لأحكامه وفهم شرائع اللّٰه حق الفهم والتزام ما حدده فيها ـ فلا ريب في أننا ننال الخير والسعادة ، ونبعد عن الشقاء والتعاسة ، وهذه النعم إنما يكون مصدرها تلك المواهب الإلهية فهي من اللّٰه تعالى فما أصابك من حسنة فمن اللّٰه لأن قواك التي كسبت بها الخير واستغزرت بها الحسنات بل واستعمالك لتلك القوى إنما هو من اللّٰه لانك لم تأت بشيء سوى استعمال ما وهب اللّٰه . فاتصال الحسنة باللّٰه ظاهر ، ولا يفصلها عنه فاصل لا ظاهر ولا باطن .

وأما إذا أسأنا التصرف في أعمالنا وفرطنا في النظر في شؤوننا وأهملنا العقل وانصرفنا عن سر ما أودع اللّٰه في شرائعه وغفلنا عن فهمه فاتبعنا الهوى في أفعالنا وجلبنا بذلك الشر على أنفسنا كان ما أصابنا من ذلك صادراً عن سوء اختيارنا وإن كان اللّٰه تعالى هو الذي يسوقه إلينا جزاء على ما فرطنا ، ولا يجوز لنا أن ننسب ذلك إلى شؤم أحد أو تصرفه . ونسبة الشر والسيئات إلينا في هذه الحالة ظاهرة الصحة . فأما المواهب الإلهية بطبيعتها فهي متصلة بالخير والحسنات وإنما يبطل أثرها إهمالها أو سوء استعمالها ، وعن كلا الأمرين يساق الشر إلى أهله وهو من كسب المهملين وسيئي الاستعمال فحق أن ينسب إليهم ما أصيبوا به وهم الكاسبون لسببه فقد حالوا بكسبهم بين القوى التي غرزها اللّٰه فيهم لتؤدي إلى الخير والسعادة وبين ما حقها أن تؤدي إليه من ذلك ، وبعدوا بها عن حكمة اللّٰه فيها وصاروا بها إلى ضد ما خلقت لأجله فكل ما يحدث بسبب هذا الكسب الجديد فأجدر به أن لا ينسب إلا إلى كاسبه .

وحاصل الكلام في المقامين انه إذا نظر إلى السبب الأول الذي يعطي ويمنع ، ويمنح ويسلب ، وينعم وينتقم فذلك هو اللّٰه وحده ولا يجوز أن يقال إن سواه يقدر على ذلك ، ومن زعم غير هذا فهو لا يكاد يفقه كلاماً لأن نسبة الخير إلى اللّٰه ونسبة الشر إلى شخص من الأشخاص بهذا المعنى مما لا يكاد يعقل فإن الذي يأتي بالخير ويقدر على سوقه هو الذي يأتي بالشر ويقدر عليه فالتفريق ضرب من الخبل في العقل .

وإذا نظرنا إلى الأسباب المسنونة التي دعا اللّٰه الخلق إلى استعمالها ليكونوا سعداء ولا يكونوا اشقياء ، فمن أصابته نعمة بحسن استعماله لما وهب اللّٰه ، فذلك من فضل اللّٰه لأنه أحسن استعمال الآلات التي منَّ اللّٰه عليه بها فعليه أن يحمد اللّٰه ويشكره على ما آتاه ، ومن فرط أو أفرط في استعمال شيء من ذلك فلا يلومن إلا نفسه فهو الذي أساء إليها بسوء استعماله ما لديه من المواهب وليس بسائغ له أن ينسب شيئاً في ذلك إلى النبي ولا إلى غيره ، فإن النبي أو سواه لم يغلبه على اختياره ولم يقهره على إتيان ما كان سبباً في الانتقام منه .

فلو عقل هؤلاء القوم لحمدوا اللّٰه وحمدوك (يا محمد) على ما ينالون من خير فإن اللّٰه هو مانحهم ما وصلوا به إلى الخير وأنت داعيهم لالتزام شرائع اللّٰه وفي التزامها سعادتهم ثم إذا أصابهم شر كان عليهم أن يرجعوا باللائمة على أنفسهم لتقصيرهم في أعمالهم أو خروجهم عن حدود اللّٰه فعند ذلك يعلمون أن اللّٰه قد انتقم منهم للتقصير أو العصيان فيؤدبون انفسهم ليخرجوا من نقمته إلى نعمته ، لأن الكل من عنده ، وإنما ينعم على من أحسن الاختيار ، ويسلب نعمته عمن أساءه .

وقد تضافرت الآثار على أن طاعة اللّٰه من أسباب النعم ، وان عصيانه من مجالب النقم ، وطاعة اللّٰه إنما تكون باتباع سننه وصرف ما وهب من الوسائل فيما وهب لأجله .

ولهذا النوع من التعبير نظائر في عرف التخاطب فإنك لو كنت فقيراً وأعطاك والدك مثلاً رأس مال فاشتغلت بتنميته والاستفادة منه مع حسن في التصرف وقصد في الانفاق ، وصرت بذلك غنياً فإنه يحق لك أن تقول ، إن غناك إنما كان من ذلك الذي أعطاك رأس المال ، وأعدك به للغنى . أما لو أسأت التصرف فيه وأخذت تنفق منه فيما لا يرضاه واطلع على ذلك منك فاسترد ما بقي منه وحرمك نعمة التمتع به فلا ريب أن

يقال : أن سبب ذلك إنما هو نفسك ، وسوء اختيارها مع أن المعطي والمسترد في الحالين واحد وهو والدك غير أن الأمر ينسب إلى مصدره الأول إذا انتهى على حسب ما يريده ، وينسب إلى السبب القريب إذا جاء على غير ما يحب لأن تحويل الوسائل عن الطريق التي كان ينبغي أن تجري فيها إلى مقاصدها إنما ينسب إلى من حوَّلها وعدل بها عما كان يجب ان تسير إليه .

وهناك للآية معنى أدق ، يشعر به ذو وجدان أرق ، مما يجده الغافلون من سائر الخلق ، وهو أن ما وجدت من فرح ومسرة ، وما تمتعت به من لذة حسية أو عقلية فهو الخير الذي ساقه اللّه إليك واختاره لك ، وما خلقت إلا لتكون سعيداً بما وهبك . أما ما تجده من حزن وكدر فهو من نفسك ، ولو نفذت بصيرتك إلى سر الحكمة فيما سيق إليك لفرحت بالمحزن فرحك بالسار ، وإنما أنت بقصر نظرك تحب أن تختار ما لم يختره لك العليم بك المدبر لشأنك ، ولو نظرت إلى العالم نظرة من يعرفه حق المعرفة وأخذته كما هو عليه لكانت المصائب لديك بمنزلة التوابل الحريفة يضيفها طاهيك على ما يهيء لك من طعام لتزيده حسن طعم وتشحذ منك الاشتهـاء لاستيفاء اللذة واستحسنت بذلك كل ما اختاره اللّه لك ولا يمنعك ذلك من التزام حدوده والتعرض لنعمه والتحول عن مصاب نقمه فإن اللذة التي تجدها في النقمة إنما هي لذة التأديب ، ومتاع التعليم والتهذيب . وهو متاع تجتني فائدته ، وتلتزم طريقته ، فكما يسر طالب الأدب أن يتحمل المشقة في تحصيله وأن يلتذ بما يلاقيه من تعب فيه ، يسره كذلك أن يرتقي فوق ذلك المقام إلى مستوى يجد نفسه فيه متمتعاً بما حصل ، بالغاً ما أملى ، وفي هذا كفاية لمن يريد أن يكتفي .

القضاء والقدر[1]

جرى في كلام بعض التلامذة ذكر للقضاء والقدر ، والاتكال على اللّٰه في نيل الأرزاق ، وأن الحيلة في ترك الحيلة ، والتدبير في ترك التدبير ، ونحو هذه الكلمات ، مما عساه أن يؤثر في النفوس الأثر الذي يجدونه دائماً في التماس العذر للكسل ، وترك العمل ، والامساك عن البذل ، ونحو ذلك ، تعللاً بالمقادير .

ولكن ترون أن التلامذة من جهة أخرى كما ذكروا ذلك ذكروا الحزم والعزم والجد والنشاط في الأعمال ونحو ذلك .

عقيدة الإذعان للقدر حسبت من أسباب الانحطاط عند الشرقيين عموماً ، وعند المسلمين خصوصاً ، لأنها نزعت بالأمم المعتقدة بها إلى الكسل ، انتظاراً لما يأتيهم من الغيب ، وبسطت أيدي أغنيائهم في الإسراف اتكالاً على ما يسوقه عالم الغيب . ولكن ذلك سوء فهم ، سببه سوء فهم أهل هذه العقيدة .

الاعتقاد بالقدر مما يلهمك الصبر على ما نزل ، ويذلل لك إلى ما ستعمل . خلق الإنسان وخلق معه عدو يلازمه ، فلا يزال يهاجمه ويحاصر قواه حتى يهلكها ، ويكافح

---

(١) في حفل أقامته مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بالإسكندرية بمناسبة امتحانات تلامذتها ، جاء ذكر القضاء والقدر على لسان أحد التلاميذ ، فعلق الأستاذ الإمام على الموضوع في خطابه ، ونشرت (المؤيد) تلخيص هذا التعليق في العدد ٣٣٩٧ الصادر في ١٤ ربيع الثاني سنة ١٣١٩ هـ (سنة ١٩٠٠ م) .

عزائمه حتى يمحقها . فعلى الإنسان أن يعد لمقاومته من العدد ما استطاع ؛ ، ويتخذ من الوسائل لكف غائلته ما قدر ، فإن غفل عنه طرفة عين أحل به الحَيْن . ولكن ذلك العدو محتال وخصم محبوب .

ذلك العدو الطبيعي هو الكسل وحب الراحة ، ومن عادة الأنفس أن تلتمس الوسائل ، وتمهد الأعذار لمساعدة هذا العدو الخداع ، فكلما وجدت وسيلة للانتصار له أخذت بها وهي لا تعلم أن في نصرته هلكتها . فكان من حكمة اللّٰه تعالى أن يدعو الأنفس البشرية للإيمان بقضائه وقدره ، ليكون مخففاً لجزعها إذا نزلت النوائب ، مثبّتاً لها عند ملاقاة المصائب ، وتجشم المصاعب ، فيحصل من ذلك عون لها على ذلك العدو المحبوب . فإذا هاجم اليأس قلب امرىء من مطلوب يطلبه . أو قامت العقبات دون مرغوب يرغبه ، قام الإيمان بالقضاء والقدر ، والاعتماد على معونة صاحب الحول والقوة ، يفتح له الأبواب المغلقة ، ويذلل المصاعب الشديدة ، فيأخذ العدة من حيث أمر اللّٰه باتخاذها . فالتاجر الذي يخشى الخسران ، أو تلف البضائع في البحار ، أو يخاف الخطر في الأسفار ، أو ما أشبه ذلك ، إذا تصور أن كل شيء بقضاء وقدر ، وان الرزق مقسوم ، والأجل محتوم ، نهض إلى العمل ، بعد أن يهيىء وسائله ، ويسأل عما يجهل منها من له بها علم ، ويتبع سنة اللّٰه سبحانه وتعالى في استعمال العقل وجميع قوى النفس فيما وهبت له ، فيقوى بعقيدة القدر على الكسل ، وينزع إلى العمل .

وكذلك من يخوفه الشيطان من البذل في سبيل الخير ، ويعده الفقر ، يقوم له الاعتقاد بالقدر نصيراً على الشيطان ، يلهمه أن الأرزاق محدودة ، وأنه لا ينقص مال من صدقة ، ونحو ذلك ، فتفيض يداه بالعطاء مع مراعاة ما يثمره الجود من الفوائد ، وما يعود به على العامة من العوائد .

الإنسان عامل بالطبع ، فإنه ما دامت له حياة فهو في حاجة إلى تقويمها ، ولا محيص له عن أن يعمل لنفسه ولغيره ، فإنه لا يستقل بما يكفي لحفظ بقائه ، ولا بد له من الاستعانة بغيره ، ولن يعينه الغير حتى يرى من عمله ما يعود عليه بمنفعة ما . وإنما يخرجه عن سلطان هذه الفطرة ذلك العدو الذي أشرنا إليه ، فهو في حاجة إلى ما يعينه عليه ويرجع به إلى فطرته . ولا معين له أفضل من الاتكال على اللّٰه والاعتماد على قوته بعد استيفاء ما أمر به من اتباع سنته .

فهذه العقيدة الصالحة انقلب أثرها في انفس المعتقدين بها إلى فساد عظيم ، وليس العيب فيها ، ولكن العيب في الأذهان التي تلقتها . كما قال **جلال الدين الرومي** : كل ما يتناوله العليل يتحول إلى علة ، فاللحم مع غزارة مادة التغذية فيه وتقويته لبنية المتغذي به ، لو تناوله المريض بحمى التيفوس مثلاً يقتله . ولا عيب في اللحم ، ولكن العيب في معدة المريض الآكل .

فإن كان سرى لبعض أذهان الحاضرين شيء مما أشرنا إليه ، من أثر المقال الذي جاء على السنة التلامذة ، فأرجو أن ينفي عنه ذلك الأثر بما سمعه من الكلام الأول في مقالهم أيضاً . ومن شرع ليسلي نفسه عن بعض أعمال البر بما فهمه من القول الأول ، رجوت أن ينشط بها إلى البذل في سبيل الخير بما تحققه من القول الآخر . وأسأل اللّٰه أن يوفقنا جميعاً لأعمال الخير ، وكل عام وانتم بخير .

* * *

رسالة في الجبر والاختيار(١)

حضرة الفاضل الأديب . . .

وصل إلي رقيمك . إن كنتُ لم أعرفك فقد عرّفك كتابك ، ودلت عليك آدابك ، والحمد للّٰه على أن في المسلمين من يميل إلى منهج الحق من دينه ، مثلك ، كثر اللّٰه من أمثالك ، ووفقك إلى العمل بما تعلم ، والدعوة إلى ما تفهم .

لم يتخالف العقل والوجدان في مسألة «القدر» ، فإن كليهما يتفقان على صحة «الاختيار» ونفي «الاضطرار» فيما هو من الأعمال البشرية المعروفة ، ولا يتنازعان في حكم من أحكام هذا الاختيار ، ثم هما يتفقان كذلك في الحكم بأن صانع هذا الكون محيط بدقائقه علماً . وهاتان العقيدتان هما ركنا الإيمان باللّٰه ورسله وشرائعه ، ولم يبق إلا نزعة من نزعات الوهم تستفز العقل إلى اكتناه حقيقة العلم الإلهي ، وليس مما يصل إليه من طريق الفكر ، فإذا كبح العقل جماح الوهم وقف عند حده ، وذاق حلاوة الإيمان الصحيح ، وإلا وقع فيما لا مخلص منه من الريب والشكوك .

أما اختلاف الأمم بل الأشخاص في الآراء ووجوه العلم ، فذلك لازم لطبيعة البشر ، تلك الطبيعة التي بها الإنسان إنسان ، طبيعة العلم من طريق التعلم ، والفكر

---

(١) هي رسالة جوابية توجز رأي الأستاذ الإمام في قضية الجبر والاختيار ، وهو يقف به إلى جانب القائلين بالحرية الإنسانية في تراثنا العربي الإسلامي .

مع اختلاف الانفعال بما يرد من الكون على الحس والوجدان ، وما يستقر منه في العقل ، ولكن ذلك لا يرفع التبعة عمن كان خلافه إلى باطل ، لمكان الاختيار والهداية إلى النجدين ، بمقتضى تلك الفطرة نفسها ، وقد يعرض للطبيعة عوارض تخرجها عن أحكامها ، فترى الاختيار في عجز عن ترجيح جانب الخير على جانب الشر ، كتوارث الأخلاق السيئة ، وليس الوارث مختاراً فيما يرث ، ولكنه ما دام شاعراً بفعله ، وانه يريد أن يفعله ، فاختياره هو صاحب السلطة عليه ، وتبعته لازمة له ، ولو أنه طلب الأدب لتأدب . والكلام يطول في تفصيل ذلك ، ولكن يكفي ان **العقل والوجدان لا يختلفان في الحكم بصحة الاختيار ، وشمول العلم الإلهي ، ونفوذ قدرة اللّٰه فيما لا اختيار لنا فيه ، وفي هبة قوة الاختيار نفسها** ، ولعل ذلك يكفيك . ولو كان عندي سعة في الوقت لكتبت رسالة في هذه المسألة خاصة ، ولكن الإجمال فيها خير من التفصيل ، على كل حال ، والسلام .

في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٠٢

الدين والفطرة الإنسانية[1]

إن الشعور بوجود إله يتصرف في الأكوان تصرفاً غيبياً فوق تصرف المخلوقات ، بما يكون من إفضاء الأسباب إلى المسببات ، قد عرف في جميع البشر ، من أدنى القبائل الهمجية إلى أرقى شعوب المدنية ، فهو شعور يستوي فيه الحفاة العراة في صحارى أفريقية وجزائر المحيط وفلاسفة اليونان في الماضي وفلاسفة الإفرنج الآن ، وقد عرف في الفريقين عن قدماء الأمم كالمصريين والكلدانيين والهنود ، كما هو معروف في هذا العصر . ومثل هذا الاتفاق بين الشرقي والغربي والشمالي والجنوبي في جميع الأزمان ، من غير تواطؤ ولا تقليد ولا تلقين ولا تعليم ، لا يعقل إلا انه فطري في البشر .

فإن قيل : إن في الناس من لا يؤمن بالله ولا بعالم الغيب ، كالماديين من الفلاسفة ومقلديهم ، ولو كان ذلك الشعور فطرياً لكان عاماً ولم يَعْرُ منه هؤلاء ، فإننا نقول : إن من لا يؤمن بسلطة غيبية غير خاضعة للأسباب المعروفة نادر جد ، والقاعدة لا تنقض بالنادر ، بل تبقى صحتها الثابتة بالدليل ، ويُبْحَثُ عن سبب شذوذ النادر ، كما يبحث الماديون وغيرهم من علماء الكون عن أسباب الشذوذ الذي يعبرون عنه بفلتات الطبيعة ، ولا يعدون هذه الفلتات دليلاً على بطلان السنن والنواميس العامة في الكون .

فالحقيقة أن الإلحاد مرض من الأمراض الاجتماعية . . .

---

(١) لخص الشيخ رشيد رضا هذه السطور من حديث للأستاذ الإمام في أحد دروسه .

إن البشر في طور الهمجية كانوا يذهبون في ذلك الشعور الفطري بأساس الدين مذاهب من الوهم ، فكلما أشكل عليهم فهم شيء من أسرار الخليقة توهموا أنه هو صاحب تلك السلطة الغيبية العالية التي كانوا يشعرون بوجودها ، فعظموه لهذا التوهم ، فكان ذلك عبادة له ، لأن العبادة هي تعظيم ينشأ عن الاعتقاد بالسلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب ، لا معنى لها إلا هذا .

رأى بعضهم الثعبان الصغير يميت الإنسان أو نحو الثور والجمل من غير أن يذبحه أو يدق عنقه أو يهشم رأسه ، وذلك لم يكونوا يعهدونه ولا يفهمون سببه ، فعبدوه . وعلى هذه المرتبة عبدوا كثيراً من الحيوانات ثم وضعوا لها التماثيل ، فكانت موضوع عبادتهم . ولما ارتقوا عن هذه المرتبة عبدوا السحاب فالكواكب ، وهكذا كانوا يحصرون شعورهم بالاعتقاد بالخالق وعالم الغيب بما تصل إليه عقولهم حتى استعدوا ، بالارتقاء ، إلى فهم الحقيقة ، وهي أن كل ما في الكون ، ما عرف سببه وما لم يعرف ، مخلوق خاضع للسنن العامة في الأسباب والمسببات ، وان الخالق الواضع لهذه السنن لا يحل في شيء من هذه المخلوقات ولا يتقيد به . حينئذ بعث اللّه فيهم النبيين مبشرين ومنذرين ، فكانوا هم المبينين لحقيقة الدين .

.... إن الإنسان حيوان ناطق متدين بالطبع .... إن روح التدين الغريزي في الإنسان هو شعور فطري بأن فوق العالم ـ الذي يعرفه بأعيانه وخواصه ومنافعها ومضارها وكل ما يشابهها مما لم يعرفه ـ موجوداً غيبياً له السلطان والتصرف فيما ذكر كله ، فهو يحيل على ذلك السلطان الغيبي كل ما يجهل سببه في هذا العالم المشهود .

وإنما وقعت الجماعة البشرية في الوثنية بتأليه بعض أعيان عالم الشهادة من نبات وحيوان وغير ذلك من الأجرام العلوية بسبب الجهل بحقيقة ذلك الموجود الغيبي وما يجب له من الصفات الوجودية والتنزيه ، والجهل بحقيقة ما يظهر لهم في هذه الأعيان المشهودة من خواص وأفعال ، هل هي مخلوقة خاضعة مسخرة لسنن الأسباب والمسببات كأفعالهم هم ؟ أم هي فوق عالم الأسباب ، فهي مظهر لذلك السلطان الذي هو فوق تصرف الإنسان أو عينه ؟ ولما رجحوا الاحتمال الثاني ، بجهلهم ، وجهوا عبادتهم إلى كل ما اعتقدوا أن تلك القوة الغيبية ظهر فيه ، لأنه يخشى ضرره ويرجى نفعه ، ولا معنى للعبادة الفطرية إلا التعظيم والخوف والرجاء لمن يملك الضر والنفع بسلطان هو فوق الأسباب التي يملكها البشر .

مثل ذلك أن الإنسان الساذج الجاهل كان يرى الثعبان الصغيرة يقتل الإنسان وما هو أقوى منه كالثور والفيل ، من غير أن يقطع عنقه أو يهشم رأسه أو يبقر بطنه مثلاً ، وهو لا يعقل أن يكون لهذا سبب في هذا العالم ، لأنه لا يعلم أن في هذا الوجود المشاهد مادة تسمى السم ، هي سبب هذا التأثير في دم الحيوان ، فيرجع به إلى ما في غريزته من الإحالة على القدرة الغيبية التي هي فوق الأسباب .

بسمارك والدين[1]

رأيت في وقائع «بسمارك» ، التي نشرت بعد موته ، بقلم كاتم أسراره موسيو «بوش» كلاماً جاء به البرنس وهو على مائدة الطعام مع جلسائه ، يتعلق بالدين ، فاستحسنت ترجمته ، ليطلع عليه من لم يعن بقراءة هذا الكتاب من شباننا الذين يعدون النسبة إلى دينهم سُبة ، والظهور بالمحافظة عليه معرة ، وليعلموا أن الإيمان بالله وبالوحي الإلهي إلى أنبيائه ليس نقصاً في الفكر ، ولا ضلّة عن صحيح العلم ، ولا عيباً في الرياسة ، ولا ضعفاً في السياسة .

جلس البرنس «بسمارك» على مائدة الطعام فرأى بقعة من الدهن على غطاء المائدة ، فقال لأصحابه : «كما تنتشر هذه البقعة في النسيج شيئاً فشيئاً كذلك ينفذ الشعور باستحسان الموت في سبيل الدفاع عن الوطن في أعماق قلوب الشعب ، ولو لم يكن هناك أمل في الأجر والمكافأة . ذلك لما استكن في الضمائر من بقايا الإيمان ، ذلك لما يشعر به كل أحد من أن واحداً مهيمناً يراه وهو يجالد ويجاهد ويموت ، وان لم يكن قائده يراه ، فقال بعض المرتابين : أتظن سعادتكم أن العساكر يلاحظون في أعمالهم تلك الملاحظة ؟ فأجابه البرنس :

---

(١) جريدة (المنار) العدد ٤٤ السنة الأولى ، وهي في الأساس ترجمة قام بها الأستاذ الإمام لكلمات «بسمارك» ، وإثباتنا لها في أعمال الأستاذ الإمام يرجع إلى عامل اختياره لها كي تعبر عن فكره وموقفه من الإيمان بالدين .

«ليس هذا من قبيل الملاحظات وإنما هو شعور ووجدان ، هو بوادر تسبق الفكر ، هو ميل في النفس وهوى فيها كأنه غريزة لها ، ولو أنهم لاحظوا لفقدوا ذلك الميل واضلوا ذلك الوجدان . هل تعلمون أنني لا أفهم كيف يعيش قوم ، وكيف يمكن لهم أن يقوموا بتأدية ما عليهم من الواجبات ، أو كيف يحملون غيرهم على أداء ما يجب عليهم ان لم يكن لهم إيمان بدين جاء به وحي سماوي ، واعتقاد بإله يحب الخير، وحاكم ينتهي اليه الفصل في الأعمال في حياة بعد هذه الحياة ؟!» . ثم ساق الوزير كلامه على هذا النمط بأسلوب آخر فقال :

«لو نقضت عقيدتي بديني لم أخدم بعد ذلك سلطاني[1] ساعة من زمان ، إذا لم أضع ثقتي في اللّه لم أضعها في سيد من أهل الأرض قاطبة . لكن انظروا إليّ تجدوني قد ملكت من موارد الرزق ما يكفيني ، وارتقيت من المناصب ما لا مطمع بعده ، فلماذا اشتغل ؟ ولِمَ أجهد نفسي في العمل ؟ ولم أُعَرِّضها للهموم والآلام ؟؟ لا يبعثني على شيء من هذا إلا شعوري بأنني في جميع ذلك أعمل عملي لوجه اللّه . لو لم يكن لي إيمان بالعناية الالهية ، التي قضت بأن يكون لهذه الأمة الألمانية شأن كبير ، وأثر في الخير عظيم ، لطرحت لساعتي ما حملته من أثقال وظائف الحكومة . ماذا أقول ؟ بل لولا ذلك الإيمان لما قبلت شيئاً من هذه الوظائف ، لأن الرتب والألقاب لا بهاء لها في نظري . لولا يقيني بحياة بعد الموت ما كنت من حزب الملكية ، لو لم يكن هذا اليقين لكنت جمهورياً . نعم أنا جمهوري بالفطرة يتبين ذلك من الغارات التي أشنها على هنات (خصال الشر) رجال الحاشية من مدة تزيد على عشر سنين . من هذا يظهر أن إيماني قد بلغ من القوة أعلاها حت حملني بقوته على أن أكون ملكياً . أسلبوني هذا الإيمان تسلبوني محبتي لوطني ، اعلموا أنني لو لم أكن مسيحياً مخلصا لم يكن لكم وزير كبير مثلي يدبر أمر الاتحاد الألماني . لو لم أكن مخلصاً في ديني لوليت ظهري جميع الحاشية ، ولو وجدتم لي في الغد حلفاً يكون أخلص مني في يقينه لانفلت من المنصب في الحال ، ما أعظم مسرتي بهجر الوظائف لو تعلمون ، إني أحب المعيشة في القرى والحقول ، احب الآجام ومناظر الخليقة . انزعوا مني هذه الرابطة التي تصلني باللّه تجدوني من الغد رجلاً يأخذ اهبته للسفر إلى (وارزين) ليشتغل بحراثة أرضه وتنمية غرسه . إن لم أكن خاضعاً

---

(١) أي الأمبراطور الألماني .

لأمر إلهي فلم أضع نفسي تحت طاعة هذه العائلة المالكة ، مع أنها تتصل بأصل ليس بالأعلى ولا بالأنبل من الأصل الذي تتصل به عشيرتي» .

هذا كلام بسمارك ، وهو يدلنا على أن هذا الرجل العظيم كان يعتقد أن عظائم أعماله إنما كانت من مظاهر إيمانه ، وان الاعتقاد باللّٰه والتصديق باليوم الآخر هما الجناحان اللذان طار بهما إلى ما لم يدركه فيه مفاخر ، ولم يكثره مكاثر .

* * *

حديث . . .

بين الفيلسوف الانجيليزي «سبنسر» وبين الأستاذ الإمام[1]

سبنسر: هل زرت انكلترة قبل هذه المرة ؟

الإمام : نعم . . زرتها منذ عشرين سنة .

سبنسر : كيف وجدت الفرق بين الانكليز اليوم والإنكليز منذ عشرين سنة ؟

الإمام : إنني زرت هذه البلاد في المرة الأولى لغرض سياسي خاص ، وهو البحث مع رجال السياسة في مسألة مصر والسودان عقب الاحتلال البريطاني ، وأقمت أياماً قليلة لم يتعد عملي فيها ما جئت لأجله[2] . وقد ألممت بها الآن منذ أيام فلم أدرس حالة الناس . . . وإنما يجب أن آخذ عنك ذلك .

سبنسر : إن الإنجليز يرجعون القهقرى ، فهم الآن دون ما كانوا عليه منذ عشرين سنة .

---

(١) في ١٠ أغسطس سنة ١٩٠٣ م التقى الأستاذ الإمام بالفيلسوف الإنكليزي «سبنسر» في مصيفه في «برايتون» بجنوب إنجلترا ، وانتهز الفيلسوف الفرصة ، رغم مرضه وشيخوخته وأوامر الأطباء بأن لا يزيد حديثه للزائر عن عشر دقائق ، فدعا الأستاذ الإمام إلى الغداء ، ودار بينهما حديث طويل هذا موجزه الذي سجله الشيخ رشيد رضا عن الأستاذ الإمام ، أضفنا إليه ما جاء في مذكرات «بلنت» الذي رتب هذه الزيارة وحضرها .

(٢) كان ذلك سنة ١٨٨٣ م عندما بعث جمال الدين الأفغاني بالأستاذ الإمام من باريس إلى انجلترا ممثلاً لجمعية (العروة الوثقى) السرية .

الإمام : فيم هذه القهقرى ، وما سببها ؟

سبنسر : يرجعون القهقرى في الأخلاق والفضيلة ، وسببه تقدم الأفكار المادية التي أفسدت أخلاق اللاتين من قبلنا ، ثم سرت إلينا عدواها ، فهي تفسد أخلاق قومنا ، وهكذا سائر شعوب أوروبا .

الإمام : الرجاء في حكمة أمثالكم من الحكماء واجتهادهم أن ينصروا الحق والفضيلة على الأفكار المادية .

سبنسر : إنه لا أمل في ذلك ، لأن هذا التيار المادي لا بد أن يأخذ مَدَّه غاية حده في أوروبا . إن الحق عند أهل أوروبا الآن للقوة .

الإمام : هكذا يعتقد الشرقيون ، مظاهر القوة هي التي حملت الشرقيين على تقليد الأوروبيين فيما لا يفيد من غير تدقيق في معرفة منابعها .

سبنسر : مُحِيَ الحقُّ من عقول أهل أوروبا بالمرة ، وسترى الأمم يختبط بعضها ببعض ليتبين أيها الأقوى ليسود العالم . أو ليكون سلطان العالم . . . ما يقول علماء الإسلام في الخالق ، هل هو داخل العالم أو خارجه ؟

الإمام : إن علماء الأثر يقولون : إن اللّه تعالى فوق كل شيء ، بائن من العالم ، والمتكلمين يقولون : إنه لا داخل العالم ولا خارجه ، والصوفية القائلين بوحدة الوجود يقولون : إن كل شيء في العالم مظهر من مظاهر وجوده . إننا نعتقد بأن اللّه موجود غير مشخص .

سبنسر : (بعد أن ظهر عليه السرور) إن الفكرة صعبة الفهم . . ! إنه من الواضح على كل حال أنكم من المتعمقين في التفكير تعمقنا نحن معاشر الأوروبيين[1] .

* * *

بلنت[2] : هل تعتقد أن للّه قوة العلم والإدراك ، وأنه يعلم انك موجود وأني موجود ؟

---

(١) مذكرات «بلنت» ١٠ أغسطس سنة ١٩٠٣ ، «لندن» كوكب الشرق ١٠ سبتمبر ١٩٣٢ م .

(٢) بعد إنتهاء زيارة الإمام لسبنسر أنصرف مع «بلنت» ودار بينهما هذا الحوار حول الموضوع الأخير

الشيخ عبده : نعم إنه يعلم .

بلنت : إذا كان يعلم ذلك ، فإنه يعلم أنك طيب وأني خبيث ؟

الشيخ عبده : نعم .

بلنت : وهو مسرور منك وغير مسرور مني ؟

الشيخ عبده : إنه يقر ولا يقر .

بلنت : وهو يقرك اليوم لأن أعمالك طيبة ، ولا يقرك غداً لأن أعمالك أصبحت خبيثة ، أفلا ترى أن هذا التغيير أو التحول من الإقرار إلى عدم الإقرار خاص بالشخصية (الذاتية) ؟

الشيخ عبده : إن اللّه يعلم كل شيء في كل وقت فليس عنده اليوم ولا عنده الغد ، ومن أجل ذلك فهو لا يتغير ، فعلمه بجميع الأشياء علم سرمدي لا يتغير . واني أسمى هذا وجوداً لا شخصية .

بلنت : والمادة ؟ أليت هي أزلية أيضاً ؟ أم ان اللّه هو الذي خلقها ؟ إذا كان هو خالقها فيكون قد أحدث تغييراً !؟ أليس كذلك ؟

الشيخ عبده : إن المادة أزلية أيضاً كما أن اللّه أزلي .

= الذي تحدث فيه سبنسر إلى الأستاذ الإمام . مذكرات «بلنت» عن يوم أغسطس سنة ١٩٠٣ م في لندن ، (كوكب الشرق) في ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣٢ .

تعليق

الأستاذ الإمام على حديث الفيلسوف سبنسر إليه(١)

ماذا حركت مني كلمة الفيلسوف : «الحق للقـوة» إلخ ؟ . .

جاءت منه مصحوبة بشعاع الدليل ، فأثارت حرارة وهاجت فكراً . لو جاءت من ثرثار غيره كانت تأتي مقتولة ببرد التقليد فكانت (تكون) جيفة تعافها النفس فلا تحرك إلا اشمئزازاً وغثياناً .

هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيراً مما يفيد في راحة الإنسان وتوفير راحته وتعزيز نعمته (أعجزهم) أن يكتشفوا طبيعة الإنسان ويعرضوها على الإنسان حتى يعرفها فيعود إليها ، هؤلاء الذين صقلوا المعادن حتى كان من الحديد اللامع المضيء ، أفلا يتيسر لهم أن يجلوا ذلك الصدأ الذي غشي الفطرة الإنسانية ، ويصقلوا تلك النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحي ؟ . .

حار الفيلسوف في حال أوروبا ، وأظهر عجزه مع قوة العلم ، فأين الدواء ؟ . . الرجوع إلى الدين . . الدين هو الذي كشف الطبيعة الإنسانية وعرفها إلى أربابها في كل زمان ، لكنهم يعودون فيجهلونها .

---

(١) وجد الشيخ رشيد رضا هذا التعليق في «مذكرة جيب» خاصة بالأستاذ الإمام ، عقب تلخيصه لحديثه مع «سبنسر» فيها .

فلسفة ابن رشد[1]

قرأت ما نشرت «الجامعة» من ترجمة ابن رشد ، مررت على ما نـقَـلتْ من آراء المتكلمين وآرائه بغير تدقيق ، لأنني أعرف آراء الفريقين من قبل ، ولم يكن لي قصد إلى النقد ، وإنما أريد أن أستفيد جديداً . لهذا لم يقف نظري لأول وهلة إلا على ما حوته تلك الجملة : «الاضطهاد في النصرانية والإسلام» . . قرأتها بِتروٍّ ، وانتهيت منها إلى حكم من «الجامعة» يخالف ما أعْتَقِدُ ولا يلتئم مع ما أعرف ويعرف العارفون من الشواهد التاريخية . عند ذلك تحركت نفسي إلى كتابة سطور أشير فيها إلى كشف مستور أو إعادة ذكر مشهور على أسماع الجمهور .

* * *

لاقاني بعض قراء تلك الترجمة ، فرأيت الأثر في نفسه أشد ، ولسانه في العَتْبِ أحَدَّ . وذكر أشياء في غير هذا الفصل من الترجمة ، ولَفتني إلى إعادة النظر فيها . رجعت إلى الترجمة فوجدت فيها موضعين آخرين يطلبان مني الكلام عليهما ، وبأن أحادث «الجامعة» فيهما .

* * *

---

(١) رد الأستاذ الإمام بمقاله هذا على فرح أنطون عندما كتب في (الجامعة) سنة ١٩٠٣ م . دراسته الشهيرة عن «ابن رشد وفلسفته» انظر كتاب فرح أنطون بهذا العنوان . طبعة الإسكندرية ١٩٠٣ م .

لو كانت منزلة غيرها من المجلات التي لا يُعْنى كاتبوها إلا بنقل ما يقع تحت أنظارهم ، أو تحبير ما يعبر عن أهوائهم وأفكارهم ، من دون عناية بتقرير الحقيقة ، ولا رعاية لمعتقدات القراء ، لوجدت من شواغل عملي ما يصرفني عن ذكر ما عرض فيها ، ولكنها من المجلات التي لو أهملْتُ مباحثها من إنْعامِ النظر ، وجعلْتُها في جانبٍ عما تستحقه من النقد لبخستها حقها ، ونبوْتُ بها عن موضعها .

ولهذا رأيت أن اذكر لها ما رأيت في ذينك الموضعين ، وأُبيِّنَ حقيقة الأمر في الثالث[١] أما الموضعان فهما :

(فلسفة المتكلمين وآراؤهم في الوجود) و(فلسفة ابن رشد وآراؤه في خلق العالم ، واتصال الكون بالخالق ، وطريق اتصال الإنسان به ، والخلود) ، وهما موضوع كلامي اليوم .

فلسفة المتكلمين وآراؤهم في الوجود :

قالت «الجامعة» : «فلسفة المتكلمين هذه (أي في وجود العالم) مبنيةٌ على أمرين :

الأول : حدوث المادة في الكون أي وجودها بخلق خالق . **والثاني** : وجود خالق مطلق التصرف في الكون ، ومنفصل عنه ، ومُدبِّرٍ له . وبما أن الخالق مطلق التصرف في كونه فلا تسأل إذاً عن السبب إذا حدث في الكون شيء ، لأن الخالق نفسه هو السبب ، وليس من سبب سواه . إذاً فلا يلزم عن ذلك قطعياً أن يكون بين حوادث الكون روابط وعلائق ، كأن ينتج بعضها عن بعض ، لأن هذه الحوادث تحدث بأمر الخالق وحده . وفي الإمكان أن يكون العالم بصورة غير الصورة المصوَّر بها الآن ، بقدرة هذا الخالق» .

* * *

حدوث المادة عند المتكلمين ليس معناه أن تكون بخلق خالق ، فإن الخلق في إصطلاحهم هو الإيجاد ، وكون المادة صادرة عن موجدٍ لم يختلف فيه المتكلم والفيلسوف الإلهي[٢] . فأرسطوا يقول : إن المادة قد استفادت وجودها من موجدها وهو الواجب ،

---

(١) وهو موضوع الاضطهاد في النصرانية والإسلام .

(٢) أي الذي يرى للكون والوجود علة فاعلة ، وهو في مقابل الفيلسوف المادي .

وواسطة فيض الوجود عليها هو العقل الفعال ، على ما سيأتي بيانه ، وان كان لا أول لوجودها . وإنما حدوث المادة عند المتكلمين هو وجود الأجسام وعوارضها بعد أن لم تكن موجودة ، بحيث يُفرض لوجودها بداية زمانية تنتهي إليها سلسلتها من جانب الماضي . ولا يجوز أن يوصف بالأزلية إلا اللّه وحده ، وصفاته عند القائلين بأنها وجودية[١] . وقبل هذه البداية التي لا يمكن تحديدها لم يكن وجود سوى وجود خالق الكون ، ثم إنه أراد إيجاد الكون فأوجده من العدم البحت[٢] .

هذا هو بناء مذهب المتكلمين ، وهو مذهب أهل النظر من المسيحيين واليهود أيضاً ، فلم يخالف فيه مِليٌّ من أهل المِلَلِ الثلاث .

أما كون هذا المذهب وحده هو الذي يصح أخذه من القرآن ، أو أنه يجوز أن يتفق مع معاني القرآن ، رأي آخر ، بل هو الذي يظهر منه ، فذلك بحث آخر لسنا بصدده الآن ، فإن كلامنا في تصوير مذهب المتكلمين[٣] .

الأصل الثاني ـ وهو وجود خالق مطلق التصرف ـ لازم للأصل الأول ، لأن هذا العالم إذا كان موجوداً بعَقْلِ مُوجِدٍ فَمُوجِدُهُ هو خالقه ، وهو مطلق التصرف ، بمعنى انه يختار ما يخلق على الوجه الذي يخلق .

---

(١) وهم غير المعتزلة ، إذ المعتزلة ينزهون الخالق عن الصفات الوجودية ، حتى لا تكون هناك صفات قديمة معه ، وهم أصحاب موقف تنزيهي يجرد الذات الفاعلة القديمة من كل الصفات مخافة شبهات الإشراك باللّه .

(٢) والإيجاد من العدم البحت هو موقف الأشاعرة ، أما المعتزلة فلهم في ذلك نظرية تسمى بنظرية «المعدوم» الذي كانت عليه الأشياء قبل وجودها ، والأشياء في حالة «المعدوم» هي ما يسميها ابن رشد الأشياء في حالة «الوجود بالقوة» وقبل أن تنتقل إلى مرحلة «الوجود بالفعل» . راجع الفصل الذي قدمناه عن هذا كتابنا [المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد] طبعة دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٧١ .

(٣) أي أن الأستاذ الإمام يفرق بين الجدل الكثير الذي أثاره المتكلمون حول هذا الموضوع ، وبين ما يمكن أن يفهمه المجتهد في القرآن في هذا المقام ، وذلك لأن القرآن قد اكتفى في مثل هذه المواقف بالكليات والعموميات التي أراحت العقل الإنساني من التفاصيل ، وأطلقت له العنان ، دونما حرج أو قيود . راجع حديث الأستاذ أمين الخولي عن «التطور» في مقدمة كتابه (المجددون في الإسلام) الجزء الأول . دار المعرفة . القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

والمتكلمون إن اتفقوا على أن خالق العالم مختار ، انقسموا إلى فريقين عظيمين : **فالقدرية** منهم ويُسَمَّوْنَ **بالمعتزلة أيضاً** ، قالوا إن الخالق وضع للكون نظاماً تنطبق أصوله على مصالح المخلوقين ، وأودع في المخلوقين قُوىً أو قُدراً تصدر عنها آثارها بطريق التوليد[١] والسببية أو بطريق الإرادة والاختيار . فهذا الفريق من المتكلمين لا يخالف الفلاسفة في قولهم بلزوم الآثار لمصادرها أو تأثير قُدَرِ المخلوقين في أفعالهم ، وقد بقي من أهل هذا المذهب إلى اليوم طائفة الشيعة الإمامية والزيدية[٢] فإنهم لا يخالفون المعتزلة في هذه الأصول : فإذا حدث في الكون حادث سأل صاحب هذا المذهب عن سببه المباشر له ، وإن كانت جميع الأسباب تنتهي إلى مصدرها الأول ، وهو الخالق ، كما يسأل الفيلسوف ، بلا فرق .

والفريق الأخر ، الذي عَنَتْهُ «الجامعة» ، وهو الذي يرى إسناد الآثار إلى الخالق مباشرة . لم يقطع العلاقة بين الأسباب الظاهرة ومُسَبّباتها ، بل قال إن اللّه يُصدِرُ وجود المُسَبّبِ عند وجود السبب ، فلا يقال إن الأكل (مثلاً) هو الذي يُحدِثُ الشبع ، بل الشبع شيء يحدثه اللّه عند الأكل ، ولكنه لا يحدثه عند الخوي إلا إذا أراد أن يخرق النظام الذي جرت به سنته لأمر عظيم يريد توجيه النفوس إليه .

وحمل هذا الفريق على هذا القول إنكارهُ نسبة الإيجاد ومنح الوجود إلى شيء سوى واجب الوجود . وقالوا في الأفعال الإختيارية إن اللّه يوجدها عند تعلّق كسب العبد بها ، ولهم في تصوير معنى الكسب كلام طويل لا يليق بهذا المقام استيفاؤه . وقالوا إن الأسباب والآلات لا بد منها في صدور الأثر إلا أن الذي يعطيه الوجود ، عند استكمالها ، هو الخالق .

---

(١) والتوليد هو فعل الإنسان غير المباشر ، المتولد عن فعله المباشر ، أو عن فعل متولد عن فعل مباشر . . إلخ . . وذلك مثل الوفاة الناشئة عن رمي حجر من فوق جبل ، فرمي الحجر فعل مباشر ، وإصابة الحجر ، دون قصد الرامي ، إنساناً وإماتته ، فعل متولد عن الفعل المباشر (راجع الجزء التاسع من المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار الهمداني) .

(٢) والشيعة الإمامية ورأسهم الإمام جعفر الصادق (٧٠٠ ـ ٧٦٥ م) ولقد كان يرى رأي المعتزلة فيما عدا موضوع الإمامة ، ومثلهم الشيعة الزيدية الذين ينتسبون إلى الإمام زيد بن علي المتوفى سنة ٧٣٤ م . راجع (باب ذكر المعتزلة من كتاب المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل) لأحمد بن يحيى المرتضى ، ص ١١ ـ ١٥ .

ولهذا اتفق جميع المتكلمين على أن التكليف بالأحكام الشرعية يعتمد التمكن من الإتيان بالمُكلَّف به ، من حيث حال المُكلَّفِ ، وصرحوا بأنه لم يقع تكليف بشيء إلا إذا تيسرت أسبابه وارتفعت الموانع منه . غير إنهم يلقبون هذه الأسباب بالعادِيَّة لأنه ليس من الواجب على الخالق أن يلتزمها ، مع اعتقادهم بأنه قرَّرها وجرت سنته بها . ولقَّبوا ما يحدث في العالم مخالفاً لها بخارق العادة . وليس كل غريب عندهم بخارق للعادة ، بل الخارق هو ما لا يدخل في مُكنةِ قوة حادثة ولا يقدرُ على إحداثه إلا القادر على مخالفة النظام الذي سنه وهو اللَّه .

هذا الفريق من المتكلمين يستند في إثبات صفة العلم للَّه تعالى إلى ما في هذا العالم من النظام ، وإلى ما حواه ذلك النظام من الأسرار والحِكم ، وهل يتأتى ذلك الاستناد منهم إن لم يقولوا بوجود العلاقة بين الأسباب ومُسبَّباتها ؟؟

كان من هذا الفريق أئمة تناول بحثهم كثيراً من الفنون كالطب ، وعلوم المواليد الثلاث : الحيوان ، النبات ، والمعدن . منهم الأئمة الرازيون ، **كفخر الدين الرازي**(١) **وأبي بكر الرازي**(٢) **ومحمود الرازي**(٣) وأمثالهم .

---

(١) هو أبو الفضل محمد بن عمر بن الحسين الفخر الرازي المعروف بابن الخطيب ، والمولود بمدينة الري سنة ٥٤٤ أو سنة ٥٤٣ هـ والمتوفى ٦٠٦ هـ .

(٢) وهو المولود بالري سنة ٢٤٠ هـ سنة ٨٥٤ م والمتوفى ببغداد سنة ٣٢٠ هـ سنة ٩٣٢ . ولعل في ذكر الأستاذ الإمام لمحمد بن زكريا الرازي هذا بين علماء «أهل السنة» نظراً ، لأن آراءه في الهيئات والنبوات لا أعتقد انها تضعه في هذا الموضع (راجع رسائل فلسفية جمع وتصحيح ب . كراوس . جـ ١ . طبعة كلية الآداب . جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٩ م) و(طبقات الأطباء والحكماء) لابن جلجل . تحقيق فؤاد سيد ص ٧٧ ، ٧٨ وكذلك (مذهب الذرة عند المسلمين وعلاقته بمذهب اليونان والهنود ، ومعه فلسفة محمد بن زكريا الرازي) للدكتور س . بينيس (D. R. S. pines) ترجمة د . محمد عبد الهادي أبو ريدة . طبعة مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٦ م) . وهناك بهذا الأسم «أبو بكر الرازي» من يذكره ابن المرتضى في الطبقة التاسعة للمعتزلة وهو أبو بكر محمد بن إبراهيم المقانعي الرازي ، ومن يذكره في طبقات المعتزلة «الطبقة الثانية عشرة» باسم «أبو بكر الرازي» . راجع (الباب الرابع من كتاب المنية والأمل في شرح الملل والنحل . لابن المرتضى) وراجع كذلك قدري حافظ طوقان (تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك) ص ٢١٠ ـ ٢٢٢ طبعة دار القلم . الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٣ م .

(٣) ولم أستطع الوصول إلى تحقيق هذا الاسم ، إذ ان هنالك تسعة أعلام يلقبون بالرازي ، هم : أبو حاتم محمد بن أدريس ، وابن سلم عبد الرحمن بن محمد ، وأبو بكر محمد بن زكريا ، والإسماعيلي =

ومنهم مثل الإمام أبي بكر الباقلاني[1] .

وكيف يتيسر لقائل إنه لا علاقة بين الأسباب والمُسبَّبات أن يبرع في فنون بناؤها على الإرتباط بين الآثار وما يقارنها في العادة مما هو مصدر لها في بادىء النظر .

فإذا حدث في الكون حادث ، سأل صاحب هذا المذهب عن سببه الذي جرت سُنَّةُ اللّه بأن يكون معه ، وإن شئت قلت : سأل عن السبب الذي أصدر اللّه وجوده عنده .

وهل يمكن أن يقول المتكلم إنه لا علاقة بين وجود الولد ووجود والديه ؟؟ . . أو بين جودة العمل وعلم العامل ؟؟ . . أو بين غزارة الثمر وخدمة الشجر ؟؟ . . هذا شيء لم يقل به قائل منهم قط ، وإلا لما قرأ واحد منهم كتاباً ولا خط في صحيفة سطراً ، لأنه لا علاقة بين المطالعة والفهم ولا بين التحرير والإفهام .

فإن شئت أن تقول : إنه مذهب مع ذلك غامض ، يكد الذهن في فهمه ، فلك أن تقول[2] ، وأن تنعم النظر حتى تفهم مبانيه وأصوله ، وأن تناقش بالدليل . وعلى اللّه قصد السبيل .

* * *

القول بنفي الرابطة بين الأسباب ومُسَبّبَاتها جدير بأهـل دين ورد في كتابـه أن الإيمان وحده كاف في أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل : تحوَّلْ عن مكانك ، فيتحول الجبل[3] ، يليق بأهل دين يَعدُّ الصلاة وحدها ، إذا أخلص المصلي فيها كافية في إقداره

أحمد بن حمدان ، وأبـو الفتح سليم بن أيـوب ، والفخر محمـد بن عمـر ، والحنفي محمـد بن إبراهيم ، واللغوي محمد بن أبي بكر ، والقطب محمد بن محمد وليس من بينهم محمود الرازي ، راجع (الأعلام) لخير الدين الزركلي جـ ٣ الطبعة الثانية ص ٣٢ .

(١) هو المتكلم الأشعري أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد المتوفى سنة ٤٠٣ هـ .

(٢) ورغم إيثار الأستاذ الإمام عدم إبداء الرأي الخاص في هذا الموضوع ، إلا أن إشارته هذه كافية في الدلالة على أنه إنما يقف إلى جانب وجهة النظر الأخرى . . ونحن نعلم أنه كان يرى رأي معتدلة أهل الاعتزال في هذا المقام .

(٣) والإشارة هنا إلى الدين المسيحي ، وإلى الأنجيل الذي يبشر المؤمنين به بهذه القدرة إذا ما توافر لهم الإيمان .

على تغيير سير الكواكب وقلب نظام العالم العنصري[1] ، وليس هذا الدين هو دين الإسلام . دين الإسلام هو الذي جاء في كتابه **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم﴾** الآية[2] **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾** إلخ[3] **﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾**[4] وأمثالها **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾** الآيات[5] . فلا يمكن لأهل هذا الدين وهو هو أن يقطعوا كل علاقة بين الأسباب في هذا العالم والمُسَبَّبات، ولهم أن يتيهوا على أرباب ذلك الدين الآخر بأن دينهم لم يوضع أساسه على وعث[6] من الخوارق لا يلبث أن يخسف بالسالك فيه إذا سال عليه سيل الدليل ، وإنما وُضِع على مستقر من الحقائق لا يتزلزل بالقائم عليه مهما عظم القال والقيل . **وليس من الممكن لمسلم أن يذهب إلى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب في السببية والمسببية إلا إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله .**

نعم . . طرأ فساد على عقائد بعض المنتسبين إلى أئمة ذلك المذهب ، وأساءوا الظن بالقدر وتظاهروا بترك الأسباب في أقوالهم ، وإن كان أشد الناس تمسكاً بها في رذائل أعمالهم ، وتعلقوا من الخوارق بحبل واهن ، ميلاً إلى أهواء من جاورهم من الملل ، فظن الناظرون في قذائف أفواههم أن هذه الأوهام مما بُني عليه اعتقاد أسلافهم . فلا يَغترَّنَّ بعد ذلك مُغترٌ بما يظن أولئك الناظرون ، ولا بما يتوهمه هؤلاء الواهمون ، **﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾**[7] .

---

(١) والإشارة هنا للمسيحية كذلك .

(٢) التوبة (٩) : ١٠٥ .

(٣) الأنفال (٨) : ٦٠ .

(٤) الأحزاب (٣٣) : ٦٢ .

(٥) في سورة البقرة (٢) الآية ١٦٤ **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾** . وفي سورة آل عمران (٣) الآية ١٩٠ : **﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾** .

(٦) تخليط ومشقة وعسر .

(٧) الصافات (٣٧) : ١٨٠ .

هذا ما يتعلق برأي «الجامعة» في مذهب المتكلمين أو فلسفتهم ، وننتقل الآن إلى روايتها مذهب الفيلسوف ورأيها فيه :

فلسفة ابن رشد ورأيه في المادة وخلق العالم :

المادة وخلق العالم : قالت «الجامعة» : إن المادة «ضرب من الافتراض لا بد منه».

الافتراض : يراد به عند الإطلاق : الفرض ، وهو في اصطلاح الفلاسفة ما لا وجود له ، والمادة عندهم موجودة ، كما قالت «الجامعة» ، فيما قبل ذلك التعريف وفيما بعده . ثم قالت : «وبناء عليه فالعامل الأول الذي هو مصدر القوة والفعل (أي الخالق سبحانه وتعالى) يكون غير مختار في فعله» . وقالت بعد هذا بسطرين : وهو (أي مذهب ابن رشد) مذهب قريب جداً من مذاهب الماديين كما ترى» ثم ذكرت أن الفيلسوف يشبِّه حكومة الكون بحكومة المدينة ، وأن المباشر للتصرف في الكون هو العقل الأول وحده ، وأن السماء كون حي مركب من عدة دوائر ، والعقل الأول في قلب هذه الدوائر ، ولكل دائرة عقل أي قوة تعرفُ بها طريقها» إلخ .

أما مسألة نفي الإختيار فقد ذُكِرتْ على إبهامها ، وأدى ذكرها كذلك إلى استنتاج أن مذهب ابن رشد قريب من مذهب الماديين ، وليس الأمر في حقيقته كذلك .

يعلم كل ناظر في مذاهب فلاسفة اليونان ، أنهم كانوا فريقين : إلهيين ، وماديين ، والأولون فريقان : **مشاءون وإشراقيون**[(١)] واشتهر أتباع أرسطو باسم

---

(١) الفيلسوف المشائي ، لقب أطلق على أرسطو ومن تبعه من الفلاسفة محصلي الحكمة المشائية القائمة على البحث والحجج المنطقية ، ولقد جاهد ابن رشد ليعيد للفكر الفلسفي المشائي ، لدى العرب المسلمين ، نقاءه بعد أن خلطه الفارابي وابن سينا بكثير من آراء المدرسة الإشراقية الفلسفية . . أما المدرسة الإشراقية في الفلسفة فهي التي تقوم معارفها على الحدس الذي يربط الذات العارفة بالجواهر النورانية ، وتسمى بالعلم الحضوري وهي عكس المشائية وعلى حد تعبير قطب الدين الشيرازي ، فإن الإشراقيين لا ينتظم أمرهم دون سوانح نورية ، أي لوامع نورية عقلية تكون مبنى الأصول الصحيحة التي هي القواعد الإشراقية . راجع في ذلك : د . محمد علي أبو ريان (أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي) ص ٥٨ ـ ٦٣ الطبعة الأولى . مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٩ م . وكذلك (المعجم الفلسفي) يوسف كرم ، ود . مراد وهبه ، ويوسف شلاله ، طبعة مكتب يوليو . القاهرة ١٩٦٦ م .

المشائين ، وأتباع أفلاطون باسم الإشراقيين . وأول مميز للألهيين عن الماديين أن الأولين يقولون بوجود واجب بريء من المادة والماديات ، وبوجود عقول مجردة عن المادة وغواشيها ، وبأن للواجب علماً بذاته وبجميع ما يصدر عنه وعن آثاره ، وأن للعقول المجردة عقلاً وعلماً بذواتها وبمبدئها وبما يصدر عنها . والماديون لا يقولون بشيء من ذلك البتة ، فالتقريب بينهما تقريب بين النقيضين ، وابن رشد من مقرري مذهب أرسطو ، فهو من الإلهيين .

وتشبيه الفيلسوف لتدبير الكون بتدبير المدينة اكبر دليل على مفارقة الماديين كما يفارق المجرد المادة ، وقد شرطوا في هذا التشبيه أن المدبِّر خارج عن المدبر مفارق له منزه عن مخالطته .

أما العقل الأول ، فليس كما تقول «الجامعة» ، فإن العقل الأول جوهر مجرد عن المادة ، وهو أول صادر عن الواجب ، وقد صدر عنه الفلك التاسع المسمى عندهم بالفلك الأطلس ، ونفسٌ لذلك الفلك تدبر حركاته الجزئية ، وعقل آخر هو العقل الثاني ، وعن هذا الثاني صدر الفلك الثامن المسمى عندهم فلك الثواب ، ونَفسُهُ ، والعقل الثالث ، وهكذا إلى أن أُصْدر عن العقل التاسع فلك القمر ، ونفسهُ ، والعقل العاشر ، وهو المُسمىً عندهم بالعقل الفعَّال أو العقل الفياض ، وعن هذا العقل الفياض ، صدرت المادة العنصرية ، وإليه يرجع ما يحدث في عالمها .

ولا يكون العقل الأول ولا غيره من العقول في قلب تلك الدوائر عند أحد من هؤلاء الفلاسفة الإلهيين ، بل هو مفارق لها ، كما أن نفوسها جواهر مفارقة أيضاً ، ولها تعلُّقٌ بأجسادها كتعلُّق أنفسنا بأبداننا .

والذي حمل الإلهيين على ذلك مبالغتهم في تنزيه الواجب ، وقولهم إنه واحد من جميع الوجوه ، وزعمهم أن الواحد من كل وجه لا يصدر عنه إلا الواحد ، فلزم أن لا يصدر عن الواجب إلا واحد وهو العقل الأول[1] .

---

(١) والإشارة هنا إلى النظرية المعروفة بنظرية الفيض ، التي تعتمد الفيض سبيلاً لتصور صدور الموجودات عن الواحد الأول. وهي نظرية إشراقية رفض ابن رشد أن تكون ما يرضاه الفلاسفة المشاءون . ولقد سبقت إشارتنا إلى هجومه على الفارابي وابن سينا لقولهما بهذه النظرية . وهناك من يرى أن الفارابي «أول من أدخل مذهب الصدور في الفلسفة الإسلامية» وقبل ذلك نجد هذه

قال الفلاسفة الإلهيون : ولا يجوز أن يكون لأفعال اللّٰه غايات وأغراض تبعثه على إصدارها ، وأن ما يصدر عنه إنما يفيض بمحض الجود المطلق عن غنيً مطلق ، وقد صرح ابن رشد في تهذيبه لإلهيات أرسطو بذلك . وهذا مبالغه منهم في نسبة الكمال إلى اللّٰه ، على أن ما يصدر عنه إنما يصدر عن علم ، فالذي يُنفى عنه إنما هو الاختيار بمعنى التردد بين الغايات ثم ترجيح إحداها ، أما الاختيار بمعنى أن الفعل صدر عن علم العالم بدون إكراه عليه فذلك لا ينفيه أحد منهم .

والمِلّيُّون من متكلمين ولاهوتيين[1] ، وان لم يصرحوا بذلك ، قالوا بما يؤول إليه والتزموه . فقد ذهب جمهورهم والمُعوَّلُ على رأيـه عند قـومه منهم أن علم اللّٰه محيط بالكليات والجزئيات أزلاً وأبداً ، وقد تعلقت إرادته بتخصيص كل كائن بما هو عليه على حسب علمه ، وعِلمُهُ لازم لذاته : أزلي بأزلية ذاته ، وكل ما يكون في الكون لا بد أن يقع على وفاق مع علمه الأزلي جل شأنه ، فلا تردُّد عنده بين الغايات ، بل ما يصدُرُ عنه اليوم كان لا بد أن يصدر عنه . والأسباب والمُسبّباتُ وارتباط بعضها ببعض مما انتظم في علمه ، فهي تصدرُ عنه على حسب ترتيبها في العلم .

وسواء كان القول غامضاً أو غير غامض ، وسواء توجّه عليه من النقد ما يصعب الجواب عنه إذا روعيت بقية الأصول أو لم يتوجّه ، كل ذلك لا يدفع عنهم أنهم قالوا بنفي الاختيار بالمعنى المعروف عند الناس ، وإن ثبت الاختيار بالمعنى الذي يليق بكمال اللّٰه تعالى .

فالفلاسفة وجمهور المتكلمين واللاهـوتيين عـلى وفاق في حقيقـة المسألـة ، وان اختلفت العبارات . **فابن رشد رحمه اللّٰه لم يخرج في آرائه عن المِلّيِّين فلا يصح أن يكون مذهبه مذهب الماديين ولا قريباً منه .**

= النظرية ، وأصولها وجوهرياتها لدى البراهمة والأفلاطونية المحدثة . راجع في ذلك (المعجم الفلسفي) مادة «صدور» (Emanation) ، ود . محمد علي أبو ريان (أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي) ص ١٤٦ ـ ١٧٤ ود . محمود قاسم (نظرية المعرفة عند ابن رشد ، وتأويلها لدى توماس الأكويني) ص ٨٢ ـ ١٢٣ . طبعة مكتبة الانجلو المصرية . بدون تاريخ .

(١) أي متكلمي الأديان الأخرى ، غير الإسلام .

طريق الاتصال :

يتوهم الناظر في هذا العنوان في «الجامعة» ، مع مراعاة الفصل الذي تقدمه فيها ، انه عنوان لرأي ابن رشد في طريق اتصال الكون بالخالق . فإذا استمر في قراءة ما بعد العنوان إلى آخر الفصل ، علم أن المراد طريق اتصال الإنسان وحده بخالقه ، وعثر في آخر البحث على هذه العبارة : «وبناء على ذلك تكون فلسفة صاحب الترجمة عبارة عن مذهب مادي قاعدته العلم» .

أما ما بين العنوان وهذه العبارة فهو مما لا يمكن أن يتحصل له معنى مفهوم في مذهب الفيلسوف . وإني ذاكر لك رأيه في اتصال الإنسان باللّٰه ، أي قربه منه وسعادته به ، وفي طريقة تكميله لنفسه حتى يستعد لذلك القرب . وبذلك تعرف أن ما جاء في «الجامعة» ليس بالذي تصح نسبته إليه ، خصوصاً بعد قولها إنه أخذ مذهبه في ذلك عن **أرسطو** من الفصل الثالث من كتابه (النفس) . وما قاله أرسطو في ذلك الكتاب معروف مشهور .

أثبت أرسطو ، وتبعه ابن رشد وجُلُّ فلاسفة الإسلام ، أن نفس الإنسان ، التي هو بها إنسان ـ وهي ما يلقبونها بالنفس الناطقة ـ جوهر مجرد عن المادة ، لا هو جسم ولا حالٌّ في جسم ، وإنما له علاقة بالجسم يُدبِّره ويُصرِّفه ، وشبَّهوا هذه العلاقة بعلاقة المِلك بالمدينة وهو خارج عنها ، ولهذه النفس آلة في الجسم بها يكون التدبير .

وجعلوا مراتب النفس في استِحصالِها كمالها العلمي أربع :

(الأولى) : العقل الهيولاني[1] .

(والثانية) : العقل بالملكة[2] .

---

(١) ويسمى العقل المنفعل كذلك ، وهو عبارة عن الاستعداد المحض لإدراك المعقولات ، وهو قوة محضة خالية عن الفعل كما للأطفال ، وإنما نسب إلى الهيولى لأن النفس في هذه المرتبة تشبه الهيولى الأولى الخالية في حد ذاتها عن الصور كلها . راجع (المعجم الفلسفي) ، مادتي : «عقل هيولاني» ، و«عقل منفعل» .

(٢) هو عبارة عن العقل الهيولاني «وقد حصل فيه المقولات الأولى» ، المرجع السابق ، نقلاً عن «نجاة» ابن سينا .

(والثالثة) : العقل المستفاد [1] .
(والرابعة) : العقل بالفعل [2] .

قالوا : والذي يرقى بالنفس في هذه المراقي هو العقل الفعَّال ، وهو ذلك العقل العاشر المصرِّف للمادة العنصرية ، لا عقل الإنسانية العام ، كما تقول «الجامعة» . فإن أرسطو وابن رشد لا يقولان بعقل يُسمَّى عقل الإنسانية العام ، بل كان ذلك من مزاعم أفلاطون ، التي عُني أرسطو بإبطالها ، وتبعه ابن رشد وغيره في نفيها ، فالعقل الفعال هو الذي يخرج النفس من العقل الهيولاني إلى العقل بالملكة ومن العقل بالملكة إلى العقل المستفاد ومنه إلى العقل بالفعل .

قالوا : وهذا الاتصال الذي يفيض به العقل الفعال على النفس ما استعدت له من المقولات له علة ، وعليه قوة بعيدة هي العقل الهيولاني ، وقوة كاسبة هي العقل الملكة وقوة تامة الاستعداد لها أن تقبل بالنفس جهة الإشراق متى شاءت بملكة متمكنة وهي المسماة بالعقل بالفعل .

ثم إن الفيلسوف وأتباع مذهب أرسطو ذكروا آراء بعض الفلاسفة ممن لا يُعتدُّ بقولهم ، وفيها ما يشبه ما نسبته الجامعة لابن رشد ، منها أن الجوهر العاقل إذا عقل صورة عقلية صار هو إياها ، واستدلوا على استحالة هذا القول بأنه يلزم عليه انعدام النفس ووجود ما عقلته أو استحالة النفس إليه ، وهو محال وخلاف الفرض .

ونقلوا عن «فرفوريوس» انه قال : إن النفس الناطقة إذا عقلت شيئاً فإنما تعقل ذلك الشيء باتصالها بالعقل الفعال ، وهو حق في رأيهم ، ولكنه قال : إن معنى اتصالها بالعقل الفعال ، أن تصير هي نفس العقل الفعال ، لأنها تصير العقل المستفاد . وقد أبطلوا هذا القول بأنه يستلزم أن يكون العقل متجزئاً قد يتصل منه شيء دون شيء ، وهو مجرد لا يتجزأ ، أو تتصل به النفس اتصالاً واحداً تكون به النفس كاملة واصلة إلى كل

---

(١) والتعريفات التي يذكرها (المعجم الفلسفي) للعقل المستفاد ، نقلاً عن ابن سينا ، هي انه : «ماهية مجردة عن المادة ، مرتسمة في النفس على سبيل أصول من الخارج» . . . وأيضاً : «هو أن تكون الصورة المعقولة حاضرة فيه وهو يطالعها ويعقلها بالفعل ، ويعقل أنه يعقلها بالفعل» . . . وأيضاً : «هو العقل الكائن بين العقل الفعال والعقل المنفعل» .

(٢) والمرجع السابق ينقل عن رسائل ابن سينا وحدوده ، تعريفاً للعقل بالفعل أنه «استكمال النفس في صورة ما ، أو صورة معقولة ، حتى متى شاء عقلها وأحضرها بالفعل» .

معقول ، وهو ليس بحاصل في جميع الأحوال . وقالوا : إن دعوى اتحاد شيء بشيء آخر على معنى استحالة الأول إلى الثاني قضية شعرية غير معقولة فلا يصح النظر فيها ، أما استحالة النفس إلى العقل الفعال فلم يقل به أحد .

فقد عرفت من هذا ان اتصال النفس بالعقل الفعال ليس معناه الفناء فيه أو الاندغام كما عرفتهُ «الجامعة» ، بل معناه أن ترتفع النفس بقواها عن ظلمة الطبيعة بما يكون لها من الاستعداد وتنجذب نحو العالم الأعلى فتشرق فيها المعلومات بمحاذاتها لمطلع ذلك النور الأجلى . فهل مع هذا يصح أن ينسبَ إلى الفيلسوف ما عدهُ غير معقول ؟؟!

قال الفيلسوف وشيعته : إن النفس الناطقة ، التي هي موضوع ما للصورة المعقولة غير منطبعة في جسم تقوم به ، بل هي جوهر عاقل ذو آلة بالجسم ، فإذا استحال الجسم عن أن يكون آلةً لها ، وحافظاً للعلاقة معها بالموت ، لم يضرَّ ذلك جوهرها ، بل تكون باقية بما هي مُستفيدة الوجود من الجواهر العقلية . فالنفس بعد مفارقتها للبدن باقية على استقلالها لا تعدم شخصيتها بالفناء في شيء سواها ، لا عقل فعال ولا وجود واجب ، وهي تسعد بكمالها العلمي والأدبي الذي حصلته مدة تعلقها بالبدن . وجوز الفيلسوف أن تتعلق بعد فراقها للبدن بجسم آخر من عالم آخر تتخيل فيه ما هو لذة لها ، وتشقى بجهلها ورداءة ملكاتها . فالنفس عند الفيلسوف باقية خالدة ، خُلودها خلودٌ لشخصها المتميز من كل شيء سواها ، سواء كان عقلاً فعالاً أو غيره .

فهل بعد هذا يعدُّ الفيلسوف مادِّياً ومذهَبه مذهباً مادياً قاعدته العلم ؟! . . لا . . بل إلهي ومذهبه مذهب إلهي قاعدته العلم ، قائل بخلود النفس وسعادتها وشقائها وعذابها ونعيمها ، كما رأيت .

* * *

بقي علينا أن نشير إلى ما نقله فلاسفة أوروبا عن الفيلسوف الجليل ابن رشد في مبدأ العالم ومصدر وجوده . . قالوا : لم يكن يعرف العلم والفلسفة عند الأوروبيين إلا في مدارس المسلمين في إسبانيا ، فكان يقصد تلك المدارس طلاب العلم من كل ناحية ، كان يجلس في درس الفيلسوف عدد عظيم ، لم تأت نهاية القرن الثاني عشر (الميلادي) إلا وقد انتشر بين المشتغلين بشيء من العلم رأي زعزع طمأنينة الكنيسة

وافزع القابضين على مفاتيح القلوب بذلك الوقت ، الواقفين على أبوابها يأذنون لما شاءوا من العقائد والأفكار أن يدخل فيها ويطردون عنها ما شاءوا . ذلك الرأي الذي أخذ يتسرب إلى القلوب رغم حجابها هو أن الكون أجمع يرجع في وجوده إلى واحد هو حياة الكل ، وهو روح يقوم به كل جزء منه .

وقالوا : إن الذي نشر هذا المذهب بين الناس هم تلامذة ابن رشد ، ففهم بعض علمائهم من ذلك أن ابن رشد كان يقول ان مبدأ العلم هو أصل عرضت له صور العالم ، أو روح ظهر في مظاهر الكائنات ، كما يقول الصوفية ، أو نحو ذلك .

واسْتَتبعَ هذا رأياً آخر ، وهو أن كل صورة من صور الموجودات إذا بطلت فإنما تعود إلى أصلها وهو الوجود المطلق . وظن الواهم أن الأرواح تعود بعد مفارقة الأجسام إلى مشرقها العام وتفقد امتيازها فيه ، وذلك كله وان ذهب إليه بعض النظار من الأوروبيين غير ما يقول ابن رشد .

على أن الصوفية ، وهم المصرحون بوحدة الوجود ، المعبرون بالشهود أولاً والفناء آخراً ، الناطقون في ذلك بما لم ينطق به أحد سواهم ، لم يقولوا بزوال هُويّات[1] النفوس زوالاً حقيقياً ، بل قالوا إنها خالدة بعد مفارقة الأبدان ، ولكنها تسعد في خلودها باستغراقها في شهودها ، وذهولها عن كل ما يشغلها عن مصدر وجودها ، فهي غنية بِعِرْفانه عن معرفتها بنفسها ، وهو ما يعبر عنه بالفناء ولذّتِه ، والمحو وبهجته ، وهو معنى تقْصُرُ دون إيضاحه العبارات ، وإن كفى في تعريفه لأهله أخفى الإشارات .

* * *

ولعل «الجامعة» لا تعتب على كاتب فيما كتب وفيما أجاب به من طلب ، فقد وفّى حقاً لها لو أغفله ، مع علمها بالقدرة عليه ، لحق لها أن توجه العُتب إليه .

هذا ما أردنا إيجاز القول فيه متعلقاً بفلسفة المتكلمين ورأي

---

(١) الهوية هي «الأمر المتعقل من حيث امتيازه عن الأغيار» كما أنها «تقال بالترادف على المعنى الذي ينطلق عليه اسم الموجود» راجع (المعجم الفلسفي) .

الفيلسوف . . . . [1] . . . . . وسنتبعه بمقال آخر فيها حكمت به الجامعة من الكلام على الاضطهاد في النصرانية والإسلام ، إن شاء اللّٰه تعالى .

(١) ورد الأستاذ الإمام الشيخ ممد عبده هذا على فرح أنطون قد كتبه الأستاذ الإمام بالإسكندرية في ٦ أغسطس سنة ١٩٠٢ م . ثم نشر بالمنار ، ثم بكتاب فرح أنطون (ابن رشد وفلسفته) وشغل فيه الصفحات ٨٨ ـ ٩٧ . راجع كذلك محمد رشيد رضا (تاريخ الأستاذ الإمام) جـ ١ ص ٨٠٦ . الطبعة الأولى . مطبعة المنار القاهرة ١٣٥٠ هـ سنة ١٩٣١ م .

طوفان نوح .. هل عمّ الأرض كلها[1] ؟

. . . وصلنا مكتوبكم المؤرخ في ٤ شوال ١٣١٧[2] ، الذي أنهيتم به أنه ظهر قِبَلَكُم نشء جديد من الطلبة وديدنهم البحث في العلوم والرياضة والخوض في توهين الأدلة القرآنية ، وقد سمع من مقالتهم الآن أن الطوفان لم يكن عاماً لأنحاء الأرض ، بل هو خاص بالأرض التي كان بها قوم نوح عليه السلام ، وأنه بقي ناس في أرض الصين لم يصبهم الغرق ، وأن دعاء نوح عليه السلام بهلاك الكافرين لم يكن عاماً ، بل هو خاص بكفار قومه ، لأنه لم يكن مرسلاً إلا إلى قومه ، بدليل ما صح : «وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس كافة» .

فإذا قيل لهم : إن الآيات الكريمة ناطقة بخلاف ذلك ، كقوله تعالى ، حكاية عن نوح عليه السلام : ﴿**رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً**﴾[3] ، وكقوله تعالى : ﴿**وجعلنا ذريته هم الباقين**﴾[4] ، وقوله تعالى : ﴿**لا عاصم اليوم من أمر اللّٰه إلا من رحم**﴾[5] .

---

(١) فتوى للأستاذ الإمام ، متضمنة السؤال الذي ورد إليه بخصوص موضوعها من الشيخ عبد اللّٰه قدومي ، خادم العلم الشريف بمدينة نابلس ، بفلسطين .

(٢) هجرية : سنة ١٩٠٠ م .

(٣) نوح : ٢٦ .

(٤) الصافات : ٧٧ .

(٥) هود : ٤٣ .

وإذا قيل لهم : إن جهابذة المحدثين أجابوا بأنه صح في أحاديث الشفاعة أن نوحاً ، عليه السلام ، أول رسول بعثه اللّه إلى أهل الأرض ، وانه يتعين أن يكون قومه أهل الأرض ، ويكون عموم بعثته أمراً اتفاقياً لعدم وجود أحد غير قومه ، ولو وجد غيره لم يكن مرسلاً إليهم . . سخروا من المحدثين ، ويستندوا إلى حكايات منسوبة ، إلى أهل الصين .

ورغبتم منا بذلك المكتوب كشف الغطاء عن سر هذا الحادث العظيم ، والإفادة بما يقتضيه الحق ويطمئن إليه القلب .

* * *

والجواب عن ذلك ، والحمد للّه :

أما القرآن الكريم فلم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان ، ولا على عموم رسالة نوح ، عليه السلام ، وما ورد من الأحاديث ، على فرض صحة سنده ، فهو آحاد لا يوجب اليقين ، والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن ، إذا عد اعتقادها من عقائد الدين .

أما المؤرخ ومريد الاطلاع فله أن يحصل من الظن ما ترجحه عنده ثقته بالراوي أو المؤرخ أو صاحب الرأي ، وما يذكره المؤرخون والمفسرون في هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية أو عدم الثقة بها ، ولا تتخذ دليلاً قطعياً على معتقد ديني .

وأما مسألة عموم الطوفان في نفسها فهي موضوع نزاع بين أهل الأديان وأهل النظر في طبقات الأرض ، وموضوع خلاف بين مؤرخي الأمم ، أما أهل الكتاب وعلماء الملة الإسلامية فعلى أن الطوفان كان عاماً لكل الأرض ، ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر ، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة في أعالي الجبال ، لأن هذه الأشياء مما لا تتكون إلا في البحر ، فظهورها في رؤس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة ومرات ، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عم الأرض . ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين أن الطوفان لم يكن عاماً ، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها . غير أنه لا يجوز لشخص مسلم أن ينكر قضية أن الطوفان كان عاماً لمجرد احتمال التأويل في آيات الكتاب العزيز ، بل على كل من يعتقد بالدين أن لا ينفي شيئاً مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التي صح سندها وينصرف عنها إلى التأويل

إلا بدليل عقلي يقطع بأن الظاهر غير مراد ، والوصول إليه في مثل هذه المسألة يحتاج إلى بحث طويل ، وعناء شديد ، وعلم غزير في طبقات الأرض وما تحتوي عليه ، وذلك يتوقف على علوم شتى عقلية ونقلية ، ومن هذى برأيه بدون علم يقيني فهو مجازف لا يسمع له قول ، ولا يسمح له ببث جهالاته ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

التوسل بالأنبياء والأولياء(١)

(السؤال)

فضيلتو أفندم مفتي الديار المصرية ، متعنا اللّه بوجوده ، آمين .

أبدي أنه قد بلغني أن بعض الناس كتب إلى فضيلتكم سؤالاً يدعي فيه أني أنكرت جاه النبي ، والتوسل به إلى اللّه تعالى وبأوليائه رضوان اللّه عليهم أجمعين .

والحقيقة أني لم أنكر شيئاً من ذلك ولم أتكلم به ، بل الحقيقة أنه سألني جمع من الناس عن حقيقة ما يعتقدونه ويقولونه بألسنتهم من التوسل بجاه النبي ﷺ ، والتوسل بأوليائه ، معتقدين أن النبي أو الولي يستميل إرادة اللّه تعالى عما هي عليه ، كما هو المعروف للناس من معنى الشفاعة والجاه عند الحكام ، وأن التوسل بهم إلى اللّه تعالى كالتوسل بأكابر الناس إلى الحكام .

فلما رأيت منهم ذلك ، وأن هذا أمر مخل بالعقيدة ، كما تعلمون ، وأن قياس التوسل إلى اللّه تعالى على التوسل بالحكام محال ، فأجبتهم بما أعتقده وأدين به من تقرير عقيدة التوحيد ، وهي أنه لا فاعل ولا نافع ولا ضار إلا اللّه تعالى ، وأنه لا يدعى معه

---

(١) نشر (المنار) في الجزء الثالث عشر من السنة السابعة (غرة رجب سنة ١٣٢٢ هـ ١١ سبتمبر سنة ١٩٠٤ م) نص السؤال موجه للأستاذ الإمام من «محمد موسى» من «محلة فرنوى» بحيرة ـ بخصوص التوسل بالأنبياء والأولياء ، وجواب المفتي على هذا السؤال . . ونحن نورد هنا نص السؤال قبل إيراد فتوى الأستاذ الإمام حتى تكون ملابسات الجواب حاضرة للقارىء فينتفي مجال التأويل أو التزيد في الموضوع .

أحد سواه ، كما قال اللّٰه تعالى : ﴿**فلا تدعوا مع اللّٰه أحداً**﴾[١] ، وأن النبي ﷺ ، وإن كان أعظم منزلة عند اللّٰه من جميع البشر ، وأعظم الناس جاهاً ومحبة ، وأقربهم إليه ، ليس له من الأمر شيء ، ولا يملك للناس ضراً ولا نفعاً ولا رشداً ولا غيره كما في نص القرآن ، وإنما هو مبلغ عن اللّٰه تعالى . ولا يتوسل إليه تعالى إلا بالعمل كما جاء على لسانه ﷺ واتباع ما كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون من هديه وسنته ، وإنه لا سبب لجلب المنافع ودفع المضار إلا ما هدى اللّٰه الناس إليه ، ولا معنى للتوسل بنبي أو ولي إلا باتباعه والاقتداء به . . يرشدنا إلى هذا كثير من الآيات الواردة في القرآن العظيم ، كقوله تعالى : ﴿**قل إن كنتم تحبون اللّٰه فاتبعوني يحببكم اللّٰه**﴾[٢] ﴿**وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه**﴾[٣] ، إلى غير ذلك من الآيات .

هذا هو اعتقادي ، وهو الذي قلته للناس ، فإن كنتم ترون فيه خطأ فأرجو بيانه ، وإن كان هو الصواب فأرجو إقراري عليه كتابة لأدافع بذلك من أساء بي الظن .

لا زلتم هادين مهديين .

محمد موسى - من محلة فرنوي ، بحيرة

(الجواب)

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم . ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه العلي العظيم .

اعتقادك هذا هو الاعتقاد الصحيح ، ولا يشوبه شوب من الخطأ ، وهو ما يجب على كل مسلم يؤمن بما جاء به محمد ﷺ ، أن يعتقده ، فإن الأساس الذي بنيت عليه رسالة النبي محمد ﷺ ، هو هذا المعنى من التوحيد ، كما قال اللّٰه له ﴿**قل هو اللّٰه أحد ، اللّٰه الصمد**﴾[٤] . والصمد هو الذي يقصد في الحاجات ويتوجه إليه المربوبون في معونتهم على ما يطلبون ، وإمدادهم بالقوة فيما تضعف عنه قواهم ، والإتيان بالخبر على هذه الصورة يفيد[٥] كما هو معروف عند أهل اللغة ، فلا صمد إلا هو .

---

(١) الجن : ١٨ .
(٢) آل عمران : ٣١ .
(٣) الأنعام : ١٥٣ .
(٤) الإخلاص : ١ ـ ٢ .
(٥) أي يفيد الحصر . . ولعل كلمة «الحصر» قد سقطت من الأصل .

وقد أرشدنا إلى وجوب القصد إليه وحده ، بأصرح عبارة في قوله : **﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان﴾**[1] . وقد قال الشيخ **محيي الدين ابن العربي** ، شيخ الصوفية في صفحة ٢٢٦ من الجزء الرابع من فتوحاته ، عند الكلام على هذه الآية : إن اللّٰه تعالى لم يترك لعبده حجة عليه ، بل للّٰه الحجة البالغة ، فلا يتوسل إليه بغيره ، فإن التوسل إنما هو طلب القرب منه ، وقد أخبرنا اللّٰه أنه قريب ، وخبره صدق . اهـ ملخصاً .

على أن الذين يزعمون جواز شيء مما عليه العامة اليوم في هذا الشأن إنما يتكلمون فيه بالمبهمات ويسلكون طرقاً من التأويل لا تنطبق على ما في نفوس الناس ، ويفسرون الجاه والواسطة بما لا أثر له في مخيلات المعتقدين . . فأي حالة تدعوهم إلى ذلك وبين أيديهم القرون الثلاثة الأولى ، ولم يكن فيها شيء من هذا التوسل ولا ما يشبهه بوجه من الوجوه ، وكتب السنة والسير بين أيدينا شاهدة بذلك ، فكل ما حدث بعد ذلك فأقل أوصافه أنه بدعة من الدين ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

وأسوأ البدع ما كان فيه شبهة الإشراك باللّٰه وسوء الظن به كهذه البدع التي نحن بصدد الكلام فيها . وكأن هؤلاء الزاعمين يظنون أن في ذلك تعظيماً لقدر النبي ﷺ ، أو الأنبياء والأولياء ، مع أن أفضل التعظيم للأنبياء هو الوقوف عندما جاءوا به ، واتقاء الزيادة عليهم فيما شرعوه بإذن ربهم ، وتعظيم الأولياء يكون باختيار ما اختاروه لأنفسهم . وظن هؤلاء الزاعمين أن الأنبياء والأولياء يفرحون بإطرائهم وتنظيم المدائح وعزوها إليهم وتفخيم الألفاظ عند ذكرهم واختراع شؤون لهم مع اللّٰه لم ترد في كتاب اللّٰه ولا في سنة رسوله ولا رضيها السلف الصالح . . . هذا الظن بالأنبياء والأولياء هو أسوأ الظن لأنهم شبهوهم في ذلك بالجبارين من أهل الدنيا الذين غشيت أبصارهم ظلمات الجهل قبل لقاء الموت ، وليس يخطر بالبال أن جباراً لقي الموت وانكشف له الغطاء عن أمر ربه فيه يرضى أن يفخمه الناس بما لم يشرعه اللّٰه ، فكيف بالأنبياء والصديقين ؟!

إن لفظ الجاه الذي يضيفونه إلى الأنبياء والأولياء عند التوسل مفهومه العرفي هو السلطة ، وإن شئت قلت نفاذ الكلمة عند من يستعمل عليه أو لديه ، فيقال : فلان

---

(١) البقرة : ١٨٦ .

اغتصب مال فلان بجاهه ، ويقال : فلان خلص فلاناً من عقوبة الذنب بجاهه لدى الأمير أو الوزير مثلاً .

فزعم زاعم أن لفلان جاهاً عند اللّه ، بهذا المعنى ، إشراك جليّ لا خفيّ ، وقلما يخطر ببال أحد من المتوسلين معنى اللفظ اللغوي ، وهو المنزلة والقدرة، على أنه لا معنى للتوسل بالقدرة والمنزلة في نفسها ، لأنها ليست شيئاً ينفع ، وإنما يكون لذلك معنى لو أولت بصفة من صفات اللّه كالاجتباء والاصطفاء ، ولا علاقة لها بالدعاء ، ولا يمكن لمتوسل أن يقصدها في دعائه ، وإن كان «**الألوسي**» المسكين بنى تجويز التوسل بجاه النبي خاصة على ذلك التأويل وما حمله على هذا إلا خوفه من ألسنة العامة وسباب الجهال ، وهو ما لا قيمة له عند العارفين ، فالتوسل بلفظ الجاه مبتدع بعد القرون الثلاث ، وفيه شبهة الشرك ، والعياذ باللّه ، وشبهة العدول عما جاء به رسول اللّه ﷺ ، فلم الإصرار على تحسين هذه البدعة ؟!

يقول بعض الناس : إن لنا على ذلك حجة لا أبلغ منها ، وهي ما رواه **الترمذي** بسنده إلى **عثمان بن حنيف** رضي اللّه عنه ، قال : إن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ ، فقال : ادع اللّه أن يعافيني ، فقال : «إن شئت دعوت ، وإن شئت صبرت ، فهو خير لك» . قال : فادعه ، قال : فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ، ويدعو بهذا الدعاء : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك **محمد نبي الرحمة** ، اني توجهت بك إلى ربي ليقضي لي في حاجتي هذه ، اللهم فشفعه في . قال الترمذي : وهو حديث حسن صحيح غريب .

ونقول : أولاً قد وصف الحديث بالغريب ، وهو ما رواه واحد ، ثم يكفي في لزوم التحرز عن الأخذ به أن أهل القرون الثلاثة لم يقع منهم مثله ، وهم أعلم منا بما يجب الأخذ به من ذلك ، ولا وجه لابتعادهم عن العمل به إلا لعلمهم بأن ذلك من باب طلب الاشتراك في الدعاء من الحي ، كما قال **عمر** رضي اللّه عنه ، في حديث الاستسقاء : إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ، ﷺ ، فتسقينا ،وإننا نتوسل إليك بعم نبينا **العباس** فاسقنا ، قال ذلك ، رضي اللّه عنه ، والعباس بجانبه يدعو اللّه تعالى ، ولو كان التوسل ما يزعم هؤلاء الزاعمون لكان عمر يستسقي ويتوسل بالنبي ﷺ ، ولا يقول : كنا نستسقي بنبينا ، والآن نستسقي بعم نبيك .

وطلب الاشتراك في الدعاء مشروع حتى من الأخ لأخيه ، بل ويكون من الأعلى للأدنى ، كما ورد في الحديث ، وليس فيه ما يخشى منه ، فإن الداعي ومن يشركه في الدعاء وهو حي كلاهما عبد يسأل اللّه تعالى ، والشريك في الدعاء شريك في العبودية ، ولا وزير يتصرف في إرادة الأمير كما يظنون ﴿**سبحان ربك رب العزة عما يصفون**﴾[1] .

ثم . . المسألة داخلة في باب العقائد لا في باب الأعمال ، ذلك أن الأمر فيها يرجع إلى هذا السؤال : «هل يجوز أن نعتقد بأن واحداً سوى اللّه يكون واسطة بيننا وبين اللّه في قضاء حاجاتنا ، أو لا يجوز ؟؟» .

أما الكتاب فصريح في أن تلك العقيدة من عقائد المشركين ، وقد نعاها عليهم في قوله : ﴿**ويعبدون من دون اللّه ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه**﴾[2] . . وقد جاء في السورة التي نقرؤها كل يوم في الصلاة : ﴿**وإياك نستعين**﴾[3] فلا استعانة إلا به ، وقد صرح الكتاب بأن أحداً لا يملك للناس من اللّه نفعاً ولا ضراً ، وهذا هو التوحيد الذي كان أساس الرسالة المصطفوية ، كما بينا .

ثم البرهان العقلي يرشد إلى أن اللّه في أعماله لا يقاس بالحكام وأمثالهم في التحول عن إرادتهم بما يتخذه أهل الجاه عندهم ، لتنزهه ، جل شأنه ، عن ذلك ، ولو أراد مبتدع أن يدعو إلى هذه العقيدة فعليه أن يقيم عليها الدليل الموصل إلى اليقين ، إما بالمقدمات العقلية البرهانية أو بالأدلة السمعية المتواترة ، ولا يمكنه أن يتخذ حديثاً من حديث الآحاد دليلاً على العقيدة مهما قوي سنده ، فإن المعروف عند الأئمة قاطبة أن أحاديث الآحاد لا تفيد إلا الظن ﴿**وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً**﴾[4] . واللّه أعلم .

في ٢٧ جمادى الثانية١٣٢٢[5] محمد عبده

* * *

---

(١) الصافات : ١٨ .

(٢) يونس : ١٨ .

(٣) الفاتحة : ٤ .

(٤) النجم : ٢٨ .

(٥) هجرية سنة ١٩٠٤ م .

حوار

في التصوف والولاية(١)

الشيخ رشيد رضا : يقولون إن للأولياء ديواناً يجتمع فيه الأحياء والميتون ، فما أقروا عليه فهو الذي يقع في الكون ، وإننا نرى حوادث الكون في جملتها وتفصيلها منافية لمصلحة المسلمين حتى علت عليهم الملل كلها فاستولت على معظم بلادهم الدول المسيحية ، وسبقتهم في العزة والمكانة الشعوب الوثنية ، فإذا كان أولياء المسلمين وأنصار الدين هم المتصرفون في الأكوان لا يجري فيها إلا ما يجرونه ، ولا يستقر إلا ما يقرونه ، فما بالهم ينصرون الكافرين على المسلمين ، وكيف اعتز الإسلام بطائفة من سلفهم ثم هو يخذل الآن باتفاق الأحياء منهم والميتين ؟

الأستاذ الإمام : قد يقال إن الأولياء يرون أن المسلمين صاروا أبعد عن دينهم من سائر الأمم فهم ينتقمون منهم حتى يرجعوا إلى دينهم . والحق

(١) في يوليو سنة ١٩٠٤ م زار الأستاذ الإمام قرية «بهادة» بجهة «فم البحر» وشهد منزل عمدتها الشيخ عبد المؤمن موسى حواراً خصباً شارك فيه الأستاذ الإمام ، والشيخ رشيد رضا ، والشيخ محمد الدلاصي من المتصوفة ، ووالد العمدة «أبو زيد أفندي موسى» . وحضر هذا المجلس جمع من العلماء من بينهم شيخ الجامع الأزهر الشيخ علي الببلاوي ، والشيخ أبو الفضل الجيزاوي ، والشيخ سليمان العبد . . وكان غرض عمدة القرية أن يجري الحوار عن الصوفية والتصوف بين الأستاذ الإمام والشيخ محمد الدلاصي .

أن مسألة الديوان والتصرف الباطني عند الصوفية المتأخرين هي رمز إلى ما كان عليه سلفهم عندما كانت هذه الطائفة حية عاملة . ذلك أن الفقهاء كانوا يكفرون الصوفية وكان الحكام أنصاراً للفقهاء فكان جميع أمر الصوفية مبنياً على الكتمان فوضعوا الرموز لعقائدهم واصطلاحاتهم وأعمالهم وبالغوا في التستر كما هو شأن الجمعيات السرية العاملة وكان لهم اجتماع خفي يتباحثون فيه وينظرون في أمرهم وحمايتهم من أعدائهم وكل ما يتفقون عليه في الباطن ، يسعون بتنفيذه بوسائله في الظاهر ، فإذا اتفقوا على عزل حاكم أو قتل ظالم لا يكفون عن السعي حتى ينفذ ذلك . فهذا هو الديوان ، ومعنى كون ما يجري في الظاهر محكوماً به في الباطن . وكذلك كان شأن الباطنية (والصوفية فرقة منهم معتدلة) كما هو معلوم في التاريخ .

* * *

الشيخ محمد الدلاصي : الناس إمام ومأموم ، فالأول متبوع والثاني تابع لا يعدو حده . فأنا قد اتخذت **الشافعي** إماماً ، فإذا وجدت في مذهبه شيئاً ورأيت في كتاب اللّٰه شيئاً يناقضه أراني مرتاحاً للعمل بقول الشافعي دون قول اللّٰه تعالى . مثلاً : إن الشافعي يقول بحل الذبيحة بدون تسمية ولكن اللّٰه تعالى يقول : ﴿**ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم اللّٰه عليه**﴾[١] ، وأنا آكل مما لم يذكر اسم اللّٰه عليه . ألست معذوراً بذلك .

س ٢ : إن اللّٰه فضل بعض الناس على بعض في الرزق وغيره ، فإذا أعطى اللّٰه عبداً جنيهاً ألا يجوز لي أن أقول له اعطني ريالاً من الجنيه الذي أعطاك اللّٰه ؟ . . وقد علمنا من مشايخنا أن اللّٰه تعالى أعطى سيدي **أبا الحسن الشاذلي وأبا العباس المرسي** وفلاناً وفلاناً سراً لم يعطه لغيرهم ، فأي مانع من

(١) الأنعام : ١٢١ .

أن يطلب الإنسان منهم شيئاً من هذا السر الذي أعطاهم اللّه كما يطلب الريال من صاحب الجنيه ؟

الأستاذ الإمام : أما قولك الأول فهو خطأ كبير ، وفيه خطر عظيم ، فإن الذين أجازوا لك تقليد الإمام الشافعي أو غيره من الأئمة رضي اللّه عنهم يشترطون في ذلك أن لا تعرض لك شبهة في كتاب اللّه تعالى فترى أنك تعمل بنقيضه ، فإن عرضت لك الشبهة وجب عليك حالاً السعي في كشفها وإزالتها وإلا زال الإيمان ، فإن الشك في كتاب اللّه تعالى كفر صريح بإجماع المسلمين وكذلك نبذه وراء الظهر وتقديم غيره عليه . .

نعم إن الناس إمام ومأموم ، ولكن إمام هذه الأمة واحد وهو رسول اللّه ﷺ المعصوم ، وإنما العلماء ناقلون ومبينون عنه فمتى تعارض كلامهم مع ما جاء عنه رجعنا إليه كما أمرونا إلا أن يظهر لنا عدم التعارض والتناقض .

الشيخ الدلاصي : إنني لا أشك في كتاب اللّه ، ولكن أعلم أن إمامي قد اطلع على الآية وفهمها أحسن مما أفهمها ، ولذلك لا أراني مخالفاً لكتاب اللّه ولا شاكاً فيه .

الأستاذ الإمام : إن اللّه تعالى يحاسبك على ما تفهم وتعتقد لا على ما فهم الشافعي ، وأنت قلت الآن إنك ترى الآية مناقضة لقول الشافعي ، فترجيحك قول الشافعي حينئذ يقتضي أن يكون قول اللّه تعالى مرجوحاً ، فهو عندك دون المشكوك فيه حقيقة ، لأن الشك استواء الطرفين ، وترجيح أحدهما يقتضي بطلان الثاني ولو ظناً ، فإن كنت تقلد الشافعي وترى الآية موافقة لقوله فلا إشكال ولا محل للسؤال .

الشيخ الدلاصي : إن أبا حنيفة والشافعي يختلفان في الحكم ، ونتبع أحدهما ولا نرى في ذلك مخالفة للقرآن .

الأستاذ الإمام : إذا كان الخلاف بين أبي حنيفة والشافعي ، ولم يكن هناك قرآن

تقرأه وتفهم منه انه مؤيد لقول أحدهما فلا حرج عليك في الأخذ بقول من شئت منهما لأنك لم تنحرف عن كتاب اللّٰه تعالى ولم تلقه وراء ظهرك . وليس هذا من السؤال الأول في شيء ، لأن الترجيح هناك بين قول الشافعي وقول اللّٰه عز وجل الذي تراه يناقضه . على أن المثال هناك غير صحيح فإن الآية لا تناقض قول الشافعي ، إذ النهي فيها عن متروك التسمية مقيد بقوله تعالى ﴿**وإنه لفسق**﴾(١) . وقد فسروه بقوله تعالى في الآية الأخرى ﴿**أو فسقاً أهل لغير اللّٰه به**﴾(٢) . .

وأما الجواب عن السؤال الثاني فهو أننا نسلم أن اللّٰه تعالى فضل بعض الناس على بعض في الرزق والمواهب الظاهرة والباطنة ، ولكن فضل اللّٰه على عباده قسمان : قسم مكسوب يمكن بذله أو البذل منه ، وقسم ليس في استطاعة البشر بذله أو البذل منه كالإيمان والمعارف الوجدانية ، ومنها ما يسميه الصوفية بالأسرار ، فإنهم قالوا إنها أمور ذوقية لا يعرفها إلا من ذاقها ، فلا يصح أن تطلب ولا أن توهب(٣) . . .

إن الناس يسألون الأموات الذين يعتقدون فيهم الولاية ما قطعه اللّٰه عنهم من رزق الدنيا ومصالحها ، وما لا يبذل من ذلك بحسب الأسباب والسنن الإلهية وما يبذل ، فيطلبون منهم المال وزيادة الغلة ونماء الزرع وشفاء المرضى والانتقام من الأعداء وأمثال ذلك مما لو كان في أيديهم وصح لهم بذله كما

---

(١) الأنعام : ١٢١ .
(٢) الأنعام : ١٤٥ .
(٣) علق الشيخ رشيد رضا هنا بقوله : «اني لا أجزم بأن الأستاذ ساق التقسيم على هذه الصورة من التمثيل ، ولكنني أعلم أنه ذكر قسمين : منها ما يدخل في الكسب ويعاون فيه الناس بعضهم بعضاً ، كالمال ، ومنه ما ليس كذلك ، وقال : إنه لا يصح قياس أحدهما على الآخر ، فالمعنى واحد وان اختلف التمثيل أو جاء بزيادة كلمة أو نقص كلمة» . (المنار) المجلد السابع ص ٤٣٦ .

يبذل صاحب الجنيه ريالاً منه لكان لهم في أمر الآخرة التي هم في شاغل عنه .

الشيخ الدلاصي : إننا تلقينا عن مشايخنا كما تلقوا عن مشايخهم أن سيدي أبا **الحسن الشاذلي** وسيدي **أبا العباس المرسي** من أولياء اللّٰه تعالى ومن أصحاب السر والمدد وأن تلامذتهم ، في حياتهم ، وأتباعهم ، بعد مماتهم ، يتوسلون بهم إلى اللّٰه تعالى ويطلبون منهم المدد والسر ، كما نرى ذلك في كتبهم ككتب **ابن عطاء اللّٰه السكندري** وسيدي **مصطفى البكري** . . . . فهل تقول إن هؤلاء كانوا على ضلال أم كانوا مهتدين ؟

الأستاذ الإمام : هل جاء مثل هذا الذي تنقله عن هؤلاء الأولياء في كتاب اللّٰه تعالى ؟

الشيخ الدلاصي : لا . .

الأستاذ الإمام : هل جاء في سنة رسول اللّٰه ﷺ ؟

الشيخ الدلاصي : لا . .

الأستاذ الإمام : هل نقل مثله عن **أبي بكر وعمر وعثمان** وعلي وسائر الصحابة ؟

الشيخ الدلاصي : لا . .

الأستاذ الإمام : هل نقل عن التابعين والأئمة المجتهدين وقدماء الصوفية ؟

الشيخ الدلاصي : لا . .

الأستاذ الإمام : فخذ هؤلاء كلهم . . رسول اللّٰه ﷺ ، وأصحابه ، والتابعون ، والأئمة الأربعة ، وقدماء الصوفية **كالخراز والجنيد** رئيس الطائفة ، وسائر أهل القرنين الأول والثاني ، وضَعْهُم في كفة ميزان وضع في الكفة الأخرى من ذكرت من المشايخ المتأخرين واتبع الراجح .

الشيخ الدلاصي : ولكن . . هل نقول : إن **أبا الحسن الشاذلي وأبا العباس المرسي وياقوت العرش وابن عطاء السكندري ومصطفى البكري** كانوا

ضالين مخالفين لهدى اللّٰه ورسوله وأصحابه ؟ أم كانوا مهتدين ؟؟ . .

الأستاذ الإمام : إنك بعد بيان الحق تكرر هذا السؤال ، تتسقطني لأقول إن كل ما يخالف هدى السلف فهو ضلال ، فتخرج فتقول للعامة إن المفتي أو فلاناً يضلل كبار أولياء اللّٰه تعالى ، ولكنني لا أقول لك ذلك ، بل أقول : إن اللّٰه تعالى ما كلفك باتباع هؤلاء ، حتى لو مت ولم تعلم بوجودهم في الدنيا لما سألك اللّٰه تعالى يوم الحساب عنهم ، ولكن كلفك باتباع كتابه ونبيه وهدى أصحاب نبيه الذين أخذوا الدين عنه مباشرة وكانوا به خير العاملين ، فهل تقول : إنهم كانوا ضالين ؟! . . ثم إنني أقول لك : إنني أنا احترم أبا الحسن الشاذلي ، وأنا من أهل طريقته ، لم أسلك غيرها ، ولكن ليس كل ما ينسب إليه يصح عنه ، بل قال لي شيخي الذي سلكت عليه الطريقة : إن هذه الأحزاب المنسوبة لسيدي أبي الحسن لم تصح عنه . .

الشيخ الدلاصي : لكنها متواترة . .

الأستاذ الإمام : كيف . . وفريق من الشاذلية ينكرها ؟! . . . .

أولاً : إن الكتاب والسنة العملية منقولان بالتواتر القطعي ، وما عداهما من سيرة النبي وأصحابه وسلف الأمة منقول بأسانيد معروفة يمكن بها تمييز الصحيح من غيره . . وما نقل عن الشاذلي وغيره من الأولياء لا سند له يحتج به شرعاً؛ ، فإذا فرضنا أن كلامهم في مرتبة كلام اللّٰه ورسوله «ولا يقول بهذا مسلم» وجب ترجيح كلام اللّٰه ورسوله وكلام السلف على كلامهم ، لصحة النقل ، كما يرجح بين الحديثين . .

وكيف . . وقد أشتهر الكذب عليهم ودس الزيادات في كتبهم ، كما صرح بذلك الشعراني الذي كانوا يدسون عليه في حياته ويزيدون في كتبه ما يخالف الكتاب والسنة ولا تزال كتبه مملوءة بهذه الدسائس . . . ولو صح عنه كل ما نسب إليه لما كان مؤمناً بل ملبساً يريد إفساد عقائد المؤمنين[1] . . .

---

(١) عند هذا المكان من الحوار علق أحد الشيوخ العلماء بقوله : «إن في مصر نسخة من العهود بخط

ثانياً : إذا فرضنا أن النقل عنهم صحيح ، وانه لا دسائس فيما ينقل عنهم ، فإننا نرجح هدى الكتاب والسنة لعصمة كتاب اللّه وعصمة رسوله دون غيرهما . . على أن مبحثنا يتعلق بالعقائد والتوحيد ، وهي لا تؤخذ فيها بأحاديث الآحاد وإن صحت فكيف بما لا يصح من قول الناس . .

ثالثاً : إذا فرضنا أن هؤلاء الأولياء معصومون كالأنبياء ، ولم يقل بهذا مسلم . فالأولى لنا أن نؤول كلامهم ، حتى ينطبق على هدى الكتاب والسنة والسلف لأنه الأصل باتفاقهم وإقرارهم .

رابعاً : إذا فرضنا أن الكل في مرتبة واحدة وانه لا أصل ولا فرع ـ ولا يقول بهذا مسلم ـ فعلينا أن نعمل بالكتاب لأنه واضح مبين كما وصفه اللّه تعالى في مواضع منه ، وبالسنة لأنها بيضاء واضحة كما وصفها صاحبها ، وقال : ليلها كنهارها ، وبسيرة السلف ، لأنهم أعلم الناس بها . . وأما كلام الصوفية فقد صرحوا بأنه رموز واصطلاحات لا يعرفها إلا أهلها الذين سلكوا هذه الطريقة إلى نهايتها ، وصرحوا بأن من أخذ بظاهر أقوالهم ضل وهذا ظاهر فإن كتب **محيي الدين بن عربي** مملوءة بما يخالف عقائد الدين وأصوله ، وهذا كتاب «الإنسان الكامل» للشيخ **عبد الكريم الجيلي** هو في الظاهر أقرب إلى النصرانية منه إلى الإسلام ، ولكن هذا الظاهر غير مراد وإنما الكلام رموز لمقاصد يعرفها من عرف مفتاحها فإن كنت تدعي ذلك فإن لي معك كلاماً آخر وإلا حرم عليك أن تنظر في كلام القوم لئلا تفتن في دينك[(١)] . .

. . . إنني لما كنت رئيس المطبوعات أمرت بمنع طبع كتاب «الفتوحات المكية» وأمثالها ، لأن أمثال هذه الكتب لا يحل النظر فيها إلا لأهلها . .

* * *

أبو زيد أفندي موسى : إذا كنتُ أنا جاهلاً بما يجب عليّ للّه تعالى ، وعاصياً ، مقصراً فيما أعرفه من الواجب ، ألا ينبغي لي أن اطلب شيخاً

= الشعراني تنقص عن النسخة المطبوعة بنحو الثلث ، فلا شك أن كل هذه الأمور المنكرة شرعاً في كتب الشعراني من الدسائس عليه» . . فقال الأستاذ الإمام : «وهذا الذي يغلب على ظني ، وأنا أعتقد أن الطبقات والمنن ليستا من تأليفه بالمرة» .

(١) وخطاب الأستاذ الإمام هنا هو للشيخ الدلاصي . .

مرشداً أضع يدي في يده وأعاهده على السمع والطاعة ليدلني على اللّٰه ؟

الأستاذ الإمام : ينبغي لك أن تطلب المرشد ، وأنا أدلك على طريقة الطلب ، وهي أن تعمل أولاً بجد وإخلاص بما تعرفه من أمور الدين الظاهرة التي لا خلاف فيها حتى إذا استقمت على ذلك وظهرت لك أمور أخرى دقيقة يشتبه عليك الحق فيها فاطلب من هو أشد منك محافظة على العمل بما تَعلَّم واعلم منك بتلك الدقائق ليرشدك إلى مسلك الحق فيها بالشرط الآتي . . .

. . . اتعرف أن أكل أموال الناس بالباطل حرام ؟ . . وأن إيذاء الناس حرام . . . وأن التعاون على الشر حرام ؟ وأن الكذب والخيانة حرام . . . وان الصلاة والزكاة . . . . من الفرائض ؟ . . وأن الصدق والأمانة والتعاون على الخير ومواساة المحتاج من الفضائل المحمودة . . ؟؟ . .

أبو زيد أفندي موسى : نعم . . نعم . . ولا احتاج فيه إلى مرشد ولا أستاذ . .

الأستاذ الإمام : إذا عملت بهذا كله بإخلاص فأنا أضمن لك على فضل اللّٰه تعالى القبول والرضوان ، وأن يهديك إلى الدقائق وكشف الشبهات ، فإنه قال : ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن اللّٰه لمع المحسنين**﴾[1] . . وفي الحديث : «من عمل بما علم ورَّثه اللّٰه علم ما لم يعلم» . . وتستغني عن المرشد إذا لم تجده لقلته في هذا الزمن ، وإذا وجدت من تراه سابقاً لك في العلم والعمل وحسن الخلق وأردت أن تسترشد به فانظر وراء هذا شرطاً واحداً وهو أن لا يكون دين هذا الرجل دكانه ، أي أن لا يقبل منك جزاء على الإرشاد ، فإذا رأيته لا يمد يده للأخذ فأمدد إليه يدك وعاهده على الاسترشاد بعلمه وعرفانه ، وإذا

---

(١) العنكبوت : ٦٩ .

كان يمد يده للأخذ منك فلا تمدد يدك إلى يده إلا بالسكين فإنه لص قد اتخذ الدين حرفة واكتف بالعمل بما تعلم والله يهديك ويسددك .

* * *

التصوف والصوفية(١)

إنه لم يوجد في أمة من الأمم من يضاهي الصوفية في علم الأخلاق وبتربية النفوس . . وإنه بضعف هذه الطبقة وزوالها فقدنا الدين . . . وإن سبب ما ألم بهم تحامل الفقهاء عليهم ، وأخذ الأمر بقول الفقهاء فيهم ، فأولئك يُكفرون ، وهؤلاء يعذبون ويقتلون ، حتى إنه قتل في هذا البلد (القاهرة) في يوم واحد خمسمائة صوفي . . . وأن هذا «هو» سبب ظهورهم بغير مظهر طائفتهم ، إن ظهروا ، ولجوئهم إلى الاختفاء ، وكلامهم في الطريقة وما يحصل لهم من الذوق والوجدان بالرمز والإشارة . .

ثم قام أناس يقلدونهم فيما كان يظهر منهم مما كانوا مضطرين إلى الظهور به ، وهو ليس من التصوف ، ولم يعرفوا من أمورهم الصحيحة إلا قليلاً . وهكذا كان البعد عن التصوف رويداً حتى انقرضت هذه الطبقة انقراضاً تاماً إلا ما لا نعلم .

وإن الفقهاء لبعدهم عن التصوف «الذي هو الدين» جهلوا سياسة وقتهم وحاله ، ولجهلهم بالسياسة لم يعرفوا كيف يمكن تنفيذ الأحكام الشرعية . . . إذا عرفوا أن الحكم كذا ، لا يعرفون كيف يجعلون الأمراء والحكام يلتزمون هذا الحكم وينفذونه ، ولهذا ضاع الدين والسياسة .

---

(١) هذا الحديث للأستاذ الإمام مستخلص من حوار دار بينه وبين الشيخ رشيد رضا يوم الخميس ٦ شعبان سنة ١٣١٥ هـ سنة ١٨٩٨ م .

احتقرهم الأمراء والسلاطين في أنفسهم ، واستخدموهم لأغراضهم التي تؤيد سلطتهم ونفوذهم ، وحملوهم على الفتوى بما يؤيد رغائبهم ، ولا يوافق الشرع ، فدققوا النظر واستنبطوا لهم ما يطلبون ، وأفتوهم بما يشاؤون . وقررت فتاويهم في كتب الفقه على أنها أحكام شرعية «أي أن هذا هو حكم اللّه في هذه المسألة» . . .

نعم . . . صدر عن «الصوفية» كلام ما كان ينبغي أن يظهر ولا أن يكتب ، ومنه ما يوهم «الحلول»(١) ، ولو كنت سلطاناً لضربت عنق من يقول به ، وأنا لا انكر أن لهم أذواقاً خاصة وعلماً وجدانياً ، بل ربما حصل في شيء من ذلك وقتاً ما ، لكن هذا خاص بمن يحصل له لا يصح أن ينقله لغيره بالعبارة ولا أن يكتبه ويدونه علماً .

إن هذا «الذوق»(٢) يحصل للإنسان في حالة غير طبيعية ، ولكونه خروجاً عن الحالة الطبيعية لا ينبغي أن يخاطب به المتقيد بالنواميس الطبيعية .

كل ما أنا فيه من نعمة في ديني ، أحمد اللّه تعالى ، فسببها التصوف .

كان غرض صوفية المسلمين تربية المريدين بالعلم والعمل الذي غايته أن يكون الدين وجداناً في أنفسهم تصدر عنه الأعمال الصالحة ، ولا تؤثر فيه الشبهات العارضة .

* * *

إذا يئست من إصلاح الأزهر فإنني انتقي عشرة من طلبة العلم وأجعل لهم مكاناً عندي في عين شمس أربيهم فيه تربية صوفية ، مع إكمال تعليمهم ، واستعين بك(٣) على ذلك ليكونوا خلفاً لي في خدمة الإسلام . ذلك اني لا أيأس من الإصلاح الإسلامي ، بل أترك الحكومة ، ثم أؤلف كتاباً في بيان حقيقة الأزهر ، أمثل فيه أخلاق أهله وعقولهم ومبلغ علومهم وتأثيرهم في الوجود ، وأنشره باللغة العربية ولغة أفرنجية حتى يعلم المسلمون وغيرهم حقيقة هذا المكان التي يجهلها الناس حتى من أهله . إن

---

(١) هو الاعتقاد بحلول الذات الإلهية في موجود من مخلوقاته ، وظهوره في صورته ، ويكون الحلول في كل أو في بعض أجزاء ذلك المخلوق .

(٢) قوة حاكمة على القيم الجمالية ، يجعل منها الصوفية بديلاً للعقل ، تحكم عندهم فيما لا يستطيع العقل بلوغ كنهه من عالم الإلهيات .

(٣) الخطاب موجه للشيخ رشيد رضا .

بقاء الأزهر متداعياً على حاله في هذا العصر محـال ، فهو إمـا أن يعمر وإمـا أن يتم خرابه .

* * *

زيارة الأضرحة

إن أحد وجهاء المصريين كان عندي في أثناء مولد السيدة زينب من هذا الشهر «رجب» مع جماعة آخرين ، فقام الوجيه وقال : إنه ذاهب لزيارة السيدة . . . فقلت له : لم خصصت الزيارة بهذا اليوم ؟ فقال : لأنه يوم المولد ، وأن هذه الليلة هي الليلة الكبيرة . فقلت : ما هذا المولد ؟! أنا لا أفهم معنى لهذا اللفظ ، هل يوم المولد أو الليلة الكبيرة من لياليه عبارة عن ليلة تخرج السيدة فيها للقاء الزائرين ؟! . . ونهيته عن الذهاب ، فلم ينته ، وهم بالخروج ، فقلت له : إنني لست مازحاً ، وإنما أتكلم بالجد ، وأقول : إن هذا العمل من أعمال الوثنيين ، وإن الإسلام يأباه . كل آيات القرآن في التوحيد تنهي عن هذا وتذمه . إن الفاتحة التي تقرأونها كل يوم في صلاتكم مراراً تنهاكم عن هذا العمل . تخاطبون اللّٰه تعالى فيها بقوله : «إياك نعبد وإياك نستعين» كذباً ، فإنكم تستعينون بغيره ، وتعبدون غيره ، ثم إن عملكم هذا متناقض حيث تهدون الفاتحة إلى من تزورونه ، إذ معناه أنه محتاج إليكم وينتفع بفاتحتكم ، ثم تطلبون منه قضاء حوائجكم . . إلخ . .

* * *

حوار بين البابية والبهائية

بين الأستاذ الإمام والشيخ رشيد رضا

الشيخ رشيد : ما رأيكم في البابية ؟

الأستاذ الإمام : إن هذه الطائفة هي الطائفة الوحيدة التي تجتهد في تحصيل العلوم والفنون بين المسلمين ، وفيها العلماء والعقلاء ، ولا أعلم حقيقة مذهبهم ، ولا أدري هل ما يقال عنهم من الحلول ونحوه صحيحاً أم لا ؟ بل استغربه جداً .

الشيخ رشيد : . . . وماذا تعرفون عن ميرزا فضل اللّه الإيراني(١) ؟

الأستاذ الإمام : سمعت به منذ عهد قريب ، وأنه مؤرخ وفاضل ، ولم أره .

الشيخ رشيد : وماذا عن **عباس أفندي** ؟ . . (٢) اسمع انه بارع في العلم والسياسة ، وانه عاقل يرضي كل مُجالس ! !

الأستاذ الإمام : نعم . . إن عباس أفندي فوق هذا إنه رجل كبير ، هو الرجل الذي يصح إطلاق هذا اللقب ـ (كبير) ـ عليه .

---

(١) هو ميرزا أبو الفضال الجوزقاني ، إيراني الأصل ، أقام بعكا زمن الحكم العثماني ، وألف في الدعوة إلى البهائية .

(٢) هو نجل «البهاء» ومنظم الدعوة البهائية ، أقام علاقات بالأستاذ الإمام عندما كان ببيروت وكان من حضور مجالسه ودروسه ، وظل يراسله بعد عودته إلى مصر .

الشيخ رشيد : إنني اجتمعت بميرزا فضل الله مراراً ، وناظرته ، فالفيته يستدل على صحة تعاليمه بثباتها هذه المدة ، وانتشارها ونموها ، ويحتج بآيات من القرآن على انه لا يدوم ولا يثبت إلا الحق ، كقوله : ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾[1] ، وقوله : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾[2] . . إلخ . .

الأستاذ الإمام : وأنا أقول إنه لا يثبت ويدوم إلا الحق والخير ، وإن الشر والباطل لا يدومان وإن انتشرا ونميا ، ولكن دعوة القوم لم يطل عليها الأمد بحيث يصح الاحتجاج بهذا . . . لا أقول : إن كل ثابت حق وخير ، وإنما كلامي في الشيء الذي له حياة ونمو معنويان ، فإن من الأشياء المعنوية ما هو ثابت كثبات الحجر الذي تلقيه في مكان ولا يحركه احد ، أو كالجبل ونحوه مما يكون ثبوته بالاستمرار لعدم المحرك ، لا بقوة حيوية تمسكه أن يزول .

وأما ما له حياة كالدعوة إلى دين أو مذهب فلا يثبت ويدوم إلا إذا كانت الدعوة حقاً في نفسها ، وإن احتف بها في بعض أطوارها شيء من الباطل فهو عرض لا يمنع دوامها وبقاءها ، بخلاف الدعوة الباطلة من أساسها ، ولهذا لم تثبت دعوى أحد من الذين أدعوا النبوة بعد نبينا ﷺ لأنه خاتم النبيين ،وكونه خاتم النبيين لو لم يرد في القرآن لكانت طبيعة الوجود دالة عليه بمجرد النظر إلى خطاب القرآن وتعاليمه . . .

إن مثل النوع الإنساني كله كمثل شخص منه يخاطبه أبوه ومربيه في كل طور من أطوار عمره بما يناسب درجة عقله ، وحاجة سنه ، وكذلك عامل الله النوع الإنساني ، فخاطب قوم كل رسول بحسب درجة عقولهم وحالتهم الاجتماعية في زمانهم ، وكلما ارتقى البشر جعل الله التشريع لهم أرقى حتى

---

(١) الإسراء : ٨١ .

(٢) الرعد : ١٤ .

ختمه ببعثة خاتم النبيين ﷺ الذي هو دين سن الرشد لنوع الإنسان[3] .

الشيخ رشيد : إن أتباع الباب والبهاء قد فتنوا لما رأوا من القوة العقلية الخارقة للعادة . . . مع أن هذا أمر طبيعي ، فإنه قد عهد في الطبيعة أن أفراداً من الناس تكون قوتهم العقلية خارقة للعادة . . .

الأستاذ الإمام : أنا أعتقد ان صاحب القوة العقلية الخارقة للعادة إذا دعا إلى شيء خيري ، ونجح فيه ، فلا بد أن يكون مؤيداً بروح من اللّه تعالى ، وأن هذه القوة العقلية لا يوجدها اللّه تعالى عبثاً .

الشيخ رشيد : هل تعتقد هذا عن وجدان فقط ، أم عن دليل عقلي ؟

الأستاذ الإمام : بل هو معقول ، والتاريخ من أوله إلى آخره شاهد له ودال عليه ، فإن الأنبياء ودعاة المذاهب الصحيحة كانوا كلهم من هذا القبيل .

الشيخ رشيد : إن كلامكم السابق واللاحق عين ما يحتج به البابية ولم يخالفوهم إلا في شيء واحد (هو كل شيء في المعنى) وهو أنكم حققتم أنه لا يمكن تغيير شيء من أصول الإسلام وشريعته لأنها هي التي خاطب بها اللّه النوع الإنساني عند بلوغه سن الرشد وطور الكمال العقلي . . . والذي يفهم من كلام هؤلاء هو ان «بهاء اللّه» إما أن يكون مجدداً في الشريعة الإسلامية وإما أن يكون آتياً بشريعة جديدة ، وأن لكل وجهاً يحتجون له بالقرآن والأحاديث ، وإن قولهم باحتمال أن يكون مجدداً هو الدرجة الأولى في دعوة المسلمين إلى دينهم فإذا قبلها المدعو نقلوه إلى الثانية . . . ويقولون إن غرضهم توحيد الأديان . . . وان كتاب

---

(١) للأستاذ الإمام في هذا المعنى قوله عن المذاهب والأديان القديمة الباطلة : «إن أصول تلك الأديان والمذاهب حق ، ثم طرأ عليها الباطل ، فبعضها ثابت بما فيه من الحق ، وبعضها بما وضع له من النظام الموافق لسنن الكون والاجتماع ، فالنظام حق ، وهو ثابت باق بذاته وما في الجمعية أو المذهب من الباطل تابع له باق به ، مع عدم معارضة أهل الحق لما فيه من الباطل» .

كل أمة فيه بيان لكل ما يطرأ على تلك الأمة ، وان الأنجيل فيه بيان لحالة أوروبا الآن ، وان الأوروبيين سيمحقون محقاً . . . واستدل ميرزا فضل الله بما في الإصحاح الثاني من رسالة بطرس الثانية من ظهور معلمين كذبة يبثون بدع هلاك ، ويجلبون على أنفسهم هلاكاً سريعاً ، واعدين إياهم بالحرية وهم عبيد الفساد . . إلخ . . .

الأستاذ الإمام : لو كان بطرس يعلم ما سيطرأ على المسيحية وأخبر به لأخبر عما هو أهم من ظهور البروتستنتية ومن كل شيء طرأ عليها ، وهو انقلابها وتحولها إلى وثنية ، فإن النصرانية انقلبت إلى الوثنية من عهد قسطنطين بعد المسيح بثلاثة قرون ، فقسطنطين كان ملكاً وثنياً وادعى التدين بالنصرانية سياسة لأجل الاستعانة بمنتحليها على خصمه . . ونجح في ذلك . . . إن لفظ الحرية في رسالة بطرس ليس بالمعنى المعروف الآن . . .

الشيخ رشيد : إن ميرزا فضل الله يتحدث عن الحاجة إلى شريعة جديدة ، وقد سلك في التعبير عنها طريق الإبهام ، كقوله : إن فهمها يتوقف على فهم معنى «القيامة وطي سماوات الأديان» ، فالسماوات عندهم هي الأديان ، والسبع منها هي : البرهمية ، والبوذية ، والكنفشيوسية ، والزردشتية ، واليهودية ، والنصرانية ، والإسلام . . .

الأستاذ الإمام : أي حاجة إلى هذا البعد عن الحق والصواب ، وإلى هذا الكلام الذي لا يعقل ؟! أنا لم أفهم من عباس أفندي شيئاً من هذا ، وإنما صرح لي أن قيامهم لإصلاح مذهب الشيعة وتقريبه إلى مذهب أهل السنة . وفي الحقيقة إن مذهب الشيعة . . . .(١)

---

(١) يقول الشيخ رشيد إن الإمام زكر في نقد الشيعة «ما لم يأذن بنقله عنه في حياته ، وأرى الحكمة في ترك التصريح به بعد وفاته ، وإنما أقول : إن حكمه عليهم أشد من حكم شيخ الإسلام ابن تيمية» .

هم أحوج الفرق إلى الإصلاح ، ولكن من الأسف العظيم أن لا يقوم فينا مصلحون إلا ويخرجون عن الاعتدال إلى مبالغة وغلو لا تنجح معه الدعوة . . .

الوهابية قاموا للإصلاح ، ومذهبهم حسن ، لولا الغلو والإفراط ، أي حاجة إلى قولهم بهدم قبة النبي ﷺ ؟! والقول بكفر جميع المسلمين ؟! والعمل على إخضاعهم بالسيف أو إبادتهم ؟! نعم . . لا بأس بالمبالغة في القول والخطابة لأجل التأثير بالترغيب أو الترهيب والتنفير ، ولكن ما كل ما يقال يكتب ويبنى عليه عمل . . إنني كثيراً ما اتكلم بكلام في مجلس المذاكرة والخطابة لا أحب أن يكتب وينقل عني ، وإنما فائدته التأثير في نفس المخاطب . . .

ماذا تنكر من رسالة ميرزا فضل[1] ؟

الشيخ رشيد : . . أولاً مسألة تعدد الزوجات ، والتسري ، وأن شريعة البهاء تبيح الجمع بين امرأتين فقط . .

الأستاذ الإمام : (إن هناك مفاسد كثيرة للتعدد والتسري) ولقد خرج المسلمون بهما عن هداية الشرع إلى الإسراف في استفراغ الشهوة بدون ملاحظة الغرض الديني ، وهذه العادة نشأت في زمن العباسيين ، وامتدت إلى هذا العصر ، حتى انك تجد عند سلطان الأتراك وغيره المئات من هؤلاء السراري ، وقد ترتب على ذلك مفاسد كان لها الأثر الكبير في ضعف الأمة وسقوطها إلى الدرك التي هي فيها . دع ما فيها من بيع المسلمات من الجركس والسودان بدون أدنى شبهة شرعية . . . إلى ما في التعدد من فساد البيوت بانتقال التعادي من الزوجتين أو

---

(١) وكان الشيخ رشيد قد أعطى الأستاذ الإمام رسالة بخط ميرزا فضل الله فيها بيان مذهبهم ، فقرأها الإمام واستحسنها .

الزوجات إلى أولادهن فيتعذر معها تهذيبهم . . . أما السلاطين والأمراء فإذا كان في قصر أحدهم هذا العدد الكثير من النساء فمتى يصفو فكره للإصلاح والنظر في شؤون الأمة ؟!

الشيخ رشيد : إن **البهائية** يقولون بصحة جميع الأديان والكتب الدينيـة . . . ويدعون جميع أهل الملل إلى دينهم لتوحيد كلمة البشرية . . .

الأستاذ الإمام : إن التقريب بين الأديان مما جاء به الدين الإسلامي . . . **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾**[1] الآية .

---

(١) آل عمران : ٦٤ .

المنطق والشجاعة اودبية[1]

سعادة الناس في دنياهم وأخراهم بالكسب والعمل ، فإن اللّٰه خلق الإنسان وناط جميع مصالحه ومنافعه بعمله وكسبه ، والذين حَصَّلوا سعادتهم بدون كسب ولا سعي هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وحدهم لا يشاركهم في هذا أحد من البشر مطلقاً ، والكسب مهما تعددت وجوهه فإنها ترجع إلى كسب العلم ، لأن أعمال الإنسان إنما تصدر عن إرادته وإرادته إنما تنبعث عن آرائه ، وآراؤه هي نتائج علمه . فالعلم مصدر الأعمال كلها دنيوية وأخروية ، فكما لا يسعد الناس في الدنيا إلا بأعمالهم كذلك لا يسعدون في الآخرة إلا بأعمالهم ، وحيث كان للعمل هذا الشأن فلا شك أن الخطأ فيه خطأ في طريق السير إلى السعادة ، عائق أو مانع من الوصول إليها ، فلا جرم أن الناس في أشد الحاجة إلى ما يحفظ من هذا الخطأ ، ويسير بالعلم في طريقه القويم ، حتى يصل السائل إلى الغاية . وهذا هو المنطق المسمى بالميزان والمعيار ، والذي يضبط الفكر ويعصم الذهن عن الخطأ فيه ، ولهذا كانت العناية به من أهم ما يتوجه إليه طلاب السعادة .

اعتنى العلماء في كل أمة بضبط اللسان وحفظه من الخطأ في الكلام ، ووضعوا لذلك علوماً كثيرة ، وما كان للسان هذا الشأن إلا لأنه مجْلى للفكر وترجمان له ، وآلة

---

(١) تلخيص للدرس الذي ختم به الأستاذ الإمام دروس المنطق التي ألقاها على طلابه بالأزهر سنة ١٣١٨ هـ . سنة ١٩٠٠ م .

لإيصال معارفه من ذهن إلى آخر ، فأجدر بهم أن تكون عنايتهم بضبط الفكر أعظم ، كما ان اللفظ مجلى الفكر هو غطاؤه أيضاً ، فإن الإنسان لا يقدر على إخفاء أفكاره إلا بحجاب الكلام الكاذب ، حتى قال بعضهم إن اللفظ لم يوجد إلا ليخفي الفكر .

إنما ينتفع بالميزان الذي هو علم الفكر من كان له فكر ، والفكر إنما يكون فكراً له وجود صحيح إذا كان مطلقاً مستقلاً يجري في مجراه الذي وضعه اللّه تعالى عليه إلى أن يصل إلى غايته ، وأما الفكر المقيد بالعادات المستعبد بالتقليد ، فهو المرذول الذي لا شأن له ، وكأنه لا وجود له .

وقد جاء الإسلام ليعتق الأفكار من رقها ويحلها من عقالها ، ويخرجها من ذل الأسر والعبودية ، فنرى القرآن ناعياً على المقلدين ، ذاكراً لهم بأسوأ ما يذكر به المجرم ، ولذلك بني على اليقين الذي علمتم معناه موضحاً في درس سابق .

لا ينبغي للإنسان أن يذل فكره لشيء سوى الحق ، والذليل للحق عزيز . نعم يجب على كل طالب علم أن يسترشد بمن تقدمه سواء أكانوا أحياء أم أمواتاً ، ولكن عليه أن يستعمل فكره فيما يؤثر عنهم ، فإن وجده صحيحاً أخذ به ، وان وجده فاسداً تركه . وحينئذ يكون ممن قال اللّه تعالى فيهم ﴿**فبَشرْ عِبَادِيَ الذين يَسْتمعون القوْل فيتبعون أحْسَنَه أولئك الذين هَداهُمُ اللّهُ وأولئك هُمُ أولـوا الألباب**﴾[1] وإلا فهو كالحيوان ، والكلام كاللجام له أو الزمام ، يمنع به من كل ما يريد صاحب الكلام منعه منه ، ويقاد إلى حيث يشاء ذلك المتكلم أن يقاد إليه من غير عقل ولا فهم .

ما الذي يعتق الأفكار من رقها ، وينزع عنها السلاسل والأغلال لتكون حرة مطلقة ؟ الجواب عن هذا السؤال يحتاج إلى شرح طويل لأن تخليص الأفكار من الرق والعبودية من أصعب الأمور ، ويمكن أن نقول فيه كلمة جامعة يرجع إليها كل ما يقال وهي : «الشجاعة» .

الشجاع هو الذي لا يخاف في الحق لومة لائم ، فمتى لاح له يصرح به ويجاهر بنصرته وان خالف في ذلك الأولين والأخرين ، ومن الناس من يلوح له نور الحق فيبقى متمسكاً بما عليه الناس ، ويجتهد في إطفاء نور الفطرة ، ولكن ضميره لا يستريح فهو يوبخه إذا خلا بنفسه ولو في فراشه .

---

(١) الزمر : ١٧ .

لا يرجع عن الحق أو يكتم الحق لأجل الناس ، إلا الذي لم يأخذ إلا بما قال الناس ، ولا يمكن أن يأتي هذا من موقن يعرف الحق معرفة صحيحة .

إن استعمال الفكر والبصيرة في الدين يحتاج إلى الشجاعة وقوة الجنان ، وأن يكون طالب الحق صابراً ثابتاً لا تزعزعه المخاوف ، فإن فكر الإنسان لا يستعبده إلا الخوف من لوم الناس واحتقارهم له إذا هو خالفهم ، أو الخوف من الضلال إذا هو بحث بنفسه ، وإذا كان لا بصيرة له ولا فهم فما يدريه لعل الذي هو فيه هو عين الضلال . إذن «ان الخوف من الضلال هو عين الضلال» فعلى طالب الحق أن يتشجع حتى يكون شجاعاً ، والله تعالى قد هيأ الهداية لكل شجاع في هذه السبيل ولم نسمع بشجاع في فكره ، ضل ولم يظفر بمطلوبه .

وههنا شيء يحسبه بعضهم شجاعة وما هو بشجاعة وإنما هو وقاحة ، وذلك كالاستهزاء بالحق ، وعدم المبالاة بالمحق ، فترى صاحب هذه الخلة يخوض في الأئمة ، يعرض بتنقيص أكابر العلماء غروراً وحماقة ، والسبب في ذلك انه ليس عنده من صبر واحتمال وقوة الفكر ما يسبر به أغوار كلامهم ، ويمحص به حججهم وبراهينهم ، ليقبل ما يقبل عن بَيِّنة ، ويترك ما يترك عن بَيِّنة . وهذا لا شك أجبن من المقلد ، لأن المقلد تحمل ثقل التقليد على ما فيه ، وربما تنبع في عقله خواطر ترشده إلى البصيرة ، أو تلمع في ذهنه بوارق من الاستدلال لو مشى في نورها لاهتدى وخرج من الحيرة ، وأما المستهزىء فهو أقل احتمالاً من المقلد ، فإن الهوس الذي (يتلبس) لفكره إنما يأتيه من عدم صبره وثباته على الأمور وعدم التأمل فيها .

والحاصل ان الفكر الصحيح يوجد بالشجاعة والشجاعة ههنا «وهي التي يسميها بعض الكتاب العصريين الشجاعة الأدبية» قسمان : شجاعة في رفع القيد الذي هو التقليد الأعمى ، وشجاعة في وضع القيد الذي هو الميزان الصحيح الذي لا ينبغي أن يقرر رأي ولا فكر إلا بعد ما يوزن به ويظهر رجحانه ، وبهذا يكون الإنسان حراً خالصاً من رق الأغيار عبداً للحق وحده .

وهذه الطريقة ، طريقة معرفة الشيء بدليله وبرهانه جاءتنا من علم المنطق ، وإنما هي طريقة القرآن الكريم ما قرر شيئاً إلا واستدل عليه وأرشد متبعية إلى الاستدلال ، وإنما المنطق آلة لضبط الاستدلال ، كما أن النحو آلة لضبط الألفاظ في الأعراب والبناء

كما قلنا . ولا يمكن أن ينتفع أحد بالمنطق ولا بغيره من العلوم مهما قرأها وراجعها إلا إذا عمل بها وراعى أحكامها حيث ينبغي أن تراعى ، فالذي يحفظ العلم حفظاً حقيقياً هو العمل به وإلا فهو منسي لا محالة .

وإننا نرى «المجاور» يقضي السنين الطويلة في الأزهر يدارس العلوم العربية ولا ينتفع بها بتحصيل ملكة العربية قولاً وكتابة وإنما ذلك لعدم الاستعمال . فأنصح لكل من يسمع كلامي أن يستعمل ما يحصله من العلم ، وأن يحصل لنفسه ملكة الشجاعة ، وبدون هذا لا ينتفع بعلم ولا عمل ، ويكون الاشتغال بالدروس في حقه من اللغو المنهي عنه المذموم صاحبه شرعاً ، بل يقضي حياته كسائر الحيوانات العجم ، وربما كان أتعس منها .

وأحب أن يكون كل منكم إنساناً كاملاً ، والإنسان يطلب الجميل النافع لأنه حسن في نفسه ، لا لأن غيره يطلبه ، فلو كفر كل الناس لوجب عليه أن يكون أول المؤمنين ، وهذا هو الإسلام الصحيح .

* * *

فهرس تفصيلي للموضوعات

صفحة